
صحيح
تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى

1427هـ - 2006م

رقم الإيداع : 2006/13379
الترقيم الدولي : 977-390-088-0
I. S.B.N

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع دار الفوائد

المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس 002057441550 جوال : 0122368002
فرع المنصورة : 33 شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : 0020502312068

صحيح

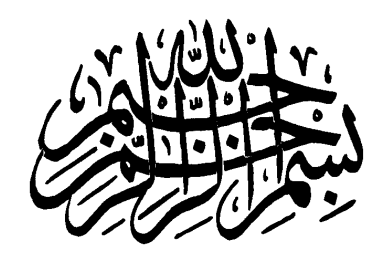
تفسير ابن كثير

اختصره وخرج أحاديثه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

الجزء الثالث

دار ابن رجب


بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الكهف
وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال

عَنِ الْبَرَاءِ(١) قَالَ : قَرَأَ رَجُلٌ الْكَهْفَ وَفِي الدَّارِ دَابَّةٌ ، فَجَعَلَتْ تَنْفِرُ ، فَنَظَرَ فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَوْ سَحَابَةٌ قَدْ غَشِيَتْهُ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « **اقْرَأْ فُلَانُ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ الْقُرْآنِ أَوْ تَنَزَّلَتْ عِنْدَ الْقُرْآنِ** » ، أَوْ « **تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ** » وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَتْلُوهَا هُوَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ** »(٢) وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَيْضًا ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ** »(٣) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ(٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ أَنَّهُ تَعَالَى يَحْمَدُ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ عِنْدَ فَوَاتِحِ الْأُمُورِ وَخَوَاتِمِهَا ،

---

(١) البخاري (حديث ٣٦١٤) ، ومسلم (٧٩٥) .
(٢) مسلم (مع النووي (٨٠٩) .
(٣) هي في بعض الطرق عند مسلم ، والأولى أولى ، والله أعلم .
(٤) صحيح موقوفًا .

فَإِنَّهُ المَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَلَهُ الحَمْـدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ ، وَلِهَـذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى إِنْزَالِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ – صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – فَإِنَّهُ أَعْظَمُ نِعْمَة أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، إِذْ أَخْرَجَهُمْ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، حَيْثُ جَعَلَهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا زَيْغَ ، بَلْ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ أَيْ : لَمْ يَجْعَلْ فِيهِ اعْوِجَاجًا وَلَا زَيْغًا وَلَا مَيْلًا ، بَلْ جَعَلَهُ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ قَيِّمًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقِيمًا ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أَيْ : لِمَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ، يُنْذِرُهُ ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ عُقُوبَةً عَاجِلَةً فِي الدُّنْيَا ، وَآجِلَةً فِي الآخِرَةِ ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ الله الَّذِي لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ، وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْقُرْآنِ ، الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : مَثُوبَةً عِنْدَ الله جَمِيلَةً ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ فِي ثَوَابِهِمْ عِنْدَ الله – وَهُوَ الجَنَّةُ – خَالِدِينَ فِيهِ ﴿ أَبَدًا ﴾ دَائِمًا لَا زَوَالَ لَهُ وَلَا انْقِضَاءَ ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ **قَالَ ابْنُ إِسْحَاق** : وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي قَوْلِهِمْ : نَحْنُ نَعْبُدُ المَلَائِكَةَ وَهُمْ بَنَاتُ الله . ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أَيْ : بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي افْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ مِنْ عِلْمٍ ﴿ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾ أَيْ : لِأَسْلَافِهِمْ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيزِ ، تَقْدِيرُهُ : كَبُرَتْ كَلِمَتُهُمْ هَذِهِ كَلِمَة . وَهَذَا تَبْشِيعٌ لِمَقَالَتِهِمْ وَاسْتِعْظَامٌ لِإِفْكِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ سِوَى قَوْلِهِمْ ، وَلَا دَلِيل لَهُمْ عَلَيْهَا إِلَّا كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ – صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – فِي حُزْنِهِ عَلَى المُشْرِكِينَ

لِتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ وَبُعْدِهِمْ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر : ٨٨] ، وَقَالَ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] بَاخِعٌ ، أَيْ : مُهْلِكٌ نَفْسَكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ أَسَفًا ﴾ يَقُول : لَا تُهْلِكْ نَفْسَكَ أَسَفًا . **قِيلَ الْمَعْنَى** : قَاتِلٌ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ ، **وَقِيلَ** : جَزَعًا ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ أَيْ : لَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ ؛ بَلْ أَبْلِغْهُمْ رِسَالَةَ الله ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٌ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارًا فَانِيَةً مُزَيَّنَةً بِزِينَةٍ زَائِلَةٍ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا دَارَ اخْتِبَارٍ لَا دَارَ قَرَارٍ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ** »(١) ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِزَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَفَرَاغِهَا وَانْقِضَائِهَا وَذَهَابِهَا وَخَرَابِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أَيْ : وَإِنَّا لَمُصَيِّرُوهَا بَعْدَ الزِّينَةِ إِلَى الْخَرَابِ وَالدَّمَارِ ، فَنَجْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهَا هَالِكًا ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ لَا يُنْبِتُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، **وَقِيلَ** : الصَّعِيدُ : الْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا نَبَاتٌ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يَعْنِي : الْأَرْضَ ، وَأَنَّ مَا عَلَيْهَا لَفَانٍ وَبَائِد ، وَأَنَّ الْمَرْجِعَ لَإِلَى الله ، فَلَا تَأْسَ وَلَا يَحْزُنْكَ مَا تَسْمَعُ وَتَرَى .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ الله تَعَالَى عَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالِاخْتِصَارِ ، ثُمَّ بَسَطَهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يَعْنِي : يَا مُحَمَّدُ ﴿ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَمْرُهُمْ عَجِيبًا فِي قُدْرَتِنَا وَسُلْطَانِنَا ، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَةِ الله تَعَالَى ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَعْجَبُ مِنْ أَخْبَارِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ . **وَقِيلَ أَيْضًا** : الَّذِي آتَيْتُكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ وَالْكِتَابِ أَفْضَلُ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ .

وَأَمَّا الْكَهْفُ فَهُوَ : الْغَارُ فِي الْجَبَلِ ، وَهُوَ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ الْمَذْكُورُونَ ، وَأَمَّا الرَّقِيمُ **فَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَقْوَالًا مِنْهَا** : وَادٍ قَرِيبٌ مِنْ أَيْلَةَ ، وَالرَّقِيمُ : اِسْمُ الْوَادِي ، **وَمِنْهَا** : هُوَ الْوَادِي الَّذِي فِيهِ كَهْفُهُمْ . ، **ومنها** : الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ الْكَهْفُ ، **وَمِنْهَا** : أَنَّ الرَّقِيمَ : الْكِتَابُ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ ، وَهُوَ اِخْتِيَارُ اِبْنِ جَرِيرٍ ، قَالَ : الرَّقِيمُ : فَعِيلٌ بِمَعْنَى : مَرْقُومٌ كَمَا يَقُولُ لِلْمَقْتُولِ : قَتِيلٌ وَلِلْمَجْرُوحِ : جَرِيحٌ - وَاللهُ أَعْلَمُ -.

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أُولَئِكَ الْفِتْيَةِ الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ لِئَلَّا يَفْتِنُوهُمْ عَنْهُ ، فَهَرَبُوا مِنْهُ فَلَجَئُوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا سَائِلِينَ مِنَ الله تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أَيْ : هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً تَرْحَمُنَا بِهَا وَتَسْتُرُنَا عَنْ قَوْمِنَا ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أَيْ : وَقَدِّرْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا هَذَا رَشَدًا ، أَيْ : اِجْعَلْ عَاقِبَتَنَا رُشْدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أَيْ : أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حِين دَخَلُوا إِلَى الْكَهْفِ ، فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَةً ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ رَقْدَتِهِمْ تِلْكَ ، وَخَرَجَ أَحَدُهُمْ بِدَرَاهِمَ مَعَهُ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا طَعَامًا يَأْكُلُونَهُ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ أَيْ : الْمُخْتَلِفَيْنِ فِيهِمْ ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ **قِيلَ** : عَدَدًا ، **وَقِيلَ** : غَايَةً ، فَإِنَّ الْأَمَدَ : الْغَايَةَ .

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى
١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن
نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى
ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ فِي بَسْطِ الْقِصَّةِ وَشَرْحِهَا ، فَذَكَرَ تَعَالَى : أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ وَهُمُ الشَّبَابُ ، وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ ، الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وَانْغَمَسُوا فِي دِينِ الْبَاطِلِ ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْتَجِيبِينَ للهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ ﷺ شَبَابًا ، وَأَمَّا الْمَشَايِخُ مِنْ قُرَيْشٍ فَعَامَّتُهُمْ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ ، وَلَمْ يُسْلِمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ ، هَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ **اِسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ كَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَتَفَاضُلِهِ وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ** ، كَمَا قَالَ : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[محمد : ١٧] ، وَقَالَ : ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾[الفتح : ٤] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَقُولُ تَعَالَى وَصَبَّرْنَاهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنِّعْمَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّهُمْ : كَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَادَتِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ خَرَجُوا يَوْمًا فِي بَعْضِ أَعْيَادِ قَوْمِهِمْ ، وَكَانَ لَهُمْ مُجْتَمَعٌ فِي السَّنَةِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاغِيتَ وَيَذْبَحُونَ لَهَا ، وَكَانَ لَهُمْ مَلِكٌ جَبَّارٌ عَنِيدٌ يُقَالُ لَهُ : دِقْيَانُوس ، وَكَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِذَلِكَ وَيَحُثُّهُمْ عَلَيْهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ لِمُجْتَمَعِهِمْ ذَلِكَ ، وَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ مَعَ آبَائِهِمْ وَقَوْمِهِمْ وَنَظَرُوا إِلَى مَا يَصْنَعُ قَوْمُهُمْ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِمْ ، عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ

لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا لَا يَنْبَغِي إِلَّا للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَخَلَّصُ مِنْ قَوْمِهِ وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ وَيَتَبَرَّزُ عَنْهُمْ نَاحِيَةً ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ مِنْهُمْ وَحْدَهُ أَحَدُهُمْ ، جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ فَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهَا عِنْدَهُ ، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمَا ، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ ، وَجَاءَ الْآخَرُ ، وَجَاءَ الْآخَرُ ، وَلَا يَعْرِفُ وَاحِدٌ مِنْهُمُ الْآخَر ، وَإِنَّمَا جَمَعَهُمْ هُنَاكَ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ .

كَمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « **الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ** »[١] ، وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : الْجِنْسِيَّةُ عِلَّةُ الضَّمِّ ، وَالْغَرَضُ أَنَّهُ جَعَلَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يَكْتُمُ مَا هُوَ عَلَيْهِ عَنْ أَصْحَابِهِ خَوْفًا مِنْهُمْ ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُمْ مِثْلَهُ ، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ : تَعْلَمُونَ وَاللهِ يَا قَوْمُ إِنَّهُ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَأَفْرَدَكُمْ عَنْهُمْ إِلَّا شَيْءٌ فَلْيُظْهِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا بِأَمْرِهِ ، فَقَالَ آخَرُ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي وَاللهِ رَأَيْتُ مَا قَوْمِي عَلَيْهِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْئًا هُوَ اللهُ ، الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَقَالَ الْآخَرُ : وَأَنَا وَاللهِ وَقَعَ لِي كَذَلِكَ ، وَقَالَ الْآخَر كَذَلِكَ ، حَتَّى تَوَافَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً وَإِخْوَانَ صِدْقٍ ، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللهَ فِيهِ ، فَعَرَفَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ فَوَشَوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ ، فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ ، فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ وَدَعَوْهُ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ : بِقَوْلِهِ : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ وَلَنْ : لِنَفْيِ التَّأْبِيدِ ، أَيْ : لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا أَبَدًا ، لِأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكَانَ بَاطِلًا ، **وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ** : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ أَيْ : بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا .

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أَيْ : هَلَّا أَقَامُوا عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ دَلِيلًا وَاضِحًا صَحِيحًا ؟! ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٨) .

ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ يقُولُونَ : بَلْ هُمْ ظَالِمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ ، فَيُقَالُ : إِنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَعَوْهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ أَبَى عَلَيْهِمْ وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ ، وَأَمَرَ بِنَزْعِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُم الَّذِي كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ ، وَأَجَّلَهُمْ لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْفِ اللهِ بِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظْرَةِ تَوَصَّلُوا إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَ وُقُوعِ الْفِتَنِ فِي النَّاسِ ، أَنْ يَفِرَّ الْعَبْدُ مِنْهُمْ خَوْفًا عَلَى دِينِهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ أَحَدِكُمْ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَغَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ** »[1] **فَفِي هَذِهِ الْحَالِ تُشْرَعُ الْعُزْلَةُ عَنِ النَّاسِ ، وَلَا تُشْرَعُ فِيمَا عَدَاهَا ، لِمَا يَفُوتُ بِهَا مِنْ تَرْكِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمَعِ .**

فَلَمَّا وَقَعَ عَزْمُهُمْ عَلَى الذَّهَابِ وَالْهَرَبِ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَاخْتَارَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ ذَلِكَ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أَيْ : وَإِذَا فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَبْدَانِكُمْ ، ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ، أَيْ : يَبْسُطُ عَلَيْكُمْ رَحْمَةً يَسْتُرُكُمْ بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم ﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ أَيْ : أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هِرَابًا إِلَى الْكَهْفِ ، فَأَوَوْا إِلَيْهِ فَفَقَدَهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَتَطَلَّبَهُمْ الْمَلِكُ ، فَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ وَعَمَّى اللهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ ، كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ حِينَ لَجَآ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي الطَّلَبِ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ ، وَعِنْدَهَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ رَأَى جَزَعَ الصِّدِّيقِ فِي قَوْلِهِ : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى مَوْضِعِ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا ، فَقَالَ : « **يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا** ؟ » ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ

(١) البخاري (٣٣٠٠) .

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] [التوبة : ٤٠] فَقِصَّةُ هَذَا الْغَارِ أَشْرَفُ وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَعْجَبُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ .

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَابَ هَذَا الْكَهْفِ كَانَ مِنْ نَحْوِ الشَّمَالِ ، لأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا دَخَلَتْهُ عِنْدَ طُلُوعِهَا تَزَاوَرُ عَنْهُ ﴿ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أَيْ : يَتَقَلَّصُ الْفَيْءُ يَمْنَةً ، كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ ﴿ تَّزَٰوَرُ ﴾ أَيْ : تَمِيلُ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الْأُفُقِ تَقَلَّصَ شُعَاعُهَا بِارْتِفَاعِهَا ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ عِنْدَ الزَّوَالِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ أَيْ : تَدْخُلُ إِلَى غَارِهِمْ مِنْ شِمَالِ بَابِهِ ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ ، فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ ، وَهَذَا بَيِّنٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَكَانَ لَهُ عِلْمٌ بِمَعْرِفَةِ الْهَيْئَةِ وَسَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ ، **وَبَيَانُهُ** : أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَابُ الْغَارِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْقِ لَمَا دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الْغُرُوبِ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ نَاحِيَةِ الْقِبْلَةِ لَمَا دَخَلَ مِنْهَا شَيْءٌ عِنْدَ الطُّلُوعِ وَلَا عِنْدَ الْغُرُوبِ وَلَا تَزَاوَرَ الْفَيْءُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، وَلَوْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ لَمَا دَخَلَتْهُ وَقْتَ الطُّلُوعِ بَلْ بَعْدَ الزَّوَالِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِيهِ إِلَى الْغُرُوبِ ، فَتَعَيَّنَ مَا ذَكَرْنَاهُ وَللهِ الْحَمْدُ .

وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تَتْرُكُهُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ ، وَأَرَادَ مِنَّا فَهْمَهُ وَتَدَبُّرَهُ ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَكَانِ هَذَا الْكَهْفِ فِي أَيِّ الْبِلَادِ مِنَ الْأَرْضِ ، إِذْ لَا فَائِدَةَ لَنَا فِيهِ وَلَا قَصْدٌ شَرْعِيٌّ ، وَقَدْ تَكَلَّفَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فَذَكَرُوا فِيهِ أَقْوَالًا ، **وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَيِّ بِلَادِ اللهِ هُوَ ؛ وَلَوْ كَانَ لَنَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ لَأَرْشَدَنَا اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ إِلَيْهِ** ، فَأَعْلَمَنَا تَعَالَى بِصِفَتِهِ وَلَمْ يُعْلِمْنَا بِمَكَانِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى

(١) البخاري (٤٦٦٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : فِي مُتَّسَعٍ مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لَا تَمَسُّهُمْ إِذْ لَوْ أَصَابَتْهُمْ لَأَحْرَقَتْ أَبْدَانَهُمْ وَثِيَابَهُمْ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى هَذَا الْغَارِ الَّذِي جَعَلَهُمْ فِيهِ أَحْيَاءً ، وَالشَّمْسُ وَالرِّيحُ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ لِتَبْقَى أَبْدَانُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ الْآيَة . أَيْ : هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةَ إِلَى الْهِدَايَةِ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ اللهُ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللهُ عَلَى آذَانِهِمْ بِالنَّوْمِ لَمْ تَنْطَبِقْ أَعْيُنُهُمْ ، لِئَلَّا يُسْرِعَ إِلَيْهَا الْبِلَى ، فَإِذَا بَقِيَتْ ظَاهِرَةً لِلْهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ ، وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الذِّئْبِ أَنَّهُ يَنَامُ فَيُطْبِقُ عَيْنًا وَيَفْتَحُ عَيْنًا ثُمَّ يَفْتَحُ هَذِهِ وَيُطْبِقُ هَذِهِ وَهُوَ رَاقِدٌ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ... بِأُخْرَى الرَّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : يُقَلَّبُونَ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : لَوْ لَمْ يُقَلَّبُوا لَأَكَلَتْهُمُ الْأَرْضُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : الْوَصِيدُ : الْفِنَاءُ ، وَهَذَا الصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْفِنَاءِ ، وَهُوَ الْبَابُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة : ٨] أَيْ : مُطْبَقَةٌ مُغْلَقَةٌ ، وَيُقَالُ : وَ ((صِيد)) وَ ((أَصِيد)) رَبْضُ كَلْبِهِمْ عَلَى الْبَابِ كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ . **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : يَحْرُسُ عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، وَهَذَا مِنْ سَجِيَّتِهِ وَطَبِيعَتِهِ حَيْثُ يَرْبِضُ بِبَابِهِمْ كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ ، وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ - كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ - وَلَا صُورَةٌ ، وَشَمِلَتْ كَلْبَهُمْ بَرَكَتُهُمْ ، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ،

وَهَذَا فَائِدَةُ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ ، فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى أَلْقَى عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ ، لِمَا أُلْبِسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ ، لِئَلَّا يَدْنُو مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَمَسُّهُمْ يَدُ لَامِسٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَتَنْقَضِي رَقْدَتُهُم الَّتِي شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِم لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى كَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ بَعَثْنَاهُمْ صَحِيحَةً أَبْدَانُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ ، لَمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ شَيْئًا ، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ ، وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : كَمْ رَقَدْتُمْ ؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي أَوَّلِ نَهَارٍ وَاسْتِيقَاظُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ ، وَلِهَذَا اسْتَدْرَكُوا فَقَالُوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أَيْ : اللهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِكُمْ ، وَكَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُمْ نَوْعُ تَرَدُّدٍ فِي كَثْرَةِ نَوْمِهِمْ فَاللهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الْأَهَمِّ فِي أَمْرِهِمْ إِذْ ذَاكَ ، وَهُوَ احْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَقَالُوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ أَيْ : فِضَّتِكُمْ هَذِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدِ اسْتَصْحَبُوا مَعَهُمْ دَرَاهِمَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا ، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا ، فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أَيْ : مَدِينَتِكُم الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أَيْ : أَطْيَبُ طَعَامًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور : ٢١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ

مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤] وَمِنْهُ الزَّكَاةُ الَّتِي تُطَيِّبُ المَالَ وَتُطَهِّرُهُ ، **وَقِيلَ** : أَكْثَرُ طَعَامًا . **وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ** لأَنَّ مَقْصُودَهُمْ إِنَّمَا هُوَ الطَّيِّبُ الحَلَالُ ، سَوَاءٌ كَانَ كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أَيْ : فِي خُرُوجِهِ وَذَهَابِهِ وَشِرَائِهِ وَإِيَابِهِ ، يَقُولُونَ : وَلْيَتَخَفَّ كُلَّ مَا يَقْدِرِ عَلَيْهِ ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أَيْ : وَلَا يُعْلِمَنَّ ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : إِنْ عَلِمُوا بِمَكَانِكُمْ ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يَعْنُونَ أَصْحَابَ دِقْيَانُوس ، يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى مَكَانِهِمْ ، فَلَا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِلَى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا أَوْ يَمُوتُوا ، وَإِنْ وَافَقْتُمُوهُمْ عَلَى الْعَوْدِ فِي الدِّينِ فَلَا فَلَاحَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمُ النَّاسَ ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وَذَكَرُوا : أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى المَدِينَةِ ، فِي شِرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِيَأْكُلُوهُ ، تَنَكَّرَ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْرِ الجَادَّةِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى المَدِينَةِ ، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمَهَا (دَقْسُوس) وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْعَهْدِ بِهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَتَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرِ :

أَمَّا الدِّيَارُ فَإِنَّهَا كَدِيَارِهِمْ وَأَرَى رِجَالَ الْحَيِّ غَيْرَ رِجَالِهِ

فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا ، لَا خَوَاصِّهَا وَلَا عَوَامِّهَا ، فَجَعَلَ يَتَحَيَّرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ : لَعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا أَوْ أَنَا حَالِمٌ ، وَيَقُولُ : وَاللهِ مَا بِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلْدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسِ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ تَعْجِيلَ الْخُرُوجِ مِنْ هَاهُنَا لَأَوْلَى لِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفَقَةِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ بِهَا طَعَامًا ، فَلَمَّا

رَآهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا ، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : لَعَلَّ هَذَا وَجَدَ كَنْزًا ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ ، وَمِنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ النَّفَقَةَ لَعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَنْزٍ ، وَمِمَّنْ أَنْتَ ؟ فَجَعَلَ يَقُول : أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أَمْسِ وَفِيهَا دِقْيَانُوس ، فَنَسَبُوهُ إِلَى الْجُنُونِ فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ وَخَبَرِهِ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ ، فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ - مَلِكُ الْبَلَدِ وَأَهْلِهَا - حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالَ لَهُمْ : دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدُّخُولِ لِأُعْلِمَ أَصْحَابِي ، فَدَخَلَ فَيُقَال : إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ وَأَخْفَى اللهُ عَلَيْهِمْ خَبَرَهُمْ ، وَيُقَالُ : بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَرَأَوْهُمْ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَاعْتَنَقَهُمْ ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِيمَا قِيلَ : وَاسْمه (يندوسيس) فَفَرِحُوا بِهِ وَآنَسُوهُ بِالْكَلَامِ ، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ، وَعَادُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَتَوَفَّاهُمُ اللهُ ﷻ فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : كَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ وَأَيْقَظْنَاهُمْ بِهَيْئَاتِهِمْ ، أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ أَهْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ ﴿ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أَيْ : فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، فَمِنْ مُثْبِتٍ لَهَا وَمِنْ مُنْكِرٍ ، فَجَعَلَ اللهُ ظُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ حُجَّةً لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ﴿ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أَيْ سُدُّوا عَلَيْهِمْ بَابَ كَهْفِهِمْ وَذَرُوهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ . حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي الْقَائِلِينَ ذَلِكَ قَوْلَيْنِ : **أَحَدُهُمَا** : إِنَّهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ ، **وَالثَّانِي** : أَهْلُ الشِّرْكِ مِنْهُمْ ، فَاللهُ أَعْلَمُ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنُّفُوذِ ، وَلَكِنْ هَلْ هُمْ مَحْمُودُونَ أَمْ لَا ؟ فِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِد** » يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا[1].

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) ، وانظر كذلك البخاري (٤٣٥ ، ٤٣٦) ، ومسلم (٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١) .

إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ، فَحَكَى ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا قَائِلَ بِرَابِعٍ ، وَلَمَّا ضَعَّفَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أَيْ : قَوْلًا بِلَا عِلْمٍ ، كَمَنْ يَرْمِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَعْرِفُهُ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يُصِيبُ ، وَإِنْ أَصَابَ فَبِلَا قَصْدٍ ، ثُمَّ حَكَى الثَّالِثَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَرَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ فَدَلَّ عَلَى صِحَّتِهِ وَأَنَّهُ هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الْأَحْسَنَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ الْعِلْمِ إِلَى اللهِ تَعَالَى إِذْ لَا احْتِيَاجَ إِلَى الْخَوْضِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ بِلَا عِلْمٍ ، لَكِنْ إِذَا أَطْلَعَنَا عَلَى أَمْرٍ قُلْنَا بِهِ وَإِلَّا وَقَفْنَا ، ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أَيْ : مِنَ النَّاسِ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ الَّذِي اسْتَثْنَى اللهُ ﷻ كَانُوا سَبْعَةً(١).

﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا هَيِّنًا ، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أَيْ : فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ اسْتِنَادٍ إِلَى كَلَامِ مَعْصُومٍ ، وَقَدْ جَاءَكَ اللهُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ فِيهِ ، فَهُوَ الْمُقَدَّمُ الْحَاكِمُ عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَقْوَالِ .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى الْأَدَبِ فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْءٍ لِيَفْعَلَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، أَنْ يَرُدَّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ ﷻ ، عَلَّامِ الْغُيُوبِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةٍ**))

---

(١) صح عن ابن عباس - رضي الله عنهما -.
(٢) انظر البخاري (٢٨١٩) ، ومسلم (١٦٥٤) .

وَفِي رِوَايَةٍ ((تِسْعِينَ اِمْرَأَةٍ)) وَفِي رِوَايَةٍ ((مِائَةِ اِمْرَأَةٍ - تَلِدُ كُلُّ اِمْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله ، فَقِيلَ لَهُ :)) وَفِي رِوَايَةٍ ((قَالَ لَهُ الْمَلَكُ :- قُلْ : إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَلَمْ يَقُلْ ، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا اِمْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ)) ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ قَالَ : إِنْ شَاءَ اللهُ ، لَمْ يَحْنَثْ ، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ)) وَفِي رِوَايَةٍ ((وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ الله فُرْسَانًا أَجْمَعِينَ)) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ إِذَا نَسِيتَ الاِسْتِثْنَاءَ فَاسْتَثْنِ عِنْدَ ذِكْرِكَ لَهُ ، **وروى عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ فِي الرَّجُلِ يَحْلِفُ** قَالَ : لَهُ أَنْ يَسْتَثْنِي وَلَوْ إِلَى سَنَةٍ ، وَكَانَ يَقُولُ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ : فِي ذَلِكَ ، وَمَعْنَى قَوْلِ اِبْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ يَسْتَثْنِي وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ ، أَيْ : إِذَا نَسِيَ أَنْ يَقُولَ فِي حَلِفِهِ وَفِي كَلَامِهِ : إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَذَكَرَ وَلَوْ بَعْدَ سَنَةٍ ، فَالسُّنَّةُ لَهُ : أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ ، لِيَكُونَ آتِيًا بِسُنَّةِ الاِسْتِثْنَاءِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ بَعْدَ الْحِنْث . قَالَهُ اِبْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -: وَنَصَّ عَلَى ذَلِكَ ، لَا أَنْ يَكُونَ رَافِعًا لِحِنْثِ الْيَمِينِ وَمُسْقِطًا لِلْكَفَّارَةِ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ اِبْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - هُوَ الصَّحِيحُ ، وَهُوَ الْأَلْيَقُ بِحَمْلِ كَلَامِ اِبْنِ عَبَّاسٍ عَلَيْهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَيَحْتَمِلُ فِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ : أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى قَدْ أَرْشَدَ مَنْ نَسِيَ الشَّيْءَ فِي كَلَامِهِ إِلَى ذِكْرِ الله تَعَالَى ، لِأَنَّ النِّسْيَانَ مَنْشَؤُهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، كَمَا قَالَ فَتَى مُوسَى : ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ ، وَذِكْرُ اللهُ تَعَالَى يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ ، فَإِذَا ذَهَبَ الشَّيْطَانُ ذَهَبَ النِّسْيَانُ ، فَذِكْرُ الله سَبَبٌ لِلذِّكْرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾ أَيْ : إِذَا سُئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ لَا تَعْلَمُهُ ، فَاسْأَلِ اللهَ تَعَالَى فِيهِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوَفِّقَكَ لِلصَّوَابِ وَالرُّشْدِ فِي ذَلِكَ ، وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ غَيْرَ ذَلِكَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِمِقْدَارِ مَا لَبِثَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ

مُنْذُ أَرْقَدَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُمُ اللهُ وَأَعْثَرَ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الزَّمَانِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مِقْدَارُهُ ثَلَثِمِائَةِ سَنَةٍ تَزِيدُ تِسْعَ سِنِينَ بِالْهِلَالِيَّةِ وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةِ سَنَةٍ بِالشَّمْسِيَّةِ ، فَإِنْ تَفَاوَتَ مَا بَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ بِالْقَمَرِيَّةِ إِلَى الشَّمْسِيَّةِ ثَلَاثُ سِنِينَ ، فَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ الثَّلَثِمِائَةِ ﴿ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ أَيْ : إِذَا سُئِلْتَ عَنْ لُبْثِهِمْ ، وَلَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمٌ فِي ذَلِكَ وَتَوْقِيفٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَلَا تَتَقَدَّمْ فِيهِ بِشَيْءٍ ، بَلْ قُلْ فِي مِثْلِ هَذَا : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ وَمَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَهَذَا الَّذِي قُلْنَاهُ عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أَيْ : أَنَّهُ لَبَصِيرٌ بِهِمْ سَمِيعٌ لَهُمْ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْمَدْحِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : مَا أَبْصَرَهُ وَأَسْمَعَهُ ، **وَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ** : مَا أَبْصَرَ اللهُ لِكُلِّ مَوْجُودٍ وَأَسْمَعَهُ لِكُلِّ مَسْمُوعٍ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . **ثُمَّ رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ فَلَا أَحَدَ أَبْصَرُ مِنَ اللهِ وَلَا أَسْمَعُ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ يَرَى أَعْمَالَهُمْ ، وَيَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أَيْ : أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ وَزِيرٌ وَلَا نَصِيرٌ ، وَلَا شَرِيكٌ وَلَا مُشِيرٌ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَإِبْلَاغِهِ إِلَى النَّاسِ ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا مُغَيِّرَ لَهَا وَلَا مُحَرِّفَ وَلَا مُؤَوِّلَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : مَلْجَأً . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ وَإِنْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لَمْ تَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَكَ

مِنَ الله ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧]، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص : ٨٥]أَيْ : سَائِلُكَ عَمَّا فَرَضَ عَلَيْكَ مِنْ إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : اِجْلِسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ ، وَيُهَلِّلُونَهُ ، وَيَحْمَدُونَهُ ، وَيُسَبِّحُونَهُ ، وَيُكَبِّرُونَهُ ، وَيَسْأَلُونَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، مِنْ عِبَادِ الله سَوَاءٌ كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ أَغْنِيَاءَ ، أَوْ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضُعَفَاءَ يُقَالُ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ حِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُمْ وَحْدَهُ ، وَلَا يُجَالِسُهُمْ بِضُعَفَاءِ أَصْحَابِهِ كَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَخَبَّابٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ ، وَلْيُفْرِدَ أُولَئِكَ بِمَجْلِسٍ عَلَى حِدَةٍ ، فَنَهَاهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ [الأنعام : ٥٢]. وَأَمَرَهُ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ فِي الْجُلُوسِ مَعَ هَؤُلَاءِ فَقَالَ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ الْآيَة . **عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ**(١) : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أُطْرُدْ هَؤُلَاءِ ، لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا قَالَ : وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ نَسِيتُ اِسْمَيْهِمَا ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ الله ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : وَلَا تُجَاوِزْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، يَعْنِي : تَطْلُبُ بَدَلَهُمْ أَصْحَابَ الشَّرَفِ وَالثَّرْوَةِ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أَيْ : شُغِلَ عَنِ الدِّينِ وَعِبَادَةِ رَبِّهِ بِالدُّنْيَا ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ أَيْ : أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهٌ وَتَفْرِيطٌ وَضَيَاعٌ ، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا لَهُ وَلَا مُحِبًّا لِطَرِيقَتِهِ ، وَلَا تَغْبِطْهُ بِمَا هُوَ فِيهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١]

(١) مسلم (حديث ٢٤١٣) .

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَقُلِ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا ﴾ أَيْ : أَرْصَدْنَا ﴿ لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أَيْ : سُورُهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ الْآيَة . **رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ** : الْمُهْل : الْمَاءُ الْغَلِيظُ مِثْلُ دُرْدِيِّ الزَّيْتِ ، **وَعَنْ آخَرِينَ** : هُوَ كَالدَّمِ وَالْقَيْحِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي انْتَهَى حَرُّهُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ كُلُّ شَيْءٍ أُذِيبَ . وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يَنْفِي الْآخَر ، فَإِنَّ الْمُهْلَ يَجْمَعُ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الرَّذِيلَةَ كُلَّهَا ، فَهُوَ أَسْوَدُ مُنْتِنٌ غَلِيظٌ حَارٌّ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ أَيْ : مِنْ حَرِّهِ ، إِذَا أَرَادَ الْكَافِرُ أَنْ يَشْرَبَهُ وَقَرَّبَهُ مِنْ وَجْهِهِ شَوَاهُ ، حَتَّى يَسْقُطَ جِلْدُ وَجْهِهِ فِيهِ ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾ أَيْ : بِئْسَ هَذَا شَرَابًا ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ أَيْ : حَارَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَيْ : وَسَاءَتِ النَّارُ مَنْزِلًا ، وَمَقِيلًا ، وَمُجْتَمَعًا ، وَمَوْضِعًا لِلارْتِفَاقِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦]

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ : الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ

فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَلَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، وَالْعَدْنُ الْإِقَامَةُ . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ . مِنْ تَحْتِ غُرَفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ . قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف : ٥١] . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أَيْ . مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ، وَقَالَ فِي الْمَكَانِ الْآخَرِ ﴿ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر : ٣٣] **وَفَصَّلَهُ هَاهُنَا فَقَالَ** : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَالسُّنْدُسُ : ثِيَابٌ رِفَاعٌ رِقَاقٌ كَالْقُمْصَانِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا. وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ : فَغَلِيظُ الدِّيبَاجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ الِاتِّكَاءُ . **قِيلَ** : الِاضْطِجَاعُ ، **وَقِيلَ** : التَّرَبُّعُ فِي الْجُلُوسِ ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْمُرَادِ هَاهُنَا ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : « **أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا** »[1] فِيهِ الْقَوْلَانِ . وَالْأَرَائِكُ : جَمْعُ أَرِيكَةٍ : وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ الْحَجَلَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَيْ : نِعْمَتِ الْجَنَّةُ ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَيْ : حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمُقَامًا ، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ : ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ، وَهَكَذَا قَابَلَ بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥-٧٦]

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

(١) البخاري (حديث ٥٣٩٨ ، ٥٣٩٩) .

يَقُولُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ مُجَالَسَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَافْتَخَرُوا عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ فَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ جَعَلَ اللهُ ﴿ لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ أَيْ : بُسْتَانَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ مَحْفُوفَتَيْنِ بِالنَّخِيلِ الْمُحْدِقَةِ فِي جَنَبَاتِهِمَا، وَفِي خِلَالِهِمَا الزُّرُوعُ، وَكُلٌّ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ مُثْمِرٌ مُقْبِلٌ فِي غَايَةِ الْجَوْدَةِ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾، أَيْ : أَخْرَجَتْ ثَمَرَهَا ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : وَلَمْ تُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ أَيْ : وَالْأَنْهَارُ مُتَفَرِّقَةٌ فِيهِمَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا. ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ الْمَالُ، وَقِيلَ : الثِّمَارُ، وَهُوَ أَظْهَرُ هَاهُنَا ﴿ فَقَالَ ﴾ أَيْ : صَاحِبُ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ أَيْ : يُجَادِلُهُ وَيُخَاصِمُهُ يَفْتَخِرُ عَلَيْهِ وَيَتَرَأَّسُ : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ أَيْ : أَكْثَرُ خَدَمًا وَحَشَمًا وَوَلَدًا. قَالَ قَتَادَةُ : تِلْكَ وَاللهِ أُمْنِيَةُ الْفَاجِرِ : كَثْرَةُ الْمَالِ وَعِزَّةُ النَّفَرِ.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : بِكُفْرِهِ، وَتَمَرُّدِهِ، وَتَكَبُّرِهِ، وَتَجَبُّرِهِ، وَإِنْكَارِهِ الْمَعَادَ ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ وَذَلِكَ اغْتِرَارٌ مِنْهُ، لَمَّا رَأَى فِيهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَالْأَنْهَارِ الْمُطَّرِدَةِ فِي جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا، ظَنَّ أَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَفْرُغُ وَلَا تَهْلِكُ وَلَا تَتْلَفُ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عَقْلِهِ وَضَعْفِ يَقِينِهِ بِاللهِ، وَإِعْجَابِهِ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَكُفْرِهِ بِالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ أَيْ : كَائِنَةً ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ كَانَ مَعَادٌ وَرَجْعَةٌ وَمَرَدٌّ إِلَى اللهِ لَيَكُونَنَّ لِي هُنَاكَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا لِأَنِّي مُحْظًى عِنْدَ رَبِّي، وَلَوْلَا كَرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠]، وَقَالَ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم : ٧٧] أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ تَأَلَّى عَلَى اللهِ ﷻ. وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِن وَاعِظًا لَهُ وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَالِاغْتِرَارِ : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ الْآيَة ، وَهَذَا إِنْكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ وَابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، وَهُوَ آدَمُ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨] . أَيْ : كَيْفَ تَجْحَدُونَ رَبَّكُمْ وَدَلَالَتُهُ عَلَيْكُمْ ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ ، كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مَعْدُومًا ، ثُمَّ وُجِدَ وَلَيْسَ وُجُودُهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا مُسْتَنِدًا إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لِأَنَّهُ بِمَثَابَتِهِ فَعُلِمَ إِسْنَادُ إِيجَادِهِ إِلَى خَالِقِهِ ، وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ : ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ أَيْ : لَكِنْ أَنَا لَا أَقُولُ بِمَقَالَتِك ، بَلْ أَعْتَرِفُ لله بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ اللهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ هَذَا تَحْضِيضٌ وَحَثٌّ عَلَى ذَلِكَ ، أَيْ : هَلَّا إِذَا أَعْجَبَتْكَ حِينَ دَخَلْتَهَا وَنَظَرْتَ إِلَيْهَا ، حَمِدْتَ اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَأَعْطَاكَ مِنَ الْمَالِ أَوْ الْوَلَدِ مَا لَمْ يُعْطَهُ غَيْرُكَ ، وَقُلْتَ : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ حَالِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ، فَلْيَقُلْ : مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ، وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهُ : ((**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله**))(١).

---

(١) البخاري (٤٢٠٥) .

وَعَنْ أَبِي بَلْج عَنْ عَمْرِو بْن مَيْمُون قَالَ : قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: « **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ تَحْتَ الْعَرْشِ ؟** » قَالَ : قُلْتُ : فِدَاك أَبِي وَأُمِّي ، قَالَ : « **أَنْ تَقُولَ : لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله** » - قَالَ أَبُو بَلْج : وَأَحْسِبُ أَنَّهُ قَالَ : « **فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ** » - قَالَ أَبُو بَلْج : قَالَ عَمْرو : قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ؟، فَقَالَ : لَا إِنَّهَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : عَلَى جَنَّتِكَ فِي الدُّنْيَا ، الَّتِي ظَنَنْتُ أَنَّهَا لَا تَبِيدُ وَلَا تَفْنَى ﴿ حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَطَرٌ عَظِيمٌ مُزْعِجٌ يُقْلِعُ زَرْعَهَا وَأَشْجَارَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أَيْ : بَلْقَعًا تُرَابًا أَمْلَسَ لَا يَثْبُتُ فِيهِ قَدَمٌ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : كَالْجُرُزِ الَّذِي لَا يُنْبِتُ شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أَيْ : غَائِرًا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ ضِدُّ النَّابِعِ الَّذِي يَطْلُبُ وَجْهَ الْأَرْضِ ، فَالْغَائِرُ يَطْلُبُ أَسْفَلَهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : ٣٠] أَيْ : جَارٍ وَسَائِحٍ ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ وَالْغَوْرُ : مَصْدَرٌ بِمَعْنَى غَائِرٍ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ بِأَمْوَالِهِ ، أَوْ بِثِمَارِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ ، **وَالْمَقْصُودُ** : أَنَّهُ وَقَعَ بِهَذَا الْكَافِرِ مَا كَانَ يَحْذَرُ مِمَّا خَوَّفَهُ بِهِ الْمُؤْمِن ، مِنْ إِرْسَالِ

(١) حسن : أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٥) .

الْحُسْبَانِ عَلَى جَنَّتِهِ الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا وَأَلْهَتْهُ عَنِ اللهِ ﷻ ، ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ ، قَالَ قَتَادَةُ : يُصَفِّقُ كَفَّيْهِ مُتَأَسِّفًا مُتَلَهِّفًا ، عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿ وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾ أَيْ : عَشِيرَةٌ أَوْ وَلَدٌ ، كَمَا افْتَخَرَ بِهِمْ وَاسْتَعَزَّ ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ هَاهُنَا فَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ﴾ أَيْ : فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ الَّذِي حَلَّ بِهِ عَذَابُ اللهِ ، فَلَا مُنْقِذَ لَهُ مِنْهُ ، وَيَبْتَدِئُ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ وَيَبْتَدِئُ بِقَوْلِهِ : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَةِ ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ ﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ فَتَحَ الْوَاوَ مِنَ الْوَلَايَةِ ، فَيَكُون الْمَعْنَى : هُنَالِكَ الْمُوَالَاةُ للهِ ، أَيْ : هُنَالِكَ كُلُّ أَحَدٍ مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ يَرْجِعُ إِلَى اللهِ ، وَإِلَى مُوَالَاتِهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : ٨٤] ، وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠-٩١] ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَسَرَ الْوَاوَ مِنْ ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ ﴾ أَيْ : هُنَالِكَ الْحُكْمُ للهِ الْحَقِّ ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ الْحَقَّ عَلَى أَنَّهُ نَعْتٌ لِلْوَلَايَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَضَ الْقَافَ عَلَى أَنَّهُ نَعْتٌ للهِ ﷻ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ٦٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أَيْ : جَزَاءً ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أَيْ : الْأَعْمَالُ الَّتِي تَكُونُ للهِ ﷻ ثَوَابُهَا خَيْرٌ وَعَاقِبَتُهَا حَمِيدَةٌ رَشِيدَة كُلُّهَا خَيْرٌ .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱضْرِبْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فِي زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا وَانْقِضَائِهَا ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ فَشَبَّ وَحَسُنَ ، وَعَلَاهُ الزَّهْرُ وَالنَّوْرُ وَالنَّضْرَةُ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يَابِسًا ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أَيْ : تُفَرِّقُهُ وَتَطْرَحُهُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَهَذِهِ الْحَالِ ، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِبُ اللهُ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِهَذَا الْمَثَلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [يونس : ٢٤] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد : ٢٠] . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ((**الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] أَيْ : الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالتَّفَرُّغُ لِعِبَادَتِهِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنِ اشْتِغَالِكُمْ بِهِمْ ، وَالْجَمْعُ لَهُمْ وَالشَّفَقَةُ الْمُفْرِطَةُ عَلَيْهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ : سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ : وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

وَوَرَدَتْ زِيَادَاتٌ أَيْضًا فَرَوَى الْبَعْضُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قَالَ : هِيَ ذِكْرُ اللهِ ، قَوْلُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، وَسُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَتَبَارَكَ اللهُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، وَالصِّيَامُ ، وَالصَّلَاةُ ، وَالْحَجُّ ، وَالصَّدَقَةُ ، وَالْعِتْقُ وَالْجِهَادُ ، وَالصِّلَةُ ، وَجَمِيعُ أَعْمَالِ الْحَسَنَاتِ ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ الَّتِي تَبْقَى لِأَهْلِهَا فِي الْجَنَّةِ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

وَقِيلَ : هِيَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ كُلُّهَا ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [الطور : ٩-١٠] أَيْ : تَذْهَبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَتَزُولُ ، وَقَالَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥-١٠٧] يَذْكُرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ تَذْهَبُ الْجِبَالُ وَتَتَسَاوَى الْمِهَادُ وَتَبْقَى الْأَرْضُ ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أَيْ : سَطْحًا مُسْتَوِيًا لَا عِوَجَ فِيهِ ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ أَيْ : لَا وَادِيَ وَلَا جَبَلَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أَيْ : بَادِيَةً ظَاهِرَةً ، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ ، وَلَا مَكَانٌ يُوَارِي أَحَدًا ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ضَاحُونَ لِرَبِّهِمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أَيْ : وَجَمَعْنَاهُمْ ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ ، فَلَمْ نَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩-٥٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ صَفًّا وَاحِدًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ يَقُومُونَ صُفُوفًا صُفُوفًا كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ لِلْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ

وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُمْ : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أَيْ : مَا كَانَ ظَنُّكُمْ أَنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِكُمْ وَلَا أَنَّ هَذَا كَائِنٌ ، ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أَيْ : كِتَابُ الْأَعْمَالِ الَّذِي فِيهِ الْجَلِيلُ وَالْحَقِيرُ وَالْفَتِيلُ وَالْقِطْمِيرُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أَيْ : مِنْ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ وَأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ ﴿ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا ﴾ أَيْ : يَا حَسْرَتَنَا وَوَيْلَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِي أَعْمَارِنَا ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أَيْ : لَا يَتْرُكُ ذَنْبًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا عَمَلًا وَإِنْ صَغُرَ ﴿ إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ ، أَيْ : ضَبَطَهَا وَحَفِظَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أَيْ : مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] أَيْ : تَظْهَرُ الْمُخَبَّآتُ وَالضَّمَائِرُ . عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ**))[1] وَفِي لَفْظٍ : ((**يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، يُقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**))[2] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أَيْ : فَيَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي أَعْمَالِهِمْ جَمِيعًا ، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ، وَيَمْلَأُ النَّارَ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَصْحَابِ الْمَعَاصِي ، ثُمَّ يُنَجِّي أَصْحَابَ الْمَعَاصِي ، وَيُخَلِّدُ فِيهَا الْكَافِرِينَ ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا بَنِي آدَمَ عَلَى عَدَاوَةِ إِبْلِيسَ لَهُمْ وَلِأَبِيهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمُقَرِّعًا لِمَنِ

(١) البخاري (٣١٨٧) ، ومسلم (١٧٣٧) .
(٢) مسلم بنحوه (حديث ١٧٣٨) .

اِتَّبَعَهُ مِنْهُمْ وَخَالَفَ خَالِقَهُ وَمَوْلَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَهُ وَابْتَدَأَهُ ، وَبِأَلْطَافِهِ رَزَقَهُ وَغَذَّاهُ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ وَالَى إِبْلِيسَ وَعَادَى اللهَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أَيْ : لِجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾ أَيْ : سُجُودُ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ وَتَعْظِيمٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨-٢٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ أَيْ : خَانَهُ أَصْلُهُ ، فَإِنَّهُ خُلِقَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَأَصْلُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نُورٍ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ** »[1] فَعِنْدَ الْحَاجَةِ نَضَحَ كُلُّ وِعَاءٍ بِمَا فِيهِ ، وَخَانَهُ الطَّبْعُ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّمَ بِأَفْعَالِ الْمَلَائِكَةِ ، وَتَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَعَبَّدَ وَتَنَسَّكَ ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي خِطَابِهِمْ وَعَصَى بِالْمُخَالَفَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : فَخَرَجَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، فَإِنَّ الْفِسْقَ : هُوَ الْخُرُوجُ ، يُقَالُ : فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا ، وَفَسَقَتِ الْفَأْرَةُ مِنْ جُحْرِهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْهُ لِلْعَيْثِ وَالْفَسَادِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُقَرِّعًا وَمُوَبِّخًا لِمَنِ اتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : بَدَلًا عَنِّي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ كَقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا وَمَصِيرِ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فِي سُورَةِ يس ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس : ٥٩-٦٢]

۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي عَبِيدٌ أَمْثَالُكُمْ ، لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، لَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا كَانُوا إِذْ ذَاكَ مَوْجُودِينَ ، يَقُولُ

(١) مسلم (حديث ٢٩٩٦) .

تَعَالَى : أَنَا الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، وَمُدَبِّرِهَا وَمُقَدِّرِهَا وَحْدِي لَيْسَ مَعِي فِي ذَلِكَ شَرِيكٌ ، وَلَا وَزِيرٌ وَلَا مُشِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٢-٢٣] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ **قَالَ مَالِكٌ** : أَعْوَانًا .

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخَاطِبُ بِهِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ تَقْرِيعًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا : ﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي دَارِ الدُّنْيَا ، أُدْعُوهُمُ الْيَوْمَ يُنْقِذُونَكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٤] ، وَقَوْله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [القصص : ٦٤] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : مَهْلَكًا ، **وَقِيلَ** : هُوَ وَادٍ عَمِيقٌ فُرِّقَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، **وَقِيلَ** : وَادِيًا فِي جَهَنَّمَ .

وَقِيلَ : ﴿ مَّوْبِقًا ﴾ : عَدَاوَةً ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ هَاهُنَا أَنَّهُ الْمَهْلَكُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَادِيًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ غَيْرِهِ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا وُصُولَ لَهُمْ إِلَى آلِهَتِهِم الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا فِي الْآخِرَةِ ، فَلَا خَلَاصَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ ، بَلْ بَيْنَهُمَا مَهْلَكٌ وَهَوْلٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ كَبِيرٌ . وَأَمَّا إِنْ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ بَيْنَهُم ﴾ عَائِدًا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ،

كَمَا قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو : إِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ بِهِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾[الروم : ١٤] ، وَقَالَ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[يس : ٥٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّمَ حِينَ جِيءَ بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْف زِمَام ، مَعَ كُلِّ زِمَام سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ فَإِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّار تَحَقَّقُوا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ لَهُمْ ، فَإِنَّ تَوَقُّعَ الْعَذَابِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ قَبْلَ وُقُوعِهِ عَذَابٌ نَاجِزٌ ، ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ طَرِيق يَعْدِل بِهِمْ عَنْهَا ، وَلَا بُدّ لَهُمْ مِنْهَا .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ وَفَصَّلْنَاهَا كَيْلَا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ ، وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَمَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْفُرْقَانِ ، الْإِنْسَانُ كَثِيرُ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُعَارَضَةِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللهُ وَبَصَّرَهُ لِطَرِيقِ النَّجَاةِ . **عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ الله ﷺ لَيْلَةً ، فَقَالَ : « **أَلَا تُصَلِّيَانِ ؟** » **فَقُلْتُ** : يَا رَسُولَ الله إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا ، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ : « **وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا** » [١].

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

(١) البخاري (١١٢٧) ، ومسلم (٧٧٥) .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِ الْكَفَرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ ، وَأَنَّهُ مَا مَنَعَهُمْ مِن اتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طَلَبُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ عِيَانًا ، كَمَا قَالَ أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، وَآخَرُونَ قَالُوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، وَقَالَتْ قُرَيْش ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ مِنْ غَشَيَانِهِمْ بِالْعَذَابِ وَأَخْذِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أَيْ : يَرَوْنَهُ عِيَانًا مُوَاجَهَةً وَمُقَابَلَةً .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ ، وَمُنْذِرِينَ لِمَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْكُفَّارِ بِأَنَّهُمْ ﴿ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ﴾ أَيْ : لِيُضْعِفُوا بِهِ ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الَّذِي جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ ﴿ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ ﴾ أَيْ : اتَّخَذُوا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَخَوَارِقَ الْعَادَاتِ ، الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرُّسُلُ ، وَمَا أَنْذَرُوهُمْ وَخَوَّفُوهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ هُزُوًا ﴾ أَيْ : سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ وَهُوَ أَشَدُّ التَّكْذِيبِ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَأَيُّ عِبَادِ الله أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ الله فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، أَيْ : تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَلَمْ يُصْغِ لَهَا ، وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا ﴿ وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أَيْ :

مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : قُلُوبِ هَؤُلَاءِ ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أَيْ : أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أَيْ : صَمَمًا مَعْنَوِيًّا عَنِ الرَّشَادِ ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ أَيْ : رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ ، وَرُبَّمَا هَدَى بَعْضَهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ ، وَمَنِ اسْتَمَرَّ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الْوَلِيدُ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَحِيصٌ وَلَا مَحِيدٌ وَلَا مَعْدِلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ أَيْ : الْأُمَمُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ، أَيْ : وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ، احْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رَسُولٍ وَأَعْظَمَ نَبِيٍّ ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ فَخَافُوا عَذَابِي وَنُذُر .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سَبَبُ قَوْلِ مُوسَى لِفَتَاهُ وَهُوَ - يُوشعُ بْنُ نُونٍ - هَذَا الْكَلَام أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ عَبْدًا

مِنْ عِبَادِ اللهِ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ مُوسَى ، فَأَحَبَّ الرَّحِيلَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِفَتَاهُ ذَلِكَ : ﴿ لَآ أَبْرَحُ ﴾ أَيْ : لَا أَزَالُ سَائِرًا ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أَيْ : هَذَا الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ ، ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنِّي أَسِيرُ حُقُبًا مِنَ الزَّمَانِ . **قِيلَ** : سَنَةً ، **وَقِيلَ** : ثَمَانُونَ سَنَةً ، **وَقِيلَ** : سَبْعُونَ خَرِيفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أُمِرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَمْلُوحٍ مَعَهُ ، وَقِيلَ لَهُ : مَتَى فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّةَ ، فَسَارَا حَتَّى بَلَغَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ وَهُنَاكَ عَيْنٌ يُقَال لَهَا : عَيْنُ الْحَيَاةِ ، فَنَامَا هُنَالِكَ وَأَصَابَ الْحُوتَ مِنْ رَشَاشِ ذَلِكَ الْمَاءِ فَاضْطَرَبَ ، وَكَانَ فِي مِكْتَلٍ مَعَ يُوشَعَ عليه السلام ، وَطَفَرَ مِنَ الْمِكْتَلِ إِلَى الْبَحْرِ ، فَاسْتَيْقَظَ يُوشَعُ عليه السلام وَسَقَطَ الْحُوتُ فِي الْبَحْرِ ، فَجَعَلَ يَسِيرُ فِي الْمَاءِ وَالْمَاءُ لَهُ مِثْلُ الطَّاقِ لَا يَلْتَئِمُ بَعْدَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أَيْ : مِثْلَ السَّرَبِ فِي الْأَرْضِ . **قِيلَ** : صَارَ أَثَرُهُ كَأَنَّهُ حَجَرٌ . **وَقِيلَ** : جَعَلَ الْحُوتُ لَا يَمَسُّ شَيْئًا مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا يَبِسَ حَتَّى يَكُونَ صَخْرَةً ، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أَيْ : الْمَكَانَ الَّذِي نَسِيَا الْحُوتَ فِيهِ ، وَنَسَبَ النِّسْيَانَ إِلَيْهِمَا ، وَإِنْ كَانَ يُوشَعُ هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٢٢] ، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَالِحِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، فَلَمَّا ذَهَبَا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي نَسِيَاهُ فِيهِ بِمَرْحَلَةٍ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا ﴾ أَيْ : الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ الْمَكَانَ ﴿ نَصَبًا ﴾ يَعْنِي : تَعَبًا ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ قَالَ : ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ ﴾ أَيْ : طَرِيقَهُ ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ أَيْ : هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُبُ ﴿ فَٱرْتَدَّا ﴾ أَيْ : رَجَعَا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ أَيْ : طَرِيقِهِمَا ﴿ قَصَصًا ﴾ أَيْ : يَقُصَّانِ آثَارَ مَشْيِهِمَا وَيَقْفُوَانِ أَثَرَهُمَا . ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عليه السلام كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بذلك .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ[1] ، **قَالَ** : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى

---

(١) البخاري (٤٧٢٥) ، ومسلم (٢٣٨٠) .

صَاحِبَ الْخَضِرِ ﷺ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَذَبَ عَدُوُّ الله حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ أَنَا . فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ . قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَ تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ بِمِكْتَلٍ ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ ﷺ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا فَنَامَا ، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ** ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ ، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ قَالَ : فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا ، فَقَالَ : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ قَالَ : فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ، فَقَالَ الْخَضِرُ : وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ . فَقَالَ : أَنَا مُوسَى . فَقَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ الله عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ الله عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ . فَقَالَ مُوسَى : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَمَرَّتْ سَفِينَةٌ ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ ، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنَ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقَدُّومِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟! ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا** » قَالَ : « **وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ : مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ الله إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ** » .

ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلَهُ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ قَالَ : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قَالَ : « **وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى** » ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قَالَ : مَائِلٌ ، فَقَامَ الْخَضِر فَأَقَامَهُ بِيَدِهِ ، فَقَالَ مُوسَى : قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا** » قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ : (وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ - صَالِحَةٍ - غَصْبًا) وَكَانَ يَقْرَأُ (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ - كَافِرًا وَكَانَ - أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ[1] أَيْضًا : عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي يَعْلَى بْنُ مُسْلِمٍ وَعَمْرُو ابْنُ دِينَارٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ ، وَغَيْرُهُمَا قَدْ سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : إِنَّا لَعِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي بَيْتِهِ إِذْ قَالَ سَلُونِي ، فَقُلْتُ أَيْ : أَبَا عَبَّاسٍ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ ، بِالْكُوفَةِ رَجُلٌ قَاصٌّ ، يُقَالُ لَهُ : نَوْفٌ ، يَزْعُمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيل ، أَمَّا عَمْرٌو فَقَالَ لِي : قَالَ : كَذَبَ عَدُوُّ الله ، وَأَمَّا يَعْلَى . فَقَالَ لِي : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ حَدَّثَنِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مُوسَى رَسُولُ الله ذَكَّرَ النَّاسَ يَوْمًا ، حَتَّى إِذَا فَاضَتِ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى ، فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : أَيْ رَسُولَ الله ، هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ ؟ قَالَ لَا : فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ**

---

(١) البخاري (٤٧٢٦) .

لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى الله . قِيلَ : بَلَى ، قَالَ أَيْ رَبِّ وَأَيْنَ ؟ قَالَ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ . قَالَ : أَيْ رَبِّ اِجْعَلْ لِي عَلَمًا أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ قَالَ لِي عُمَرُو قَالَ : حَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ ، وَقَالَ لِي يَعْلَى : خُذْ حُوتًا مَيِّتًا حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ ، فَقَالَ لِفَتَاهُ : لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ . قَالَ : مَا كَلَّفْتَ كَبِيرًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ - لَيْسَتْ عِنْدَ سَعِيدٍ - قَالَ : فَبَيْنَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرْيَانَ إِذْ تَضَرَّبَ الْحُوتُ وَمُوسَى نَائِمٌ ، فَقَالَ فَتَاهُ : لَا أُوقِظُهُ حَتَّى إِذَا اِسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ ، وَتَضَرَّبَ الْحُوتُ حَتَّى دَخَلَ الْبَحْرَ فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْهُ جِرْيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ قَالَ : فَقَالَ لِي عَمْرو : هَكَذَا كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ - وَحَلَّقَ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِ وَاللَّتَيْنِ تَلِيَانِهِمَا قَالَ : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ قَالَ : وَقَدْ قَطَعَ اللهُ عَنْكَ النَّصَبَ - لَيْسَتْ هَذِهِ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ - أَخْبَرَهُ ، فَرَجَعَا فَوَجَدَا خَضِرًا قَالَ : قَالَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ : « عَلَى طِنْفِسَةٍ خَضْرَاءَ عَلَى كَبِدِ الْبَحْرِ » قَالَ سَعِيدُ بْنِ جُبَيْرٍ : « مُسَجًّى بِثَوْبٍ قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ : هَلْ بِأَرْضِكَ مِنْ سَلَامٍ ؟ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا مُوسَى ، قَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَمَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : جِئْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ، قَالَ : أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ ؟ يَا مُوسَى إِنَّ لِي عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لَك أَنْ تَعْلَمَهُ ، وَإِنَّ لَكَ عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَهُ ، فَأَخَذَ طَائِرٌ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ ، فَقَالَ : وَالله مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ الله إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ وَجَدَا مَعَابِرَ صِغَارًا تَحْمِلُ أَهْلَ هَذَا السَّاحِلِ إِلَى هَذَا السَّاحِلِ الْآخَرِ عَرَفُوهُ ، فَقَالُوا : عَبْدُ الله الصَّالِحُ » قَالَ فَقُلْنَا لِسَعِيدٍ : خَضِرٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ « لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ فَخَرَقَهَا وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا ، قَالَ مُوسَى : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : مُنْكَرًا ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ؟ كَانَتِ الْأُولَى نِسْيَانًا ، وَالثَّانِيَةُ شَرْطًا ، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا ﴾ حَتَّى لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ يَعْلَى : قَالَ سَعِيدٌ : وَجَدَ غِلْمَانًا يَلْعَبُونَ ، فَأَخَذَ غُلَامًا كَافِرًا ظَرِيفًا فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ

ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ . فَقَالَ : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ لَمْ تَعْمَلِ الْحِنْثَ ؟ وَابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَهَا : (زَكِيَّةً زَاكِيَةً مُسْلِمَةً) كَقَوْلِكَ : غُلَامًا زَكِيًّا ، فَانْطَلَقَا فَوَجَدَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ، قَالَ سَعِيدٌ بِيَدِهِ هَكَذَا وَدَفَعَ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ ، قَالَ : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قَالَ يَعْلَى : حَسِبْتُ أَنَّ سَعِيدًا قَالَ : فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قَالَ سَعِيدٌ : أَجْرًا نَأْكُلُهُ ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ وَكَانَ أَمَامَهُمْ قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ (أَمَامَهُمْ مَلِكٌ) يَزْعُمُونَ عَنْ غَيْرِ سَعِيدٍ أَنَّهُ : هُدَدُ بْنُ بُدَدَ ، وَالْغُلَامُ الْمَقْتُولُ اسْمُهُ - يَزْعُمُونَ - حَيْسُورٌ ﴿ مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدَعَهَا بِعَيْبِهَا ، فَإِذَا جَاوَزُوا أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا . مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ سَدُّوهَا بِقَارُورَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِالْقَارِ : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وَكَانَ هُوَ كَافِرًا ﴿ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالْأَوَّلِ الَّذِي قَتَلَ خَضِرٌ ، وَزَعَمَ غَيْرُ سَعِيدٍ أَنَّهُمَا أُبْدِلَا جَارِيَةً ، وَأَمَّا دَاوُدُ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ فَقَالَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ : إِنَّهَا جَارِيَةٌ .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ فَهَدَمَهُ ، ثُمَّ قَعَدَ يَبْنِيه ، فَضَجِرَ مُوسَى مِمَّا يَرَاهُ يَصْنَعُ مِنَ التَّكْلِيفِ ، وَمَا لَيْسَ عَلَيْهِ صَبْرٌ قَالَ : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أَيْ : قَدِ اسْتَطْعَمْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا ، وَضِفْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا ، ثُمَّ قَعَدْتَ تَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ صَنِيعَةٍ ، وَلَوْ شِئْتَ لَأُعْطِيتُ عَلَيْهِ أَجْرًا فِي عَمَلِهِ . قَالَ : ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيِّ ابْنِ كَعْبٍ : (كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ) وَإِنَّمَا عِبْتُهَا لِأَرُدَّهُ عَنْهَا ، فَسَلِمَتْ حِينَ رَأَى الْعَيْبَ الَّذِي صَنَعْتُ بِهَا ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ

أَمْرِي ﴾ أَيْ : مَا فَعَلْتُهُ عَنْ نَفْسِي ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : مَا كَانَ الْكَنْزُ إِلَّا عِلْمًا .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(١) أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، هُوَ خَضِرٌ فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ : إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى الَّذِي سُئِلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ ، فَهَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ ؟ قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : بَيْنَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : تَعْلَمُ مَكَانَ رَجُلٍ أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ : لَا ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى ، بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، فَكَانَ مُوسَى يَتْبَعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ قَالَ مُوسَى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فَوَجَدَا عَبْدَنَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ فِي كِتَابِهِ .

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ مُوسَى عليه السلام لِذَلِكَ الرَّجُلِ الْعَالِمِ وَهُوَ الْخَضِرُ ، الَّذِي خَصَّهُ اللهُ بِعِلْمٍ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مُوسَى ، كَمَا أَنَّهُ أَعْطَى مُوسَى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُعْطِهِ الْخَضِر ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ سُؤَالُ تَلَطُّفٍ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِلْزَامِ وَالْإِجْبَارِ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سُؤَالَ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَتَّبِعُكَ ﴾ أَيْ : أَصْحَبُكَ وَأُرَافِقُكَ ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أَيْ : مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ ، شَيْئًا أَسْتَرْشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ،

(١) البخاري (حديث ٧٤) .

فعِنْدَهَا ﴿ قَالَ ﴾ الْخَضِرُ لِمُوسَى ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أَيْ : إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مُصَاحَبَتِي ، لِمَا تَرَى مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ، لِأَنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ مَا عَلَّمَكَهُ اللهُ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ مَا عَلَّمَنِيهِ اللهُ ، فَكُلٌّ مِنَّا مُكَلَّفٌ بِأُمُورٍ مِنَ اللهِ دُونَ صَاحِبِهِ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتُنْكِرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْذُورٌ فِيهِ ، وَلَكِنْ مَا اطَّلَعْتَ عَلَى حِكْمَتِهِ وَمَصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اطَّلَعْتُ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ : مُوسَى ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ أَيْ : عَلَى مَا أَرَى مِنْ أُمُورِكَ ﴿ وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أَيْ : وَلَا أُخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْخَضِرُ ﷺ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ ﴾ أَيْ : اِبْتِدَاءً ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أَيْ : حَتَّى أَبْدَأَكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي .

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى وَصَاحِبِهِ وَهُوَ الْخَضِرُ : أَنَّهُمَا انْطَلَقَا لَمَّا تَوَافَقَا وَاصْطَحَبَا ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ أَنْكَرَهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَبْتَدِئُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ بِشَرْحِهِ وَبَيَانِهِ ، فَرَكِبَا فِي السَّفِينَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ كَيْفَ رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ، وَأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ يَعْنِي : بِغَيْرِ أُجْرَةٍ ، تَكْرِمَةً لِلْخَضِرِ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فِي الْبَحْرِ وَلَجَجَتْ ، أَيْ : دَخَلَتِ اللُّجَّةَ ، قَامَ الْخَضِرُ فَخَرَقَهَا وَاسْتَخْرَجَ لَوْحًا مِنْ أَلْوَاحِهَا ثُمَّ رَقَّعَهَا ، فَلَمْ يَمْلِكْ مُوسَى ﷺ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِ ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ، وَهَذِهِ اللَّامُ لَامُ الْعَاقِبَةِ ، لَا لَامُ التَّعْلِيلِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ قِيلَ : مُنْكَرًا ، وَقِيلَ : عَجَبًا ، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُ الْخَضِرُ ، مُذَكِّرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشَّرْطِ : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يَعْنِي : وَهَذَا

الصَّنِيعُ فَعَلْتُهُ قَصْدًا وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اِشْتَرَطْتَ مَعَكَ أَنْ لَا تُنْكِر عَلَيَّ فِيهَا ، لِأَنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِهَا خُبْرًا ، وَلَهَا دَخْلٌ هُوَ مَصْلَحَة وَلَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ : مُوسَى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أَيْ : لَا تُضَيِّقْ عَلَيَّ وَلَا تُشَدِّدُ عَلَيَّ ، وَلِهَذَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **كَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا** »(١).

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَانطَلَقَا ﴾ أَيْ : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فِي قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَى ، وَأَنَّهُ عَمَدَ إِلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ . فَلَمَّا شَاهَدَ مُوسَى عليه السلام هَذَا أَنْكَرَهُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ وَبَادَرَ ، فَقَالَ : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ أَيْ : صَغِيرَةً لَمْ تَعْمَلِ الْحِنْثَ ، وَلَا عَمِلَتْ إِثْمًا بَعْدُ ، فَقَتَلْتَهُ ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ، أَيْ : بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ لِقَتْلِهِ ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أَيْ : ظَاهِرُ النَّكَارَةِ . ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ فَأَكَّدَ أَيْضًا فِي التَّذْكَارِ بِالشَّرْطِ الْأَوَّلِ ، فَلِهَذَا قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا ﴾ أَيْ : إِنِ اعْتَرَضْت عَلَيْكَ بِشَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿ فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ أَيْ : قَدْ أَعْذَرْتَ إِلَيَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ** : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لَهُ بَدَأَ بِنَفْسِهِ فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ : « **رَحْمَةُ الله عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ الْعَجَبَ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ** : ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ »(٢) مُثَقَّلَةٌ .

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا

---

(١) **صحيح** : وقد تقدم قريبًا .

(٢) مسلم بنحوه في طرق حديث (٢٣٨٠) .

فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾
قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمَا : أَنَّهُمَا انْطَلَقَا بَعْدَ الْمَرَّتَيْنِ الْأَوَّلَتَيْنِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ : « **حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا** » أَيْ : بُخَلَاءَ ﴿ فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحْدَثَاتِ : بِمَعْنَى الْمَيْلِ ، وَالِانْقِضَاضُ : هُوَ السُّقُوطُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ أَيْ : فَرَدَّهُ إِلَى حَالَةِ الِاسْتِقَامَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدِهِ وَدَعَّمَهُ حَتَّى رَدَّ مَيْلَهُ ، وَهَذَا خَارِقٌ فَعِنْدَ ذَلِكَ ، قَالَ مُوسَى لَهُ : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أَيْ : لِأَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّفُونَا ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَعْمَلَ لَهُمْ مَجَّانًا ، ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ أَيْ : لِأَنَّكَ شَرَطْتَ عِنْدَ قَتْلِ الْغُلَامِ ، أَنَّكَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ، فَهُوَ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أَيْ : بِتَفْسِيرِ ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

هَذَا تَفْسِيرُ مَا أَشْكَلَ أَمْرُهُ عَلَى مُوسَى ﷺ مَا كَانَ أَنْكَرَ ظَاهِرَهُ ، وَقَدْ أَظْهَرَ اللهُ الْخَضِرَ ﷺ عَلَى حِكْمَةٍ بَاطِنَةٍ فَقَالَ : إِنَّ السَّفِينَةَ إِنَّمَا خَرَقْتُهَا لِأَعِيبَهَا ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلِكٍ مِنَ الظَّلَمَةِ ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صَالِحَةٍ ، أَيْ : جَيِّدَةٍ ﴿ غَصْبًا ﴾ ، ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ لِأَرُدَّهُ عَنْهَا لِعَيْبِهَا ، فَيَنْتَفِعُ بِهَا أَصْحَابُهَا الْمَسَاكِينُ ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ يَنْتَفِعُونَ بِهِ غَيْرُهَا ، **وَقَدْ قِيلَ** : إِنَّهُمْ أَيْتَامٌ .

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ**

طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا))(١) ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أَيْ : يَحْمِلُهُمَا حُبُّهُ عَلَى مُتَابَعَتِهِ عَلَى الْكُفْرِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِينَ وُلِدَ ، وَحَزِنَا عَلَيْهِ حِينَ قُتِلَ ، وَلَوْ بَقِيَ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُمَا فَلْيَرْضَ امْرُؤٌ بِقَضَاءِ الله ، فَإِنَّ قَضَاءَ الله لِلْمُؤْمِنِ فِيمَا يَكْرَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبُّ ، وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ : ((**لَا يَقْضِي اللهُ لِمُؤْمِنٍ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ**))(٢)، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أَيْ : وَلَدًا أَزْكَى مِنْ هَذَا ، وَهُمَا أَرْحَمُ بِهِ مِنْهُ ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ .

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ الْقَرْيَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ ﴾ [محمد : ١٣] ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] يَعْنِي . مَكَّةَ وَالطَّائِفَ ، **وَمَعْنَى الْآيَةِ** : أَنَّ هَذَا الْجِدَارَ إِنَّمَا أَصْلَحْتُهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا .

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كَانَ تَحْتَهُ مَالٌ مَدْفُونٌ لَهُمَا ، وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ مِنَ الْآيَةِ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ – رَحِمَهُ الله – **قِيلَ** : كَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ عِلْمٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يُحْفَظُ فِي ذُرِّيَّتِهِ وَتَشْمَلُ بَرَكَةَ عِبَادَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةِ بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ ، وَرَفْعِ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لِتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَوَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ . **قَالَ سَعِيدُ**

---

(١) مسلم (٢٦٦١) .

(٢) صحيح : وقد تقدم بنحوه .

ابْنُ جُبَيْرٍ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : حُفِظَا بِصَلَاحِ أَبِيهِمَا وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمَا صَلَاحًا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ ، هَاهُنَا أَسْنَدَ الْإِرَادَةَ إِلَى الله تَعَالَى ؛ لأَنَّ بُلُوغَهُمَا الْحُلُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ ، وَقَالَ فِي الْغُلَامِ : ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ وَقَالَ فِي السَّفِينَةِ : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي فَعَلْتُهُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَةِ الله بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ ، وَوَالِدَي الْغُلَامِ ، وَوَلَدَي الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، أَيْ : لَكِنِّي أُمِرْتُ بِهِ وَوَقَفْتُ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ بِنُبُوَّةِ الخضِرِ عليه السلام مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ عِلْمًا ، وَقَالَ آخَرُونَ : كَانَ رَسُولًا ، وَذَهَبَ كَثِيرُونَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا بَلْ كَانَ وَلِيًّا فَاللهُ أَعْلَمُ . وَحَكَى النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ فِي كَوْنِهِ بَاقِيًا إِلَى الْآنِ ، ثُمَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَوْلَيْنِ : وَمَالَ هُوَ وَابْنُ الصَّلَاحِ إِلَى بَقَائِهِ ، وَذَكَرُوا فِي ذَلِكَ حِكَايَاتٍ وَآثَارًا عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ ، وَجَاءَ ذِكْرُهُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَرَجَّحَ آخَرُونَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَغَيْرِهِمْ خِلَافَ ذَلِكَ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] ، وَبِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ : « اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ »[1] وَبِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، وَلَا حَضَرَ عِنْدَهُ ، وَلَا قَاتَلَ مَعَهُ ، وَلَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ مِنْ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، لأَنَّهُ عليه السلام كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَأَخْبَرَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِقَلِيلٍ : أَنَّهُ لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ لَيْلَتِهِ تِلْكَ عَيْنٌ تَطْرِفُ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ لأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ خَضْرَاءَ »[2]. وَالْمُرَادُ بِالْفَرْوَةِ هَاهُنَا : الْحَشِيشُ الْيَابِسُ ، وَهُوَ : الْهَشِيمُ مِنَ النَّبَاتِ . قَالَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ وَجْهُ الْأَرْضِ .

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) .

(٢) البخاري (٣٤٠٢) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أَيْ : هَذَا تَفْسِيرُ مَا ضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا ، وَلَمْ تَصْبِرْ حَتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ اِبْتِدَاءً ، وَلَمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لَهُ وَبَيَّنَهُ وَوَضَّحَهُ وَأَزَالَ الْمُشْكِلِ قَالَ : ﴿ تَسْطِع ﴾ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ كَانَ الْإِشْكَالُ قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَالَ : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فَقَابَلَ الْأَثْقَلَ بِالْأَثْقَلِ وَالْأَخَفَ بِالْأَخَفِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وَهُوَ الصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وَهُوَ أَشَقُّ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ لَفْظًا وَمَعْنًى وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا بَالُ فَتَى مُوسَى ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْقِصَّةِ ثُمَّ لَمْ يُذْكَرْ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ فَالْجَوَابُ : أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالسِّيَاقِ إِنَّمَا هُوَ قِصَّةُ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ وَذِكْرُ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا ، وَفَتَى مُوسَى مَعَهُ تَبَعٌ ، وَقَدْ صَرَّحَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يُوشَعُ بْنُ نُونَ .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أَيْ : عَنْ خَبَرِهِ . وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَدْ بَعَثَ كُفَّارُ مَكَّةَ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَ مِنْهُمْ مَا يَمْتَحِنُونَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا : سَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ فِي الْأَرْضِ ، وَعَنْ فِتْيَةٍ مَا يُدْرَى مَا صَنَعُوا ، وَعَنِ الرُّوحِ فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ .

قَالَ البَعْضُ : كَانَ مَلِكًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ ، لِأَنَّهُ مَلَكَ الرُّومَ وَفَارِسَ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : كَانَ فِي رَأْسِهِ شِبْهُ الْقَرْنَيْنِ ، **وعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ** : سُئِلَ عَلِيٌّ ﷺ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ؟ فَقَالَ : كَانَ عَبْدًا نَاصِحًا لله ﷻ فَنَاصَحَهُ ، دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الله ، فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَمَاتَ ، فَأَحْيَاهُ اللهُ فَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى الله فَضَرَبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ فَمَاتَ ، فَسُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ . **وَيُقَالُ** : إِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ ؛ لأَنَّهُ بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّمْسِ وَيَغْرُبُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : أَعْطَيْنَاهُ مُلْكًا عَظِيمًا مُمَكَّنًا ، فِيهِ مِنْ جَمِيعِ

مَا يُؤْتَى المُلُوكُ مِنَ التَّمْكِينِ وَالجُنُودِ وَآلَاتِ الحَرْبِ وَالحِصَارَاتِ ، وَلِهَذَا مَلَكَ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ مِنَ الأَرْضِ ، وَدَانَتْ لَهُ البِلَادُ وَخَضَعَتْ لَهُ مُلُوكُ العِبَادِ ، وَخَدَمَتْهُ الأُمَمُ مِنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ ، وَلِهَذَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ : أَنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا القَرْنَيْنِ لأَنَّهُ بَلَغَ قَرْنَيِ الشَّمْسِ مَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا . ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : عِلْمًا . **وَقِيلَ** : تَعْلِيمُ الأَلْسِنَةِ ، كَانَ لَا يَغْزُو قَوْمًا إِلَّا كَلَّمَهُمْ بِلِسَانِهِمْ .

وَهَكَذَا ذُو القَرْنَيْنِ يَسَّرَ اللهُ لَهُ الأَسْبَابَ ، أَيْ : الطُّرُقَ وَالوَسَائِلَ . إِلَى فَتْحِ الأَقَالِيمِ وَالرَّسَاتِيقِ وَالبِلَادِ وَالأَرَاضِي ، وَكَسْرِ الأَعَادِي وَكَبْتِ مُلُوكِ الأَرْضِ ، وَإِذْلَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ ، قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ سَبَبًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ مَنْزِلًا وَطَرِيقًا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ** : ﴿ سَبَبًا ﴾ قَالَ : طَرَفِي الأَرْضِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : أَتْبَعَ مَنَازِلَ الأَرْضِ وَمَعَالِمَهَا ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أَيْ : المَنَازِلُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : عِلْمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ أَيْ : فَسَلَكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْصَى مَا يُسْلَكُ فِيهِ مِنَ الأَرْضِ مِنْ نَاحِيَةِ المَغْرِبِ ، وَهُوَ مَغْرِبُ الأَرْضِ ، وَأَمَّا الوُصُولُ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ مِنَ السَّمَاءِ فَمُتَعَذِّرٌ ، وَمَا يَذْكُرُهُ أَصْحَابُ القَصَصِ وَالأَخْبَارِ مِنْ أَنَّهُ سَارَ فِي الأَرْضِ مُدَّةً وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ مِنْ وَرَائِهِ ، فَشَيْءٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَأَكْثَرُ ذَلِكَ مِنْ خُرَافَاتِ أَهْلِ الكِتَابِ وَاخْتِلَافِ زَنَادِقَتِهِمْ وَكَذِبِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أَيْ : رَأَى الشَّمْسَ فِي مَنْظَرِهِ تَغْرُبُ فِي البَحْرِ المُحِيطِ ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنِ انْتَهَى إِلَى سَاحِلِهِ ، يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِيهِ ،

وَهِيَ لَا تُفَارِقُ الْفَلَكَ الرَّابِعَ الَّذِي هِيَ مُثْبَتَةٌ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ ، وَالْحَمِئَةُ : مُشْتَقَّةٌ عَلَى إِحْدَى الْقِرَاءَتَيْنِ مِنَ الْحَمْأَةِ ، وَهُوَ : الطِّينُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٨] أَيْ : طِينٍ أَمْلَسَ ، ﴿ عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : تَغِيبُ فِي طِينَةٍ سَوْدَاءَ . **وَقِيلَ** : (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ) يَعْنِي : حَارَّةً .

قُلْتُ : وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ مَعْنَيَيْهِمَا ، إِذْ قَدْ تَكُونُ حَارَّةً لِمُجَاوَرَتِهَا وَهَجَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا وَمُلَاقَاتِهَا الشُّعَاعَ بِلَا حَائِلٍ وَ ﴿ حَمِئَةٍ ﴾ : فِي مَاءٍ وَطِينٍ أَسْوَدَ . ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أَيْ : أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ ، ذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّةً عَظِيمَةً مِنْ بَنِي آدَمَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ مَعْنَى هَذَا : أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَكَّنَهُ مِنْهُمْ وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ ، وَخَيَّرَهُ إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَسَبَى ، وَإِنْ شَاءَ مَنَّ أَوْ فَدَى ، فَعُرِفَ عَدْلُهُ وَإِيمَانُهُ فِيمَا أَبْدَاهُ عَدْلُهُ وَبَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَشِرْكِهِ بِرَبِّهِ ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أَيْ : شَدِيدًا بَلِيغًا وَجِيعًا أَلِيمًا ، وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أَيْ : تَابَعَنَا عَلَى مَا نَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللهِ ﷻ ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ **قِيلَ** : مَعْرُوفًا .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ إِلَى مَطْلَعِهَا ، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُمْ وَغَلَبَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالَهُمْ وَأَمْتِعَتَهُمْ ، وَاسْتَخْدَمَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مَا تَسْتَعِينُ بِهِ جُيُوشُهُ عَلَى قِتَالِ الْإِقْلِيمِ الْمُتَاخِمِ لَهُمْ . وَلَمَّا اِنْتَهَى إِلَى مَطْلِعِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أَيْ : أُمَّةٍ ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ

بِنَاءٌ يَكُنُّهُمْ ، وَلَا أَشْجَارٌ تُظِلُّهُمْ وَتَسْتُرُهُمْ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ . ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : عِلْمًا . أَيْ : نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ جَيْشِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْءٌ ، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ فَإِنَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران : ٥]

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أَيْ : ثُمَّ سَلَكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِقِ الْأَرْضِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ وَهُمَا جَبَلَانِ مُتَنَاوِحَانِ بَيْنَهُمَا ثُغْرَةٌ يَخْرُجُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ عَلَى بِلَادِ التُّرْكِ ، فَيَعِيثُونَ فِيهَا فَسَادًا وَيُهْلِكُونَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ عليه السلام كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ ، فَيَقُولُ : وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا [فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلِ ؟ فَقَالَ : « ابْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ »][2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أَيْ : لِاسْتِعْجَامِ كَلَامِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ النَّاسِ ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي

(١) البخاري (٦٥٣٠) ، ومسلم (٢٢٢) .
(٢) ما بين المعقوفتين نقلناه من صحيح البخاري ، وليس في الأصل حيث فيه الشاهد من الحديث أن يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام .

ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَجْرًا عَظِيمًا . يَعْنِي : أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَالًا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ ، حَتَّى يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ، فَقَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعِفَّةٍ وَدِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ وَقَصْدٍ لِلْخَيْرِ : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِي أَعْطَانِي اللهُ مِنَ الْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ خَيْرٌ لِي مِنَ الَّذِي تَجْمَعُونَهُ ، كَمَا قَالَ سُلَيْمَانُ عليه السلام ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ [النمل : ٣٦] ، وَهَكَذَا قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ : الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي تَبْذُلُونَهُ ، وَلَكِنْ سَاعِدُونِي ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أَيْ : بِعَمَلِكُمْ وَآلَاتِ الْبِنَاءِ . ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ وَالزُّبُرُ : جَمْعُ زُبْرَةٍ ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنْهُ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهِيَ كَاللَّبِنَةِ . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ أَيْ : وَضَعَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْأَسَاسِ ، حَتَّى إِذَا حَاذَى بِهِ رُءُوسَ الْجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا . وَاخْتَلَفُوا فِي مِسَاحَةِ عَرْضِهِ وَطُولِهِ عَلَى أَقْوَالٍ ﴿ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾ أَيْ : أَجَّجَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كُلُّهُ نَارًا ﴿ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ **قَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ النُّحَاسُ ، **زَادَ بَعْضُهُمْ** : الْمُذَابُ ، وَيَسْتَشْهِدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ [سبأ : ١٢]

وَقَدْ بَعَثَ الْخَلِيفَةُ الْوَاثِقُ فِي دَوْلَتِهِ بَعْضَ أُمَرَائِهِ ، وَجَهَّزَ مَعَهُ جَيْشًا سَرِيَّةً ، لِيَنْظُرُوا إِلَى السَّدِّ وَيُعَايِنُوهُ وَيَنْعَتُوهُ لَهُ إِذَا رَجَعُوا ، فَتَوَصَّلُوا مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَاد ، وَمِنْ مَلِكٍ إِلَى مَلِكٍ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَيْهِ وَرَأَوْا بِنَاءَهُ مِنَ الْحَدِيدِ وَمِنَ النُّحَاسِ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهِ بَابًا عَظِيمًا وَعَلَيْهِ أَقْفَالٌ عَظِيمَةٌ ، وَرَأَوْا بَقِيَّةَ اللَّبِنِ وَالْعَمَلِ فِي بُرْجٍ هُنَاكَ ، وَأَنَّ عِنْدَهُ حَرَسًا مِنَ الْمُلُوكِ الْمُتَاخِمَةِ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَالٍ مُنِيفٍ شَاهِقٍ لَا يُسْتَطَاعُ ، وَلَا مَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَكَانَتْ غَيْبَتُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَنَتَيْنِ ، وَشَاهَدُوا أَهْوَالًا وَعَجَائِبَ . ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى :

فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨) ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا (٩٩)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ : أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا مِنْ فَوْقِ هَذَا السَّدِّ ، وَلَا قَدَرُوا عَلَى نَقْبِهِ مِنْ أَسْفَلِهِ وَلَمَّا كَانَ الظُّهُورُ عَلَيْهِ أَسْهَلَ مِنْ نَقْبِهِ ، قَابَلَ كُلًّا بِمَا يُنَاسِبُهُ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبِهِ ، وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ . فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(١) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : اِرْجِعُوا ، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ، وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : اِرْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَيَسْتَثْنِي فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ ، فَيَقُولُونَ : قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ ، فَيَبْعَثُ اللهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا** » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ** » .

هَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَلَكِنَّ مَتْنَهُ فِي رَفْعِهِ نَكَارَةٌ ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِن اِرْتِقَائِهِ ، وَلَا مِنْ نَقْبِهِ لِإِحْكَامِ بِنَائِهِ وَصَلَابَتِهِ وَشِدَّتِهِ ، وَلَكِنَّ هَذَا قَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّهُمْ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ يَأْتُونَهُ فَيَلْحَسُونَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ ، فَيَقُولُونَ : غَدًا نَفْتَحُهُ ، فَيَأْتُونَ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ عَادَ كَمَا كَانَ ، فَيَلْحَسُونَهُ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلَ فَيَقُولُونَ : كَذَلِكَ فَيُصْبِحُونَ وَهُوَ كَمَا كَانَ ، فَيَلْحَسُونَهُ ، وَيَقُولُونَ : غَدًا نَفْتَحُهُ ، وَيُلْهَمُونَ أَنْ يَقُولُوا : إِنْ شَاءَ اللهُ ، فَيُصْبِحُونَ وَهُوَ كَمَا فَارَقُوهُ فَيَفْتَحُونَهُ ، وَهَذَا مُتَّجِهٌ ، وَلَعَلَّ أَبَا هُرَيْرَةَ تَلَقَّاهُ مِنْ كَعْبٍ فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا كَانَ يُجَالِسُهُ وَيُحَدِّثُهُ ، فَحَدَّثَ بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ فَتَوَهَّمَ بَعْضُ الرُّوَاةِ عَنْهُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ فَرَفَعَهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - .

---

(١) إسناده صحيح : وأخرجه أحمد (٢/ ٥١٠) .

وَيُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ نَقْبِهِ ، وَلَا نَقْبِ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَمِنْ نَكَارَةِ هَذَا الْمَرْفُوعِ قَوْلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ أُمِّهَا أُمِّ حَبِيبَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ سُفْيَانُ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ - قَالَتْ : اِسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ : « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا** » وَحَلَّقَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ** » هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ اِتَّفَقَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١) عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ ، وَلَكِنْ سَقَطَ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ ذِكْرُ حَبِيبَةَ وَأَثْبَتَهَا مُسْلِمٌ ، وَفِيهِ أَشْيَاءُ عَزِيزَةٌ نَادِرَةٌ قَلِيلَةُ الْوُقُوعِ فِي صِنَاعَةِ الْإِسْنَادِ ، مِنْهَا : رِوَايَةُ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ وَهُمَا تَابِعِيَّانِ ، وَمِنْهَا : اِجْتِمَاعُ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ فِي سَنَدِهِ كُلُّهُنَّ يَرْوِي بَعْضُهُنَّ عَنْ بَعْضٍ ، ثُمَّ كُلٌّ مِنْهُنَّ صَحَابِيَّةٌ ، ثُمَّ ثِنْتَانِ رَبِيبَتَانِ وَثِنْتَانِ زَوْجَتَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا** »(٢) وَعَقَدَ التِّسْعِينَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أَيْ : لَمَّا بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أَيْ : بِالنَّاسِ ، حَيْثُ جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ حَائِلًا ، يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَبَثِ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أَيْ : إِذَا اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أَيْ : سَاوَاهُ بِالْأَرْضِ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : نَاقَةٌ دَكَّاءُ ، إِذَا كَانَ ظَهْرُهَا مُسْتَوِيًا لَا سَنَامَ لَهَا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] أَيْ : مُسَاوِيًا لِلْأَرْضِ ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : طَرِيقًا كَمَا كَانَ ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أَيْ : كَائِنًا لَا مَحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أَيْ : النَّاسُ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ يُدَكُّ هَذَا السَّدُّ ، وَيَخْرُجُ هَؤُلَاءِ فَيَمُوجُونَ فِي النَّاسِ ، وَيُفْسِدُونَ عَلَى النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَيُتْلِفُونَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَهَذَا كُلُّهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَبَعْدَ الدَّجَّالِ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ :

---

(١) أحمد (٦/٤٢٨) ، ومسلم (٢٨٨٠) ، والبخاري بنحوه (٧١٣٥) .

(٢) البخاري (٧١٣٦) ، ومسلم (٢٨٨١) .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنبياء : ٩٦-٩٧] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا** : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ قَالَ هَذَا أَوَّلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ قَالُوا : إِذَا مَاجَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْتَلِطُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وَالصُّور كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ وَالَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عليه السلام . وَفِي الْحَدِيثِ(١) : « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ** » قَالُوا : كَيْفَ نَقُولُ ؟ قَالَ : « **قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا** » ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أَيْ : أَحْضَرْنَا الْجَمِيعَ لِلْحِسَابِ ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلُهُ بِالْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمَ أَيْ : يُبْرِزُهَا لَهُمْ وَيُظْهِرُهَا ؛ لِيَرَوْا مَا فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ قَبْلَ دُخُولِهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي تَعْجِيلِ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ لَهُمْ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُقَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا** »(٢).

ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى ﴾ أَيْ : تَغَافَلُوا وَتَعَامَوْا وَتَصَامَّوا عَنْ قَبُولِ الْهُدَى وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] ، **وَقَالَ هُنَا** : ﴿ وَكَانُوا۟ لَا

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) ، وقد أعله بعض العلماء ، وانظر كتاب التتبع للدارقطني .

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أَيْ لَا يَعْقِلُونَ عَنِ اللهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : اِعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يَصْلُحُ لَهُمْ ذَلِكَ وَيَنْتَفِعُونَ بِهِ ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨٢]، وَلِهَذَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلًا .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[1] ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾ أَهُمُ الْحَرُورِيَّةُ ؟ قَالَ : لَا ، هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . أَمَّا الْيَهُودُ فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالْجَنَّةِ ، وَقَالُوا : لَا طَعَامَ فِيهَا وَلَا شَرَابَ ، وَالْحَرُورِيَّةُ ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، فَكَانَ سَعْدٌ يُسَمِّيهِمُ الْفَاسِقِينَ . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُمُ الْحَرُورِيَّةُ ، وَمَعْنَى هَذَا عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَشْمَلُ الْحَرُورِيَّةُ ، كَمَا تَشْمَلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَغَيْرَهِمْ ، لَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي هَؤُلَاءِ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَلَا هَؤُلَاءِ ، بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ قَبْلَ خِطَابِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَقَبْلَ وُجُودِ الْخَوَارِجِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ عَبَدَ اللهَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ ، يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِيهَا ، وَأَنَّ عَمَلَهُ مَقْبُولٌ وَهُوَ مُخْطِئٌ وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية : ٢-٤]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٣٩] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ : نُخْبِرُكُمْ ﴿ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٨) .

فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَةً عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةٍ مَشْرُوعَةٍ مَرْضِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أَيْ : يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مَحْبُوبُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ أَيْ : جَحَدُوا آيَاتِ اللهِ فِي الدُّنْيَا ، وَبَرَاهِينَهُ الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ ، وَكَذَّبُوا بِالدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ أَيْ : لَا نُثْقِلُ مَوَازِينَهُمْ ؛ لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ عَنِ الْخَيْرِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ** » وَقَالَ- « **اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الْجَزَاءِ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِ اللهِ وَرُسُلِهِ هُزُوًا ، اسْتَهْزَءُوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدَّ التَّكْذِيبِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ السُّعَدَاءِ ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ، أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْفِرْدَوْسُ هُوَ : الْبُسْتَانُ بِالرُّومِيَّةِ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : هُوَ الْبُسْتَانُ الَّذِي فِيهِ شَجَرُ الْأَعْنَابِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا ، وَفِي الصَّحِيحِ : « **إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطَ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ** »[٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نُزُلًا ﴾ أَيْ : ضِيَافَةً ، فَإِنَّ النُّزُلَ : الضِّيَافَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مُقِيمِينَ سَاكِنِينَ فِيهَا لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا أَبَدًا ﴿ لَا يَبْغُونَ

---

(١) البخاري (٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) .

(٢) البخاري (حديث ٢٧٩٠) .

عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أَيْ : لَا يَخْتَارُونَ عَنْهَا غَيْرَهَا وَلَا يُحِبُّونَ سِوَاهَا . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تَنْبِيهٌ عَلَى رَغْبَتِهِمْ فِيهَا وَحُبِّهِمْ لَهَا ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يُتَوَهَّمُ فِيمَنْ هُوَ مُقِيمٌ فِي المَكَانِ دَائِمًا أَنَّهُ قَدْ يَسْأَمُهُ أَوْ يَمَلُّهُ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الدَّوَامِ وَالخُلُودِ السَّرْمَدِيِّ لَا يَخْتَارُونَ عَنْ مَقَامِهِمْ ذَلِكَ مُتَحَوَّلًا وَلَا انْتِقَالًا وَلَا ظَعْنًا وَلَا رِحْلَةً وَلَا بَدَلًا .

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُل ﴾ يَا مُحَمَّدُ : لَوْ كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ مِدَادًا لِلْقَلَمِ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ كَلِمَاتُ اللهِ وَحُكْمِهِ وَآيَاتِهِ الدَّالَّةِ ، لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ كِتَابَةُ ذَلِكَ ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ ﴾ أَيْ : بِمِثْلِ الْبَحْرِ آخَر ثُمَّ آخَر ، وَهَلُمَّ جَرًّا بُحُورٌ تَمُدُّهُ وَيُكْتَبُ بِهَا ، لَمَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] يَقُولُ : لَوْ كَانَتْ تِلْكَ الْبُحُورُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَالشَّجَرُ كُلُّهُ أَقْلَامٌ ، لَانْكَسَرَتِ الْأَقْلَامُ وَفَنِيَ مَاءُ الْبَحْرِ وَبَقِيَتْ كَلِمَاتُ اللهِ قَائِمَةٌ لَا يُفْنِيهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّرَ قَدْرَهُ ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُثْنِي عَلَى نَفْسِهِ ، إِنَّ رَبَّنَا كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ ، إِنَّ مَثَلَ نَعِيمِ الدُّنْيَا أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ كَحَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ كُلِّهَا .

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ﴿ قُلْ ﴾ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِرِسَالَتِك إِلَيْهِمْ : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِبٌ فَلْيَأْتِ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَاضِي ، عَمَّا

سَأَلْتُمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَخَبَرِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، مِمَّا هُوَ مُطَابِقٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لَوْلَا مَا أَطْلَعَنِي اللهُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أُخْبِرُكُمْ ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ ﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ﴿ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحَ ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللهِ ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا للهِ صَوَابًا عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَرْوِيهِ عَنِ اللهِ ﷻ أَنَّهُ قَالَ : « **أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ** »[١].

وَعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ** » قَالُوا : وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟** »[٢] .

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ** »[٣].

آخِرُ سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَللهِ الْحَمْدُ

---

(١) صحيح لشواهده : أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١) ، وله لفظ آخر عند أحمد في المصدر المذكور ، وعند مسلم (٢٩٨٥) .

(٢) إسناده صحيح : أحمد (٥/ ٤٢٨) .

(٣) البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم (٢٩٨٧) .

تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قِصَّةِ الْهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكَّةَ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَرَأَ صَدْرَ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ (1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

قَوْلُهُ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أَيْ: هَذَا ذِكْرُ رَحْمَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ زَكَرِيَّا. وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، **وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ** (2) أَنَّهُ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ فِي النِّجَارَةِ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ **قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ**: إِنَّمَا أَخْفَى دُعَاءَهُ؛ لِئَلَّا يُنْسَبَ فِي طَلَبِ الْوَلَدِ إِلَى الرُّعُونَةِ لِكِبَرِهِ. حَكَاهُ الْمَاوَرْدِيُّ، **وَقَالَ آخَرُونَ**: إِنَّمَا أَخْفَاهُ لِأَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، **كَمَا قَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ** ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْقَلْبَ التَّقِيَّ، وَيَسْمَعُ الصَّوْتَ الْخَفِيَّ. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أَيْ: ضَعُفْتُ وَخَارَتِ الْقُوَى ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أَيْ: اضْطَرَمَ الْمَشِيبُ فِي السَّوَادِ، **وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا**: الْإِخْبَارُ عَنِ الضَّعْفِ وَالْكِبَرِ وَدَلَائِلِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أَيْ: وَلَمْ أَعْهَدْ مِنْكَ إِلَّا الْإِجَابَةَ فِي الدُّعَاءِ، وَلَمْ تَرُدَّنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُكَ، ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾

---

(1) أخرج ذلك أحمد في المسند (٥/ ٢٩٠)، (١/ ٢٠٢).

(2) وفي صحيح مسلم (٢٣٧٩) «كان زكريا ﵇ نجارًا» وليس عند البخاري - بعد بحث - من ذلك شيء.

قَرَأَ الْأَكْثَرُونَ بِنَصْبِ الْيَاءِ مِنْ ﴿ ٱلْمَوَٰلِيَ ﴾ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ . وَعَنِ الْكِسَائِيِّ أَنَّهُ سَكَّنَ الْيَاءَ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَرَادَ بِالْمَوَالِي الْعُصْبَةَ .

وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى وَجْهُ خَوْفِهِ : أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْدِهِ فِي النَّاسِ تَصَرُّفًا سَيِّئًا فَسَأَلَ اللهَ وَلَدًا يَكُونُ نَبِيًّا مِنْ بَعْدِهِ ، لِيَسُوسَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ مَا يُوحَى إِلَيْهِ ، فَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ ، لَا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لَهُ مَالَهُ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ أَعْظَمُ مَنْزِلَةً وَأَجَلُّ قَدْرًا مِنْ أَنْ يُشْفِقَ عَلَى مَالِهِ إِلَى مَا هَذَا حَدُّهُ : أَنْ يَأْنَفَ مِنْ وِرَاثَةِ عَصَبَاتِهِ لَهُ ، وَيَسْأَلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ فَيَحُوزَ مِيرَاثَهُ دُونَهُمْ ، هَذَا وَجْهٌ .

الثَّانِي : أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ ، بَلْ كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيْهِ ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَجْمَعُ مَالًا وَلَا سِيَّمَا الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَزْهَدَ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**))[1] ، وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْلُ قَوْلِهِ : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي ﴾ عَلَى مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾[النمل: ١٦] أَيْ : فِي النُّبُوَّةِ ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ ، وَلَمَا كَانَ فِي الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ كَبِيرُ فَائِدَةٍ ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ وَالْمِلَلِ أَنَّ الْوَلَدَ يَرِثُ أَبَاهُ ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وِرَاثَةٌ خَاصَّةٌ لَمَا أَخْبَرَ بِهَا ، ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أَيْ : مَرْضِيًّا عِنْدَكَ وَعِنْدَ خَلْقِكَ تُحِبُّهُ وَتُحَبِّبُهُ إِلَى خَلْقِكَ فِي دِينِهِ وَخُلُقِهِ .

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧

هَذَا الْكَلَامُ يَتَضَمَّنُ مَحْذُوفًا وَهُوَ أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ فِي دُعَائِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[آل عمران : ٣٨-٣٩]

---

(١) البخاري (٦٧٢٧) ، ومسلم (١٧٥٨) ، وله عدة طرق عن النبي ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَيْ : لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِهَذَا الِاسْمِ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ﴿ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أَيْ : شَبِيهًا ، أَخَذَهُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ أَيْ : شَبِيهًا ، وَقِيلَ : أَيْ : لَمْ تَلِدِ الْعَوَاقِرُ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا ﷺ كَانَ لَا يُولَدُ لَهُ ، وَكَذَلِكَ امْرَأَتُهُ كَانَتْ عَاقِرًا مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا ، بِخِلَافِ إِبْرَاهِيمَ وَسَارَةَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَإِنَّهُمَا إِنَّمَا تَعَجَّبَا مِنَ الْبِشَارَةِ بِإِسْحَاقَ لِكِبَرِهِمَا لَا لِعُقْرِهِمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر : ٥٤] مَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ لَهُ قَبْلَهُ إِسْمَاعِيلُ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَالَتِ امْرَأَتُهُ : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٢ - ٧٣]

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾

هَذَا تَعَجُّبٌ مِنْ زَكَرِيَّا ﷺ حِينَ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ وَبُشِّرَ بِالْوَلَدِ ، فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا وَسَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَا يُولَدُ لَهُ ، وَالْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْهُ الْوَلَدُ ، مَعَ أَنَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ عَاقِرًا لَمْ تَلِدْ مِنْ أَوَّلِ عُمْرِهَا مَعَ كِبَرِهَا ، وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَعَتَا ، أَيْ : عَسَا عَظْمُهُ وَنَحَلَ ، وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ لِقَاحٌ وَلَا جِمَاعٌ . قِيلَ : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يَعْنِي : قُحُولُ الْعَظْمِ ، وَقِيلَ : ﴿ عِتِيًّا ﴾ يَعْنِي : الْكِبَرَ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَخَصُّ مِنَ الْكِبَرِ . ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ : الْمَلَكُ مُجِيبًا لِزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعْجَبَ مِنْهُ ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أَيْ : إِيجَادُ الْوَلَدِ مِنْكَ وَمِنْ زَوْجَتِكَ هَذِهِ لَا مِنْ غَيْرِهَا ﴿ هَيِّنٌ ﴾ أَيْ : يَسِيرٌ سَهْلٌ عَلَى اللهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا سَأَلَ عَنْهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١]

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ زَكَرِيَّا ﷺ أَنَّهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ أَيْ : عَلَامَةً وَدَلِيلًا عَلَى وُجُودِ مَا وَعَدْتَنِي ، لِتَسْتَقِرَّ نَفْسِي وَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي بِمَا وَعَدْتَنِي ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة : ٢٦٠] ، ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ ﴾ أَيْ : عَلَامَتُكَ ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أَيْ : أَنْ تُحْبَسَ لِسَانَكَ عَنِ الْكَلَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، وَأَنْتَ صَحِيحٌ سَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ .

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : اِعْتَقَلَ لِسَانُهُ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَلَا عِلَّةٍ . وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أَيْ : الَّذِي بُشِّرَ فِيهِ بِالْوَلَدِ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَشَارَ إِشَارَةً خَفِيَّةً سَرِيعَةً ﴿ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أَيْ : مُوَافَقَةً لَهُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ ، زِيَادَةً عَلَى أَعْمَالِهِ وشُكْرًا لله عَلَى مَا أَوْلَاهُ .

﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

وَهَذَا أَيْضًا تَضَمَّنَ مَحْذُوفًا تَقْدِيرُهُ : أَنَّهُ وُجِدَ هَذَا الْغُلَامُ الْمُبَشَّرُ بِهِ ، وَهُوَ : يَحْيَى ﷺ وَأَنَّ اللهَ عَلَّمَهُ الْكِتَابَ : وَهُوَ التَّوْرَاةُ الَّتِي كَانُوا يَتَدَارَسُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَحْكُم بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ، وَقَدْ كَانَ سِنُّهُ إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا ، فَلِهَذَا نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَبِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ أَيْ : تَعَلَّمِ الْكِتَابَ ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أَيْ : بِجِدٍّ وَحِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ ، وَالْجِدَّ وَالْعَزْمَ ، وَالْإِقْبَالَ عَلَى الْخَيْرِ ، وَالْإِكْبَابَ عَلَيْهِ ، وَالِاجْتِهَادَ فِيهِ ، وَهُوَ صَغِيرٌ حَدَثٌ . ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَرَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ : وَتَعَطُّفًا مِنْ رَبِّهِ عَلَيْهِ . **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : وَمَحَبَّةً ، وَوَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : لَا وَاللهِ مَا أَدْرِي

مَا ﴿ وَحَنَانًا ﴾ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَحَنَانًا ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَحَنَانًا وَزَكَاةً ، أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ ذَا حَنَانٍ وَزَكَاةٍ ، فَالْحَنَانُ هُوَ : الْمَحَبَّةُ فِي شَفَقَةٍ وَمَيْلٍ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : حَنَّتِ النَّاقَةُ عَلَى وَلَدِهَا ، وَحَنَّتِ الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْمَرْأَةُ حَنَّةً مِنَ الْحَنِيَّةِ ، وَحَنَّ الرَّجُلُ إِلَى وَطَنِهِ ، وَمِنْهُ التَّعَطُّفُ وَالرَّحْمَةُ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ الْمَلِيكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ وَحَنَانًا ﴾ ، فَالزَّكَاةُ : الطَّهَارَةُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْآثَامِ وَالذُّنُوبِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : الزَّكَاةُ : الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، **وَقِيلَ** : الْعَمَلُ الصَّالِحُ الزَّكِيُّ ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ **قِيلَ** : طَهُرَ فَلَمْ يَعْمَلْ بِذَنْبٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى طَاعَتَهُ لِرَبِّهِ ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ ذَا رَحْمَةٍ وَزَكَاةٍ وَتُقًى ، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَتِهِ لِوَالِدَيْهِ وَبِرِّهِ بِهِمَا وَمُجَانَبَتِهِ عُقُوقَهُمَا ، قَوْلًا وَفِعْلًا أَمْرًا وَنَهْيًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ جَزَاءً لَهُ عَلَى ذَلِكَ : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أَيْ : لَهُ الْأَمَانُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَحْوَالِ ، **وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ** : أَوْحَشُ مَا يَكُونُ الْمَرْءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ : يَوْمَ يُولَدُ ، فَيَرَى نَفْسَهُ خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى نَفْسَهُ فِي مَحْشَرٍ عَظِيمٍ قَالَ : فَأَكْرَمَ اللهُ فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَخَصَّهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ زَكَرِيَّا ﷺ وَأَنَّهُ أَوْجَدَ مِنْهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَعُقْمِ زَوْجَتِهِ وَلَدًا زَكِيًّا طَاهِرًا ، مُبَارَكًا عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّةِ مَرْيَمَ فِي إِيجَادِهِ وَلَدَهَا عِيسَى ﷺ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَبٍ ، فَإِنَّ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ مُنَاسَبَةٌ وَمُشَابَهَةٌ ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَهُمَا فِي آلِ عِمْرَانَ وَهَاهُنَا ، وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ يَقْرُنُ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ لِتَقَارُبِ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى ، لِيُدِلَّ عِبَادَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظَمَةِ سُلْطَانِهِ ، وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ، فَقَالَ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ ﴾ وَهِيَ : مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ مِنْ سُلَالَةِ دَاوُدَ ﷺ ، وَكَانَتْ مِنْ بَيْتٍ طَاهِرٍ طَيِّبٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى قِصَّةَ وِلَادَةِ أُمِّهَا لَهَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَأَنَّهَا نَذَرَتْهَا مُحَرَّرَةً ، أَيْ : تَخْدُمُ مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَكَانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِذَلِكَ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، وَنَشَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَشْأَةً عَظِيمَةً ، فَكَانَتْ إِحْدَى الْعَابِدَاتِ النَّاسِكَاتِ الْمَشْهُورَاتِ بِالْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ وَالتَّبَتُّلِ وَالدُّءُوبِ ، وَكَانَتْ فِي كَفَالَةِ زَوْجِ أُخْتِهَا زَكَرِيَّا نَبِيِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ ذَاكَ وَعَظِيمِهِمُ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينِهِمْ ، وَرَأَى لَهَا زَكَرِيَّا مِنَ الْكَرَامَاتِ الْهَائِلَةِ مَا بَهَرَهُ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، فَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا ثَمَرَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ ، وَثَمَرَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى - وَلَهُ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ - أَنْ يُوجَدَ مِنْهَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ عِيسَى ﷺ أَحَدُ الرُّسُلِ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ الْعِظَامِ ﴿ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أَيْ : اعْتَزَلَتْهُمْ وَتَنَحَّتْ عَنْهُمْ وَذَهَبَتْ إِلَى شَرْقِ الْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] **قَالَ** : إِنِّي لَأَعْلَمُ خَلْقِ اللهِ لِأَيِّ شَيْءٍ اتَّخَذَتِ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ قِبْلَةً لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ وَاتَّخَذُوا مِيلَادَ عِيسَى قِبْلَةً ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ شَاسِعًا مُتَنَحِّيًا ، ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أَيْ : اسْتَتَرَتْ مِنْهُمْ وَتَوَارَتْ ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا جِبْرِيلَ ﷺ ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أَيْ : عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ تَامٍّ كَامِلٍ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا

---

(١) **صحيح** : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، وقد أخرجه الطبري (٢٣٥٧٤) بسند صحيح .

رُوحَنَا ﴾ يَعْنِي : جَبْرَائِيلَ ، وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣-١٩٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أَيْ : لَمَّا تَبَدَّى لَهَا الْمَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ مُنْفَرِدٍ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ ، خَافَتْهُ وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَى نَفْسِهَا ، فَقَالَتْ : ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتَ تَخَافُ اللهَ تَذْكِيرًا لَهُ بِاللهِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ أَنْ يَكُونَ بِالْأَسْهَلِ فَالْأَسْهَلِ ، فَخَوَّفَتْهُ أَوَّلًا بِاللهِ ﷻ . قَالَ أَبُو وَائِلٍ وَذَكَرَ قِصَّةَ مَرْيَمَ فَقَالَ : قَدْ عَلِمَتْ أَنَّ التَّقِيَّ ذُو نُهْيَةٍ حِينَ قَالَتْ : ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أَيْ : فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا وَمُزِيلًا لِمَا حَصَلَ عِنْدَهَا مِنَ الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِهَا : لَسْتُ مِمَّا تَظُنِّينَ وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ ، أَيْ : بَعَثَنِي اللهُ إِلَيْكِ ، وَيُقَالُ إِنَّهَا لَمَّا ذَكَرَتِ الرَّحْمَنَ انْتَفَضَ جِبْرِيلُ فَرَقًا وَعَادَ إِلَى هَيْئَتِهِ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ .

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ أَيْ : فَتَعَجَّبَتْ مَرْيَمُ مِنْ هَذَا ، وَقَالَتْ : كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ؟ أَيْ : عَلَى أَيِّ صِفَةٍ يُوجَدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي ، وَلَسْتُ بِذَاتِ زَوْجٍ وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ ؟ ، وَلِهَذَا قَالَتْ : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ، وَالْبَغِيُّ : هِيَ الزَّانِيَةُ . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أَيْ : فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ : إِنَّ اللهَ قَدْ قَالَ إِنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْكِ غُلَامًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكِ بَعْلٌ وَلَا يُوجَدُ مِنْكِ فَاحِشَةٌ ، فَإِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ ، الَّذِي نَوَّعَ فِي خَلْقِهِمْ ، فَخَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذُّرِّيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أَيْ : وَنَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ ، نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

يَـمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥-٤٦] أَيْ : يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ فِي مَهْدِهِ وَكُهُولَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ جِبْرِيلَ لِمَرْيَمَ ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُقَدَّرٌ فِي عِلْمِ الله تَعَالَى وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنَّهُ كَنَّى بِهَذَا عَنِ النَّفْخِ فِي فَرْجِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم : ١٢] ، **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ** : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ قَدْ عَزَمَ عَلَى هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ ، وَاخْتَارَ هَذَا أَيْضًا ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَمْ يَحْكِ غَيْرَهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ -.

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ : أَنَّهَا لَمَّا قَالَ لَهَا جِبْرِيلُ عَنِ الله تَعَالَى مَا قَالَ ، إِنَّهَا اِسْتَسْلَمَتْ لِقَضَاءِ الله تَعَالَى ، **فَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ** : أَنَّ الْمَلَكَ وَهُوَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام عِنْدَ ذَلِكَ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا ، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ حَتَّى وَلَجَتْ فِي الْفَرْجِ ، فَحَمَلَتْ بِالْوَلَدِ بِإِذْنِ الله تَعَالَى ، فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهِ ضَاقَتْ ذَرْعًا وَلَمْ تَدْرِ مَاذَا تَقُولُ لِلنَّاسِ ، فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ لَا يُصَدِّقُونَهَا فِيمَا تُخْبِرُهُمْ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهَا أَفْشَتْ سِرَّهَا ، وَذَكَرَتْ أَمْرَهَا لِأُخْتِهَا اِمْرَأَةِ زَكَرِيَّا ، وَذَلِكَ أَنَّ زَكَرِيَّا عليه السلام كَانَ قَدْ سَأَلَ اللهَ الْوَلَدَ فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، فَحَمَلَتِ اِمْرَأَتُهُ فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا مَرْيَمُ فَقَامَتْ إِلَيْهَا فَاعْتَنَقَتْهَا ، وَقَالَتْ : أَشَعُرْتِ يَا مَرْيَمُ أَنِّي حُبْلَى ؟ فَقَالَتْ لَهَا مَرْيَمُ : وَهَلْ عَلِمْتِ أَيْضًا أَنِّي حُبْلَى ، وَذَكَرَتْ لَهَا شَأْنَهَا ، وَمَا كَانَ مِنْ خَبَرِهَا ، وَكَانُوا بَيْتَ إِيمَانٍ وَتَصْدِيقٍ ، ثُمَّ كَانَتِ اِمْرَأَةُ زَكَرِيَّا بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا وَاجَهَتْ مَرْيَمَ تَجِدُ الَّذِي فِي بَطْنِهَا يَسْجُدُ لِلَّذِي فِي بَطْنِ مَرْيَمَ ، أَيْ : يُعَظِّمُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ ، فَإِنَّ السُّجُودَ كَانَ فِي مِلَّتِهِمْ عِنْدَ السَّلَامِ مَشْرُوعًا ، كَمَا سَجَدَ لِيُوسُفَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ ، وَكَمَا أَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لِآدَمَ عليه السلام ، وَلَكِنْ حُرِّمَ فِي مِلَّتِنَا هَذِهِ تَكْمِيلًا لِتَعْظِيمِ جَلَالِ الرَّبِّ تَعَالَى .

ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مُدَّةِ حَمْلِ عِيسَى عليه السلام ، فَالْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ - وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - وَأَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ كَمَا تَحْمِلُ النِّسَاءُ بِأَوْلَادِهِنَّ ، وَلَمَّا اسْتَشْعَرَتْ مَرْيَمُ مِنْ قَوْمِهَا اتِّهَامَهَا بِالرِّيبَةِ انْتَبَذَتْ مِنْهُمْ مَكَانًا قَصِيًّا ، أَيْ : قَاصِيًا مِنْهُمْ بَعِيدًا عَنْهُمْ ؛ لِئَلَّا تَرَاهُمْ وَلَا يَرَوْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أَيْ : فَاضْطَرَّهَا وَأَلْجَأَهَا الطَّلْقُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ . وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَلَا تَشُكُّ فِيهِ النَّصَارَى : أَنَّهُ بِبَيْتِ لَحْمٍ وَقَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ ، وَقَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهَا : ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَى وَتُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ ، الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَى السَّدَادِ وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا ، وَبَعْدَمَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً ، فَقَالَتْ : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ هَذَا الْحَالِ ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أَيْ : لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا ، قَالَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أَيْ : شَيْئًا لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذْكَرُ وَلَا يُدْرَى مَنْ أَنَا ، وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ هُوَ السَّقْطُ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى النَّهْيِ عَنْ تَمَنِّي الْمَوْتِ إِلَّا عِنْدَ الْفِتْنَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١]

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

قَرَأَ بَعْضُهُمْ : (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَى : الَّذِي تَحْتَهَا ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ عَلَى أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ : مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ جِبْرِيلُ نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي . قَالَهُ

أَكْثَرُ العُلَمَاءِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ قَالَ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ أَيْ : نَادَاهَا قَائِلًا : لَا تَحْزَنِي ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قَالَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ : هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ . وَقَالَ آخَرُونَ : المُرَادُ بِالسَّرِيِّ عِيسَى عليه السلام . وَالقَوْلُ الأَوَّلُ أَظْهَرُ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أَيْ : وَخُذِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ شَجَرَةً وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي إِبَّانِ ثَمَرِهَا ، قَالَهُ وَهْبُ ابْنُ مُنَبِّهٍ ، وَلِهَذَا امْتَنَّ عَلَيْهَا بِذَلِكَ بِأَنْ جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا ، فَقَالَ : ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أَيْ : طِيبِي نَفْسًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَمْرُو ابْنُ مَيْمُونٍ : مَا مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنُّفَسَاءِ مِنَ التَّمْرِ وَالرُّطَبِ وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ المُرَادُ بِهَذَا القَوْلِ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، لَا أَنَّ المُرَادَ بِهِ القَوْلُ اللَّفْظِيُّ ، لِئَلَّا يُنَافِيَ ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ قَالَ كَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أَي : صَمْتًا .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧
يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨ فَأَشَارَتْ
إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ
ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى
بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا
۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذَلِكَ ، وَأَنْ لَا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ البَشَرِ ؛ فَإِنَّهَا سَتُكْفَى أَمْرَهَا وَيُقَامُ بِحُجَّتِهَا ، فَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللهِ عز وجل وَاسْتَسْلَمَتْ لِقَضَائِهِ ، فَأَخَذَتْ وَلَدَهَا ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا وَ ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أَيْ : أَمْرًا عَظِيمًا ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ .

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ(١) : بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى نَجْرَانَ ، فَقَالُوا : أَرَأَيْتَ مَا تَقْرَءُونَ ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا ؟ قَالَ : فَرَجَعْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : ((**أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَابُوا فِي أَمْرِهَا وَاسْتَنْكَرُوا قَضِيَّتَهَا ، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعَرِّضِينَ بِقَذْفِهَا وَرَمْيِهَا بِالْفِرْيَةِ ، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَهَا ذَلِكَ صَائِمَةً صَامِتَةً ، فَأَحَالَتِ الْكَلَامَ عَلَيْهِ وَأَشَارَتْ لَهُمْ إِلَى خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا ظَانِّينَ أَنَّهَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صِبَاهُ وَصِغَرِهِ كَيْفَ يَتَكَلَّمُ ؟ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّهَ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَى ، وَبَرَّأَهُ عَنِ الْوَلَدِ ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعُبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَجَعَلَنِي مُعَلِّمًا لِلْخَيْرِ ، **وَرَوَى عَنْ بَعْضِهِم قَالَ** : نَفَّاعًا ، ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر : ٩٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى ﴾ أَيْ : وَأَمَرَنِي بِبِرِّ وَالِدَتِي ، ذَكَرَهُ بَعْدَ طَاعَةِ رَبِّهِ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[الإسراء : ٢٣] ، وَقَالَ : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[لقمان : ١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَبِرِّ وَالِدَتِي فَأَشْقَى بِذَلِكَ . **قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ** : الْجَبَّارُ : الشَّقِيُّ ، الَّذِي يَقْتُلُ عَلَى الْغَضَبِ ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : لَا تَجِدُ أَحَدًا عَاقًّا لِوَالِدَيْهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ ، قَالَ : وَلَا تَجِدُ سَيِّئَ الْمَلَكَةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ مُخْتَالًا فَخُورًا ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٥) ، والطبري (٢٣٦٩١) .

مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾[النساء : ٣٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ إِثْبَاتٌ مِنْهُ لِعُبُودِيَّتِهِ لله ﷻ ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ خَلْقِ الله يُحْيَا وَيَمُوتُ وَيُبْعَثُ كَسَائِرِ الْخَلَائِقِ ، وَلَكِنْ لَهُ السَّلَامَةُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ أَشَقُّ مَا يَكُونُ عَلَى الْعِبَادِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ مِنْ خَبَرِ عِيسَى ﷺ ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أَيْ : يَخْتَلِفُ الْمُبْطِلُونَ وَالْمُحِقُّونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَهُ عَبْدًا نَبِيًّا نَزَّهَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ وَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ﴾ أَيْ : عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِهِ فَيَصِيرُ كَمَا يَشَاءُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[آل عمران : ٥٩-٦٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى قَوْمَهُ وَهُوَ فِي مَهْدِهِ : أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنِ الله ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : قَوِيمٌ مَنِ اتَّبَعَهُ رَشَدَ وَهُدِيَ ، وَمَنْ خَالَفَهُ ضَلَّ وَغَوَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَفَ قَوْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عِيسَى بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ وَوُضُوحِ حَالِهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَصَمَّمَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَهُمْ جُمْهُورُ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ - عَلَى أَنَّهُ وَلَدُ زِنْيَةٍ ، وَقَالُوا كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى : إِنَّمَا تَكَلَّمَ اللهُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْحَقِّ الَّذِي أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ، وَافْتَرَى وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا ، وَلَكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجَّلَهُمْ حِلْمًا وَثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ الَّذِي لَا يُعَجِّلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ . كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(١) [هود : ١٠٢]

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ »(٢) ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ »(٣) .

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

(١) البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .
(٢) البخاري (٦٠٩٩) ، ومسلم (٢٨٠٤) .
(٣) البخاري (٣٤٣٥) ، ومسلم (حديث ٢٨) .

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّهُمْ يَكُونُونَ أَسْمَعَ شَيْءٍ وَأَبْصَرَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة : ١٢] . أَيْ : يَقُولُونَ ذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَلَوْ كَانَ هَذَا قَبْلَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ لَكَانَ نَافِعًا لَهُمْ وَمُنْقِذًا مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ أَيْ : مَا أَسْمَعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُبْصِرُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ فَحَيْثُ يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْهُدَى لَا يَهْتَدُونَ وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ أَيْ : أَنْذِرِ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أَيْ : فُصِلَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، وَصَارَ كُلٌّ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مُخَلَّدًا فِيهِ ﴿ وَهُمْ ﴾ أَيْ : الْيَوْمُ ﴿ فِى غَفْلَةٍ ﴾ عَمَّا أُنْذِرُوا بِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ[1] : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ قَالَ : فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ ، قَالَ : وَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ » ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

(١) أحمد (٩/٣) ، والبخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) بنحوه .

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وَاتْلُ عَلَى قَوْمِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَاذْكُرْ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ إِبْرَاهِيمَ - خَلِيلِ الرَّحْمَنِ - الَّذِينَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى مِلَّتِهِ ، وَقَدْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا مَعَ أَبِيهِ ، كَيْفَ نَهَاهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ **فَقَالَ** : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَدْفَعُ عَنْكَ ضَرَرًا . ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ يَقُولُ : وَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلْبِكَ وَتَرَانِي أَصْغَرَ مِنْكَ لِأَنِّي وَلَدُكَ ، فَاعْلَمْ أَنِّي قَدِ اطَّلَعْتُ مِنَ الْعِلْمِ مِنَ اللهِ ، عَلَى مَا لَمْ تَعْلَمْهُ أَنْتَ وَلَا اطَّلَعْتَ عَلَيْهِ وَلَا جَاءَكَ بَعْدُ ﴿ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ أَيْ : طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوَصِّلًا إِلَى نَيْلِ الْمَطْلُوبِ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ . ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾ أَيْ : لَا تُطِعْهُ فِي عِبَادَتِكَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَى ذَلِكَ وَالرَّاضِي بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴾ أَيْ : مُخَالِفًا مُسْتَكْبِرًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ ، فَلَا تَتَّبِعْهُ تَصِرْ مِثْلَهُ .

يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ أَيْ : عَلَى شِرْكِكَ وَعِصْيَانِكَ لِمَا آمُرُكَ بِهِ ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾ يَعْنِي : فَلَا يَكُونَ لَكَ مَوْلًى وَلَا نَاصِرًا وَلَا مُغِيثًا إِلَّا إِبْلِيسُ ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، بَلِ اتِّبَاعُكَ لَهُ مُوجِبٌ لِإِحَاطَةِ الْعَذَابِ بِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ٦٣]

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ لِوَلَدِهِ إِبْرَاهِيم فِيمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ **أَنَّهُ قَالَ** : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ يَعْنِي : إِنْ كُنْتَ لَا تُرِيدُ عِبَادَتَهَا وَلَا تَرْضَاهَا ،

فَانْتَهِ عَنْ سَبِّهَا وَشَتْمِهَا وَعَيْبِهَا ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ ذَلِكَ اقْتَصَصْتُ مِنْكَ وَشَتَمْتُكَ وَسَبَبْتُكَ ، **وَهُوَ قَوْلُهُ** : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : دَهْرًا ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : زَمَانًا طَوِيلًا ، **وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ سَوِيًّا ، سَالِمًا ، قَبْلَ أَنْ تُصِيبَكَ مِنِّي عُقُوبَةٌ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . فَعِنْدَهَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾[الفرقان : ٦٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[القصص : ٥٥] ، وَمَعْنَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ يَعْنِي : أَمَّا أَنَا فَلَا يَنَالُكَ مِنِّي مَكْرُوهٌ وَلَا أَذًى ، وَذَلِكَ لِحُرْمَةِ الْأُبُوَّةِ ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ أَي : وَلَكِنْ سَأَسْأَلُ اللهَ فِيكَ أَنْ يَهْدِيكَ وَيَغْفِرَ ذَنْبَكَ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : لَطِيفًا ، أَيْ : فِي أَنْ هَدَانِي لِعِبَادَتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ قَالَ : عَوَّدَهُ الْإِجَابَةَ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الْحَفِيُّ الَّذِي يَهْتَمُّ بِأَمْرِهِ .

وَقَدِ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِأَبِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَبَعْدَ أَنْ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ وَبَنَى الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَبَعْدَ أَنْ وُلِدَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[إبراهيم : ٤١] ، وَقَدِ اسْتَغْفَرَ الْمُسْلِمُونَ لِقَرَابَاتِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَذَلِكَ اقْتِدَاءً بِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فِي ذَلِكَ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾[الممتحنة : ٤] . يَعْنِي : إِلَّا فِي هَذَا الْقَوْلِ فَلَا تَتَأَسَّوْا بِهِ ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَقْلَعَ عَنْ ذَلِكَ وَرَجَعَ عَنْهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٣ - ١١٤]

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ

رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَجْتَنِبُكُمْ وَأَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَمِنْ آلِهَتِكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي ﴾ أَيْ : وَأَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ وَعَسَى هَذِهِ مُوجِبَةٌ لَا مَحَالَةَ ؛ فَإِنَّهُ عليه السلام سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

يَقُولُ تَعَالَى فَلَمَّا اعْتَزَلَ الْخَلِيلُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ فِي الله ، أَبْدَلَهُ اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَوَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، يَعْنِي : ابْنَهُ وَابْنَ إِسْحَاقَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : ٧٢] ، وَقَالَ : ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] وَلَا خِلَافَ أَنَّ إِسْحَاقَ وَالِدُ يَعْقُوبَ وَهُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وَلِهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، أَيْ : جَعَلْنَا لَهُ نَسْلًا وَعَقِبًا ، أَنْبِيَاءَ أَقَرَّ اللهُ بِهِمْ عَيْنَهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ فَلَوْ لَمْ يَكُنْ يَعْقُوبُ عليه السلام قَدْ نُبِّئَ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ لَمَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ وَلَذَكَرَ وَلَدَهُ يُوسُفَ ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنْ خَيْرِ النَّاسِ فَقَالَ : « يُوسُفُ نَبِيُّ الله ، ابْنُ يَعْقُوبَ نَبِيِّ الله ، ابْنِ إِسْحَاقَ نَبِيِّ الله ، ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الله »(١) وَفِي اللَّفْظِ الْآخَرِ : « إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ : يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ »(١) .

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ يَعْنِي : الثَّنَاءُ الْحَسَنُ ،

(١) كلاهما صحيح : وقد تقدما في سورة يوسف عليه السلام .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّمَا قَالَ : ﴿ عَلِيًّا ﴾ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ يُثْنُونَ عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُونَهُمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، عَطَفَ بِذِكْرِ الْكَلِيمِ فَقَالَ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ : بِكَسْرِ اللَّامِ مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ : بِفَتْحِهَا ، بِمَعْنَى : أَنَّهُ كَانَ مُصْطَفًى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ الْكِبَارِ أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ ، وَهُمْ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ أَيْ : الْجَانِبِ ﴿ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ مِنْ مُوسَى حِينَ ذَهَبَ يَبْتَغِي مِنْ تِلْكَ النَّارِ جِذْوَةً رَآهَا تَلُوحُ فَقَصَدَهَا ، فَوَجَدَهَا فِي جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ مِنْهُ غَرْبِيَّهُ عِنْدَ شَاطِئِ الْوَادِي ، فَكَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى ، نَادَاهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ أَيْ : وَأَجَبْنَا سُؤَالَهُ وَشَفَاعَتَهُ فِي أَخِيهِ فَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : ٣٤] ، وَقَالَ : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٣٦] ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَا شَفَعَ أَحَدٌ فِي أَحَدٍ شَفَاعَةً فِي الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْ شَفَاعَةِ مُوسَى فِي هَارُونَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ .

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هَذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَهُوَ وَالِدُ عَرَبِ الْحِجَازِ كُلِّهِمْ بِأَنَّهُ ﴿ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : لَمْ يَعِدْ رَبَّهُ عِدَةً إِلَّا أَنْجَزَهَا ، يَعْنِي : مَا الْتَزَمَ عِبَادَةً قَطُّ بِنَذْرٍ إِلَّا قَامَ بِهَا وَوَفَّاهَا حَقَّهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا قِيلَ لَهُ : ﴿ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ لِأَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ : ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فَصَدَقَ فِي ذَلِكَ . فَصِدْقُ الْوَعْدِ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ، كَمَا أَنَّ خُلْفَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢-٣] ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ**))(١) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ كَانَ التَّلَبُّسُ بِضِدِّهَا مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا أَثْنَى اللهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ إِسْمَاعِيلَ بِصِدْقِ الْوَعْدِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَادِقَ الْوَعْدِ أَيْضًا ، لَا يَعِدُ أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا وَفَّى لَهُ بِهِ ، وَقَدْ أَثْنَى عَلَى أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجِ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ فَقَالَ : ((**حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي**))(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ فِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى شَرَفِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاقَ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ فَقَطْ ، وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ** ...))(٣) وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ فَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَالصِّفَةِ الْحَمِيدَةِ وَالْخَلَّةِ السَّدِيدَةِ حَيْثُ كَانَ صَابِرًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ ﷺ آمِرًا بِهَا لِأَهْلِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] ، وَقَالَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] ، أَيْ : مُرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَا تَدَعُوهُمْ هَمَلًا فَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً**

(١) البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .
(٢) البخاري (٣١١٠) ، ومسلم (٢٤٤٩) .
(٣) مسلم (٢٢٧٦) .

قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ »[1].

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

ذَكَرَ إِدْرِيسَ ﷺ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، وَأَنَّ اللهَ رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِهِ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ . **وَعَنْ مُجَاهِدٍ** : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قَالَ : السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ الْجَنَّةَ .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ - وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَطْ بَلْ جِنْسُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، اِسْتَطْرَدَ مِنْ ذِكْرِ الْأَشْخَاصِ إِلَى الْجِنْسِ - ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ﴾ الْآيَة . **قَالَ السُّدِّيُّ وَابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ** : فَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ : إِدْرِيسَ ، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ : إِبْرَاهِيمَ ، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ : إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْرَائِيلَ : مُوسَى وَهَارُونَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَلِذَلِكَ فَرَّقَ أَنْسَابَهُمْ وَإِنْ كَانَ يَجْمَعُ جَمِيعَهُمْ آدَمُ ؛ لِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْ وَلَدِ مَنْ كَانَ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ، وَهُوَ إِدْرِيسُ فَإِنَّهُ جَدُّ نُوحٍ . **قُلْتُ** : هَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ : أَنَّ إِدْرِيسَ فِي عَمُودِ نَسَبِ نُوحٍ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - . **وَقَدْ قِيلَ** : إِنَّهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل ، أَخْذًا مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ حَيْثُ قَالَ فِي سَلَامِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، وَلَمْ يَقُلْ وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ ، كَمَا قَالَ آدَمُ وَإِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠) ، وأبو داود (١٣٠٨ ، ١٤٥٠) .

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّ المُرَادَ بِهَذِهِ الآيَةِ جِنْسَ الأَنْبِيَاءِ أَنَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الأَنْعَامِ » ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام : ٨٣-٩٠] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[غافر : ٧٨] ، وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ أَفِي « ص » سَجْدَةٌ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فَنَبِيُّكُمْ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ ، قَالَ : وَهُوَ مِنْهُمْ . يَعْنِي : دَاوُدُ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعُوا كَلامَ اللهِ المُتَضَمِّنَ حُجَجَهُ وَدَلائِلَهُ وَبَرَاهِينَهُ ، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَةً ، حَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ العَظِيمَةِ ، وَالبُكِيُّ : جَمْعُ بَاكٍ فَلِهَذَا أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَى شَرْعِيَّةِ السُّجُودِ هَاهُنَا ، اقْتِدَاءً بِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِمِنْوَالِهِمْ .

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْبَ السُّعَدَاءِ وَهُمُ الأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلامُ - وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ القَائِمِينَ بِحُدُودِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ ، المُؤَدِّينَ فَرَائِضَ اللهِ ، التَّارِكِينَ لِزَوَاجِرِهِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أَيْ : قُرُونٌ أُخَرُ ﴿ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وَإِذَا أَضَاعُوهَا

فَهُمْ لِمَا سِوَاهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَضْيَعُ ؛ لأَنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ وَقِوَامُهُ وَخَيْرُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَلاذِّهَا ، وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، فَهَؤُلَاءِ سَيَلْقَوْنَ غَيًّا ، أَيْ : خَسَارًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِإِضَاعَةِ الصَّلَاةِ هَاهُنَا ؛ فَقَالَ قَائِلُونَ : الْمُرَادُ بِإِضَاعَتِهَا تَرْكُهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَلِهَذَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَالأَئِمَّةِ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَقَوْلٍ عَنِ الشَّافِعِيِّ : إِلَى تَكْفِيرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ ؛ لِلْحَدِيثِ : « بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ »[1] ، وَالْحَدِيثُ الآخَرُ : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ »[2] ، وَلَيْسَ هَذَا مَحَلَّ بَسْطِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ خَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قَالَ : إِنَّمَا أَضَاعُوا الْمَوَاقِيتَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ قِيلَ : خُسْرَانًا ، وَقِيلَ : شَرًّا ، وَقِيلَ : وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ خَبِيثُ الطَّعْمِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أَيْ : إِلَّا مَنْ رَجَعَ عَنْ تَرْكِ الصَّلَوَاتِ وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَيُحْسِنُ عَاقِبَتَهُ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا ، وَلِهَذَا لَا يَنْقُصُ هَؤُلَاءِ التَّائِبُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا ، وَلَا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ قَبْلَهَا فَيَنْقُصُ لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدَهَا ؛ لأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ هَدَرًا وَتُرِكَ نَسْيًا وَذَهَبَ مَجَّانًا مِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ وَحِلْمِ الْحَلِيمِ ، وَهَذَا الاسْتِثْنَاءُ هَاهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦٨-٧٠]

جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

---

(١) مسلم (حديث ٨٢) .

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي وغيره (حديث ٢٦٢١) ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .

يَقُولُ تَعَالَى الْجَنَّاتُ الَّتِي يَدْخُلُهَا التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ هِيَ ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : إِقَامَةٌ ﴿ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ ﴾ بِظَهْرِ الْغَيْبِ . أَيْ : هِيَ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ وَقُوَّةِ إِيمَانِهِمْ ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ تَأْكِيدٌ لِحُصُولِ ذَلِكَ وَثُبُوتُهُ وَاسْتِقْرَارُهُ ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَا يُبَدِّلُهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ [المزمل : ١٨] أَيْ : كَائِنًا لَا مَحَالَةَ ، وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ أَيْ : الْعِبَادُ صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَسَيَأْتُونَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ بِمَعْنَى : آتِيًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا أَتَاكَ فَقَدْ أَتَيْتَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْجَنَّاتُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ سَاقِطٌ تَافِهٌ لَا مَعْنَى لَهُ ، كَمَا قَدْ يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥-٢٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أَيْ : فِي مِثْلِ وَقْتِ الْبُكُرَاتِ وَوَقْتِ الْعَشِيَّاتِ ، لَا أَنَّ هُنَاكَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَاتٍ تَتَعَاقَبُ يَعْرِفُونَ مُضِيَّهَا بِأَضْوَاءٍ وَأَنْوَارٍ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُوَرُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا** »[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقِ نَهَرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا** »[2].

وَقَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَتِ الْعَرَبُ الْأَنْعَمُ فِيهِمْ مَنْ يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ النَّعِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .

(٢) حسن : أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَصَفْنَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ ، هِيَ الَّتِي نُورِثُهَا عِبَادَنَا الْمُتَّقِينَ ، وَهُمُ الْمُطِيعُونَ لله ﷻ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمُونَ الْغَيْظَ وَالْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١-١١]

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجَبْرَائِيلَ : ((**مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورَنَا ؟**)) قَالَ : فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [(١)]. **وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي احْتِبَاسِ جَبْرَائِيلَ . ﴿ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ **قِيلَ** : الْمُرَادُ بـ : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أَمْرُ الدُّنْيَا ، ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أَمْرُ الْآخِرَةِ ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ . هَذَا قَوْلُ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أَيْ : مَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أَيْ : مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ مَا نَسِيَكَ رَبُّكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى : ١-٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : خَالِقُ ذَلِكَ وَمُدَبِّرُهُ ، وَالْحَاكِمُ فِيهِ وَالْمُتَصَرِّفُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَعْنَاهُ** : هَلْ تَعْلَمُ لِلرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شَبِيهًا ، **وَقِيلَ** : لَيْسَ أَحَدٌ يُسَمَّى الرَّحْمَنُ غَيْرَهُ . تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ .

---

(١) البخاري (٤٧٣١) .

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ، وَيَسْتَبْعِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد : ٥]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾. يَسْتَدِلُّ تَعَالَى بِالْبَدَاءَةِ عَلَى الْإِعَادَةِ، يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا، أَفَلَا يُعِيدُهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧]، وَفِي الصَّحِيحِ[1]: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَآذَانِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

وَقَوْلُهُ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْشُرَهُمْ جَمِيعًا، وَشَيَاطِينَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، قِيلَ: يَعْنِي قُعُودًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية : ٢٨]

وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يَعْنِي: مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: يُحْبَسُ الْأَوَّلُ عَلَى الْآخِرِ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتِ الْعِدَّةُ أَتَاهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ بَدَأَ بِالْأَكَابِرِ فَالْأَكَابِرِ جُرْمًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ أَهْلِ كُلِّ دِينٍ قَادَتَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرِّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) البخاري (٤٩٧٤).

ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٣٨-٣٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ « ثُمَّ » هَاهُنَا لِعَطْفِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَصْلَى بِنَارِ جَهَنَّمَ وَيُخَلَّدُ فِيهَا وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ تَضْعِيفَ الْعَذَابِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ : ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٨]

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

كَانَ أَبُو مَيْسَرَةَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ : يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي ، ثُمَّ يَبْكِي ، فَقِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا مَيْسَرَةَ ؟ فَقَالَ : أُخْبِرْنَا أَنَّا وَارِدُوهَا ، وَلَمْ نُخْبَرْ أَنَّا صَادِرُونَ عَنْهَا .
وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ : قَالَ أَبُو رَاشِدٍ الْحَرُورِيُّ - وَهُوَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ -: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء : ١٠٢] ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَيْلَكَ أَمَجْنُونٌ أَنْتَ ؟ أَيْنَ قَوْلُهُ : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود : ٩٨] ، ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم : ٨٦] ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ؟، وَاللهِ إِنْ كَانَ دُعَاءُ مَنْ مَضَى : اللَّهُمَّ أَخْرِجْنِي مِنَ النَّارِ سَالِمًا ، وَأَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ غَانِمًا . وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَتَاهُ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو رَاشِدٍ وَهُوَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ فَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللهِ : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قَالَ : أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ يَا أَبَا رَاشِدٍ فَسَنَرِدُهَا ، فَانْظُرْ هَلْ نَصْدُرُ عَنْهَا أَمْ لَا ؟.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قَالَ : الصِّرَاطُ عَلَى جَهَنَّمَ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ ، فَتَمُرُّ الطَّبَقَةُ الْأُولَى : كَالْبَرْقِ ، وَالثَّانِيَةُ : كَالرِّيحِ ، وَالثَّالِثَةُ : كَأَجْوَدِ الْخَيْلِ ، وَالرَّابِعَةُ : كَأَجْوَدِ الْبَهَائِمِ ، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ .

وَعَنْ حَفْصَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ

اللهُ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ »[١] قَالَتْ : فَقُلْتُ : أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالَتْ : فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ** »[٢].

وَعَنْ قَتَادَةَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالَ : هُوَ الْمَمَرُّ عَلَيْهَا . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ** : وُرُودُ الْمُسْلِمِينَ : الْمُرُورُ عَلَى الْجِسْرِ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهَا ، وَوُرُودُ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا ، **وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ **قَالَ** : قَسَمًا وَاجِبًا : وَقِيلَ : قَضَاءً .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ أَيْ : إِذَا مَرَّ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَلَى النَّارِ ، وَسَقَطَ فِيهَا مَنْ سَقَطَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ ذَوِي الْمَعَاصِي بِحَسَبِهِمْ ، نَجَّى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ ، فَجَوَازُهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ وَسُرْعَتُهُمْ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَشْفَعُ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَكَلَتْهُمُ النَّارُ ، إِلَّا دَارَاتُ وُجُوهِهِمْ - وَهِيَ : مَوَاضِعُ السُّجُودِ - وَإِخْرَاجُهُمْ إِيَّاهُمْ مِنَ النَّارِ بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَيُخْرِجُونَ أَوَّلًا : مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيه ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيه ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيه ، حَتَّى يُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ

(١) مسلم (حديث ٢٤٩٦) .
(٢) مسلم (٢٦٣٢) .

أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ حِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الله ظَاهِرَةُ الدَّلَالَةِ ، بَيِّنَةُ الْحُجَّةِ وَاضِحَةُ الْبُرْهَانِ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ وَيُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مُفْتَخِرِينَ عَلَيْهِمْ ، وَمُحْتَجِّينَ عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أَيْ : أَحْسَنُ مَنَازِلَ ، وَأَرْفَعُ دُورًا ، وَأَحْسَنُ نَدِيًّا - وَهُوَ مُجْمَعُ الرِّجَالِ لِلْحَدِيثِ - أَيْ : نَادِيهِمْ أَعْمَرُ وَأَكْثَرُ وَارِدًا وَطَارِقًا ، يَعْنُونَ : فَكَيْفَ نَكُونُ وَنَحْنُ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ عَلَى بَاطِلٍ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ مُخْتَفُونَ مُسْتَتِرُونَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ ابْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ وَنَحْوِهَا مِنَ الدُّورِ عَلَى الْحَقِّ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : ١١] ، وَقَالَ قَوْمُ نُوحٍ : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ شُبْهَتَهُمْ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : وَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ وَقَرْنٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَدْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾ أَيْ : كَانُوا أَحْسَنَ مِنْ هَؤُلَاءِ أَمْوَالًا وَأَمْتِعَةً وَمَنَاظِرَ وَأَشْكَالًا . **وَقِيلَ** : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ الْمَقَامُ : الْمَنْزِلُ ، وَالنَّدِيُّ : الْمَجْلِسُ ، وَالْأَثَاثُ : الْمَتَاعُ ، وَالرِّئْيُ : الْمَنْظَرُ . **وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ فِي الْأَثَاثِ** : هُوَ الْمَالُ ، **وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ** : الثِّيَابُ ، **وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ** : الْمَتَاعُ ، وَالرِّئْيُ : الْمَنْظَرُ . وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ صَحِيحٌ .

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُدَّعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ : ﴿ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ أَيْ : فَأَمْهَلَهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ وَيَنْقَضِي أَجَلُهُ ﴿ إِمَّا ٱلْعَذَابَ ﴾ يُصِيبُهُ ﴿ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ بَغْتَةً تَأْتِيهِ ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حِينَئِذٍ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ

جُندًا ﴾ فِي مُقَابَلَةِ مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ خَيْرِيَّةِ الْمَقَامِ وَحُسْنِ النَّدِيِّ .

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ فَلْيَدَعْهُ اللهُ فِي طُغْيَانِهِ ، هَكَذَا قَرَّرَ ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ - وَهَذِهِ مُبَاهَلَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى فِيمَا هُمْ فِيهِ ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مُبَاهَلَةَ الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجمعة : ٦] أَيْ : ادْعُوا بِالْمَوْتِ عَلَى الْمُبْطِلِ مِنَّا أَوْ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمُ الدُّعَاءُ فَنَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَبْسُوطًا - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - ، وَكَمَا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُبَاهَلَةَ مَعَ النَّصَارَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، حِينَ صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الطُّغْيَانِ ، وَالْغُلُوِّ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ عِيسَى وَلَدُ اللهِ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ عَلَى عُبُودِيَّةِ عِيسَى ، وَأَنَّهُ مَخْلُوقٌ كَآدَمَ . قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ، فَنَكَلُوا أَيْضًا عَنْ ذَلِكَ .

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِمْدَادَ مَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ فِيمَا هُوَ فِيهِ ، وَزِيَادَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، أَخْبَرَ بِزِيَادَةِ الْمُهْتَدِينَ هُدًى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة : ١٢٤] الْآيَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا وَإِيرَادُ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ أَيْ : جَزَاءً ﴿ وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أَيْ : عَاقِبَةً وَمَرَدًّا عَلَى صَاحِبِهَا .

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ

ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ(١) قَالَ : كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا ، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللهِ لَا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ، فَقُلْتُ : لَا وَاللهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ، ثُمَّ تُبْعَثَ ، قَالَ : فَإِنِّي إِذَا مِتُّ ثُمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأُعْطِيَكَ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ ، وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ : كُنْتُ قَيْنًا بِمَكَّةَ فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ سَيْفًا ، فَجِئْتُ أَتَقَاضَاهُ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَقَالَ : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قَالَ : مُوَثَّقًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَى هَذَا الْقَائِلِ : ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ : أَعَلِمَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ حَتَّى تَأَلَّى وَحَلَفَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ أَمْ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ سَيُؤْتِيهِ ذَلِكَ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ : أَنَّهُ الْمُوَثَّقُ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ قَالَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّا ﴾ هِيَ حَرْفُ رَدْعٍ لِمَا قَبْلَهَا ، وَتَأْكِيدٌ لِمَا بَعْدَهَا ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أَيْ : مِنْ طَلَبِهِ ذَلِكَ وَحُكْمِهِ لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّاهُ ، وَكُفْرِهِ بِاللهِ الْعَظِيمِ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَلَى قَوْلِهِ ذَلِكَ وَكُفْرِهِ بِاللهِ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ ﴾ أَيْ : مِنْ مَالٍ وَوَلَدٍ نَسْلُبُهُ مِنْهُ ، عَكْسَ مَا قَالَ إِنَّهُ يُؤْتَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مَالًا وَوَلَدًا زِيَادَةً عَلَى الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا ، بَلْ فِي الْآخِرَةِ يُسْلَبُ مِنَ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ .

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ

(١) البخاري (٤٧٣٥) ، ومسلم (٢٧٩٥) .

تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ : أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لِتَكُونَ تِلْكَ الْآلِهَةُ ﴿ عِزًّا ﴾ يَعْتَزُّونَ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُونَهَا ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا يَكُونُ مَا طَمِعُوا ، فَقَالَ : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَيْ : بِخِلَافِ مَا ظَنُّوا فِيهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦] ، **وَقَرَأَ أَبُو نَهِيكٍ** : (كُلٌّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ) ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أَيْ : بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَيْ : بِخِلَافِ مَا رَجَوْا مِنْهُمْ . **وَقِيلَ** : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أَعْوَانًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : قُرَنَاءُ فِي النَّارِ يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قَالَ : أَعْدَاءٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ **قِيلَ** : تَغْوِيهِمْ إِغْوَاءً ، **وَقِيلَ** : تُزْعِجُهُمْ إِزْعَاجًا إِلَى مَعَاصِي اللهِ ، **وَقِيلَ** : تُغْرِيهِمْ إِغْرَاءً وَتَسْتَعْجِلُهُمُ اسْتِعْجَالًا ، **وَقِيلَ** : تُطْغِيهِمْ طُغْيَانًا ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ** : هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أَيْ : لَا تَعْجَلْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي وُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ مَضْبُوطٍ ، وَهُمْ صَائِرُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى عَذَابِ اللهِ وَنَكَالِهِ ، وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق : ١٧] ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ [آل عمران : ١٧٨] **قِيلَ** : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ : السِّنِينَ وَالشُّهُورَ وَالْأَيَّامَ وَالسَّاعَاتِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قَالَ : نَعُدُّ أَنْفَاسَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَوْلِيَائِهِ المُتَّقِينَ الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، وَاتَّبَعُوا رُسُلَهُ وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ، وَانْتَهَوْا عَمَّا عَنْهُ زَجَرُوهُمْ ، أَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَفْدًا إِلَيْهِ ، وَالوَفْدُ : هُمُ القَادِمُونَ رُكْبَانًا ، وَمِنْهُ الوُفُودُ وَرُكُوبُهُمْ عَلَى نَجَائِبَ مِنْ نُورٍ مِنْ مَرَاكِبِ الدَّارِ الآخِرَةِ ، وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْرِ مَوْفُودٍ إِلَيْهِ ، إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَأَمَّا المُجْرِمُونَ المُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ المُخَالِفُونَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ يُسَاقُونَ عُنْفًا إِلَى النَّارِ ﴿وِرْدًا﴾ عِطَاشًا ، وَهَاهُنَا يُقَالُ : ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم : ٧٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ **قِيلَ** : رُكْبَانًا ، **وَقِيلَ** : عَلَى الإِبِلِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِلَى الجَنَّةِ . ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أَيْ : عِطَاشًا ، ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ كَمَا يَشْفَعُ المُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٠٠-١٠١]

وَقَوْلُهُ : ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، بِمَعْنَى : لَكِنْ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَهُوَ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَالقِيَامُ بِحَقِّهَا .

﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَـٰذِهِ السُّورَةِ الشَّرِيفَةِ عُبُودِيَّةَ عِيسَى عليه السلام وَذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ مَرْيَمَ

بِلَا أَبٍ ، شَرَعَ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - فَقَالَ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِكُمْ هَذَا ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ : أَيْ : عَظِيمًا ، وَيُقَالُ : « إِدًّا » بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِهَا وَمَعَ مَدِّهَا أَيْضًا ثَلَاثُ لُغَاتٍ ، أَشْهَرُهَا الْأُولَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ أَيْ : يَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ سَمَاعِهِنَّ هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ فَجَرَةِ بَنِي آدَمَ إِعْظَامًا لِلرَّبِّ وَإِجْلَالًا ؛ لِأَنَّهُنَّ مَخْلُوقَاتٌ وَمُؤَسَّسَاتٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ ، وَلَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ ، وَلَا كُفْءَ لَهُ ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ .

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أَيْ : يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَةِ اللهِ وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أَيْ : غَضَبًا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قِيلَ : هَدْمًا ، وَقِيلَ : ﴿ هَدًّا ﴾ يَنْكَسِرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ مُتَتَابِعَاتٍ .

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ ، أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيُجْعَلَ لَهُ وَلَدٌ ، وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ »[1] ، وَفِي لَفْظٍ « أَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أَيْ : لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَلِيقُ بِهِ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا كُفْءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ عَبِيدٌ لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ أَيْ : قَدْ عَلِمَ عَدَدَهُمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ذَكَرَهُمْ وَأُنْثَاهُمْ ، وَصَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أَيْ : لَا نَاصِرَ لَهُ وَلَا مُجِيرَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَيَحْكُمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا .

---

(١) البخاري (حديث ٦٠٩٩) ، ومسلم (٢٨٠٤) ، وأحمد (٤/ ٣٩٥) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

يُخبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَغرِسُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الأَعْمَالُ الَّتِي تُرْضِي اللهَ ﷻ لِمُتَابَعَتِهَا الشَّرِيعَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ، يَغرِسُ لَهُمْ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَحَبَّةً وَمَوَدَّةً، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، قَالَ: ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»[1].

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾، قَالَ: مَحَبَّةً فِي النَّاسِ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّهُمْ وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى خَلْقِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - قَالَ: قَالَ رَجُلٌ وَاللهِ لَأَعْبُدَنَّ اللهَ عِبَادَةً أُذْكَرُ بِهَا فَكَانَ لَا يُرَى فِي حِينِ صَلَاةٍ إِلَّا قَائِمًا يُصَلِّي، وَكَانَ أَوَّلُ دَاخِلٍ إِلَى الْمَسْجِدِ وَآخِرُ خَارِجٍ فَكَانَ لَا يُعَظَّمُ، فَمَكَثَ بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا قَالُوا انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْمُرَائِي، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: لَا أُرَانِي أُذْكَرُ إِلَّا بِشَرٍّ، لَأَجْعَلَنَّ عَمَلِي كُلَّهُ للهِ ﷻ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ قَلَبَ نِيَّتَهُ وَلَمْ يَزِدْ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، فَكَانَ يَمُرُّ بَعْدُ بِالْقَوْمِ فَيَقُولُونَ: رَحِمَ اللهُ فُلَانًا الآنَ، وَتَلَا الْحَسَنُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾.

---

(١) مسلم (٢٦٣٧) و بعضه عند البخاري (٦٠٤٠).

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ، وَهُوَ اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ الْفَصِيحُ الْكَامِلُ ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : الْمُسْتَجِيبِينَ للهِ الْمُصَدِّقِينَ لِرَسُولِهِ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ أَيْ : عِوَجًا عَنِ الْحَقِّ مَائِلِينَ إِلَى الْبَاطِلِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ فُجَّارًا ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : الأَلَدُّ : الظَّلُومُ ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمَّةٍ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أَيْ : هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : يَعْنِي : صَوْتًا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ مَرْيَمَ وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ طه
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ : ﴿ طه ﴾ بِمَعْنَى يَا رَجُلُ ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَهُ الْمُبْطِلُونَ ، بَلْ مَنْ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**)) . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ لَا ، وَاللهِ مَا جَعَلَهُ شَقَاءً ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ رَحْمَةً وَنُورًا وَدَلِيلًا إِلَى الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ : إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَبَعَثَ رُسُلَهُ رَحْمَةً ، رَحِمَ بِهَا العِبَادَ ؛ لِيَتَذَكَّرَ ذَاكِرٌ ، وَيَنْتَفِعَ رَجُلٌ بِمَا سَمِعَ مِنْ كِتَابِ اللهِ ، وَهُوَ ذِكْرٌ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّكَ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ ، الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ بِانْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى فِي ارْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي ((سُورَةِ الْأَعْرَافِ)) بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ أَيْضًا ، **وَأَنَّ الْمَسْلَكَ الْأَسْلَمَ فِي ذَلِكَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ : إِمْرَارُ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ وَلَا**

---

(١) البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَفِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَإِرَادَتِهِ وَحُكْمِهِ ، وَهُوَ خَالِقُ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ وَإِلَهُهُ ، لَا إِلَهَ سِوَاهُ ، وَلَا رَبَّ غَيْرُهُ . ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أَيْ : أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قَالَ : السِّرُّ : مَا أَسَرَّهُ ابْنُ آدَمَ فِي نَفْسِهِ ﴿ وَأَخْفَى ﴾ مَا أُخْفِيَ عَلَى ابْنِ آدَمَ مِمَّا هُوَ فَاعِلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَهُ ، فَاللهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، فَعِلْمُهُ فِيمَا مَضَى مِنْ ذَلِكَ وَمَا بَقِيَ عِلْمٌ وَاحِدٌ ، وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ، وَقِيلَ : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ قَالَ : السِّرُّ : مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ ، وَأَخْفَى : مَا لَمْ تُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَكَ بَعْدُ . وَقِيلَ : أَنْتَ تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ الْيَوْمَ وَلَا تَعْلَمُ مَا تُسِرُّ غَدًا ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّ الْيَوْمَ وَمَا تُسِرُّ غَدًا ، وَقِيلَ : ﴿ وَأَخْفَى ﴾ يَعْنِي : الْوَسْوَسَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ هُوَ : اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ذُو الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْوَحْيِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِهْرِهِ فِي رِعَايَةِ الْغَنَمِ وَسَارَ بِأَهْلِهِ – قِيلَ : قَاصِدًا بِلَادَ مِصْرَ – بَعْدَمَا طَالَتِ الْغَيْبَةُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ فَأَضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَكَانَتْ لَيْلَةً شَاتِيَةً ، وَنَزَلَ مَنْزِلًا بَيْنَ شِعَابٍ وَجِبَالٍ ، فِي بَرْدٍ وَشِتَاءٍ وَسَحَابٍ وَظَلَامٍ وَضَبَابٍ ، وَجَعَلَ يَقْدَحُ بِزَنْدٍ مَعَهُ

لِيُورِّيَ نَارًا كَمَا جَرَتْ لَهُ الْعَادَةُ بِهِ ، فَجَعَلَ لَا يَقْدَحُ شَيْئًا وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَرَرٌ وَلَا شَيْءٌ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، أَيْ : ظَهَرَتْ لَهُ نَارٌ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينِهِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ يُبَشِّرُهُمْ : ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أَيْ : شِهَابٌ مِنْ نَارٍ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [القصص : ٢٩] ، وَهِيَ الْجَمْرُ الَّذِي مَعَهُ لَهَبٌ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] دَلَّ عَلَى وُجُودِ الْبَرْدِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِقَبَسٍ ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُودِ الظَّلَامِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ أَيْ : مَنْ يَهْدِينِي الطَّرِيقَ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَاهَ عَنِ الطَّرِيقِ .

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا ﴾ أَيْ : النَّارَ وَاقْتَرَبَ مِنْهَا ﴿ نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴾ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [القصص : ٣٠] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ أَيْ : الَّذِي يُكَلِّمُكَ وَيُخَاطِبُكَ . ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ نُقِلَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ : كَانَتَا مِنْ جِلْدِ حِمَارٍ غَيْرِ ذَكِيٍّ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا أَمَرَهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلْبُقْعَةِ ، وَقِيلَ : لِيَطَأَ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ مُنْتَعِلٍ ، وَقِيلَ : غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ طُوًى ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ اسْمٌ لِلْوَادِي . فَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَطْفَ بَيَانٍ ، وَقِيلَ : عِبَارَةٌ عَنِ الْأَمْرِ بِالْوَطْءِ بِقَدَمَيْهِ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ قُدِّسَ مَرَّتَيْنِ ، وَطُوِيَ لَهُ الْبَرَكَةُ وَكُرِّرَتْ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى ﴾ [الأعراف : ١٤٤] أَيْ : عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ أَيْ : اِسْتَمِعِ الْآنَ مَا أَقُولُ لَكَ وَأُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ هَذَا أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ فَٱعْبُدْنِى ﴾ أَيْ : وَحِّدْنِي وَقُمْ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ **قِيلَ** : مَعْنَاهُ صَلِّ لِتَذْكُرَنِي ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهُ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ عِنْدَ ذِكْرِكَ لِي ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا الثَّانِي مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا ، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ** : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾))(١)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا ، فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ**))(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ ﴾ أَيْ : قَائِمَةٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكَائِنَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ، ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : مِنْ نَفْسِهِ ، **وَقِيلَ** : لَا أُطْلِعُ عَلَيْهَا أَحَدًا غَيْرِي ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا قَدْ أَخْفَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ عِلْمَ السَّاعَةِ ، وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ اِبْنِ مَسْعُودٍ (إِنِّي أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي) يَقُولُ : كَتَمْتُهَا عَنِ الْخَلَائِقِ ، حَتَّى لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَكْتُمَهَا مِنْ نَفْسِي لَفَعَلْتُ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ، وَهِيَ فِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ : (أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي) وَلَعَمْرِي لَقَدْ أَخْفَاهَا اللهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . **قُلْتُ** : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] ، وَقَالَ : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : ١٨٧] أَيْ : ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : أُقِيمُهَا لَا مَحَالَةَ لِأَجْزِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] وَ ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الْآيَةَ . الْمُرَادُ بِهَذَا الْخِطَابِ آحَادُ

(١)(٢) أحمد (٣/ ١٨٤) ، والبخاري (٥٩٧) ، ومسلم (٦٨٤) .

الْمُكَلَّفِينَ ، أَيْ : لَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ مَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى مَلَاذِّهِ فِي دُنْيَاهُ ، وَعَصَى مَوْلَاهُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ أَيْ : تَهْلِكَ وَتَعْطَبَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل : ١١]

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

هَذَا بُرْهَانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام ، وَمُعْجِزَةٌ عَظِيمَةٌ وَخَرْقٌ لِلْعَادَةِ بَاهِرٌ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا إِلَّا اللهُ عز وجل ، وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِينَاسِ لَهُ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا قَالَ لَهُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيرِ ، أَيْ : أَمَّا هَذِهِ الَّتِي فِي يَمِينِكَ - عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا - فَسَتَرَى مَا نَصْنَعُ بِهَا الْآنَ ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ : أَعْتَمِدُ عَلَيْهَا فِي حَالِ الْمَشْيِ ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ أَيْ : أَهُزُّ بِهَا الشَّجَرَةَ لِيَتَسَاقَطَ وَرَقُهَا لِتَرْعَاهُ غَنَمِي . ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : مَصَالِحُ وَمَنَافِعُ وَحَاجَاتٌ أُخَرُ غَيْرُ ذَلِكَ . ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْعَصَا الَّتِي فِي يَدِكَ يَا مُوسَى أَلْقِهَا ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : صَارَتْ فِي الْحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً ، ثُعْبَانًا طَوِيلًا يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً سَرِيعَةً ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَيَّاتِ حَرَكَةً ، وَلَكِنَّهُ صَغِيرٌ فَهَذِهِ فِي غَايَةِ الْكِبَرِ ، وَفِي غَايَةِ سُرْعَةِ الْحَرَكَةِ ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أَيْ : تَمْشِي وَتَضْطَرِبُ . ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ أَيْ : إِلَى حَالِهَا الَّتِي تُعْرَفُ قَبْلَ ذَلِكَ .

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ

بِهِۦٓ أَزۡرِى ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِىٓ أَمۡرِى ﴿٣٢﴾ كَىۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

وَهَذَا بُرْهَانٌ ثَانٍ لِمُوسَى ﷺ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى، وَهَاهُنَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ**: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كَفَّهُ تَحْتَ عَضُدِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا تَخْرُجُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا فِلْقَةُ قَمَرٍ، ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَذًى وَمِنْ غَيْرِ شَيْنٍ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أَيْ: اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي خَرَجْتَ فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا، فَادْعُهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمُرْهُ فَلْيُحْسِنْ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا يُعَذِّبْهُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ طَغَى وَبَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَنَسِيَ الرَّبَّ الْأَعْلَى. ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِى صَدۡرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِىٓ أَمۡرِى﴾ هَذَا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى ﷺ لِرَبِّهِ ﷻ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَخَطْبٍ جَسِيمٍ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مَلِكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَأَجْبَرِهِمْ وَأَشَدِّهِمْ كُفْرًا، وَأَكْثَرِهِمْ جُنُودًا، وَأَعْمَرِهِمْ مُلْكًا، وَأَطْغَاهُمْ، وَأَبْلَغِهِمْ تَمَرُّدًا، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللهَ وَلَا يَعْلَمُ لِرَعَايَاهُ إِلَهًا غَيْرَهُ، هَذَا وَقَدْ مَكَثَ مُوسَى فِي دَارِهِ مُدَّةً، وَلِيدًا عِنْدَهُمْ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرَاشِهِ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّةَ بِكَمَالِهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِى صَدۡرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِىٓ أَمۡرِى﴾ أَيْ: إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي وَعَضُدِي وَظَهِيرِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ. ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِى﴾ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّثَغِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةَ وَالْجَمْرَةَ، فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، بَلْ بِحَيْثُ

يَزُولُ الْعِيُّ وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمُ مَا يُرِيدُ مِنْهُ ، وَهُوَ قَدْرُ الْحَاجَةِ ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ؛ وَلِهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف : ٥٢] أَيْ : يُفْصِحُ بِالْكَلَامِ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : شَكَا مُوسَى إِلَى رَبِّهِ مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ وَعُقْدَةِ لِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُون يَكُونُ لَهُ رِدْءًا ، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ فَآتَاهُ سُؤْلَهُ فَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى ﴾ وَهَذَا أَيْضًا سُؤَالٌ مِنْ مُوسَى ﷺ فِي أَمْرٍ خَارِجِيٍّ عَنْهُ وَهُوَ مُسَاعَدَةُ أَخِيهِ هَارُونَ لَهُ . ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ظَهْرِي . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ أَيْ : فِي مُشَاوَرَتِي . ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أَيْ : فِي اصْطِفَائِكَ لَنَا وَإِعْطَائِكَ إِيَّانَا النُّبُوَّةَ ، وَبَعْثَتِكَ لَنَا إِلَى عَدُوِّكَ فِرْعَوْنَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ

هَذِه إِجَابَةٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ مُوسَى ﷺ فِيمَا سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ ، وَتَذْكِيرٌ لَهُ بِنِعَمِهِ السَّالِفَةِ عَلَيْهِ ، فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أُمِّهِ ، حِينَ كَانَتْ تُرْضِعُهُ وَتَحْذَرُ عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلِدَ فِي السَّنَةِ الَّتِي يَقْتُلُونَ فِيهَا الْغِلْمَانَ ، فَاتَّخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا ، فَحَصَلَ لَهَا مِنَ الْغَمِّ وَالْهَمِّ مَا ذَكَرَهُ اللهُ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ

مُوسَىٰ فَرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾[القصص : ١٠] ، فَذَهَبَ بِهِ الْبَحْرُ إِلَى دَارِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[القصص : ٨] أَيْ : قَدَرًا مَقْدُورًا مِنَ اللهِ ، حَيْثُ كَانُوا هُمْ يَقْتُلُونَ الْغِلْمَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذَرًا مِنْ وُجُودِ مُوسَى ، فَحَكَمَ اللهُ – وَلَهُ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْقُدْرَةُ التَّامَّةُ – أَنْ لَا يُرَبَّى إِلَّا عَلَى فِرَاشِ فِرْعَوْنَ وَيُغَذَّى بِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ مَعَ مَحَبَّتِهِ وَزَوْجَتِهِ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أَيْ : عِنْدَ عَدُوِّكَ جَعَلْتُهُ يُحِبُّكَ . قَالَ سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ قَالَ : حَبَّبْتُكَ إِلَى عِبَادِي ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ قَالَ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ : تُرَبَّى بِعَيْنِ اللهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : تُغَذَّى عَلَى عَيْنِي ، وَقَالَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ حَيْثُ أَرَى . ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْدَ آلِ فِرْعَوْنَ عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ فَأَبَاهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾[القصص : ١٢] ، فَجَاءَتْ أُخْتُهُ وَقَالَتْ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾[القصص : ١٢] تَعْنِي : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يُرْضِعَهُ لَكُمْ بِالْأُجْرَةِ ؟ فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلَى أُمِّهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ ثَدْيَهَا فَقَبِلَهُ ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلَى إِرْضَاعِهِ ، فَنَالَهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَةٌ وَرِفْعَةٌ وَرَاحَةٌ فِي الدُّنْيَا ، وَفِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَجْزَلُ . وَقَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أَيْ : عَلَيْكَ ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ يَعْنِي : الْقِبْطِيَّ ﴿ فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزْمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى قَتْلِهِ ، فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّى وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ أَخْرَجَ الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ[1] – رَحِمَهُ اللهُ – فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ . عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ

(١) إسناده حسن : أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٩٦) ، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ١٠) ، وابن جرير الطبري (١٦/ ١٢٥) ، وسيأتي تعليق الحافظ ابن كثير وحكمه عليه في الجملة بأنه موقوف إلا =

لِمُوسَى ﷺ : ﴿ وَفَتَنَّكَ فُتُونًا ﴾ ، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفُتُونِ مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : اِسْتَأْنِفِ النَّهَارَ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ فَإِنَّ لَهَا حَدِيثًا طَوِيلًا ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ لِأَنْتَجِزَ مِنْهُ مَا وَعَدَنِي مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ ، فَقَالَ : تَذَاكَرَ فِرْعَوْنُ وَجُلَسَاؤُهُ مَا كَانَ اللهُ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ لَا يَشُكُّونَ فِيهِ ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ فَلَمَّا هَلَكَ قَالُوا : لَيْسَ هَكَذَا كَانَ وَعْدُ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ : كَيْفَ تَرَوْنَ ؟ فَائْتَمَرُوا وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رِجَالًا مَعَهُمُ الشِّفَارُ يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ .

فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِآجَالِهِمْ ، وَالصِّغَارُ يُذْبَحُونَ قَالُوا : لَيُوشَكَنَّ أَنْ تُفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَصِيرُوا إِلَى أَنْ تُبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّتِي يَكْفُونَكُمْ ، فَاقْتُلُوا عَامًا كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرًا وَاتْرُكُوا بَنَاتَهُمْ ، وَدَعُوا عَامًا فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا فَيَشِبُّ الصِّغَارُ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ مِنَ الْكِبَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُونَ مِنْهُمْ فَتَخَافُوا مُكَاثَرَتَهُمْ إِيَّاكُمْ ، وَلَمْ يُفْنُوا بِمَنْ تَقْتُلُونَ وَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَحَمَلَتْ أُمَّ مُوسَى بِهَارُونَ فِي الْعَامِ الَّذِي لَا يُذْبَحُ فِيهِ الْغِلْمَانُ ، فَوَلَدَتْهُ عَلَانِيَةً آمِنَةً ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ حَمَلَتْ بِمُوسَى ﷺ فَوَقَعَ فِي قَلْبِهَا الْهَمُّ وَالْحَزَنُ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ مِمَّا يُرَادُ بِهِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهَا : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] ، فَأَمَرَهَا إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ ، ثُمَّ تُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنُهَا أَتَاهَا الشَّيْطَانُ . فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا : مَا فَعَلْتُ بِابْنِي لَوْ ذُبِحَ عِنْدِي فَوَارَيْتُهُ وَكَفَّنْتُهُ كَانَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُلْقِيهُ إِلَى دَوَابِّ الْبَحْرِ وَحِيتَانِهِ .

= بعض ألفاظه التي لها شواهد من المرفوع ، وكذا إشارته بأن ابن عباس كأنه تلقاه من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره .

قلت (مصطفى) : والجزم بأنه أخذه من الإسرائيليات فيه نظر ففي قوله في آخر الحديث رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ما يدفع هذا التردد ، والله أعلم .

فَانْتَهَى الْمَاءُ بِهِ حَتَّى أَوْفَى بِهِ عِنْدَ فُرْضَةٍ مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذْنَهُ فَأَرَدْنَ أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوتَ فَقَالَ بَعْضُهُنَّ : إِنَّ فِي هَذَا مَالًا وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ لَمْ تُصَدِّقْنَا امْرَأَةُ الْمَلِكِ بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ ، فَحَمَلْنَهُ كَهَيْئَتِهِ لَمْ يُخْرِجْنَ مِنْهُ شَيْئًا ، حَتَّى دَفَعْنَهُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ فِيهِ غُلَامًا ، فَأَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ مِنْهَا مَحَبَّةً لَمْ يُلْقِ مِنْهَا عَلَى أَحَدٍ قَطُّ ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى .

فَلَمَّا سَمِعَ الذَّبَّاحُونَ بِأَمْرِهِ أَقْبَلُوا بِشِفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ لِيَذْبَحُوهُ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : أَقِرُّوهُ فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى آتِيَ فِرْعَوْنَ فَأَسْتَوْهِبَهُ مِنْهُ فَإِنْ وَهَبَهُ لِي كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ لَمْ أَلُمْكُمْ ، فَأَتَتْ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : ٩] ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَكُونُ لَكِ ، فَأَمَّا لِي فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ ، لَهَدَاهُ اللهُ كَمَا هَدَاهَا ، وَلَكِنْ حَرَمَهُ ذَلِكَ**)) فَأَرْسَلَتْ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا إِلَى كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لِأَنْ تَخْتَارَ لَهُ ظِئْرًا ، فَجَعَلَ كُلَّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ لِتُرْضِعَهُ لَمْ يُقْبِلْ عَلَى ثَدْيِهَا حَتَّى أَشْفَقَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ ، فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ وَمَجْمَعِ النَّاسِ تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا تَأْخُذُهُ مِنْهَا فَلَمْ يَقْبَلْ وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالِهًا ، فَقَالَتْ لِأُخْتِهِ : قُصِّي أَثَرَهُ وَاطْلُبِيهِ هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا أَحَيٌّ ابْنِي أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ ، وَنَسِيَتْ مَا كَانَ اللهُ وَعَدَهَا فِيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَالْجُنُبُ : أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى شَيْءٍ بَعِيدٍ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ ، فَقَالَتْ مِنَ الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُمُ الظُّؤْرَاتُ : أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ، فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا : مَا يُدْرِيكِ مَا نُصْحُهُمْ لَهُ هَلْ تَعْرِفِينَهُ ؟ حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلِكَ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ ، فَقَالَتْ : نُصْحُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي صِهْرِ الْمَلِكِ وَرَجَاءَ مَنْفَعَةِ الْمَلِكِ ، فَتَرَكُوهَا فَانْطَلَقَتْ إِلَى أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ فَجَاءَتْ أُمُّهُ فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهَا نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا فَمَصَّهُ حَتَّى امْتَلَأَ جَنْبَاهُ رِيًّا ، وَانْطَلَقَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ يُبَشِّرُونَهَا أَنْ قَدْ وَجَدْنَا لِابْنِكِ ظِئْرًا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَعُ بِهَا ، قَالَتْ : أُمْكُثِي

تُرْضِعِي اِبْنِي هَذَا فَإِنِّي لَمْ أُحِبَّ شَيْئًا حُبَّهُ قَطُّ ، قَالَتْ أُمُّ مُوسَى : لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَيَضِيعَ ، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسُكِ أَنْ تُعْطِينِيهِ فَأَذْهَبُ بِهِ إِلَى بَيْتِي فَيَكُونَ مَعِي ، لَا آلُوهُ خَيْرًا ، فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي ، وَذَكَرَتْ أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللهُ وَعَدَهَا فِيهِ ، فَتَعَاسَرَتْ عَلَى اِمْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَأَيْقَنَتْ أَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ وَعْدِهِ ، فَرَجَعَتْ بِهِ إِلَى بَيْتِهَا مِنْ يَوْمِهَا ، وَأَنْبَتَهُ اللهُ نَبَاتًا حَسَنًا ، وَحَفِظَهُ لِمَا قَدْ قَضَى فِيهِ ، فَلَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ فِي نَاحِيَةِ الْقَرْيَةِ مُمْتَنِعِينَ مِنَ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ ، قَالَتِ اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِأُمِّ مُوسَى : أَزِيرِينِي اِبْنِي ، فَدَعَتْهَا يَوْمًا تُزِيرُهَا إِيَّاهُ فِيهِ ، وَقَالَتِ اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِخُزَّانِهَا وَظُؤْرِهَا وَقَهَارِمَتِهَا : لَا يَبْقَيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا اِسْتَقْبَلَ اِبْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ لِأَرَى ذَلِكَ فِيهِ وَأَنَا بَاعِثَةٌ أَمِينًا يُحْصِي كُلَّ مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ ، فَلَمْ تَزَلِ الْهَدَايَا وَالْكَرَامَةُ وَالنِّحَلُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَى اِمْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا نَحَلَتْهُ وَأَكْرَمَتْهُ وَفَرِحَتْ بِهِ ، وَنَحَلَتْ أُمَّهُ لِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَتْ : لَآتِيَنَّ بِهِ فِرْعَوْنَ فَلَيَنْحِلَنَّهُ وَلَيُكْرِمَنَّهُ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى لِحْيَةَ فِرْعَوْنَ يَمُدُّهَا إِلَى الْأَرْضِ ، فَقَالَ الْغُوَاةُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ لِفِرْعَوْن : أَلَا تَرَى مَا وَعَدَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهُ ، أَنَّهُ زَعَمَ أَنْ يَرِثَكَ وَيَعْلُوكَ وَيَصْرَعُكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَى الذَّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ . وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا اِبْنَ جُبَيْرٍ ، بَعْدَ كُلِّ بَلَاءٍ أُبْتُلِيَ بِهِ وَأُرِيدَ بِهِ فَجَاءَتِ اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ فَقَالَتْ : مَا بَدَا لَكَ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي وَهَبْتَهُ لِي ؟ فَقَالَ أَلَا تَرَيْنَهُ يُزْعَمُ أَنَّهُ يَصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي ، فَقَالَتِ : اِجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا يُعْرَفُ الْحَقُّ بِهِ ، اِئْتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلُؤْلُؤَتَيْنِ فَقَدِّمْهُنَّ إِلَيْهِ فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَاجْتَنَبَ الْجَمْرَتَيْنِ عَرَفْتَ أَنَّهُ يَعْقِلُ ، وَإِنْ تَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ وَلَمْ يُرِدِ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ عَلِمْتَ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤْثِرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ ، فَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْجَمْرَتَيْنِ وَاللُّؤْلُؤَتَيْنِ فَتَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ فَانْتَزَعَهُمَا مِنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يُحْرِقَا يَدَهُ ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : أَلَا تَرَى ، فَصَرَفَهُ اللهُ عَنْهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ ، وَكَانَ اللهُ بَالِغًا فِيهِ أَمْرِهِ .

فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَكَانَ مِنَ الرِّجَالِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِظُلْمٍ وَلَا سُخْرَةٍ حَتَّى اِمْتَنَعُوا كُلَّ الِامْتِنَاعِ ، فَبَيْنَمَا مُوسَى عليه السلام

يَمْشِي فِي نَاحِيَةِ المَدِينَةِ إِذَا هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِيٌّ وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِيٌّ ، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ فَغَضِبَ مُوسَى غَضَبًا شَدِيدًا ؛ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْزِلَتَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَحِفْظَهُ لَهُمْ ، لَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الرَّضَاعِ إِلَّا أُمُّ مُوسَى ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ أَطْلَعَ مُوسَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ ، فَوَكَزَ مُوسَى الْفِرْعَوْنِيَّ فَقَتَلَهُ ، وَلَيْسَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ﷻ وَالْإِسْرَائِيلِيُّ ، فَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الرَّجُلَ : ﴿ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥]، ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص : ١٦] ، فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ الْأَخْبَارَ ، فَأُتِيَ فِرْعَوْنُ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فَخُذْ لَنَا بِحَقِّنَا وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، فَقَالَ : ابْغُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ المَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوَةً مَعَ قَوْمِهِ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقِيدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبْتٍ ، فَاطْلُبُوا لِي عِلْمَ ذَلِكَ آخُذُ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَطُوفُونَ لَا يَجِدُونَ ثَبْتًا إِذَا بِمُوسَى مِنَ الْغَدِ قَدْ رَأَى ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ يُقَاتِلُ رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ آخَرَ ، فَاسْتَغَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ فَصَادَفَ مُوسَى فَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَكَرِهَ الَّذِي رَأَى ، فَغَضِبَ الْإِسْرَائِيلِيُّ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ بِالْفِرْعَوْنِيِّ ، فَقَالَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ : لِمَا فَعَلَ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨] فَنَظَرَ الْإِسْرَائِيلِيُّ إِلَى مُوسَى بَعْدَمَا قَالَ لَهُ مَا قَالَ ، فَإِذَا هُوَ غَضْبَانُ كَغَضَبِهِ بِالْأَمْسِ الَّذِي قَتَلَ فِيهِ الْفِرْعَوْنِيَّ ، فَخَافَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَمَا قَالَ لَهُ : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ ، وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ ، إِنَّمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ فَخَافَ الْإِسْرَائِيلِيُّ وَقَالَ : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] ، وَإِنَّمَا قَالَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى لِيَقْتُلَهُ ، فَتَتَارَكَا وَانْطَلَقَ الْفِرْعَوْنِيُّ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الْخَبَرِ حِينَ يَقُولُ : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ لِيَقْتُلُوا مُوسَى ، فَأَخَذَ رُسُلُ فِرْعَوْنَ فِي الطَّرِيقِ الْأَعْظَمِ يَمْشُونَ عَلَى هِينَتِهِمْ يَطْلُبُونَ مُوسَى ، وَهُمْ لَا يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ فَاخْتَصَرَ طَرِيقًا حَتَّى سَبَقَهُمْ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرَهُ ، وَذَلِكَ مِنَ الْفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ .

فَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَدْيَنَ وَلَمْ يَلْقَ بَلَاءً قَبْلَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ لَهُ بِالطَّرِيقِ عِلْمٌ إِلَّا حُسْنَ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾[القصص : ٢٢-٢٣] يَعْنِي : بِذَلِكَ حَابِسَتَيْنِ غَنَمَهُمَا ، فَقَالَ لَهُمَا : مَا خَطْبُكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لَا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ ؟ قَالَتَا : لَيْسَ لَنَا قُوَّةٌ نُزَاحِمُ الْقَوْمَ ، وَإِنَّمَا نَسْقِي مِنْ فُضُولِ حِيَاضِهِمْ ، فَسَقَى لَهُمَا ، فَجَعَلَ يَغْتَرِفُ فِي الدَّلْوِ مَاءً كَثِيرًا حَتَّى كَانَ أَوَّلَ الرِّعَاءِ ، فَانْصَرَفَتَا بِغَنَمِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا ، وَانْصَرَفَ مُوسَى فَاسْتَظَلَّ بِشَجَرَةٍ وَقَالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص : ٢٤] ، وَاسْتَنْكَرَ أَبُوهُمَا سُرْعَةَ صُدُورِهِمَا بِغَنَمِهِمَا حُفَّلًا بِطَانًا ، فَقَالَ : إِنَّ لَكُمَا الْيَوْمَ لَشَأْنًا ، فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَا صَنَعَ مُوسَى ، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَدْعُوهُ فَأَتَتْ مُوسَى فَدَعَتْهُ ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[القصص : ٢٥] لَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلَا لِقَوْمِهِ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ وَلَسْنَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا : ﴿ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ لَهَا : مَا يُدْرِيكِ مَا قُوَّتُهُ وَمَا أَمَانَتُهُ ؟، فَقَالَتْ : أَمَّا قُوَّتُهُ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ فِي الدَّلْوِ حِينَ سَقَى لَنَا ، لَمْ أَرَ رَجُلًا قَطُّ أَقْوَى فِي ذَلِكَ السَّقْيِ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْأَمَانَةُ فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ حِينَ أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ وَشَخَصْتُ لَهُ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي اِمْرَأَةٌ صَوَّبَ رَأْسَهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ حَتَّى بَلَّغْتُهُ رِسَالَتَكَ ، ثُمَّ قَالَ لِي : اِمْشِي خَلْفِي وَانْعَتِي لِي الطَّرِيقَ ، فَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا إِلَّا وَهُوَ أَمِينٌ ، فَسُرِّيَ عَنْ أَبِيهَا وَصَدَّقَهَا وَظَنَّ بِهِ الَّذِي قَالَتْ ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ لَكَ ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[القصص : ٢٧] ، فَفَعَلَ ، فَكَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ مُوسَى ثَمَانِ سِنِينَ وَاجِبَةٌ وَكَانَتْ سَنَتَانِ عِدَّةٌ مِنْهُ ، فَقَضَى اللهُ عَنْهُ عِدَتَهُ فَأَتَمَّهَا عَشْرًا .

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : فَلَقِيَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ قَالَ : هَلْ تَدْرِي أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ قُلْتُ : لَا وَأَنَا يَوْمَئِذٍ لَا أَدْرِي ، فَلَقِيتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ثَمَانِيًا كَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ وَاجِبَةٌ لَمْ

يَكُنْ نَبِيُّ الله لِيُنْقِصَ مِنْهَا شَيْئًا ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ كَانَ قَاضِيًا عَنْ مُوسَى عِدَتَهُ الَّتِي كَانَ وَعَدَهُ ، فَإِنَّهُ قَضَى عَشْرَ سِنِينَ ، فَلَقِيتُ النَّصْرَانِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ : الَّذِي سَأَلْتَهُ فَأَخْبَرَكَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِذَلِكَ ؟. قُلْتُ : أَجَلْ وَأَوْلَى .

فَلَمَّا سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّارِ وَالْعَصَا وَيَدَهُ مَا قَصَّ اللهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ ، فَشَكَا إِلَى الله تَعَالَى مَا يَحْذَرُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقَتِيلِ وَعُقْدَةِ لِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ يَكُونُ لَهُ رِدْءًا وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ ، فَآتَاهُ اللهُ سُؤْلَهُ وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَارُونَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ ، فَانْدَفَعَ مُوسَى بِعَصَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ ، فَانْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ ، فَقَالَا : إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ، قَالَ : فَمَنْ رَبُّكُمَا ؟ فَأَخْبَرَاهُ بِالَّذِي قَصَّ اللهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ فَمَا تُرِيدَانِ ؟ وَذَكَّرَهُ الْقَتِيلَ فَاعْتَذَرَ بِمَا قَدْ سَمِعْتَ .

قَالَ : أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَتُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَبَى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : ائْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ، عَظِيمَةٌ فَاغِرَةٌ فَاهَا مُسْرِعَةٌ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْنُ قَاعِدَةٌ إِلَيْهِ خَافَهَا ، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ ، فَفَعَلَ ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ فَرَآهَا ﴿ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [القصص : ٣٢] يَعْنِي : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ ، ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ ، فَاسْتَشَارَ الْمَلَأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى ، فَقَالُوا لَهُ : هَذَانِ سَاحِرَانِ ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ [طه : ٦٣] يَعْنِي : مُلْكَهُمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْعَيْشُ ، وَأَبَوْا عَلَى مُوسَى أَنْ يُعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ ، وَقَالُوا لَهُ : اجْمَعْ لَهُمَا السَّحَرَةَ فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِكَ كَثِيرٌ حَتَّى تَغْلِبَ بِسِحْرِكَ سِحْرَهُمَا .

فَأَرْسَلَ إِلَى الْمَدَائِنِ ، فَحُشِرَ لَهُ كُلُّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ قَالُوا : بِمَا يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ ؟ قَالُوا : يَعْمَلُ بِالْحَيَّاتِ ، قَالُوا : فَلَا وَالله مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ بِالسِّحْرِ بِالْحَيَّاتِ وَالْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ ، فَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا ؟ قَالَ لَهُمْ : أَنْتُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي وَأَنَا صَانِعٌ إِلَيْكُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْبَبْتُمْ ، فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزِّينَةِ ، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنَّ يَوْمَ الزِّينَةِ

الْيَوْمَ الَّذِي أَظْهَرَ اللهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ هُوَ : يَوْمُ عَاشُورَاءَ .

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرْ هَذَا الْأَمْرَ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾[الشعراء : ٤٠] يَعْنُونَ : مُوسَى وَهَارُونَ اسْتِهْزَاءً بِهِمَا ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ﴾[الأعراف : ١١٥-١١٦] ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[الشعراء : ٤٤] فَرَأَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ مَا أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمَةً فَاغِرَةً فَاهَا ، فَجَعَلَتِ الْعِصِيُّ تَلْتَبِسُ بِالْحِبَالِ حَتَّى صَارَتْ جُرُزًا إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصًا وَلَا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ قَالُوا : لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا كُلَّ هَذَا ، وَلَكِنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ ﷻ آمَنَّا بِاللهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَنَتُوبُ إِلَى اللهِ مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ . فَكَسَرَ اللهُ ظَهْرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ ، وَظَهَرَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾[الأعراف : ١١٩] ، وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بَارِزَةٌ مُتَبَذِّلَةٌ تَدْعُو اللهَ بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ ، فَمَنْ رَآهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ظَنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا ابْتَذَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى .

فَلَمَّا طَالَ مُكْثُ مُوسَى بِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ ، كُلَّمَا جَاءَ بِآيَةٍ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ ، وَقَالَ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا ؟ فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَى قَوْمِهِ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ وَيُوَاثِقُهُ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِذَا كَفَّ ذَلِكَ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ وَنَكَثَ عَهْدَهُ حَتَّى أَمَرَ اللهُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ ، فَخَرَجَ بِهِمْ لَيْلًا فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، فَتَبِعَهُ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْبَحْرِ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ فَانْفَلِقْ اثْنَتِي عَشْرَةَ فِرْقَةً ، حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، ثُمَّ الْتَقِ عَلَى مَنْ بَقِيَ بَعْدُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ ، فَنَسِيَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِالْعَصَا ، وَانْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ وَلَهُ قَصِيفٌ مَخَافَةَ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ ، وَهُوَ غَافِلٌ

فَيَصِيرَ عَاصِيًا لله . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ وَتَقَارَبَا ﴿ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] اِفْعَلْ مَا أَمَرَكَ بِهِ رَبُّكَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ تَكْذِبْ .

قَالَ : وَعَدَنِي رَبِّي إِذَا أَتَيْتُ الْبَحْرَ اِنْفَرَقَ اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِرْقَةً ، حَتَّى أُجَاوِزَهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَصَا ، فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى ، فَانْفَرَقَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ وَكَمَا وَعَدَ مُوسَى ، فَلَمَّا أَنْ جَازَ مُوسَى وَأَصْحَابُهُ كُلُّهُمُ الْبَحْرَ وَدَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ اِلْتَقَى عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ كَمَا أُمِرَ ، فَلَمَّا جَاوَزَ مُوسَى الْبَحْرَ قَالَ أَصْحَابُهُ : إِنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ فِرْعَوْنُ غَرِقَ وَلَا نُؤْمِنُ بِهَلَاكِهِ ، فَدَعَا رَبَّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ بِبَدَنِهِ حَتَّى اِسْتَيْقَنُوا بِهَلَاكِهِ ، ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ ﴾ [الأعراف : ١٣٨-١٣٩] . قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْعِبَرِ وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ وَمَضَى ، فَأَنْزَلَهُمْ مُوسَى مَنْزِلًا وَقَالَ : أَطِيعُوا هَارُونَ فَإِنِّي قَدِ اِسْتَخْلَفْتُهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ، وَأَجَّلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فِيهَا ، فَلَمَّا أَتَى رَبَّهُ وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَقَدْ صَامَهُنَّ لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ ، وَكَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَرِيحُ فِيهِ رِيحُ فَمِ الصَّائِمِ ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ شَيْئًا فَمَضَغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ أَتَاهُ : لِمَ أَفْطَرْتَ ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ ، قَالَ : يَا رَبِّ إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُكَلِّمَكَ إِلَّا وَفَمِي طَيِّبُ الرِّيحِ ، قَالَ : أَوَمَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبَ عِنْدِي مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، اِرْجِعْ فَصُمْ عَشْرًا ثُمَّ اِئْتِنِي ، فَفَعَلَ مُوسَى عليه السلام مَا أُمِرَ بِهِ ، فَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي الْأَجَلِ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، وَكَانَ هَارُونُ قَدْ خَطَبَهُمْ وَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ وَلِقَوْمِ فِرْعَوْنَ عِنْدَكُمْ عَوَارِيٌّ وَوَدَائِعُ وَلَكُمْ فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّكُمْ تَحْتَسِبُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ وَدِيعَةً اِسْتَوْدَعْتُمُوهَا وَلَا عَارِيَةً ، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا مُمْسِكِيهِ لِأَنْفُسِنَا ، فَحَفَرَ حَفِيرًا وَأَمَرَ كُلَّ قَوْمٍ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْذِفُوهُ فِي ذَلِكَ الْحَفِيرِ ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَتْهُ ، فَقَالَ : لَا يَكُونَ لَنَا وَلَا لَهُمْ .

وَكَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ جِيرَانٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا فَقُضِيَ لَهُ أَنْ رَأَى أَثَرًا فَقَبَضَ مِنْهُ قَبْضَةً فَمَرَّ بِهَارُونَ ، فَقَالَ لَهُ هَارُونُ : يَا سَامِرِيُّ أَلَا تُلْقِي مَا فِي يَدِكَ ؟ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طُولَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمُ الْبَحْرَ ، وَلَا أُلْقِيهَا لِشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَدْعُو اللهَ إِذَا أَلْقَيْتُهَا أَنْ يَكُونَ مَا أُرِيدُ ، فَأَلْقَاهَا وَدَعَا لَهُ هَارُونُ ، فَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عِجْلًا فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْحَفِيرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ فَصَارَ عِجْلًا أَجْوَفَ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ وَلَهُ خُوَارٌ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا وَاللهِ مَا كَانَ لَهُ صَوْتٌ قَطُّ ، إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ فِي دُبُرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ ، فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرَقًا ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ : يَا سَامِرِيُّ مَا هَذَا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ ؟ قَالَ : هَذَا رَبُّكُمْ وَلَكِنَّ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ . وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : لَا نُكَذِّبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ، فَإِنْ كَانَ رَبَّنَا لَمْ نَكُنْ ضَيَّعْنَاهُ وَعَجَزْنَا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبَّنَا فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ مُوسَى ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ وَلَيْسَ بِرَبِّنَا وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُصَدِّقُ ، وَأُشْرِبَ فِرْقَةٌ فِي قُلُوبِهِمُ الصِّدْقُ بِمَا قَالَ السَّامِرِيُّ فِي الْعِجْلِ وَأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ : يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، قَالُوا : فَمَا بَالُ مُوسَى وَعَدَنَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفَنَا هَذِهِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَدْ مَضَتْ ، وَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ أَخْطَأَ رَبَّهُ فَهُوَ يَطْلُبُهُ يَتْبَعُهُ ، فَلَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾ [طه : ٨٦]، فَقَالَ لَهُمْ : مَا سَمِعْتُمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ مِنَ الْغَضَبِ ، ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ بِعُذْرِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، وَانْصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [طه : ٩٦]، وَفَطِنْتُ لَهَا وَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ فَنَبَذْتُهَا ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه ٩٦-٩٧]، وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ ، فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالْفِتْنَةِ وَاغْتَبَطَ الَّذِينَ كَانَ رَأْيُهُمْ فِيهِ مِثْلَ رَأْيِ هَارُونَ ، فَقَالُوا لِجَمَاعَتِهِمْ : يَا مُوسَى سَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا

بَابَ تَوْبَةٍ نَصْنَعُهَا فَيُكَفِّرُ عَنَّا مَا عَمِلْنَا ، فَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِذَلِكَ لَا يَأْلُو الْخَيْرَ ، خِيَارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ لَمْ يُشْرِكْ فِي الْعِجْلِ ، فَانْطَلَقَ بِهِمْ يَسْأَلُ لَهُمُ التَّوْبَةَ ، فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ فَاسْتَحْيَا نَبِيُّ اللهِ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ وَفْدِهِ حِينَ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ اللهُ اطَّلَعَ مِنْهُ عَلَى مَا أُشْرِبَ قَلْبُهُ مِنْ حُبِّ الْعِجْلِ وَإِيمَانُهُ بِهِ ، فَلِذَلِكَ رَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ فَقَالَ : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٦-١٥٧] ، فَقَالَ يَا رَبِّ سَأَلْتُكَ التَّوْبَةَ لِقَوْمِي ، فَقُلْتَ إِنَّ رَحْمَتِي كَتَبْتَهَا لِقَوْمٍ غَيْرَ قَوْمِي هَلَّا أَخَّرْتَنِي حَتَّى تُخْرِجَنِي فِي أُمَّةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمَرْحُومَةِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ تَوْبَتَهُمْ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ ، فَيَقْتُلَهُ بِالسَّيْفِ وَلَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَتَابَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانَ خَفِيَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ، وَاطَّلَعَ اللهُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ فَاعْتَرَفُوا بِهَا وَفَعَلُوا مَا أُمِرُوا وَغَفَرَ اللهُ لِلْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ .

ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عليه السلام مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوَظَائِفِ ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِهَا ، فَنَتَقَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ، وَدَنَا مِنْهُمْ حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ ، فَأَخَذُوا الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ وَهُمْ مُصْغُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ وَالْكِتَابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى أَتَوْا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَوَجَدُوا مَدِينَةً فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارُونَ خَلْقُهُمْ خَلْقٌ مُنْكَرٌ ، وَذَكَرُوا مِنْ ثِمَارِهِمْ أَمْرًا عَجِيبًا مِنْ عِظَمِهَا ، فَقَالُوا : يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ وَلَا نَدْخُلُهَا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ .

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ - قِيلَ لِيَزِيدَ : هَكَذَا قَرَأَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ - مِنَ الْجَبَّارِينَ ، آمَنَا بِمُوسَى وَخَرَجَا إِلَيْهِ ، قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِقَوْمِنَا إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ أَجْسَامِهِمْ وَعَدَدِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا قُلُوبَ لَهُمْ وَلَا مَنَعَةَ عِنْدَهُمْ ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَيَقُولُ أُنَاسٌ : إِنَّهُمْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى

فَقَالَ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ بَنُو إِسْرَائِيلَ : ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤]فَأَغْضَبُوا مُوسَى فَدَعَا عَلَيْهِمْ وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ ، وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ لِمَا رَأَى مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَإِسَاءَتِهِمْ حَتَّى كَانَ يَوْمَئِذٍ ، فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ وَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ مُوسَى فَاسِقِينَ ، وَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي التِّيهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لَا تُبْلَى وَلَا تَتَّسِخُ ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا ، وَأُمِرَ مُوسَى فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلَاثَةُ أَعْيُنٍ ، وَأَعْلَمَ كُلَّ سِبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا ، فَلَا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَكَانٍ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ الْحَجَرَ بَيْنَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالْأَمْسِ .

رَفَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَصَدَّقَ ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّ مُعَاوِيَةَ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ الْفِرْعَوْنِيُّ الَّذِي أَفْشَى عَلَى مُوسَى أَمْرَ الْقَتِيلِ الَّذِي قَتَلَ فَقَالَ : كَيْفَ يُفْشِي عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ عَلِمَ بِهِ ، وَلَا ظَهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي حَضَرَ ذَلِكَ ؟ فَغَضِبَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَخَذَ بِيَدِ مُعَاوِيَةَ وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ الزُّهْرِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا إِسْحَاقَ هَلْ تَذْكُرُ يَوْمَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتِيلِ مُوسَى الَّذِي قُتِلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ؟ الْإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي أَفْشَى عَلَيْهِ أَمِ الْفِرْعَوْنِيُّ ؟ قَالَ إِنَّمَا أَفْشَى عَلَيْهِ الْفِرْعَوْنِيُّ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي شَهِدَ عَلَى ذَلِكَ وَحَضَرَهُ .

هَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي السُّنَنِ الْكُبْرَى ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو جَعْفَرِ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرَيْهِمَا كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ هَارُونَ بِهِ ، وَهُوَ مَوْقُوفٌ مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَيْسَ فِيهِ مَرْفُوعٌ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُ ، وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - مِمَّا أُبِيحَ نَقْلُهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْحَافِظَ أَبَا الْحَجَّاجِ الْمِزِّيَّ يَقُولُ ذَلِكَ أَيْضًا .

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ

لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمُوسَى ﷺ إِنَّهُ لَبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَارًّا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَرْعَى عَلَى صِهْرِهِ حَتَّى انْتَهَتِ الْمُدَّةُ وَانْقَضَى الْأَجَلُ ، ثُمَّ جَاءَ مُوَافِقًا لِقَدَرِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَهُوَ الْمُسَيِّرُ عِبَادَهُ وَخَلْقَهُ فِيمَا يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ أَيْ : عَلَى مَوْعِدٍ . **وَقِيلَ** : عَلَى قَدَرِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ أَيْ : اصْطَفَيْتُكَ وَاجْتَبَيْتُكَ رَسُولًا لِنَفْسِي ، أَيْ : كَمَا أُرِيدُ وَأَشَاءُ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : ((**الْتَقَى آدَمُ وَمُوسَى ، فَقَالَ مُوسَى : أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : وَأَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ، قَالَ : نَعَمْ ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى ﴾ أَيْ : بِحُجَجِي وَبَرَاهِينِي وَمُعْجِزَاتِي ﴿ وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : لَا تُبْطِئَا . **وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا** : لَا تَضْعُفَا . **وَالْمُرَادُ** : أَنَّهُمَا لَا يَفْتُرَانِ فِي ذِكْرِ اللهِ ، بَلْ يَذْكُرَانِ اللهَ فِي حَالِ مُوَاجَهَةِ فِرْعَوْنَ ؛ لِيَكُونَ ذِكْرُ اللهِ عَوْنًا لَهُمَا عَلَيْهِ ، وَقُوَّةً لَهُمَا وَسُلْطَانًا كَاسِرًا لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ أَيْ : تَمَرَّدَ وَعَتَا وَتَجَبَّرَ عَلَى اللهِ وَعَصَاهُ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْنَ فِي غَايَةِ الْعُتُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ ، وَمُوسَى صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ إِذْ ذَاكَ ، وَمَعَ هَذَا أُمِرَ أَنْ لَا يُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّينِ ، **كَمَا قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ عِنْدَ قَوْلِهِ** : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ : يَا مَنْ يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ ؟! **وَقِيلَ** : قُولَا لَهُ : إِنِّي إِلَى الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ أَقْرَبُ مِنِّي إِلَى الْغَضَبِ وَالْعُقُوبَةِ ، **وَقِيلَ** : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، **وَقِيلَ** : أَعْذِرَا إِلَيْهِ ، قُولَا لَهُ : إِنَّ لَكَ رَبًّا وَلَكَ مَعَادًا ؛ لِأَنَّ بَيْنَ

(١) البخاري (٤٧٣٦) ، وانظر مسلم (٢٦٥٢) بسندٍ آخر أيضًا .

يَدَيْكَ جَنَّةً وَنَارًا ، **وَقِيلَ** : كَنِّهِ بِأَبِي مَرَّةَ ، **وَالْحَاصِلُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ** : أَنَّ دَعْوَتَهُمَا لَهُ تَكُونُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ رَفِيقٍ ؛ لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ وَأَنْجَعَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل : ١٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : لَعَلَّهُ يَرْجِعُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْهَلَكَةِ ، ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أَيْ : يُوجِدُ طَاعَةً مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان : ٦٢] فَالتَّذَكُّرُ : الرُّجُوعُ عَنِ الْمَحْذُورِ ، وَالْخَشْيَةُ : تَحْصِيلُ الطَّاعَةِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : ﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ يَقُولُ : لَا تَقُلْ أَنْتَ يَا مُوسَى وَأَخُوكَ هَارُونُ : أَهْلِكْهُ ، قَبْلَ أَنْ أُعْذِرَ إِلَيْهِ .

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - إِنَّهُمَا قَالَا مُسْتَجِيرَيْنِ بِاللهِ تَعَالَى شَاكِيَيْنِ إِلَيْهِ : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ يَعْنِيَانِ أَنْ يَبْدُرَ إِلَيْهِمَا بِعُقُوبَةٍ أَوْ يَعْتَدِي عَلَيْهِمَا فَيُعَاقِبُهُمَا ، وَهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ مِنْهُ ذَلِكَ . **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾ : يَعْجَلَ ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ **قِيلَ** : يَعْتَدِي . ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أَيْ : لَا تَخَافَا مِنْهُ فَإِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ كَلَامَكُمَا وَكَلَامَهُ ، وَأَرَى مَكَانَكُمَا وَمَكَانَهُ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ شَيْءٌ ، وَاعْلَمَا أَنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي فَلَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَتَنَفَّسُ وَلَا يَبْطِشُ إِلَّا بِإِذْنِي ، وَبَعْدَ أَمْرِي وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي . ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ أَنَّهُمَا مَكَثَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ . ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾[طه : ٤٧] أَيْ : بِدَلَالَةٍ وَمُعْجِزَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ

ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أَيْ : وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ إِنِ اتَّبَعْتَ الْهُدَى ، وَلِهَذَا لَمَّا كَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى هِرَقْل عَظِيم الرُّوم كِتَابًا كَانَ أَوَّلُهُ : ((**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**))(١). وَلِهَذَا قَالَ مُوسَى وَهَارُونُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لِفِرْعَوْنَ : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أَيْ : قَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ : أَنَّ الْعَذَابَ مُتَمَحِّضٌ لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٣٧-٣٩]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [الليل:١٤-١٦] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة :٣١-٣٢]أَيْ : كَذَّبَ بِقَلْبِهِ وَتَوَلَّى بِفِعْلِهِ .

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى مُنْكِرًا وُجُودَ الصَّانِعِ الْخَالِقِ إِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبَّهُ وَمَلِيكَهُ ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ أَيْ : الَّذِي بَعَثَكَ وَأَرْسَلَكَ مَنْ هُوَ ؟ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ، ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ **قِيلَ** : خَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ زَوْجَةً ، **وَقِيلَ** : جَعَلَ الإِنْسَانَ إِنْسَانًا ، وَالْحِمَارَ حِمَارًا ، وَالشَّاةَ شَاةً ، **وَقِيلَ** : أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ ، **وَقِيلَ** : سَوَّى خَلْقَ كُلِّ دَابَّةٍ .
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ قَالَ أَعْطَى كُلَّ ذِي خَلْقٍ مَا يَصْلُحُهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلإِنْسَانِ مِنْ خَلْقِ الدَّابَّةِ ، وَلَا لِلدَّابَّةِ مِنْ خَلْقِ الْكَلْبِ ، وَلَا لِلْكَلْبِ مِنْ خَلْقِ الشَّاةِ ، وَأَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ النِّكَاحِ

(١) البخاري (حديث رقم ٧) .

وَهَيَّأَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى ذَلِكَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ فِعَالِهِ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالنِّكَاحِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣] أَيْ: قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ، أَيْ: كَتَبَ الْأَعْمَالَ وَالْآجَالَ وَالْأَرْزَاقَ، ثُمَّ الْخَلَائِقَ مَاشُونَ عَلَى ذَلِكَ لَا يَحِيدُونَ عَنْهُ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى الْخُرُوجِ، يَقُولُ رَبُّنَا الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَقَدَّرَ الْقَدَرَ وَجَبَلَ الْخَلِيقَةَ عَلَى مَا أَرَادَ.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾، أَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى، شَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَى، أَيْ: الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللهَ، أَيْ: فَمَا بَالُهُمْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ لَمْ يَعْبُدُوهُ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ؟ فَقَالَ لَهُ مُوسَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ: هُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللهِ، وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ الْأَعْمَالِ ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ أَيْ: لَا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَفُوتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا يَنْسَى شَيْئًا. يَصِفُ عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَإِنَّ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ يَعْتَرِيهِ نَقْصَانَانِ، أَحَدُهُمَا: عَدَمُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ، وَالْآخَرُ: نِسْيَانُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ مُوسَى فِيمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ ﷻ، حِينَ سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ عَنْهُ فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، ثُمَّ اعْتَرَضَ الْكَلَامَ بَيْنَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ (مِهَادًا) أَيْ: قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا، وَتَقُومُونَ وَتَنَامُونَ عَلَيْهَا، وَتُسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أَيْ: جَعَلَ لَكُمْ طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا

فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣١]﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أَيْ : مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ ، وَمِنْ حَامِضٍ وَحُلْوٍ وَمُرٍّ وَسَائِرِ الْأَنْوَاعِ .

﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾ أَيْ : شَيْءٌ لِطَعَامِكُمْ وَفَاكِهَتِكُمْ ، وَشَيْءٌ لِأَنْعَامِكُمْ لِأَقْوَاتِهَا خَضِرًا وَيَبِسًا ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ أَيْ : لَدَلَالَاتٍ وَحُجَجٍ وَبَرَاهِينَ ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أَيْ : لِذَوِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَرْضِ مَبْدَؤُكُمْ فَإِنَّ أَبَاكُمْ آدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ تُرَابٍ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أَيْ : وَإِلَيْهَا تَصِيرُونَ إِذَا مُتُّمْ وَبُلِيتُمْ ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ يَعْنِي : فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَجُ وَالْآيَاتُ وَالدَّلَالَاتُ وَعَايَنَ ذَلِكَ وَأَبْصَرَهُ ، فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤]

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ لِمُوسَى حِينَ أَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى - وَهِيَ إِلْقَاءُ عَصَاهُ فَصَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا ، وَنَزَعَ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهِ فَخَرَجَتْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فَقَالَ : هَذَا سِحْرٌ جِئْتَ بِهِ لِتَسْحَرَنَا وَتَسْتَوْلِي بِهِ عَلَى النَّاسِ فَيَتْبَعُونَكَ ، وَتُكَاثِرُنَا بِهِمْ وَلَا يَتِمُّ هَذَا مَعَكَ ، فَإِنَّ عِنْدَنَا سِحْرًا مِثْلَ سِحْرِكَ ، فَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا أَنْتَ فِيهِ ﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أَيْ : يَوْمًا نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ ، فَنُعَارِضُ مَا جِئْتَ بِهِ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ السِّحْرِ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ وَوَقْتٍ مُعَيَّنٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ مُوسَى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وَهُوَ يَوْمُ عِيدِهِمْ وَتَفَرُّغِهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَاجْتِمَاعِ جَمِيعِهِمْ ؛ لِيُشَاهِدَ النَّاسُ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى مَا يَشَاءُ وَمُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ،

وَبُطْلَانِ مُعَارَضَةِ السِّحْرِ لِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ النَّبَوِيَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، أَيْ : جَمِيعُهُمْ ﴿ ضُحًى ﴾ أَيْ : ضَحْوَةً مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَظْهَرَ وَأَجْلَى وَأَبْيَنَ وَأَوْضَحَ ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ كُلُّ أَمْرِهِمْ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لَيْسَ فِيهِ خَفَاءٌ وَلَا تَرْوِيجٌ ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ لَيْلًا وَلَكِنْ نَهَارًا ضُحًى . **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مُنْصَفًا : عَدْلًا . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مُسْتَوٍ يَتَبَيَّنُ النَّاسُ مَا فِيهِ ، لَا يَكُونُ صُوَبٌ ، وَلَا شَيْءٌ يَتَغَيَّبُ بَعْضَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضٍ ، مُسْتَوٍ حَتَّى يُرَى .

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ لَمَّا تَوَاعَدَ هُوَ وَمُوسَى إِلَى وَقْتٍ وَمَكَانٍ مَعْلُومَيْنِ تَوَلَّى ، أَيْ : شَرَعَ فِي جَمْعِ السَّحَرَةِ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِهِ ، كُلُّ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى السِّحْرِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَقَدْ كَانَ السِّحْرُ فِيهِمْ كَثِيرًا نَافِقًا جِدًّا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ [يونس : ٧٩] ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ أَيْ : اِجْتَمَعَ النَّاسُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَهُوَ يَوْمُ الزِّينَةِ ، وَجَلَسَ فِرْعَوْنُ عَلَى سَرِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَاصْطَفَّ لَهُ أَكَابِرُ دَوْلَتِهِ وَوَقَفَتِ الرَّعَايَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وَأَقْبَلَ مُوسَى عليه السلام مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ ، وَوَقَفَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ صُفُوفًا وَهُوَ يُحَرِّضُهُمْ وَيَحُثُّهُمْ وَيُرَغِّبُهُمْ فِي إِجَادَةِ عَمَلِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَتَمَنَّوْنَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ يَقُولُونَ : ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٤١-٤٢] فـ ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : لَا تُخَيِّلُوا لِلنَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ إِيجَادَ أَشْيَاءَ لَا حَقَائِقَ لَهَا ، وَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةً ، فَتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللهِ ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أَيْ : يُهْلِكَكُمْ

بِعُقُوبَةٍ هَلَاكًا لَا بَقِيَّةَ لَهُ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم ﴾ **قِيلَ : مَعْنَاهُ** أَنَّهُمْ تَشَاجَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فَقَائِلٌ يَقُولُ : لَيْسَ هَذَا بِكَلَامِ سَاحِرٍ إِنَّمَا هَذَا كَلَامُ نَبِيٍّ ، وَقَائِلٌ يَقُولُ : بَلْ هُوَ سَاحِرٌ ، **وَقِيلَ غَيْرَ هَذَا** ، وَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ أَيْ : تَنَاجَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ . **وَالْغَرَضُ** : أَنَّ السَّحَرَةَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ : تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَأَخَاهُ - يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ - سَاحِرَانِ عَالِمَانِ خَبِيرَانِ بِصِنَاعَةِ السِّحْرِ ، يُرِيدَانِ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ ، وَيَسْتَوْلِيَا عَلَى النَّاسِ وَتَتْبَعُهُمَا الْعَامَّةُ ، وَيُقَاتِلَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ فَيُنْصَرَا عَلَيْهِ وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ أَيْ : وَيَسْتَبِدَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَهِيَ السِّحْرُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ بِسَبَبِهَا لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عَلَيْهَا ، يَقُولُونَ : إِذَا غَلَبَ هَذَانِ أَهْلَكَاكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَتَفَرَّدَا بِذَلِكَ ، وَتَمَحَّضَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ يَعْنِي : مُلْكَهُمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْعَيْشَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾ أَيْ : اجْتَمِعُوا كُلُّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا ، وَأَلْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لِتُبْهِرُوا الْأَبْصَارَ وَتَغْلِبُوا هَذَا وَأَخَاهُ ، ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْهُ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ وَعَدَنَا هَذَا الْمَلِكُ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ ، وَأَمَّا هُوَ فَيَنَالُ الرِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ .

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السَّحَرَةِ حِينَ تَوَافَقُوا هُمْ وَمُوسَى عليه السلام أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ أَيْ : أَنْتَ أَوَّلًا ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾ أَيْ :

أَنْتُمْ أَوَّلًا لِنَرَى مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السِّحْرِ ، وَلِيَظْهَرَ لِلنَّاسِ جَلِيَّةُ أَمْرِهِمْ ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْقَوْا ﴿ قَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَوْدَعُوهَا مِنَ الزِّئْبَقِ مَا كَانَتْ تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِهِ وَتَضْطَرِبُ وَتَمِيدُ ، بِحَيْثُ يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حِيلَةً وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَثِيرًا ، فَأَلْقَى كُلٌّ مِنْهُمْ عَصًا وَحَبْلًا حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلْآن حَيَّاتٌ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أَيْ : خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَغْتَرُّوا بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا فِي يَمِينِهِ ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ يَعْنِي : عَصَاكَ ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ [طه : ٦٩] ، وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تِنِّينًا عَظِيمًا هَائِلًا ذَا عُيُونٍ وَقَوَائِمَ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ فَجَعَلَتْ تَتْبَعُ تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ حَتَّى لَمْ تُبْقِ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلَقَّفَتْهُ ، وَالسَّحَرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ عِيَانًا جَهْرَةً نَهَارًا ضَحْوَةً ، فَقَامَتِ الْمُعْجِزَةُ وَاتَّضَحَ الْبُرْهَانُ ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ .

فَلَمَّا عَايَنَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ وَشَاهَدُوهُ ، وَلَهُمْ خِبْرَةٌ بِفُنُونِ السِّحْرِ وَطُرُقِهِ وَوُجُوهِهِ ، عَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ مُوسَى لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ وَالْحِيَلِ ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَقَعُوا سُجَّدًا للهِ وَقَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢١-١٢٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ** : كَانُوا أَوَّلَ النَّهَارِ سَحَرَةً وَفِي آخِرِ النَّهَارِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : كَانَتِ السَّحَرَةُ سَبْعِينَ رَجُلًا ، أَصْبَحُوا سَحَرَةً ، وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَعِنَادِهِ وَبَغْيِهِ وَمُكَابَرَتِهِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ حِينَ رَأَى مَا رَأَى مِنَ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ وَالْآيَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَرَأَى الَّذِينَ قَدِ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ قَدْ آمَنُوا بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَغُلِبَ كُلَّ الْغَلَبِ ، شَرَعَ فِي الْمُكَابَرَةِ وَالْبَهْتِ ، وَعَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي السَّحَرَةِ ، فَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ وَقَالَ : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أَيْ : صَدَّقْتُمُوهُ . ﴿ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِذَلِكَ وَافْتَتَنْتُمْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ قَوْلًا يَعْلَمُ هُوَ وَالسَّحَرَةُ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ بَهْتٌ وَكَذِبٌ ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُ السِّحْرَ عَنْ مُوسَى ، وَاتَّفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَلَيَّ وَعَلَى رَعِيَّتِي لِتُظْهِرُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] ، ثُمَّ أَخَذَ يُهَدِّدُهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ أَيْ : لَأَجْعَلَنَّكُمْ مُثْلَةً ، وَلَأَقْتُلَنَّكُمْ وَلَأُشَهِّرَنَّكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ تَقُولُونَ : إِنِّي وَقَوْمِي عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَلَى الْهُدَى ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَكُونُ لَهُ الْعَذَابُ وَيَبْقَى فِيهِ ، فَلَمَّا صَالَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ ، هَانَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ فِي اللهِ ﷻ وَ ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أَيْ : لَنْ نَخْتَارَكَ عَلَى مَا حَصَلَ لَنَا مِنَ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَسَمًا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَيِّنَاتِ ، يَعْنُونَ لَا نَخْتَارُكَ عَلَى فَاطِرِنَا وَخَالِقِنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنَ الْعَدَمِ الْمُبْتَدِي خَلْقَنَا مِنَ الطِّينِ ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَا أَنْتَ ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ أَيْ : فَافْعَلْ مَا شِئْتَ وَمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ يَدُكَ ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ

ﱡٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآﱠ أَيْ : إِنَّمَا لَكَ تَسَلُّطٌ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، وَهِيَ دَارُ الزَّوَالِ ، وَنَحْنُ قَدْ رَغِبْنَا فِي دَارِ الْقَرَارِ . ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ أَيْ : مَا كَانَ مِنَّا مِنَ الْآثَامِ خُصُوصًا ﴿ وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ ﴾ لِتُعَارِضَ بِهِ آيَةَ اللهِ تَعَالَى وَمُعْجِزَةَ نَبِيِّهِ . ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أَيْ : خَيْرٌ لَنَا مِنْكَ ﴿ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَدْوَمَ ثَوَابًا مِمَّا كُنْتَ وَعَدْتَنَا وَمَنَّيْتَنَا ، وَقِيلَ : ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ ﴾ أَيْ : لَنَا مِنْكَ ، إِنْ أُطِيعَ ﴿ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ أَيْ : مِنْكَ عَذَابًا ، إِنْ عُصِيَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - صَمَّمَ عَلَى ذَلِكَ وَفَعَلَهُ بِهِمْ رَحِمَهُمُ اللهُ .

إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَامِ مَا وَعَظَ بِهِ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ وَعَذَابِهِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ ، وَيُرَغِّبُونَهُ فِي ثَوَابِهِ الْأَبَدِيِّ الْمُخَلَّدِ ، فَقَالُوا : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا ﴾ أَيْ : يَلْقَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُجْرِمٌ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ [فاطر : ٣٦] ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ[١] : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنْ أُنَاسٌ تُصِيبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ فَتُمِيتُهُمْ إِمَاتَةً ، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ ، جِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، فَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ** » فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : وَمَنْ لَقِيَ رَبَّهُ يَوْمَ الْمَعَادِ مُؤْمِنَ الْقَلْبِ قَدْ صَدَقَ ضَمِيرَهُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةُ ذَاتُ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ ، وَالْغُرَفِ الْآمِنَاتِ ، وَالْمَسَاكِنِ الطَّيِّبَاتِ .

---

(١) مسلم (حديث رقم ١٨٥) ، وأحمد (٣/ ١١) .

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ ، وَالْعَرْشُ فَوْقَهَا ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ**))(١).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهُمْ ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ؛ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ : ((**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**))(٢). وَفِي السُّنَنِ ((**إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَمِنْهُمْ وَأَنْعِمَا**))(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ ﴾ أَيْ : إِقَامَةٌ ، وَهِيَ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ أَبَدًا ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أَيْ : طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنَ الدَّنَسِ وَالْخُبْثِ وَالشِّرْكِ ، وَعَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتَّبَعَ الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَيْرٍ وَطَلَبٍ .

وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى ﷺ حِينَ أَبَى فِرْعَوْنُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْرِيَ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ ، وَيَذْهَبُ بِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ ، وَقَدْ بَسَطَ اللهُ هَذَا الْمَقَامَ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرَ لَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٍ ، فَغَضِبَ فِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا ، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، أَيْ : مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الْجُنْدَ مِنْ بُلْدَانِهِ وَرَسَاتِيقِهِ ، يَقُولُ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٤-٥٥] ثُمَّ لَمَّا جَمَعَ جُنْدَهُ ،

(١) **صحيح المعنى ، وإسناده صحيح** : وقد أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦) لكن الذي يترك في النفس شيئًا من السند كونه قد اختلف على عطاء بن يسار فمرةً رواه عطاء بن يسار عن أبي هريرة كما عند البخاري (مع الفتح ٦/ ١١) ، ومرة رواه عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت كما عند أحمد .

(٢) البخاري (حديث ٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣٤) .

(٣) **زيادة حسنة** ، وهي عند الترمذي (٣٦٥٨) بسندٍ ضعيف لكن لها شاهد آخر عند أحمد (٣/ ٢٦) تُحسَّن به .

وَاسْتَوْثَقَ لَهُ جَيْشُهُ سَاقَ فِي طَلَبِهِمْ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٠] أَيْ : عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الشعراء : ٦١] أَيْ : نَظَرَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْآخَرِ ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦١-٦٢] ، وَوَقَفَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، الْبَحْرُ أَمَامَهُمْ وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ ، وَقَالَ انْفَلِقْ عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] أَيْ : الْجَبَلِ الْعَظِيمِ ، فَأَرْسَلَ اللهُ الرِّيحَ عَلَى أَرْضِ الْبَحْرِ فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَابِسًا كَوَجْهِ الْأَرْضِ ، **فَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ أَيْ : مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَكَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾ أَيْ : الْبَحْرِ ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ ، وَهَذَا يُقَالُ عِنْدَ الْأَمْرِ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم : ٥٣-٥٤] ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

أَيْ : الَّذِي يُعْرَفُ وَهُوَ مَشْهُورٌ ، وَكَمَا تَقَدَّمَهُمْ فِرْعَوْنُ فَسَلَكَ بِهِمْ فِي الْيَمِّ فَأَضَلَّهُمْ وَمَا هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ ، كَذَلِكَ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود : ٩٨]

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعِظَامَ وَمِنَنَهُ الْجِسَامَ ، حَيْثُ أَنْجَاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُ ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنْدِهِ قَدْ غَرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٠]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ وَجَدَ الْيَهُودَ تَصُومُ عَاشُورَاءَ فَسَأَلَهُمْ ، فَقَالُوا : هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ فَقَالَ : « **نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى ، فَصُومُوهُ** »[1].

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَاعَدَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَأَلَ فِيهِ الرُّؤْيَةَ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ هُنَالِكَ ، وَفِي غُضُونِ ذَلِكَ عَبَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ ، كَمَا يَقُصُّهُ اللهُ تَعَالَى قَرِيبًا ، وَأَمَّا المَنُّ وَالسَّلْوَى فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » وَغَيْرِهَا ، فَالمَنُّ : حَلْوَى كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالسَّلْوَى : طَائِرٌ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُونَ مِنْ كُلٍّ قَدْرَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغَدِ ، لُطْفًا مِنَ اللهِ وَرَحْمَةً بِهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، ولهذا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ أَيْ : كُلُوا مِنْ هَذَا الرِّزْقِ الَّذِي رَزَقْتُكُمْ ، وَلَا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي فَتَأْخُذُوهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ، وَتُخَالِفُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ أَيْ : أَغْضَبَ عَلَيْكُمْ ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ **قِيلَ** : أَيْ : فَقَدْ شَقِيَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيَّ تُبْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، حَتَّى إِنَّهُ تَابَ - تَعَالَى - عَلَى مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَابَ ﴾ أَيْ : رَجَعَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ شِرْكٍ ، أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ نِفَاقٍ ، ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أَيْ : بِقَلْبِهِ ﴿ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أَيْ : بِجَوَارِحِهِ ، ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : أَيْ : ثُمَّ لَمْ يُشَكِّكْ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : اِسْتَقَامَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَزِمَ الْإِسْلَامَ حَتَّى يَمُوتَ ، **وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ** : عَلِمَ أَنَّ لِهَذَا ثَوَابًا وَ « ثُمَّ » هَاهُنَا : لِتَرْتِيبِ الْخَبَرِ عَلَى الْخَبَرِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : ١٧]

۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ

(١) البخاري (٤٧٣٧) ، وانظر كذلك مسلم (حديث ١١٣٠) .

ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لَمَّا سَارَ مُوسَى ﷺ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨-١٣٩] ، وَوَاعَدَهُ رَبُّهُ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا عَشْرًا فَتَمَّتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، أَيْ : يَصُومُهَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ بَيَانُ ذَلِكَ ، فَسَارَعَ مُوسَى ﷺ مُبَادِرًا إِلَى الطُّورِ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَاهُ هَارُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ أَيْ : قَادِمُونَ يَنْزِلُونَ قَرِيبًا مِنَ الطُّورِ ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي : لِتَزْدَادَ عَنِّي رِضًا ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ . أَخْبَرَ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى بِمَا كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْحَدَثِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَعِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ لَهُمْ ذَلِكَ السَّامِرِيُّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا أَخْبَرَهُ تَعَالَى بِذَلِكَ فِي غَايَةِ الْغَضَبِ وَالْحَنَقِ عَلَيْهِمْ ، هُوَ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الِاعْتِنَاءِ بِأَمْرِهِمْ وَتَسَلُّمِ التَّوْرَاةِ الَّتِي فِيهَا شَرِيعَتُهُمْ وَفِيهَا شَرَفٌ لَهُمْ ، وَهُمْ قَوْمٌ قَدْ عَبَدُوا غَيْرَ اللهِ مَا يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ لَهُ لُبٌّ وَحَزْمٌ بُطْلَانَ مَا هُمْ فِيهِ ، وَسَخَافَةَ عُقُولِهِمْ وَأَذْهَانِهِمْ ، وَلِهَذَا رَجَعَ إِلَيْهِمْ غَضْبَانَ أَسِفًا ، وَالْأَسَفُ : شِدَّةُ الْغَضَبِ ، وَقِيلَ : ﴿ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ أَيْ : جَزِعًا ، وَقِيلَ : ﴿ أَسِفًا ﴾ حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : أَمَا وَعَدَكُمْ عَلَى لِسَانِي كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَحُسْنَ الْعَاقِبَةِ ، كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِهِ إِيَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ

مِنْ أَيَادِي الله ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾ أَيْ : فِي انْتِظَارِ مَا وَعَدَكُمُ الله وَنِسْيَانِ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِه وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَم ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ هَاهُنَا بِمَعْنَى : بَلْ ، وَهِيَ لِلْإِضْرَابِ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ وَعُدُولٌ إِلَى الثَّانِي ، كَأَنَّهُ يَقُولُ بَلْ أَرَدْتُمْ بِصَنِيعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا ﴾ أَيْ : بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي جَوَابِ مَا أَنَّبَهُمْ مُوسَى وَقَرَّعَهُمْ ﴿ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ أَيْ : عَنْ قُدْرَتِنَا وَاخْتِيَارِنَا . ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْعُذْرِ الْبَارِدِ ، يُخْبِرُونَهُ عَنْ تَوَرُّعِهِمْ عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ الَّذِي كَانُوا قَدِ اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ ﴿ فَقَذَفْنَٰهَا ﴾ أَيْ : أَلْقَيْنَاهَا عَنَّا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْفُتُونِ أَنَّ هَارُونَ هُوَ الَّذِي كَانَ أَمَرَهُمْ بِإِلْقَاءِ الْحُلِيِّ فِي حُفْرَةٍ فِيهَا نَارٌ .

﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ ﴿ فَقَالُوا ﴾ أَيْ : الضُّلَّالُ مِنْهُمُ الَّذِينَ افْتُتِنُوا بِالْعِجْلِ وَعَبَدُوهُ ﴿ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ أَيْ : نَسِيَهُ هَاهُنَا وَذَهَبَ يَتَطَلَّبُهُ . قِيلَ : ﴿ فَنَسِىَ ﴾ أَيْ : نَسِيَ أَنْ يُذَكِّرَكُمْ أَنَّ هَذَا إِلَهُكُمْ ، وَقِيلَ : ﴿ فَنَسِىَ ﴾ أَيْ : تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، يَعْنِي : السَّامِرِيُّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ وَبَيَانًا لِفَضِيحَتِهِمْ وَسَخَافَةَ عُقُولِهِمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أَيْ : الْعِجْلُ ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أَنَّهُ لَا يُجِيبُهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ وَلَا إِذَا خَاطَبُوهُ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أَيْ : فِي دُنْيَاهُمْ وَلَا فِي أُخْرَاهُمْ .

وَحَاصِلُ مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ : أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقِبْطِ فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ وَعَبَدُوا الْعِجْلَ ، فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ ، **كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ**(١) **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ** أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ إِذَا أَصَابَ الثَّوْبَ ؟ يَعْنِي : هَلْ يُصَلِّي فِيهِ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: انْظُرُوا إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ قَتَلُوا ابْنَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ - يَعْنِي الْحُسَيْنَ - وَهُمْ يَسْأَلُونَ عَنْ دَمِ الْبَعُوضَةِ .

(١) البخاري (حديث ٥٩٩٤) بنحوه .

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْيِ هَارُونَ لَهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ وَإِخْبَارِهِ إِيَّاهُمْ ، إِنَّمَا هَذَا فِتْنَةٌ لَكُمْ ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ، ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ﴿ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ أَيْ : فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَاتْرُكُوا مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أَيْ : لَا نَتْرُكُ عِبَادَتَهُ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَ مُوسَى فِيهِ ، وَخَالَفُوا هَارُونَ فِي ذَلِكَ وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ .

قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى ﷺ حِينَ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَرَأَى مَا قَدْ حَدَثَ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ، فَامْتَلَأَ عِنْدَ ذَلِكَ غَضَبًا ، وَأَلْقَى مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْأَلْوَاحِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، وَشَرَعَ يَلُومُ أَخَاهُ هَارُونَ فَقَالَ : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ أَيْ : فَتُخْبِرَنِي بِهَذَا الْأَمْرِ أَوَّلَ مَا وَقَعَ ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ أَيْ : فِيمَا كُنْتَ قَدَّمْتَ إِلَيْكَ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[الأعراف : ١٤٢] قَالَ : ﴿ يَبْنَؤُمَّ ﴾ تَرَفَّقَ لَهُ بِذِكْرِ الْأُمِّ مَعَ أَنَّهُ شَقِيقُهُ لِأَبَوَيْهِ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْأُمِّ هَاهُنَا أَرَقُّ وَأَبْلَغُ فِي الْحُنُوِّ وَالْعَطْفِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾ الْآيَةَ . هَذَا اعْتِذَارٌ مِنْ هَارُونَ عِنْدَ مُوسَى فِي سَبَبِ تَأَخُّرِهِ عَنْهُ ، حَيْثُ لَمْ يَلْحَقْهُ فَيُخْبِرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ الْجَسِيمِ قَالَ : ﴿ إِنِّى خَشِيتُ ﴾ أَنْ أَتْبَعَكَ فَأُخْبِرَكَ بِهَذَا ، فَتَقُولَ لِي لِمَ تَرَكْتَهُمْ وَحْدَهُمْ وَفَرَّقْتَ بَيْنَهُمْ ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ أَيْ : وَمَا رَاعَيْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ حَيْثُ اسْتَخْلَفْتُكَ فِيهِمْ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يَقُولُ مُوسَى عليه السلام لِلسَّامِرِيِّ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ، وَمَا الَّذِي عَرَضَ لَكَ حَتَّى فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : رَأَيْتُ جِبْرِيلَ حِينَ جَاءَ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أَيْ : مِنْ أَثَرِ فَرَسِهِ ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ أَيْ : أَلْقَيْتُهَا مَعَ مَنْ أَلْقَى ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ أَيْ : حَسَّنَتْهُ وَأَعْجَبَهَا إِذْ ذَاكَ ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أَيْ : كَمَا أَخَذْتَ وَمَسِسْتَ مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ أَخْذُهُ وَمَسُّهُ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَعُقُوبَتُكَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَقُولَ : ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ أَيْ : لَا تَمَاسَّ النَّاسَ وَلَا يَمَسُّونَكَ ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَكَ عَنْهُ . **قَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ قَالَ : عُقُوبَةٌ لَهُمْ وَبَقَايَاهُمُ الْيَوْمَ يَقُولُونَ لَا مِسَاسَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : لَنْ تَغِيبَ عَنْهُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ﴾ أَيْ : مَعْبُودِكَ . ﴿ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أَيْ : أَقَمْتَ عَلَى عِبَادَتِهِ ، يَعْنِي : الْعِجْلَ ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ﴾ . **عَنْ عَلِيٍّ** رضي الله عنه[1] **قَالَ** : إِنَّ مُوسَى لَمَّا تَعَجَّلَ إِلَى رَبِّهِ ، عَمَدَ السَّامِرِيُّ فَجَمَعَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ حُلِيِّ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، ثُمَّ صَوَّرَهُ عِجْلًا ، قَالَ : فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى الْعِجْلِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ الْمَبَارِدَ فَبَرَدَهُ بِهَا ، وَهُوَ عَلَى شَطِّ نَهَرٍ فَلَمْ يَشْرَبْ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ مِمَّنْ كَانَ يَعْبُدُ الْعِجْلَ إِلَّا اصْفَرَّ وَجْهُهُ

(١) الدر المنثور (٥/ ٥١٩ ط إحياء التراث) ، وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه .

مِثْلُ الذَّهَبِ ، فَقَالُوا لِمُوسَى مَا تَوْبَتُنَا ؟ قَالَ : يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ يَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ لَيْسَ هَذَا إِلَهَكُمْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أَيْ : لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ عَلَى الْعِبَادِ إِلَّا هُوَ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ عَبْدٌ لَهُ ، ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمَيُّزِ ، أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن : ٢٨] ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ [سبأ : ٣] ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى ، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ عَلَى الْجَلِيَّةِ وَالْأَمْرِ الْوَاقِعِ ، كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَخْبَارَ الْمَاضِيَةَ كَمَا وَقَعَتْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ ، هَذَا ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وَهُوَ : الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] الَّذِي لَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُنْذُ بُعِثُوا إِلَى أَنْ خُتِمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ تَسْلِيمًا كِتَابًا مِثْلَهُ ، وَلَا أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَجْمَعَ لِخَبَرِ مَا سَبَقَ وَخَبَرِ مَا هُوَ كَائِنٌ ، وَحُكْمَ الْفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أَيْ : كَذَّبَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنِ اتِّبَاعِهِ أَمْرًا وَطَلَبًا ، وَابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴾ أَيْ : إِثْمًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] ، وَهَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام : ١٩] ، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ وَدَاعٍ ، فَمَنِ اتَّبَعَهُ هُدِيَ ، وَمَنْ خَالَفَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا ، وَالنَّارُ مَوْعِدُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَاكَ ﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْحِمْلُ حِمْلُهُمْ .

يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ(١) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الصُّورِ فَقَالَ : « **قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ** » وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ ، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ؟** »(٢) فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نَقُولُ ؟ قَالَ : « **قُولُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : زُرْقُ الْعُيُونِ مِنْ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ . ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : يَتَسَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ . أَيْ : يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، لَقَدْ كَانَ لُبْثُكُمْ فِيهَا قَلِيلًا ، عَشَرَةَ أَيَّامٍ أَوْ نَحْوِهَا ؛ **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ تَنَاجِيهِمْ بَيْنَهُمْ ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ﴾ أَيْ : الْعَاقِلُ الْكَامِلُ فِيهِمْ ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ أَيْ : لِقِصَرِ مُدَّةِ الدُّنْيَا فِي أَنْفُسِهِمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتُهَا وَتَعَاقَبَتْ لَيَالِيهَا وَأَيَّامُهَا وَسَاعَاتُهَا كَأَنَّهَا يَوْمٌ وَاحِدٌ ، وَلِهَذَا يَسْتَقْصِرُ الْكَافِرُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَانَ غَرَضُهُمْ فِي ذَلِكَ دَرْءُ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لِقِصَرِ الْمُدَّةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٧٤٢) ، وغيره .
(٢) حسن لشواهده : وقد أخرجه الترمذي (٢٤٣١) بسند ضعيف إلا أن له شواهد يُحسن بها .

مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥-٥٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢-١١٤] أَيْ : إِنَّمَا كَانَ لُبْثُكُمْ فِيهَا قَلِيلًا لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَآثَرْتُمُ الْبَاقِي عَلَى الْفَانِي ، وَلَكِنْ تَصَرَّفْتُمْ فَأَسَأْتُم التَّصَرُّفَ قَدَّمْتُمُ الْحَاضِرَ الْفَانِي عَلَى الدَّائِمِ الْبَاقِي .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ أَيْ : هَلْ تَبْقَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ تَزُولُ ؟ ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ أَيْ : يُذْهِبُهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا وَيَمْحَقُهَا وَيُسَيِّرُهَا تَسْيِيرًا ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أَيْ : الْأَرْضَ ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أَيْ : بِسَاطًا وَاحِدًا . **وَالْقَاعُ** : هُوَ الْمُسْتَوِي مِنَ الْأَرْضِ ، **وَالصَّفْصَفُ** : تَأْكِيدٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ ، **وَقِيلَ** : الَّذِي لَا نَبَاتَ فِيهِ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ، وَإِنْ كَانَ الْآخَرُ مُرَادًا أَيْضًا بِاللَّازِمِ ، **ولهذا قَالَ** : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ أي : لَا تَرَى فِي الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ وَادِيًا وَلَا رَابِيَةً ، وَلَا مَكَانًا مُنْخَفِضًا وَلَا مُرْتَفِعًا كَذَلك قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : يَوْمَ يَرَوْنَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَهْوَالَ يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلَى الدَّاعِي حَيْثُمَا أُمِرُوا بَادَرُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ أَنْفَعُ لَهُمْ ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم : ٣٨] وَقَالَ : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر : ٨] ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا يَمِيلُونَ عَنْهُ ، **وَقِيلَ** : لَا عِوَجَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ **قِيلَ** : سَكَنَتْ ، وَكَذَا قَالَ السُّدِّيُّ ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ يَعْنِي : وَطْءَ الْأَقْدَام ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ . ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الْحَدِيثُ وَسِرُّهُ وَوَطْءُ الْأَقْدَامِ ، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ ، أَمَّا وَطْءُ الْأَقْدَام : فَالْمُرَادُ سَعْي النَّاسِ إِلَى الْمَحْشَرِ وَهُوَ مَشْيُهُمْ فِي سُكُونٍ وَخُضُوعٍ ، وَأَمَّا الْكَلَامُ الْخَفِيُّ فَقَدْ يَكُونُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ

يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٥]

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ أَيْ : عِنْدَهُ ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٥] ، وَقَوْله : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وَقَالَ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَأَكْرَمُ الْخَلَائِقِ عَلَى الله ﷻ ، أَنَّهُ قَالَ : ((**آتِي تَحْتَ الْعَرْشِ وَأَخِرُّ لله سَاجِدًا وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لَا أُحْصِيهَا الْآنَ ، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ اِرْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**)) قَالَ : ((**فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ**)) فَذَكَرَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ -. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا(٢) ((**يَقُولُ تَعَالَى : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيُخْرِجُوا خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ مِثْقَالٍ مِنْ إِيمَانٍ ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً ، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أَيْ : يُحِيطُ عِلْمًا بِالْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ، كَقَوْلِهِ ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ **قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ** : خَضَعَتْ

---

(١) البخاري (٦٥٦٥) ، ومسلم (حديث ١٩٣) بنحوه .
(٢) البخاري بنحوه (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) .

وَذَلَّتْ وَاسْتَسْلَمَتِ الْخَلَائِقُ لِجَبَّارِهَا الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَهُوَ قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يُدَبِّرُهُ وَيَحْفَظُهُ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ لَا قِوَامَ لَهُ إِلَّا بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي كُلَّ حَقٍّ إِلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ. وَفِي الصَّحِيحِ(١): «**إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لَمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَوَعِيدَهُمْ ثَنَّى بِالْمُتَّقِينَ وَحُكْمَهُمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَلَا يُهْضَمُونَ، أَيْ: لَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، فَالظُّلْمُ: الزِّيَادَةُ بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ، وَالْهَضْمُ: النَّقْصُ.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فَصِيحٍ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا عِيَّ ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ: يَتْرُكُونَ الْمَآثِمَ وَالْمَحَارِمَ وَالْفَوَاحِشَ ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وَهُوَ إِيجَادُ الطَّاعَةِ وَفِعْلُ الْقُرُبَاتِ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أَيْ: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ حَقٌّ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ، وَوَعِيدُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ حَقٌّ، وَعَدْلُهُ تَعَالَى أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَحَدًا قَبْلَ الْإِنْذَارِ وَبَعْثَةِ الرُّسُلِ، وَالْإِعْذَارِ إِلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا يَبْقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ وَلَا شُبْهَةٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ: «**الْقِيَامَة**»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ

(١) مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -.

﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦-١٩]

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ(١) ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُعَالِجُ مِنَ الْوَحْيِ شِدَّةً ، فَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ . يَعْنِي : أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ ، كُلَّمَا قَالَ جِبْرِيلُ آيَةً قَالَهَا مَعَهُ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ ، فَأَرْشَدَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى مَا هُوَ الأَسْهَلُ وَالأَخَفُّ فِي حَقِّهِ ، لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أَيْ : أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ ثُمَّ تَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ أَيْ : بَلْ أَنْصِتْ فَإِذَا فَرَغَ الْمَلَكُ مِنْ قِرَاءَتِهِ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ بَعْدَهُ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أَيْ : زِدْنِي مِنْكَ عِلْمًا .

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ الإِنْسَانُ ؛ لِأَنَّهُ عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ ، وَقِيلَ : تَرَكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى تَشْرِيفَ آدَمَ وَتَكْرِيمَهُ ، وَمَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ(٢) وَفِي الأَعْرَافِ(٣) فِي الْحِجْرِ(٤) وَالْكَهْفِ(٥) ، وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ سُورَةِ ﴿ ص ﴾(٦) ؛

(١) البخاري (حديث رقم ٥) .
(٢) الآيات : ٣١-٣٨ (٣) الآيات : ١١-٢٤ (٤) الآيات : ٢٨-٣٥ (٥) الآية : ٥٠
(٦) الآيات : ٧١-٧٨

يَذْكُرُ تَعَالَى فِيهَا خَلْقَ آدَمَ ، وَأَمْرَهُ المَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا ، وَيُبَيِّنُ عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِبَنِي آدَمَ وَلِأَبِيهِمْ قَدِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴾ أَيْ : اِمْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ . ﴿ فَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ ﴾ يَعْنِي : حَوَّاءَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ﴿ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ أَيْ : إِيَّاكَ أَنْ يَسْعَى فِي إِخْرَاجِكَ مِنْهَا فَتَتْعَبَ وَتَعْنَى ، وَتَشْقَى فِي طَلَبِ رِزْقِكَ ، فَإِنَّكَ هَاهُنَا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ هَنِيءٍ بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ . ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾ إِنَّمَا قَرَنَ بَيْنَ الجُوعِ وَالْعُرْيِ ؛ لِأَنَّ الجُوعَ ذُلُّ الْبَاطِنِ وَالْعُرْيِ ذُلُّ الظَّاهِرِ . ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾ وَهَذَانِ أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ فَالظَّمَأُ : حَرُّ الْبَاطِنِ وَهُوَ الْعَطَشُ ، وَالضُّحَى : حَرُّ الظَّاهِرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَهِدَ إِلَى آدَمَ وَزَوْجِهِ أَنْ يَأْكُلَا مِنْ كُلِّ الثِّمَارِ ، وَلَا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ المُعَيَّنَةَ فِي الجَنَّةِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِمَا إِبْلِيسُ حَتَّى أَكَلَا مِنْهَا ، وَكَانَتْ شَجَرَةُ الْخُلْدِ ، يَعْنِي : الَّتِي مَنْ أَكَلَ مِنْهَا خَلَدَ وَدَامَ مُكْثُهُ ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : يُرَقِّعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوْبِ . **وَقِيلَ** : يَنْزِعَانِ وَرَقَ التِّينِ فَيَجْعَلَانِهِ عَلَى سَوْآتِهِمَا ، ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**حَاجَّ مُوسَى آدَمَ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ ؟ قَالَ آدَمُ : يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي**)) أَوْ ((**قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي**)) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**))[1].

قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى

(١) البخاري (٤٧٣٨) .

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِآدَمَ وَحَوَّاءَ وَإِبْلِيسَ ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ ، أَيْ : مِنَ الْجَنَّةِ كُلُّكُمْ وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ فِي ((سُورَةِ الْبَقَرَةِ)) ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قَالَ : آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ ، وَإِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ . ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ **قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ** : الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَانُ ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ **قِيلَ الْمَعْنَى** : لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أَيْ : خَالَفَ أَمْرِي وَمَا أَنْزَلْتُهُ عَلَى رَسُولِي ، أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْرِهِ هُدَاهُ ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أَيْ : ضَنْكٌ فِي الدُّنْيَا فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ وَلَا انْشِرَاحَ لِصَدْرِهِ ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقٌ حَرَجٌ لِضَلَالِهِ ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَلَ مَا شَاءَ ، وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ ، فَإِنَّ قَلْبَهُ مَا لَمْ يَخْلُصْ إِلَى الْيَقِينِ وَالْهُدَى فَهُوَ فِي قَلَقٍ وَحِيرَةٍ وَشَكٍّ ، فَلَا يَزَالُ فِي رِيبَةٍ يَتَرَدَّدُ فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ . ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ مِنْهَا : الشَّقَاءُ ، وَمِنْهَا : هُوَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ وَالرِّزْقُ الْخَبِيثُ ، وَمِنْهَا : يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فِيهِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قَالَ : ((**عَذَابُ الْقَبْرِ**)) . إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ **قِيلَ** : لَا حُجَّةَ لَهُ ، **وَقِيلَ** : **عُمِّيَ عَلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا جَهَنَّمَ** ، **وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ** : أَنَّهُ يُبْعَثُ أَوْ يُحْشَرُ إِلَى النَّارِ أَعْمَى الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ أَيْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وَلِهَذَا يَقُولُ : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أَيْ : لَمَّا أَعْرَضْتَ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَعَامَلْتَهَا مُعَامَلَةَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهَا بَعْدَ بَلَاغِهَا إِلَيْكَ تَنَاسَيْتَهَا ، وَأَعْرَضْتَ عَنْهَا وَأَغْفَلْتَهَا ، كَذَلِكَ الْيَوْمَ نُعَامِلُكَ مُعَامَلَةَ مَنْ يَنْسَاكَ ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [الأعراف : ٥١] ، فَإِنَّ

الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، فَأَمَّا نِسْيَانُ لَفْظِ القُرْآنِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ وَالقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ فَلَيْسَ دَاخِلًا فِي هَذَا الوَعِيدِ الخَاصِّ .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَهَكَذَا نُجَازِي المُسْرِفِينَ المُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٤] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أَيْ : أَشَدُّ أَلَمًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَأَدْوَمُ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْمُتَلَاعِنَيْنِ : « إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ »[1].

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ لِهَؤُلَاءِ المُكَذِّبِينَ - بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ يَا مُحَمَّدُ - كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ قَبْلَهُمْ ، فَبَادُوا ، فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ كَمَا يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارِهِمُ الخَالِيَةِ الَّتِي خَلَفُوهُمْ فِيهَا ، يَمْشُونَ فِيهَا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أَيْ : العُقُولُ الصَّحِيحَةُ وَالأَلْبَابُ المُسْتَقِيمَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ « الم السَّجْدَة » : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ الآيَة .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : لَوْلَا

---

(١) مسلم (١٤٩٣) ، والترمذي (٣١٧٨) ، والحديث أصله في البخاري رقم (٥٣١١ ، ٥٣١٢) .

الْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ مِنَ اللهِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْأَجَلِ الْمُسَمَّى الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ ، لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً .

وَلِهَذَا قَالَ لِنَبِيِّهِ مُسَلِّيًا لَهُ : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْفَجْرِ ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يَعْنِي : صَلَاةَ الْعَصْرِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ ﷺ قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ : « **إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا** »[1] ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ . وَعَنْ عُمَارَةَ ابْنِ رُؤَيْبَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول : « **لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا** »[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ أَيْ : مِنْ سَاعَاتِهِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ، وَحَمَلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ فِي مُقَابَلَةِ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥]

وَفِي الصَّحِيحِ : « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟! فَيَقُولُ : إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا** »[3].

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا تَنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمُتْرَفِينَ وَأَشْبَاهِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ وَمَا

---

(١) البخاري (حديث ٥٥٤) ، ومسلم (حديث ٦٣٢) .
(٢) مسلم (حديث ٦٣٤) .
(٣) البخاري (٦٥٤٩) ، ومسلم (٢٨٢٩) .

هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، فَإِنَّمَا هُوَ : زَهْرَةٌ زَائِلَةٌ وَنِعْمَةٌ حَائِلَةٌ ، لِنَخْتَبِرَهُمْ بِذَلِكَ ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ **يَعْنِي** : **الْأَغْنِيَاءُ** فَقَدْ آتَاكَ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا ﴾ [الحجر : ٨٧-٨٨] ، وَكَذَا مَا إِدَّخَرَهُ اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فِي الْآخِرَةِ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى ٥] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحِ[١] : أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْمَشْرُبَةِ الَّتِي كَانَ قَدِ اعْتَزَلَ فِيهَا نِسَاءَهُ حِينَ آلَى مِنْهُمْ ، فَرَآهُ مُتَوَسِّدًا مُضْطَجِعًا عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا صُبْرَةٌ مِنْ قَرَظٍ وَاهِيَةٍ مُعَلَّقَةٍ ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَا عُمَرَ بِالْبُكَاءِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ ؟**)) . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ وَأَنْتَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ ، فَقَالَ : ((**أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا**)) فَكَانَ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا إِذَا حَصَلَتْ لَهُ يُنْفِقُهَا هَكَذَا وَهَكَذَا فِي عِبَادِ اللهِ ، وَلَمْ يَدَّخِرْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا لِغَدٍ . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يَفْتَحُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا**)) قَالُوا : وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : ((**بَرَكَاتُ الْأَرْضِ**))[٢]. **وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ** : زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْنِي : زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لِنَبْتَلِيَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ **أَيْ** : اِسْتَنْقِذْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَاصْبِرْ أَنْتَ عَلَى فِعْلِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] **عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ**[٣] **عَنْ أَبِيهِ** أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَبِيتُ عِنْدَهُ أَنَا وَيَرْفَأُ[٤] وَكَانَ لَهُ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي فِيهَا ، فَرُبَّمَا لَمْ

---

(١) البخاري (٢٤٦٨) ، ومسلم (١٤٧٩) .
(٢) إسناده صحيح .
(٣) إسناده صحيح .
(٤) يرفأ هو غلام عُمر ﷺ .

يَقُمْ ، فَنَقُولُ : لَا يَقُومُ اللَّيْلَةَ كَمَا كَانَ يَقُومُ ، وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ أَقَامَ يَعْنِي : أَهْلَهُ ، وَقَالَ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ أَتَاكَ الرِّزْقُ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ **وَقَالَ الثَّوْرِيُّ** : ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ أَيْ : لَا نُكَلِّفُكَ الطَّلَبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أَيْ : وَحُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ الْجَنَّةُ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ ابْنِ رَافِعٍ ، وَأَنَّا أُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ : أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالرِّفْعَةَ ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ**))[١].

وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٣٣ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝١٣٥

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْلَا ﴾ أَيْ : هَلَّا ﴿ يَأْتِينَا ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : بِعَلَامَةٍ دَالَّةٍ عَلَى صِدْقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ اللهُ ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَمْ يُدَارِسْ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ بِمَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ الصَّحِيحَةُ مِنْهَا ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا يُصَدِّقُ الصَّحِيحَ وَيُبَيِّنُ خَطَأَ الْمَكْذُوبِ فِيهَا وَعَلَيْهَا ، وَهَذِهِ

---

(١) مسلم (٢٢٧٠) .

الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٠-٥١] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))(١). وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا أَعْظَمَ الْآيَاتِ الَّتِي أُعْطِيهَا ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَإِلَّا فَلَهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُحْصَرُ ، كَمَا هُوَ مُودَعٌ فِي كُتُبِهِ وَمُقَرَّرٌ فِي مَوَاضِعِهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أَيْ : لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ وَنُنْزِلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ لَكَانُوا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ قَبْلَ أَنْ تُهْلِكَنَا حَتَّى نُؤْمِنَ بِهِ وَنَتَّبِعَهُ كَمَا قَالَ : ﴿ فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ مُتَعَنِّتُونَ مُعَانِدُونَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٧] ، وَقَالَ : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ [فاطر : ٤٢] ، وَقَالَ : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٩] الْآيَتَيْنِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَى كُفْرِهِ وَعِنَادِهِ ﴿ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ ﴾ أَيْ : مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ أَيْ : فَانْتَظِرُوا ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ ﴾ أَيْ : الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ إِلَى الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرُّشْدِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٢] ، وَقَالَ : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر : ٢٦]

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ طه ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

---

(١) البخاري (٤٩٨١) ، ومسلم (١٥٢)

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنبِيَاءِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ[1] : بَنُو إِسْرَائِيلَ ، وَالْكَهْفَ وَمَرْيَمُ ، وَطَه ، وَالْأَنْبِيَاءُ هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي[2] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾

هَذَا تَنْبِيهٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ وَدُنُوِّهَا ، وَأَنَّ النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا ، أَيْ : لَا يَعْمَلُونَ لَهَا وَلَا يَسْتَعِدُّونَ مِنْ أَجْلِهَا . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ قَالَ : ((فِي الدُّنْيَا))[3] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] ، وَقَالَ : ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ ﴾ [القمر : ١-٢] . وَقَدْ رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَرْجَمَةِ الْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ أَبِي نُوَاسٍ

---

(١) البخاري (٤٧٣٩) .

(٢) قال الحافظ في الفتح : العتاق : جمع عتيق وهو القديم أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة ، وهن من التلادي : أي مما حفظ قديما ، ومراد ابن مسعود أنهن من أول ما تعلم من القرآن وإن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم ا.هـ بتصرف يسير .

(٣) إسناده صحيح : وقد أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٠٧) .

الشَّاعِرِ أَنَّهُ قَالَ : أَشْعَرُ النَّاسِ الشَّيْخُ الطَّاهِرُ أَبُو الْعَتَاهِيَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

النَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَا المَنِيَّةِ تَطْحَنُ

فَقِيلَ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أُخِذَ هَذَا ؟ قَالَ مِنْ قَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : أَنَّهُمْ لَا يُصْغُونَ إِلَى الْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَالْخِطَابُ مَعَ قُرَيْشٍ وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ فَقَالَ : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ أَيْ : جَدِيدٌ إِنْزَالُهُ ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ(١) : مَا لَكُمْ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَمَّا بِأَيْدِيهِمْ ، وَقَدْ حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا مِنْهُ وَكِتَابُكُمْ أَحْدَثُ الْكُتُبِ بِالله تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ .

وَقَوْله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أَيْ : قَائِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ خُفْيَةً ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يَعْنُونَ رَسُولَ الله ﷺ يَسْتَبْعِدُونَ كَوْنَهُ نَبِيًّا ؛ لِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ فَكَيْفَ اخْتُصَّ بِالْوَحْيِ دُونَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَتَتَّبِعُونَهُ فَتَكُونُونَ كَمَنْ يَأْتِي السِّحْرَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سِحْرٌ ، فَقَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا افْتَرَوْهُ وَاخْتَلَقُوهُ مِنَ الْكَذِبِ .

﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَعْلَمُ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى خَبَرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمْ ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكُمْ ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَإِلْحَادِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ الْقُرْآنَ وَحِيرَتِهِمْ فِيهِ وَضَلَالِهِمْ عَنْهُ ، فَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ سِحْرًا ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ شِعْرًا ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ، وَتَارَةً يَجْعَلُونَهُ مُفْتَرًى ، كَمَا قَالَ : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يَعْنُونَ : كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَآيَاتِ مُوسَى

---

(١) البخاري رقم (٧٣٦٣) بنحوه .

وَعِيسَى ، وَقَدْ قَالَ اللهُ : ﴿ وَمَا منعنا أن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : ٥٩] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : مَا آتَيْنَا قَرْيَةً مِن الْقُرَى الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ الرُّسُلُ آيَةً عَلَى يَدَيْ نَبِيِّهَا فَآمَنُوا بِهَا ، بَلْ كَذَّبُوا فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلِكَ ، أَفَهَؤُلَاءِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ لَوْ رَأَوْهَا دُونَ أُولَئِكَ ؟ كَلَّا ، بَلْ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧] هَذَا كُلُّهُ وَقَدْ شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَاتِ ، وَالدَّلَائِلِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا هُوَ أَظْهَرُ وَأَجْلَى وَأَبْهَرُ وَأَقْطَعُ وَأَقْهَرُ ، مِمَّا شُوهِدَ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ أَنْكَرَ بَعْثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا كَانُوا رِجَالًا مِنَ الْبَشَرِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَمَّنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَقَالُوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : ٦] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : اِسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْمِ مِنَ الْأُمَمِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَسَائِرِ الطَّوَائِفِ هَلْ كَانَ الرُّسُلُ الَّذِينَ آتَوْهُمْ بَشَرًا أَوْ مَلَائِكَةً ؟ وَإِنَّمَا كَانُوا بَشَرًا ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَنَاوُلِ الْبَلَاغِ مِنْهُمْ وَالْأَخْذِ عَنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ أَيْ : بَلْ قَدْ كَانُوا أَجْسَادًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠] أَيْ : قَدْ كَانُوا بَشَرًا مِنَ

الْبَشَرِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مِثْلَ النَّاسِ ، وَيَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارٍّ لَهُمْ وَلَا نَاقِصٍ مِنْهُمْ شَيْئًا ، كَمَا تَوَهَّمَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقان : ٧-٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، بَلْ كَانُوا يَعِيشُونَ ثُمَّ يَمُوتُونَ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ ، وَخَاصَّتُهُمْ أَنَّهُمْ يُوحَى إِلَيْهِمْ مِنَ اللهِ ﷻ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ عَنِ اللهِ بِمَا يَحْكُمُهُ فِي خَلْقِهِ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَعَدَهُمْ رَبُّهُمْ لَيُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ صَدَقَهُمُ اللهُ وَعْدَهُ فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ أَيْ : أَتْبَاعُهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَيْ : الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ .

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ وَمُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ قَدْرِهِ : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ **قِيلَ** : شَرَفُكُمْ ، **وَقِيلَ** : حَدِيثُكُمْ ، **وَقِيلَ** : دِينُكُمْ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ النِّعْمَةُ ، وَتَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ هَذِهِ صِيغَةُ تَكْثِيرٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : أُمَّةً أُخْرَى بَعْدَهُمْ . ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ ﴾ أَيْ : تَيَقَّنُوا أَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ كَمَا وَعَدَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴿ إِذَا

هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أَيْ : يَفِرُّونَ هَارِبِينَ ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ قَدَرًا ، أَيْ : قِيلَ لَهُمْ قَدَرًا لَا تَرْكُضُوا هَارِبِينَ مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالسُّرُورِ وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَسَاكِنِ الطَّيِّبَةِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : اِسْتِهْزَاءً بِهِمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أَيْ : عَمَّا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ . ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اِعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ أَيْ : مَا زَالَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ – وَهِيَ الِاعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ – هِجِّيرَاهُمْ[1] حَتَّى حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا ، وَخَمَدَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَأَصْوَاتُهُمْ خُمُودًا .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، أَيْ : بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ ؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١]، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا وَلَا لَعِبًا كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : ٢٧]

وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ يَعْنِي : مِنْ عِنْدِنَا يَقُولُ : وَمَا خَلَقْنَا جَنَّةً وَلَا نَارًا ، وَلَا مَوْتًا وَلَا بَعْثًا وَلَا حِسَابًا . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ اللَّهْوُ : الْمَرْأَةُ ، بِلِسَانِ أَهْلِ الْيَمَنِ ، **وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ** : ﴿ لَّاتَّخَذْنَاهُ ﴾ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِاللَّهْوِ هَهُنَا : الْوَلَدُ ، وَهَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ مُتَلَازِمَانِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ

(١) الهجيري : الدأب والعادة .

مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[الزمر : ٤] ، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ مُطْلَقًا ، وَلَا سِيَّمَا عَمَّا يَقُولُونَ مِنَ الإِفْكِ وَالْبَاطِلِ مِنَ اتِّخَاذِ عِيسَى أَوِ الْعُزَيْرِ أَوِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[الإسراء : ٤٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : أَيْ : مَا كُنَّا فَاعِلِينَ . ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ أَيْ : نُبَيِّنُ الْحَقَّ فَيُدْحِضُ الْبَاطِلَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أَيْ : ذَاهِبٌ مُضْمَحِلٌّ ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْقَائِلُونَ : لله وَلَدٌ ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أَيْ : تَقُولُونَ وَتَفْتَرُونَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ عُبُودِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ وَدَأْبِهِمْ فِي طَاعَتِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، **فَقَالَ** : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ يَعْنِي : الْمَلَائِكَةُ ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ أَيْ : لَا يَسْتَنْكِفُونَ عَنْهَا ، كَمَا قَالَ ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[النساء : ١٧٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتْعَبُونَ وَلَا يَمَلُّونَ ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فَهُمْ دَائِبُونَ فِي الْعَمَلِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، مُطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا قَادِرُونَ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم : ٦]

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً **فَقَالَ** : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أَيْ : أَهُمْ يُحْيُونَ الْمَوْتَى وَيُنْشِرُونَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ جَعَلُوهَا لله نِدًّا وَعَبَدُوهَا مَعَهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ آلِهَةٌ غَيْرُهُ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ أَيْ : فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ

سُبْحَنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَسُبْحَنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : عَمَّا يقولون إنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ الَّذِي يَفْتَرُونَ وَيَأْفِكُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا -.

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ . لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَلُطْفِهِ ﴿ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ أي : وَهُوَ سَائِلٌ خَلْقَهُ عَمَّا يَعْمَلُونَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] ، وَهَـٰذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨]

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ أَيْ : دَلِيلَكُمْ عَلَى مَا تَقُولُونَ : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ ﴿ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ يَعْنِي : الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى خِلَافِ مَا تَقُولُونَهُ وَتَزْعُمُونَ ، فَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ نَاطِقٌ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ لَا تَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْفِطْرَةُ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ أَيْضًا ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى رَادًّا عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَلَدًا مِنَ المَلَائِكَةِ ، كَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْعَرَبِ إِنَّ المَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله ، **فَقَالَ** : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أَيْ : المَلَائِكَةُ عِبَادُ الله ، مُكْرَمُونَ عِنْدَهُ فِي مَنَازِلَ عَالِيَةٍ وَمَقَامَاتٍ سَامِيَةٍ ، وَهُمْ لَهُ فِي غَايَةِ الطَّاعَةِ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتَقَدَّمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرٍ ، وَلَا يُخَالِفُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، بَلْ يُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِهِ ، وَهُوَ تَعَالَى عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ مِنْهُ خَافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ:٢٣] فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي مَعْنَى ذَلِكَ ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِه ﴾ أَيْ : مِنْ خَوْفِهِ وَرَهْبَتِهِ ، ﴿ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : مَنِ ادَّعَى مِنْهُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ دُونِ الله ، أَيْ : مَعَ الله ﴿ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : كُلُّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ وَهَذَا شَرْطٌ وَالشَّرْطُ لَا يَلْزَمُ وُقُوعُهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥]

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَقَهْرِهِ لِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ ، **فَقَالَ** : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ أَيْ : الجَاحِدُونَ لِإِلَهِيَّتِهِ

الْعَابِدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ الْمُسْتَبِدُّ بِالتَّدْبِيرِ ، فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ يُعْبَدَ مَعَهُ غَيْرُهُ أَوْ يُشْرَكَ بِهِ مَا سِوَاهُ ؟! أَلَمْ يَرَوْا ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ أَيْ : كَانَ الْجَمِيعُ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ مُتَلَاصِقٌ ، مُتَرَاكِمٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ ، فَفَتَقَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ ، فَجَعَلَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا وَالْأَرْضَ سَبْعًا ، وَفَصَلَ بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْأَرْضِ بِالْهَوَاءِ ، فَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَنْبَتَتِ الْأَرْضُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ يُشَاهِدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ تَحْدُثُ شَيْئًا فَشَيْئًا عِيَانًا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ .

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ **قِيلَ** : كَانَتِ السَّمَاءُ وَاحِدَةً فَفَتَقَ مِنْهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ وَاحِدَةً فَفَتَقَ مِنْهَا سَبْعَ أَرْضِينَ ، **وَقِيلَ** : وَلَمْ تَكُنِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ مُتَمَاسَّتَيْنِ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : بَلْ كَانَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ مُلْتَزِقَتَيْنِ ، فَلَمَّا رَفَعَ السَّمَاءَ وَأَبْرَزَ مِنْهَا الْأَرْضَ كَانَ ذَلِكَ فَتْقُهُمَا الَّذِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ** : كَانَتَا جَمِيعًا فَفَصَلَ بَيْنَهُمَا بِهَذَا الْهَوَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ أَيْ : أَصْلُ كُلِّ الْأَحْيَاءِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ أَيْ : جِبَالًا أَرْسَى الْأَرْضَ بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلَهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِالنَّاسِ ، أَيْ : تَضْطَرِبُ وَتَتَحَرَّكُ ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ قَرَارٌ عَلَيْهَا ؛ لأَنَّهَا غَامِرَةٌ فِي الْمَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ الرُّبْعِ ، فَإِنَّهُ بَادٍ لِلْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ لِيُشَاهِدَ أَهْلُهَا السَّمَاءَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالْحِكَمِ وَالدَّلَالَاتِ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَمِيدَ بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا ﴾ أَيْ : ثَغْرًا فِي الْجِبَالِ ، يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي الْأَرْضِ ، يَكُونُ الْجَبَلُ حَائِلًا بَيْنَ هَذِهِ الْبِلَادِ وَهَذِهِ الْبِلَادِ ، فَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ فَجْوَةً - ثَغْرَةً - لِيَسْلُكَ النَّاسُ فِيهَا مِنْ هَهُنَا إِلَى هَهُنَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أَيْ : عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ كَالْقُبَّةِ عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] ، وَالْبِنَاءُ هُوَ نَصْبُ الْقُبَّةِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**))[١] أَيْ : خَمْسَةُ دَعَائِمَ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْخِيَامِ كَمَا تَعْهَدُهُ الْعَرَبُ ﴿ مَّحْفُوظًا ﴾ أَيْ : عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يُنَالَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : مَرْفُوعًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] أَيْ : لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ اللهُ فِيهَا مِنَ الِاتِّسَاعِ الْعَظِيمِ وَالِارْتِفَاعِ الْبَاهِرِ ، وَمَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، فِي لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ الَّتِي تَقْطَعُ الْفُلْكَ بِكَمَالِهِ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَتَسِيرُ غَايَةً لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللهُ ، الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا .

ثُمَّ قَالَ مُنَبِّهًا عَلَى بَعْضِ آيَاتِهِ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : هَذَا فِي ظَلَامِهِ وَسُكُونِهِ ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأُنْسِهِ ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً ثُمَّ يَقْصُرُ أُخْرَى وَعَكْسُهُ الْآخَرُ ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ هَذِهِ لَهَا نُورٌ يَخُصُّهَا وَفَلَكٌ بِذَاتِهِ وَزَمَانٌ عَلَى حِدَةٍ وَحَرَكَةٌ وَسَيْرٌ خَاصٌّ ، وَهَذَا بِنُورٍ آخَرَ وَفَلَكٍ آخَرَ وَسَيْرٍ آخَرَ وَتَقْدِيرٍ آخَرَ ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أَيْ : يَدُورُونَ .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ ٱلْخُلْدَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بَلْ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] ، **وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْخَضِرَ** عليه السلام **مَاتَ وَلَيْسَ بِحَيٍّ إِلَى الْآنِ** ؛ لِأَنَّهُ بَشَرٌ سَوَاءٌ كَانَ وَلِيًّا أَوْ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾

---

(١) البخاري رقم (٨) ، ومسلم (١٦) .

أَيْ : يُؤَمِّلُونَ أَنْ يَعِيشُوا بَعْدَكَ ، لَا يَكُونُ هَذَا ، بَلْ كُلٌّ إِلَى الْفَنَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ أَنْشَدَ وَاسْتَشْهَدَ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثْلُهَا فَكَأَنْ قَدِ

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أَيْ : نَخْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ تَارَةً ، وَبِالنِّعَمِ أُخْرَى ، لِنَنْظُرَ مَنْ يَشْكُرُ وَمَنْ يَكْفُرُ ، وَمَنْ يَصْبِرُ وَمَنْ يَقْنُطُ ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ يَقُولُ : نَبْتَلِيكُمْ ﴿ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَالصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْحَلَالِ ، وَالْحَرَامِ ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : فَنُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ يَعْنِي : كُفَّارُ قُرَيْشٍ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَشْبَاهِهِ ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أَيْ : يَسْتَهْزِئُونَ بِكَ وَيَنْتَقِصُونَكَ يَقُولُونَ ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ يَعْنُونَ أَهَذَا الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللهِ ، وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤١-٤٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] أَيْ : فِي الْأُمُورِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : خَلَقَ اللهُ آدَمَ بَعْدَ

كُلِّ شَيْءٍ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ ، مِنْ يَوْمِ خَلْقِ الْخَلَائِقِ ، فَلَمَّا أَحْيَا الرُّوحُ عَيْنَيْهِ وَلِسَانَهُ وَرَأْسَهُ وَلَمْ يَبْلُغْ أَسْفَلَهُ قَالَ : يَا رَبِّ اسْتَعْجِلْ بِخَلْقِي قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ .

وَالْحِكْمَةُ فِي ذِكْرِ عَجَلَةِ الْإِنْسَانِ هَهُنَا : أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالرَّسُولِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَقَعَ فِي النُّفُوسِ سُرْعَةَ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ وَاسْتُعْجِلَتْ ذَلِكَ ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ، يُؤَجِّلُ ثُمَّ يُعَجِّلُ ، وَيُنْظِرُ ثُمَّ لَا يُؤَخِّرُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى ﴾ أَيْ : نِقَمِي وَحُكْمِي وَاقْتِدَارِي عَلَى مَنْ عَصَانِي ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوعِ الْعَذَابِ بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِبْعَادًا **فَقَالَ** : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أَيْ : لَوْ تَيَقَّنُوا أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ حِينَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم : ٥٠] ، فَالْعَذَابُ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا نَاصِرَ لَهُمْ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً ، أَيْ : فَجْأَةً ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أَيْ : تَذْعَرُهُمْ فَيَسْتَسْلِمُونَ لَهَا حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أَيْ :

لَيْسَ لَهُمْ حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا يُؤَخَّرُ عَنْهُمْ ذَلِكَ سَاعَةً وَاحِدَةً .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤]

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ عَلَى عَبِيدِهِ فِي حِفْظِهِ لَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَكِلَاءَتِهِ وَحِرَاسَتِهِ لَهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أَيْ : بَدَلَ الرَّحْمَنِ ، يَعْنِي : غَيْرُهُ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

جَارِيَةٌ لَمْ تَلْبَس الْمُرَقَّقَا وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتُقَا

أَيْ : لَمْ تَذُقْ بَدَلَ الْبُقُولِ الْفُسْتُقَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاتِهِ وَآلَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَقْرِيعٍ وَتَوْبِيخٍ ، أَيْ : أَلَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ وَتَكْلَؤُهُمْ غَيْرُنَا ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوا وَلَا كَمَا قَدْ زَعَمُوا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي اِسْتَنَدُوا إِلَيْهَا غَيْرَ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ . ﴿ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قِيلَ : أَيْ يُجَارُونَ ، وَقِيلَ : لَا يُصْحَبُونَ مِنَ اللهِ بِخَيْرٍ ، وَقِيلَ : يُمْنَعُونَ .

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي

ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ : إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ، أَنَّهُمْ مُتِّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَنُعِّمُوا وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ قَالَ وَاعِظًا لَهُمْ : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ : وَقَدْ أَسْلَفْنَاهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ وَأَحْسَنَ مَا فُسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٧] ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : يَعْنِي بِذَلِكَ ظُهُورَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَالْمَعْنَى : أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ اللهِ لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَإِهْلَاكِهِ الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ وَالْقُرَى الظَّالِمَةَ وَإِنْجَائِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ يَعْنِي : بَلْ هُمُ الْمَغْلُوبُونَ الْأَسْفَلُونَ الْأَخْسَرُونَ الْأَرْذَلُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ مَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا عَمَّا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ لَا يُجْدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى اللهُ بَصِيرَتَهُ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ مَسَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ لَيَعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْعَدْلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ وَاحِدٌ ، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الْأَعْمَالِ الْمَوْزُونَةِ فِيهِ . ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ

مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وَقَالَ لُقْمَانُ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**))(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنَّ اللهَ ﷻ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ قَالَ : لَا يَا رَبِّ ، قَالَ : أَفَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ ؟ قَالَ : فَبُهِتَ الرَّجُلُ ، فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ فَيَخْرُجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : أَحْضِرُوهُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ ، قَالَ : فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ ، قَالَ : وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ مَعَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**))(٢).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى كَثِيرًا مَا يَقْرِنُ بَيْنَ ذِكْرِ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - وَبَيْنَ كِتَابَيْهِمَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ **قِيلَ** : التَّوْرَاةُ ، **وَقِيلَ** : مَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ ، **وَجَامِعُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ** : أَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ،

---

(١) البخاري (حديث ٧٥٦٣) ، ومسلم (حديث ٢٦٩٤) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) ، والترمذي (٢٦٣٩) .

وَالْهُدَى وَالضَّلَال ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالحَلالِ والحَرَام ، وَعَلَى مَا يُحَصِّلُ نُورًا فِي الْقُلُوبِ ، وَهِدَايَةً وَخَوْفًا وَإِنَابَةً وَخَشْيَةً . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : تَذْكِيرًا لَهُمْ وَعِظَةً . **ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَالَ** : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣] ، ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أَيْ : خَائِفُونَ وَجِلُونَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَتُنْكِرُونَهُ وَهُوَ فِي غَايَةِ الجَلاءِ وَالظُّهُورِ ؟.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنَّهُ آتَاهُ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، أَيْ : مِنْ صِغَرِهِ أَلْهَمَهُ الْحَقَّ وَالْحُجَّةَ عَلَى قَوْمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٨٣] وَمَا يُذْكَرُ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْهُ فِي إِدْخَالِ أَبِيهِ لَهُ فِي السَّرَبِ وَهُوَ رَضِيعٌ ، وَأَنَّهُ خَرَجَ بَعْدَ أَيَّام فَنَظَرَ إِلَى الْكَوْكَبِ وَالْمَخْلُوقَاتِ فَتَبَصَّرَ فِيهَا ، وَمَا قَصَّهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرُهُمْ فَعَامَّتُهَا أَحَادِيثُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَمَا وَافَقَ مِنْهَا الْحَقَّ مِمَّا بِأَيْدِينَا عَنِ الْمَعْصُومِ قَبِلْنَاهُ لِمُوَافَقَتِهِ الصَّحِيحَ ، وَمَا خَالَفَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ رَدَدْنَاهُ ، وَمَا لَيْسَ فِيهِ مُوَافَقَةٌ وَلَا مُخَالَفَةٌ لَا نُصَدِّقهُ وَلَا نُكَذِّبهُ بَلْ نَجْعَلُهُ وَقْفًا ، وَمَا كَانَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنْهَا فَقَدْ رَخَّصَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ فِي رِوَايَتِهِ ، وَكَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَا حَاصِلَ لَهُ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الدِّينِ ، وَلَوْ كَانَتْ فَائِدَتُهُ تَعُودُ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ فِي دِينِهِمْ لَبَيَّنَتْهُ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الشَّامِلَةُ ، وَالَّذِي نَسْلُكُهُ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ الْإِعْرَاضُ عَنْ

كَثِيرٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ لِمَا فِيهَا مِنْ تَضْيِيعِ الزَّمَانِ ، وَلِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهَا مِنَ الْكَذِبِ الْمُرَوَّجِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لَا تَفْرِقَةَ عِنْدَهُمْ بَيْنَ صَحِيحِهَا وَسَقِيمِهَا ، كَمَا حَرَّرَهُ الْأَئِمَّةُ الْحُفَّاظُ الْمُتْقِنُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَالْمَقْصُودُ هَهُنَا : أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ آتَى إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، أَيْ : مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : وَكَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ هَذَا هُوَ الرُّشْدُ الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ صِغَرِهِ ، الْإِنْكَارُ عَلَى قَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ، فَقَالَ : ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ أَيْ : مُعْتَكِفُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا . ﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ سِوَى صَنِيعِ آبَائِهِمُ الضُّلَّالُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : الْكَلَامُ مَعَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ احْتَجَجْتُمْ بِصَنِيعِهِمْ كَالْكَلَامِ مَعَكُمْ ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَلَمَّا سَفَّهَ أَحْلَامَهُمْ ، وَضَلَّلَ آبَاءَهُمْ ، وَاحْتَقَرَ آلِهَتَهُمْ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامَ الصَّادِرَ عَنْكَ تَقُولُهُ لَاعِبًا أَوْ مُحِقًّا فِيهِ ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ قَبْلَكَ . ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ أَيْ : رَبُّكُمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَمَا حَوَتْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَهُنَّ ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أَيْ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ثُمَّ أَقْسَمَ الْخَلِيلُ قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْضَ قَوْمِهِ لَيَكِيدَنَّ أَصْنَامَهُمْ ، أَيْ : لَيُحَرِّضَنَّ عَلَى أَذَاهُمْ وَتَكْسِيرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ، أَيْ : إِلَى عِيدِهِمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ . قَالَ السُّدِّيُّ : لَمَّا اقْتَرَبَ وَقْتُ ذَلِكَ الْعِيدِ ، قَالَ أَبُوهُ : يَا بُنَيَّ لَوْ خَرَجْتَ مَعَنَا إِلَى عِيدِكَ لَأَعْجَبَكَ دِينُنَا ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ أَلْقَى نَفْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ ، فَجَعَلُوا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَهُوَ صَرِيعٌ ، فَيَقُولُونَ : مَهْ ، فَيَقُولُ : إِنِّي سَقِيمٌ ، فَلَمَّا جَازَ عَامَّتُهُمْ وَبَقِيَ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم ﴾ فَسَمِعَهُ أُولَئِكَ . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا خَرَجَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عِيدِهِمْ مَرُّوا عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا إِبْرَاهِيمَ أَلَا تَخْرُجُ مَعَنَا ؟ قَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ ، وَقَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ قَالَ : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ فَسَمِعَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أَيْ : حُطَامًا ، كَسَّرَهَا كُلَّهَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ، يَعْنِي : إِلَّا الصَّنَمَ الْكَبِيرَ عِنْدَهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾[الصافات : ٩٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ الْقَدُومَ فِي يَدِ كَبِيرِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَارَ لِنَفْسِهِ ، وَأَنِفَ أَنْ تُعْبَدَ مَعَهُ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الصِّغَارُ فَكَسَّرَهَا . ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾ أَيْ : حِينَ رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا فَعَلَهُ الْخَلِيلُ بِأَصْنَامِهِمْ ، مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِذْلَالِ الدَّالِّ عَلَى عَدَمِ إِلَهِيَّتِهَا ، وَعَلَى سَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا ، ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : فِي صَنِيعِهِ هَذَا . ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ أَيْ : قَالَ مَنْ سَمِعَهُ يَحْلِفُ إِنَّهُ لَيَكِيدَنَّهُمْ : سَمِعْنَا فَتًى ، أَيْ : شَابًّا ﴿ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فِي الْمَلَإِ الْأَكْبَرِ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَكْبَرُ لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ ، أَنْ يُبَيِّنَ فِي هَذَا الْمَحْفِلِ الْعَظِيمِ كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةَ عَقْلِهِمْ ، فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ضَرًّا ، وَلَا تَمْلِكُ لَهَا نَصْرًا ، فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ يَعْنِي : الَّذِي تَرَكَهُ لَمْ يُكَسِّرْهُ ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَيَعْتَرِفُوا : أَنَّهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ، وَأَنَّ هَذَا لَا يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الصَّنَمِ لِأَنَّهُ جَمَادٌ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ(١) : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَمْ يَكْذِبْ غَيْرَ ثَلَاثٍ : ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ الله قَوْلُهُ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] قَالَ : وَبَيْنَا هُوَ يَسِيرُ فِي أَرْضِ جَبَّارٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ وَمَعَهُ سَارَةُ ، إِذْ نَزَلَ مَنْزِلًا ، فَأَتَى الجَبَّارَ رَجُلٌ فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ نَزَلَ هَهُنَا رَجُلٌ بِأَرْضِكَ مَعَهُ امْرَأَةٌ أَحْسَنُ النَّاسِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ، فَجَاءَ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ المَرْأَةُ مِنْكَ ؟ قَالَ : أُخْتِي ، قَالَ : فَاذْهَبْ فَأَرْسِلْ بِهَا إِلَيَّ ، فَانْطَلَقَ إِلَى سَارَةَ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الجَبَّارَ قَدْ سَأَلَنِي عَنْكِ فَأَخْبَرْتَهُ أَنَّكِ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي عِنْدَهُ ، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي كِتَابِ الله ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ ، فَانْطَلَقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ فَرَآهَا أَهْوَى إِلَيْهَا ، فَتَنَاوَلَهَا فَأُخِذَ أَخْذًا شَدِيدًا ، فَقَالَ : ادْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ ، فَدَعَتْ لَهُ فَأُرْسِلَ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا فَتَنَاوَلَهَا ، فَأُخِذَ بِمِثْلِهَا أَوْ أَشَدُّ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ الثَّالِثَةَ ، فَأُخِذَ فَذَكَرَ مِثْلَ المَرَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ ، فَقَالَ : ادْعِي اللهَ فَلَا أَضُرُّكِ ، فَدَعَتْ لَهُ فَأُرْسِلَ ، ثُمَّ دَعَا أَدْنَى حُجَّابِهِ فَقَالَ : إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ وَلَكِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ ، أَخْرِجْهَا وَأَعْطِهَا هَاجَرَ ، فَأُخْرِجَتْ وَأُعْطِيَتْ هَاجَرُ فَأَقْبَلَتْ ، فَلَمَّا أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ بِمَجِيئِهَا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ ، وَقَالَ : مَهْيَمْ ؟ قَالَتْ : كَفَى اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ الْفَاجِرِ وَأَخْدَمَنِي هَاجَرَ » قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيثِ قَالَ : تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ .

فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُمْ مَا قَالَ : ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَيْ : بِالمَلَامَةِ فِي عَدَمِ احْتِرَازِهِمْ وَحِرَاسَتِهِمْ لِآلِهَتِهِمْ فَقَالُوا : ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧١) ، وهو عند البخاري موقوفًا (٣٣٥٨) ، وبعضه مرفوع (٣٣٥٧) .

أَيْ : فِي تَرْكِكُمْ لَهَا مُهْمَلَةً لَا حَافِظَ عِنْدَهَا ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أَيْ : ثُمَّ أَطْرَقُوا فِي الْأَرْضِ **فَقَالُوا** : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : أَدْرَكَتِ الْقَوْمَ حِيرَةُ سُوءٍ ، فَقَالُوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي الْفِتْنَةِ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : أَيْ : فِي الرَّأْيِ . وَقَوْلُ قَتَادَةَ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى ، لأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ حِيرَةً وَعَجْزًا ، وَلِهَذَا قَالُوا لَهُ : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ فَكَيْفَ تَقُولُ لَنَا سَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَنْطِقُ ، فَعِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَتْ لَا تَنْطِقُ وَهِيَ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ ؟ ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا تَتَدَبَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ الْغَلِيظِ ، الَّذِي لَا يَرُوجُ إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ ظَالِمٍ فَاجِرٍ ، فَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَأَلْزَمَهُمْ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٨٣]

قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لَمَّا دُحِضَتْ حُجَّتُهُمْ ، وَبَانَ عَجْزُهُمْ وَظَهَرَ الْحَقُّ ، وَانْدَفَعَ الْبَاطِلُ ، عَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِ مُلْكِهِمْ ، **فَقَالُوا** : ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا جِدًّا ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : حَتَّى إِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْرَضُ فَتَنْذِرَ إِنْ عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِلَ حَطَبًا لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَأَضْرَمُوهَا نَارًا ، فَكَانَ لَهَا شَرَرٌ عَظِيمٌ ، وَلَهَبٌ مُرْتَفِعٌ لَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ مِثْلُهَا ، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ . فَلَمَّا أَلْقَوْهُ قَالَ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣]

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَوْلَا أَنَّ اللهَ ﷻ قَالَ : ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لَآذَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدُهَا .

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ : حَدَّثَتْنِي مَوْلَاةُ الْفَاكِهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ قَالَتْ : دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَرَأَيْتُ فِي بَيْتِهَا رُمْحًا فَقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَصْنَعِينَ بِهَذَا الرُّمْحِ ؟ فَقَالَتْ : نَقْتُلُ بِهِ هَذِهِ الْأَوْزَاغَ ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةٌ إِلَّا تُطْفِئُ النَّارَ غَيْرَ الْوَزَغِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ** » فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَتْلِهِ(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أَيْ : الْمَغْلُوبِينَ الْأَسْفَلِينَ ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ اللهِ كَيْدًا فَكَادَهُمُ اللهُ وَنَجَّاهُ مِنَ النَّارِ ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ .

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ سَلَّمَهُ اللهُ مِنْ نَارِ قَوْمِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُهَاجِرًا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ **قِيلَ** : عَطِيَّةً ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : النَّافِلَةُ : وَلَدُ الْوَلَدِ ، يَعْنِي : أَنَّ يَعْقُوبَ وَلَدُ إِسْحَاقَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : سَأَلَ وَاحِدًا ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٠] فَأَعْطَاهُ اللهُ إِسْحَاقَ ، وَزَادَهُ يَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ أَهْلُ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ . ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أَيْ : يُقْتَدَى بِهِمْ ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أَيْ :

---

(١) **صحيح** : وأخرج البخاري (٣٣٥٩) من حديث أم شريك - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال : كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام .

يَدْعُونَ إِلَى الله بِإِذْنِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ﴿ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : فَاعِلِينَ لِمَا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ ، ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوطٍ وَهُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ كَانَ قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَاتَّبَعَهُ وَهَاجَرَ مَعَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] فَآتَاهُ اللهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، وَبَعَثَهُ إِلَى سَدُومَ وَأَعْمَالِهَا فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَصَّ خَبَرَهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِجَابَتِهِ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام حِينَ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ لَمَّا كَذَّبُوهُ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] ، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦-٢٧] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : مِنَ الشِّدَّةِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، فَإِنَّهُ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الله عز وجل فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَكَانُوا يَتَصَدَّوْنَ لِأَذَاهُ وَيَتَوَاصَوْنَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ عَلَى خِلَافِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ أَيْ : وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ مُنْتَصِرًا مِنَ الْقَوْمِ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : أَهْلَكَهُمُ

اللهُ بِعَامَّةٍ ، وَلَمْ يُبْقِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ .

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قِيلَ : النَفْشُ : الرَعْيِ بِاللَّيْلِ ، وَالهَمَلُ بِالنَّهَارِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : قَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِأَصْحَابِ الْحَرْثِ ، فَخَرَجَ الرِّعَاءُ مَعَهُمُ الْكِلَابُ ، فَقَالَ لَهُمْ سُلَيْمَانُ : كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمْ فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : لَوْ وُلِّيتُ أَمْرَكُمْ لَقَضَيْتُ بِغَيْرِ هَذَا ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ دَاوُدُ فَدَعَاهُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَقْضِي بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ : أَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ أَوْلَادُهَا وَأَلْبَانُهَا وَسِلَاؤُهَا وَمَنَافِعُهَا وَيَبْذُرُ أَصْحَابُ الْغَنَمِ لِأَهْلِ الْحَرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ ، فَإِذَا بَلَغَ الْحَرْثَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَخَذَهُ أَصْحَابُ الْحَرْثِ وَرَدُّوا الْغَنَمَ إِلَى أَصْحَابِهَا(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فَأَثْنَى اللهُ عَلَى سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَذُمَّ دَاوُدَ . **قَالَ الحَسَنُ** : إِنَّ اللهَ اتَّخَذَ عَلَى الْحُكَّامِ ثَلَاثًا : لَا يَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَلَا يَتَّبِعُوا فِيهِ الْهَوَى ، وَلَا يَخْشَوْا فِيهِ أَحَدًا ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] ، وَقَالَ : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [المائدة : ٤٤]

قُلْتُ : أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَكُلُّهُمْ مَعْصُومُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ ﷻ وَهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ

---

(١) سنده ضعيف : ولكن أكثر الأئمة على أن نحو هذا معنى الآية ، والله أعلم .

فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ** »(١). وَفِي السُّنَنِ : « **الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضٍ فِي الجَنَّةِ ، وَقَاضِيَانِ فِي النَّارِ ، رَجُلٌ عَلِمَ الحَقَّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الجَنَّةِ ، وَرَجُلٌ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الحَقَّ وَقَضَى خِلَافَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ** »(٢).

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لَهُمَا إِذْ جَاءَ الذِّئْبُ فَأَخَذَ أَحَدَ الِابْنَيْنِ ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى فَخَرَجَتَا ، فَدَعَاهُمَا سُلَيْمَانُ فَقَالَ : هَاتُوا السِّكِّينَ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا ، فَقَالَتِ الصُّغْرَى : يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا لَا تَشُقُّهُ ، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى** »(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾ الْآيَةَ ، وَذَلِكَ لِطِيبِ صَوْتِهِ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الزَّبُورَ ، وَكَانَ إِذَا تَرَنَّمَ بِهِ تَقِفُ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ فَتُجَاوِبُهُ ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ الْجِبَالُ تَأْوِيبًا ، وَلِهَذَا لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ ، وَكَانَ لَهُ صَوْتٌ طَيِّبٌ جِدًّا ، فَوَقَفَ وَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ وَقَالَ : « **لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ** »(٤) **قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ** : مَا سَمِعْتُ صَوْتَ صَنْجٍ وَلَا بَرْبَطٍ وَلَا مِزْمَارٍ مِثْلَ صَوْتِ أَبِي مُوسَى ﷺ وَمَعَ هَذَا قَالَ ﷺ « **لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ يَعْنِي : صَنْعَةَ الدُّرُوعِ **قَالَ قَتَادَةُ** : إِنَّمَا كَانَتِ الدُّرُوعُ قَبْلَهُ صَفَائِحَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَرَدَهَا حِلَقًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾[سبأ : ١٠-١١] أَيْ : لَا تُوَسِّعَ الْحَلْقَةَ فَتُقْلِقَ الْمِسْمَارَ وَلَا تُغْلِظَ الْمِسْمَارَ فَتَقُدَّ الْحَلْقَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ :

---

(١) البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (٣٥٧٣) .

(٣) البخاري (٣٤٢٧) ، ومسلم (١٧٢٠) .

(٤) البخاري (٥٠٤٨) ، ومسلم (٧٩٣) .

﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ يَعْنِي : فِي الْقِتَالِ ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ أَيْ : نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ لِمَا أَلْهَمَ بِهِ عَبْدَهُ دَاوُدَ فَعَلَّمَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أَيْ : وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ الْعَاصِفَةَ ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ يَعْنِي : أَرْضَ الشَّامِ ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ بِسَاطٌ مِنْ خَشَبٍ ، يُوضَعُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ ، وَالْخَيْلِ وَالْجِمَالِ وَالْخِيَامِ وَالْجُنْدِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ الرِّيحَ أَنْ تَحْمِلَهُ فَتَدْخُلَ تَحْتَهُ ثُمَّ تَحْمِلَهُ وَتَرْفَعَهُ وَتَسِيرُ بِهِ وَتُظِلُّهُ الطَّيْرُ تَقِيهِ الْحَرَّ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ ، فَيَنْزِلَ وَتُوضَعُ آلَاتُهُ وَحَشَمُهُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [سبأ : ١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : فِي الْمَاءِ ، يَسْتَخْرِجُونَ اللَّآلِئَ وَالْجَوَاهِرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرَ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٧-٣٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ أَيْ : يَحْرُسُهُ اللهُ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِسُوءٍ ، بَلْ كُلٌّ فِي قَبْضَتِهِ وَتَحْتَ قَهْرِهِ ، لَا يَتَجَاسَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ ، بَلْ هُوَ يَحْكُمُ فِيهِمْ إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٨]

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤

يَذْكُرُ تَعَالَى عَنْ أَيُّوبَ ﷺ مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَنَازِلُ مُرْضِيَةٌ ، فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَذَهَبَ عَنْ آخِرِهِ ، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ ، يُقَالُ : بِالْجُذَامِ فِي سَائِرِ بَدَنِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ يَذْكُرُ بِهِمَا اللهَ ﷻ ، حَتَّى

عَافَهُ الْجَلِيسُ وَأُفْرِدَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتِهِ ، كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهَا احْتَاجَتْ فَصَارَتْ تَخْدُمُ النَّاسَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ** »(١). وَقَدْ كَانَ نَبِيُّ اللهِ أَيُّوبُ عليه السلام غَايَةً فِي الصَّبْرِ وَبِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ(٢) : « **إِنَّ نَبِيَّ اللهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ لَهُ ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةٍ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ أَيُّوبُ عليه السلام : مَا أَدْرِي مَا تَقُولُ ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ عز وجل يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللهَ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا ، كَرَاهِيَةَ أَنْ يَذْكُرَا اللهَ إِلَّا فِي حَقٍّ ، قَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَتِهِ فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ أَيْ : فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِهِ ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدْوَةً ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَنَّمَا فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا ، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَقْدُورَاتِ اللهِ وَابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

---

(١) **صحيح لغيره** : أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) ، وغيره .
(٢) **صحيح** : أخرجه ابن حبان (٢٠٩١) ، وأبو يعلى (٦/ ٢٩٩) وغيرهما .

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَالْمُرَادُ بِهِ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَكَذَا إِدْرِيسُ ﷺ ، وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ فَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَهُوَ نَبِيٌّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا ، وَحَكَمًا مُقْسِطًا ، وَتَوَقَّفَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هَذِهِ الْقِصَّةُ مَذْكُورَةٌ هَهُنَا ، وَفِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ ، وَفِي سُورَةِ « ن » وَذَلِكَ أَنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى ﷺ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ قَرْيَةِ « نِينَوَى » وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ أَرْضِ الْمَوْصِلِ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَتَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَهُمْ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلَادِهَا ، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلَى اللهِ ﷻ ، وَجَأَرُوا إِلَيْهِ وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا ، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا ، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَسِخَالُهَا ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] . وَأَمَّا يُونُسُ ﷺ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، فَلَجَّجَتْ بِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلَى رَجُلٍ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ ، فَأَبَوْا أَنْ يُلْقُوهُ ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَأَبَوْا ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات : ١٤١] أَيْ : وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ فَقَامَ يُونُسُ ﷺ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ثُمَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ - فِيمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ - حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ ، حَتَّى جَاءَ فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَى نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى ذَلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا وَلَا تُهَشِّمَ لَهُ عَظْمًا ، فَإِنَّ يُونُسَ لَيْسَ لَكَ رِزْقًا ، وَإِنَّمَا بَطْنُكَ تَكُونُ لَهُ سِجْنًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ يَعْنِي : الْحُوتُ ، صَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ بِهَذِهِ النِّسْبَةِ . ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا ﴾ لِقَوْمِهِ ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ أَيْ : نُضَيِّقُ عَلَيْهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ . قَالَهُ عَدَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ [الطلاق : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : ظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الْحُوتُ فِي الْبِحَارِ يَشُقُّهَا ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ ، فَسَمِعَ يُونُسُ تَسْبِيحَ الْحَصَى فِي قَرَارِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهُنَالِكَ قَالَ : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **دَعْوَةُ ذِي النُّونِ ، إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ** ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ **فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ** »(١).

وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ زَكَرِيَّا حِينَ طَلَبَ أَنْ يَهَبَهُ اللهُ وَلَدًا يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ « سُورَةِ مَرْيَمَ » وَفِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » أَيْضًا ، وَهَهُنَا أَخْصَرُ مِنْهَا ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أَيْ : خُفْيَةً عَنْ قَوْمِهِ ﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا ﴾ أَيْ : لَا وَلَدَ لِي وَلَا وَارِثَ يَقُومُ بَعْدِي فِي النَّاسِ ﴿ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ دُعَاءٌ وَثَنَاءٌ مُنَاسِبٌ لِلْمَسْأَلَةِ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ ﴾ أَيْ : امْرَأَتَهُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : كَانَتْ عَاقِرًا لَا تَلِدُ فَوَلَدَتْ ، **وَقِيلَ** : كَانَ فِي لِسَانِهَا طُولٌ فَأَصْلَحَهَا اللهُ ، **وَفِي رِوَايَةٍ** : كَانَ فِي خَلْقِهَا شَيْءٌ فَأَصْلَحَهَا اللهُ ،

(١) أحمد في المسند (١/ ١٧٠) ، والترمذي (حديث ٣٥٠٥) .

وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ الْأَوَّلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أَيْ : فِي عَمَلِ الْقُرُبَاتِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ رَغَبًا فِيمَا عِنْدَنَا وَرَهَبًا مِمَّا عِنْدَنَا ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قِيلَ : أَيْ : مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَقِيلَ : خَائِفِينَ ، وَقِيلَ : الْخُشُوعُ هُوَ الْخَوْفُ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا ، وَقِيلَ : ﴿ خَٰشِعِينَ ﴾ أَيْ : مُتَوَاضِعِينَ ، وَقِيلَ : أَيْ : مُتَذَلِّلِينَ للهِ ﷻ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَقَارِبَةٌ .

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

هَكَذَا يَذْكُرُ تَعَالَى قِصَّةَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا عِيسَى ﷺ ، مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَيَذْكُرُ أَوَّلًا قِصَّةَ زَكَرِيَّا ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ ؛ لِأَنَّ تِلْكَ مَرْبُوطَةٌ بِهَذِهِ ؛ فَإِنَّهَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ ، وَمِنِ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَاقِرٍ لَمْ تَكُنْ تَلِدُ فِي حَالِ شَبَابِهَا ، ثُمَّ يَذْكُرُ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَهِيَ أَعْجَبُ ؛ فَإِنَّهَا إِيجَادُ وَلَدٍ مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، هَكَذَا وَقَعَ فِي « سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ » وَفِي « سُورَةِ مَرْيَمَ » ، وَهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّةَ زَكَرِيَّا ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَمَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يَعْنِي : مَرْيَمُ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - كَمَا قَالَ فِي « سُورَةِ التَّحْرِيمِ » : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم:١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : دَلَالَةً عَلَى أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ يَقُولُ : دِينُكُمْ دِينٌ

وَاحِدٌ، وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ فِي هَذِهِ الآيَةِ: يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ وَمَا يَأْتُونَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ: سُنَّتُكُمْ سُنَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ ﴾ إِنَّ وَاسْمُهَا وَ ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ خَبَرُ إِنَّ، أَيْ: هَذِهِ شَرِيعَتُكُمُ الَّتِي بَيَّنْتُ لَكُمْ وَوَضَّحْتُ لَكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ نُصِبَ عَلَى الحَالِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وَكَمَا قَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢] وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ»(١) يَعْنِي أَنَّ المَقْصُودَ هُوَ: عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِشَرَائِعَ مُتَنَوِّعَةٍ لِرُسُلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ: اِخْتَلَفَتِ الأُمَمُ عَلَى رُسُلِهَا فَمِنْ بَيْنِ مُصَدِّقٍ لَهُمْ وَمُكَذِّبٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ أَيْ: يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُجَازَى كُلٌّ بِحَسَبِ عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيْ: قَلْبُهُ مُصَدِّقٌ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠] أَيْ: لَا يُكْفَرُ سَعْيُهُ - وَهُوَ عَمَلُهُ - بَلْ يُشْكَرُ، فَلَا يُظْلَمُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ أَيْ: يُكْتَبُ جَمِيعُ عَمَلِهِ فَلَا يَضِيعُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ: يَعْنِي: قَدْ قُدِّرَ أَنَّ أَهْلَ كُلِّ قَرْيَةٍ أُهْلِكُوا، أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ ابْنِ

---

(١) انظر البخاري (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

عَبَّاس : ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَتُوبُونَ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ ﷺ بَلْ هُمْ مِنْ نَسْلِ نُوحٍ أَيْضًا مِنَ أَوْلَادِ يَافِث ، أَيْ : أَبِي التُّرْكِ ، وَالتُّرْكُ شِرْذِمَةٌ مِنْهُمْ تُرِكُوا مِنْ وَرَاءِ السَّدِّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ : وَقَالَ : ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ [الكهف : ٩٨- ٩٩] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أَيْ : يُسْرِعُونَ فِي الْمَشْيِ إِلَى الْفَسَادِ ، وَالْحَدَبِ : هُوَ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَهَذِهِ صِفَتُهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمْ ، كَأَنَّ السَّامِعَ مُشَاهِدٌ لِذَلِكَ ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] هَذَا إِخْبَارُ عَالِمِ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ ، الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ : رَأَى ابْنُ عَبَّاسٍ صِبْيَانًا يَنْزُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَلْعَبُونَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَكَذَا يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ خُرُوجِهِمْ فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ .

فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ [١] قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فَيَغْشَوْنَ النَّاسَ وَيَنْحَازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيهِمْ وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الْأَرْضِ ، حَتَّى أَنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَابِسًا ، حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ ، فَيَقُولُ : قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ ، قَالَ قَائِلُهُمْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ بَقِيَ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ : ثُمَّ يَهُزُّ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ ، فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لَا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرَ مَا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٧) ، وابن ماجة (٤٠٧٩) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٥) ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ ؟ قَالَ : فَيَنْحَدِرُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ ، قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيُنَادِي يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ : أَلَا أَبْشِرُوا إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيهِمْ ، فَمَا يَكُون لَهُمْ رَعْي إِلَّا لُحُومَهُمْ ، فَتَشْكَرُ عَنْهُمْ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرَتْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطُّ » .

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ(١) قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي نَاحِيَةِ النَّخْلِ فَقَالَ : « غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَإِنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَشِمَالًا ، يَا عِبَادَ اللهِ اثْبُتُوا » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ ؟ « قَالَ : أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ ، وَيَوْمٌ كَجُمْعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ فَذَاكَ الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ كَسَنَةٍ أَيَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ؟ قَالَ : « لَا ، اُقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ قَالَ : « كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ ، قَالَ فَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، وَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ وَهِيَ أَطْوَلُ مَا كَانَتْ ذُرًى ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَيَمُرُّ بِالْحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَتَتْبَعُهُ أَمْوَالُهُمْ فَيَصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْءٌ ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ » قَالَ : « وَيَأْمُرُ بِرَجُلٍ فَيُقْتَلُ فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ إِلَيْهِ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيِّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، فَيَتْبَعُهُ فَيُدْرِكُهُ فَيَقْتُلُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ الشَّرْقِيِّ » قَالَ : « فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ ﷻ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام أَنِّي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧) ، وأحمد (٤/ ١٨١) .

قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا مِنْ عِبَادِي ، لَا يَدَانِ لَكَ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، فَيَبْعَثُ اللهُ ﷻ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ ﷻ ، فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، فَيَهْبِطُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ بَيْتًا إِلَّا قَدْ مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ ﷻ ، فَيُرْسِلَ اللهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ » . قَالَ ابْنُ جَابِرٍ فَحَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ السَّكْسَكِيُّ عَنْ كَعْبٍ أَوْ غَيْرِهِ قَالَ : « فَتَطْرَحُهُمْ بِالْمُهَبَّلِ » . قَالَ ابْنُ جَابِرٍ : فَقُلْتُ : يَا أَبَا يَزِيدَ وَأَيْنَ الْمُهَبَّلُ ؟ قَالَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ قَالَ : « وَيُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ وَيُقَالُ : لِلْأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ ، قَالَ : فَيَوْمَئِذٍ يَأْكُلُ النَّفَرُ مِنَ الرُّمَّانَةِ فَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ ، حَتَّى إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ تَكْفِي الْفَخِذَ ، وَالشَّاةُ مِنَ الْغَنَمِ تَكْفِي أَهْلَ الْبَيْتِ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذْ بَعَثَ اللهُ ﷻ رِيحًا طَيِّبًا فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ مُؤْمِنٍ - وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحُمُرِ ، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَيُحَجَّنَّ هَذَا الْبَيْتَ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ يَعْنِي يَوْمُ الْقِيَامَةِ إِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأَهْوَالُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ أَزِفَتِ السَّاعَةُ وَاقْتَرَبَتْ ، فَإِذَا كَانَتْ وَوَقَعَتْ قَالَ الْكَافِرُونَ : ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٨] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ، يَقُولُونَ : ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ يَعْتَرِفُونَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ .

---

(١) البخاري (١٥٩٣) .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أَيْ : وَقُودُهَا يَعْنِي كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : حَطَبُ جَهَنَّمَ بِالزِّنْجِيَّةِ ، **وَقِيلَ** : مَا يُرْمَى بِهِ فِيهَا . وَالْجَمِيعُ قَرِيبٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ أَيْ : دَاخِلُونَ . ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ يَعْنِي : لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً صَحِيحَةً ، لَمَا وَرَدُوا النَّارَ وَمَا دَخَلُوهَا ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ : الْعَابِدُونَ وَمَعْبُودَاتِهِمْ كُلِّهِمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود : ١٠٦] ، وَالزَّفِيرُ : خُرُوجُ أَنْفَاسِهِمْ ، وَالشَّهِيقُ : وُلُوجُ أَنْفَاسِهِمْ ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ **قِيلَ** : الرَّحْمَةُ ، **وَقِيلَ** : السَّعَادَةُ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَهْلَ النَّارِ وَعَذَابَهُمْ بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ بِاللهِ ، عَطَفَ بِذِكْرِ السُّعَدَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَهُمُ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ السَّعَادَةُ وَأَسْلَفُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، وَقَالَ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، فَكَمَا أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ اللهُ مَآلَهُمْ وَثَوَابَهُمْ فَنَجَّاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَحَصَلَ لَهُمْ جَزِيلُ الثَّوَابِ ، **فَقَالَ** : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أَيْ : حَرِيقَهَا فِي الْأَجْسَادِ . **وَقِيلَ** : حَيَّاتٌ عَلَى الصِّرَاطِ تَلْسَعُهُمْ ، فَإِذَا

لَسَعَتْهُمْ قَالَ : حِسّ حِسّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فَسَلَّمَهُمْ مِنَ المَحْذُورِ وَالمَرْهُوبِ وَحَصَلَ لَهُم المَطْلُوبُ وَالمَحْبُوبُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ هُمُ المَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَنَحْوُ ذَلِكَ ، مِمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله ﷻ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ قَالَ المُشْرِكُونَ : فَالمَلَائِكَةُ وَعُزَيْرٌ وَعِيسَى يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ الله ، فَنَزَلَتْ ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ الآلِهَةُ الَّتِي يَعْبُدُونَ ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ **قِيلَ** : المُرَادُ بِذَلِكَ : المَوْتُ ، **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِالفَزَعِ الأَكْبَرِ : النَّفْخَةُ فِي الصُّورِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، **وَقِيلَ** : حِينَ يُذْبَحُ المَوْتُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : تَقُولُ لَهُمُ المَلَائِكَةُ تُبَشِّرُهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ : ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : قَابِلُوا مَا يَسُرُّكُمْ .

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى هَذَا كَائِنٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضِينَ ، وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِيَمِينِهِ**))[١].

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ **قِيلَ** : المُرَادُ بِالسِّجِلِّ : الكِتَابُ ، **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِالسِّجِلِّ هَهُنَا : مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ . **وَقِيلَ** : المُرَادُ بِهِ : اسْمُ رَجُلٍ صَحَابِيٍّ كَانَ

---

(١) البخاري (٧٤١٢) .

يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيَ . **وَالصَّحِيحُ** عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ السِّجِلَّ : هِيَ الصَّحِيفَةُ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ؛ لِأَنَّهُ الْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ أَيْ : عَلَى الْكِتَابِ ، بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ ؛ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات : ١٠٣] أَيْ عَلَى الْجَبِينِ ، وَلَهُ نَظَائِرُ فِي اللُّغَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ يَعْنِي : هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ يُعِيدُ اللهُ الْخَلَائِقَ خَلْقًا جَدِيدًا ، كَمَا بَدَأَهُمْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ ، وَذَلِكَ وَاجِبُ الْوُقُوعِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ وَعْدِ اللهِ الَّذِي لَا يُخْلَفُ وَلَا يُبَدَّلُ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ : « **إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ** ﷻ **حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا** ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ[1].

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا حَتَّمَهُ وَقَضَاهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَوِرَاثَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، وَقَالَ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور : ٥٥] وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا مَسْطُورٌ فِي الْكُتُبِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الزَّبُورُ الْكِتَابُ ، **وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ** : الزَّبُورُ : الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى دَاوُدَ وَالذِّكْرُ : التَّوْرَاةُ ، **وَقِيلَ** : الزَّبُورُ : الْقُرْآنُ ،

(١) أحمد في المسند (١/ ٢٣٥) ، والبخاري (٤٦٢٥) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

وَقِيلَ : الذِّكْرُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، وَقِيلَ : الزَّبُورُ : الْكُتُبُ بَعْدَ الذِّكْرِ ، وَالذِّكْرُ : أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ الله ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ . ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : الأَرْضُ هِيَ : الجَنَّةُ ، وَالصَّالِحُونَ : المُؤْمِنُونَ ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لَبَلَٰغًا ﴾ لَمَنْفَعَةً وَكِفَايَةً ﴿ لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا اللهَ بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ ، وَآثَرُوا طَاعَةَ اللهِ عَلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَشَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ . ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ اللهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، أَيْ : أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لَهُمْ كُلِّهِمْ ، فَمَنْ قَبِلَ الرَّحْمَةَ وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم : ٢٨-٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ الله : ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : ((**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**))[1]. **فَإِنْ قِيلَ** : فَأَيُّ رَحْمَةٍ حَصَلَتْ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ ؟ فَالْجَوَابُ : أن مَنْ تَبِعَهُ كَانَ لَهُ رَحْمَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَتْبَعهُ عُوفِيَ مِمَّا كَانَ يُبْتَلَى بِهِ سَائِرُ الْأُمَمِ مِنَ الْخَسْفِ وَالْمَسْخِ وَالْقَذْفِ .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) .

إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مُتَّبِعُونَ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ لَهُ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أَيْ : تَرَكُوا مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أَيْ : أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرْبٌ لَكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ حَرْبٌ لِي ، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وَقَالَ : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال : ٥٨] أَيْ : لَكِنْ عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِنَبْذِ الْعُهُودِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَهَكَذَا هَهُنَا ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أَيْ : أُعْلِمُكُمْ بِبَرَاءَتِي مِنْكُمْ وَبَرَاءَتُكُمْ مِنِّي لِعِلْمِي بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لِي بِقُرْبِهِ وَلَا بِبُعْدِهِ . ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَمِيعَهُ ، وَيَعْلَمُ مَا يُظْهِرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يُسِرُّونَ ، يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ وَالضَّمَائِرَ ، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَيَعْلَمُ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي إِجْهَارِهِمْ وَإِسْرَارِهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَلَى الْقَلِيلِ وَالْجَلِيلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ هَذَا فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : لَعَلَّ تَأْخِيرَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى . ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : اِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ ، **قَالَ قَتَادَةُ** : كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - يَقُولُونَ : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] ، وَأُمِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ، أَيْ : عَلَى مَا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَيَتَنَوَّعُونَ فِي مَقَامَاتِ التَّكْذِيبِ وَالْإِفْكِ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سورةِ الحَجِّ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِتَقْوَاهُ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَزَلَازِلِهَا وَأَحْوَالِهَا ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ ، هَلْ هِيَ بَعْدَ قِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ نُشُورِهِمْ إِلَى عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ ، أَوْ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ زَلْزَلَةِ الْأَرْضِ قَبْلَ قِيَامِ النَّاسِ مِنْ أَجْدَاثِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١-٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [الحاقة : ١٤-١٥] ، فَقَالَ قَائِلُونَ : هَذِهِ الزَّلْزَلَةُ كَائِنَةٌ فِي آخِرِ عُمْرِ الدُّنْيَا ، وَأَوَّلِ أَحْوَالِ السَّاعَةِ .

عَنْ عَلْقَمَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ قَالَ : قَبْلَ السَّاعَةِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلْ ذَلِكَ هَوْلٌ وَفَزَعٌ وَزِلْزَالٌ وَبِلْبَالٌ كَائِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ بَعْدَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْقُبُورِ ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَاحْتَجُّوا بِأَحَادِيثَ مِنْهَا :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ[1] قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَاآدَمُ ! فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ قَالَ : يَا رَبُّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ** » أُرَاهُ قَالَ : « **تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ** » فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ ، ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ » فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ**

(١) البخاري (٤٧٤١) ، ومسلم (حديث ٢٢٢) .

وَتِسْعُونَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فَكَبَّرْنَا ثُمَّ قَالَ : « ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فَكَبَّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : « شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فَكَبَّرْنَا .

وَعَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا » قَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللهِ ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ »[1].

وَالْأَحَادِيثُ فِي أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْآثَارُ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، لَهَا مَوْضِعٌ آخَرُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : أَمْرٌ كَبِيرٌ وَخَطْبٌ جَلِيلٌ ، وَطَارِقٌ مُفْظِعٌ وَحَادِثٌ هَائِلٌ ، وَكَائِنٌ عَجِيبٌ ، وَالزِّلْزَالُ هُوَ : مَا يَحْصُلُ لِلنُّفُوسِ مِنَ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ ضَمِيرِ الشَّأْنِ ، وَلِهَذَا قَالَ مُفَسِّرًا لَهُ : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أَيْ : فَتَشْتَغِلُ لِهَوْلِ مَا تَرَى عَنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهَا وَالَّتِي هِيَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ ، تُدْهَشُ عَنْهُ فِي حَالِ إِرْضَاعِهَا لَهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : « مُرْضِع » وَقَالَ : ﴿ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ أَيْ : عَنْ رَضِيعِهَا قَبْلَ فِطَامِهِ ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أَيْ : قَبْلَ تَمَامِهِ لِشِدَّةِ الْهَوْلِ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ وَقُرِئَ « سَكْرَى » أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ ، قَدْ دَهِشَتْ عُقُولُهُمْ ، وَغَابَتْ أَذْهَانُهُمْ ، فَمَنْ رَآهُمْ حَسِبَ أَنَّهُمْ سُكَارَى ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ وَأَنْكَرَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، مُعْرِضًا عَمَّا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٥٣)، والبخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

أَنْزَلَ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ ، مُتَّبِعًا فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وَكُفْرِهِ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ ، الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْحَقِّ الْمُتَّبِعِينَ لِلْبَاطِلِ ، يَتْرُكُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَيَتَّبِعُونَ أَقْوَالَ رُءُوسِ الضَّلَالَةِ الدُّعَاةِ إِلَى الْبِدَعِ بِالْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ ، **وَلِهَذَا قَالَ فِي شَأْنِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ** ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ ، أَيْ : عِلْمٍ صَحِيحٍ ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : الشَّيْطَانُ كُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابَةً قَدَرِيَّةً ﴿ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ أَيْ : اتَّبَعَهُ وَقَلَّدَهُ ﴿ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : يُضِلُّهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَقُودُهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ، وَهُوَ الْحَارُّ الْمُؤْلِمُ الْمُقْلِقُ الْمُزْعِجُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْمُخَالِفَ لِلْبَعْثِ الْمُنْكِرَ لِلْمَعَادِ ، ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلِيلَ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْمَعَادِ بِمَا يُشَاهَدُ مِنْ بَدْئِهِ لِلْخَلْقِ ، **فَقَالَ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ ﴾ أَيْ : فِي شَكٍّ ﴿ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ وَهُوَ الْمَعَادُ وَقِيَامُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ أَيْ : أَصْلُ بُرْئِهِ لَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ آدَمَ عليه السلام ﴿ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ أَيْ : ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلِكَ يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ عَلَقَةً حَمْرَاءَ بِإِذْنِ اللهِ ، فَتَمْكُثُ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ

يَوْمًا ، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ فَتَصِيرُ ﴿ مُضْغَةٍ ﴾ قِطْعَة مِنْ لَحْم لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ ، ثُمَّ يُشْرَعُ فِي التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ فَيُصَوَّرُ مِنْهَا رَأْسٌ وَيَدَانِ وَصَدْرٌ وَبَطْنٌ وَفَخِذَانِ وَرِجْلَانِ وَسَائِرُ الْأَعْضَاءِ ، فَتَارَةً تُسْقِطُهَا الْمَرْأَةُ قَبْلَ التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ ، وَتَارَةً تُلْقِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَاتَ شَكْلٍ وَتَخْطِيطٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أَيْ : كَمَا تُشَاهِدُونَهَا ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : وَتَارَةً تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ لَا تُلْقِيهَا الْمَرْأَةُ وَلَا تُسْقِطُهَا ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قَالَ : هُوَ السِّقْطُ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ مَخْلُوقٍ .

فَإِذَا مَضَى عَلَيْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وَهِيَ مُضْغَةٌ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا مَلَكًا فَنَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ ، وَسَوَّاهَا كَمَا يَشَاءُ اللهُ ﷻ مِنْ حُسْنٍ وَقُبْحٍ ، وَذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَكَتَبَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ : « **إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ** »[١].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَيَقُولُ اللهُ وَيُكْتَبَانِ ، فَيَقُولُ : أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقُولُ اللهُ وَيُكْتَبَانِ ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَرِزْقُهُ وَأَجَلُهُ ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْتَقَصُ** »[٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أَيْ : ضَعِيفًا فِي بَدَنِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوَاسِّهِ وَبَطْشِهِ وَعَقْلِهِ ، ثُمَّ يُعْطِيهِ اللهُ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَيَلْطُفُ بِهِ وَيُحَنِّنُ عَلَيْهِ وَالِدَيْهِ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ﴾ أَيْ : يَتَكَامَلُ الْقُوَى وَيَتَزَايَدُ وَيَصِلُ إِلَى عُنْفُوَانِ الشَّبَابِ وَحُسْنِ الْمَنْظَرِ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَاهُ ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ وَهُوَ الشَّيْخُوخَةُ وَالْهَرَمُ ،

---

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) مسلم (٢٦٤٤) .

وَضَعْفُ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ ، وَتَنَاقُصُ الْأَحْوَالِ مِنَ الْخَوْفِ وَضَعْفِ الْفِكْرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ الْهَامِدَةَ وَهِيَ الْمُقْحِلَةُ الَّتِي لَا يَنْبُتُ فِيهَا شَيْءٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : غَبْرَاءُ مُتَهَشِّمَةٌ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : مَيْتَةٌ : ﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ : فَإِذَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهَا الْمَطَرَ ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ أَيْ : تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ وَحَيِيَتْ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿ وَرَبَتْ ﴾ أَيْ : ارْتَفَعَتْ لَمَّا سَكَنَ فِيهَا الثَّرَى ، ثُمَّ أَنْبَتَتْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْفُنُونِ ، مِنْ ثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَشْتَاتٍ فِي اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا وَأَشْكَالِهَا وَمَنَافِعِهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أَيْ : حَسِنُ الْمَنْظَرِ طَيِّبُ الرِّيحِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أَيْ : الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : كَمَا أَحْيَا الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ وَأَنْبَتَ مِنْهَا هَذِهِ الْأَنْوَاعَ ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩] ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس ٨٢]

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أَيْ : كَائِنَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مِرْيَةَ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ أَيْ : يُعِيدُهُمْ بَعْدَمَا صَارُوا فِي قُبُورِهِمْ رِمَمًا وَيُوجِدُهُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس : ٧٨-٨٠] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الضُّلَّالِ الْجُهَّالِ الْمُقَلِّدِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ ذَكَرَ فِي هَذِهِ حَالَ الدُّعَاةِ إِلَى الضَّلَالَةِ مِنْ رُءُوسِ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ ، **فَقَالَ** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أَيْ : بِلَا عَقْلٍ صَحِيحٍ وَلَا نَقْلٍ صَرِيحٍ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْهَوَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : مُسْتَكْبِرٌ عَنِ الْحَقِّ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ أَيْ : لَاوِيَ عِطْفِهِ وَهِيَ رَقَبَتُهُ ، يَعْنِي : يُعْرِضُ عَمَّا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَثْنِي رَقَبَتَهُ اسْتِكْبَارًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ [الذاريات : ٣٨-٣٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٥] ، وَقَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان : ١٨] أَيْ : تُمِيلُهُ عَنْهُمْ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ﴾ [لقمان : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : هَذِهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ لَا يُقْصَدُ ذَلِكَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لَامَ التَّعْلِيلِ ، ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا الْمُعَانِدُونَ ، أَوْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا أَنَّ هَذَا الْفَاعِلَ لِهَذَا إِنَّمَا جَبَلْنَاهُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ لِنَجْعَلَهُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِ الله . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ وَهُوَ الْإِهَانَةُ وَالذُّلُّ ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَاتِ الله لَقَّاهُ الله الْمَذَلَّةَ فِي الدُّنْيَا ، وَعَاقَبَهُ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ هَمِّهِ وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُ هَذَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٧-٥٠]

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ

وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾ عَلَى شَكٍّ ، **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : عَلَى طَرَفٍ ، وَمِنْهُ حَرْفُ الْجَبَلِ أَيْ : طَرَفُهُ ، أَيْ : دَخَلَ فِي الدِّينِ عَلَى طَرَفٍ ، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبُّهُ اسْتَقَرَّ ، وَإِلَّا انْشَمَرَ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍ﴾ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ يَقْدمُ الْمَدِينَةَ فَإِنْ وَلَدَتِ امْرَأَتُهُ غُلَامًا وَنَتَجَتْ خَيْلُهُ ، قَالَ : هَذَا دِينٌ صَالِحٌ ، وَإِنْ لَمْ تَلِد امْرَأَتُهُ وَلَمْ تنتج خَيْلُهُ قَالَ : هَذَا دِينُ سُوءٍ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ** : كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيُسلِمُونَ ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ فَإِنْ وَجَدُوا عَامَ غَيْثٍ وَعَامَ خِصْبٍ وَعَامَ وِلَادٍ حَسَنٍ قَالُوا : إِنَّ دِينَنَا هَذَا لَصَالِحٌ فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، وَإِنْ وَجَدُوا عَامَ جُدُوبَةٍ وَعَامَ وِلَادِ سُوءٍ وَعَامَ قَحْطٍ قَالُوا : مَا فِي دِينِنَا هَذَا خَيْرٌ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ الْآيَةُ . **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : هُوَ الْمُنَافِقُ إِنْ صَلَحَتْ لَهُ دُنْيَاهُ أَقَامَ عَلَى الْعِبَادَةِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَتَغَيَّرَت انْقَلَبَ فَلَا يُقِيمُ عَلَى الْعِبَادَةِ إِلَّا لِمَا صَلَحَ مِنْ دُنْيَاهُ فَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَوْ شِدَّةٌ أَوِ اخْتِبَارٌ أَوْ ضِيقٌ تَرَكَ دِينَهُ وَرَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ أَيْ : ارْتَدَّ كَافِرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ أَيْ : فَلَا هُوَ حَصَلَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى شَيْءٍ ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَقَدْ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ ، فَهُوَ فِيهَا فِي غَايَةِ الشَّقَاءِ وَالْإِهَانَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ هِيَ الْخَسَارَةُ الْعَظِيمَةُ وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ يَسْتَغِيثُ بِهَا وَيَسْتَنْصِرُهَا وَيَسْتَرْزِقُهَا وَهِيَ لَا تَنْفَعُهُ وَلَا تَضُرُّهُ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ أَيْ : ضَرَرُهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ فِيهَا وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَضَرَرُهُ مُحَقَّقٌ مُتَيَقَّنٌ . ﴿ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي الْوَثَنُ ، يَعْنِي : بِئْسَ هَذَا الَّذِي دَعَاهُ مِنْ دُونِ اللهِ مَوْلًى ، يَعْنِي : وَلِيًّا وَنَاصِرًا ﴿ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ ، وَهُوَ الْمُخَالِطُ وَالْمُعَاشِرُ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ

لَبِئْسَ ابْنُ الْعَمِّ وَالصَّاحِبِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ **وَقَوْلُ مَنْ قَالَ** : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْوَثَنُ أَوْلَى وَأَقْرَبُ إِلَى سِيَاقِ الْكَلَامِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ أَهْلَ الضَّلَالَةِ الْأَشْقِيَاءِ عَطَفَ بِذِكْرِ الْأَبْرَارِ السُّعَدَاءِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ فَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُنْكَرَاتِ ، فَأَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ سُكْنَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَضَلَّ أُولَئِكَ وَهَدَى هَؤُلَاءِ ، قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾ أَيْ : بِحَبْلٍ ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : سَمَاءُ بَيْتِهِ ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ يَقُولُ : ثُمَّ لِيَخْتَنِقْ بِهِ ، وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ . **فَالْمَعْنَى** : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظُهُ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ﴿ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ أَيْ : وَاضِحَاتٌ فِي لَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا ، حُجَّةٌ مِنَ اللهِ عَلَى النَّاسِ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ أَيْ : يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَلَهُ الْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ فِي ذَلِكَ ، وَ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] أَمَّا هُوَ فَلِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَقَهْرِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ هَذِهِ الأَدْيَانِ المُخْتَلِفَةِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ اليَهُودِ وَالصَّابِئِينَ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ البَقَرَةِ التَّعْرِيفَ بِهِمْ ، وَاخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِمْ ، وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَعَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالعَدْلِ ، فَيُدْخِلُ مَنْ آمَنَ بِهِ الجَنَّةَ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ النَّارَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِهِمْ ، حَفِيظٌ لِأَقْوَالِهِمْ ، عَلِيمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تُكِنُّ ضَمَائِرُهُمْ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَإِنَّهُ يَسْجُدُ لِعَظَمَتِهِ كُلُّ شَيْءٍ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَسُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل : ٤٨] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ المَلَائِكَةِ فِي أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ ، وَالحَيَوَانَاتِ فِي جَمِيعِ الجِهَاتِ مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ وَالدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِيصِ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ عُبِدَتْ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِخَالِقِهَا وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ ﴿ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟**)) قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ((**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ ثُمَّ تَسْتَأْمِرُ فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ**))(١). **وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ** : مَا فِي السَّمَاءِ

(١) البخاري (٣١٩٩) ، ومسلم (١٥٩) .

نَجْمٌ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ إِلَّا يَقَعُ لله سَاجِدًا حِينَ يَغِيبُ ، ثُمَّ لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يُؤْذَنَ لَهُ ، فَيَأْخُذُ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَطْلَعِهِ ، وَأَمَّا الْجِبَالُ وَالشَّجَرُ فَسُجُودُهُمَا بِفَيْءِ ظِلَالِهِمَا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ أَيْ : الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : يَسْجُدُ لله طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلِكَ ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : مِمَّنِ امْتَنَعَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ : يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ** »[1].

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[2] عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي بَدْرٍ . عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ[3] أَنَّهُ قَالَ : أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . قَالَ قَيْسٌ : وَفِيهِمْ نَزَلَتْ ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ : هُمُ الَّذِينَ تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ : عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ - أَوْ أَبُو عُبَيْدَةَ - بنُ الْحَارِثِ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ . **وَقَوْلُ مَنْ قَالَ** : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ يَشْمَلُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا وَيَنْتَظِمُ فِيهِ قِصَّةُ يَوْمِ بَدْرٍ وَغَيْرُهَا فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُونَ نُصْرَةَ دِينِ الله ﷻ وَالْكَافِرُونَ يُرِيدُونَ إِطْفَاءَ نُورِ الْإِيمَانِ ، وَخِذْلَانَ الْحَقِّ ، وَظُهُورَ الْبَاطِلِ ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ وَهُوَ

---

(١) مسلم (حديث ٨١) .

(٢) البخاري (٣٩٦٩) ، ومسلم (٣٠٣٣) .

(٣) البخاري (٣٩٦٥) .

حَسَنٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أَيْ : فُصِّلَتْ لَهُمْ مُقَطَّعَاتٌ مِنَ النَّارِ ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ أَيْ : إِذَا صُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ وَهُوَ الْمَاءُ الْحَارُّ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ . ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ يُضْرَبُونَ بِهَا فَيَقَعُ كُلُّ عُضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ فَيَدْعُونَ بِالثُّبُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ **قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ** : وَاللهِ مَا طَمِعُوا فِي الْخُرُوجِ إِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ وَإِنَّ الْأَيْدِي لَمُوثَقَةٌ ، وَلَكِنْ يَرْفَعُهُمْ لَهَبُهَا وَتَرُدُّهُمْ مَقَامِعُهَا . ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ٢٠] ، **وَمَعْنَى الْكَلَامِ** : أَنَّهُمْ يُهَانُونَ بِالْعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا .

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ أَهْلِ النَّارِ عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْحَرِيقِ وَالْأَغْلَالِ ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثِّيَابِ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - نَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ - فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ أَيْ : تَتَخَرَّقُ فِي أَكْنَافِهَا وَأَرْجَائِهَا وَجَوَانِبِهَا وَتَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ مِنَ الْحِلْيَةِ ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ أَيْ : فِي أَيْدِيهِمْ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ((**تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءَ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فِي مُقَابَلَةِ ثِيَابِ أَهْلِ النَّارِ الَّتِي فُصِّلَتْ لَهُمْ ، لِبَاسُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْحَرِيرِ إِسْتَبْرَقُهُ وَسُنْدُسُهُ كَمَا قَالَ : ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ

---

(١) مسلم (٢٥٠) .

جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١-٢٢] ، وَفِي الصَّحِيحِ[1] ((**لَا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ**)) قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : مَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْحَرِيرَ فِي الْآخِرَةِ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥-٢٦] فَهُدُوا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٧٥] لَا كَمَا يُهَانُ أَهْلُ النَّارِ بِالْكَلَامِ الَّذِي يُوَبَّخُونَ بِهِ وَيُقَرَّعُونَ بِهِ ، يُقَالُ لَهُمْ : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أَيْ : إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسْدَاهُ إِلَيْهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ((**إِنَّهُمْ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**))[2] ، **وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَقِيلَ : الْأَذْكَارُ الْمَشْرُوعَةُ ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أَيْ : الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا ، وَكُلُّ هَذَا لَا يُنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ فِي صَدِّهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ إِتْيَانِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَقَضَاءِ مَنَاسِكِهِمْ فِيهِ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ : ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٤] ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ

(١) البخاري (٥٨٣٢) ، ومسلم (٢٠٧٣) .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في طرق حديث (٢٨٣٥)

ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ أَيْ : وَمِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَيْ : وَيَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا التَّرْكِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] أَيْ : وَمِنْ صِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ ﴾ أَيْ : يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ شَرْعًا سَوَاءً ، لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْمُقِيمِ فِيهِ وَالنَّائِي عَنْهُ الْبَعِيدِ الدَّارِ مِنْهُ ﴿ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاءُ النَّاسِ فِي رِبَاعِ مَكَّةَ وَسُكْنَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ** : الْبَاءُ هَهُنَا زَائِدَةٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾ أَيْ : تُنْبِتُ الدُّهْنَ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ ﴾ تَقْدِيرُهُ : إِلْحَادًا ، وَالْأَجْوَدُ أَنَّهُ ضَمَّنَ الْفِعْلَ هَهُنَا بِمَعْنَى يَهُمُّ وَلِهَذَا عَدَّاهُ بِالْبَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ ﴾ أَيْ : يَهُمُّ فِيهِ بِأَمْرٍ فَظِيعٍ مِنَ الْمَعَاصِي الْكِبَارِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِظُلۡمٖ ﴾ أَيْ : عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظُلْمٌ لَيْسَ بِمُتَأَوَّلٍ ، **وَقِيلَ** : ﴿ بِظُلۡمٖ ﴾ أي : بِشِرْكٍ . **وَقِيلَ** : يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا ، وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْحَرَمِ أَنَّهُ يُعَاقَبُ الْبَادِي فِيهِ الشَّرَّ إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يُوقِعْهُ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ ﴾ قَالَ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ وَهُوَ بِعَدَنٍ أَبْيَنَ أَذَاقَهُ اللهُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . **وَعَنْهُ أَيْضًا** ﷺ **قَالَ** : مَا مِنْ رَجُلٍ يَهُمُّ بِسَيِّئَةٍ فَتُكْتَبُ عَلَيْهِ ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا بِعَدَنٍ أَبْيَنَ هَمَّ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا بِهَذَا الْبَيْتِ لَأَذَاقَهُ اللهُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ ﴾ قَالُوا : الْمُحْتَكِرُ بِمَكَّةَ .

وَهَذِهِ الْآثَارُ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْإِلْحَادِ ، وَلَكِنْ هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ بَلْ فِيهَا تَنْبِيهٌ عَلَى مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْهَا ، وَلِهَذَا لَمَّا هَمَّ أَصْحَابُ الْفِيلِ عَلَى تَخْرِيبِ

الْبَيْتِ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ٣-٥] أَيْ دَمَّرَهُمْ وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ ، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **يَغْزُو هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ** » الْحَدِيثُ [1].

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝

هَذَا فِيهِ تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ وَأَشْرَكَ بِهِ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِي الْبُقْعَةِ الَّتِي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَوَّأَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ، أَيْ : أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ وَسَلَّمَهُ لَهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي بِنَائِهِ وَاسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِمَّنْ قَالَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام هُوَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَأَنَّهُ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ [2] عَنْ أَبِي ذَرٍّ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ ؟ قَالَ : « **الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « **بَيْتُ الْمَقْدِسِ** » قُلْتُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : « **أَرْبَعُونَ سَنَةً** » ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ [آل عمران : ٩٦] الْآيَتَيْنِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] . **وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ أَيْ : ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَحْدِي ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ** : مِنَ الشِّرْكِ ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أَيْ : اجْعَلْهُ خَالِصًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَالطَّائِفُ بِهِ مَعْرُوفٌ وَهُوَ أَخَصُّ الْعِبَادَاتِ عِنْدَ الْبَيْتِ ، فَإِنَّهُ لَا يُفْعَلُ بِبُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ سِوَاهَا ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ أَيْ : فِي الصَّلَاةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فَقَرَنَ الطَّوَافَ بِالصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصَّيْنِ بِالْبَيْتِ ، فَالطَّوَافُ عِنْدَهُ وَالصَّلَاةُ

---

(١) انظر البخاري (حديث ٢١١٨) ، ومسلم (٢٨٨١) .

(٢) البخاري (٣٣٦٦) ، ومسلم (حديث ٥٢٠) .

إِلَيْهِ فِي غَالِبِ الْأَحْوَالِ إِلَّا مَا اُسْتُثْنِيَ مِنَ الصَّلَاةِ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْقِبْلَةِ ، وَفِي الْحَرْبِ ، وَفِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ أَيْ : نَادِ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى الْحَجِّ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَمَرْنَاكَ بِبِنَائِهِ ، ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الْآيَةُ . قَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْحَجَّ مَاشِيًا لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْحَجِّ رَاكِبًا ؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْرِ فَدَلَّ عَلَى الاهْتِمَامِ بِهِمْ ، وَقُوَّةِ هِمَمِهِمْ وَشِدَّةِ عَزْمِهِمْ . **وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ** أَنَّ الْحَجَّ رَاكِبًا أَفْضَلُ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ حَجَّ رَاكِبًا مَعَ كَمَالِ قُوَّتِهِ عليه السلام.

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ يَعْنِي : طَرِيقٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً ﴾ [الأنبياء : ٣١] ، ﴿ عَمِيقٍ ﴾ أَيْ : بَعِيدٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ قَالَ فِي دُعَائِهِ ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٣٧]، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا وَهُوَ يَحِنُّ إِلَى رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ وَالطَّوَافِ ، وَالنَّاسُ يَقْصِدُونَهَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ .

لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ قَالَ : مَنَافِعَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : أَمَّا مَنَافِعُ الْآخِرَةِ فَرِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا مَنَافِعُ الدُّنْيَا فَمَا يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِ الْبُدْنِ وَالذَّبَائِحِ وَالتِّجَارَاتِ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -** : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : أَيَّامُ الْعَشْرِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي هَذِهِ**)) قَالُوا : وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ : ((**وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا رَجُلٌ يَخْرُجُ**

يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ))(١).

وَهَذَا الْعَشْرُ مُشْتَمِلٌ عَلَى يَوْمِ عَرَفَةَ الَّذِي ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، فَقَالَ : ((**أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ بِهِ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ**))(٢) وَيَشْتَمِلُ عَلَى يَوْمِ النَّحْرِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ(٣) أَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا الْعَشْرُ قَدْ قِيلَ إِنَّهُ أَفْضَلُ أَيَّامِ السَّنَةِ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْحَدِيثُ وَفَضَّلَهُ كَثِيرٌ عَلَى عَشْرِ رَمَضَانَ الْأَخِيرِ ؛ لأَنَّ هَذَا يُشْرَعُ فِيهِ مَا يُشْرَعُ فِي ذَلِكَ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ وَغَيْرِهِ ، وَيَمْتَازُ هَذَا بِاخْتِصَاصِهِ بِأَدَاءِ فَرْضِ الْحَجِّ فِيهِ . **وَقِيلَ** : ذَاكَ أَفْضَلُ لاشْتِمَالِهِ عَلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، **وَتَوَسَّطَ آخَرُونَ فَقَالُوا** : أَيَّامُ هَذَا أَفْضَلُ وَلَيَالِي ذَاكَ أَفْضَلُ ، وَبِهَذَا يَجْتَمِعُ شَمْلُ الْأَدِلَّةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقِيلَ فِي الْأَيَّامِ الْمَعْلُومَاتِ : أَنَّهَا يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَهُ . **وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ** : الْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ الْمَعْدُودَاتُ : هُنَّ جَمِيعهنَّ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ ، فَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : يَوْمُ النَّحْرِ ، وَيَوْمَانِ بَعْدَهُ ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ : ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ . **وَقِيلَ** : إِنَّهَا يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمٌ آخَرُ بَعْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ يَعْنِي : الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ، كَمَا فَصَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ ، ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوبِ الْأَكْلِ مِنَ الْأَضَاحِيِّ وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الرُّخْصَةِ أَوِ الاسْتِحْبَابِ كَمَا ثَبَتَ(٤) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا نَحَرَ هَدْيَهُ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَتُطْبَخُ فَأَكَلَ مِنْ لَحْمِهَا وَحَسَا مِنْ مَرَقِهَا . **قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ** : قَالَ لِي مَالِكٌ : أُحِبُّ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ أُضْحِيَّتِهِ ؛ لأَنَّ اللهَ يَقُولُ : ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : وَسَأَلْتُ اللَّيْثَ فَقَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ .

---

(١) البخاري (حديث ٩٦٩) .
(٢) مسلم (١١٦٢) بنحوه .
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٥٠) من حديث عبد الله بن قُرْط أن رسول الله ﷺ قال : ((أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر)) ، وكذا رواه أبو داود حديث رقم (١٧٦٥)
(٤) مسلم (حديث ١٢١٨) .

وَاسْتَدَلَّ مَنْ نَصَرَ الْقَوْلَ بِأَنَّ **الْأَضَاحِيَّ** يُتَصَدَّقُ مِنْهَا بِالنِّصْفِ بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ فَجَزَّأَهَا نِصْفَيْنِ نِصْفٌ لِلْمُضَحِّي وَنِصْفٌ لِلْفُقَرَاءِ . **وَالْقَوْلُ الْآخَرُ** : أَنَّهَا تُجَزَّأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ ثُلُثٌ لَهُ وَثُلُثٌ يُهْدِيهِ وَثُلُثٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا عِنْدَهَا إِنْ شَاءَ اللهُ وَبِهِ الثِّقَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الْمُضْطَرُّ الَّذِي عَلَيْهِ الْبُؤْسُ وَهُوَ الْمُتَعَفِّفُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الَّذِي لَا يَبْسُطُ يَدَهُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الزَّمِنُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الضَّرِيرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ وَضْعُ الْإِحْرَامِ مِنْ حَلْقِ الرَّأْسِ وَلُبْسِ الثِّيَابِ وَقَصِّ الْأَظَافِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ **قِيلَ** : نَحَرَ مَا نَذَرَ مِنْ أَمْرِ الْبُدْنِ ، **وَقِيلَ** : نَذْرَ الْحَجِّ وَالْهَدْيِ وَمَا نَذَرَ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْحَجِّ . **وَقِيلَ** : نُذُورُ الْحَجِّ فَكُلُّ مَنْ دَخَلَ الْحَجَّ فَعَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ ، وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، وَعَرَفَةَ ، وَمُزْدَلِفَةَ وَرَمْيِ الْجِمَارِ عَلَى مَا أُمِرُوا بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي الطَّوَافُ الْوَاجِبُ يَوْمَ النَّحْرِ ، **وَعَنْ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ** : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : أَتَقْرَأُ سُورَةَ الْحَجِّ ؟ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ فَإِنَّ آخِرَ الْمَنَاسِكِ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

قُلْتُ : وَهَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَمَّا رَجَعَ إِلَى مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ بَدَأَ بِرَمْيِ الْجَمْرَةِ فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ ، ثُمَّ نَحَرَ هَدْيَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ ثُمَّ أَفَاضَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ(١) ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ الطَّوَافُ إِلَّا أَنَّهُ خَفَّفَ عَنِ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ فِيهِ مُسْتَدَلٌّ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الطَّوَافُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ لِأَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيمُ وَإِنْ كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ حِينَ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ ، وَلِهَذَا طَافَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْحِجْرَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَلَمْ يَسْتَلِمِ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَّيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُتَمَّمَا عَلَى قَوَاعِدَ

(١) انظر حديث جابر عند مسلم (١٢١٨) .
(٢) البخاري (١٧٥٥) ، ومسلم (١٣٢٨) .

إِبْرَاهِيمَ الْعَتِيقَةِ . ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ قِيلَ : لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، وَقِيلَ : لأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَطُّ . وَعَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ ؛ لِأَنَّ اللهَ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ .

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ فِي أَدَاءِ الْمَنَاسِكِ وَمَا لِفَاعِلِهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَجْتَنِبْ مَعَاصِيهِ وَمَحَارِمِهِ وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ وَثَوَابٌ جَزِيلٌ ، فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ كَذَلِكَ عَلَى تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ . ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : أَحْلَلْنَا لَكُمْ جَمِيعَ الْأَنْعَامِ وَمَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : مِنْ تَحْرِيمِ ﴿ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ [المائدة : ٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ « مِنْ » هَهُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، أَيْ : اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ ، وَقَرَنَ الشِّرْكَ بِالله بِقَوْلِ الزُّورِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وَمِنْهُ شَهَادَةُ الزُّورِ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[(١)] عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟** » قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ : « **الْإِشْرَاكُ بِالله وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** » وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ

---

(١) البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

فَقَالَ : ((**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ**)) فَمَا زَالَ يُكَرِّرهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُنْحَرِفِينَ عَنِ الْبَاطِلِ قَصْدًا إِلَى الْحَقِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ لِلْمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلَالِهِ وَهَلَاكِهِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْهُدَى فَقَالَ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : سَقَطَ مِنْهَا ﴿ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ أَيْ : تَقْطَعُهُ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أَيْ : بَعِيدٌ مُهْلِكٌ لِمَنْ هَوَى فِيهِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ : ((**أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا تُفَتَّحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا مِنْ هُنَاكَ**)) ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ[1].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَوَامِرَهُ ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُ الْهَدَايَا وَالْبُدْنِ ، **فَقَدْ قِيلَ** : **تَعْظِيمُهَا** اسْتِسْمَانُهَا وَاسْتِحْسَانُهَا.

وَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ عَنْ سَهْلٍ : كُنَّا نُسَمِّنُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَمِّنُونَ[2].

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ[3].

وَعَنْ جَابِرٍ : ضَحَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوءَيْنِ[4].

وَعَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِيِّ : الْعَوْرَاءُ الْبَيِّنُ عَوَرُهَا ، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيِّنُ مَرَضُهَا ، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيِّنُ ظَلَعُهَا ، وَالْكَسِيرَةُ الَّتِي لَا تُنْقِي**))[5]، وَهَذِهِ الْعُيُوبُ تُنْقِصُ اللَّحْمَ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا عَنِ اسْتِكْمَالِ الرَّعْيِ لِأَنَّ الشَّاءَ يَسْبِقُونَهَا

---

(١) **صحيح**: حديث البراء ثابت في أحمد (٤/ ٢٨٧) ، وعند غيره أيضا .

(٢) رواه البخاري معلقا (بعد حديث : ٥٥٥٢) ، وأبو أمامة بن سهل تابعي ليس بصحابي ، وقد ذكر الحافظ في الفتح أن أبا نعيم قد وصله من طريق أحمد بن حنبل عن عباد بن العوام أخبرني يحيى بن سعيد الأنصاري به .. ، وهذا سند صحيح إلى أبي أمامة .

(٣) البخاري (٥٥٥٤) .

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٧٩٥) ، والأملح : الذي بياضه أكثر من سواده ، وموجوءين : أي خصيَّين .

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٨٠٢) .

الظَّلْعُ : أي العرج ، والمراد بالتي لا تنقي : أي التي ما بقي لها مخ من غاية الضعف .

إِلَى الْمَرْعَى ؛ فَلِهَذَا لَا تُجْزِئُ التَّضْحِيَةُ بِهَا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ - كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيث - وَاخْتَلَفَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي الْمَرِيضَةِ مَرَضًا يَسِيرًا عَلَى قَوْلَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أَيْ : لَكُمْ فِي الْبُدْنِ مَنَافِعُ مِنْ لَبَنِهَا وَصُوفِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا وَرُكُوبِهَا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ **قِيلَ** : مَا لَمْ تُسَمَّ بُدْنًا . **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلْ لَهُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا وَإِنْ كَانَتْ هَدْيًا إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوقُ بَدَنَةً قَالَ « **ارْكَبْهَا** » قَالَ : إِنَّهَا بَدَنَةٌ ، قَالَ : « **ارْكَبْهَا وَيْحَكَ** » فِي الثَّانِيَةِ أَوِ الثَّالِثَةِ . وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **ارْكَبْهَا بِالْمَعْرُوفِ إِذَا أُلْجِئْتَ إِلَيْهَا** »[2].

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ أَيْ : مَحِلُّ الْهَدْيِ وَانْتِهَاؤُهُ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة : ٩٥] ، وَقَالَ : ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ [الفتح : ٢٥] ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : كُلُّ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ فَقَدْ حَلَّ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَبْحُ الْمَنَاسِكِ وَإِرَاقَةُ الدِّمَاءِ عَلَى اسْمِ اللهِ مَشْرُوعًا فِي جَمِيعِ الْمِلَلِ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ **قِيلَ** : عِيدًا ، **وَقِيلَ** : ذَبْحًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[3] عَنْ أَنَسٍ قَالَ : أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ فَسَمَّى وَكَبَّرَ

---

(١) البخاري (١٦٩٠) ، ومسلم (١٣٢٣) .

(٢) مسلم (١٣٢٤) .

(٣) البخاري (٥٥٥٨) ، ومسلم (١٩٦٦) .

وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أَيْ : مَعْبُودُكُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ وَنَسَخَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَالْجَمِيعُ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ﴾ أَيْ : أَخْلِصُوا وَاسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ قِيلَ : الْمُطْمَئِنِّينَ ، وَقِيلَ : الْمُتَوَاضِعِينَ ، وَقِيلَ : الْمُطْمَئِنِّينَ الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللهِ الْمُسْتَسْلِمِينَ لَهُ ، وَأَحْسَنَ بِمَا يُفَسَّرُ بِمَا بَعْدَهُ . وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : خَافَتْ مِنْهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَصَائِبِ ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِالْإِضَافَةِ السَّبْعَةُ وَبَقِيَّةُ الْعَشَرَةِ أَيْضًا ، وَقَرَأَ ابْنُ السَّمَيْقَعِ ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بِالنَّصْبِ ، وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وَإِنَّمَا حُذِفَ النُّونُ هَهُنَا تَخْفِيفًا وَلَوْ حُذِفَتْ لِلْإِضَافَةِ لَوَجَبَ خَفْضُ الصَّلَاةِ ، وَلَكِنْ عَلَى سَبِيلِ التَّخْفِيفِ فَنُصِبَتْ ، أَيْ : الْمُؤَدِّينَ حَقَّ اللهِ فِيمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أَيْ : وَيُنْفِقُونَ مَا آتَاهُم اللهُ مِنْ طَيِّبِ الرِّزْقِ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ وَمَحَاوِيجِهِمْ ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى الْخَلْقِ مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللهِ ، وَهَذِهِ بِخِلَافِ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ .

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عَبِيدِهِ فِيمَا خَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْبُدْنِ وَجَعَلَهَا مِنْ شَعَائِرِهِ وَهُوَ أَنَّهُ جَعَلَهَا تُهْدَى إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، بَلْ هِيَ أَفْضَلُ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [المائدة : ٢] . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : الْبَقَرَةُ وَالْبَعِيرُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّمَا الْبُدْنُ مِنَ الْإِبِلِ . قُلْتُ : أَمَّا إِطْلَاقُ الْبَدَنَةِ

عَلَى الْبَعِيرِ فَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي صِحَّةِ إِطْلَاقِ الْبَدَنَةِ عَلَى الْبَقَرَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَصَحُّهُمَا أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهَا ذَلِكَ شَرْعًا كَمَا صَحَّ الْحَدِيثُ ، ثُمَّ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ تُجْزِئُ الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ ، وَالْبَقَرَةِ عَنْ سَبْعَةٍ ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْأَضَاحِيِّ ، الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أَيْ : ثَوَابٌ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . **وَقِيلَ** : ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قَالَ : أَجْرٌ وَمَنَافِعُ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ قَالَ : قِيَامٌ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمَ مَعْقُولَةً يَدُهَا الْيُسْرَى ، يَقُولُ : بِسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[2] عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَنَاخَ بَدَنَةً وَهُوَ يَنْحَرُهَا فَقَالَ : ابْعَثْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَةً سُنَّةَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[3] عَنْ جَابِرٍ فِي صِفَةِ حَجَّةِ الْوَدَاعِ قَالَ فِيهِ : فَنَحَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً جَعَلَ يَطْعَنُهَا بِحَرْبَةٍ فِي يَدِهِ .

وَقَوْله : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يَعْنِي : سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي : مَاتَتْ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ الْبَدَنَةِ إِذَا نُحِرَتْ حَتَّى تَمُوتَ وَتَبْرُدَ حَرَكَتُهَا . عن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ مَرْفُوعًا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : ((**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**))[4].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ **قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : قَوْلُهُ ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ ، **وَقَالَ مَالِكٌ** : يُسْتَحَبُّ ذَلِكَ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : يَجِبُ وَهُوَ وَجْهٌ لِبَعْضِ الشَّافِعِيَّةِ وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ ، **فَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ الْمُسْتَغْنِي بِمَا أَعْطَيْتُهُ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لَكَ وَيُلِمُّ

---

(١) مسلم (١٣١٨) .
(٢) البخاري (حديث ١٧١٣) ، ومسلم (١٣٢٠) .
(٣) مسلم (١٢١٨) .
(٤) مسلم (١٩٥٥) .

بِكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَلَا يَسْأَلُ ، وَقِيلَ : ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ الْمُتَعَفِّفُ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ السَّائِلُ ، وَقِيلَ : ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ هُوَ الَّذِي يَقْنَعُ إِلَيْكَ وَيَسْأَلُكَ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ الَّذِي يَعْتَرِيكَ وَيَتَضَرَّعُ وَلَا يَسْأَلُكَ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ هُوَ السَّائِلُ ، قَالَ : أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّمَّاخِ :

لَمَالُ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي ... مَفَاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ الْقُنُوعِ

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ الصَّدِيقُ وَالضَّعِيفُ الَّذِي يَزُورُ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ جَارُكَ الْغَنِيُّ الَّذِي يُبْصِرُ مَا يَدْخُلُ بَيْتَكَ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ الَّذِي يَعْتَرِيكَ مِنَ النَّاسِ . وَعَنْهُ أَنَّ الْقَانِعَ هُوَ الطَّامِعُ ، وَالْمُعْتَرُّ هُوَ الَّذِي يَعْتَرُّ بِالْبُدْنِ مِنْ غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ﴿ ٱلْقَانِعَ ﴾ هُوَ السَّائِلُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَقْنَعَ بِيَدِهِ إِذَا رَفَعَهَا لِلسُّؤَالِ ﴿ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ مِنَ الِاعْتِرَاءِ وَهُوَ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِأَكْلِ اللَّحْمِ .

وَقَدِ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْأُضْحِيَةَ تُجَزَّأُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ : فَثُلُثٌ لِصَاحِبِهَا يَأْكُلُهُ ، وَثُلُثٌ يُهْدِيهِ لِأَصْحَابِهِ ، وَثُلُثٌ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ : « إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ ادِّخَارِ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا مَا بَدَا لَكُمْ »[1] وَفِي رِوَايَةٍ : « فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا »[2] ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنَّ الْمُضَحِّي يَأْكُلُ النِّصْفَ وَيَتَصَدَّقُ بِالنِّصْفِ ؛ لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ ، وَلِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ : « فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا » .

مَسْأَلَة

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ

---

(١) مسلم (٩٧٧) .

(٢) هي عند مالك في الموطأ (٢/ ٤٨٤) ، ولفظها « كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَتَزَوَّدُوا وَادَّخِرُوا » ، ومن نفس الطريق – طريق مالك – عند مسلم (١٩٧٢) بلفظ « كُلُوا وَتَزَوَّدُوا وَادَّخِرُوا » .

الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ عَجَّلَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ هُوَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ »[1] ، فَلِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ أَوَّلَ وَقْتِ ذَبْحِ الْأَضَاحِيِّ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ النَّحْرِ وَمَضَى قَدْرُ صَلَاةِ الْعِيدِ وَالْخُطْبَتَيْنِ ، **ثُمَّ قِيلَ** : لَا يُشْرَعُ الذَّبْحُ إِلَّا يَوْمَ النَّحْرِ وَحْدَهُ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْقُرَى فَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ بَعْدَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ هَذَا ﴿ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ ﴾ أَيْ : ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ ، وَجَعَلْنَاهَا مُنْقَادَةً لَكُمْ خَاضِعَةً ، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلَبْتُمْ ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٧١ - ٧٣] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شُرِعَ لَكُمْ نَحْرُ هَذِهِ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ؛ لِتَذْكُرُوهُ عِنْدَ ذَبْحِهَا ، فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ؛ لَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنْ لُحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَقَدْ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ إِذَا ذَبَحُوهَا لِآلِهَتِهِمْ وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُومِ قَرَابِينِهِمْ ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا ﴾ أَيْ : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَخَّرَ لَكُمُ الْبُدْنَ ﴿ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : لِتُعَظِّمُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ لِدِينِهِ وَشَرْعِهِ وَمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَنَهَاكُمْ عَنْ فِعْلِ مَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أَيْ : وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الْمُحْسِنِينَ أَيْ : فِي عَمَلِهِمْ ، الْقَائِمِينَ بِحُدُودِ اللهِ الْمُتَّبِعِينَ مَا شُرِعَ لَهُمْ ، الْمُصَدِّقِينَ الرَّسُولَ فِيمَا أَبْلَغَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ﷻ .

---

(١) البخاري (٥٥٤٥) ، ومسلم (١٩٦١) .

مَسْأَلَةٌ

وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ إِلَى الْقَوْلِ بِوُجُوبِ الْأُضْحِيَّةِ عَلَى مَنْ مَلَكَ نِصَابًا ، وَزَادَ أَبُو حَنِيفَةَ اشْتِرَاطَ الْإِقَامَةِ أَيْضًا ، **وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ** : لَا تَجِبُ الْأُضْحِيَّةُ بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ .

وَأَمَّا مِقْدَارُ سِنِّ الْأُضْحِيَّةِ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا أَنْ تَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ الضَّأْنِ** »(1) وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ : إِنَّمَا يُجْزِئُ الثَّنِيُّ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعْزِ أَوِ الْجَذَعِ مِنَ الضَّأْنِ ، فَأَمَّا الثَّنِيُّ مِنَ الْإِبِلِ فَهُوَ الَّذِي لَهُ خَمْسُ سِنِينَ وَدَخَلَ فِي السَّادِسَةِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ مَا لَهُ سَنَتَانِ وَدَخَلَ فِي الثَّالِثَةِ ، **وَقِيلَ** : مَا لَهُ ثَلَاثٌ وَدَخَلَ فِي الرَّابِعَةِ ، وَمِنَ الْمَعْزِ مَا لَهُ سَنَتَانِ ، وَأَمَّا الْجَذَعُ مِنَ الضَّأْنِ فَقِيلَ : مَا لَهُ سَنَةٌ ، **وَقِيلَ** : عَشَرَةُ أَشْهُرٍ ، **وَقِيلَ** : ثَمَانِيَةٌ ، **وَقِيلَ** : سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَهُوَ أَقَلُّ مَا قِيلَ فِي سِنِّهِ وَمَا دُونَهُ فَهُوَ حَمَلٌ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْحَمَلَ شَعْرُ ظَهْرِهِ قَائِمٌ ، وَالْجَذَعُ شَعْرُ ظَهْرِهِ نَائِمٌ قَد انْفَرَقَ صُدْغَيْنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ عِبَادِهِ - الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ - شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ وَيَحْفَظُهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر : ٣٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ أَيْ : لَا يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ مَنِ اتَّصَفَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ ، لَا يَفِي بِمَا قَالَ . وَالْكُفْرُ : الْجَحْدُ لِلنِّعَمِ فَلَا يَعْتَرِفُ بِهَا .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ

---

(١) مسلم (١٩٦٣) .

ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**(١) **قَالَ** : لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجُوا نَبِيَّهُمْ إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَيَهْلِكُنَّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ أَيْ : هُوَ قَادِرٌ عَلَى نَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي طَاعَتِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤-٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٤] ، وَقَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ، وَقَدْ فَعَلَ ، وَإِنَّمَا شَرَعَ تَعَالَى الْجِهَادَ فِي الْوَقْتِ الْأَلْيَقِ بِهِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا بِمَكَّةَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا ، فَلَوْ أُمِرَ الْمُسْلِمُونَ وَهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْعَشْرِ بِقِتَالِ الْبَاقِينَ لَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا لَمَّا بَايَعَ أَهْلُ يَثْرِبَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ رَسُولَ الله ﷺ وَكَانُوا نَيِّفًا وَثَمَانِينَ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله أَلَا نَمِيلُ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي - يَعْنُونَ أَهْلَ لَيَالِي مِنًى - فَنَقْتُلُهُمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِهَذَا** » فَلَمَّا بَغَى الْمُشْرِكُونَ وَأَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ وَشَرَّدُوا

(١) أحمد في المسند (١/ ٢١٦) .

أَصْحَابُهُ شَذَرَ مَذَر ، فَذَهَبَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ إِلَى الْحَبَشَةِ وَآخَرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِالْمَدِينَةِ وَوَافَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، وَقَامُوا بِنَصْرِهِ ، وَصَارَتْ لَهُمْ دَارُ إِسْلَام وَمَعْقِلًا يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ ، شَرَعَ اللهُ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : مَا كَانَ لَهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ إِسَاءَةٌ ، وَلَا كَانَ لَهُمْ ذَنْبٌ إِلَّا أَنَّهُمْ وَحَّدُوا اللهَ وَعَبَدُوهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ الذُّنُوبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنَّهُ يَدْفَعُ بِقَوْمٍ عَنْ قَوْمٍ ، وَيَكْشِفُ شَرَّ أُنَاسٍ عَنْ غَيْرِهِمْ بِمَا يَخْلُقُهُ وَيُقَدِّرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَأَهْلَكَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ ﴿ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ ﴾ وَهِيَ الْمَعَابِدُ الصِّغَارُ لِلرُّهْبَانِ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ وَهِيَ أَوْسَعُ مِنْهَا وَأَكْثَرُ عَابِدِينَ فِيهَا ، وَهِيَ لِلنَّصَارَى أَيْضًا ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ قِيلَ : الصَّلَوَاتُ الْكَنَائِسُ ، إِنَّهَا كَنَائِسُ الْيَهُودِ ، وَهُمْ يُسَمُّونَهَا صَلُوتًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ ، **فَقَدْ قِيلَ** : الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْمَسَاجِد ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الْمَذْكُورَاتِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : الْجَمِيعُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : الصَّوَابُ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ ، وَبِيَعُ النَّصَارَى ، وَصَلَوَاتُ الْيَهُودِ وَهِيَ كَنَائِسُهُمْ ، وَمَسَاجِدُ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمُسْتَعْمَلُ الْمَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : هَذَا تَرَقٍّ مِنَ الْأَقَلِّ إِلَى الْأَكْثَرِ إِلَى أَنْ انْتَهَى إِلَى الْمَسَاجِدِ وَهِيَ أَكْثَرُ عُمَّارًا ، وَأَكْثَرُ عِبَادًا ، وَهُمْ ذَوُو الْقَصْدِ الصَّحِيحِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ ، فَبِقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ، وَبِعِزَّتِهِ لَا يَقْهَرُهُ قَاهِرٌ وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، بَلْ كُلُّ شَيْءٍ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ نَاصِرُهُ فَهُوَ الْمَنْصُورُ وَعَدُوُّهُ هُوَ الْمَقْهُورُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١-١٧٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١]

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قِيلَ : هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٥٥] ، وَقَوْلُه : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، **وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ** : ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ وَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ مَا صَنَعُوا .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّد ﷺ فِي تَكْذِيبِ مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ أَيْ : مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : أَنْظَرْتُهُمْ وَأَخَّرْتُهُمْ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي

عَلَيْهِمْ وَمُعَاقَبَتِي لَهُمْ ؟! وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود : ١٠٢]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾ أَيْ : كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا ﴿ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ﴾ أَيْ : مُكَذِّبَةٌ لِرُسُلِهِ ﴿ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ **قَالَ الضَّحَّاكُ** : سُقُوفُهَا ، أَيْ : قَدْ خَرِبَتْ مَنَازِلُهَا وَتَعَطَّلَتْ حَوَاضِرُهَا ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أَيْ : لَا يُسْتَقَى مِنْهَا وَيَرِدُهَا أَحَدٌ بَعْدَ كَثْرَةِ وَارِدِيهَا وَالازْدِحَامِ عَلَيْهَا ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي الْمُبَيَّضَ بِالْجِصِّ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ الْمَنِيفُ الْمُرْتَفِعُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ الشَّدِيدُ الْمَنِيعُ الْحَصِينُ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُتَقَارِبَةٌ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِ أَهْلَهُ شِدَّةُ بِنَائِهِ وَلَا ارْتِفَاعُهُ وَلَا إِحْكَامُهُ وَلَا حَصَانَتُهُ عَنْ حُلُولِ بَأْسِ اللهِ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[النساء : ٧٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِأَبْدَانِهِمْ وَبِفِكْرِهِمْ أَيْضًا وَذَلِكَ كَافٍ . ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أَيْ : فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْعَمَى عَمَى الْبَصَرِ ، وَإِنَّمَا الْعَمَى عَمَى الْبَصِيرَةِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ سَلِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تَنْفُذُ إِلَى الْعِبَرِ ، وَلَا تَدْرِي مَا الْخَبَرُ .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُلْحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِاللهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال : ٣٢] ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[ص : ١٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : الَّذِي وَعَدَ مِنْ إِقَامَةِ السَّاعَةِ ، وَالانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَالإِكْرَامِ لِأَوْلِيَائِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أَيْ : هُوَ تَعَالَى لَا يَعْجَلُ فَإِنَّ مِقْدَارَ أَلْفِ سَنَةٍ عِنْدَ خَلْقِهِ كَيَوْمٍ وَاحِدٍ عِنْدَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حُكْمِهِ ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ عَلَى الانْتِقَامِ قَادِرٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَجَّلَ وَأَنْظَرَ وَأَمْلَى ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ : خَمْسِمِائَةِ عَامٍ**))[1] ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَوْقُوفًا ، عَنْ سُمَيْرِ بْنِ نَهَارٍ : قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمِقْدَارِ نِصْفِ يَوْمٍ ، قُلْتُ ، وَمَا مِقْدَارُ نِصْفِ يَوْمٍ ؟ قَالَ : أَوَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قُلْتُ : بَلَى ؟ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ حِينَ طَلَبَ مِنْهُ الْكُفَّارُ وُقُوعَ الْعَذَابِ وَاسْتَعْجَلُوهُ بِهِ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَرْسَلَنِي اللهُ إِلَيْكُمْ نَذِيرًا لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، وَلَيْسَ إِلَيَّ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ، أَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمُ الْعَذَابَ ، وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ عَنْكُمْ ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَى مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ أَضَلَّ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ وَيُرِيدُ وَيَخْتَارُ ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[الرعد : ٤١] ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

---

(١) إسناده حسن : وقد أخرجه الترمذي (٢٣٥٤) ، ولكنه أُعلّ بالوقف كما أشار إليه الحافظ ابن كثير .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : مَغْفِرَةٌ لِمَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَمُجَازَاةٌ حَسَنَةٌ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ . **قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ** : إِذَا سَمِعْتَ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فَهُوَ الْجَنَّةُ . ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ **قِيلَ** : مُثَبِّطِينَ ، **وَقِيلَ** : مُرَاغِمِينَ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وَهِيَ النَّارُ الْحَارَّةُ الْمُوجِعَةُ الشَّدِيدُ عَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَجَارَنَا اللهُ مِنْهَا .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ هَهُنَا قِصَّةَ الْغَرَانِيقِ ، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُهَاجِرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَدْ أَسْلَمُوا ، وَلَكِنَّهَا مِنْ طُرُقٍ كُلِّهَا مُرْسَلَة ، وَلَمْ أَرَهَا مُسْنَدَةً مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ سَاقَهَا الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ مَجْمُوعَةً مِنْ كَلَامِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَغَيْرِهِمَا بِنَحْوٍ مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ سَأَلَ هَهُنَا سُؤَالًا ، كَيْفَ وَقَعَ مِثْلَ هَذَا مَعَ الْعِصْمَةِ الْمَضْمُونَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَاةُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - ؟ ثُمَّ حَكَى أَجْوِبَةً عَنِ النَّاسِ مِنْ أَلْطَفِهَا : أَنَّ الشَّيْطَانَ أَوْقَعَ فِي مَسَامِعِ الْمُشْرِكِينَ ذَلِكَ ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ صَدَرَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، بَلْ إِنَّمَا كَانَ مِنْ صَنِيعِ الشَّيْطَانِ لَا عَنْ رَسُولِ الرَّحْمَنِ ﷺ وَاللهُ أَعْلَمُ . وَهَكَذَا تَنَوَّعَتْ أَجْوِبَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَنْ هَذَا بِتَقْدِيرِ صِحَّتِهِ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ الْقَاضِي عِيَاضُ - رَحِمَهُ اللهُ - لِهَذَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ[1].

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض (٢/ ١٤١ وما بعدها) ط. دار ابن رجب .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ هَذَا فِيهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَيْ : لَا يُهِيدَنَّكَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ مِثْلَ هَذَا مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ . **قَالَ الْبُخَارِيُّ** : **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : ﴿ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ فَيُبْطِلُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، وَيُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ . **وَيُقَالُ** : ﴿ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ قِرَاءَته ﴿ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ يَقْرَءُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ . **قَالَ الْبَغَوِيُّ** : وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا مَعْنَى قَوْلُهُ : ﴿ تَمَنَّىٰٓ ﴾ أَيْ : تَلَا وَقَرَأَ كِتَابَ اللهِ ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي تِلَاوَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ حَقِيقَةُ النَّسْخِ لُغَةً : الْإِزَالَةُ وَالرَّفْعُ ، **وَقِيلَ** : أَيْ فَيُبْطِلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَا يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْحَوَادِثِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي تَقْدِيرِهِ وَخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ، لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أَيْ : شَكٌّ وَشِرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، كَالْمُشْرِكِينَ حِينَ فَرِحُوا بِذَلِكَ وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ صَحِيحٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : فِي ضَلَالٍ وَمُخَالَفَةٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ ، أَيْ : مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ النَّافِعَ - الَّذِي يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ - وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ أَنَّ مَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَحَفِظَهُ وَحَرَسَهُ أَنْ يَخْتَلِطَ بِهِ غَيْرُهُ ، بَلْ هُوَ كِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ أَيْ : يُصَدِّقُوهُ وَيَنْقَادُوا لَهُ ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَيْ : تَخْضَعُ وَتَذِلُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَيُوَفِّقُهُمْ لِمُخَالَفَةِ الْبَاطِلِ وَاجْتِنَابِهِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَهْدِيهِمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الْمُوَصِّلَ إِلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّاتِ وَيُزَحْزِحُهُمْ عَنِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالدَّرَكَاتِ .

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ : إِنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴾ أَيْ : فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَابْنُ زَيْدٍ** : ﴿ مِّنْهُ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَلْقَى الشَّيْطَانُ ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ **قِيلَ** : فَجْأَةً ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ بَغْتَةً ﴾ بَغَتَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللهِ ، وَمَا أَخَذَ اللهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغِرَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللهِ إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ ، ، **وَقِيلَ** : هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا لَيْلَةَ لَهُمْ ، **وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ** وَإِنْ كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا أُوعِدُوا بِهِ ، لَكِنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أَيْ : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَّقُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا ، وَتُوَافِقُ قُلُوبَهُمْ وَأَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : لَهُمْ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَبِيدُ . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ : كَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِالْحَقِّ وَجَحَدُوا بِهِ وَكَذَّبُوا بِهِ ، وَخَالَفُوا الرُّسُلَ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمْ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : مُقَابَلَةَ اسْتِكْبَارِهِمْ وَإِبَائِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] أَيْ : صَاغِرِينَ .

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يُخبِرُ تَعالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ الله ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ ، وَتَرَكَ الْأَوْطَانَ وَالْأَهْلِينَ وَالْخِلَّان ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي الله وَرَسُولِهِ وَنُصْرَةً لِدِينِ الله ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ ﴾ أَيْ : فِي الْجِهَادِ ﴿ أَوْ مَاتُواْ ﴾ أَيْ : حَتْفَ أَنْفِهِمْ ، أَيْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ عَلَى فُرُشِهِمْ فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ١٠٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أَيْ : لَيُجْرِيَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ أَيْ : الْجَنَّةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨-٨٩٦] ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ الرَّاحَةُ وَالرِّزْقُ وَجَنَّةُ النَّعِيمِ كَمَا قَالَ هَهُنَا ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ ﴾ أَيْ : بِمَنْ يُهَاجِرُ وَيُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يَحْلُمُ وَيَصْفَحُ وَيَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ وَيُكَفِّرُهَا عَنْهُمْ بِهِجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَإِنَّهُ حَيٌّ عِنْدَ رَبِّهِ يُرْزَقُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَأَمَّا مَنْ تُوُفِّيَ فِي سَبِيلِ الله مِنْ مُهَاجِرٍ أَوْ غَيْرِ مُهَاجِرٍ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ إِجْرَاءَ الرِّزْقِ عَلَيْهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِ الله إِلَيْهِ .

عَنْ شُرَحْبِيلِ بْنِ السِّمْطِ : طَالَ رِبَاطُنَا وَإِقَامَتُنَا عَلَى حِصْنٍ بِأَرْضِ الرُّوم فَمَرَّ بِي سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رضي الله عنه فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أَجْرَى اللهُ عَلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَجْرِ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانِين وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾»(١).

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (١٩١٣) بدون ذكر الآية .

وَعَنْ أَبِي قَبِيلٍ وَرَبِيعَةَ بْنِ سَيْفٍ المَعَافِرِيِّ يَقُولَانِ : كُنَّا بِـ « رُودِس » وَمَعَنَا فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَرَّ بِجنَازَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا قَتِيلٌ وَالْأُخْرَى مُتَوَفًّى ، فَمَالَ النَّاسُ عَلَى الْقَتِيلِ فَقَالَ فَضَالَةُ : مَا لِي أَرَى النَّاسَ مَالُوا مَعَ هَذَا وَتَرَكُوا هَذَا ؟ فَقَالُوا : هَذَا الْقَتِيلُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ : وَاللهِ مَا أُبَالِي مِنْ أَيِّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْتُ ، اسْمَعُوا كِتَابَ اللهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ ﴾ حَتَّى بَلَغَ آخِرَ الْآيَةِ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ الْخَالِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[آل عمران : ٢٦-٢٧]

وَمَعْنَى إِيلَاجِهِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، إِدْخَالُهُ مِنْ هَـذَا فِي هَذَا ، وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا ، فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، كَمَا فِي الشِّتَاءِ ، وَتَارَةً يَطُولُ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ كَمَا فِي الصَّيْفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ عِبَادِهِ بَصِيرٌ بِهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي أَحْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ .

وَلَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْوُجُودِ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . **قَالَ** : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ أَيْ : الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ لِأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ ﴿ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ ، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ؛ لأَنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الْعَلِيُّ الَّذِي لَا أَعْلَى مِنْهُ ، الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَكْبَرَ مِنْهُ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَتُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سَوْدَاءُ قَحْلَةٌ ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الْفَاءُ هَهُنَا لِلتَّعْقِيبِ ، وَتَعْقِيبُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون : ١٤]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) أَنَّ بَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَمَعَ هَذَا هُوَ مُعَقَّبٌ بِالْفَاءِ ، وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ : ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أَيْ : خَضْرَاءُ بَعْدَ يَبَاسِهَا وَمُحُولِهَا ، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْحِجَازِ : أَنَّهَا تُصْبِحُ عَقِبَ الْمَطَرِ خَضْرَاءَ فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الْحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَيُوصِّلُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْمَاءِ فَيُنْبِتَهُ بِهِ ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ١٦]،

---

(١) انظر البخاري حديث (٣٢٠٨) ، ومسلم حديث (٢٦٤٣) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وَلِهَذَا قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَوْ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فِي قَصِيدَتِهِ :

وَقُولَا لَهُ مَنْ يُنْبِتُ الْحَبَّ فِي الثَّرَى ... فَيُصْبِحُ مِنْهُ الْبَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا
وَيُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّهُ فِي رُءُوسِهِ ... فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مُلْكُهُ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ وَعَبِيدٌ لَدَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] أَيْ : مِنْ إِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ ﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ ، أَيْ فِي الْبَحْرِ الْعَجَاجِ وَتَلَاطُمِ الْأَمْوَاجِ ، تَجْرِي الْفُلْكُ بِأَهْلِهَا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَرِفْقٍ وتؤَدَةٍ ، فَيَحْمِلُونَ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ تَجَائِرَ وَبَضَائِعَ وَمَنَافِعَ ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ، وَيَأْتُونَ بِمَا عِنْدَ أُولَئِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ ، كَمَا ذَهَبُوا بِمَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ إِلَى أُولَئِكَ ، مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُرِيدُونَهُ ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَوْ شَاءَ لَأَذِنَ لِلسَّمَاءِ فَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلَكَ مَنْ فِيهَا ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : مَعَ ظُلْمِهِمْ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر : ١١] ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ : كَيْفَ تَجْعَلُونَ لله أَنْدَادًا وَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَهُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّصَرُّفِ ؟ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ﴾ أَيْ : خَلَقَكُمْ

بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا يُذْكَرُ فَأَوْجَدَكُمْ ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ أَيْ : جَحُودٌ .

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ قَوْمٍ مَنْسَكًا ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ مَنْسَكًا . قَالَ : وَأَصْلُ الْمَنْسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْتَادُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ ، إِمَّا لِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، قَالَ : وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَنَاسِكُ الْحَجِّ بِذَلِكَ ؛ لِتَرْدَادِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَعُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا . فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ : لِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ جَعَلْنَا مَنْسَكًا فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ جَعْلًا قَدَرِيًّا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ أَيْ : فَاعِلُوهُ ، فَالضَّمِيرُ هَهُنَا عَائِدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مَنَاسِكُ وَطَرَائِقُ ، أَيْ : هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذَا عَنْ قَدَرِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ ، فَلَا تَتَأَثَّرْ بِمُنَازَعَتِهِمْ لَكَ وَلَا يَصْرِفْكَ ذَلِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُسْتَقِيمٍ مُوَصِّلٍ إِلَى الْمَقْصُودِ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾[القصص : ٨٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[يونس:٤١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾[الأحقاف : ٨] ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

كِتَـٰبٍ﴾ [الشورى : ١٥]

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عِلْمِهِ بِخَلْقِهِ وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ الْكَائِنَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ وُجُودِهَا ، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** »[١] ، وَفِي السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ : اُكْتُبْ . قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اُكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ . فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** »[٢]. وَهَذَا مِنْ تَمَامِ عِلْمِهِ تَعَالَى أَنَّهُ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَقَدَّرَهَا وَكَتَبَهَا أَيْضًا ، فَمَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ قَدْ عَلِمَهُ تَعَالَى قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ ، فَيَعْلَمُ قَبْلَ الْخَلْقِ أَنَّ هَذَا يُطِيعُ بِاخْتِيَارِهِ ، وَهَذَا يَعْصِي بِاخْتِيَارِهِ ، وَكَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

---

(١) مسلم (٢٦٥٣) .

(٢) صحيح بمجموع طرقه : وقد أخرجه الترمذي (٢١٥٥) وأبو داود (٤٧٠٠) ، وغيرهما ، وفي بعض ألفاظه « أول ما خلق الله القلم » ، وفي بعضها « إن أول ما خلق الله القلم .. » .

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، فِيمَا جَهِلُوا وَكَفَرُوا وَعَبَدُوا مِنْ دُونِ الله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، يَعْنِي : حُجَّةً وَبُرْهَانًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧]، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا**: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أَيْ : وَلَا عِلْمَ لَهُمْ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ وَائْتَفَكُوهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَلَقَّوْهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ، وَأَصْلُهُ مِمَّا سَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وزَيَّنَهُ لَهُمْ ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أَيْ : مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُمْ مِنَ الله ، فِيمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ﴾ أَيْ : وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ عَلَى تَوْحِيدِ الله ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّ رُسُلَهُ الْكِرَامَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أَيْ : يَكَادُونَ يُبَادِرُونَ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِالدَّلَائِلِ الصَّحِيحَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَبْسُطُونَ إِلَيْهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴿ قُلْ ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ : ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ : النَّارُ ، وَعَذَابُهَا وَنَكَالُهَا أَشَدُّ وَأَشَقُّ وَأَطَمُّ وَأَعْظَمُ مِمَّا تُخَوِّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ الله الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ عَلَى صَنِيعِكُمْ هَذَا أَعْظَمُ مِمَّا تَنَالُونَ مِنْهُمْ ، إِنْ نِلْتُمْ بِزَعْمِكُمْ وَإِرَادَتِكُمْ . ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : وَبِئْسَ النَّارُ مُقِيلًا وَمَنْزِلًا وَمَرْجِعًا وَمَوْئِلًا وَمُقَامًا ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى حَقَارَةِ الْأَصْنَامِ وَسَخَافَةِ عُقُولِ عَابِدِيهَا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أَيْ : لِمَا يَعْبُدُهُ الْجَاهِلُونَ بِالله ، الْمُشْرِكُونَ بِهِ ﴿ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ ﴾ أَيْ :

أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ أَيْ : لَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ مَا تَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَلَى أَنْ يَقْدِرُوا عَلَى خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ مَا قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ عَلَىٰ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً** »(١).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَيْضًا : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أَيْ : هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلْقِ ذُبَابٍ وَاحِدٍ ، بَلْ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ وَالِانْتِصَارِ مِنْهُ ، لَوْ سَلَبَهَا شَيْئًا مِنَ الَّذِي عَلَيْهَا مِنَ الطِّيبِ ، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذَهُ مِنْهُ لَمَا قَدَرَتْ عَلَى ذَلِكَ ، هَذَا وَالذُّبَابُ مِنْ أَضْعَفِ مَخْلُوقَاتِ اللهِ وَأَحْقَرِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : الطَّالِبُ : الصَّنَمُ ، وَالْمَطْلُوبُ : الذُّبَابُ . وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَهُوَ ظَاهِرُ السِّيَاقِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ** ﴿ ٱلطَّالِبُ ﴾ الْعَابِدُ ﴿ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ الصَّنَمُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مَا عَرَفُوا قَدْرَ اللهِ وَعَظَمَتِهِ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ هَذِهِ الَّتِي لَا تُقَاوِمُ الذُّبَابَ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أَيْ : قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، فَلَا يُمَانِعُ وَلَا يُغَالِبُ ، لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَخْتَارُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا فِيمَا يَشَاءُ مِنْ شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَمِنَ النَّاسِ لِإِبْلَاغِ رِسَالَاتِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، بَصِيرٌ بِهِمْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ

---

(١) البخاري (٥٩٥٣) ، ومسلم (٢١١١) .

مَا يَفْعَلُ بِرُسُلِهِ فِيمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن : ٢٦ - ٢٨] ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، شَهِيدٌ عَلَى مَا يُقَالُ لَهُمْ ، حَافِظٌ لَهُمْ نَاصِرٌ لِجَنَابِهِمْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة : ٦٧]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - فِي هَذِهِ السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ سُورَةِ الْحَجِّ : هَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ السُّجُودُ فِيهَا أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ أَيْ : بِأَمْوَالِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[آل عمران : ١٠٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ ، اللهُ اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَفَضَّلَكُمْ وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رَسُولٍ وَأَكْمَلِ شَرْعٍ ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَيْ : مَا كَلَّفَكُمْ مَا لَا تُطِيقُونَ ، وَمَا أَلْزَمَكُمْ بِشَيْءٍ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، فَالصَّلَاةُ الَّتِي أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ تَجِبُ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا ، وَفِي السَّفَرِ تُقْصَرُ إِلَى اثْنَتَيْنِ ، وَفِي الْخَوْفِ يُصَلِّيهَا بَعْضُ الْأَئِمَّةِ رَكْعَةً ، كَمَا وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ وَتُصَلَّى رِجَالًا وَرُكْبَانًا ، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرَ مُسْتَقْبِلِيهَا ، وَكَذَا فِي النَّافِلَةِ فِي السَّفَرِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا ، وَالْقِيَامُ فِيهَا يَسْقُطُ لِعُذْرِ الْمَرَضِ فَيُصَلِّيهَا الْمَرِيضُ جَالِسًا ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ

الرُّخَصِ وَالتَّخْفِيفَاتِ فِي سَائِرِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا أَمِيرَيْنِ إِلَى الْيَمَنِ : « **بَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا** »[1] ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ يَعْنِي : مِنْ ضِيقٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : نُصِبَ عَلَى تَقْدِيرِ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَيْ : مِنْ ضِيقٍ ، بَلْ وَسَّعَهُ عَلَيْكُمْ كَمِلَّةِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . قَالَ : وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى تَقْدِيرِ : الْزَمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . **قُلْتُ** : وَهَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام : ١٦١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ : قَالَ اللهُ ﷻ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : اللهُ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي الذِّكْرِ ، ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآن ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ثُمَّ حَثَّهُمْ وَأَغْرَاهُمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ - صَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِأَنَّهُ مِلَّةُ أَبِيهِمُ الْخَلِيلِ ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنَّتَهُ - تَعَالَى - عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ ، بِمَا نَوَّهَ بِهِ مِنْ ذِكْرِهَا وَالثَّنَاءِ عَلَيْهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ وَقَدِيمِ الزَّمَانِ ، فِي كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ، يُتْلَى عَلَى الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ **فَقَالَ** : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ وَفِي هَٰذَا ﴾ عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ[2] عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جِثِيِّ جَهَنَّمَ** » قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا : الْمُسْلِمِينَ ، الْمُؤْمِنِينَ ، عِبَادَ اللهِ** » ، وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذَا الْحَدِيثَ بِطُولِهِ عِنْدَ تَقْسِيمِ قَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨) ، ومسلم (١٧٣٣) .

(٢) صحيح : أخرجه النسائي مختصرًا في السنن الكبرى (١١٣٤٩) ، وهو مطول جدًا في المسند (٤/ ١٣٠) .

رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَعَلْنَاكُمْ هَكَذَا أُمَّةً وَسَطًا عُدُولًا خِيَارًا ، مَشْهُودًا بِعَدَالَتِكُمْ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ مُعْتَرِفَةٌ يَوْمَئِذٍ بِسِيَادَتِهَا وَفَضْلِهَا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ سِوَاهَا ، فَلِهَذَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِمْ ، وَالرَّسُولُ يَشْهَدُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ بَلَّغَهَا ذَلِكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣]، وَذَكَرْنَا حَدِيثَ نُوحٍ وَأُمَّتِهِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أَيْ : قَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ بِالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا ، فَأَدُّوا حَقَّ اللهِ عَلَيْكُمْ فِي أَدَاءِ مَا افْتَرَضَ ، وَطَاعَةَ مَا أَوْجَبَ ، وَتَرْكَ مَا حَرَّمَ ، وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ إِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ : وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِ اللهِ بِمَا أَوْجَبَ لِلْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ مِنْ إِخْرَاجِ جُزْءٍ نَزْرٍ مِنْ مَالِهِ فِي السَّنَةِ لِلضُّعَفَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ وَتَفْصِيلُهُ فِي آيَةِ الزَّكَاةِ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اعْتَضِدُوا بِاللهِ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَتَأَيَّدُوا بِهِ ﴿ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أَيْ : حَافِظُكُمْ وَنَاصِرُكُمْ ، وَمُظَفِّرُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ يَعْنِي : نِعْمَ الْوَلِيُّ وَنِعْمَ النَّاصِرُ مِنَ الْأَعْدَاءِ .

هَذَا آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجِّ وَللهِ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة المؤمنون
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ فَازُوا وَسَعِدُوا وَحَصَلُوا عَلَى الْفَلَاحِ ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ . ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : ﴿ خَٰشِعُونَ ﴾ خَائِفُونَ سَاكِنُونَ ، **وَقِيلَ** : الْخُشُوعُ : خُشُوعُ الْقَلْبِ . وَالْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ لَهَا ، وَاشْتَغَلَ بِهَا عَمَّا عَدَاهَا ، وَآثَرَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ رَاحَةٌ لَهُ وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**))(1).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : عَنِ الْبَاطِلِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الشِّرْكَ كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ ، وَالْمَعَاصِي كَمَا قَالَهُ آخَرُونَ ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] **قَالَ قَتَادَةُ** : أَتَاهُمْ وَاللهِ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا وَقَذَهُمْ عَنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ الْأَمْوَالِ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَإِنَّمَا فُرِضَتِ الزَّكَاةُ بِالْمَدِينَةِ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ

---

(1) صحيح لشواهده: وبمجموع طرقه ، وانظر مسند أحمد (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود (٤٩٨٥) ، وغيرهما .

الْهِجْرَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّتِي فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ إِنَّمَا هِيَ ذَاتُ النُّصُبِ وَالْمَقَادِيرِ الْخَاصَّةِ ، وَإِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّ أَصْلَ الزَّكَاةِ كَانَ وَاجِبًا بِمَكَّةَ ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاةُ النَّفْسِ مِنَ الشِّرْكِ وَالدَّنَسِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ كِلَا الْأَمْرَيْنِ مُرَادًا وَهُوَ زَكَاةُ النُّفُوسِ وَزَكَاةُ الْأَمْوَالِ ، فَإِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ زَكَاةِ النُّفُوسِ ، وَالْمُؤْمِنُ الْكَامِلُ هُوَ الَّذِي يَتَعَاطَى هَذَا وَهَذَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أَيْ : وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الْحَرَامِ ، فَلَا يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ مِنْ زِنًا وَلِوَاطٍ ، لَا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجِهِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لَهُمْ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنَ السَّرَارِيِّ ، وَمِنْ تَعَاطِي مَا أَحَلَّهُ اللهُ لَهُ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ وَلَا حَرَجَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : غَيْرُ الْأَزْوَاجِ وَالْإِمَاءِ ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أَيْ : الْمُعْتَدُونَ .

وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى تَحْرِيمِ الِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ قَالَ : فَهَذَا الصَّنِيعُ خَارِجٌ عَنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا بَلْ يُؤَدُّونَهَا إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلِكَ ، لَا كَصِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أَيْ : يُوَاظِبُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِيتِهَا

---

(١) البخاري (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى الله ؟ قَالَ : « **الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **بِرُّ الْوَالِدَيْنِ** » قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله** »(١).

وَلَمَّا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْقِيَامِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ الرَّشِيدَةِ ، قَالَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَأَوْسَطَ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ** »(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ : مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ** »(٣) فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ . فَالْمُؤْمِنُونَ يَرِثُونَ مَنَازِلَ الْكُفَّارِ ؛ لِأَنَّهُمْ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ الله تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَلَمَّا قَامَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَتَرَكَ أُولَئِكَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِمَّا خُلِقُوا لَهُ ، أَحْرَزَ هَؤُلَاءِ نَصِيبَ أُولَئِكَ - لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا رَبَّهُمْ ﷻ - بَلْ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا أَيْضًا وَهُوَ مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى ، عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **يَجِيءُ نَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَيَغْفِرُهَا اللهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى** »(٤) ، وَفِي لَفْظٍ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، فَيُقَالُ : هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ** » فَاسْتَحْلَفَ عُمَرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبَا بُرْدَةَ بِالله - الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِذَلك ؟ قَالَ : فَحَلَفَ لَهُ(٥).

قُلْت : وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾[مريم : ٦٣] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

---

(١) البخاري (٥٩٧٠) ، ومسلم (٨٥) .
(٢) البخاري (٢٧٩٠) .
(٣) إسناده صحيح : وأخرجه ابن ماجة (٤٣٤١) .
(٤) مسلم في طرق حديث (٢٧٦٧) .
(٥) مسلم (٢٧٦٧) .

وَقَدْ قَالَ **مُجَاهِدٌ** وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : الْجَنَّةُ بِالرُّومِيَّةِ : هِيَ الْفِرْدَوْسُ ، **وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : لَا يُسَمَّى الْبُسْتَانُ فِرْدَوْسًا إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهِ عِنَبٌ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ - وَهُوَ آدَمُ عليه السلام - خَلَقَهُ اللهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، **قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ صَفْوَةَ الْمَاءِ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ أَيْ : مِنْ مَنِيِّ آدَمَ ، **وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : إِنَّمَا سُمِّيَ آدَمُ طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : اسْتُلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ ، وَهَذَا أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى وَأَقْرَبُ إِلَى السِّيَاقِ ، فَإِنَّ آدَمَ عليه السلام خُلِقَ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَهُوَ الصَّلْصَالُ مِنَ الْحَمَإِ الْمَسْنُونِ ، وَذَلِكَ مَخْلُوقٌ مِنَ التُّرَابِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] ، عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً ﴾ هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة : ٧-٨] أَيْ : ضَعِيفٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠-٢١] يَعْنِي : الرَّحِمُ مُعَدٌّ لِذَلِكَ مُهَيَّأٌ لَهُ ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٢٢-٢٣] أَيْ : لِمُدَّةٍ

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٠٠) ، وغيره .

مَعْلُومَةٍ وَأَجَلٍ مُعَيَّنٍ ، حَتَّى أُسْتُحْكِمَ وَنُقِلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَصِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أَيْ : ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ ، وَهِيَ المَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَهُوَ ظَهْرُهُ ، وَتَرَائِبُ المَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ صَدْرِهَا مَا بَيْنَ التَّرْقُوَةِ إِلَى السُّرَّةِ ، فَصَارَتْ عَلَقَةً حَمْرَاءَ عَلَى شَكْلِ العَلَقَةِ مُسْتَطِيلَةً ، **قَالَ عِكْرِمَةُ** : وَهِيَ دَمٌ ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ وَهِيَ قِطْعَةٌ كَالْبَضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا ﴾ يَعْنِي : شَكَّلْنَاهَا ذَاتَ رَأْسٍ وَيَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ بِعِظَامِهَا وَعَصَبِهَا وَعُرُوقِهَا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : ((فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عَظْمًا)) **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : وَهُوَ عَظْمُ الصُّلْبِ . وَفِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كُلُّ جَسَدِ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا عَلَى ذَلِكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدُّهُ وَيُقَوِّيه ، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ أَيْ : ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوحَ فَتَحَرَّكَ وَصَارَ خَلْقًا آخَرَ ، ذَا سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَإِدْرَاكٍ وَحَرَكَةٍ وَاضْطِرَابٍ ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ يَعْنِي : بِهِ الرُّوحُ . قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ يَعْنِي : فَنَقَلَهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، إِلَى أَنْ خَرَجَ طِفْلًا ، ثُمَّ نَشَأَ صَغِيرًا ، ثُمَّ احْتَلَمَ ، ثُمَّ صَارَ شَابًّا ، ثُمَّ كَهْلًا ، ثُمَّ شَيْخًا ، ثُمَّ هَرِمًا ، وَلَا مُنَافَاةَ فَإِنَّهُ مِنِ ابْتِدَاءِ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ شَرَعَ فِي هَذِهِ التَّنَقُّلَاتِ وَالأَحْوَالِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ : ((**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ**

(١) البخاري (٤٨١٤) ، ومسلم (٢٩٥٥) .

النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »[1].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَاذَا ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقُولُ اللهُ ، فَيُكْتَبَانِ ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ ، ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَةُ ، فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ »[2].

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ خَلْقَهَا قَالَ : أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى ؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ ؟ قَالَ : فَذَلِكَ يُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ »[3].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ يَعْنِي : حِينَ ذَكَرَ قُدْرَتَهُ وَلُطْفَهُ فِي خَلْقِ هَذِهِ النُّطْفَةِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . وَشَكْلٍ إِلَى شَكْلٍ ، حَتَّى تَصَوَّرَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْسَانِ السَّوِيِّ الْكَامِلِ الْخَلْقِ قَالَ : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ يَعْنِي : بَعْدَ هَذِهِ النَّشْأَةِ الْأُولَى مِنَ الْعَدَمِ تَصِيرُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ يَعْنِي : النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْمَعَادِ وَقِيَامِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ ، فَيُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ الْإِنْسَانِ عَطَفَ بِذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ، وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَعَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وَهَكَذَا فِي أَوَّلِ ﴿ الم السَّجْدَة ﴾ الَّتِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَأُ بِهَا صَبِيحَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فِي أَوَّلِهَا خَلْقُ

---

(١) البخاري (٦٥٩٤) ، ومسلم (٢٦٤٣) .

(٢) مسلم (٢٦٤٤) .

(٣) أخرجه مسلم بنحوه (٢٦٤٦) .

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ بَيَانُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَفِيهَا أَمْرُ الْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَهَذِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ [نوح : ١٥] ، **وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ أَيْ : وَيَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَحْجُبُ عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا ، وَلَا جَبَلٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي وَعْرِهِ ، وَلَا بَحْرٌ إِلَّا يَعْلَمُ مَا فِي قَعْرِهِ ، يَعْلَمُ عَدَدَ مَا فِي الْجِبَالِ وَالتِّلَالِ وَالرِّمَالِ وَالْبِحَارِ وَالْقِفَارِ وَالْأَشْجَارِ ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩]

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عَبِيدِهِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، فِي إِنْزَالِهِ الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ أَيْ : بِحَسْبِ الْحَاجَةِ لَا كَثِيرًا فَيُفْسِدُ الْأَرْضَ وَالْعُمْرَانَ ، وَلَا قَلِيلًا فَلَا يَكْفِي الزُّرُوعَ وَالثِّمَارَ ، بَلْ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنَ السَّقْيِ وَالشُّرْبِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ ، حَتَّى إِنَّ الْأَرَاضِيَ الَّتِي تَحْتَاجُ مَاءً كَثِيرًا لِزَرْعِهَا وَلَا تَحْتَمِلُ دِمْنَتُهَا إِنْزَالَ الْمَطَرِ عَلَيْهَا يَسُوقُ إِلَيْهَا الْمَاءَ مِنْ بِلَادٍ أُخْرَى ، كَمَا فِي أَرْضِ مِصْرَ ، وَيُقَالُ لَهَا الْأَرْضُ الْجُرُزُ يَسُوقُ اللهُ إِلَيْهَا مَاءَ النِّيلِ مَعَهُ طِينٌ أَحْمَرُ يَجْتَرِفُهُ مِنْ بِلَادِ الْحَبَشَةِ فِي زَمَانِ أَمْطَارِهَا ، فَيَأْتِي الْمَاءُ يَحْمِلُ طِينًا أَحْمَرَ ، فَيَسْقِي أَرْضَ مِصْرَ ، وَيَقَرُّ الطِّينُ عَلَى أَرْضِهِمْ لِيَزْرَعُوا فِيهِ ؛ لِأَنَّ

أَرْضَهُمْ سِبَاخٌ يَغْلِب عَلَيْهَا الرِّمَالُ ، فَسُبْحَانَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَسْكَنَّهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا الْمَاءَ إِذَا نَزَلَ مِنَ السَّحَابِ يَخْلُدُ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ قَابِلِيَّةً لَهُ ، وَتَشْرَبهُ وَيَتَغَذَّى بِهِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا أَنْ لَا تُمْطِرَ لَفَعَلْنَا ، وَلَوْ شِئْنَا لَصَرَفْنَاهُ عَنْكُمْ إِلَى السِّبَاخ وَالْبَرَارِيِّ وَالْقِفَارِ لَفَعَلْنَا ، وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ لِشُرْبٍ وَلَا لِسَقْيٍ لَفَعَلْنَا ، وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ لَا يَنْزِلُ فِي الْأَرْضِ بَلْ يَنْجَرُّ عَلَى وَجْهِهَا لَفَعَلْنَا ، وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ إِذَا نَزَلَ فِيهَا يَغُورُ إِلَى مَدًى لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ لَفَعَلْنَا ، وَلَكِنْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ يُنْزِلُ عَلَيْكُمُ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ عَذْبًا فُرَاتًا زُلَالًا ، فَيُسْكِنَهُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْلُكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، فَيُفَتِّحُ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ ، وَيَسْقِي بِهِ الزُّرُوعَ وَالثِّمَارَ ، وَتَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابُّكُمْ وَأَنْعَامُكُمْ ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ وَتَتَطَهَّرُونَ مِنْهُ وَتَتَنَظَّفُونَ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ ﴾ يَعْنِي : فَأَخْرَجْنَا لَكُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ جَنَّاتٍ ، أَيْ : بَسَاتِينَ ﴿ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل : ٦٠] أَيْ : ذَاتَ مَنْظَرٍ حَسَنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ ﴾ أَيْ : فِيهَا نَخِيلٌ وَأَعْنَابٌ ، وَهَذَا مَا كَانَ يَأْلَفُ أَهْلُ الْحِجَازِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الشَّيْءِ وَبَيْنَ نَظِيرِهِ ، وَكَذَلِكَ فِي حَقِّ كُلِّ أَهْلِ إِقْلِيمٍ عِنْدَهُمْ مِنَ الثِّمَارِ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ مَا يَعْجِزُونَ عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الثِّمَارِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل : ١١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى شَيْءٍ مُقَدَّرٍ ، تَقْدِيرُهُ : تَنْظُرُونَ إِلَى حُسْنِهِ وَنُضْجِهِ ، وَمِنْهُ تَأْكُلُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ يَعْنِي : الزَّيْتُونَةَ ، وَالطُّورُ : هُوَ الْجَبَلُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَرٌ ، فَإِنْ عُرِّيَ عَنْهَا سُمِّيَ جَبَلًا لَا طُورًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَطُورُ سَيْنَاءَ : هُوَ طُورُ سِينِينَ ، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كُلِّمَ عَلَيْهِ

مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ﷺ ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي فِيهَا شَجَرُ الزَّيْتُونِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : الْبَاءُ زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ : تُنْبِتُ الدُّهْنَ ، كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ : أَلْقَى فُلَانٌ بِيَدِهِ أَيْ يَدَهُ ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يُضَمِّنُ الْفِعْلَ فَتَقْدِيرُهُ : تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ ، أَوْ تَأْتِي بِالدُّهْنِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَصِبْغٍ ﴾ أَيْ : أُدْم قَالَهُ قَتَادَةُ ، ﴿ لِّلْأَكِلِينَ ﴾ أَيْ : فِيهَا مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنَ الدُّهْنِ وَالاصْطِبَاغِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لِخَلْقِهِ فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الْخَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ، وَيَأْكُلُونَ مِنْ حُمْلَانِهَا ، وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورَهَا ، وَيُحَمِّلُونَهَا الْأَحْمَالَ الثِّقَالَ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ لِيُنْذِرَهُمْ عَذَابَ اللهِ وَبَأْسَهُ الشَّدِيدَ ، وَانْتِقَامَهُ مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِ وَخَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَخَافُونَ مِنَ اللهِ فِي إِشْرَاكِكُمْ بِهِ ؟

فَقَالَ الْمَلَأُ وَهُمُ السَّادَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنْهُمْ : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يَعْنُونَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْكُمْ ، وَيَتَعَاظَمُ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ وَهُوَ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْهِ دُونَكُمْ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ أَيْ : لَوْ أَرَادَ أَنْ

يَبْعَثَ نَبِيًّا لَبَعَثَ مَلَكًا مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ أَيْ : بِبَعْثَةِ الْبَشَرِ ﴿ فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ بِهَذَا أَسْلَافَهُمْ وَأَجْدَادَهُمْ فِي الدُّهُورِ الْمَاضِيَةِ ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ أَيْ : مَجْنُونٌ فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَاخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنِكُمْ بِالْوَحْيِ ﴿ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : انْتَظِرُوا بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ، وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مُدَّةً حَتَّى تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ .

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ دَعَا رَبَّهُ لِيَسْتَنْصِرَهُ عَلَى قَوْمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِصَنْعَةِ السَّفِينَةِ وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، أَيْ : ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالثِّمَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنْ يَحْمِلَ فِيهَا أَهْلَهُ ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنَ اللهِ بِالْهَلَاكِ ، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهِ كَابْنِهِ وَزَوْجَتِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ أَيْ : عِنْدَ مُعَايَنَةِ إِنْزَالِ الْمَطَرِ الْعَظِيمِ ، لَا تَأْخُذَنَّكَ رَأْفَةٌ بِقَوْمِكَ وَشَفَقَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَطَمَعٌ فِي تَأْخِيرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْتُ أَنَّهُمْ مُغْرَقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ هُودٍ بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ ذَلِكَ هَهُنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ، وَقَدِ امْتَثَلَ نُوحٌ عليه السلام هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود : ٤١] ، فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عِنْدَ ابْتِدَاءِ سَيْرِهِ وَعِنْدَ انْتِهَائِهِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ - وَهُوَ إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ - لَآيَاتٍ أَيْ : لَحُجَجٍ وَدَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ تَعَالَى فَاعِلٌ لِمَا يَشَاءُ ، قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ . **وَقَوْلُهُ** : ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أَيْ : لَمُخْتَبِرِينَ لِلْعِبَادِ بِإِرْسَالِ الْمُرْسَلِينَ .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ قَرْنًا آخَرِينَ ، قِيلَ الْمُرَادُ بِهِمْ : عَادٌ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدَهُمْ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ : ثَمُود لِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَأَبَوْا عَنِ اتِّبَاعِهِ ؛ لِكَوْنِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنِ اتِّبَاعِ رَسُولٍ بَشَرِيٍّ ، فَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ فِي الْقِيَامَةِ ، وَأَنْكَرُوا الْمَعَادَ الْجُثْمَانِيَّ ، وَقَالُوا : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ

هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ أَيْ : بَعِيدٌ بَعِيدٌ ذَلِكَ ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أَيْ : فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنِّذَارَةِ وَالْإِخْبَارِ بِالْمَعَادِ ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أَيْ : اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ، وَاسْتَنْصَرَ رَبَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَجَابَ دُعَاءَهُ . ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ أَيْ : بِمُخَالَفَتِكَ وَعِنَادِكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ ، بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ .

وَالظَّاهِرُ : أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةٌ مَعَ الرِّيحِ الصَّرْصَرِ الْعَاصِفِ الْقَوِيِّ الْبَارِدِ ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾[الأحقاف : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ أَيْ : صَرْعَى هَلْكَى كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْحَقِيرُ التَّافِهُ الْهَالِكُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] أَيْ : بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَمُخَالَفَةِ رَسُولِ اللهِ ، فَلْيَحْذَرِ السَّامِعُونَ أَنْ يُكَذِّبُوا رَسُولَهُمْ .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ أَيْ : أُمَمًا وَخَلَائِقَ ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ يَعْنِي : بَلْ يُؤْخَذُونَ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ ، وَعِلْمِهِ قَبْلَ كَوْنِهِمْ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَخَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[النحل : ٣٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ يَعْنِي : جُمْهُورُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ ، كَقَوْلِهِ

تَعَالَى : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ أَيْ : أَهْلَكْنَاهُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أَيْ : أَخْبَارًا وَأَحَادِيثَ لِلنَّاسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ [سبأ : ١٩]

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِالْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الدَّامِغَاتِ وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِهِمَا وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِمَا لِكَوْنِهِمَا بَشَرَيْنِ ، كَمَا أَنْكَرَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ بَعْثَةَ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَأَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ وَأَغْرَقَهُمْ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ أَجْمَعِينَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - فِيهَا أَحْكَامُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَصَمَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَالْقِبْطَ وَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ التَّوْرَاةَ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٣]

وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ جَعَلَهُمَا آيَةً لِلنَّاسِ ، أَيْ : حُجَّةً قَاطِعَةً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ ، فَإِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَلَا أُمٍّ ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ النَّاسِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الرَّبْوَةُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِيهِ النَّبَاتُ . ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ ذَاتُ خِصْبٍ ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ يَعْنِي : مَاءً ظَاهِرًا ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : رَبْوَةٌ مُسْتَوِيَةٌ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ الْمَاءُ الْجَارِي . **ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَكَانِ هَذِهِ الرَّبْوَةِ مِنْ أَيِّ أَرْضٍ هِيَ ؟ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْد بْنِ أَسْلَمَ** : لَيْسَ الرُّبَى إِلَّا بِمِصْرَ . **وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قَالَ : هِيَ دِمَشْقُ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قَالَ : أَنْهَارُ دِمَشْقَ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ حِينَ أَوَيَا إِلَى غُوطَةِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهَا ، **وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى** ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قَالَ : هِيَ الرَّمْلَةُ مِنْ فِلَسْطِينَ ، وَأَقْرَبُ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ الْمَعِينُ : الْمَاءُ الْجَارِي ، وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤] **وَقِيلَ** : ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ فَهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - هُوَ الْأَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَهَذَا أَوْلَى مَا يُفَسَّرُ بِهِ ، ثُمَّ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ ، ثُمَّ الْآثَارُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُرْسَلِينَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَجْمَعِينَ - بِالْأَكْلِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْقِيَامِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْحَلَالَ عَوْنٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَقَامَ الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِهَذَا أَتَمَّ الْقِيَامِ ، وَجَمَعُوا بَيْنَ كُلِّ خَيْرٍ قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلَالَةً وَنُصْحًا فَجَزَاهُمُ اللهُ عَنِ الْعِبَادِ خَيْرًا .

وَفِي الصَّحِيحِ « **وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ** » قَالُوا : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **نَعَمْ وَأَنَا كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ** »(١) .

وَفِي الصَّحِيحِ « **إِنَّ دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ** »(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ » [البقرة : ١٧٢] **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ ! يَا رَبِّ ! فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**(٣).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : دِينُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينٌ وَاحِدٌ وَمِلَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ(٤) ، وَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ أَيْ : الْأُمَمُ الَّذِينَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أَيْ : يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَاعِدًا .﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ ﴾ أَيْ : فِي غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى حِينِ حِينِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾[الطارق : ١٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر : ٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ

(١) البخاري (٢٢٦٢) .
(٢) البخاري (٢٠٧٣) .
(٣) مسلم (١٠١٥) .
(٤) الآية رقم (٩٢) .

وَالْأَوْلَادِ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعَزَّتِهِمْ عِنْدَنَا ؟ كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : ٣٥]لَقَدْ أَخْطَئُوا فِي ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَإِنْظَارًا وَإِمْلَاءً ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [التوبة:٥٥] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ [القلم : ٤٤-٤٥] . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، **قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ قَالَ : مُكِرَ وَاللهِ بِالْقَوْمِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، يَا ابْنَ آدَمَ فَلَا تَعْتَبِرِ النَّاسَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَلَكِنِ اعْتَبِرْهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ مُشْفِقُونَ مِنَ اللهِ ، خَائِفُونَ مِنْهُ ، وَجِلُونَ مِنْ مَكْرِهِ بِهِمْ ، كَمَا **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً ، وَإِنَّ الْكَافِرَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مَرْيَمَ ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم : ١٢]أَيْ : أَيْقَنَتْ أَنَّ مَا كَانَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ ، وَمَا شَرَعَهُ اللهُ فَهُوَ إِنْ كَانَ أَمْرًا فَمِمَّا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَإِنْ كَانَ نَهْيًا فَهُوَ مِمَّا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ حَقٌّ ، كَمَا قَالَ اللهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، بَلْ

يُوَحِّدُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَحَدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا كُفْءَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أَيْ : يُعْطُونَ الْعَطَاء وَهُمْ خَائِفُونَ وَجِلُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ ؛ لِخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَّرُوا فِي الْقِيَامِ بِشُرُوطِ الْإِعْطَاءِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِشْفَاقِ وَالِاحْتِيَاطِ .

عَنْ عَائِشَةَ[1] أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ، وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ ؟ قَالَ : ((**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللهَ ﷻ**)) .

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ فِي شَرْعِهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الدُّنْيَا ، أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أَيْ إِلَّا مَا تُطِيقُ حَمْلَهُ وَالْقِيَامَ بِهِ ، وَأَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ لَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : كِتَابَ الْأَعْمَالِ ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُبْخَسُونَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا ، وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ فَيَعْفُو وَيَصْفَحُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ أَيْ : فِي غَفْلَةٍ وَضَلَالَةٍ مِنْ هَذَا ، أَيْ : الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ قِيلَ : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ ﴾ أَيْ :

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٥٩) ، والترمذي (٣١٧٥) ، وفي سنده انقطاع ، وثم علة أخرى وهي الاختلاف على بعض رواته .

سَيِّئَةٌ ﴿ مِن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ يَعْنِي : الشِّرْكَ ﴿ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ قَالَ : لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ كُتِبَتْ عَلَيْهِمْ أَعْمَالٌ سَيِّئَةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، لِتَحِقَّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ : ((**فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ يَعْنِي : حَتَّى إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ – وَهُمُ السُّعَدَاءُ الْمُنَعَّمُونَ فِي الدُّنْيَا – عَذَابُ اللهِ وَبَأْسُهُ وَنِقْمَتُهُ بِهِمْ ﴿ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ أَيْ : يَصْرُخُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾[المزمل : ١١-١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يُجِيرُكُمْ أَحَدٌ مِمَّا حَلَّ بِكُمْ ، سَوَاءٌ جَأَرْتُمْ أَوْ سَكَتُّمْ لَا مَحِيدَ وَلَا مَنَاصَ وَلَا وَزَرَ لَزِمَ الْأَمْرُ ، وَوَجَبَ الْعَذَابُ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَرَ ذُنُوبِهِمْ . فَقَالَ : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا دُعِيتُمْ أَبَيْتُمْ وَإِنْ طُلِبْتُمْ امْتَنَعْتُمْ ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[غافر : ١٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ مُسْتَكْبِرِينَ حَالٌ مِنْهُمْ حِينَ نُكُوصِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَإِبَائِهِمْ إِيَّاهُ ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لَهُ وَلِأَهْلِهِ ، فَعَلَى هَذَا الضَّمِيرِ فِي ﴿ بِهِۦ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : **أَحَدُهَا** : أَنَّهُ الْحَرَمُ بِمَكَّةَ ، ذُمُّوا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمِّرُونَ فِيهِ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ . **الثَّانِي** : أَنَّهُ ضَمِيرٌ لِلْقُرْآنِ كَانُوا يُسَمِّرُونَ وَيَذْكُرُونَ الْقُرْآنَ بِالْهَجْرِ مِنَ الْكَلَامِ : إِنَّهُ سِحْرٌ ، إِنَّهُ شِعْرٌ ، إِنَّهُ كِهَانَةٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ . **وَالثَّالِثُ** : أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَانُوا يَذْكُرُونَهُ فِي سَمَرِهِمْ بِالْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ ، وَيَضْرِبُونَ لَهُ الْأَمْثَالَ الْبَاطِلَةَ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ ، أَوْ كَاهِنٌ ، أَوْ سَاحِرٌ ، أَوْ كَذَّابٌ ، أَوْ مَجْنُونٌ ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ ، بَلْ هُوَ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الْحَرَمِ صَاغِرِينَ أَذِلَّاءَ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْبَيْتِ يَفْتَخِرُونَ بِهِ ، مُعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بِهِ ، كَمَا قَالَ النَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سُنَنِهِ .

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَفَهُّمِهِمْ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَدَبُّرِهِمْ لَهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ ، لَا سِيَّمَا آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْهُمْ كِتَابٌ ، وَلَا أَتَاهُمْ نَذِيرٌ ، فَكَانَ اللَّائِقُ بِهَؤُلَاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النِّعْمَةَ الَّتِي أَسْدَاهَا اللهُ عَلَيْهِمْ بِقَبُولِهَا ، وَالْقِيَامِ بِشُكْرِهَا وَتَفَهُّمِهَا وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ، كَمَا فَعَلَهُ النُّجَبَاءُ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ إِذًا وَاللهِ يَجِدُونَ فِي الْقُرْآنِ زَاجِرًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ لَوْ تَدَبَّرَهُ الْقَوْمُ وَعَقَلُوهُ ، وَلَكِنَّهُمْ أَخَذُوا بِمَا تَشَابَهَ بِهِ فَهَلَكُوا عِنْدَ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَى الْكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَصِيَانَتَهُ الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ ؟ : أَيْ أَفَيَقْدِرُونَ عَلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَالْمُبَاهَتَةِ فِيهِ ؟ ، وَلِهَذَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ اللهَ بَعَثَ فِينَا رَسُولًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ

وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَهَكَذَا قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ لِنَائِبِ كِسْرَى حِينَ بَارَزَهُمْ ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو سُفْيَان[1] صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ لِمَلِكِ الرُّومِ هِرَقْلَ ، حِينَ سَأَلَهُ وَأَصْحَابَهُ عَنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَسَبِهِ وَصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ ، وَكَانُوا بَعْدُ كُفَّارًا لَمْ يُسْلِمُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا أَمْكَنَهُمْ إِلَّا الصِّدْقُ فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ يَحْكِي قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ تَقَوَّلَ الْقُرْآنَ أَيْ : افْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ أَنَّ بِهِ جُنُونًا لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تُؤْمِنُ بِهِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلَانَ مَا يَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ أَتَاهُمْ مِنْ كَلَامِ اللهِ مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُدَافَعُ ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ وَجَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ ، أَيْ فِي حَالَةِ كَرَاهَةِ أَكْثَرِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً مُسْتَأْنَفَةً ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ قِيلَ : الْحَقُّ هُوَ اللهُ ﷻ ، وَالْمُرَادُ لَوْ أَجَابَهُمُ اللهُ إِلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَوَى ، وَشَرَعَ الْأُمُورَ عَلَى وفْقِ ذَلِكَ ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ أَيْ : لِفَسَادِ أَهْوَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا . كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف : ٣١] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾[الإسراء : ١٠٠] ، وَقَالَ : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾[النساء : ٥٣] ، فَفِي هَذَا كُلِّه تَبْيِينُ عَجْزِ الْعِبَادِ وَاخْتِلَافِ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِخَلْقِهِ - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

---

(١) انظر البخاري (حديث رقم ٧) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ قَالَ الحَسَنُ : أَجْرًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : جُعْلًا ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ أَيْ : أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أُجْرَةً وَلَا جُعْلًا وَلَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ إِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى ، بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [سبأ : ٤٧]، وَقَالَ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ أَيْ : لَعَادِلُونَ جَائِرُونَ مُنْحَرِفُونَ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : نَكَبَ فُلَانٌ عَنِ الطَّرِيقِ إِذَا زَاغَ عَنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ غِلَظِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُ لَوْ أَزَاحَ عَنْهُمُ الضُّرَّ وَأَفْهَمَهُمُ الْقُرْآنَ لَمَا انْقَادُوا لَهُ وَلَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣]، فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : ابْتَلَيْنَاهُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : فَمَا رَدَّهُمْ ذَلِكَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾ أَيْ : مَا خَشَعُوا

﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَا دُعُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام : ٤٣]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْشُدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ فَقَدْ أَكَلْنَا الْعِلْهِزَ - يَعْنِي الْوَبَرَ وَالدَّمَ - فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ ﴾(١) الْآيَةُ ، وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ حِينَ اسْتَعْصَوْا ، فَقَالَ : ((**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ**))(٢). وَعَنْ وَهْبِ بْنِ عُمَرَ بْنِ كِيسَانَ قَالَ : حُبِسَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ : أَلَا أُنْشِدُكَ بَيْتًا مِنْ شِعْرٍ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ؟ فَقَالَ وَهْبٌ : نَحْنُ فِي طَرَفٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وَاللهُ يَقُول : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ قَالَ : وَصَامَ وَهْبٌ ثَلَاثًا مُتَوَاصِلَةً ، فَقِيلَ لَهُ : مَا هَذَا الصَّوْمُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ؟ قَالَ : أُحْدِثَ لَنَا فَأَحْدَثْنَا : يَعْنِي أُحْدِثَ لَنَا الْحَبْسُ فَأَحْدَثْنَا زِيَادَةَ عِبَادَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أَيْ : حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَجَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً فَأَخَذَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أُبْلِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَأَيِسُوا مِنْ كُلِّ رَاحَةٍ ، وَانْقَطَعَتْ آمَالُهُمْ وَرَجَاؤُهُمْ .

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ جَعَلَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، وَهِيَ الْعُقُولُ وَالْفُهُومُ الَّتِي يَذْكُرُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ ، وَيَعْتَبِرُونَ بِمَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ لِمَا يَشَاءُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ شُكْرَكُمْ للهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ فِي بُرْئِهِ الْخَلِيقَةَ وَذَرْئِهِ لَهُمْ فِي

---

(١) حسن بمجموع طرقه : وانظر في الطبري عند تفسير الآية الكريمة .
(٢) البخاري (٤٦٩٣) ، ومسلم (٢٧٩٨) .

سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أُنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ لِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، فَلَا يَتْرُكُ مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا وَلَا ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى وَلَا جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا إِلَّا أَعَادَهُ كَمَا بَدَأَهُ .

وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أَيْ : يُحْيِي الرِّمَمَ وَيُمِيتُ الْأُمَمَ ﴿ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ وَعَنْ أَمْرِهِ تَسْخِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتُرَانِ وَلَا يَفْتَرِقَانِ بِزَمَانٍ غَيْرِهِمَا كَقَوْلِهِ ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يس : ٤٠] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَدُلُّكُمْ عَلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الَّذِي قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَخَضَعَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ الَّذِينَ أَشْبَهُوا مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ . ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ يَعْنِي يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَ ذَلِكَ بَعْدَ صَيْرُورَتِهِمْ إِلَى الْبِلَى ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : الْإِعَادَةُ مُحَالٌ ، إِنَّمَا يُخْبِرُ بِهَا مَنْ تَلَقَّاهَا عَنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ وَاخْتِلَافِهِمْ ، وَهَذَا الْإِنْكَارُ وَالتَّكْذِيبُ مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧ - ٧٩] الْآيَاتُ .

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى وَحْدَانِيَّتَهُ وَاسْتِقْلَالَهُ بِالْخَلْقِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْمُلْكِ ؛ لِيُرْشِدَ إِلَى أَنَّهُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ الْمُعْتَرِفِينَ بِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا ، مَعَ هَذَا فَقَدْ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ فَعَبَدُوا غَيْرَهُ مَعَهُ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَسْتَبِدُّونَ بِشَيْءٍ ، بَلِ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] ، **فَقَالَ** : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ أَيْ : مَنْ مَالِكُهَا الَّذِي خَلَقَهَا وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالثَّمَرَاتِ وَسَائِرِ صُنُوفِ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟. ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : فَيَعْتَرِفُونَ لَكَ بِأَنَّ ذَلِكَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلْخَالِقِ الرَّازِقِ لَا لِغَيْرِهِ ، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ الْخَاضِعِينَ لَهُ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ مِنْهَا وَالْجِهَاتِ ؟ وَمَنْ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ يَعْنِي : الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ** : الْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ أَحَدٌ . **وَفِي رِوَايَةٍ** : إِلَّا الله ﷻ ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ : الْكَبِيرُ ، وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ أَيْ : الْحَسَنُ الْبَهِيُّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْعَرْشُ بَيْنَ الْعَظَمَةِ فِي الِاتِّسَاعِ وَالْعُلُوِّ وَالْحُسْنِ الْبَاهِرِ ، **وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ** : إِنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ . **وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ** : إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ ، نُورُ الْعَرْشِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَفَلَا تَخَافُونَ عِقَابَهُ وَتَحْذَرُونَ عَذَابَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ وَإِشْرَاكِكُمْ بِهِ .

وَقَوْلُه : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود : ٥٦] أَيْ : مُتَصَرِّفٌ فِيهَا ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ

يَقُولُ : ((**لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**))(١) وَكَانَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي الْيَمِينِ قَالَ : ((**لَا وَمُقَلِّبَ الْقُلُوبِ**))(٢) فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا كَانَ السَّيِّدُ فِيهِمْ فَأَجَارَ أَحَدًا لَا يُخْفَرُ فِي جِوَارِهِ ، وَلَيْسَ لِمَنْ دُونَهُ أَنْ يُجِيرَ عَلَيْهِ لِئَلَّا يَفْتَاتَ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ : ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : وَهُوَ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ الَّذِي لَا يُمَانِعُ وَلَا يُخَالِفُ ، وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . وَقَالَ اللهُ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] أَيْ : لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَغَلَبَتِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ ، فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : سَيَعْتَرِفُونَ أَنَّ السَّيِّدَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، هُوَ اللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تَذْهَبُ عُقُولُكُمْ فِي عِبَادَتِكُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ مَعَ اعْتِرَافِكُمْ وَعِلْمِكُمْ بِذَلِكَ ؟ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَقَمْنَا الْأَدِلَّةَ الصَّحِيحَةَ الْوَاضِحَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ ، وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، فَالْمُشْرِكُونَ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَنْ دَلِيلٍ قَادَهُمْ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْإِفْكِ وَالضَّلَالِ ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ اتِّبَاعًا لِآبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ الْحَيَارَى الْجُهَّالِ ، كَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُمْ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣]

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ

---

(١) انظر البخاري (حديث ٧٢٩٤) ، ومسلم (حديث ٢٣٥٩) .
(٢) انظر البخاري (حديث ٦٦١٧) .

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

يُنَزِّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ أَوْ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْعِبَادَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَيْ: لَوْ قُدِّرَ تَعَدُّدُ الآلِهَةِ لَانْفَرَدَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا خَلَقَ، فَمَا كَانَ يَنْتَظِمُ الْوُجُودُ، وَالمُشَاهَدُ أَنَّ الْوُجُودَ مُنْتَظِمٌ مُتَّسِقٌ، كُلٌّ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، ثُمَّ لَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَطْلُبُ قَهْرَ الآخَرِ وَخِلَافَهُ فَيَعْلُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَالمُتَكَلِّمُونَ ذَكَرُوا هَذَا المَعْنَى وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ وَهُوَ: أَنَّهُ لَوْ فُرِضَ صَانِعَانِ فَصَاعِدًا فَأَرَادَ وَاحِدٌ تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَالآخَرُ أَرَادَ سُكُونَهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ مُرَادُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَانَا عَاجِزَيْنِ، وَالْوَاجِبُ لَا يَكُونُ عَاجِزًا، وَيَمْتَنِعُ اجْتِمَاعُ مُرَادَيْهِمَا لِلتَّضَادِّ، وَمَا جَاءَ هَذَا المُحَالُ إِلَّا مِنْ فَرْضِ التَّعَدُّدِ فَيَكُون مُحَالًا، فَأَمَّا إِنْ حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ كَانَ الْغَالِبُ هُوَ الْوَاجِبُ، وَالآخَرُ المَغْلُوبُ مُمْكِنًا؛ لأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِصِفَةِ الْوَاجِبِ أَنْ يَكُونَ مَقْهُورًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ: عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ المُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمُ الْوَلَدَ أَوِ الشَّرِيكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أَيْ: يَعْلَمُ مَا يَغِيبُ عَنِ المَخْلُوقَاتِ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالَى وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالجَاحِدُونَ.

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُوَ هَذَا الدُّعَاءَ عِنْدَ حُلُولِ النِّقَمِ ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴾ أَيْ: إِنْ عَاقَبْتَهُمْ - وَإِنِّي شَاهِدٌ ذَلِكَ - فَلَا تَجْعَلْنِي فِيهِمْ كَمَا

جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ((**وَإِذَا أَرَدْتُ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَفَّنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**))(١).

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا لَأَرَيْنَاكَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ النِّقَمِ وَالْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا لَهُ إِلَى التِّرْيَاقِ النَّافِعِ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ لِيَسْتَجْلِبَ خَاطِرَهُ فَتَعُودُ عَدَاوَتُهُ صَدَاقَةً وَبُغْضُهُ مَحَبَّةً ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ [فصلت : ٣٤-٣٥] . أَيْ : وَمَا يُلْهَمُ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ أَوْ هَذِهِ الْخَصْلَةُ أَوِ الصِّفَةُ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أَيْ : عَلَى أَذَى النَّاسِ ، فَعَامَلُوهُمْ بِالْجَمِيلِ مَعَ إِسْدَائِهِمْ إِلَيْهِمُ الْقَبِيحَ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ مِنَ الشَّيَاطِينِ ؛ لأَنَّهُمْ لَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْحِيَلُ ، وَلَا يَنْقَادُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا عِنْدَ الاسْتِعَاذَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : ((**أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**))(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أَيْ : فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي ، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ ، وَذَلِكَ لِطَرْدِ الشَّيْطَانِ عِنْدَ الْأَكْلِ وَالْجِمَاعِ وَالذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ ، وَمِنَ الْغَرَقِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ**))(٣).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَزَعِ : ((**بِسْمِ اللهِ ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ**

---

(١) **إسناده صحيح** : أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣) ، والترمذي (٣٢٣٥) ، وقال هذا حديث حسن صحيح .
(٢) **صحيح** : وقد تقدم .
(٣) **صحيح** : أخرجه النسائي (٨/ ٢٤٩) ، وأبو داود (١٥٥٤) بنحوه ، وفي الروايات الهَدْم .

وَعِقَابِهِ ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونَ »(١).

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُحْتَضَرِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، مِنَ الْكَافِرِينَ أَوِ الْمُفَرِّطِينَ فِي أَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، وَقِيلِهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَسُؤَالِهِمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أَفْسَدَهُ فِي مُدَّةِ حَيَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١٠ - ١١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام : ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلَا يُجَابُونَ عِنْدَ الاحْتِضَارِ ، وَيَوْمَ النُّشُورِ ، وَوَقْتَ الْعَرْضِ عَلَى الْجَبَّارِ ، وَحِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ ، وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الْجَحِيمِ . وَقَوْلُهُ هَهُنَا : ﴿ كَلَّآ ﴾ كَلَّا حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ ، أَيْ : لَا نُجِيبُهُ إِلَى مَا طَلَبَ وَلَا نَقْبَلُ مِنْهُ . ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ : أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا لَا مَحَالَةَ كُلُّ مُحْتَضَرٍ ظَالِمٍ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِلَّةً لِقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّآ ﴾ أَيْ : لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ ، أَيْ : سُؤَالُهُ الرُّجُوعَ لِيَعْمَلَ صَالِحًا هُوَ كَلَامٌ مِنْهُ ، وَقَوْلٌ لَا عَمَلَ مَعَهُ ، وَلَوْ رُدَّ لَمَا عَمِلَ صَالِحًا ، وَلَكَانَ يَكْذِبُ فِي مَقَالَتِهِ هَذِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : أَمَامَهُمْ . ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : الْبَرْزَخُ

---

(١) حسن : وله شواهد ، وأخرجه أحمد (٢/ ١٨١ حديث رقم ٦٦٩٦) .

الحَاجِزُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ . **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ** : الْبَرْزَخُ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَيْسُوا مَعَ أَهْلِ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الآخِرَةِ يُجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِهِمْ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ ﴾ تَهْدِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الْمُحْتَضَرِينَ مِنَ الظَّلَمَةِ بِعَذَابِ الْبَرْزَخِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : يَسْتَمِرُّ بِهِ الْعَذَابُ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ النُّشُورِ وَقَامَ النَّاسُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَنْفَعُ الْأَنْسَابُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَرْثِي وَالِدٌ لِوَلَدِهِ وَلَا يَلْوِي عَلَيْهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠- ١١] أَيْ : لَا يَسْأَلُ الْقَرِيبُ عَنْ قَرِيبِهِ وَهُوَ يُبْصِرُهُ ، وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْزَارِ مَا قَدْ أَثْقَلَ ظَهْرَهُ ، وَهُوَ أَعَزُّ النَّاسِ عَلَيْهِ - كَانَ - فِي الدُّنْيَا مَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ وَلَا حَمَلَ عَنْهُ وَزْنَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤- ٣٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ وَلَوْ بِوَاحِدَةٍ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ فَازُوا ، فَنَجَوْا مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : أُولَئِكَ الَّذِينَ فَازُوا بِمَا طَلَبُوا وَنَجَوْا مِنْ شَرِّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا . ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ : ثَقُلَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : خَابُوا وَهَلَكُوا وَفَازُوا بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ . ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

أَيْ : مَاكِثُونَ فِيهَا دَائِمُونَ مُقِيمُونَ فَلَا يَظْعَنُونَ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[إبراهيم : ٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : عَابِسُونَ .

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللهِ وَتَوْبِيخٌ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْعَظَائِمِ الَّتِي أَوْبَقَتْهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ الرُّسُلَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمُ الْكُتُبَ ، وَأَزَلْتُ شُبَهَكُمْ وَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ حُجَّةٌ تَدْلُونَ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء : ١٦٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[الإسراء : ١٥] ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ أَيْ : قَدْ قَامَتْ عَلَيْنَا الْحُجَّةُ ، وَلَكِنْ كُنَّا أَشْقَى مِنْ أَنْ نَنْقَادَ لَهَا وَنَتَّبِعَهَا ، فَضَلَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ نُرْزَقْهَا ، ثُمَّ قَالُوا : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : أَرْدُدْنَا إِلَى الدُّنْيَا ، فَإِنْ عُدْنَا إِلَى مَا سَلَفَ مِنَّا فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُّونَ لِلْعُقُوبَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾[غافر : ١١- ١٢] أَيْ : لَا سَبِيلَ إِلَى الْخُرُوجِ ؛ لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِاللهِ إِذَا وَحَّدَهُ الْمُؤْمِنُونَ .

قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

هَذَا جَوَابٌ مِنَ الله تَعَالَى لِلْكُفَّارِ إِذَا سَأَلُوا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَالرَّجْعَةِ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ . يَقُولُ ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا ﴾ أَيْ : اُمْكُثُوا فِيهَا صَاغِرِينَ مُهَانِينَ أَذِلَّاءَ ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أَيْ : لَا تَعُودُوا إِلَى سُؤَالِكُمْ هَذَا فَإِنَّهُ لَا جَوَابَ لَكُمْ عِنْدِي . **وَقِيلَ** : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ هَذَا قَوْلُ الرَّحْمَنِ حِينَ انْقَطَعَ كَلَامُهُمْ مِنْهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلِيَائِهِ ، **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ أَيْ : فَسَخِرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّايَ وَتَضَرُّعِهِمْ إِلَيَّ ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أَيْ : حَمَلَكُمْ بُغْضُهُمْ عَلَيَّ أَنْ نَسِيتُمْ مُعَامَلَتِي ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ صَنِيعِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : ٢٩-٣٠]أَيْ : يَلْمِزُونَهُمْ اسْتِهْزَاءً .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا جَازَى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ ﴾ أَيْ : عَلَى أَذَاكُمْ لَهُمْ وَاسْتِهْزَائِكُمْ بِهِمْ ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بِالسَّعَادَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ .

قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى مَا أَضَاعُوهُ فِي عُمْرِهِمُ الْقَصِيرِ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ طَاعَةِ الله تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، وَلَوْ صَبَرُوا فِي مُدَّةِ الدُّنْيَا الْقَصِيرَةِ لَفَازُوا كَمَا فَازَ أَوْلِيَاؤُهُ الْمُتَّقُونَ : ﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أَيْ : كَمْ كَانَتْ إِقَامَتُكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أَيْ : الْحَاسِبِينَ ﴿ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : مُدَّةً يَسِيرَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَمَا آثَرْتُمُ

الْفَانِي عَلَى الْبَاقِي ، وَلَمَا تَصَرَّفْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ السَّيِّئَ ، وَلَا اسْتَحْقَقْتُمْ مِنَ اللهِ سَخَطَهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ ، فَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ لَفُزْتُمْ كَمَا فَازُوا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أَيْ : أَفَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلَا قَصْدٍ وَلَا إِرَادَةٍ مِنْكُمْ وَلَا حِكْمَةٍ لَنَا ؟ ، **وَقِيلَ** : لِلْعَبَثِ ، أَيْ : لِتَلْعَبُوا وَتَعْبَثُوا ، كَمَا خُلِقَتِ الْبَهَائِمُ لَا ثَوَابَ لَهَا وَلَا عِقَابَ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ لِلْعِبَادَةِ وَإِقَامَةِ أَوَامِرِ اللهِ ﷻ ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَعُودُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[القيامة : ٣٦] يَعْنِي : هَمَلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ أَيْ : تَقَدَّسَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا عَبَثًا ، فَإِنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فَذَكَرَ الْعَرْشَ لِأَنَّهُ سَقْفُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ أَيْ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، بَهِيُّ الشَّكْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[ق : ٧]

وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ أَشْرَكَ بِهِ غَيْرَهُ وَعَبَدَ مَعَهُ سِوَاهُ ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ لَا بُرْهَانَ لَهُ ، أَيْ : لَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ وَهَذِهِ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ : اللهُ يُحَاسِبُهُ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ أَخْبَرَ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : لَدَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا فَلَاحَ لَهُمْ وَلَا نَجَاةَ .

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى إِلَى هَذَا الدُّعَاءِ ، فَالْغَفْرُ إِذَا أُطْلِقَ مَعْنَاهُ : مَحْوُ الذَّنْبِ وَسَتْرُهُ عَنِ النَّاسِ ، وَالرَّحْمَةُ مَعْنَاهَا : أَنْ يُسَدِّدَهُ وَيُوَفِّقَهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ

تفْسِيرُ سُورَةِ النور
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى: هَذِهِ ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا ﴾ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى الاعْتِنَاء بِهَا وَلَا يَنْفِي مَا عَدَاهَا ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ**: أَيْ بَيَّنَّا الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْحُدُودَ. **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ**: وَمَنْ قَرَأَ ﴿ فَرَضْنَٰهَا ﴾ يَقُول: فَرَضْنَاهَا عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾ أَيْ: مُفَسَّرَاتٍ وَاضِحَاتٍ ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ يَعْنِي: **هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا حُكْمُ الزَّانِي فِي الْحَدِّ وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَنِزَاعٌ**، فَإِنَّ الزَّانِيَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُون بِكْرًا وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَتَزَوَّجْ، أَوْ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ بِكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ فَإِنَّ حَدَّهُ مِائَةُ جَلْدَةٍ، كَمَا فِي الْآيَةِ، وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُغَرَّبَ عَامًا عَنْ بَلَدِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - فَإِنَّ عِنْدَهُ أَنَّ التَّغْرِيبَ إِلَى رَأْيِ الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ غَرَّبَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُغَرِّبْ، **وَحُجَّةُ الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ** مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ فِي الْأَعْرَابِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ عَسِيفًا - يَعْنِي أَجِيرًا - عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ فَافْتَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي: جَلْدَ مِائَةِ

---

(١) البخاري (٦٨٢٧، ٦٨٢٨)، ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

وَتَغْرِيبَ عَامٍ ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا : الرَّجْمَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله تَعَالَى ، الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ ، وَعَلَى ابْنِكَ مِائَةُ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيب عَام . وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ** - لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَم - **إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**)) فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا .

وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى تَغْرِيبِ الزَّانِي مَعَ جَلْدِ مِائَةٍ إِذَا كَانَ بِكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ ، **فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُحْصَنًا** وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ وَهُوَ حُرٌّ بَالِغٌ عَاقِلٌ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(١) أَنَّ عُمَرَ قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : لَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ الله فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ قَدْ أَنْزَلَهَا اللهُ ، فَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَمِنَ النِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوِ الْحَبَلُ أَوِ الاعْتِرَافُ .

وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِرَجْمِ الْمَرْأَة - زَوْجَةُ الرَّجُلِ الَّذِي اسْتَأْجَرَ الْأَجِيرَ - لَمَّا زَنَتْ مَعَ الْأَجِيرِ(٢) ، وَرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ(٣) وَكُلُّ هَؤُلَاءِ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ جَلَدَهُمْ قَبْلَ الرَّجْمِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الْمُتَعَاضِدَةُ الْمُتَعَدِّدَةُ الطُّرُقِ وَالْأَلْفَاظِ بِالاقْتِصَارِ عَلَى رَجْمِهِمْ وَلَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْجَلْدِ ، وَلِهَذَا كَانَ هَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُمُ اللهُ . **وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ الله -** إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُجْمَعَ عَلَى الزَّانِي الْمُحْصَنِ بَيْنَ الْجَلْدِ لِلْآيَةِ وَالرَّجْمِ لِلسُّنَّةِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا أُتِيَ بِشَرَّاحَةَ ، وَكَانَتْ قَدْ زَنَتْ وَهِيَ مُحْصَنَةٌ فَجَلَدَهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَرَجَمَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ثُمَّ قَالَ : جَلَدْتُهَا بِكِتَابِ الله وَرَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ(٤).

---

(١) البخاري (٦٨٣٠) ، ومسلم (١٦٩١) بنحوه .

(٢) تقدم قريبًا .

(٣) مسلم (١٦٩٤) .

(٤) انظر البخاري (٢/ ٦٨) .

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ**))(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي حُكْمِ اللهِ ، أَيْ : لَا تَرْأَفُوا بِهِمَا فِي شَرْعِ اللهِ ، وَلَيْسَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ الرَّأْفَةُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ ، وَإِنَّمَا هِيَ الرَّأْفَةُ الَّتِي تَحْمِلُ الْحَاكِمَ عَلَى تَرْكِ الْحَدِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ قَالُوا : إِقَامَةُ الْحُدُودِ إِذَا رُفِعَتْ إِلَى السُّلْطَانِ فَتُقَامُ وَلَا تُعَطَّلُ . **وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيُّ** : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : رَحْمَةٌ فِي شِدَّةِ الضَّرْبِ ، **وَقَالَ عَطَاءٌ** : ضَرْبٌ لَيْسَ بِالْمُبَرِّحِ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ** : يُجْلَدُ الْقَاذِفُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ وَالزَّانِي تُخْلَع ثِيَابه ثُمَّ تَلَا ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ فَقُلْتُ : هَذَا فِي الْحُكْمِ ؟ قَالَ : هَذَا فِي الْحُكْمِ وَالْجَلْدِ . يَعْنِي فِي إِقَامَةِ الْحَدِّ وَفِي شِدَّةِ الضَّرْبِ .

وَعَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ(٢) : أَنَّ جَارِيَةً لابْنِ عُمَرَ زَنَتْ فَضَرَبَ رِجْلَيْهَا قَالَ نَافِعٌ : أَرَاهُ قَالَ وَظَهْرُهَا ، قَالَ : قُلْت : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ : يَا بُنَيَّ وَرَأَيْتَنِي أَخَذَتْنِي بِهَا رَأْفَةٌ ؟ إِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرنِي أَنْ أَقْتُلَهَا وَلَا أَنْ أَجْعَلَ جَلْدَهَا فِي رَأْسِهَا وَقَدْ أَوْجَعْتُ حَيْثُ ضَرَبْتُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ أَيْ : فَافْعَلُوا ذَلِكَ وَأَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَنْ زَنَى ، وَشَدِّدُوا عَلَيْهِ الضَّرْبَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مُبَرِّحًا لِيَرْتَدِعَ هُوَ وَمَنْ يَصْنَعُ مِثْلَهُ بِذَلِكَ . ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هَذَا فِيهِ تَنْكِيلٌ لِلزَّانِيَيْنِ إِذَا جُلِدَا بِحَضْرَةِ النَّاسِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ أَبْلَغُ فِي زَجْرِهِمَا وَأَنْجَعُ فِي رَدْعِهِمَا فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَفَضِيحَةً إِذَا كَانَ النَّاسُ حُضُورًا .

---

(١) مسلم (١٦٩٠) .

(٢) أخرج نحوه الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن عمر – رضي الله عنهما – عند تفسير قوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ .

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِأَنَّ الزَّانِيَ لَا يَطَأُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً أَيْ : لَا يُطَاوِعُهُ عَلَى مُرَادِهِ مِنَ الزِّنَا إِلَّا زَانِيَةٌ عَاصِيَةٌ أَوْ مُشْرِكَةٌ لَا تَرَى حُرْمَةَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ ﴿ ٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ ﴾ أَيْ : عَاصٍ بِزِنَاهُ ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لَا يَعْتَقِدُ تَحْرِيمَهُ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ قَالَ : لَيْسَ هَذَا بِالنِّكَاحِ إِنَّمَا هُوَ الْجِمَاعُ ، لَا يَزْنِي بِهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : تَعَاطِيهِ ، وَالتَّزْوِيجُ بِالْبَغَايَا ، أَوْ تَزْوِيجُ الْعَفَائِفِ بِالرِّجَالِ الْفُجَّارِ . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ : حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ** : حَرَّمَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ نِكَاحَ الْبَغَايَا ، وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، **وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللهُ - إِلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مِنَ الرَّجُلِ الْعَفِيفِ عَلَى الْمَرْأَةِ الْبَغِيِّ مَا دَامَتْ كَذَلِكَ حَتَّى تُسْتَتَابَ** ، فَإِنْ تَابَتْ صَحَّ الْعَقْدُ عَلَيْهَا وَإِلَّا فَلَا ، وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ تَزْوِيجُ الْمَرْأَةِ الْحُرَّةِ الْعَفِيفَةِ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ الْمُسَافِحِ حَتَّى يَتُوبَ تَوْبَةً صَحِيحَةً ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ(١) : كَانَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ ، وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِلُ الْأَسْرَى مِنْ مَكَّةَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمُ الْمَدِينَةَ ، قَالَ : وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ بِمَكَّةَ ، يُقَالُ لَهَا : عَنَاقٌ وَكَانَتْ صَدِيقَةً لَهُ ، وَأَنَّهُ وَاعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّةَ يَحْمِلُهُ قَالَ : فَجِئْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى ظِلِّ حَائِطٍ مِنْ حَوَائِطِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ قَالَ : فَجَاءَتْ عَنَاقٌ فَأَبْصَرَتْ سَوَادَ ظِلٍّ تَحْتَ الْحَائِطِ ، فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْنِي فَقَالَتْ : مَرْثَدُ ؟ فَقُلْتُ : مَرْثَدُ ، فَقَالَتْ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ .

---

(١) **إسناده حسن** : أخرجه الترمذي (٣١٧٧) ، وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو داود (٢٠٥١) ، والنسائي (٦/ ٦٦) .

قَالَ : فَقُلْتُ يَا عَنَاقُ حَرَّمَ اللهُ الزِّنَا ، فَقَالَتْ : يَا أَهْلَ الْخِيَامِ هَذَا الرَّجُلُ يَحْمِلُ أَسْرَاكُمْ ، قَالَ : فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَةٌ وَدَخَلْتُ الْحَدِيقَةَ فَانْتَهَيْتُ إِلَى غَارٍ أَوْ كَهْفٍ فَدَخَلْتُ فِيهِ ، فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَى رَأْسِي فَبَالُوا فَظَلَّ بَوْلُهُمْ عَلَى رَأْسِي ، فَأَعْمَاهُمُ اللهُ عَنِّي ، قَالَ : ثُمَّ رَجَعُوا فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَحَمَلْتُهُ ، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْإِذْخِرِ فَفَكَكْتُ عَنْهُ أَكْبُلَهُ فَجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ وَيُعِينُنِي حَتَّى أَتَيْتُ بِهِ الْمَدِينَةَ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَنْكِحُ عَنَاقًا ، أَنْكِحُ عَنَاقًا ؟ مَرَّتَيْنِ ، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَا مَرْثَدُ : الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، فَلَا تَنْكِحْهَا** » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **لَا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ** »(١).

قَالُوا : فَأَمَّا إِذَا حَصَلَتْ تَوْبَةٌ فَإِنَّهُ يَحِلُّ التَّزْوِيجُ ، وَقَدِ ادَّعَى طَائِفَةٌ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ .

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانُ حُكْمِ جَلْدِ الْقَاذِفِ لِلْمُحْصَنَةِ - وَهِيَ الْحُرَّةُ الْبَالِغَةُ الْعَفِيفَةُ ، فَإِذَا كَانَ الْمَقْذُوفُ رَجُلًا فَكَذَلِكَ يُجْلَدُ قَاذِفُهُ أَيْضًا ، وَلَيْسَ فِيهِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، فَإِنْ أَقَامَ الْقَاذِفُ بَيِّنَةً عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ دَرَأَ عَنْهُ الْحَدُّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ **فَأَوْجَبَ عَلَى الْقَاذِفِ إِذَا لَمْ يُقِمِ الْبَيِّنَةَ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٢) ، والحاكم (٢/ ١٩٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٦) ، وفي سنده حبيب المعلم . اختلف العلماء فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه .

ثَلاثَةَ أَحْكَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يُجْلَدَ ثَمَانِينَ جَلْدَةً . **الثَّانِي** : أَنَّهُ تُرَدُّ شَهَادَتُهُ أَبَدًا . **الثَّالِثُ** : أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لَا عِنْدَ الله وَلَا عِنْدَ النَّاسِ .ثُمَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الاسْتِثْنَاءِ هَلْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ فَقَطْ فَتَرْفَعُ التَّوْبَةُ الْفِسْقَ فَقَطْ وَيَبْقَى مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ دَائِمًا وَإِنْ تَابَ ، أَوْ يَعُودُ إِلَى الْجُمْلَتَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ ؟ وَأَمَّا الْجَلْدُ فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى سَوَاءٌ تَابَ أَوْ أَصَرَّ ، وَلَا حُكِمَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا خِلَافٍ .

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا فَرَجٌ لِلْأَزْوَاجِ وَزِيَادَةُ مَخْرَجٍ ، إِذَا قَذَفَ أَحَدُهُمْ زَوْجَتَهُ وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ أَنْ يُلَاعِنَهَا كَمَا أَمَرَ الله ﷻ وَهُوَ أَنْ يُحْضِرَهَا إِلَى الْإِمَامِ فَيَدَّعِي عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ ، فَيُحَلِّفُهُ الْحَاكِمُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِالله فِي مُقَابَلَةِ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، أَيْ : فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَا ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ . فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ بَانَتْ مِنْهُ بِنَفْسِ هَذَا اللِّعَانِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَطَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ أَبَدًا ، وَيُعْطِيهَا مَهْرَهَا وَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهَا حَدُّ الزِّنَا ، وَلَا يَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ إِلَّا أَنْ تُلَاعِنَ فَتَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِالله إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ، أَيْ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ يَعْنِي : الْحَدَّ ، ﴿ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فَخَصَّهَا بِالْغَضَبِ كَمَا أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يَتَجَشَّمُ فَضِيحَةَ أَهْلِهِ ،

وَرَمْيِهَا بِالزِّنَا إِلَّا وَهُوَ صَادِقٌ مَعْذُورٌ وَهِيَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْخَامِسَةُ فِي حَقِّهَا أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا ، وَالْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْحَقَّ ثُمَّ يَحِيدُ عَنْهُ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى رَأْفَتَهُ بِخَلْقِهِ وَلُطْفِهِ بِهِمْ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَكُونُ بِهِمْ مِنَ الضِّيقِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ أَيْ : لَحَرَجْتُمْ وَلَشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِيرٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ أَيْ : عَلَى عِبَادِهِ . وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْحَلِفِ وَالْأَيْمَانِ الْمُغَلَّظَةِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِيمَا يَشْرَعُهُ وَيَأْمُرُ بِهِ وَفِيمَا يَنْهَى عَنْهُ ، وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِمُقْتَضَى الْعَمَلِ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَذِكْرِ سَبَبِ نُزُولِهَا ، وَفِيمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ مِنَ الصَّحَابَةِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(١) أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ** » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ ؟ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « **الْبَيِّنَةُ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ** » فَقَالَ هِلَالٌ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ وَلَيُنْزِلَنَّ اللهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الْحَدِّ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا ، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ** ؟ » ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْخَامِسَةِ وَقَفُوهَا وَقَالُوا : إِنَّهَا مُوجِبَةٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ ، فَمَضَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَبْصِرُوهَا ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ : أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ** » فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ** » .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ(٢) **قَالَ** : كُنَّا جُلُوسًا عَشِيَّةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : أَحَدُنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا إِنْ قَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ ، ، وَاللهِ لَئِنْ أَصْبَحْتُ صَحِيحًا لَأَسْأَلَنَّ

---

(١) البخاري (٤٧٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه (١٤٩٥) .

رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ : فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أَحَدَنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا إِنْ قَتَلَهُ قَتَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ ، اللَّهُمَّ احْكُمْ ، قَالَ : فَنَزَلَتْ آيَةُ اللِّعَانِ ، فَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوَّلَ مَنِ ابْتُلِيَ بِهِ .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ(١) **قَالَ** : جَاءَ عُوَيْمِرٌ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَدِيٍّ فَقَالَ لَهُ : سَلْ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِهِ فَقَتَلَهُ أَيُقْتَلُ بِهِ ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ ؟ فَسَأَلَ عَاصِمٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَابَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسَائِلَ ، قَالَ : فَلَقِيَهُ عُوَيْمِرٌ ، فَقَالَ : مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : مَا صَنَعْتُ إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِخَيْرٍ ، سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَابَ الْمَسَائِلَ ، فَقَالَ عُوَيْمِرٌ : وَاللهِ لَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلَأَسْأَلَنَّهُ ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ فِيهَا ، قَالَ : فَدَعَا بِهِمَا وَلَاعَنَ بَيْنَهُمَا ، قَالَ عُوَيْمِرٌ : إِنِ انْطَلَقْتُ بِهَا يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ كَذَبْتُ عَلَيْهَا قَالَ : فَفَارَقَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَصَارَتْ سُنَّةُ الْمُتَلَاعِنَيْنِ ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَبْصِرُوهَا ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ عَظِيمَ الْأَلْيَتَيْنِ ، فَلَا أُرَاهُ إِلَّا قَدْ صَدَقَ ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ فَلَا أُرَاهُ إِلَّا كَاذِبًا** » فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الْمَكْرُوهِ .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ(٢) أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ رَجُلًا رَأَى مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ ، أَمْ كَيْفَ يَفْعَلُ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمَا مَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّلَاعُنِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **قَدْ قَضَى فِيكَ وَفِي امْرَأَتِكَ** » قَالَ : فَتَلَاعَنَا ، وَأَنَا شَاهِدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَفَارَقَهَا ، فَكَانَتْ سُنَّةٌ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْمُتَلَاعِنَيْنِ ، وَكَانَتْ حَامِلًا فَأَنْكَرَ حَمْلَهَا ، وَكَانَ ابْنُهَا يُدْعَى إِلَيْهَا ، ثُمَّ جَرَتِ السُّنَّةُ فِي الْمِيرَاثِ أَنْ يَرِثَهَا ، وَتَرِثَ مِنْهُ مَا فَرَضَ اللهُ لَهَا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

(١) البخاري (٤٧٤٥) ، ومسلم (١٤٩٢) .
(٢) انظر ما تقدم .

هَذِهِ الْعَشْرُ الآيَاتُ كُلُّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ رَمَاهَا أَهْلُ الإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، بِمَا قَالُوهُ مِنَ الْكَذِبِ الْبَحْتِ وَالْفِرْيَةِ الَّتِي غَارَ اللهُ ﷺ لَهَا وَلِنَبِيِّهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهَا صِيَانَةً لِعِرْضِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ، يَعْنِي : مَا هُوَ وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ بَلْ جَمَاعَةٌ ، فَكَانَ الْمُقَدَّمُ فِي هَذِهِ اللَّعْنَةِ : عَبْدُ الله بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ ، حَتَّى دَخَلَ ذَلِكَ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَكَلَّمُوا بِهِ وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ ، حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ .

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ[1] : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِسَفَرٍ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُ ، قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، وَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَذَلِكَ بَعْدَمَا نَزَلَ الْحِجَابُ ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ ، وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنَ بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي ، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي ، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونَنِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي ، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ ، قَالَتْ : وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعَلَقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطِّلِ السُّلَمِيّ ثُمَّ

---

(١) البخاري (٤٧٥٠) ، ومسلم (٢٧٧٠) ، واللفظ له .

الذَّكْوَانِيّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي - وَكَانَ قَدْ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَاللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِنْ شَأْنِي ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ : عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْنَاهَا شَهْرًا ، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي ، إِنَّمَا يَدْخُلُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ . ثُمَّ يَقُولُ : « كَيْفَ تِيكُمْ ؟ » فَذَلِكَ الَّذِي يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ ، حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقِهْتُ ، وَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا ، وَلَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا ، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّنَزُّهِ فِي الْبَرِّيَّةِ ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا فِي بُيُوتِنَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ - مِسْطَحٍ - وَهِيَ بِنْتُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَابْنَةُ أَبِي رُهْمٍ أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا ، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٌ ، فَقُلْتُ لَهَا : بِئْسَمَا قُلْتِ ، تَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا ؟ فَقَالَتْ : أَيْ هَنْتَاه ، أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : وَمَاذَا قَالَ ؟ قَالَتْ : فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : « كَيْفَ تِيكُمْ ؟ » فَقُلْتُ لَهُ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ ؟ قَالَتْ : وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا ، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجِئْتُ أَبَوَيَّ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي : يَا أُمَّتَاهُ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهِ ؟ فَقَالَتْ : أَيْ بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا . قَالَتْ : فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللهِ ، أَوَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَا ؟ فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي

دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي قَالَتْ : فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ ، قَالَتْ : فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ لَهُمْ مِنَ الْوُدِّ ، فَقَالَ أُسَامَةُ : يَا رَسُولَ الله ، هُمْ أَهْلُكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا . وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، وَإِنْ تَسْأَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ الْخَبَرَ ، قَالَتْ : فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ فَقَالَ : « **أَيْ بَرِيرَةُ ؛ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ مِنْ عَائِشَةَ ؟** » فَقَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ . فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ ، قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : « **يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، فَوَالله مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي** » فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ ﷺ فَقَالَ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يَا رَسُولَ الله ، إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا بِأَمْرِكَ . قَالَتْ : فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ : كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ ، فَقَامَ أُسَيْدُ ابْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ : كَذَبْتَ لَعَمْرُ الله ، لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ فَتَثَاوَرَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا ، وَرَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا ، وَسَكَتَ رَسُولُ الله ﷺ . قَالَتْ : وَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ، وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي . قَالَتْ : فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي ، إِذِ اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فَسَلَّمَ ، ثُمَّ جَلَسَ . قَالَتْ :

وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ ، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ ، قَالَتْ : فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ثُمَّ قَالَ : « **أَمَّا بَعْدُ ، يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ ، وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ** » قَالَتْ : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً ، فَقُلْتُ لِأَبِي : أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي : أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ : وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَتْ : فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ : وَاللهِ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ - لَا تُصَدِّقُونَنِي ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ بِأَمْرٍ - وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ - تُصَدِّقُونَنِي ، فَوَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف : ١٨] قَالَتْ : ثُمَّ تَحَوَّلْتُ ، فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي ، قَالَتْ : وَأَنَا وَاللهِ أَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يَنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى ، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا ، قَالَتْ : فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَحَدٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ عِنْدَ الْوَحْيِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ . قَالَتْ : فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَكَانَ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ : « **أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ ، أَمَّا اللهُ ﷻ فَقَدْ بَرَّأَكِ** » قَالَتْ : فَقَالَتْ لِي أُمِّي : قُومِي إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ ﷻ ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي ، وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ الْعَشْرُ الْآيَاتُ كُلُّهَا ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ -: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ

الَّذِي قَالَ لِعَائِشَة ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي ، فَرَجَّعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ . وَقَالَ : وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا . **قَالَتْ عَائِشَةُ** : وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي فَقَالَ : « **يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ** ؟ » فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي ، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا . **قَالَتْ عَائِشَةُ** : وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللهُ تَعَالَى بِالْوَرَعِ ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا ، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ أَيْ : الْكَذِبِ وَالْبُهْتِ وَالافْتِرَاءِ ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أَيْ جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أَيْ : يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِسَانُ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا ، وَرِفْعَةُ مَنَازِلَ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِظْهَارُ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللهِ تَعَالَى بِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حَيْثُ أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤٢]، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَعَنْهَا وَهِيَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ ، قَالَ لَهَا : أَبْشِرِي فَإِنَّكِ زَوْجَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ يُحِبُّكِ ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَكِ ، وَنَزَلَتْ بَرَاءَتُكِ مِنَ السَّمَاءِ(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أَيْ : لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَةِ نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ **قِيلَ** : ابْتَدَأَ بِهِ ، **وَقِيلَ** : الَّذِي كَانَ يَجْمَعُهُ وَيَسْتَوْشِيهُ وَيُذِيعُهُ وَيُشِيعُهُ ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولٍ - قَبَّحَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ - وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ النَّصُّ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ .

---

(١) انظر البخاري (٤٧٥٣) .

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حِينَ أَفَاضَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ السُّوءِ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِ الْإِفْكِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَآ ﴾ يَعْنِي: هَلَّا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْكَلَامَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أَيْ قَاسُوا ذَلِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لَا يَلِيقُ بِهِمْ فَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إِلَخْ، أَيْ، هَلَّا ظَنُّوا الْخَيْرَ، فَإِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلُهُ وَأَوْلَى بِهِ، هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَاطِنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أَيْ: بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ: كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيبَةً، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةٌ جَهْرَةً عَلَى رَاحِلَةِ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ، وَالْجَيْشُ بِكَمَالِهِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَذَا جَهْرَةً، وَلَا كَانَا يَقْدَمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، بَلْ كَانَ هَذَا يَكُونُ لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مَسْتُورًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ، وَالرُّعُونَةُ الْفَاحِشَةُ، الْفَاجِرَةُ، وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَا ﴾ أَيْ: هَلَّا ﴿ جَآءُو عَلَيْهِ ﴾ أَيْ: عَلَى مَا قَالُوهُ: ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يَشْهَدُونَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ: فِي حُكْمِ اللهِ كَاذِبُونَ فَاجِرُونَ.

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيُّهَا الْخَائِضُونَ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ ، بِأَنْ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ وَإِنَابَتَكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، وَعَفَا عَنْكُمْ لِإِيمَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ مِنْ قَضِيَّةِ الْإِفْكِ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وَهَذَا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيمَانٌ يَقْبَلُ اللهُ بِسَبَبِهِ التَّوْبَةَ ، كَمِسْطَحٍ وَحَسَّانَ وَحَمْنَةَ بِنْتِ جَحْشٍ أُخْتِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ وَأَضْرَابِهِ فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا وَلَا مَا يُعَارِضُهُ ، وَهَكَذَا شَأْنُ مَا يَرِدُ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ يَكُونُ مُطْلَقًا مَشْرُوطًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوَازِنُهُ أَوْ يُرَجَّحُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أَيْ : يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ ، يَقُولُ هَذَا سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ ، وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا . ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أَيْ : تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْنِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَحْسَبُونَ ذَلِكَ يَسِيرًا سَهْلًا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ لَمَا كَانَ هَيِّنًا ، فَكَيْفَ وَهِيَ زَوْجَةُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ؟ فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللهِ أَنْ يُقَالَ فِي زَوْجَةِ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مَا قِيلَ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغَارُ لِهَذَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُقَدِّرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ ، حَاشَا وَكَلَّا ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَزَوْجَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : « **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يَدْرِي مَا تَبْلُغُ ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** »[1] وَفِي رِوَايَةٍ « **لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا** » .

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

(١) البخاري (٦٤٧٨) ، ومسلم (٢٩٨٨) .

﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ آخَرُ بَعْدَ الْأَوَّلِ الْأَمْرُ بِالظَّنِّ خَيْرًا أَيْ : إِذَا ذُكِرَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْقَوْلِ فِي شَأْنِ الْخِيَرَةِ فَأَوْلَى يَنْبَغِي الظَّنُّ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَنْ لَا يُشْعِرَ نَفْسَهُ سِوَى ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنْ عَلِقَ بِنَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ - وَسْوَسَةً أَوْ خَيَالًا - فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ** »[1] ، **وَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أَيْ : مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَفَوَّهَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَلَا نَذْكُرَهُ لِأَحَدٍ ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : سُبْحَانَ اللهِ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى زَوْجَةِ رَسُولِهِ وَحَلِيلَةِ خَلِيلِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أَيْ : يَنْهَاكُمُ اللهُ مُتَوَعِّدًا أَنْ يَقَعَ مِنْكُمْ مَا يُشْبِهُ هَذَا ﴿ أَبَدًا ﴾ ، أَيْ : فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَشَرْعِهِ وَتُعَظِّمُونَ رَسُولَهُ ﷺ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِالْكُفْرِ فَلَهُ حُكْمٌ آخَرُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ أَيْ : يُوَضِّحُ لَكُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَالأَحْكَامَ الْقَدَرِيَّةَ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ .

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

هَذَا تَأْدِيبٌ ثَالِثٌ لِمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ فَقَامَ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ مِنْهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَلَا يُكْثِرُ مِنْهُ وَلَا يُشِيعُهُ وَيُذِيعُهُ ، **فَقَدْ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أَيْ : يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الْكَلَامِ عَنْهُمْ بِالْقَبِيحِ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أَيْ : بِالْحَدِّ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَيْهِ تَرْشُدُوا .

---

(١) البخاري (٢٥٢٨) ، ومسلم (١٢٧) .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لَوْلَا هَذَا لَكَانَ أَمْرٌ آخَرُ ، وَلَكِنَّهُ - تَعَالَى - رَءُوفٌ بِعِبَادِهِ رَحِيمٌ بِهِمْ ، فَتَابَ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَطَهَّرَ مَنْ طَهُرَ مِنْهُمْ بِالْحَدِّ الَّذِي أُقِيمَ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ يَعْنِي : طَرَائِقَهُ وَمَسَالِكَهُ وَمَا يَأْمُرُ بِهِ ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ هَذَا تَنْفِيرٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ ذَلِكَ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا وَأَوْجَزِهَا وَأَحْسَنِهَا ، ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ** : نَزَغَاتُهُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : كُلُّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، **وَقَالَ أَبُو مِجْلَزٍ** : النُّذُورُ فِي الْمَعَاصِي مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أَيْ : لَوْلَا هُوَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ ، وَيُزَكِّي النُّفُوسَ مِنْ شِرْكِهَا وَفُجُورِهَا وَدَنَسِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، لَمَا حَصَّلَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ زَكَاةً وَلَا خَيْرًا ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : مِنْ خَلْقِهِ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُرْدِيهِ فِي مَهَالِكِ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُم الْهُدَى وَالضَّلَالَ .

وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ مِنَ الْأَلِيَّةِ وَهِيَ الْحَلِفُ ، أَيْ : لَا يَحْلِفُ ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أَيْ : الطَّوْلِ وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أَيْ : الْجِدَةِ ﴿ أَن

يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لَا تَحْلِفُوا أَنْ لَا تَصِلُوا قَرَابَاتِكُمُ المَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعَطْفِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ أَيْ : عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَذَى . وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الصِّدِّيقِ ﷺ حِينَ حَلَفَ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحَ بْنَ أُثَاثَةَ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا ، بَعْدَمَا قَالَ فِي عَائِشَةَ مَا قَالَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ[1] فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ، وَطَابَتِ النُّفُوسُ الْمُؤْمِنَةُ وَاسْتَقَرَّتْ ، وَتَابَ اللهُ عَلَى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، وَأُقِيمَ الْحَدُّ عَلَى مَنْ أُقِيمَ عَلَيْهِ ، شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَلَهُ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - يُعَطِّفُ الصِّدِّيقَ عَلَى قَرِيبِهِ وَنَسِيبِهِ - وَهُوَ مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ - فَإِنَّهُ كَانَ ابْنَ خَالَةِ الصِّدِّيقِ ، وَكَانَ مِسْكِينًا لَا مَالَ لَهُ ، إِلَّا مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ﷺ ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله ، وَقَدْ وَلِقَ وَلْقَةً تَابَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْهَا ، وَضُرِبَ الْحَدُّ عَلَيْهَا . وَكَانَ الصِّدِّيقُ ﷺ مَعْرُوفًا بِالمَعْرُوفِ ، لَهُ الْفَضْلُ وَالْأَيَادِي عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الْآيَةُ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَكَمَا تَغْفِرُ ذَنْبَ مَنْ أَذْنَبَ إِلَيْكَ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، وَكَمَا تَصْفَحُ يُصْفَحُ عَنْكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الصِّدِّيقُ : بَلَى وَاللهِ إِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا يَا رَبَّنَا ، ثُمَّ رَجَّعَ إِلَى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنَ النَّفَقَةِ ، وَقَالَ : وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا ، فِي مُقَابَلَةِ مَا كَانَ قَالَ : وَاللهِ لَا أَنْفَعُهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا . فَلِهَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ هُوَ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ بِنْتِهِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

(١) وذلك في حديث الإفك الذي تقدم ذكره .

هَذَا وَعِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ، خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، فَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِالدُّخُولِ فِي هَذَا مِنْ كُلِّ مُحْصَنَةٍ ، وَلَا سِيَّمَا الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ النُّزُولِ وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بَعْدَ هَذَا وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ بَعْدَ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ كَافِرٌ ؛ لِأَنَّهُ مُعَانِدٌ لِلْقُرْآنِ ، وَفِي بَقِيَّةِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلَانِ : أَصَحُّهُمَا أَنَّهُنَّ كَهِيَ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . الْآيَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٧]

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ عُمُومَهَا **وَهُوَ الصَّحِيحُ** وَيَعْضُدُ الْعُمُومَ . مَا وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ** » قِيلَ : وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : « **الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** »[1].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[2] قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟** » قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « **مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَقُولُ : لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي ، فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وَبِالْكِرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ أَيْ حِسَابَهُمْ ، وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ دِينُهُمْ أَيْ : حِسَابُهُمْ ، كَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ . ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

(١) البخاري (٢٧٦٦) ، ومسلم (٨٩) .
(٢) مسلم (٢٩٦٩) .

ٱلْمُبِينُ﴾ أَيْ : وَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَحِسَابُهُ هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ .

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْخَبِيثَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الْقَوْلِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ الْقَوْلِ . قَالُوا : وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَةَ وَأَهْلِ الْإِفْكِ ، فَالْكَلَامُ الْقَبِيحُ أَوْلَى بِأَهْلِ الْقُبْحِ مِنَ النَّاسِ ، وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنَ النَّاسِ ، فَمَا نَسَبَهُ أَهْلُ النِّفَاقِ إِلَى عَائِشَةَ مِنْ كَلَامٍ هُمْ أَوْلَى بِهِ ، وَهِيَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : الْخَبِيثَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلْخَبِيثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ لِلطَّيِّبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَهَذَا أَيْضًا يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ أُولَئِكَ بِاللَّازِمِ ، أَيْ : مَا كَانَ اللهُ لِيَجْعَلَ عَائِشَةَ زَوْجَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَةٌ ؛ لِأَنَّهُ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ طَيِّبٍ مِنَ الْبَشَرِ ، وَلَوْ كَانَتْ خَبِيثَةً لَمَا صَلَحَتْ لَهُ لَا شَرْعًا وَلَا قَدَرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيْ : هُمْ بُعَدَاءُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْعُدْوَانِ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنَ الْكَذِبِ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أَيْ : عِنْدَ اللهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَفِيهِ وَعْدٌ بِأَنْ تَكُونَ زَوْجَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

هَذِهِ آدَابٌ شَرْعِيَّةٌ أَدَّبَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ فِي الاسْتِئْذَانِ ، أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا . أَيْ : يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ وَيُسَلِّمُوا بَعْدَهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثًا فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا انْصَرَفَ ، **كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ**(١) أَنَّ أَبَا مُوسَى حِينَ اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ انْصَرَفَ ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ : أَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ يَسْتَأْذِنُ ؟ ائْذَنُوا لَهُ ، فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ قَدْ ذَهَبَ ، فَلَمَّا جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ ، قَالَ : مَا أَرْجَعَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي ، وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ((**إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ**)) فَقَالَ عُمَرُ : لَتَأْتِيَنِي عَلَى هَذَا بِبَيِّنَةٍ وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا ، فَذَهَبَ إِلَى مَلَإٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَذَكَرَ لَهُمْ مَا قَالَ عُمَرُ ، فَقَالُوا : لَا يَشْهَدُ لَكَ إِلَّا أَصْغَرُنَا فَقَامَ مَعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ فَأَخْبَرَ عُمَرَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ .

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَأْذِنِ عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ أَنْ لَا يَقِفَ تِلْقَاءَ الْبَابِ بِوَجْهِهِ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ ، وَيَقُولُ : ((**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**))(٢). وَعَنْ هُزَيْلٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ - مُسْتَقْبِلَ الْبَابِ - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: ((**هَكَذَا عَنْكَ - أَوْ هَكَذَا - فَإِنَّمَا الاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ**))(٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**لَوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَخَذَفْتَهُ بِحَصَاةٍ ، فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ ، مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ**))(٤).

---

(١) البخاري (٦٢٤٥) ، ومسلم (٢١٥٣) .

(٢) إسناده صحيح لشواهده: وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٧٨ جـ ٢/ ٥١٣) ، وله شاهد عند أبي داود (٥/ ٣٦٧) .

(٣) صحيح لشواهد: وأخرجه أبو داود (٥/ ٣٦٧) رقم (٥١٧٤) ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((إِنَّمَا جُعِلَ الإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ)) .

(٤) البخاري (٦٩٠٢) ، ومسلم (٢١٥٨) .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي ، فَدَقَقْتُ الْبَابَ فَقَالَ : « مَنْ ذَا ؟ » فَقُلْتُ : أَنَا ، قَالَ : « أَنَا ، أَنَا ؟ » كَأَنَّهُ كَرِهَهُ(١). وَإِنَّمَا كَرِهَ ذَلِكَ ؛ لأَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ لَا يُعْرَفُ صَاحِبُهَا حَتَّى يُفْصِحَ بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَتِهِ الَّتِي هُوَ مَشْهُورٌ بِهَا ، وَإِلَّا فَكُلُّ أَحَدٍ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ بـ « أَنَا » فَلَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ مِنَ الاسْتِئْذَانِ الَّذِي هُوَ الاسْتِئْنَاسُ الْمَأْمُورُ بِهِ فِي الْآيَةِ ، قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : الاسْتِئْنَاسُ : الاسْتِئْذَانُ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ ﴾ قَالَ : إِنَّمَا هِيَ خَطَأٌ مِنَ الْكَاتِبِ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا .

وَعَنْ كَلَدَةَ بْنِ الْحَنْبَلِ أَنَّ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بَعَثَهُ فِي الْفَتْحِ بِلِبَأٍ وَجَدَايَةٍ وَضَغَابِيسَ وَالنَّبِيُّ ﷺ بِأَعْلَى الْوَادِي ، قَالَ : فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ أُسَلِّمْ وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ . فَقَالَ ﷺ : « ارْجِعْ فَقُلْ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، أَأَدْخُلُ ؟ » ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا أَسْلَمَ صَفْوَانُ(٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : ثَلَاثُ آيَاتٍ جَحَدَهُنَّ النَّاسُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] قَالَ وَيَقُولُونَ : إِنَّ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللهِ أَعْظَمُهُمْ بَيْتًا ، قَالَ : وَالإِذْنُ كُلُّهُ قَدْ جَحَدَهُ النَّاسُ قَالَ : قُلْتُ : أَيَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ أَخَوَاتِي أَيْتَامٌ فِي حِجْرِي مَعِي فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ لِيُرَخِّصَ لِي فَأَبَى ، فَقَالَ : تُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَاسْتَأْذِنْ ، قَالَ : فَرَاجَعْتُهُ أَيْضًا ، فَقَالَ : أَتُحِبُّ أَنْ تُطِيعَ اللهَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَاسْتَأْذِنْ(٣).

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : قُلْتُ لِعَطَاءٍ : أَيَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ ؟ قَالَ : لَا ، وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى عَدَمِ الْوُجُوبِ ، وَإِلَّا فَالْأَوْلَى أَنْ يُعْلِمَهَا بِدُخُولِهِ وَلَا يُفَاجِئَهَا بِهِ ، لاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَيْئَةٍ لَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا عَلَيْهَا . وَعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَ عَبْدُ اللهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَانْتَهَى إِلَى الْبَابِ تَنَحْنَحَ ، وَبَزَقَ كَرَاهَةَ أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى أَمْرٍ يَكْرَهُهُ . إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

---

(١) البخاري (٦٢٥٠) ، ومسلم (٢١٥٥) .

(٢) سنده حسن : وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤١٤) ، واللبأ : ما يحلب عند الولاءة ، والجداية : ما بلغ ستة أشهر أو سبعة أشهر من أولاد الظباء ذكرًا كان أو أنثى ، والضغابيس : صغار القثاء .

(٣) أخرج نحوه البخاري في الأدب المفرد (١٠٦٣) بسندٍ صحيح .

وَعَنْ أَبِي هُبَيْرَةَ قَالَ : كَانَ عَبْدُ الله إِذَا دَخَلَ الدَّارَ اسْتَأْنَسَ ، تَكَلَّمَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ قَالَ : تَنَحْنَحُوا أَوْ تَنَخَّمُوا . **وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ قَالَ** : إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ اُسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يَتَنَحْنَحَ أَوْ يُحَرِّكَ نَعْلَيْهِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا . وَفِي رِوَايَةٍ « **لِئَلَّا يَتَخَوَّنَهُمْ** » وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَهَارًا فَأَنَاخَ بِظَاهِرِهَا ، وَقَالَ : « **انْتَظِرُوا حَتَّى نَدْخُلَ عِشَاءً - يَعْنِي آخِرَ النَّهَارِ - حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ الْمُغِيبَةُ** »(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يَعْنِي : الاسْتِئْذَانُ خَيْرٌ لَكُمْ ، بِمَعْنَى هُوَ خَيْرٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ لِلْمُسْتَأْذِنِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقولُهُ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِ الْغَيْرِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، فَإِنْ شَاءَ أَذِنَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذَنْ ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أَيْ : إِذَا رَدُّوكُمْ مِنَ الْبَابِ قَبْلَ الْإِذْنِ أَوْ بَعْدَهُ ﴿ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أَيْ : رُجُوعُكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ : أَيْ : لَا تَقِفُوا عَلَى أَبْوَابِ النَّاسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَخَصُّ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَازَ الدُّخُولِ إِلَى الْبُيُوتِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، إِذَا كَانَ لَهُ مَتَاعٌ فِيهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كَالْبَيْتِ الْمُعَدِّ لِلضَّيْفِ إِذَا أُذِنَ لَهُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَفَى . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ثُمَّ نُسِخَ وَاسْتُثْنِيَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هِيَ بُيُوتُ التُّجَّارِ كَالْخَانَاتِ ، وَمَنَازِلُ الْأَسْفَارِ ، وَبُيُوتُ مَكَّةَ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَاخْتَارَ

---

(١) البخاري (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) ، ومسلم (٧١٥) .

(٢) البخاري (٥٢٤٧) .

ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ وَحَكَاهُ عَنْ جَمَاعَةٍ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ ، **وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ** : هِيَ بُيُوتِ الشِّعْرِ .

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، فَلَا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلَى مَا أَبَاحَ لَهُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُغْمِضُوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ ، فَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ الْبَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا . **كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجْلِيِّ** ﷺ **قَالَ** : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي(١) . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، لَا بُدَّ لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**)) . قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ - قَالَ : ((**غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ**))(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ((**مَنْ يَكْفُلْ لِي مَا بَيْنَ لَحَيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَكْفُلْ لَهُ الْجَنَّةَ**))(٣) ، وَلَمَّا كَانَ النَّظَرُ دَاعِيَةً إِلَى فَسَادِ الْقَلْبِ ، **كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ** : النَّظَرُ سَهْمٌ سُمٌّ إِلَى الْقَلْبِ . وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الْأَبْصَارِ الَّتِي هِيَ بَوَاعِثُ إِلَى ذَلِكَ **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ وَحِفْظُ الْفَرْجِ تَارَةً يَكُونُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزِّنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥] ، وَتَارَةً يَكُونُ بِحِفْظِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ((**احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**))(٤).

(١) مسلم (٢١٥٩) .
(٢) البخاري (٢٤٦٥) ، ومسلم (٢١٢١) .
(٣) البخاري (حديث ٦٤٧٤) .
(٤) حسن : أخرجه أبو داود (٤١٠٧) ، والترمذي (٢٧٦٩) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أَيْ : أَطْهَرُ لِقُلُوبِهِمْ وَأَتْقَى لِدِينِهِمْ ، كَمَا قِيلَ : مَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْرَثَهُ اللهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ ، وَيُرْوَى : فِي قَلْبِهِ . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر : ١٩] ، وَفِي الصَّحِيحِ[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ ، وَزِنَا اللِّسَانِ النُّطْقُ ، وَزِنَا الْأُذُنَيْنِ الاسْتِمَاعُ ، وَزِنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ ، وَزِنَا الرِّجْلَيْنِ الْخُطَى ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ**)) .

وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ أَنْ يُحِدَّ الرَّجُلُ نَظَرَهُ إِلَى الْأَمْرَدِ ، وَقَدْ شَدَّدَ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، وَحَرَّمَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِمَا فِيهِ مِنَ الِافْتِتَانِ ، وَشَدَّدَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا جِدًّا .

وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَغَيْرَةٌ مِنْهُ لِأَزْوَاجِهِنَّ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَمْيِيزٌ لَهُنَّ عَنْ صِفَةِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِعَالِ الْمُشْرِكَاتِ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ أَيْ : عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ ؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ : لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ النَّظَرُ إِلَى الرِّجَالِ

(١) البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) .

الْأَجَانِبِ بِشَهْوَةٍ ، وَلَا بِغَيْرِ شَهْوَةٍ أَصْلًا ، وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ نَظَرِهِنَّ إِلَى الْأَجَانِبِ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ يَوْمَ الْعِيدِ فِي الْمَسْجِدِ وَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ يَسْتُرُهَا مِنْهُمْ حَتَّى مَلَّتْ وَرَجَعَتْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ **قِيلَ** : عَنِ الْفَوَاحِشِ ، **وَقِيلَ** : عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ ، **وَقِيلَ** : عَنِ الزِّنَا . ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أَيْ : لَا يُظْهِرْنَ شَيْئًا مِنَ الزِّينَةِ لِلْأَجَانِبِ ، إِلَّا مَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ ، **قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ** : كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَابِ ، يَعْنِي : عَلَى مَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ نِسَاءُ الْعَرَبِ مِنَ الْمِقْنَعَةِ الَّتِي تُجَلِّل ثِيَابَهَا ، وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسَافِلِ الثِّيَابِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِيهِ ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُهَا إِخْفَاؤُهُ ، وَنَظِيرُهُ فِي زِيِّ النِّسَاءِ مَا يَظْهَرُ مِنْ إِزَارِهَا وَمَا لَا يُمْكِنُ إِخْفَاؤُهُ .

وَرُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قَالَ : وَجْهُهَا وَكَفَّيْهَا وَالْخَاتَمُ[2]. وَرُوِي نَحْوُهُ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِلزِّينَةِ الَّتِي نُهِينَ عَنْ إِبْدَائِهَا ، **كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الزِّينَةُ : الْقُرْطُ وَالدُّمْلُوجُ وَالْخَلْخَالُ وَالْقِلَادَةُ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ** : الزِّينَةُ زِينَتَانِ : فَزِينَةٌ لَا يَرَاهَا إِلَّا الزَّوْجُ : الْخَاتَمُ وَالسِّوَارُ ، وَزِينَةٌ يَرَاهَا الْأَجَانِبُ وَهِيَ : الظَّاهِرُ مِنَ الثِّيَابِ[3]. **وَقَالَ مَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ** : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ الْخَاتَمُ وَالْخَلْخَالُ . وَيُحْتَمَلُ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ - وَمَنْ تَابَعَهُ - أَرَادُوا تَفْسِيرَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا بِالْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : الْمَقَانِعُ يُعْمَلُ لَهَا صِنِفَاتٌ ضَارِبَاتٌ عَلَى صُدُورِهِنَّ لِتُوَارِي مَا تَحْتَهَا مِنْ صَدْرِهَا وَتَرَائِبِهَا ، لِيُخَالِفْنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسَفِّحَةً بِصَدْرِهَا لَا يُوَارِيهِ شَيْءٌ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَتْ عُنُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرِطَةَ

---

(١) البخاري (حديث ٤٥٤) ، ومسلم (حديث ٨٩٢) .

(٢) في أسانيد ذلك كله مقال ، وانظرها إن شئت في تفسير الطبري .

(٣) صحيح : عن ابن مسعود ، وانظر الطبري (١٨/ ٩٢) .

آذانها ، فأَمَرَ اللهُ المُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ وَالْخُمُرُ : جَمْعُ خِمَارٍ وَهُوَ مَا يُخَمَّرُ بِهِ ، أَيْ : يُغَطَّى بِهِ الرَّأْسُ ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاسُ المَقَانِعَ . **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ وَلْيَشْدُدْنَ ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : عَلَى النَّحْرِ وَالصَّدْرِ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : يَرْحَمُ اللهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الْأُوَلِ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا(١) . **وَعَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - كَانَتْ تَقُولُ** : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أَخَذْنَ أُزُرَهُنَّ فَشَقَقْنَهَا مِنْ قِبَلِ الْحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ أَيْ : أَزْوَاجِهِنَّ ﴿ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ ﴾ كُلُّ هَؤُلَاءِ مَحَارِمُ لِلْمَرْأَةِ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِمْ بِزِينَتِهَا وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ تَبَرُّجٍ . ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : تَظْهَرُ بِزِينَتِهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ المُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لِئَلَّا تَصِفهُنَّ لِرِجَالِهِنَّ ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ، فَأَمَّا المُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزَجِرُ عَنْهُ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا تُبَاشِرُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ ، تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا**))(٣).

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ قَالَ : نِسَاؤُهُنَّ المُسْلِمَاتُ لَيْسَ المُشْرِكَاتُ مِنْ نِسَائِهِنَّ ، وَلَيْسَ لِلْمَرْأَةِ المُسْلِمَةِ أَنْ تَنْكَشِفَ بَيْنَ يَدَيْ مُشْرِكَةٍ .

وَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْتَ

---

(١) البخاري (حديث ٤٧٥٨) .

(٢) البخاري (حديث ٤٧٥٩) .

(٣) البخاري (٥٢٤٠) .

الْمَقْدِسِ كَانَ قَوَابِلُ نِسَائِهِم الْيَهُودِيَّاتُ وَالنَّصْرَانِيَّاتُ ، فَهَذَا إِنْ صَحَّ فَمَحْمُولٌ عَلَى حَالِ الضَّرُورَةِ ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الامْتِهَانِ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ كَشْفُ عَوْرَةٍ وَلَا بُدَّ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : يَعْنِي مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تُظْهِرَ زِينَتَهَا لَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً ؛ لأَنَّهَا أَمَتُهَا ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ ابْنُ الْمُسَيِّبِ . **وَقَالَ الأَكْثَرُونَ** : بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بِعَبْدٍ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا ، قَالَ : وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ إِذَا قَنَّعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلْقَى قَالَ : ((**إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ**))[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ يَعْنِي : كَالأُجَرَاءِ وَالأَتْبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاء ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ وَلَهٌ وَخَوَثٌ ، وَلَاهَمَّ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهُونَهُنَّ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْمُغَفَّلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الأَبْلَهُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْمُخَنَّثُ الَّذِي لَا يَقُومُ ذَكَرُهُ ، **وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** ، **عَنْ عَائِشَةَ**[٢] أَنَّ مُخَنَّثًا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً يَقُولُ . إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَعٍ وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَهُنَا ، لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ**)) فَأَخْرَجَهُ ، فَكَانَ بِالْبَيْدَاءِ يَدْخُلُ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ لِيَسْتَطْعِمَ .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهَا مُخَنَّثٌ ، وَعِنْدَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ - يَعْنِي أَخَاهَا - وَالْمُخَنَّثُ يَقُولُ : يَا عَبْدَ اللهِ إِنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمُ الطَّائِفَ غَدًا فَعَلَيْكَ بِابْنَةِ غَيْلَانَ فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ ، قَالَ : فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِأُمِّ سَلَمَةَ : ((**لَا يَدْخُلَنَّ هَذَا عَلَيْكِ**))[٣].

---

(١) **إسناده حسن** : وقد أخرجه أبو داود (٤١٠٦) .
(٢) مسلم (٢١٨١) .
(٣) البخاري (٥٢٣٥) ، ومسلم (٢١٨٠) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ يَعْنِي : لِصِغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ النِّسَاءِ وَعَوْرَاتِهِنَّ مِنْ كَلَامِهِنَّ الرَّخِيمِ ، وَتَعَطُّفِهِنَّ فِي الْمِشْيَةِ ، وَحَرَكَاتِهِنَّ وَسَكَنَاتِهِنَّ ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْلُ صَغِيرًا لَا يَفْهَمُ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاءِ ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُرَاهِقًا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ ، بِحَيْثُ يَعْرِفُ ذَلِكَ وَيَدْرِيهِ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّوْهَاءِ وَالْحَسْنَاءِ فَلَا يُمَكَّنُ مِنَ الدُّخُولِ عَلَى النِّسَاءِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ** » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ ؟ قَالَ : « **الْحَمْوُ الْمَوْتُ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ . كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي رِجْلِهَا خَلْخَالٌ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ ، ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ فَيَسْمَعُ الرِّجَالُ طَنِينَهُ ، فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتُورًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِتُظْهِرَ مَا هُوَ خَفِيٌّ دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إِلَى آخِرِهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا تَنْتَهِي عَنِ التَّعَطُّرِ وَالتَّطَيُّبِ عِنْدَ خُرُوجِهَا مِنْ بَيْتِهَا لِيَشْتَمَّ الرِّجَالُ طِيبَهَا . عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا** »(٢) يَعْنِي زَانِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : افْعَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَلِيلَةِ ، وَاتْرُكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ الرَّذِيلَةِ ، فَإِنَّ الْفَلَاحَ كُلَّ الْفَلَاحِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَتَرْكُ مَا نَهَيَا عَنْهُ وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَعَانُ .

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا

---

(١) البخاري (٥٢٣٢) ، ومسلم (٢١٧٢) .

(٢) سنده حسن : وأخرجه أحمد (٤/ ٤١٤) .

مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ الْمُبِينَةُ عَلَى جُمَلٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالْأَوَامِرِ الْمُبْرَمَةِ ،فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهِ هَذَا أَمْرٌ بِالتَّزْوِيجِ . وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وُجُوبِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ، وَاحْتَجُّوا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ ﷺ : ((**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**))(١) ، وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ ، تَنَاسَلُوا فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))(٢) ، وَفِي رِوَايَةٍ ((**حَتَّى بِالسِّقْطِ**)) .

وَ ﴿ ٱلْأَيَـٰمَىٰ ﴾ جَمْعُ أَيِّمٍ ، وَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي لَا زَوْجَ لَهَا ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي لَا زَوْجَةَ لَهُ ، وَسَوَاءٌ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ أَوْ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا ، حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ عَنْ أَهْلِ اللُّغَةِ ، **يُقَالُ** : رَجُلٌ أَيِّمٌ وَامْرَأَةٌ أَيِّمٌ أَيْضًا .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ ، النَّاكِحُ يُرِيدُ الْعَفَافَ ، وَالْمُكَاتَبُ يُرِيدُ الْأَدَاءَ ، وَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ**))(٣) وَقَدْ زَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارَهُ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَاتَمٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَمَعَ هَذَا فَزَوَّجَهُ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ وَجَعَلَ صَدَاقَهَا عَلَيْهِ أَنْ يُعَلِّمَهَا مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ . وَالْمَعْهُودُ مِنْ كَرَمِ اللهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ أَنْ يَرْزُقَهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ لَهَا وَلَهُ ، وَأَمَّا مَا يُورِدُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى أَنَّهُ حَدِيثٌ ((تَزَوَّجُوا فُقَرَاءَ يُغْنِكُمُ اللهُ)) فَلَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ أَرَهُ

---

(١) البخاري (٥٠٦٥) ، ومسلم (١٤٠٠) .

(٢)صحيح : أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) ، وغيره .

(٣)حسن : أخرجه الترمذي (١٦٥٥) .

بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ وَلَا ضَعِيفٍ إِلَى الْآنِ ، وَفِي الْقُرْآنِ غُنْيَةٌ عَنْهُ ، وَكَذَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ الله تَعَالَى لِمَنْ لَا يَجِدْ تَزْوِيجًا بِالتَّعَفُّفِ عَنِ الْحَرَامِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : ((**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**))[1] وَهَذِهِ الْآيَةُ مُطْلَقَةٌ وَالَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ أَخَصُّ مِنْهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] أَيْ : صَبْرُكُمْ عَنْ تَزَوُّجِ الْإِمَاءِ خَيْرٌ لَكُمْ ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ يَجِيءُ رَقِيقًا **قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ **قَالَ** : هُوَ الرَّجُلُ يَرَى الْمَرْأَةَ فَكَأَنَّهُ يَشْتَهِي ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَذْهَبْ إِلَيْهَا وَلْيَقْضِ حَاجَتَهُ مِنْهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ امْرَأَةٌ فَلْيَنْظُرْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى يُغْنِيَهُ اللهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ هَذَا أَمْرٌ مِنَ الله تَعَالَى لِلسَّادَةِ ، إِذَا طَلَبَ عَبِيدُهُمْ مِنْهُمُ الْكِتَابَةَ أَنْ يُكَاتِبُوهُمْ ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ حِيلَةٌ وَكَسْبٌ يُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الْمَالَ الَّذِي شَارَطَهُ عَلَى أَدَائِهِ ، **وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى** : أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرُ إِرْشَادٍ وَاسْتِحْبَابٍ لَا أَمْرَ تَحَتُّمٍ وَإِيجَابٍ ، بَلِ السَّيِّدُ مُخَيَّرٌ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْدُهُ الْكِتَابَةَ إِنْ شَاءَ كَاتَبَهُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُكَاتِبْهُ . **وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى** : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْدُهُ ذَلِكَ أَنْ يُجِيبَهُ إِلَى مَا طَلَبَ أَخْذًا بِظَاهِرِ هَذَا الْأَمْرِ ، **عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ** : قُلْتُ لِعَطَاءٍ : أَوَاجِبٌ عَلَيَّ إِذَا عَلِمْتُ لَهُ مَالًا أَنْ أُكَاتِبَهُ ؟ قَالَ : مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا . **وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** أَنَّ سِيرِينَ أَرَادَ أَنْ يُكَاتِبَهُ فَتَلَكَّأَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَتُكَاتِبَنَّهُ[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : أَمَانَةً ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : صِدْقًا

---

(١) صحيح : وقد تقدم قريبًا .

(٢) أخرج ذلك الطبري بإسناد صحيح .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَالًا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حِيلَةً وَكَسْبًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهِ : فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَاهُ اطْرَحُوا لَهُمْ مِنَ الْكِتَابَةِ بَعْضَهَا ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ : مِقْدَارُ الرُّبْعِ ، وَقِيلَ : الثُّلُث ، وَقِيلَ : النِّصْفُ ، وَقِيلَ : جُزْءٌ مِنَ الْكِتَابَةِ مِنْ غَيْرِ حَدٍّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ هُوَ النَّصِيبُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ قَالَ : ضَعُوا عَنْهُمْ مُكَاتَبَتَهُمْ وَبِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ يَعْنِي : الزِّنَا . وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ أَمَةٌ أَرْسَلَهَا تَزْنِي ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا ضَرِيبَةً يَأْخُذُهَا مِنْهَا كُلَّ وَقْتٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ نَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ - فِيمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ - فِي شَأْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَهُ إِمَاءٌ ، فَكَانَ يُكْرِهُهُنَّ عَلَى الْبِغَاءِ ؛ طَلَبًا لِخَرَاجِهِنَّ ، وَرَغْبَةً فِي أَوْلَادِهِنَّ ، وَرِيَاسَةً مِنْهُ فِيمَا يَزْعُمُ . عَنْ جَابِرٍ قَالَ[1] : كَانَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولٍ جَارِيَةٌ يُقَالُ لَهَا : مُسَيْكَةُ ، وَكَانَ يُكْرِهُهَا عَلَى الْبِغَاءِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ . ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مِنْ خَرَاجِهِنَّ وَمُهُورِهِنَّ وَأَوْلَادِهِنَّ ، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كَسْبِ الْحَجَّامِ ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ[2] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ : لَهُنَّ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ اللهَ لَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَإِثْمُهُنَّ عَلَى مَنْ أَكْرَهَهُنَّ . وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي : الْخَطَأُ ،

---

(١) انظر مسلم في كتاب التفسير (٤ : ١) .

(٢) البخاري (حديث ٢٢٣٧) ، ومسلم (١٥٦٧) .

وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اُسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))(١). وَلَمَّا فَصَّلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَهَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ فِي آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ مُفَسِّرَاتٍ ﴿ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أَيْ : خَبَرًا عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] أَيْ : زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَيْ : لِمَنِ اتَّقَى اللهَ وَخَافَهُ .

۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قَالَ : هَادِي أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، **وَقِيلَ** : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِيهِمَا ، نُجُومَهُمَا وَشَمْسَهُمَا وَقَمَرَهُمَا ، **وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ** : إِنَّ اللهَ يَقُولُ نُورِي هُدًى . **وَرُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ قَالَ : هُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي جَعَلَ اللهُ الْإِيمَانَ وَالْقُرْآنَ فِي صَدْرِهِ ، فَضَرَبَ اللهُ مَثَلَهُ فَقَالَ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فَبَدَأَ بِنُورِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ نُورَ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ : مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، قَالَ : فَكَانَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ يَقْرَؤُهَا : ((**مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِهِ**)) فَهُوَ الْمُؤْمِنُ جَعَلَ الْإِيمَانَ وَالْقُرْآنَ فِي صَدْرِهِ ، **وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ** : (مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(٢) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ : ((**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ**

(١) صحيح لشواهده: وإن كان في عموم أسانيده مقال لكن له شواهد يصح بها معناه ، والله أعلم .
(٢) البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (٦/ ٥٤ مع النووي) حديث (٧٦٩) .

أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » الْحَدِيثُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الله ﷻ أَيْ : مَثَلُ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ – قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ – كَمِشْكَاةٍ . **وَالثَّانِي** : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ ، تَقْدِيرُهُ : مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ كَمِشْكَاةٍ ، فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ وَمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَمَا يَتَلَقَّاهُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُطَابِقِ لِمَا هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : ١٧]فَشَبَّهَ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ فِي صَفَائِهِ فِي نَفْسِهِ بِالْقِنْدِيلِ مِنَ الزُّجَاجِ الشَّفَّافِ الْجَوْهَرِيِّ ، وَمَا يَسْتَهْدِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالشَّرْعِ بِالزَّيْتِ الْجَيِّدِ الصَّافِي الْمُشْرِقِ الْمُعْتَدِلِ الَّذِي لَا كَدَرَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هُوَ مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقِنْدِيلِ ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْمِشْكَاةُ : الْكُوَّةُ الَّتِي لَا مَنْفَذَ لَهَا ، **وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَوْلَى** ، **وَهُوَ** : أَنَّ الْمِشْكَاةَ هُوَ مَوْضِعُ الْفَتِيلَةِ مِنَ الْقِنْدِيلِ ، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي فِي الذُّبَالَةِ .

﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ أَيْ : هَذَا الضَّوْءُ مُشْرِقٌ فِي زُجَاجَةٍ صَافِيَةٍ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : وَهِيَ نَظِيرُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ .

﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِضَمِّ الدَّالِ مِنْ غَيْرِ هَمْزَةٍ مِنَ الدُّرِّ ، أَيْ : كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ مِنْ دُرٍّ . وَقَرَأَ آخَرُونَ : دُرِّيء ، وَدِرِّيء بِكَسْرِ الدَّالِ وَضَمِّهَا مَعَ الْهَمْزَةِ مِنَ الدَّرْءِ : وَهُوَ الدَّفْعُ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّجْمَ إِذَا رُمِيَ بِهِ يَكُونُ أَشَدَّ اسْتِنَارَةٍ مِنْ سَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي مَا لَا يُعْرَفُ مِنَ الْكَوَاكِبِ دَرَارِيَّ ، **وَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ** : كَوْكَبٌ مُضِيءٌ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مُضِيءٌ مُبِينٌ ضَخْمٌ ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ أَيْ : يُسْتَمَدُّ مِنْ زَيْتِ زَيْتُونِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ فِي شَرْقِيِّ بُقْعَتِهَا فَلَا تَصِلُ إِلَيْهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ، وَلَا فِي غَرْبِهَا فَيَتَقَلَّصُ عَنْهَا الْفَيْءُ قَبْلَ الْغُرُوبِ ، بَلْ هِيَ فِي مَكَانٍ وَسَطٍ تَفْرَعُهَا الشَّمْسُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ، إِلَى آخِرِهِ ، فَيَجِيءُ زَيْتُهَا صَافِيًا مُعْتَدِلًا مُشْرِقًا . **عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ **قَالَ** : هُوَ أَجْوَدُ الزَّيْتِ ، **قَالَ** : إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ أَصَابَتْهَا مِنْ صَوْبِ

الْمَشْرِقِ ، فَإِذَا أَخَذَتْ فِي الْغُرُوبِ أَصَابَتْهَا الشَّمْسُ ، فَالشَّمْسُ تُصِيبُهَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، فَتِلْكَ لَا تُعَدُّ شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً . **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أَنَّهَا فِي وَسَطِ الشَّجَرِ لَيْسَتْ بَادِيَةً لِلْمَشْرِقِ وَلَا لِلْمَغْرِبِ .

وَأَوْلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ أَنَّهَا فِي مُسْتَوَى مِنَ الْأَرْضِ فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ بَادٍ ظَاهِرٍ ضَاحٍ لِلشَّمْسِ ، تَقْرَعُهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَصْفَى لِزَيْتِهَا وَأَلْطَفُ ، كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ تَقَدَّمَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَا** : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ **قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : يَعْنِي : كَضَوْءِ إِشْرَاقِ الزَّيْتِ . ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي بِذَلِكَ إِيمَانُ الْعَبْدِ وَعَمَلُهُ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي نُورُ النَّارِ وَنُورُ الزَّيْتِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ النُّورِ : فَكَلَامُهُ نُورٌ ، وَعَمَلُهُ نُورٌ ، وَمَدْخَلُهُ نُورٌ ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ ، وَمَصِيرُهُ إِلَى النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قَالَ : نُورُ النَّارِ وَنُورُ الزَّيْتِ حِينَ اجْتَمَعَا أَضَاءَا ، وَلَا يُضِيءُ وَاحِدٌ بِغَيْرِ صَاحِبِهِ ، كَذَلِكَ نُورُ الْقُرْآنِ وَنُورُ الْإِيمَانِ حِينَ اجْتَمَعَا ، فَلَا يَكُونُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُرْشِدُ اللهُ إِلَى هِدَايَتِهِ مَنْ يَخْتَارُهُ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ ﷻ** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى هَذَا مَثَلًا لِنُورِ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ خَتَمَ الْآيَةَ **بِقَوْلِهِ** : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ .

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ

(١) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) ، وقال : هذا حديث حسن ، وأخرجه أيضًا أحمد (٢/ ١٧٦ ، ١٩٧) ، وغيرهما .

وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

لَمَّا ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلَ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ بِالْمِصْبَاحِ فِي الزُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ الْمُتَوَقِّدِ مِنْ زَيْتٍ طَيِّبٍ ، وَذَلِكَ كَالْقِنْدِيلِ مَثَلًا ، ذَكَرَ مَحَلَّهَا وَهِيَ الْمَسَاجِدُ الَّتِي هِيَ أَحَبُّ الْبِقَاعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ بُيُوتُهُ الَّتِي يُعْبَدُ فِيهَا وَيُوَحَّدُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ ﴾ أَيْ : أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِتَعَاهُدِهَا وَتَطْهِيرِهَا مِنَ الدَّنَسِ وَاللَّغْوِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيقُ فِيهَا ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَاحْتِرَامِهَا وَتَوْقِيرِهَا وَتَطْيِيبِهَا وَتَبْخِيرِهَا ، وَذَلِكَ لَهُ مَحَلٌّ مُفْرَدٌ يُذْكَر فِيهِ ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي ذَلِكَ جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ . وَنَحْنُ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى نَذْكُرُ هُنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ .

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ بَنَى اللهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ**))(١).

وَقَالَ الْبُخَارِي(٢) : قَالَ عُمَر : ابْنِ لِلنَّاسِ مَا يُكِنُّهُمْ مِنَ الْمَطَرِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتَفْتِنِ النَّاسَ . **وَعَنْ بُرَيْدَةَ** أَنَّ رَجُلًا أَنْشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ : مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**لَا وَجَدْتَ ، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ**))(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا : لَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ**))(٤).

أَمَّا أَنَّهُ لَا يُتَّخَذُ طَرِيقًا فَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُرُورَ فِيهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ إِذَا وَجَدَ مَنْدُوحَةً عَنْهُ وَفِي الْأَثَرِ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَتَعَجَّبُ مِنَ الرَّجُلِ يَمُرُّ بِالْمَسْجِدِ لَا يُصَلِّي فِيهِ **وَأَمَّا أَنَّهُ لَا يُشْهَرُ فِيهِ السِّلَاحُ وَلَا يُنْبَضُ فِيهِ بِقَوْسٍ وَلَا يُنْثَرُ فِيهِ نَبْلٌ** فَلِمَا يُخْشَى مِنْ

(١) صحيح متواتر : وأخرجه التجاري (حديث ٤٥٠) ، ومسلم (حديث ٥٣٣) .
(٢) البخاري مع الفتح (١ / ٥٣٩) قبل حديث (٤٤٦) .
(٣) أخرجه مسلم (حديث ٥٦٩) .
(٤) إسناده حسن : وأخرجه الترمذي (حديث ١٣٢١) .

إِصَابَةِ بَعْضِ النَّاسِ بِهِ لِكَثْرَةِ الْمُصَلِّينَ فِيهِ وَلِهَذَا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا مَرَّ رَجُلٌ بِسِهَامٍ أَنْ يَقْبِضَ عَلَى نِصَالِهَا لِئَلَّا يُؤْذِي أَحَدًا كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ[١].

وَأَمَّا أَنَّهُ لَا يُتَّخَذُ سُوقًا ، فَلِمَا تَقَدَّمَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ اللهِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ فِي طَائِفَةِ الْمَسْجِدِ ((**إِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا ، إِنَّمَا بُنِيَتْ لِذِكْرِ اللهِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا**))[٢] ، ثُمَّ أَمَرَ بِسَجْلٍ مِنْ مَاءٍ فَأُهْرِيقَ عَلَى بَوْلِهِ .

عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ الْكِنْدِيِّ قَالَ[٣] : كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ : اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ فَجِئْتُهُ بِهِمَا فَقَالَ مَنْ أَنْتُمَا ؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا ؟ قَالَا مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ . قَالَ : لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ . وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلَاةَ**))[٤].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَقُولُ : ((**أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**))[٥] قَالَ : أَقَطُّ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ، قَالَ الشَّيْطَانُ : حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ . وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ أَوْ أَبِي أُسَيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ . وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ :**

---

(١) مسلم (٢٦١٤ ، ٢٦١٥) .

(٢) مسلم (حديث ٢٨٥) .

(٣) البخاري (٤٧٠) .

(٤) البخاري (٦٤٧) ، واللفظ له ، ومسلم (٦٤٩) .

(٥) إسناده حسن : وقد أخرجه أبو داود (١/ ٣١٨) .

اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ))(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ أَيْ : اسْمُ الله كَقَوْلِهِ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ .

[الجن : ١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : يُتْلَى فِيهَا كِتَابُهُ . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾ أَيْ : فِي الْبُكُرَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ . وَالْآصَالُ : جَمْعُ أَصِيلٍ وَهُوَ آخِرُ النَّهَارِ . **وَقِيلَ** : يَعْنِي بِالْغُدُوِّ : صَلَاةُ الْغَدَاةِ ، وَيَعْنِي بِالْآصَالِ : صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَهُمَا أَوَّلُ مَا افْتَرَضَ اللهُ مِنَ الصَّلَاةِ فَأَحَبَّ أَنْ يَذْكُرَهُمَا وَأَنْ يُذَكِّرَ بِهِمَا عِبَادَهُ .

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمِهِمُ السَّامِيَةِ ، وَنِيَّاتِهِمْ وَعَزَائِمِهِمْ الْعَالِيَةِ ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ اللهِ فِي أَرْضِهِ وَمَوَاطِنِ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣]

وَأَمَّا النِّسَاءُ فَصَلَاتُهُنَّ فِي بُيُوتِهِنَّ أَفْضَلُ . عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا**))(٢).

هَذَا وَيَجُوزُ لَهَا شُهُودُ جَمَاعَةِ الرِّجَالِ بِشَرْطِ أَنْ لَا تُؤْذِي أَحَدًا مِنَ الرِّجَالِ بِظُهُورِ زِينَةٍ وَلَا رِيحٍ طِيبٍ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله**))(٣) وَفِي رِوَايَةٍ : ((**وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**)) وَفِي رِوَايَةٍ ((**وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ**))(٤) أَيْ : لَا رِيحَ لَهُنَّ .

وَعَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَتْ : قَالَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ : ((**إِذَا شَهِدَتْ**

---

(١) مسلم (٧١٣) .

(٢) صحيح لشواهده : أخرجه أبو داود (حديث ٥٧٠) ، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٩٥) ، وغيرهما .

(٣) البخاري (حديث ٩٠٠) ، ومسلم (حديث ٤٤٢) .

(٤) صحيح لغيره : وأخرجه أحمد (٢/ ٤٣٨) ، وأبو داود (٥٦٥) .

إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طِيبًا))[١] .

وَعَنْ عَائِشَةَ[٢] - **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا** - **أَنَّهَا قَالَتْ** : كَانَ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يَشْهَدْنَ الْفَجْرَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ يَرْجِعْنَ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ[٣] **عَنْهَا أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ** : لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ مِنَ الْمَسَاجِدِ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون : ٩] ، يَقُولُ تَعَالَى : لَا تَشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا وَزِينَتُهَا وَمَلَاذُّ بَيْعِهَا وَرِبْحِهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ ، وَالَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَنْفَعُ مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ ؛ لأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ أَيْ : يُقَدِّمُونَ طَاعَتَهُ وَمُرَادَهُ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مُرَادِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ . **قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ الْأَعْوَرُ** : كُنْتُ مَعَ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَنَحْنُ نُرِيدُ الْمَسْجِدَ فَمَرَرْنَا بِسُوقِ الْمَدِينَةِ وَقَدْ قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَخَمَّرُوا مَتَاعَهُمْ ، فَنَظَرَ سَالِمٌ إِلَى أَمْتِعَتِهِمْ لَيْسَ مَعَهَا أَحَدٌ ، فَتَلَا سَالِمٌ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ : هُمْ هَؤُلَاءِ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : لَا تُلْهِيهِمُ التِّجَارَةُ وَالْبَيْعُ أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَعَظَمَةِ الْأَهْوَالِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢]

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ أَيْ : هَٰؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ حَسَنَاتِهِمْ وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : يَتَقَبَّلُ مِنْهُمُ الْحَسَنَ

(١) أخرجه مسلم (٤٤٣) .
(٢) البخاري (٥٧٨) ، ومسلم (ص ٤٤٦) .
(٣) البخاري (حديث ٨٦٩) ، ومسلم (٤٤٥) .

وَيُضَاعِفُهُ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[الأنعام : ١٦٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾[البقرة : ٢٦١] ، **وَقَالَ هَهُنَا** ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هَذَانِ مَثَلَانِ ضَرَبَهُمَا اللهُ تَعَالَى لِنَوْعَي الْكُفَّارِ كَمَا ضَرَبَ لِلْمُنَافِقِينَ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ[1] مَثَلَيْنِ نَارِيًّا وَمَائِيًّا ، وَكَمَا ضَرَبَ لِمَا يَقَرُّ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ[2] مَثَلَيْنِ مَائِيًّا وَنَارِيًّا ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِهِ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ . **فَأَمَّا الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ** فَهُوَ لِلْكُفَّارِ الدُّعَاةِ إِلَى كُفْرِهِمْ ، الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالاعْتِقَادَاتِ وَلَيْسُوا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ عَلَى شَيْءٍ ، فَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي الْقِيعَانِ مِنَ الْأَرْضِ عَنْ بُعْدٍ كَأَنَّهُ بَحْرٌ طَامٌّ ، وَالْقِيعَةُ جَمْعُ قَاعٍ كَجَارٍ وَجِيرَةٍ ، وَالْقَاعُ أَيْضًا وَاحِدُ الْقِيعَانِ ، كَمَا يُقَالُ : جَارٌ وَجِيرَانٌ ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْمُتَّسِعَةُ الْمُنْبَسِطَةُ ، وَفِيهِ يَكُونُ السَّرَابُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ نِصْفِ النَّهَارِ ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّمَا يَكُونُ أَوَّلَ النَّهَارِ يُرَى كَأَنَّهُ مَاءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا رَأَى السَّرَابَ مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَاءِ يَحْسَبُهُ مَاءً قَصَدَهُ لِيَشْرَبَ مِنْهُ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَنَّهُ قَدْ حَصَّلَ شَيْئًا ، فَإِذَا وَافَى اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسَبَهُ عَلَيْهَا وَنُوقِشَ عَلَى أَفْعَالِهِ لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئًا بِالْكُلِّيَّةِ قَدْ قُبِلَ ، إِمَّا لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ أَوْ لِعَدَمِ سُلُوكِ الشَّرْعِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً

(١) الآيات : (١٧ - ٢٠).
(٢) الآية : (١٧) .

مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) أَنَّهُ يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْيَهُودِ : « **مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله . فَيُقَالُ : كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، مَاذَا تَبْغُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ عَطِشْنَا فَاسْقِنَا ، فَيُقَالُ : أَلَا تَرَوْنَ ؟ فَتُمَثَّلُ لَهُمُ النَّارُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يُحَطِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَنْطَلِقُونَ فَيَتَهَافَتُونَ فِيهَا** » ، وَهَذَا الْمِثَالُ مِثَالٌ لِذَوِي الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ ، فَأَمَّا أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَهُمُ الطَّمَاطِمُ الْأَغْشَامُ الْمُقَلِّدُونَ لِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ ، الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، فَمِثْلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : وهُوَ الْعَمِيقُ ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ أَيْ : لَمْ يُقَارِبْ رُؤْيَتَهَا مِنْ شِدَّةِ الظَّلَامِ ، فَهَذَا مَثَلُ قَلْبِ الْكَافِرِ الْجَاهِلِ الْبَسِيطِ الْمُقَلِّدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَينَ يَذْهَبُ وَلَا هُوَ يَعْرِفُ حَالَ مَنْ يَقُودُهُ ، وَلَا يَدْرِي ،بَلْ كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلْجَاهِلِ : أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ قَالَ : مَعَهُمْ ، قِيلَ : فَإِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ؟ .

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : الْغِشَاوَةُ الَّتِي عَلَى الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَهِيَ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية : ٢٣]، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِي خَمْسَةٍ مِنَ الظُّلَمِ : فَكَلَامُهُ ظُلْمَةٌ ، وَعَمَلُهُ ظُلْمَةٌ ، وَمَدْخَلُهُ ظُلْمَةٌ ، وَمَخْرَجُهُ ظُلْمَةٌ ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الظُّلُمَاتِ إِلَى النَّارِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ أَيْ : مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللهُ فَهُوَ هَالِكٌ جَاهِلٌ حَائِرٌ بَائِرٌ كَافِرٌ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وَهَذَا فِي مُقَابَلَةِ مَا قَالَ فِي مَثَلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَ فِي قُلُوبِنَا نُورًا ، وَعَنْ أَيْمَانِنَا نُورًا ، وَعَنْ شَمَائِلِنَا نُورًا ، وَأَنْ يُعْظِمَ لَنَا نُورًا .

(١) البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) بنحوه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مِنَ المَلَائِكَةِ وَالْأَنَاسِيِّ وَالْجَانِّ وَالْحَيَوَانِ حَتَّى الْجَمَادِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[الإسراء : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ أَيْ : فِي حَالِ طَيَرَانِهَا تُسَبِّحُ رَبَّهَا وَتَعْبُدُهُ بِتَسْبِيحٍ أَلْهَمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا هِيَ فَاعِلَةٌ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ أَيْ : كُلٌّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقَتِهِ وَمَسْلَكِهِ فِي عِبَادَةِ الله ﷻ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ .﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾[النجم : ٣١] فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ لَهُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَسُوقُ السَّحَابَ بِقُدْرَتِهِ أَوَّلَ مَا يُنْشِئُهَا وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ، وَهُوَ الْإِزْجَاءُ ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ أَيْ : يَجْمَعُهُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾ أَيْ : مُتَرَاكِمًا ، أَيْ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ أَيْ : المَطَرُ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ خُلَلِهِ ، وَكَذَا قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ (مِنْ) الْأُولَى لابْتِدَاءِ الْغَايَةِ ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبْعِيضِ ، وَالثَّالِثَةُ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ مَعْنَاهُ : أَنَّ فِي السَّمَاءِ جِبَالُ بَرَدٍ يُنَزِّلُ اللهُ مِنْهَا الْبَرَدَ ، وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الْجِبَالَ هَهُنَا عِبَارَةً كِنَايَةً عَنِ السَّحَابِ ، فَإِنَّ « مِن » الثَّانِيَةَ عِنْدَ هَذَا لابْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَيْضًا ، لَكِنَّهَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ نَوْعَي الْمَطَرِ وَالْبَرَدِ فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ رَحْمَةً لَهُمْ ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يُؤَخِّرُ عَنْهُم الْغَيْثَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْبَرَدِ نِقْمَةً عَلَى مَنْ يَشَاءُ لِمَا فِيهِ مِنْ نَثْرِ ثِمَارِهِمْ وَإِتْلَافِ زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ ﴿ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ رَحْمَةً بِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أَيْ : يَكَادُ ضَوْءُ بَرْقِهِ – مِنْ شِدَّتِهِ- يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاءَتْهُ . ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : يَتَصَرَّفُ فِيهِمَا فَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فِي قِصَرِ هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلَا ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا ، وَاللهُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي ذَلِكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أَيْ : لَدَلِيلًا عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ .

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى قُدْرَتَهُ التَّامَّةَ وَسُلْطَانَهُ الْعَظِيمَ فِي خَلْقِهِ أَنْوَاعَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ

أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ ﴾ كَالْحَيَّةِ وَمَا شَاكَلَهَا ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ كَالْأَنْعَامِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بِقُدْرَتِهِ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يُقَرِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ الْبَيِّنَةِ الْمُحْكَمَةِ كَثِيرًا جِدًّا ، وَأَنَّهُ يُرْشِدُ إِلَى تَفَهُّمِهَا وَتَعَقُّلِهَا أُولِي الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ ، يَقُولُونَ قَوْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : يُخَالِفُونَ أَقْوَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا طُلِبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي

أَنْفُسِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠-٦١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أَيْ : وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاءُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُرَوِّجَ بَاطِلَهُ ثَمَّ ، فَإِذْعَانُهُ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ ، وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ يَعْنِي : لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَازِمٌ لَهَا أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِكُلٍّ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ الْفَاجِرُونَ ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ مُبَرَّآنِ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَمُتَوَهَّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ ، تَعَالَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَجِيبِينَ للهِ وَلِرَسُولِهِ ، الَّذِينَ لَا يَبْغُونَ دِينًا سِوَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أَيْ : سَمْعًا وَطَاعَةً ، وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالَى بِالْفَلَاحِ وَهُوَ نَيْلُ الْمَطْلُوبِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْمَرْهُوبِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا أَمَرَاهُ بِهِ ، وَتَرْكُ مَا نَهَيَاهُ عَنْهُ ، وَيَخْشَ اللهَ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ وَيَتَّقِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ فَازُوا بِكُلِّ خَيْرٍ وَأَمِنُوا مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ

ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْلِفُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ بِالْخُرُوجِ فِي الْغَزْوِ لَيَخْرُجُنَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ﴾ أَيْ: لَا تَحْلِفُوا، ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ طَاعَتُكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَيْ قَدْ عَلِمَ طَاعَتَكُمْ إِنَّمَا هِيَ قَوْلٌ لَا فِعْلَ مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلَفْتُمْ كَذَبْتُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ٩٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ الْآيَةَ. فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ الْكَذِبُ حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١-١٢]، وَقِيلَ: الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أَيْ: لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً أَيْ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ حَلِفٍ، وَلَا إِقْسَامٍ، كَمَا يُطِيعُ اللهَ وَرَسُولَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ حَلِفٍ وَلَا إِقْسَامٍ، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلَهُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: هُوَ خَبِيرٌ بِكُمْ وَبِمَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعْصِي، فَالْحَلِفُ وَإِظْهَارُ الطَّاعَةِ وَالْبَاطِنُ بِخِلَافِهِ، وَإِنْ رَاجَ عَلَى الْمَخْلُوقِ، فَالْخَالِقُ تَعَالَى يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، لَا يَرُوجُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّدْلِيسِ، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِضَمَائِرِ عِبَادِهِ وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلَافَهَا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ أَيْ: اتَّبِعُوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ أَيْ: تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتْرُكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أَيْ: إِبْلَاغُ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ ﴿ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أَيْ: بِقَبُولِ ذَلِكَ وَتَعْظِيمِهِ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ

﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢]

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هَذَا وَعْدٌ مِنَ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّتَهُ خُلَفَاءَ الأَرْضِ، أَيْ: أَئِمَّةَ النَّاسِ وَالْوُلَاةَ عَلَيْهِمْ، وَبِهِمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ وَتَخْضَعُ لَهُمُ الْعِبَادُ، ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ - مِنَ النَّاسِ - أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ، وَقَدْ فَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَمُتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَخَيْبَرَ وَالْبَحْرَيْنِ وَسَائِرِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَرْضِ الْيَمَنِ بِكَمَالِهَا، وَأَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ مَجُوسِ هَجَرٍ، وَمِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ الشَّامِ، وَهَادَاهُ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ، وَصَاحِبُ مِصْرَ وَإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَهُوَ الْمُقَوْقِسُ، وَمُلُوكُ عُمَانَ، وَالنَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ الَّذِي تَمَلَّكَ بَعْدَ أَصْحَمَةَ - رَحِمَهُ الله - وَأَكْرَمَهُ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ وَاخْتَارَ اللهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ خَلِيفَتُهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فَلَمَّ شُعْثَ مَا وَهَى بَعْدَ مَوْتِهِ ﷺ وَأَخَذَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ وَمَهَّدَهَا وَبَعَثَ جُيُوشَ الْإِسْلَامِ إِلَى بِلَادِ فَارِسٍ صُحْبَةَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا، وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنْ أَهْلِهَا، وَجَيْشًا آخَرَ صُحْبَةَ أَبِي عُبَيْدَةَ ﷺ وَمَنْ أَتْبَعَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، وَثَالِثًا صُحْبَةَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ، فَفَتَحَ اللهُ لِلْجَيْشِ الشَّامِيِّ فِي أَيَّامِهِ بُصْرَى وَدِمَشْقَ وَمَخَالِيفِهِمَا مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ وَمَا وَالَاهَا، وَتَوَفَّاهُ الله ﷺ وَاخْتَارَ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَنَّ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِأَنْ أَلْهَمَ الصِّدِّيقَ أَنْ يَسْتَخْلِفَ عُمَرَ الْفَارُوقَ، فَقَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ قِيَامًا تَامًّا، لَمْ يُدِرِ الْفُلْكَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مِثْلِهِ فِي قُوَّةِ سِيرَتِهِ وَكَمَالِ عَدْلِهِ، وَتَمَّ فِي أَيَّامِهِ فَتْحَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ بِكَمَالِهَا وَدِيَارَ مِصْرَ إِلَى آخِرِهَا، وَأَكْثَرُ إِقْلِيمِ فَارِسٍ، وَكَسَرَ كِسْرَى وَأَهَانَهُ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَتَقَهْقَرَ إِلَى أَقْصَى مَمْلَكَتِهِ،

وَقَصَرَ قَيْصَرَ وَانْتَزَعَ يَدَهُ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ ، وَانْحَدَرَ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَأَنْفَقَ أَمْوَالَهُمَا فِي سَبِيلِ الله كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَوَعَدَ بِهِ رَسُولُ الله - عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَتَمَّ سَلَامٍ وَأَزْكَى صَلَاةً - ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ امْتَدَّتِ الْمَمَالِكُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، فَفُتِحَتْ بِلَادُ الْمَغْرِبِ إِلَى أَقْصَى مَا هُنَالِكَ الْأَنْدَلُسُ وَقُبْرُصُ ، وَبِلَادُ الْقَيْرَوَانِ ، وَبِلَادُ سِبْتَةَ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ الْمُحِيطَ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ ، وَقُتِلَ كِسْرَى وَبَادَ مُلْكُهُ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَفُتِحَتْ مَدَائِنُ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالْأَهْوَازِ وَقَتَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ التُّرْكِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً جِدًّا ، وَخَذَلَ اللهُ مَلِكَهُمُ الْأَعْظَمَ خَاقَانَ ، وَجُبِيَ الْخَرَاجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى حَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ تِلَاوَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَجَمْعِهِ الْأُمَّةَ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا** »[1] فَهَا نَحْنُ نَتَقَلَّبُ فِيمَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْإِيمَانَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا . وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى ﵇ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ[2] حِينَ وَفَدَ عَلَيْهِ : « **أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟** » قَالَ : لَمْ أَعْرِفْهَا ، وَلَكِنْ قَدْ سَمِعْتُ بِهَا قَالَ : « **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ**

---

(١) مسلم (٢٨٨٩) .
(٢) انظر البخاري (٣٥٩٥) .

حَتَّى **تَخْرُجَ الظَّعِينَةَ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ** » قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، كِسْرَى بْن هُرْمُزَ ، وَلَيُبْذَلَنَّ المَالَ حَتَّى لا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ** » . قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتكُونَنَّ الثَّالِثَةُ لأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ قَالَهَا .

وَعَنْ **مُعَاذِ بْن جَبَلٍ**(١) قَالَ : بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةَ الرَّحْلِ قَالَ : « **يَا مُعَاذُ** » قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « **يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ** » قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « **يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ** » قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : « **هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ ؟** » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** » قَالَ : ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « **يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ** » قُلْتُ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ قَالَ : « **فَهَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟** » قَالَ : قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : « **فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أَيْ : فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْبًا عَظِيمًا ، فَالصَّحَابَةُ ﷺ لَمَّا كَانُوا أَقْوَمَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَوَامِرِ الله ﷻ وَأَطْوَعِهِمْ لله كَانَ نَصْرُهُمْ بِحَسْبِهِمْ أَظْهَرُوا كَلِمَةَ الله فِي المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ ، وَأَيَّدَهُمْ تَأْيِيدًا عَظِيمًا ، وَحَكَمُوا فِي سَائِرِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ ، وَلَمَّا قَصَّرَ النَّاسُ بَعْدَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَوَامِرِ نَقَصَ ظُهُورُهُمْ بِحَسْبِهِمْ ، وَلَكِنْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** »(٢) وَفِي رِوَايَةٍ « **حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ** » وَفِي رِوَايَة « **حَتَّى**

---

(١) البخاري (٥٩٦٧) ، ومسلم (حديث ٣٠) .
(٢) انظر البخاري (٧٣١١ ، ٧٣١٢) ، ومسلم (١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، ١٠٣٧) .

يُقَاتِلُونَ الدَّجَّال » وَفِي رِوَايَةٍ « **حَتَّى يَنْزِل عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ** » . وَكُلُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ صَحِيحَةٌ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَهِيَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ضُعَفَائِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا فِي ذَلِكَ مُطِيعِينَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، أَيْ : سَالِكِينَ وَرَاءَهُ فِيمَا بِهِ أَمَرَهُمْ وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ ، لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُهُمْ بِذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا أَنَّ اللهَ سَيَرْحَمُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[التوبة : ٧١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ أَيْ : لَا تَظُنُّ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : خَالَفُوكَ وَكَذَّبُوكَ ﴿ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُونَ اللهَ ، بَلِ اللهُ قَادِرٌ عَلَيْهَا وَسَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَأْوَىٰهُم ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَآلُ مَآلَ الْكَافِرِينَ ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ

مُتَبَرِّجَـٰتِ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ اشْتَمَلَتْ عَلَى اسْتِئْذَانِ الْأَقَارِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فَهُوَ اسْتِئْذَانُ الْأَجَانِبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُمْ خَدَمُهُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَطْفَالُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ ؛ الْأَوَّلُ : مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ لِأَنَّ النَّاسَ إِذْ ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشِهِمْ ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ أَيْ : فِي وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ لِأَنَّهُ وَقْتُ النَّوْمِ ، فَيُؤْمَرُ الْخَدَمُ وَالْأَطْفَالُ أَنْ لَا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ لِمَا يُخْشَى أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾ أَيْ : إِذَا دَخَلُوا فِي حَالٍ غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي تَمْكِينِكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا مِنْ غَيْرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهُجُومِ وَلِأَنَّهُمْ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، أَيْ : فِي الْخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَيُغْتَفَرُ فِي الطَّوَّافِينَ مَا لَا يُغْتَفَرُ فِي غَيْرِهِمْ ، وَلِهَذَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي الْهِرَّةِ : « **إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِسَةٍ ، إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَاتِ** »(١) وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْكَمَةً وَلَمْ تُنْسَخْ بِشَيْءٍ ، وَكَانَ عَمَلُ النَّاسِ بِهَا قَلِيلًا جِدًّا أَنْكَرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ .

عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ(٢) **سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ** : لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ : آيَةَ الْإِذْنِ ، وَإِنِّي لَآمُرُ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ .

عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عَائِشَةَ : سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ ﴿ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ قَالَ : لَمْ تُنْسَخْ ، قُلْتُ : فَإِنَّ النَّاسَ لَا يَعْمَلُونَ بِهَا ، فَقَالَ : اللهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٢) أَنَّ رَجُلَيْنِ سَأَلَاهُ عَنِ الِاسْتِئْذَانِ فِي الثَّلَاثِ عَوْرَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا فِي الْقُرْآنِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ اللهَ سِتِّيرٌ يُحِبُّ السِّتْرَ ، كَانَ النَّاسُ لَيْسَ لَهُمْ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (حديث ٧٥) .

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (حديث ٥١٩١) موقوفا .

سُتُورٌ عَلَى أَبْوَابِهِمْ وَلَا حِجَالَ فِي بُيُوتِهِمْ ، فَرُبَّمَا فَاجَأَ الرَّجُلَ خَادِمُهُ أَوْ وَلَدُهُ أَوْ يَتِيمُهُ فِي حِجْرِهِ وَهُوَ عَلَى أَهْلِهِ ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ الَّتِي سَمَّى اللهُ ، ثُمَّ جَاءَ اللهُ بَعْدُ بِالسُّتُورِ فَبَسَطَ اللهُ عَلَيْهِم الرِّزْقَ فَاتَّخَذُوا السُّتُور ، وَاتَّخَذُوا الْحِجَالَ فَرَأَى النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَفَاهُمْ مِنَ الاسْتِئْذَانِ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ .

قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ : إِذَا كَانَ الْغُلَامُ رُبَاعِيًّا فَإِنَّهُ يَسْتَأْذِنُ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ عَلَى أَبَوَيْهِ ، فَإِذَا بَلَغَ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَهَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . **وَقَالَ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يَعْنِي : كَمَا اسْتَأْذَنَ الْكِبَارُ مِنْ وَلَدِ الرَّجُلِ وَأَقَارِبِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْضُ وَيَئِسْنَ مِنَ الْوَلَدِ ﴿ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أَيْ : لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّفٌ إِلَى التَّزَوُّجِ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتِۭ بِزِينَةٍ ﴾ أَيْ : لَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَجْرِ فِي التَّسَتُّرِ كَمَا عَلَى غَيْرِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ الْآيَةُ . فَنَسَخَ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ ﴿ ٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الْآيَةُ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قَالُوا : الْجِلْبَابُ أَوْ الرِّدَاءُ . **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتِۭ بِزِينَةٍ ﴾ يَقُولُ : لَا يَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجِلْبَابِ لِيُرَى مَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الزِّينَةِ ، ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أَيْ : وَتَرْكُ وَضْعِهِنَّ لِثِيَابِهِنَّ - وَإِنْ كَانَ جَائِزًا - خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لَهُنَّ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ

أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ - رَحِمَهُمُ الله - فِي الْمَعْنَى الَّذِي رُفِعَ لِأَجْلِهِ الْحَرَجُ عَنِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ هَهُنَا ، **فَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنُ أَسْلَمَ** : يُقَالُ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، وَجَعَلُوا هَذِهِ الْآيَةَ هَهُنَا كَالْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْفَتْحِ ، وَتِلْكَ فِي الْجِهَادِ لَا مَحَالَةَ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١-٩٢]، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ هَهُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْأَكْلِ مَعَ الْأَعْمَى ؛ لِأَنَّهُ لَا يَرَى الطَّعَامَ وَمَا فِيهِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْرُهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَلَا مَعَ الْأَعْرَجِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَمَكَّنُ مِنَ الْجُلُوسِ فَيَفْتَاتُ عَلَيْهِ جَلِيسُهُ ، وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي مِنَ الطَّعَامِ كَغَيْرِهِ ، فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ رُخْصَةً فِي ذَلِكَ ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمِقْسَمٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا وَهُوَ مَعْلُومٌ ، لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فِي اللَّفْظِ ، وَلِيُسَاوِيَ بِهِ مَا بَعْدَهُ فِي الْحُكْمِ ، وَتَضَمَّنَ هَذَا بُيُوتُ الْأَبْنَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنُصَّ عَلَيْهِمْ ، ﴿ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ هَذَا ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا **قَوْلُهُ** ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ خَادِمُ الرَّجُلِ مِنْ عَبْدٍ وَقَهْرَمَان ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا اسْتُودِعَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالْمَعْرُوفِ ، ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أَيْ : بُيُوتُ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَكْلِ مِنْهَا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ صَدِيقِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ تَأْكُلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . فَهَذِهِ رُخْصَةٌ

مِنَ الله تَعَالَى فِي أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ وَمَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَكْلُ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ وَأَبْرَكُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي فَلْيُسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ**[1] قَالَ : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ، قَالَ : مَا رَأَيْتُهُ إِلَّا يُوجِبُهُ . **قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ** : قُلْتُ لِعَطَاءٍ : أَوَاجِبٌ إِذَا خَرَجْتُ ثُمَّ دَخَلْتُ أَنْ أُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَا أُوثِرُ وُجُوبَهُ عَنْ أَحَدٍ ، وَلَكِنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ وَمَا أَدَعُهُ إِلَّا نَاسِيًا . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَقُلْ : السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَرُ بِذَلِكَ ، وَحُدِّثْنَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا فِي السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُحْكَمَةِ وَالشَّرَائِعِ الْمُتْقَنَةِ الْمُبْرَمَةِ نَبَّهَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى أَنَّهُ يُبَيِّنُ لِعِبَادِهِ الْآيَاتِ بَيَانًا شَافِيًا ؛ لِيَتَدَبَّرُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

وَهَذَا أَيْضًا أَدَبٌ أَرْشَدَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ ، فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ كَذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الانْصِرَافِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مِنْ صَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوِ اجْتِمَاعٍ فِي مَشُورَةٍ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - إِلَّا بَعْدَ اسْتِئْذَانِهِ وَمُشَاوَرَتِهِ ، وَأَنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ ، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِذَا اسْتَأْذَنَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَنْ

---

[1] صحيح عن جابر : أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩٥) .

يَأْذَنَ لَهُ إِنْ شَاءَ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قِيلَ : كَانُوا يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَنَهَاهُمُ اللهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ إِعْظَامًا لِنَبِيِّهِ ﷺ قَالَ : فَقُولُوا يَا نَبِيَّ اللهِ ، يَا رَسُولَ اللهِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَمَرَ اللهُ أَنْ يُهَابَ نَبِيَّهُ ﷺ وَأَنْ يُبَجَّلَ وَأَنْ يُعَظَّمَ وَأَنْ يُسَوَّدَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ يَقُولُ : لَا تُسَمُّوهُ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ يَا مُحَمَّدُ ، وَلَا تَقُولُوا يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ ، وَلَكِنْ شَرِّفُوهُ فَقُولُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ ، يَا رَسُولَ اللهِ ، **وَقَالَ مَالِكٌ** : عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ قَالَ : أَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يُشَرِّفُوهُ ، هَذَا قَوْلٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٢-٥] فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ بَابِ الْأَدَبِ فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْكَلَامِ مَعَهُ وَعِنْدَهُ ، كَمَا أُمِرُوا بِتَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ قَبْلَ مُنَاجَاتِهِ ، **وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي ذَلِكَ** : أَنَّ الْمَعْنَى فِي ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ أَيْ : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلَى غَيْرِهِ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلَكُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، **قَالَ السُّدِّيُّ** : كَانُوا إِذَا كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَاعَةٍ لَاذَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، حَتَّى يَتَغَيَّبُوا عَنْهُ فَلَا يَرَاهُمْ ، **وَقَالَ**

قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ يَعْنِي : لِوَاذًا عَنْ نَبِيِّ الله ، وَعَنْ كِتَابِهِ ، وَقَالَ سُفْيَانُ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ قَالَ : مِنَ الصَّفِّ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ لِوَاذًا ﴾ خِلَافًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ أَيْ : عَنْ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ سَبِيلُهُ وَمِنْهَاجُهُ وَطَرِيقَتُهُ وَسُنَّتُهُ وَشَرِيعَتُهُ فَتُوزَنُ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ ، فَمَا وَافَقَ ذَلِكَ قُبِلَ وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ** »[1] أَيْ : فَلْيَحْذَرْ وَلْيَخْشَ مَنْ خَالَفَ شَرِيعَةَ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أَيْ : فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدْعَةٍ ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا بِقَتْلٍ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشَ وَهَذِهِ الدَّوَابَّ اللَّائِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا – قَالَ – فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا** »[2].

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ فِي سِرِّهِمْ وَجَهْرِهِمْ فَقَالَ : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وَ« قَدْ » لِلتَّحْقِيقِ كَمَا قَالَ قَبْلَهَا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ١٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ﴾ [المجادلة : ١] ، وَقَالَ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

---

(١) البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .
(٢) مسلم (٢٢٨٥) .

[البقرة : ١٤٤] ، فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهَا تَحْقِيقُ الْفِعْلِ بـ « قَدْ » كَقَوْلِ الْمُؤَذِّنِ تَحْقِيقًا وَثُبُوتًا : قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : هُوَ عَالِمٌ بِهِ مُشَاهِدٌ لَهُ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : وَيَوْمُ يُرْجَعُ الْخَلَائِقُ إِلَى الله ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أَيْ : يُخْبِرُهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ وَصَغِيرٍ وَكَبِيرٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] ، وَقَالَ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَنَسْأَلُهُ التَّمَامَ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النُّورِ وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الفُرْقَانِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَامِدًا لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَا نَزَّلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الكهف : ١-٢] **وَقَالَ هَهُنَا:** ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وَهُوَ تَفَاعُلٌ مِنَ الْبَرَكَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ الثَّابِتَةِ الدَّائِمَةِ ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ نَزَّلَ : فَعَّلَ مِنَ التَّكَرُّرِ وَالتَّكَثُّرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] لأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالْقُرْآنُ نَزَلَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلًا ، آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ أَحْكَامٍ ، وَسُوَرًا بَعْدَ سُوَرٍ ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ ، وَأَشَدُّ اعْتِنَاءً بِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ هَهُنَا الْفُرْقَانَ ، لأَنَّهُ يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ هَذِهِ صِفَةُ مَدْحٍ وَثَنَاءٍ ؛ لأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ ، كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَفِ أَحْوَالِهِ وَهِيَ لَيْلَةُ الإِسْرَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وَكَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وَكَذَلِكَ وَصَفَهُ عِنْدَ إِنْزَالِ

الْكِتَابِ عَلَيْهِ وَنُزُولِ الْمَلَكِ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أَيْ ، إِنَّمَا خَصَّهُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُفَصَّلِ الْعَظِيمِ الْمُبِينِ الْمُحْكَمِ الَّذِي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ الَّذِي جَعَلَهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا لِيَخُصَّهُ بِالرِّسَالَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَظِلُّ بِالْخَضْرَاءِ ، وَيَسْتَقِلُّ عَلَى الْغَبْرَاءِ ، كَمَا قَالَ ﷺ : ((بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ))[١] ، وَقَالَ : ((إِنِّي أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي))[٢] فَذَكَرَ مِنْهُنَّ أَنَّهُ ((كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . أَيْ : الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ وَعَنِ الشَّرِيكِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ أَيْ : كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مَرْبُوبٌ ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ .

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ ، الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمَالِكِ لِأَزِمَّةِ الْأُمُورِ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَمَعَ هَذَا عَبَدُوا مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى خَلْقِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ ، بَلْ هُمْ مَخْلُوقُونَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِعَابِدِيهِمْ ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ مَرْجِعُهُ إِلَى اللهِ ﷻ الَّذِي

(١) مسلم (حديث ٥٢٢) .
(٢) البخاري (٤٣٨) ، ومسلم (٥٢١) .

يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ الَّذِي يُعِيدُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] ، فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ؛ لأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَهُوَ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ وَلَا عَدِيلَ وَلَا بَدِيلَ وَلَا وَزِيرَ وَلَا نَظِيرَ ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحد .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سَخَافَةِ عُقُولِ الْجَهَلَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ، فِي قَوْلِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ﴾ أَيْ : كَذِبٌ ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ يَعْنُونَ : النَّبِيَّ ﷺ ﴿ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ أَيْ : وَاسْتَعَانَ عَلَى جَمْعِهِ بِقَوْمٍ آخَرِينَ ، **فَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أَيْ : فَقَدِ افْتَرَوْا هُمْ قَوْلًا بَاطِلًا ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَاطِلٌ ، وَيَعْرِفُونَ كَذِبَ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا زَعَمُوهُ .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾ يَعْنُونَ كُتُبَ الْأَوَائِلِ ، أَيْ : اِسْتَنْسَخَهَا ﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : تُقْرَأُ عَلَيْهِ ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَيْ : فِي أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ ، وَهَذَا الْكَلَامُ لِسَخَافَتِهِ وَكَذِبِهِ وَبُهْتِهِ مِنْهُمْ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِالضَّرُورَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، لَمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْكِتَابَةِ ، لَا فِي أَوَّلِ عُمْرِهِ وَلَا فِي آخِرِهِ ، وَقَدْ نَشَأَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مِنْ أَوَّلِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ، وَصِدْقَهُ وَنَزَاهَتَهُ ، وَبِرَّهُ وَأَمَانَتَهُ ،

وَبُعْدَهُ عَنِ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ ، وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَرِهِ وَإِلَى أَنْ بُعِثَ إِلَّا الْأَمِينَ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَبِرِّهِ ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ ، نَصَبُوا لَهُ الْعَدَاوَةَ ، وَرَمَوْهُ بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا ، وَحَارُوا فِيمَا يَقْذِفُونَهُ بِهِ ، فَتَارَةً مِنْ إِفْكِهِمْ يَقُولُونَ : سَاحِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : شَاعِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : مَجْنُونٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : كَذَّابٌ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِ مَا عَانَدُوا هَهُنَا وَافْتَرَوْا : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، إِخْبَارًا حَقًّا صِدْقًا ، مُطَابِقًا لِلْوَاقِعِ فِي الْخَارِجِ ، مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا ﴿ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾ أَيْ : اللهُ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ السَّرَائِرَ كَعِلْمِهِ بِالظَّوَاهِرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ دُعَاءٌ لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ لَهُمْ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ وَاسِعَةٌ ، وَأَنَّ حِلْمَهُ عَظِيمٌ ، مَعَ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ ، فَهَؤُلَاءِ - مَعَ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَفُجُورِهِمْ وَبُهْتَانِهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَقَوْلِهِمْ عَنِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ مَا قَالُوا - يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُمْ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْهُدَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣-٧٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ .

وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلْحَقِّ بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا تَعَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ يَعْنُونَ : كَمَا نَأْكُلُهُ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا نَحْتَاجُ ﴿ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ أَيْ : يَتَرَدَّدُ فِيهَا وَإِلَيْهَا ، طَلَبًا لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ ، ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ يَقُولُونَ : هَلَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَى صِدْقِ مَا يَدَّعِيهِ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٣] ، وَكَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ عَلَى السَّوَاءِ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ،وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ أَيْ : عِلْمُ كَنْزٍ يُنْفِقُ مِنْهُ ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أَيْ : تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ ، وَهَذَا كُلُّهُ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَى اللهِ ، وَلَكِنْ لَهُ الْحِكْمَةُ فِي تَرْكِ ذَلِكَ ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ ﴾ أَيْ : جَاءُوا بِمَا يَقْذِفُونَكَ بِهِ ، وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ سَاحِرٌ مَسْحُورٌ ، مَجْنُونٌ ، كَذَّابٌ ، شَاعِرٌ ، وَكُلُّهَا أَقْوَالٌ بَاطِلَةٌ ، كُلُّ أَحَدٍ - مِمَّنْ لَهُ أَدْنَى فَهْمٍ وَعَقْلٍ - يَعْرِفُ كَذِبَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ ؛وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَضَلُّوا۟ ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ وَمَنْهَجُهُ مُتَّحِدٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا نَبِيَّهُ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ لَآتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَفْضَلُ وَأَحْسَنُ ،فَقَالَ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الْآيَة . قِيلَ : يَعْنِي : فِي الدُّنْيَا . ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ هَكَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا ،

لَا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ ذَلِكَ تَبَصُّرًا وَاسْتِرْشَادًا ، بَلْ تَكْذِيبُهُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى قَوْلِ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أَيْ : أَرْصَدْنَا ﴿ لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : عَذَابًا أَلِيمًا حَارًّا لَا يُطَاقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أَيْ : جَهَنَّمُ ﴿ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يَعْنِي : فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أَيْ : حَنَقًا عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٧-٨] أَيْ : يَكَادُ يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، مِنْ شِدَّةِ غَيْظِهَا عَلَى مَنْ كَفَرَ بِالله .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ ﴾ ، ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : مُكَتَّفِينَ ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أَيْ : بِالْوَيْلِ وَالْحَسْرَةِ وَالْخَيْبَةِ . ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا ﴾ الْآيَة . **قِيلَ** : أَيْ : لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ وَيْلًا وَاحِدًا وَادْعُوا وَيْلًا كَثِيرًا ، **وَقِيلَ** : الثُّبُورُ : الْهَلَاكُ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ الثُّبُورَ يَجْمَعُ الْهَلَاكَ وَالْوَيْلَ وَالْخَسَارَ وَالدَّمَارَ ، كَمَا قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أَيْ : هَالِكًا .

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦

يَقُولُ تَعَالَى : يَا مُحَمَّدُ هَذَا الَّذِي وَصَفْنَاهُ لَكَ مِنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمَ إِلَى جَهَنَّمَ فَتَتَلَقَّاهُمْ بِوَجْهٍ عَبُوسٍ وَبِغَيْظٍ وَزَفِيرٍ ، وَيُلْقَوْنَ فِي أَمَاكِنِهَا الضِّيقِ ، مُقَرَّنِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِرَاكًا وَلَا اسْتِنْصَارًا وَلَا فِكَاكًا مِمَّا هُمْ فِيهِ ، أَهَذَا خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَهَا اللهُ الْمُتَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ وَجَعَلَهَا لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا عَلَى مَا أَطَاعُوهُ فِي الدُّنْيَا ، وَجَعَلَ مَآلَهُمْ إِلَيْهَا .

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ مِنَ الْمَلَاذِّ : مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَرَاكِبَ وَمَنَاظِرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُونَ أَبَدًا دَائِمًا سَرْمَدًا بِلَا انْقِطَاعٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا انْقِضَاءٍ ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ، وَهَذَا مِنْ وَعْدِ الله الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ

وَأَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ أَيْ : لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ وَأَنْ يَكُونَ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ يَقُولُ : سَلُو الَّذِي وَاعَدْتُكُمْ - أَوْ قَالَ : وَاعَدْنَاكُمْ - نُنْجِزْ . **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْأَلُ لَهُمْ ذَلِكَ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾[غافر : ٨] ، **وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ** : إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : رَبَّنَا عَمِلْنَا لَكَ بِالَّذِي أَمَرْتَنَا فَأَنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا ، **فَذَلِكَ قَوْلُهُ** : ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ ، وَهَذَا الْمَقَامُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ ذِكْرِ النَّارِ ، ثُمَّ التَّنْبِيهُ عَلَى حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ حَالَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّضْرَةِ وَالْحُبُورِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾[الصافات : ٦٢-٧٠]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ تَقْرِيعِ الْكُفَّارِ فِي عِبَادَتِهِمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قِيلَ : هُوَ عِيسَى وَالْعُزَيْرُ وَالْمَلَائِكَةُ ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ الْآيَةَ ، أَيْ : فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمَعْبُودِينَ : أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هَؤُلَاءِ إِلَى عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِي

أَمْ هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ ؟ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ ﴾ [المائدة : ١١٦-١١٧]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيبُ بِهِ الْمَعْبُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ قَرَأَ الْأَكْثَرُونَ بِفَتْحِ النُّونِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا سِوَاكَ ، لَا نَحْنُ وَلَا هُمْ ، فَنَحْنُ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا وَلَا رِضَانَا ، وَنَحْنُ بُرَآءُ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ [سبأ : ٤٠-٤١]، وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نُّتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أَيْ : مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدَنَا ، فَإِنَّا عَبِيدٌ لَكَ فُقَرَاءُ إِلَيْكَ ، وَهِيَ قَرِيبَةُ الْمَعْنَى مِنَ الْأُولَى ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ، أَيْ : نَسُوا مَا أَنْزَلْتَهُ إِلَيْهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَتِكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ﴿ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ قِيلَ : أَيْ : هَلْكَى ، وَقِيلَ : لَا خَيْرَ فِيهِمْ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أَيْ : فَقَدْ كَذَّبَكُمُ الَّذِينَ عَبَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ فِيمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ لَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَأَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَكُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦].

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَلَا الِانْتِصَارِ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ ﴾ أَيْ : يُشْرِكُ بِاللهِ ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَمِيعِ مَنْ بَعَثَهُ مِنَ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَحْتَاجُونَ إِلَى التَّغَذِّي بِهِ وَ ﴿ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ لِلتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَةِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُنَافٍ لِحَالِهِمْ وَمَنْصِبِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ لَهُمْ مِنَ السِّمَاتِ الْحَسَنَةِ ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ ، وَالْخَوَارِقِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْأَدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ كُلُّ ذِي لُبٍّ سَلِيمٍ وَبَصِيرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ اللهِ ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف : ١٠٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ أَيْ : اخْتَبَرْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَبَلَوْنَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، لِنَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُ مِمَّنْ يَعْصِي ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أَيْ : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ ، لِمَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ . عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بِكَ** »[١]. وَقَدْ خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلَكًا ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا [٢].

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا

---

(١) مسلم (٢٨٦٥) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١) من طريق أبي زرعة قال : ولا أعلمه إلا عن أبي هريرة قال جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل : إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة فلما نزل قال : يا محمد أرسلني إليك ربك فقال أفملكًا نبيًّا يجعلك أو عبدًا رسولا ، قال جبريل : تواضع لربك يا محمد . قال : « **بلى عبدًا رسولا** » .

بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ الْكُفَّارِ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أَيْ : بِالرِّسَالَةِ ، كَمَا تَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام : ١٢٤] ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُمْ هَهُنَا ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فَنَرَاهُمْ عِيَانًا فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ الله ، كَقَوْلِهِمْ : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ سُبْحَانَ[١] ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ، **وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[الأنعام : ١١١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيْ : هُمْ لَا يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ فِي يَوْمِ خَيْرٍ لَهُمْ ، بَلْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لَهُمْ ، وَذَلِكَ يَصْدُقُ عَلَى وَقْتِ الِاحْتِضَارِ ، حِينَ تُبَشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالنَّارِ وَالْغَضَبِ مِنَ الْجَبَّارِ ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ : أُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، أُخْرُجِي إِلَى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، فَتَأْبَى الْخُرُوجَ وَتَتَفَرَّقُ فِي الْبَدَنِ ، فَيَضْرِبُونَهُ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] أَيْ : بِالضَّرْبِ ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، **وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ** ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ،

---

(١) آية رقم : (٩٢) .

وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي وَقْتِ اِحْتِضَارِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالْخَيْرَاتِ وَحُصُولِ الْمَسَرَّاتِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ[1] : أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ : « **أُخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ أُخْرُجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ** » وَقَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمَا ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ - يَوْمِ الْمَمَاتِ وَيَوْمِ الْمَعَادِ - تَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْكَافِرِينَ فَتُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، وَتُخْبِرُ الْكَافِرِينَ بِالْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ ، فَلَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيْ : وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْكَافِرِينَ : حَرَامٌ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمُ الْفَلَاحَ الْيَوْمَ ، وَأَصْلُ الْحَجْرِ : الْمَنْعُ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : حَجَرَ الْقَاضِي عَلَى فُلَانٍ إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّفَ ؛ إِمَّا لِفَلَسٍ أَوْ سَفَهٍ أَوْ صِغَرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ « الْحِجْرُ » عِنْدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الطُّوَّافَ أَنْ يَطُوفُوا فِيهِ ، وَإِنَّمَا يُطَافُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْعَقْلِ : حِجْرٌ ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ عَنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، **وَقَدْ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ** : ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ﴾ أَيْ : يَتَعَوَّذُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا نَزَلَ بِأَحَدِهِمْ نَازِلَةٌ أَوْ شِدَّةٌ يَقُولُ : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ لَهُ مَأْخَذٌ وَوَجْهٌ ، وَلَكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السِّيَاقِ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

فِي الآيَةِ بَعِيدٌ وَلَا سِيَّمَا قَدْ نَصَّ الْجُمْهُورُ عَلَى خِلَافِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ الْآيَةُ . هَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ حِينَ يُحَاسِبُ اللهُ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْأَعْمَالِ - الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مَنْجَاةٌ لَهُمْ - شَيْءٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا فَقَدَتِ الشَّرْطَ الشَّرْعِيَّ : إِمَّا الْإِخْلَاصُ فِيهَا وَإِمَّا الْمُتَابَعَةُ لِشَرْعِ اللهِ ، فَكُلُّ عَمَلٍ لَا يَكُونُ خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ بَاطِلٌ ، فَأَعْمَالُ الْكُفَّارِ لَا تَخْلُو مِنْ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ ، وَقَدْ تَجْمَعُهُمَا مَعًا ، فَتَكُونُ أَبْعَدَ مِنَ الْقَبُولِ حِينَئِذٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾ أَيْ : عَمَدْنَا ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : أَتَيْنَا عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : شُعَاعُ الشَّمْسِ إِذَا دَخَلَ فِي الْكُوَّةِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ هُوَ الْمَاءُ الْمُهْرَاقُ .

وَحَاصِلُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ التَّنْبِيهُ عَلَى مَضْمُونِ الْآيَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَمِلُوا أَعْمَالًا اعْتَقَدُوا أَنَّهَا عَلَى شَيْءٍ ، فَلَمَّا عُرِضَتْ عَلَى الْمَلِكِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا ، إِذَا إِنَّهَا لَا شَيْءَ بِالْكُلِّيَّةِ . وَشُبِّهَتْ فِي ذَلِكَ بِالشَّيْءِ التَّافِهِ الْحَقِيرِ الْمُتَفَرِّقِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٣٩] ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ ذَلِكَ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ وَالْغُرُفَاتِ الْآمِنَاتِ ، فَهُمْ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، حَسَنِ الْمَنْظَرِ ، طَيِّبِ الْمَقَامِ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ، وَأَهْلُ النَّارِ يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَاتِ السَّافِلَاتِ وَالْحَسَرَاتِ الْمُتَتَابِعَاتِ ، وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] أَيْ : بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا ، وَبِئْسَ الْمَقِيلُ مَقَامًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ

مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ أي : بِمَا عَمِلُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَبَّلَةِ نَالُوا مَا نَالُوا ، وَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، بِخِلَافِ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ عَمَلٌ وَاحِدٌ يَقْتَضِي دُخُولَ الْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ ، فَنَبَّهَ تَعَالَى بِحَالِ السُّعَدَاءِ عَلَى حَالِ الْأَشْقِيَاءِ ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ عِنْدَهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ** : إِنِّي لَأَعْرِفُ السَّاعَةَ الَّتِي يَدْخُلُ فِيهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، هِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ ارْتِفَاعِ الضُّحَى الْأَكْبَرِ إِذَا انْقَلَبَ النَّاسُ إِلَى أَهْلِيهِمْ لِلْقَيْلُولَةِ ، فَيَنْصَرِفُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيُنْطَلَقُ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَكَانَتْ قَيْلُولَتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، وَأُطْعِمُوا كَبِدَ حُوتٍ فَأَشْبَعَهُمْ كُلَّهُمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ ، فَمِنْهَا انْشِقَاقُ السَّمَاءِ وَتَفَطُّرُهَا وَانْفِرَاجُهَا بِالْغَمَامِ ، وَهُوَ : ظُلَلُ النُّورِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُبْهِرُ الْأَبْصَارَ ، وَنُزُولُ مَلَائِكَةِ السَّمَاوَاتِ يَوْمَئِذٍ فَيُحِيطُونَ بِالْخَلَائِقِ فِي مَقَامِ الْمَحْشَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ الرَّبُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لِفَصْلِ الْقَضَاءِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة : ٢١٠]، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٥ - ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

عَسِيرًا ﴾ أَيْ : شَدِيدًا صَعْبًا ؛ لأَنَّهُ يَوْمُ عَدْلٍ وَقَضَاءِ فَصْلٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٩-١٠] ، فَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ الْآيَة . يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَدَمِ الظَّالِمِ الَّذِي فَارَقَ طَرِيقَ الرَّسُولِ ﷺ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَسَلَكَ طَرِيقًا أُخْرَى غَيْرَ سَبِيلِ الرَّسُولِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَدِمَ حَيْثُ لَا يَنْفَعهُ النَّدَمُ ، وَعَضَّ عَلَى يَدَيْهِ حَسْرَةً وَأَسَفًا ، وَسَوَاءٌ كَانَ سَبَب نُزُولِهَا فِي عُقْبَة ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ ظَالِمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ ﴾ [الأحزاب : ٦٦] الْآيَتَيْنِ ، فَكُلُّ ظَالِمٍ يَنْدَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَايَةَ النَّدَم ، وَيَعَضُّ عَلَى يَدَيْهِ قَائِلًا : ﴿ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ يَعْنِي : مَنْ صَرَفَهُ عَنِ الْهُدَى وَعَدَلَ بِهِ إِلَى طَرِيقِ الضَّلَالِ مِنْ دُعَاةِ الضَّلَالَةِ ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ أَوْ أَخُوهُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أَوْ غَيْرُهُمَا . ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ أَيْ : بَعْدَ بُلُوغِهِ إِلَيَّ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ أَيْ : يَخْذُلُهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَصْرِفُهُ عَنْهُ ، وَيَسْتَعْمِلُهُ فِي الْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ رَسُولِهِ وَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يُصْغُونَ لِلْقُرْآنِ وَلَا يَسْتَمِعُونَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، فَكَانُوا إِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ أَكْثَرُوا اللَّغَطَ وَالْكَلَامَ فِي غَيْرِهِ ، حَتَّى لَا يَسْمَعُونَهُ ، فَهَذَا مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرْكُ الْإِيمَانِ بِهِ وَتَرْكُ تَصْدِيقِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ زَوَاجِرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ،

وَالْعُدُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ شِعْرٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ غِنَاءٍ أَوْ لَهْوٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ طَرِيقَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ هِجْرَانِهِ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ المَنَّانَ الْقَادِرَ عَلَى مَا يَشَاءُ أَنْ يُخَلِّصَنَا مِمَّا يُسْخِطُهُ ، وَيَسْتَعْمِلَنَا فِيمَا يُرْضِيهِ ، مِنْ حِفْظِ كِتَابِهِ وَفَهْمِهِ وَالْقِيَامِ بِمُقْتَضَاهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : كَمَا حَصَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي قَوْمِكَ مِنَ الَّذِينَ هَجَرُوا الْقُرْآنَ ، كَذَلِكَ كَانَ فِي الْأُمَمِ المَاضِينَ ؛ لأَنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ المُجْرِمِينَ ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] الْآيَتَيْنِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أَيْ : لِمَنِ اتَّبَعَ رَسُولَهُ وَآمَنَ بِكِتَابِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّ اللهَ هَادِيهُ وَنَاصِرُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ؛ لِئَلَّا يَهْتَدِيَ أَحَدٌ بِهِ وَلِتَغْلِبَ طَرِيقَتُهُمْ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الْآيَة .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كَثْرَةِ اعْتِرَاضِ الْكُفَّارِ وَتَعَنُّتِهِمْ ، وَكَلَامِهِمْ فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ حَيْثُ **قَالُوا** : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَمَا نُزِّلَتِ الْكُتُبُ قَبْلَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ، فَأَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ : بِأَنَّهُ إِنَّمَا نَزَلَ مُنَجَّمًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ لِيُثَبِّتَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ الْآيَة ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ

فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : وَفَسَّرْنَاهُ تَفْسِيرًا .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَيْ : بِحُجَّةٍ وَشُبْهَةٍ ﴿ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أَيْ : وَلَا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الْحَقَّ ، إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَأَبْيَنُ وَأَوْضَحُ وَأَفْصَحُ مِنْ مَقَالَتِهِمْ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَيْ : بِمَا يَلْتَمِسُونَ بِهِ عَيْبَ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ ﴿ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الْآيَة ، أَيْ : إِلَّا نَزَلَ جِبْرِيلُ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِجَوَابِهِمْ وَمَا هَذَا إِلَّا اعْتِنَاءٌ كَبِيرٌ لِشَرَفِ الرَّسُولِ ﷺ ، حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهُ الْوَحْيُ مِنَ اللهِ ﷻ بِالْقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَلَيْلًا وَنَهَارًا ، سَفَرًا وَحَضَرًا ، وَكُلُّ مَرَّةٍ كَانَ يَأْتِيهُ الْمَلَكُ بِالْقُرْآنِ لَا كَإِنْزَالِ الْكِتَابِ مِمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مَكَانَةً مِنْ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - فَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ لِلْقُرْآنِ الصِّفَتَيْنِ مَعًا ، فَفِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى أُنْزِلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْأَرْضِ مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ سُوءِ حَالِ الْكُفَّارِ فِي مَعَادِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَحَشْرِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ فِي أَسْوَأِ الْحَالَاتِ وَأَقْبَحِ الصِّفَاتِ . ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ ، فَقَالَ ﷺ : « إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1].

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ

(١) البخاري (٤٧٦٠) ، ومسلم (٢٨٠٦) .

كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ كَذَّبَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ ، وَمُحَذِّرهُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ ، مِمَّا أَحَلَّهُ بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مُوسَى ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ وَجَعَلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ، أَيْ : نَبِيًّا مُوَازِرًا وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا ، فَكَذَّبَهُمَا فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فَـ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾[محمد : ١٠] وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ حِينَ كَذَّبُوا رَسُولَهُ نُوحًا ﷺ ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ رَسُولٍ وَرَسُولٍ ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَعَثَ إِلَيْهِمْ كُلَّ رَسُولٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ .**وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ ﴾ وَلَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ إِلَّا نُوحٌ فَقَطْ ، وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ وَيُحَذِّرُهُمْ نِقَمَهُ ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[هود : ٤٠] ، وَلِهَذَا أَغْرَقَهُمُ اللهُ جَمِيعًا وَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَتْرُكْ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ سِوَى أَصْحَابِ السَّفِينَةِ فَقَطْ ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ أَيْ : عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾[الحاقة : ١١-١٢] أَيْ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنَ السُّفُنِ مَا تَرْكَبُونَ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ؛ لِتَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ مِنْ إِنْجَائِكُمْ مِنَ الْغَرَقِ ، وَجَعَلَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ أَمْرَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قِصَّتَيْهِمَا فِي غَيْرِ مَا سُورَةٍ ، كَسُورَةِ الْأَعْرَافِ بِمَا أَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ ، **وَأَمَّا أَصْحَابُ الرَّسِّ** فَقِيلَ : هُمْ أَهْلُ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى ثَمُودَ ، **وَقِيلَ** : بِئْرٌ بِأَذْرَبِيجَانَ ، **وَقِيلَ** : بِئْرٌ رَسُّوا فِيهَا نَبِيَّهُمْ ، أَيْ : دَفَنُوهُ بِهَا ، **وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ** أَنَّ الْمُرَادَ بِأَصْحَابِ الرَّسِّ هُمْ : أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : وَأُمَمًا - بَيْنَ أَضْعَافِ مَنْ ذُكِرَ أَهْلَكْنَاهُمْ - كَثِيرَةً، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ أَيْ : بَيَّنَّا لَهُمُ الْحُجَجَ ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأَدِلَّةَ ، **كَمَا قَالَ قَتَادَةُ** : وَأَزَحْنَا الْأَعْذَارَ عَنْهُمْ ﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾

أَيْ : أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] ، **وَالْقَرْنُ** : هُوَ الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٤٢] وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةٍ ، **وَقِيلَ** : بِمِائَةٍ ، **وَقِيلَ** : بِثَمَانِينَ ، **وَقِيلَ** : أَرْبَعِينَ ، **وَقِيلَ** : غَيْرُ ذَلِكَ . **وَالْأَظْهَرُ** أَنَّ الْقَرْنَ : هُوَ الْأُمَّةُ الْمُتَعَاصِرُونَ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ ، وَإِذَا ذَهَبُوا وَخَلَفَهُمْ جِيلٌ فَهُوَ قَرْنٌ آخَرُ ، كَمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**))(١).

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ يَعْنِي : قَرْيَةَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَهِيَ : سَدُومُ وَمُعَامَلَتُهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِالْقَلْبِ وَبِالْمَطَرِ مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي مِنْ سِجِّيلٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء:١٧٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٩] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ أَيْ : فَيَعْتَبِرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالرَّسُولِ وَبِمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يَعْنِي : الْمَارِّينَ بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ لَا يَعْتَبِرُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ، أَيْ : مَعَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) البخاري (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) ، ولفظه : ((خير الناس قرني ...)) وفي رواية ((خير أمتي قرني ...)) ، وفي ثالثة ((إن خيركم قرني ...)) .

ثُمَّ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾[الأنبياء : ٣٦] . يَعْنُونَ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾ أَيْ : عَلَى سَبِيلِ التَّنَقُّصِ وَالازْدِرَاءِ ، فَقَبَّحَهُمُ اللهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[الرعد : ٣٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّهُ كَادَ يُثْنِيهِمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَوْلَا أَنْ صَبَرُوا وَتَجَلَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ﴾ الْآيَة ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُنَبِّهًا أَنَّ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ وَالضَّلَالَ فَإِنَّهُ لَا يَهْدِيهِ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ﷻ . ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أَيْ : مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ ، وَرَآهُ حَسَنًا فِي هَوَى نَفْسِهِ كَانَ دِينُهُ وَمَذْهَبُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾[فاطر : ٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ **قِيلَ** : كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُ الْحَجَرَ الْأَبْيَضَ زَمَانًا ، فَإِذَا رَأَى غَيْرَهُ أَحْسَنَ مِنْهُ عَبَدَ الثَّانِي وَتَرَكَ الْأَوَّلَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾ الْآيَة ، أَيْ : هُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ ، فَإِنَّ تِلْكَ تَفْعَلُ مَا خُلِقَتْ لَهُ ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلُوا ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَيُشْرِكُونَ بِهِ ، مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ .

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ ، وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَضَادَّةِ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ

ٱلظِّلَّ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : هُوَ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾ أَيْ : دَائِمًا لَا يَزُولُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ [القصص : ٧١] الْآيَاتُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ عَلَيْهِ لَمَا عُرِفَ ، فَإِنَّ الضِّدَّ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِضِدِّهِ . ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أَيْ : الظِّلُّ ، **وَقِيلَ** : الشَّمْسُ ﴿ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا ، **وَقِيلَ** : سَرِيعًا ، **وَقِيلَ** : خَفِيًّا ، **وَقِيلَ** : أَيْ : قَلِيلًا قَلِيلًا . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أَيْ : يَلْبَسُ الْوُجُودَ وَيَغْشَاهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أَيْ : قَاطِعًا لِلْحَرَكَةِ ، لِرَاحَةِ الْأَبْدَانِ ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ وَالْجَوَارِحَ تَكِلُّ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَةِ فِي الِانْتِشَارِ بِالنَّهَارِ فِي الْمَعَاشِ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَسَكَنَ سَكَنَتِ الْحَرَكَاتُ فَاسْتَرَاحَتْ ، فَحَصَلَ النَّوْمُ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ مَعًا ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أَيْ : يَنْتَشِرُ النَّاسُ فِيهِ لِمَعَايِشِهِمْ وَمَكَاسِبِهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [القصص : ٧٣]

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ، أَيْ : بِمَجِيءِ السَّحَابِ بَعْدَهَا ، وَالرِّيَاحُ أَنْوَاعٌ فِي صِفَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّسْخِيرِ ، فَمِنْهَا مَا يُثِيرُ السَّحَابَ ، وَمِنْهَا مَا يَحْمِلُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَسُوقُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ مُبَشِّرًا ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ يَقُمُّ الْأَرْضَ ، وَمِنْهَا مَا يُلَقِّحُ السَّحَابَ لِيُمْطِرَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ أَيْ : آلَةً يُتَطَهَّرُ بِهَا كَالسَّحُورِ ، وَالْوَقُودِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا ، فَهَذَا أَصَحُّ مَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أَيْ : أَرْضًا قَدْ طَالَ انْتِظَارُهَا لِلْغَيْثِ ، فَهِيَ هَامِدَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْحَيَاءُ عَاشَتْ وَاكْتَسَتْ رُبَاهَا أَنْوَاعَ الْأَزَاهِيرِ وَالْأَلْوَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [الحج : ٥] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أَيْ : وَلْيَشْرَبْ مِنْهُ الْحَيَوَانُ مِنْ أَنْعَامٍ وَأَنَاسِيَّ ، مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْحَاجَةِ لِشُرْبِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم : ٥٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ : أَمْطَرْنَا هَذِهِ الْأَرْضَ دُونَ هَذِهِ ، وَسُقْنَا السَّحَابَ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِ وَيَتَعَدَّاهَا وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْأُخْرَى ، فَيُمْطِرُهَا وَيَكْفِيهَا وَيَجْعَلُهَا غَدَقًا ، وَالَّتِي وَرَاءَهَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهَا قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ الْقَاطِعَةُ . ﴿ لِيَذَّكَّرُواْ ﴾ أَيْ : لِيَذَّكَّرُوا بِإِحْيَاءِ اللهِ الْأَرْضَ الْمَيْتَةَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ وَالْعِظَامِ الرُّفَاتِ ، أَوْ لِيَذَّكَّرَ مَنْ مُنِعَ الْمَطَرُ إِنَّمَا أَصَابَهُ ذَلِكَ بِذَنْبٍ أَصَابَهُ ، فَيُقْلِعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ « **أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَاكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ** »[1].

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

---

(١) البخاري (٨٤٦) ، مسلم (حديث ٧١) .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله ﷻ ، وَلَكِنَّا خَصَصْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْبَعْثَةِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَمَرْنَاكَ أَنْ تُبَلِّغَهُمْ هَذَا الْقُرْآنَ ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام:١٩] ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[الشورى:٧] ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف : ١٥٨] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ « بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ »(١) ، وَفِيهِمَا « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »(١). وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ يَعْنِي : بِالْقُرْآنِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾[التوبة : ٧٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : خَلَقَ الْمَاءَيْنِ الْحُلْوَ وَالْمِلْحَ ، فَالْحُلْوُ كَالْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ وَالْآبَارِ ، وَهَذَا هُوَ الْبَحْرُ الْحُلْوُ الْعَذْبُ الْفُرَاتُ الزُّلَالُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : مَالِحٌ مُرٌّ زُعَاقٌ لَا يُسْتَسَاغُ . وَهَذِهِ الْبِحَارُ السَّاكِنَةُ خَلَقَهَا اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَالِحَةً لِئَلَّا يَحْصُلَ بِسَبَبِهَا نَتْنُ الْهَوَاءِ فَيَفْسُدُ الْوُجُودُ بِذَلِكَ ، وَلِئَلَّا تَجْوَى الْأَرْضُ بِمَا يَمُوتُ فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ ، وَلَمَّا كَانَ مَاؤُهَا مِلْحًا كَانَ هَوَاؤُهَا صَحِيحًا وَمَيْتَتُهَا طَيِّبَةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ ، أَنَتَوَضَّأُ بِهِ ؟ فَقَالَ : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ »(٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا ﴾ أَيْ : بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمَالِحِ ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أَيْ : حَاجِزًا ، وَهُوَ الْيَبَسُ مِنَ الْأَرْضِ ﴿ وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أَيْ : مَانِعًا مِنْ أَنْ يَصِلَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن : ١٩-٢١] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[النمل : ٦١]

---

(١) كلاهما صحيح : وقد تقدم .
(٢) صحيح : وقد تقدم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا ﴾ . أَيْ : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ضَعِيفَةٍ ، فَسَوَّاهُ وَعَدَّلَهُ ، وَجَعَلَهُ كَامِلَ الْخِلْقَةِ ، ذَكَرًا وَأُنْثَى ، كَمَا يَشَاءُ ﴿ فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ فَهُوَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ وَلَدٌ نَسِيبٌ ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ فَيَصِيرُ صِهْرًا ، ثُمَّ يَصِيرُ لَهُ أَصْهَارٌ وَأَخْتَانٌ وَقَرَابَاتٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ ، الَّتِي لَا تَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، بِلَا دَلِيلٍ قَادَهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَلَا حُجَّةٍ أَدَّتْهُمْ إِلَيْهِ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالتَّشَهِّي وَالْأَهْوَاءِ ، فَهُمْ يُوَالُونَهُمْ وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِمْ ، وَيُعَادُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فِيهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ أَيْ : عَوْنًا فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ عَلَى حِزْبِ اللهِ ، وَحِزْبُ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٧٤-٧٥] أَيْ : آلِهَتُهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَصْرًا ، وَهَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ لِلْأَصْنَامِ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ يُقَاتِلُونَ عَنْهُمْ وَيَذُبُّونَ عَنْ حَوْزَتِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ **قِيلَ** : يُظَاهِرُ الشَّيْطَانُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ : يُعِينُهُ . **وَقِيلَ** : عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى رَبِّهِ بِالْعَدَاوَةِ وَالشِّرْكِ ، **وَقِيلَ** : مُوَالِيًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ ، مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَ اللهَ ، وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَ الله . ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ : عَنْ هَذَا الْبَلَاغِ وَهَذَا الْإِنْذَارِ مِنْ أُجْرَةٍ أَطْلُبُهَا مِنْ أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا وَمَنْهَجًا يَقْتَدِي فِيهَا بِمَا جِئْتَ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أَيْ : فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلَى الله الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، الَّذِي هُوَ ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الحديد : ٣] الدَّائِمُ الْبَاقِي ، السَّرْمَدِيُّ الْأَبَدِيُّ ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ، اجْعَلْهُ ذُخْرَكَ وَمَلْجَأَكَ ، وَهُوَ الَّذِي يُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُفْزَعُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَمُظَفِّرُكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة : ٦٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ أَيْ : اقْرِنْ بَيْنَ حَمْدِهِ وَتَسْبِيحِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ : ((**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ**))(١) أَيْ : أَخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالتَّوَكُّلَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] ، وَقَالَ : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود : ١٢٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ أَيْ : بِعِلْمِهِ التَّامِّ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ . ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ الَّذِي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي سُفُولِهَا وَكَثَافَتِهَا ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أَيْ : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وَيَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾

---

(١) البخاري حديث (٧٩٤) ، ومسلم حديث رقم (٤٨٤) .

أَيْ : اسْتَعْلِمْ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَبِيرٌ بِهِ عَالِمٌ بِهِ فَاتَّبِعْهُ وَاقْتَدِ بِهِ ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمَ بِاللهِ وَلَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم : ٤] فَمَا قَالَهُ فَهُوَ الْحَقُّ ، وَمَا أَخْبَرَهُ بِهِ فَهُوَ الصِّدْقُ ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُحَكَّمُ الَّذِي إِذَا تَنَازَعَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ وَجَبَ رَدُّ نِزَاعِهِمْ إِلَيْهِ ، فَمَا وَافَقَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ فَهُوَ الْحَقُّ ، وَمَا خَالَفَهَا فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى قَائِلِهِ وَفَاعِلِهِ ، كَائِنًا مَنْ كَانَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[النساء : ٥٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الشورى : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[الأنعام : ١١٥] أَيْ : صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَا أَخْبَرْتُكَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتُكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِغَيْرِ اللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أَيْ : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ ، وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّى اللهَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنِ ، كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْكَاتِبِ « **اُكْتُبْ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** » فَقَالُوا : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ ، وَلَكِنِ اُكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ : بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ[1] ، وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى[2] : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[الإسراء : ١١٠] أَيْ : هُوَ اللهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ ، وَقَالَ فِي هَٰذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أَيْ : لَا نَعْرِفُهُ وَلَا نُقِرُّ بِهِ ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أَيْ : لِمُجَرَّدِ قَوْلِكَ ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَيُفْرِدُونَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ ، وَقَدِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللهُ - عَلَى أَنَّ هَذِهِ السَّجْدَةَ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ مَشْرُوعٌ السُّجُودُ عِنْدَهَا

(١) البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) ظاهره يفيد أن سبب نزول الآية ما تقدم ذكره لكن لا يصح هذا كسبب نزول للآية .

لِقَارِئِهَا وَمُسْتَمِعِهَا ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمَجِّدًا نَفْسَهُ وَمُعَظِّمًا عَلَى جَمِيلِ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْبُرُوجِ وَهِيَ الْكَوَاكِبُ الْعِظَامُ ، وَقِيلَ : هِيَ قُصُورٌ فِي السَّمَاءِ لِلْحَرْسِ ، وَالْقَوْلُ الأَوَّلُ أَظْهَرُ . اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْكَوَاكِبِ الْعِظَامِ هِيَ قُصُورٌ لِلْحَرْسِ فَيَجْتَمِعُ الْقَوْلَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك : ٥] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا ﴾ وَهِيَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ الَّتِي هِيَ كَالسِّرَاجِ فِي الْوُجُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ أَيْ : مُشْرِقًا مُضِيئًا بِنُورٍ آخَرٍ مِنْ غَيْرِ نُورِ الشَّمْسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥]، وَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥-١٦]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أَيْ : يَخْلُفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، يَتَعَاقَبَانِ لَا يَفْتُرَانِ ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا ، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَاكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ [إبراهيم : ٣٣]، وَقَالَ : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أَيْ : جَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ تَوْقِيتًا لِعِبَادَةِ عِبَادِهِ لَهُ ﷻ ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي اللَّيْلِ اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَارِ ، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي النَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْلِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ** »[1].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ خِلْفَةً ﴾ أَيْ : مُخْتَلِفِينَ ، أَيْ هَذَا بِسَوَادِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ .

(١) مسلم (٢٧٥٩) .

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللهِ المُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أَيْ : بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ ، مِنْ غَيْرِ جَبْرِيَّةٍ وَلَا اِسْتِكْبَارٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] الآيَة ، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ وَلَا مَرَحٍ وَلَا أَشَرٍ وَلَا بَطَرٍ ، وَلَيْسَ المُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالمَرْضَى تَصَنُّعًا وَرِيَاءً ، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ، وَكَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ ، وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ المَشْيَ بِتَضَعُّفٍ وَتَصَنُّعٍ ، حَتَّى رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ رَأَى شَابًّا يَمْشِي رُوَيْدًا ، فَقَالَ : مَا بَالكَ ، أَأَنْتَ مَرِيضٌ ؟ قَالَ : لَا يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ، فَعَلَاهُ بِالدِّرَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ ؛ وَإِنَّمَا المُرَادُ بِالهَوْنِ هُنَا : السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ أَيْ : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الجَاهِلُ بِالقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ ، بَلْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الجَاهِلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ قِيلَ : قَالُوا : سَدَادًا ، وَقِيلَ : رُدُّوا مَعْرُوفًا مِنَ القَوْلِ ، وَقِيلَ : حُلَمَاءُ لَا يَجْهَلُونَ ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْهِمْ حَلُمُوا ، يُصَاحِبُونَ عِبَادَ اللهِ نَهَارَهُمْ بِمَا يَسْمَعُونَ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلَهُمْ خَيْرُ لَيْلٍ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ

---

(١) البخاري (٦٣٥) ، ومسلم (٦٠٣) .

لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ أَيْ : فِي طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧-١٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٩] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أَيْ : مُلَازِمًا دَائِمًا .

وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كُلُّ شَيْءٍ يُصِيبُ ابْنَ آدَمَ وَيَزُولُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِغَرَامٍ ، وَإِنَّمَا الْغَرَامُ : اللَّازِمُ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أَيْ : بِئْسَ الْمَنْزِلُ مَنْظَرًا ، وَبِئْسَ الْمَقِيلُ مَقَامًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ ﴾ الْآيَة . أَيْ : لَيْسُوا بِمُبَذِّرِينَ فِي إِنْفَاقِهِمْ فَيَصْرِفُونَ فَوْقَ الْحَاجَةِ ، وَلَا بُخَلَاءَ عَلَى أَهْلِيهِمْ فَيُقَصِّرُونَ فِي حَقِّهِمْ فَلَا يَكْفُونَهُمْ ، بَلْ عَدْلًا خِيَارًا ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا لَا هَذَا وَلَا هَذَا ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩]

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** » قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ** » قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ** » قَالَ عَبْدُ اللهِ : وَأَنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الْآيَةَ(١).

---

(١) البخاري (٦٨١١) ، ومسلم (حديث ٨٦) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ قِيلَ : أَثَامًا : وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ، وَقِيلَ : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جَزَاءً ، وَهَذَا أَشْبَهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ ، وَبِهَذَا فَسَّرَهُ بِمَا بَعْدَهُ مُبْدَلًا مِنْهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أَيْ : يُكَرَّرُ عَلَيْهِ وَيُغَلَّظُ ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أَيْ : حَقِيرًا ذَلِيلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : جَزَاؤُهُ عَلَى مَا فَعَلَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ مَا ذُكِرَ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا إِلَى الله ﷻ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى صِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ وَبَيْنَ آيَةِ النِّسَاءِ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدَنِيَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ فَتُحْمَلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ ؛ لأَنَّ هَذِهِ مُقَيَّدَةٌ بِالتَّوْبَةِ ، ثُمَّ قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] وَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِصِحَّةِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ ، كَمَا ذُكِرَ مُقَرَّرًا مِنْ قِصَّةِ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ رَجُلٍ ثُمَّ تَابَ فَقَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ فِي مَعْنَاهَا قَوْلَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ بُدِّلُوا مَكَانَ عَمَلِ السَّيِّئَاتِ بِعَمَلِ الْحَسَنَاتِ ، أَيْ : هُمُ الْمُؤْمِنُونَ كَانُوا مِنْ قَبْلِ إِيمَانِهِمْ عَلَى السَّيِّئَاتِ فَرَغِبَ اللهُ بِهِمْ عَنِ السَّيِّئَاتِ فَحَوَّلَهُمْ إِلَى الْحَسَنَاتِ ، فَأَبْدَلَهُمْ مَكَانَ السَّيِّئَاتِ الْحَسَنَاتِ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : أَبْدَلَهُمُ اللهُ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ ، وَأَبْدَلَهُمْ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَبْدَلَهُمْ بِنِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ نِكَاحَ الْمُؤْمِنَاتِ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : أَبْدَلَهُمُ اللهُ بِالْعَمَلِ السَّيِّئِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ ، وَأَبْدَلَهُمْ بِالشِّرْكِ إِخْلَاصًا ، وَأَبْدَلَهُمْ بِالْفُجُورِ إِحْصَانًا ، وَبِالْكُفْرِ إِسْلَامًا .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ الْمَاضِيَةَ تَنْقَلِبُ بِنَفْسِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ حَسَنَاتٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ مَا مَضَى نَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَاسْتَغْفَرَ ، فَيَنْقَلِبُ الذَّنْبُ طَاعَةً بِهَذَا الاعْتِبَارِ ، فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ وَإِنْ وَجَدَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ ، وَيَنْقَلِبُ حَسَنَةً فِي صَحِيفَتِهِ ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِذَلِكَ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنِّي

لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ نَحُّوا عَنْهُ كِبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُوهُ عَنْ صِغَارِهَا ، قَالَ : فَيُقَالُ لَهُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا : كَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا : كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : نَعَمْ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَيُقَالُ : فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا » قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[1].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عُمُومِ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَأَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا ، كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أَيْ : فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣]، أَيْ : لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ .

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ : أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، قِيلَ : هُوَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، وَقِيلَ : الْكَذِبُ وَالْفِسْقُ وَالْكُفْرُ وَاللَّغْوُ وَالْبَاطِلُ ، وَقِيلَ : هُوَ اللَّغْوُ وَالْغِنَاءُ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ أَيْ : شَهَادَةُ الزُّورِ ، وَهِيَ الْكَذِبُ مُتَعَمِّدًا عَلَى غَيْرِهِ ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ[2] عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ » ثَلَاثًا - قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ : « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ،

(١) مسلم (حديث ١٩٠) .
(٢) البخاري (٢٦٥٤) ، ومسلم (٨٧) .

أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ . **وَالْأَظْهَرُ مِنَ السِّيَاقِ** أَنَّ الْمُرَادَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أَيْ : لَا يَحْضُرُونَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أَيْ : لَا يَحْضُرُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا اتَّفَقَ مُرُورُهُمْ بِهِ مَرُّوا وَلَمْ يَتَدَنَّسُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] ، بِخِلَافِ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلَامَ الله لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ ، بَلْ يَبْقَى مُسْتَمِرًّا عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجَهْلِهِ وَضَلَالِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٢٤-١٢٥] ، **فَقَوْلُهُ** : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أَيْ : بِخِلَافِ الْكَافِرِ الَّذِي إِذَا سَمِعَ آيَاتِ الله فَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ فَيَسْتَمِرُّ عَلَى حَالِهِ ، كَأَنْ لَمْ يَسْمعهَا ، أَصَمٌّ أَعْمَى ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ قَالَ : لَمْ يَسْمَعُوا ، وَلَمْ يُبْصِرُوا ، وَلَمْ يَفْقَهُوا شَيْئًا . **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** ﷺ : كَمْ مِنْ رَجُلٍ يَقْرَؤُهَا وَيَخِرُّ عَلَيْهَا أَصَمٌّ أَعْمَى . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ يَقُولُ : لَمْ يَصُمُّوا عَنِ الْحَقِّ وَلَمْ يَعْمُوا فِيهِ ، فَهُمْ وَالله قَوْمٌ عَقَلُوا عَنِ الْحَقِّ وَانْتَفَعُوا بِمَا سَمِعُوا مِنْ كِتَابِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ يَسْأَلُونَ الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ مَنْ يُطِيعُهُ وَيَعْبُدُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : يَعْنُونَ مَنْ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ الله فَتَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : لَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ صَبَاحَةً وَلَا جَمَالًا ، وَلَكِنْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونُوا مُطِيعِينَ .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ[١] **قَالَ** : جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ : طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ ، فَاسْتَغْضَبَ الْمِقْدَادُ ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ ؛ لأَنَّهُ مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ : مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مُحْضَرًا غَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُ ، لَا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ ؟ وَاللهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامًا أَكَبَّهُمُ اللهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ ، لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ ، أَوَلَا تَحْمَدُونَ اللهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ ، مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ، قَدْ كُفِيتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ ، لَقَدْ بَعَثَ اللهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَرِّ حَالٍ ، بَعَثَ عَلَيْهَا نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فَتْرَةٍ جَاهِلِيَّةٍ ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِه حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ ، أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلْإِيمَانِ ، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ . وَأَنَّهَا الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : أَئِمَّةً يُقْتَدَى بِنَا فِي الْخَيْرِ . **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : هُدَاةً مُهْتَدِينَ ، دُعَاةً إِلَى الْخَيْرِ ، فَأَحَبُّوا أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهُمْ مُتَّصِلَةً بِعِبَادَةِ أَوْلَادِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونَ هُدَاهُمْ مُتَعَدِّيًا إِلَى غَيْرِهِمْ بِالنَّفْعِ وَذَلِكَ أَكْثَرُ ثَوَابًا وَأَحْسَنُ مَآبًا ، وَلِهَذَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ** »[٢] .

أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا

---

(١) إسناده صحيح : أحمد في المسند (٦ / ٢) .
(٢) مسلم (حديث ١٦٣١) .

دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا ذَكَرَ مِنَ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْجَلِيلَةِ ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أَيْ : الْمُتَّصِفُونَ بِهَٰذِهِ ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ٱلْغُرْفَةَ ﴾ وَهِيَ الْجَنَّةُ ، **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِارْتِفَاعِهَا ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى الْقِيَامِ بِذَلِكَ ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾ أَيْ : يُبْتَدَءُونَ فِيهَا بِالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ ، وَيلَقَّوْنَ التَّوْقِيرَ وَالِاحْتِرَامَ ، فَلَهُمُ السَّلَامُ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مُقِيمِينَ لَا يَظْعَنُونَ ، وَلَا يُحَوَّلُونَ ، وَلَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَزُولُونَ عَنْهَا ، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود : ١٠٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أَيْ : حَسُنَتْ مَنْظَرًا ، وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا . ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى ﴾ أَيْ : لَا يُبَالِي بِكُمْ وَلَا يَكْتَرِثُ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . ﴿ لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أَيْ : لَوْلَا إِيمَانُكُمْ . ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أَيْ : أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أَيْ : فَسَوْفَ يَكُونُ تَكْذِيبُكُمْ لِزَامًا لَكُمْ ، يَعْنِي : مُقْتَضِيًا لِعَذَابِكُمْ وَهَلَاكِكُمْ وَدَمَارِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ يَوْمُ بَدْرٍ . **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الشُّعَراءِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

وَوَقَعَ فِي تَفْسِيرِ مَالِكٍ المَرْوِيّ عَنْهُ تَسْمِيَتُهَا « سُورَةُ الجَامِعَةِ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ ، فَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ البَقَرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ المُبِينِ ، أَيْ : الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ الجَلِيُّ ، الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ ﴾ أَيْ : مُهْلِكٌ ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ أَيْ : مِمَّا تَحْرِصُ عَلَيْهِمْ وَتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَمِ إِيمَانِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ [الكهف : ٦] . **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أَيْ : قَاتِلٌ نَفْسَكَ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا لَأَنْزَلْنَا آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ قَهْرًا ، وَلَكِنَّا لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّا لَا نُرِيدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

الْإِيمَانَ الِاخْتِيَارِيَّ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] . فَنَفَذَ قَدَرُهُ وَمَضَتْ حِكْمَتُهُ ، وَقَامَتْ حُجَّتُهُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ ، بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أَيْ : كُلَّمَا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ أَعْرَضَ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠]

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ **أَيْ :** فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، فَسَيَعْلَمُونَ نَبَأَ هَذَا التَّكْذِيبِ بَعْدَ حِينٍ ﴿ **وَسَيَعْلَمُ** ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى عَظَمَتِهِ فِي سُلْطَانِهِ وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَشَأْنِهِ ، الَّذِي اِجْتَرَءُوا عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِهِ وَتَكْذِيبِ كِتَابِهِ ، وَهُوَ الْقَاهِرُ الْعَظِيمُ الْقَادِرُ ، الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ ، وَأَنْبَتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ، مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَحَيَوَانٍ . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أَيْ : دَلَالَةً عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ لِلْأَشْيَاءِ ، الَّذِي بَسَطَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بِنَاءَ السَّمَاءِ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَرُ النَّاسِ ، بَلْ كَذَّبُوا بِهِ وَبِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ ، وَخَالَفُوا أَمْرَهُ وَارْتَكَبُوا زَوَاجِرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : بِخَلْقِهِ فَلَا يَعْجَلُ عَلَى مَنْ عَصَاهُ بَلْ يُؤَجِّلُهُ وَيُنْظِرُهُ ثُمَّ يَأْخُذُهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، **وَقِيلَ :** ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فِي نِقْمَتِهِ وَانْتِصَارِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَعَبَدَ غَيْرَهُ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا

رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ وَكَلِيمَهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ - صَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - حَيْثُ نَادَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ ، وَأَرْسَلَهُ وَاصْطَفَاهُ ، وَأَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ هَذِهِ أَعْذَارٌ سَأَلَ مِنَ اللهِ إِزَاحَتَهَا عَنْهُ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٢٥-٣٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ قَتْلِ ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ الَّذِي كَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أَيْ : قَالَ اللهُ لَهُ لَا تَخَفْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ [القصص : ٣٥] أَيْ : بُرْهَانًا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٥] ﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] أَيْ : إِنَّنِي مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَكِلَاءَتِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي .

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] أَيْ : كُلٌّ مِنَّا رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : أَطْلِقْهُمْ مِنْ إِسَارِكَ وَقَبْضَتِكَ وَقَهْرِكَ وَتَعْذِيبِكَ ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُ اللهِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَحِزْبُهُ الْمُخْلِصُونَ ، وَهُمْ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى ذَلِكَ أَعْرَضَ فِرْعَوْنُ هُنَالِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الِازْدِرَاءِ وَالْغَمْصِ .

فَقَالَ: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ الْآيَة ، أَيْ : أَمَا

أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِينَا ، وَفِي بَيْتِنَا ، وَعَلَى فِرَاشِنَا ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّةً مِنَ السِّنِينَ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَاكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ، أَنْ قَتَلْتَ مِنَّا رَجُلًا وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : الْجَاحِدِينَ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا ﴾ ، أَيْ : فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أَيْ : قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ ، وَيُنْعِمَ اللهُ عَلَيَّ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ . وَقِيلَ : ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أَيْ : الْجَاهِلِينَ . ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ . الْآيَةَ . أَيْ : انْفَصَلَ الْحَالُ الْأَوَّلُ وَجَاءَ أَمْرٌ آخَرُ فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ أَطَعْتَهُ سَلِمْتَ ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَطِبْتَ . ثُمَّ قَالَ مُوسَى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : وَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَرَبَّيْتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَجَعَلْتَهُمْ عَبِيدًا وَخَدَمًا ، تَصْرِفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ ، أَفَيَفِي إِحْسَانُكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتَ إِلَى مَجْمُوعِهِمْ ؟ أَيْ : لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَ بِهِمْ .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَتَمَرُّدِهِ وَطُغْيَانِهِ وَجُحُودِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِقَوْمِهِ ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص : ٣٨] ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وَكَانُوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ - جَلَّ وَعَلَا - وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَى فِرْعَوْنَ ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَالَ لَهُ : وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ غَيْرِي ؟ هَكَذَا فَسَّرَهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ وَأَئِمَّةُ الْخَلَفِ ، حَتَّى قَالَ السُّدِّيُّ : هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩-٥٠] ، وَمَنْ زَعَمَ مِنْ أَهْلِ الْمَنْطِقِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ هَذَا سُؤَالٌ عَنِ الْمَاهِيَّةِ فَقَدْ

غلط ، فإنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُقِرًّا بالصَّانِعِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنِ المَاهِيَّةِ ، بَلْ كَانَ جَاحِدًا لَهُ بِالْكُلِّيَّةِ فِيمَا يَظْهَرُ ، وَإِنْ كَانَتِ الحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ : ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ أَيْ : خَالِقُ جَمِيعِ ذَلِكَ وَمَالِكُهُ ، وَالمُتَصَرِّفُ فِيهِ وَإِلَهُهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، هُوَ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الأَشْيَاءَ كُلَّهَا ، العَالَمَ العُلْوِيَّ وَمَا فِيهِ مِنَ الكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ النَّيِّرَاتِ ، وَالعَالَمَ السُّفْلِيَّ وَمَا فِيهِ مِنْ بِحَارٍ وَقِفَارٍ ، وَجِبَالٍ وَأَشْجَارٍ وَحَيَوَانَاتٍ وَنَبَاتٍ وَثِمَارٍ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الهَوَاءِ وَالطُّيُورِ وَمَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ الجَوُّ ، الجَمِيعُ عَبِيدٌ لَهُ خَاضِعُونَ ذَلِيلُونَ . ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمْ قُلُوبٌ مُوقِنَةٌ وَأَبْصَارٌ نَافِذَةٌ . فَعِنْدَ ذَلِكَ التَفَتَ فِرْعَوْنُ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَلَئِهِ وَرُؤَسَاءِ دَوْلَتِهِ ، قَائِلًا لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ لِمُوسَى فِيمَا قَالَهُ : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَعْجَبُونَ مِمَّا يَقُولُ هَذَا فِي زَعْمِهِ أَنَّ لَكُمْ إِلَهًا غَيْرِي ؟ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : خَالِقُكُمْ وَخَالِقُ آبَائِكُمُ الأَوَائِلِ ، الَّذِي كَانُوا قَبْلَ فِرْعَوْنَ وَزَمَانِهِ ﴿ قَالَ ﴾ أي : فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، أَيْ : لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ فِي دَعْوَاهُ ، أَنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيْرِي ، ﴿ قَالَ ﴾ أَيْ مُوسَى لِأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْعَزَ إِلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ مَا أَوْعَزَ مِنَ الشُّبْهَةِ ، فَأَجَابَ مُوسَى بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي جَعَلَ المَشْرِقَ مَشْرِقًا تَطْلُعُ مِنْهُ الكَوَاكِبُ ، وَالمَغْرِبَ مَغْرِبًا تَغْرُبُ فِيهِ الكَوَاكِبُ ، ثَوَابِتُهَا وَسَيَّارَاتُهَا ، مَعَ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي سَخَّرَهَا فِيهِ وَقَدَّرَهَا ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ رَبُّكُمْ وَإِلَهُكُمْ صَادِقًا فَلْيَعْكِسِ الأَمْرَ ، وَلْيَجْعَلِ المَشْرِقَ مَغْرِبًا وَالمَغْرِبَ مَشْرِقًا ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ : ﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وَلِهَذَا لَمَّا غُلِبَ فِرْعَوْنُ وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ عَدَلَ إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِ وَقُوَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ وَنَافِذٌ فِي مُوسَى عليه السلام فَقَالَ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ :

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى فِرْعَوْنَ بِالْبَيَانِ وَالْعَقْلِ عَدَلَ إِلَى أَنْ يَقْهَر مُوسَى بِيَدِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْمَقَامِ مَقَالٌ ، **فَقَالَ** : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ **فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى** ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بِبُرْهَانٍ قَاطِعٍ وَاضِحٍ . ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ وَاضِحٌ فِي غَايَةِ الْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ وَالْعَظَمَةِ ، ذَاتُ قَوَائِمَ وَفَمٍ كَبِيرٍ وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعِجٍ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ أَيْ : مِنْ جَيْبِهِ ﴿ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾ أَيْ : تَتَلَأْلَأُ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَمَرِ ، فَبَادَرَ فِرْعَوْنُ - لِشَقَائِهِ - إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعِنَادِ ، فَقَالَ **لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ** : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ **أَيْ** : فَاضِلٌ بَارِعٌ فِي السِّحْرِ ، فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ لَا مِنْ **قَبِيلِ** الْمُعْجِزَةِ ، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلَى مُخَالَفَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، **فَقَالَ** : ﴿ يُرِيدُ أَن **يُخْرِجَكُم** مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ ﴾ أَيْ : أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِقُلُوبِ النَّاسِ مَعَهُ بِسَبَبِ **هَذَا** ، فَيُكَثِّرُ أَعْوَانَهُ وَأَنْصَارَهُ وَأَتْبَاعَهُ ، وَيَغْلِبَكُمْ عَلَى دَوْلَتِكُمْ ، فَيَأْخُذَ الْبِلَادَ **مِنْكُمْ** ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَعُ بِهِ ؟ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ **حَـٰشِرِينَ** ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيْ : أَخِّرْهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تَجْمَعَ لَهُ مِنْ **مَدَائِنِ** مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلَّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ، يُقَابِلُونَهُ وَيَأْتُونَ بِنَظِيرِ مَا **جَاءَ بِهِ** ، فَتَغْلِبَهُ أَنْتَ وَتَكُونَ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّأْيِيدُ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ **تَسْخِيرِ** اللهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، لِيَجْتَمِعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَظْهَرَ آيَاتُ اللهِ **وَحُجَجُهُ** وَبَرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً .

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ المَنَاظِرَ الْفِعْلِيَّةَ بَيْنَ مُوسَى عليه السلام وَالْقِبْطِ فِي ((سُورَةِ الْأَعْرَافِ))(١) وَفِي ((سُورَةِ طه))(٢) وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ : وَذَلِكَ أَنَّ الْقِبْطَ أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، فَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَهَذَا شَأْنُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مَا تَوَاجَهَا وَتَقَابَلَا إِلَّا غَلَبَهُ الْإِيمَانُ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨]﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء : ٨١]، وَلِهَذَا لَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَالِيمِ بِلَادِ مِصْرَ ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَسْحَرَ النَّاسِ وَأَصْنَعَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ تَخْيِيلًا فِي ذَلِكَ ، وَكَانَ السَّحَرَةُ جَمْعًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا .

وَاجْتَهَدَ النَّاسُ فِي الِاجْتِمَاعِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ وَلَمْ يَقُولُوا نَتَّبِعُ الْحَقَّ سَوَاءً كَانَ مِنَ السَّحَرَةِ أَوْ مِنْ مُوسَى ، بَلِ الرَّعِيَّةُ عَلَى دِينِ مَلِكِهِمْ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ أَيْ : إِلَى مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ وَقَدْ ضَرَبُوا لَهُ وِطَاقًا ، وَجَمَعَ خَدَمَهُ وَحَشَمَهُ وَوُزَرَاءَهُ وَرُؤَسَاءَ دَوْلَتِهِ وَجُنُودَ مَمْلَكَتِهِ ، فَقَامَ السَّحَرَةُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّقَرُّبَ إِلَيْهِ إِنْ غَلَبُوا - أَيْ : هَذَا الَّذِي جَمَعْتَنَا مِنْ أَجْلِهِ - فَقَالُوا: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أَيْ : وَأَخَصُّ مِمَّا تَطْلُبُونَ أَجْعَلُكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ

(١) الآيات : (١٠٣ - ١٢٦) .
(٢) الآيات : (٤٩ - ٧٦) .

عِنْدِي وَجُلَسَائِي ، فَعَادُوا إِلَى مَقَامِ الْمُنَاظَرَةِ ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾[طه : ٦٥-٦٦] ، وَقَدِ اخْتُصِرَ هَذَا هَهُنَا فَقَالَ : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ ، وَهَذَا كَمَا يَقُولُهُ الْجَهَلَةُ مِنَ الْعَوَامِّ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا : هَذَا بِثَوَابِ فُلَانٍ . وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » أَنَّهُمْ ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف : ١١٦] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ « طه » ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[طه : ٦٦-٦٩] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أَيْ : تَخْطَفُهُ وَتَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ بُقْعَةٍ وَتَبْتَلِعُهُ ، فَلَمْ تَدَعْ مِنْهُ شَيْئًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾[الأعراف : ١١٨-١٢٢] ، وكَانَ هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جِدًّا ، وَبُرْهَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ وَحُجَّةً دَامِغَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَغْلِبُوا قَدْ غُلِبُوا وَخَضَعُوا وَآمَنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ، وَسَجَدُوا لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي أَرْسَلَ مُوسَى وَهَارُونَ بِالْحَقِّ وَبِالْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ ، فَغُلِبَ فِرْعَوْنُ غَلَبًا لَمْ يُشَاهِدِ الْعَالَمُ مِثْلَهُ ، وَكَانَ وَقِحًا جَرِيئًا - عَلَيْهِ لَعْنَةُ الله - فَعَدَلَ إِلَى الْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ وَدَعْوَى الْبَاطِلِ ، فَشَرَعَ يَتَهَدَّدُهُمْ وَيَتَوَعَّدُهُمْ وَيَقُولُ : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾[الأعراف : ١٢٣]

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝

تَهَدَّدَهُمْ فَلَمْ يَقْطَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَابُ الْكُفْرِ ، وَظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ بِعِلْمِهِمْ مَا جَهِلَ قَوْمُهُمْ ، مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَا يَصْدُرُ عَنْ بَشَرٍ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ أَيَّدَهُ بِهِ ،

وَجَعَلَهُ لَهُ حُجَّةً وَدَلَالَةً عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلْتُمْ وَلَا تَفْتَئِتُوا عَلَيَّ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ أَذِنْتُ لَكُمْ فَعَلْتُمْ ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ امْتَنَعْتُمْ ، فَإِنِّي أَنَا الْحَاكِمُ الْمُطَاعُ ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ بُطْلَانَهَا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ كَبِيرُهُمُ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَةَ السِّحْرِ ؟ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَالصَّلْبِ ، فَقَالُوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أَيْ : لَا حَرَجَ ، وَلَا يَضُرُّنَا ذَلِكَ وَلَا نُبَالِي بِهِ ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ أَيْ : الْمَرْجِعُ إِلَى اللهِ ﷻ وَهُوَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فَعَلْتَ بِنَا وَسَيَجْزِينَا عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ ﴾ أَيْ : مَا قَارَفْنَاهُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمَنَا مِنَ الْقِبْطِ إِلَى الْإِيمَانِ فَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ .

۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾

لَمَّا طَالَ مُقَامُ مُوسَى ﷺ بِبِلَادِ مِصْرَ ، وَأَقَامَ بِهَا حُجَجَ اللهِ وَبَرَاهِينَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ ، لَمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا الْعَذَابُ وَالنَّكَالُ ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى ﷺ أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْلًا مِنْ مِصْرَ ، وَأَنْ يَمْضِيَ بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَرُ . فَفَعَلَ مُوسَى ﷺ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ ﷻ ، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَمَا اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ حُلِيًّا كَثِيرًا ، وَكَانَ خُرُوجُهُ بِهِمْ - فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ - وَقْتَ طُلُوعِ الْقَمَرِ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَلَيْسَ فِي نَادِيهِمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ ، غَاظَ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا يُرِيدُ اللهُ بِهِ مِنَ الدَّمَارِ ، فَأَرْسَلَ سَرِيعًا فِي بِلَادِهِ حَاشِرِينَ ، أَيْ : مَنْ يَحْشُرُ الْجُنْدَ وَيَجْمَعُهُ ، كَالنُّقَبَاءِ وَالْحُجَّابِ ، وَنَادَى فِيهِمْ

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أَيْ : لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أَيْ : كُلَّ وَقْتٍ يَصِلُ مِنْهُمْ إِلَيْنَا مَا يَغِيظُنَا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ كُلَّ وَقْتٍ نَحْذَرُ مِنْ غَائِلَتِهِمْ ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ ، وَأُبِيدَ خَضْرَاءَهُمْ ، فَجُوزِيَ فِي نَفْسِهِ وَجُنْدِهِ بِمَا أَرَادَ لَهُمْ ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيمِ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَتَرَكُوا تِلْكَ الْمَنَازِلَ الْعَالِيَةَ ، وَالْبَسَاتِينَ وَالْأَنْهَارَ ، وَالْأَمْوَالَ وَالْأَرْزَاقَ ، وَالْمُلْكَ وَالْجَاهَ الْوَافِرَ فِي الدُّنْيَا .

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥]

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ فِرْعَوْنَ خَرَجَ فِي جَحْفَلٍ عَظِيمٍ وَجَمْعٍ كَبِيرٍ ، هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي زَمَانِهِ ، أُولِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالدُّوَلِ ، مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْجُنُودِ ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أَيْ : وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ، وَهُوَ طُلُوعُهَا ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ ﴾ أَيْ : رَأَى كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ انْتَهَى بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى سِيفِ الْبَحْرِ - وَهُوَ بَحْرُ الْقُلْزُمِ - فَصَارَ أَمَامَهُمُ الْبَحْرُ ، وَقَدْ

أَدْرَكَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ،فَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أَيْ : لَا يَصِلُ إِلَيْكُمْ شَيْءٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَسِيرَ هَهُنَا بِكُمْ ، وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ﴾ أَيْ : فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ لِعِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ لَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَحِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ[1].

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ ، أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتْلُوهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي الْإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى آتَى إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، أَيْ : مِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ وَقْتِ نَشَأَ وَشَبَّ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ مَعَ اللهِ ﷻ فَقَالَ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ : مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ؟ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾ أَيْ : مُقِيمِينَ عَلَى عِبَادَتِهَا وَدُعَائِهَا ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يَعْنِي : اعْتَرَفُوا بِأَنَّ أَصْنَامَهُمْ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : إِنْ كَانَتْ

---

(١) راجع تفسير آية (٩ - ١٠) من هذه السورة .

هَذِهِ الْأَصْنَامُ شَيْئًا ، وَلَهَا تَأْثِيرٌ فَلْتَتَخَلَّصْ إِلَيَّ بِالْمَسَاءَةِ ، فَإِنِّي عَدُوٌّ لَهَا لَا أُبَالِيهَا وَلَا أُفَكِّرُ فِيهَا ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نُوحٍ عليه السلام ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس : ٧١] ، وَقَالَ هُودٌ عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤-٥٦] ، وَهَكَذَا تَبَرَّأَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ ﴾ [الزخرف : ٢٦-٢٨] يَعْنِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . يَعْنِي : لَا أَعْبُدُ إِلَّا الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ الَّذِي قَدَّرَ قَدَرًا وَهَدَى الْخَلَائِقَ إِلَيْهِ ، فَكُلٌّ يَجْرِي عَلَى مَا قدرَ ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ أَيْ : هُوَ خَالِقِي وَرَازِقِي ، بِمَا سَخَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، فَسَاقَ الْمُزْنَ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ ، وَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ، وَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ عَذْبًا زُلَالًا يَسْقِيهِ مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أَسْنَدَ الْمَرَضَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ ، وَلَكِنْ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَدَبًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى آمِرًا الْمُصَلِّيَ أَنْ يَقُولَ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَأَسْنَدَ الْإِنْعَامَ وَالْهِدَايَةَ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَالْغَضَبُ حُذِفَ فَاعِلُهُ أَدَبًا ، وَأَسْنَدَ الضَّلَالَ إِلَى الْعَبِيدِ ، كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أَيْ : إِذَا وَقَعْتُ فِي مَرَضٍ فَإِنَّهُ

لَا يَقْدِرُ عَلَى شِفَائِي أَحَدٌ غَيْرُهُ ، بِمَا يُقَدِّرُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ . ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى غُفْرَانِ الذُّنُوبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا هُوَ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ، وَهُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ .

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وَهَذَا سُؤَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنْ يُؤْتِيَهُ رَبُّهُ حُكْمًا . **قِيلَ** : وَهُوَ الْعِلْمُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ اللُّبُّ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الْقُرْآنُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ النُّبُوَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : اِجْعَلْنِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ : « **اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى** »[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ أَيْ : وَاجْعَلْ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي أُذْكَرُ بِهِ ، وَيُقْتَدَى بِي فِي الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨-١١٠] **قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ** : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ يَعْنِي : الثَّنَاءَ الْحَسَنَ ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] . **قِيلَ** : كُلُّ مِلَّةٍ تُحِبُّهُ وَتَتَوَلَّاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبَقَاءِ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ بَعْدِي ، وَفِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ

(١) البخاري (٦٥٠٩) .

إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الْآيَة ، كَقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾[إبراهيم : ٤١] ، وَهَذَا مِمَّا رَجَعَ عَنْهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[التوبة : ١١٤] ، وَقَدْ قَطَعَ تَعَالَى الْإِلْحَاقَ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ فَقَالَ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾[الممتحنة : ٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : أَجِرْنِي مِنَ الْخِزْيِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ الْخَلَائِقُ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ رَأَى أَبَاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ الغَبَرَةُ وَالقَتَرَةُ** »(١). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي ؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، انْظُرْ تَحْتَ رِجْلَيْكَ ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ** »(٢). وَالذِّيخُ هُوَ : الذَّكَرُ مِنَ الضِّبَاعِ ، كَأَنَّهُ حُوِّلَ آزَرَ إِلَى صُورَةِ ذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ بِعَذِرَتِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ كَذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَقِي الْمَرْءَ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَالُهُ ، وَلَوِ افْتَدَى بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ أَيْ : وَلَوِ افْتَدَى بِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَلَا يَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الْإِيمَانُ بِاللهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ ، وَالتَّبَرِّي مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أَيْ : سَالِمٍ مِنَ الدَّنَسِ وَالشِّرْكِ .

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟

(١) البخاري (٤٧٦٨) .
(٢) البخاري (٣٣٥٠) .

فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ ﴾ أَيْ : قُرِّبَتْ وَأُدْنِيَتْ مِنْ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مُزَخْرَفَةٌ مُزَيَّنَةٌ لِنَاظِرِيهَا ، وَهُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ رَغِبُوا فِيهَا ، وَعَمِلُوا لَهَا فِي الدُّنْيَا ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أَيْ : أُظْهِرَتْ وَكُشِفَ عَنْهَا ، وَبَدَتْ مِنْهَا عُنُقٌ ، فَزَفَرَتْ زَفْرَةً بَلَغَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَقِيلَ لِأَهْلِهَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَتِ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ – مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ – تُغْنِي عَنْكُمُ الْيَوْمَ شَيْئًا ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ أَنْفُسِهَا ، فَإِنَّكُمْ وَإِيَّاهَا الْيَوْمَ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** يَعْنِي : فَدُهْوِرُوا فِيهَا ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : كُبُّوا فِيهَا ، وَالْكَافُ مُكَرَّرَةٌ ، كَمَا يُقَالُ : صَرْصَرٌ . **وَالْمُرَادُ** : أَنَّهُ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَقَادَتِهِمُ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلَى الشِّرْكِ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ أَيْ : أُلْقُوا فِيهَا عَنْ آخِرِهِمْ ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أَيْ : يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر : ٤٧] . وَيَقُولُونَ وَقَدْ عَادُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : نَجْعَلُ أَمْرَكُمْ مُطَاعًا كَمَا يُطَاعُ أَمْرُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : مَا دَعَانَا إِلَى ذَلِكَ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : يَعْنِي : مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، كَمَا يَقُولُونَ : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، **وَكَذَا قَالُوا** : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أَيْ : قَرِيبٍ . **قَالَ قَتَادَةُ** : يَعْلَمُونَ وَاللهِ أَنَّ الصَّدِيقَ إِذَا كَانَ صَالِحًا نَفَعَ ، وَأَنَّ الْحَمِيمَ إِذَا

كَانَ صَالِحًا شَفَعَ ، ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُمْ يُرَدُّوا إِلَى دَارِ الدُّنْيَا ؛ لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ فِيمَا يَزْعُمُونَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ فِي سُورَةِ « ص »(١) ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : أَنَّ فِي مُحَاجَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ وَإِقَامَتِهِ الْحُجَجَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْحِيدِ لَآيَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نُوحٍ ﷺ ، وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، بَعْدَمَا عُبِدَتِ الْأَصْنَامُ وَالْأَنْدَادُ ، بَعَثَهُ اللهُ نَاهِيًا عَنْ ذَلِكَ وَمُحَذِّرًا مِنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، فَكَذَّبَهُ قَوْمُهُ فَاسْتَمَرُّوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعَالِ الْخَبِيثَةِ فِي عِبَادَتِهِمْ أَصْنَامِهِمْ ، يَتَنَزَّلُ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ مَنْزِلَةَ تَكْذِيبِ جَمِيعِ الرُّسُلِ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَخَافُونَ اللهَ فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ . ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ : إِنِّي رَسُولٌ مِنَ اللهِ إِلَيْكُمْ ، أَمِينٌ فِيمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَةَ اللهِ وَلَا أَزِيدُ فِيهَا وَلَا أُنْقِصُ مِنْهَا ، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أَيْ : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ جَزَاءً عَلَى نُصْحِي لَكُمْ ، بَلْ أَدَّخِرُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فَقَدْ وَضَحَ لَكُمْ وَبَانَ صِدْقِي وَنُصْحِي وَأَمَانَتِي فِيمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ وَائْتَمَنَنِي عَلَيْهِ .

قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

(١) الآيات : (٥٨ - ٦٤) .

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

يَقُولُونَ : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَنَتَّبِعُكَ وَنَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ بِهَؤُلَاءِ الْأَرَاذِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ وَصَدَّقُوكَ وَهُمْ أَرَاذِلُنَا ؟ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَلْزَمُنِي مِنِ اتِّبَاعِ هَؤُلَاءِ لِي ، وَلَوْ كَانُوا عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانُوا عَلَيْهِ لَا يَلْزَمُنِي التَّنْقِيبُ عَنْهُمْ وَالْبَحْثُ وَالْفَحْصُ ، إِنَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ تَصْدِيقَهُمْ إِيَّايَ ، وَأَكِلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ ﷻ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنْهُ وَيُتَابِعُوهُ ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، **وَقَالَ** : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا ، فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَكُنْتُ مِنْهُ ، سَوَاءٌ كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا ، جَلِيلًا أَوْ حَقِيرًا .

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

لَمَّا طَالَ مُقَامُ نَبِيِّ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجِهَارًا ، وَكُلَّمَا كَرَّرَ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةَ صَمَّمُوا عَلَى الْكُفْرِ الْغَلِيظِ ، وَالِامْتِنَاعِ الشَّدِيدِ وَقَالُوا فِي الْآخِرِ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أَيْ : عَنْ دَعْوَتِكَ إِيَّانَا إِلَى دِينِكَ يَانُوحُ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أَيْ : لَنَرْجُمَنَّكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ دَعْوَةً اسْتَجَابَ اللهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الْآيَة ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر : ١٠] الآيات . **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وَالْمَشْحُونُ : هُوَ الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِعَةِ

وَالْأَزْوَاجِ الَّتِي حُمِلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ: أَنْجَيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ كُلَّهُمْ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ وَأَغْرَقْنَا مَنْ كَذَّبَهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ كُلَّهُمْ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ هُودٍ عليه السلام أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ عَادًا وَكَانُوا قَوْمًا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ، وَهِيَ: جِبَالُ الرَّمْلِ، قَرِيبًا مِنْ بِلَادِ حَضْرَمَوْتَ، بِلَادٌ مُتَاخِمَةٌ لِبِلَادِ الْيَمَنِ، وَكَانَ زَمَانُهُمْ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ، كَمَا قَالَ فِي «سُورَةِ الْأَعْرَافِ» ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةٍ مِنْ قُوَّةِ التَّرْكِيبِ، وَالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ الشَّدِيدِ، وَالطُّولِ الْمَدِيدِ، وَالْأَرْزَاقِ الدَّارَّةِ، وَالْأَمْوَالِ وَالْجَنَّاتِ وَالْأَنْهَارِ، وَالْأَبْنَاءِ، وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ مَعَهُ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ رَسُولًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَتَهُ وَعَذَابَهُ فِي مُخَالَفَتِهِ، فَقَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ، **إِلَى أَنْ قَالَ**: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ **اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الرِّيعِ بِمَا حَاصِلُهُ**: أَنَّهُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ عِنْدَ جَوَادِّ الطُّرُقِ الْمَشْهُورَةِ، تَبْنُونَ هُنَاكَ بِنَاءً مُحْكَمًا هَائِلًا بَاهِرًا، **وَلِهَذَا قَالَ**: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً ﴾ أَيْ: مَعْلَمًا بِنَاءً مَشْهُورًا ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ وَإِنَّمَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا لَا لِلِاحْتِيَاجِ إِلَيْهِ بَلْ لِمُجَرَّدِ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَإِظْهَارِ الْقُوَّةِ، وَلِهَذَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ عليه السلام ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ تَضْيِيعٌ لِلزَّمَانِ وَإِتْعَابٌ لِلْأَبْدَانِ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَاشْتِغَالٌ بِمَا لَا يُجْدِي فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْمَصَانِعُ : الْبُرُوجُ الْمُشَيَّدَةُ وَالْبُنْيَانُ الْمُخَلَّدُ ، **وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ** : بُرُوجُ الْحَمَامِ . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أَيْ : لِكَيْ تُقِيمُوا فِيهَا أَبَدًا ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ لَكُمْ ، بَلْ زَائِلٌ عَنْكُمْ كَمَا زَالَ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ . ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أَيْ : يَصِفُهُمْ بِالْقُوَّةِ وَالْغِلْظَةِ وَالْجَبَرُوتِ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أَيْ : اُعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَطِيعُوا رَسُولَكُمْ .

ثُمَّ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ . فَقَالَ : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : إِنْ كَذَّبْتُمْ وَخَالَفْتُمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فَمَا نَفَعَ فِيهِمْ .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَوْمِ هُودٍ لَهُ ، بَعْدَ مَا حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَرَغَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ وَوَضَّحَهُ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أَيْ : لَا نَرْجِعُ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٥٣] ، وَهَكَذَا الْأَمْرُ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ٩٦]

وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَتَسْكِينِ اللَّامِ ، يَعْنُونَ : مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَنَا بِهِ إِلَّا أَخْلَاقُ الْأَوَّلِينَ ، كَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، وَقَالَ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الفرقان : ٤-٥] ، وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ ،

يَعْنُونَ : دِينَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ هُوَ دِينُ الْأَوَائِلِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَنَحْنُ تَابِعُونَ لَهُمْ ، سَالِكُونَ وَرَاءَهُمْ ، نَعِيشُ كَمَا عَاشُوا ، وَنَمُوتُ كَمَا مَاتُوا ، وَلَا بَعْثَ وَلَا مَعَادَ ، **وَلِهَذَا قَالُوا** : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أَيْ : اِسْتَمَرُّوا عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّ اللهِ هُودٍ وَمُخَالَفَتِهِ وَعِنَادِهِ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ ، وَقَدْ بَيَّنَ سَبَبَ إِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ ؛ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَةً ، أَيْ : رِيحًا شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ ، ذَاتَ بَرْدٍ شَدِيدٍ جِدًّا ، فَكَانَ إِهْلَاكُهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْتَى شَيْءٍ وَأَجْبَرَهُ ، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَعْتَى مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٦-٧] ، وَهُمْ عَادٌ الْأُولَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم : ٥٠] ، وَهُمْ مِنْ نَسْلِ إِرَمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْعُمُدَ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ « إِرَمَ » مَدِينَةٌ فَإِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ مِنْ كَلَامِ كَعْبٍ وَوَهْبٍ ، وَلَيْسَ لِذَلِكَ أَصْلٌ أَصِيلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر : ٨] أَيْ : لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ فِي قُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ وَجَبَرُوتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ مَدِينَةً لَقَالَ : الَّتِي لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] ، وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُرْسِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا مِقْدَارُ أَنْفِ الثَّوْرِ ، عَتَتْ عَلَى الْخَزَنَةِ ، فَأَذِنَ اللهُ لَهَا فِي ذَلِكَ ، فَسَلَكَتْ فَحَصَبَتْ بِلَادَهُمْ ، فَحَصَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : ٢٥] الْآيَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٦-٧] أَيْ : كَامِلَةً ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] أَيْ : بَقُوا أَبْدَانًا بِلَا رُءُوسٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُلَ مِنْهُمْ فَتَقْتَلِعُهُ وَتَرْفَعُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُ دِمَاغَهُ وَتَكْسِرُ رَأْسَهُ وَتُلْقِيهِ ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ، وَقَدْ كَانُوا تَحَصَّنُوا فِي

الْجِبَالِ وَالْكُهُوفِ وَالْمَغَارَاتِ ، وَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْصَافِهِمْ ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللهِ شَيْئًا ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ الْآيَة .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَالِحٍ ﷺ ، أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ ثَمُودَ وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَةَ الْحِجْرِ الَّتِي بَيْنَ وَادِي الْقُرَى وَبِلَادِ الشَّامِ ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » الْأَحَادِيثَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مُرُورِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِهِمْ حِينَ أَرَادَ غَزْوَ الشَّامِ ، فَوَصَلَ إِلَى تَبُوكَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَتَأَهَّبَ لِذَلِكَ ، وَكَانُوا بَعْدَ عَادٍ وَقَبْلَ الْخَلِيلِ ﷺ فَدَعَاهُمْ نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِلَى اللهِ ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَّغَهُمْ مِنَ الرِّسَالَةِ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَبْتَغِي بِدَعْوَتِهِمْ أَجْرًا مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنَ اللهِ ﷻ ، ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ آلَاءَ اللهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ :

أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

يَقُولُ لَهُمْ وَاعِظًا لَهُمْ وَمُحَذِّرًا إِيَّاهُمْ نِقَمَ اللهِ أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ ، وَمُذَكِّرًا بِأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ الدَّارَّةِ ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَمْنٍ مِنَ الْمَحْذُورَاتِ ، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ ، وَفَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعُيُونِ الْجَارِيَاتِ ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوعِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قِيلَ : أَيْنَعَ وَبَلَغَ فَهُوَ هَضِيمٌ ، وَقِيلَ : مُعْشِبَةٌ ،

وَقِيلَ : إِذَا رَطُبَ وَاسْتَرْخَى ، وَقِيلَ : الْهَضِيمُ : الرَّطْبُ اللَّيِّنُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : حَاذِقِينَ ، وَقِيلَ : شَرِهِينَ أَشِرِينَ ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ تِلْكَ الْبُيُوتَ الْمَنْحُوتَةَ فِي الْجِبَالِ أَشَرًا وَبَطَرًا وَعَبَثًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى سُكْنَاهَا ، وَكَانُوا حَاذِقِينَ مُتْقِنِينَ لِنَحْتِهَا وَنَقْشِهَا ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ مِنْ حَالِهِمْ لِمَنْ رَأَى مَنَازِلَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أَيْ : أَقْبِلُوا عَلَى مَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ؛ لِتَعْبُدُوهُ وَتُوَحِّدُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يَعْنِي : رُؤَسَاءَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمْ ، الدُّعَاةُ لَهُمْ إِلَى الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَمُخَالَفَةِ الْحَقِّ .

قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ثَمُودَ فِي جَوَابِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ عليه السلام حِينَ دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنُونَ : مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، وَقِيلَ : ﴿ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ، وَالسَّحْرُ هُوَ : الرِّئَةُ ، وَالْأَظْهَرُ فِي هَذَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا أَنْتَ فِي قَوْلِكَ هَذَا مَسْحُورٌ لَا عَقْلَ لَكَ . ثُمَّ قَالُوا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يَعْنِي : فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكَ دُونَنَا ؟، كَمَا قَالُوا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ [القمر : ٢٥- ٢٦] ثُمَّ إِنَّهُمُ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَةً يَأْتِيهِم بِهَا ؛ لِيَعْلَمُوا صِدْقَهُ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ فَطَلَبُوا مِنْهُ وَقَدِ اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ أَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ الْآنَ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً عُشَرَاءَ - وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَةٍ عِنْدَهُمْ - مِنْ صِفَتِهَا كَذَا وَكَذَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذَ

عَلَيْهِمْ نَبِيُّ الله صَالِحٌ الْعُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ لَئِنْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ ، فَأَعْطَوْهُ ذَلِكَ ، فَقَامَ نَبِيُّ الله صَالِحٌ ﷺ فَصَلَّى ثُمَّ دَعَا اللهَ ﷻ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ ، فَانْفَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا عَنْ نَاقَةٍ عُشَرَاءَ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي وَصَفُوهَا ، فَآمَنَ بَعْضُهُمْ وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ . ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يَعْنِي : تَرِد مَاءَكُمْ يَوْمًا ، وَيَوْمًا تَرِدُونَهُ أَنْتُمْ . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فَحَذَّرَهُمْ نِقْمَةَ الله إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ ، فَمَكَثَتِ النَّاقَةُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ تَرِدُ المَاءَ ، وَتَأْكُلُ الْوَرَقَ وَالمَرْعَى ، وَيَنْتَفِعُونَ بِلَبَنِهَا يَحْلِبُونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شُرْبًا وَرِيًّا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَحَضَرَ شَقَاؤُهُمْ تَمَالَئُوا عَلَى قَتْلِهَا وَعَقْرِهَا ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ اِقْتَلَعَتِ الْقُلُوبَ مِنْ مَحَالِّهَا ، وَأَتَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ ﷺ وَهُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَارَ ، وَهُوَ اِبْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ ، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ فِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانُوا يَسْكُنُونَ « سَدُوم » وَأَعْمَالَهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ بِهَا ، وَجَعَلَ مَكَانَهَا بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً خَبِيثَةً ، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ بِبِلَادِ الْغَوْرِ ، مُتَاخِمَةٌ لِجِبَالِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِلَادِ الْكَرَكِ وَالشَّوبَكِ . فَدَعَاهُمْ إِلَى الله ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولَهُمُ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ الله ، وَارْتِكَابِ مَا كَانُوا قَدِ ابْتَدَعُوهُ فِي الْعَالَمِ ، مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمُ الْخَلَائِقُ إِلَى فِعْلِهِ ، مِنْ إِتْيَانِ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لَمَّا نَهَاهُمْ نَبِيُّ الله عَنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ وَغَشَيَانِهِمُ الذُّكُورَ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِتْيَانِ نِسَائِهِمُ اللَّاتِي خَلَقَهُنَّ اللهُ لَهُمْ ، مَا كَانَ جَوَابُهُمْ لَهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ ﴾ أَيْ : عَمَّا جِئْتَنَا بِهِ ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ أَيْ : نَنْفِيكَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَرْتَدِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلَى ضَلَالَتِهِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، **وَقَالَ** : ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ أَيْ : الْمُبْغِضِينَ ، لَا أُحِبُّهُ وَلَا أَرْضَى بِهِ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، ثُمَّ دَعَا اللهَ عَلَيْهِمْ ، **فَقَالَ** : ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ . **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ : كُلَّهُمْ ، ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ وَهِيَ امْرَأَتُهُ ، وَكَانَتْ عَجُوزَ سَوْءٍ ، بَقِيَتْ فَهَلَكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمِهَا ، وَذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ « الْأَعْرَاف » ، « وَهُود » وَكَذَا فِي « الْحِجْر » حِينَ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُسْرِيَ بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَتَهُ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُوا إِذَا سَمِعُوا الصَّيْحَةَ حِينَ تَنْزِلُ عَلَى قَوْمِهِ ، فَصَبَرُوا لِأَمْرِ اللهِ وَاسْتَمَرُّوا ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى أُولَئِكَ الْعَذَابَ الَّذِي عَمَّ جَمِيعَهُمْ ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

هَؤُلَاءِ - أَعْنِي : أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ - هُمْ أَهْلُ مَدْيَنَ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَكَانَ نَبِيُّ اللهِ شُعَيْبٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ هَهُنَا : أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ ؛ لِأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَيْكَةِ ، وَهِيَ شَجَرَةٌ ، وَقِيلَ : شَجَرٌ مُلْتَفٌّ كَالْغَيْضَةِ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا ؛ فَلِهَذَا لَمَّا قَالَ : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لَمْ يَقُلْ : ((إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ)) . وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ فَقَطَعَ نَسَبَ الْأُخُوَّةِ بَيْنَهُمْ ؛ لِلْمَعْنَى الَّذِي نُسِبُوا إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَفْطِنْ لِهَذِهِ النُّكْتَةِ فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَيْكَةِ غَيْرَ أَهْلِ مَدْيَنَ ، فَزَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا عليه السلام بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أُمَّتَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ثَلَاثَ أُمَمٍ . وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وُصِفُوا فِي كُلِّ مَقَامٍ بِشَيْءٍ ؛ وَلِهَذَا وَعَظَ هَؤُلَاءِ وَأَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، كَمَا فِي قِصَّةِ مَدْيَنَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ .

۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

يَأْمُرُهُمْ عليه السلام بِإِيفَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ فِيهِمَا ، فَقَالَ : ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا دَفَعْتُمْ لِلنَّاسِ فَكَمِّلُوا الْكَيْلَ لَهُمْ ، وَلَا تَبْخَسُوا الْكَيْلَ فَتُعْطُوهُ نَاقِصًا ، وَتَأْخُذُوهُ إِذَا كَانَ لَكُمْ تَامًّا وَافِيًا ، وَلَكِنْ خُذُوا كَمَا تُعْطُونَ وَأَعْطُوا كَمَا تَأْخُذُونَ . ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ وَالْقِسْطَاسُ : هُوَ الْمِيزَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقَبَّانُ ، وَقِيلَ : الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ : الْعَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تُنْقِصُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يَعْنِي : قَطْعَ الطَّرِيقِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٦]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يُخَوِّفُهُمْ بَأْسَ اللهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ

وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الْأَوَائِلَ .

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَتْ بِهِ ثَمُودُ لِرَسُولِهَا ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنُونَ : مِنَ الْمَسْحُورِينَ ، كَمَا تَقَدَّمَ ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : تَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ فِيمَا تَقُولُهُ لَا أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قِيلَ : جَانِبًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَقِيلَ : قِطَعًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَقِيلَ : عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء : ٩٠] إِلَى أَنْ قَالُوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْجَهَلَةُ ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الْآيَةَ .

﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يَقُولُ : اللهُ أَعْلَمُ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ جَازَاكُمْ بِهِ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَكُمْ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ بِهِمْ كَمَا سَأَلُوا جَزَاءً وِفَاقًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا سَأَلُوهُ مِنْ إِسْقَاطِ الْكِسَفِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ أَنْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ جِدًّا مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ لَا يُكِنُّهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَيْهِمْ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فَجَعَلُوا يَنْطَلِقُونَ إِلَيْهَا يَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّهَا مِنَ الْحَرِّ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَهَا أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرَرًا مِنْ نَارٍ وَلَهَبًا وَوَهَجًا عَظِيمًا ،

وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى صِفَةَ إِهْلَاكِهِمْ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنٍ ، كُلُّ مَوْطِنٍ بِصِفَةٍ تُنَاسِبُ ذَلِكَ السِّيَاقَ ، فَفِي « الْأَعْرَافِ » ذَكَرَ أَنَّهُمْ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فَأَرْجَفُوا نَبِيَّ اللهِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، وَفِي سُورَةِ « هُودٍ » قَالَ : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمُ اسْتَهْزَءُوا بِنَبِيِّ اللهِ فِي قَوْلِهِمْ : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] قَالُوا : ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالِازْدِرَاءِ فَنَاسَبَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ صَيْحَةٌ تُسْكِتُهُمْ فَقَالَ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ الْآيَةَ ، وَهَهُنَا قَالُوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الْآيَةَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ فَنَاسَبَ أَنْ يُحَقَّقَ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَبْعَدُوا وُقُوعَهُ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –: إِنَّ اللهَ سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْحَرَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى مَا يُظِلُّهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَنْشَأَ لَهُمْ سَحَابَةً فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا أَحَدُهُمْ فَاسْتَظَلَّ بِهَا ، فَأَصَابَ تَحْتَهَا بَرْدًا وَرَاحَةً ، فَأَعْلَمَ بِذَلِكَ قَوْمَهُ فَأَتَوْهَا جَمِيعًا ، فَاسْتَظَلُّوا تَحْتَهَا فَأُجِّجَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ : الْعَزِيزُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أَيْ : الْقُرْآنُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ﴾ الْآيَة ، ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَهَذَا مَا لَا

نِزَاعَ فِيهِ . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ أَمِينٌ ذُو مَكَانَةٍ عِنْدَ الله ، مُطَاعٌ فِي المَلَأِ الأَعْلَى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ، سَالِمًا مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : لِتُنْذِرَ بِهِ بَأْسَ الله وَنِقْمَتَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَكَذَّبَهُ ، وَتُبَشِّرَ بِهِ المُؤْمِنِينَ المُتَّبِعِينَ لَهُ . ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : هَذَا القُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ الكَامِلِ الشَّامِلِ ؛ لِيَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا ظَاهِرًا ، قَاطِعًا لِلْعُذْرِ ، مُقِيمًا لِلْحُجَّةِ ، دَلِيلًا إِلَى المَحَجَّةِ .

وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِنَّ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ وَالتَّنْوِيهِ بِهِ لَمَوْجُودٌ فِي كُتُبِ الأَوَّلِينَ ، المَأْثُورَةِ عَنْ أَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ بَشَّرُوا بِهِ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، كَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ المِيثَاقَ بِذَلِكَ ، حَتَّى قَامَ آخِرُهُمْ خَطِيبًا فِي مَلَئِهِ بِالْبِشَارَةِ بِأَحْمَدَ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، وَالزُّبُرُ : هَهُنَا هِيَ الْكُتُبُ جَمْعُ زُبْرَةٍ ، وَكَذَلِكَ الزَّبُورُ : وَهُوَ كِتَابُ دَاوُدَ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر : ٥٢] أَيْ : مَكْتُوبٌ عَلَيْهِمْ فِي صُحُفِ المَلَائِكَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أَيْ : أَوَلَيْسَ يَكْفِيهِمْ مِنَ الشَّاهِدِ الصَّادِقِ عَلَى ذَلِكَ : أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَجِدُونَ ذِكْرَ هَذَا الْقُرْآنِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا ؟ وَالمُرَادُ الْعُدُولُ مِنْهُمْ ، الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَبْعَثِهِ وَأُمَّتِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَعَبْدِ الله ابْنِ سَلَامٍ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ شَاكَلَهُمْ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا** عَنْ شِدَّةِ كُفْرِ قُرَيْشٍ وَعِنَادِهِمْ لِهَذَا الْقُرْآنِ ، أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَعَاجِمِ مِمَّنْ

لَا يَدْرِي مِنَ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةً ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ بِبَيَانِهِ وَفَصَاحَتِهِ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤-١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧]

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى كَذَلِكَ سَلَكْنَا التَّكْذِيبَ وَالْكُفْرَ وَالْجُحُودَ وَالْعِنَادَ أَيْ : أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : بِالْحَقِّ ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أَيْ : حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أَيْ : يَتَمَنَّوْنَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ أَنْ لَوْ أُنْظِرُوا قَلِيلًا لِيَعْمَلُوا فِي زَعْمِهِمْ بِطَاعَةِ اللهِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] فَكُلُّ ظَالِمٍ وَفَاجِرٍ وَكَافِرٍ إِذَا شَاهَدَ عُقُوبَتَهُ نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا ، هَذَا فِرْعَوْنُ لَمَّا دَعَا عَلَيْهِ الْكَلِيمُ بِقَوْلِهِ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٨-٨٩]

فَأَثَّرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي فِرْعَوْنَ ، فَمَا آمَنَ حَتَّى رَأَى الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠-٩١]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾ الْآيَات .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ الْآيَة . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ أَخَّرْنَاهُمْ وَأَنْظَرْنَاهُمْ وَأَمْلَيْنَا لَهُمْ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَحِينًا مِنَ الزَّمَانِ وَإِنْ طَالَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْرُ الله ، أَيُّ شَيْءٍ يُجْدِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ [البقرة : ٩٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل : ١١] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغْمَسُ فِي النَّارِ غَمْسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَالله يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَالله يَا رَبِّ** »[1] أَيْ : مَا كَأَنَّ شَيْئًا كَانَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ ، أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ ، وَبَعْثِهِ الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ ، وَقِيَامِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥]

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ

---

(١) مسلم (حديث ٢٨٠٧) بنحوه .

عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ الْمُؤَيَّدُ مِنَ اللهِ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدِهَا : أَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَيْ : لَيْسَ هُوَ مِنْ بُغْيَتِهِمْ وَلَا مِنْ طِلْبَتِهِمْ ؛ لأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمُ الْفَسَادَ وَإِضْلَالَ الْعِبَادِ ، وَهَذَا فِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَنُورٌ ، وَهُدًى ، وَبُرْهَانٌ عَظِيمٌ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيَاطِينِ مُنَافَاةٌ عَظِيمَةٌ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أَيْ : وَلَو انْبَغَى لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] ، ثُمَّ أَنَّهُ لَو انْبَغَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْلَهُ وَتَأْدِيَتَهُ لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ ؛ لأَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَالَ نُزُولِهِ ؛ لأَنَّ السَّمَاءَ مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا فِي مُدَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِهِ فَلَمْ يَخْلُصْ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى اسْتِمَاعِ حَرْفٍ ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ لِئَلَّا يَشْتَبِهَ الْأَمْرُ ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِفْظِهِ لِشَرْعِهِ ، وَتَأْيِيدِهِ لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْجِنِّ ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨-١٠]

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ عَذَّبَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ ، أَيْ : الْأَدْنِينَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُخَلِّصُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا إِيمَانُهُ بِرَبِّهِ ﷻ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُلِينَ جَانِبَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، كَائِنًا مَنْ كَانَ ، فَلْيَتَبَرَّأْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وَهَذِهِ النِّذَارَةُ الْخَاصَّةُ لَا تُنَافِي الْعَامَّةَ ، بَلْ هِيَ فَرْدٌ مِنْ أَجْزَائِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[يس : ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام : ١٩] ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[هود : ١٧] ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ** »[1].

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَلْنَذْكُرْهَا :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[2] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى « **يَا صَبَاحَاهُ** » فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ صَدَّقْتُمُونِي ؟** » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** » ، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا ؟ وَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

وَعَنْ عَائِشَةَ[3] قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا**

---

(١) مسلم (١٥٣) ، ولفظه : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

(٢) البخاري (٤٨٠١) ، ومسلم (٢٠٨) .

(٣) مسلم (حديث ٢٠٥) .

أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ)) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(١) ﷺ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ : ((**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّي وَاللهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا**)) .

وَعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالَا : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَضْمَةً(٢) مِنْ جَبَلٍ عَلَى أَعْلَاهَا حَجَرٌ فَجَعَلَ يُنَادِي ((**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَرَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ فَذَهَبَ يَرْبَأُ(٣) أَهْلَهُ ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يُنَادِي وَيَهْتِفُ : يَا صَبَاحَاهُ**))(٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّهُ مُؤَيِّدُكَ وَحَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظَفِّرُكَ وَمُعْلٍ كَلِمَتَكَ . ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيْ : هُوَ مُعْتَنٍ بِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : إِلَى الصَّلَاةِ ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : يَرَى قِيَامَهُ وَرُكُوعَهُ وَسُجُودَهُ ، **وَقِيلَ** : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أَيْ : مِنْ فِرَاشِكَ أَوْ مَجْلِسِكَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ ﴾ قَائِمًا وَجَالِسًا وَعَلَى حَالَاتِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قَالُوا : فِي الصَّلَاةِ يَرَاكَ وَحْدَكَ وَيَرَاكَ فِي الْجَمْعِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ

---

(١) مسلم (٢٠٤) .
(٢) الرضمة : ما دون الهضاب ، وقيل صخور بعضها فوق بعض .
(٣) يربأ أهله : أي يحفظهم من عدوهم .
(٤) مسلم (حديث ٢٠٧) .

وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس : ٦١]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِمَنْ زَعَمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ لَيْسَ بِحَقٍّ ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ اِفْتَعَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، أَوْ أَنَّهُ أَتَاهُ بِهِ رَئِيٌّ مِنَ الْجِنِّ ، فَنَزَّهَ **اللهُ سُبْحَانَهُ** وَتَعَالَى جَنَابَ رَسُولِهِ عَنْ قَوْلِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ ، وَنَبَّهَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلُهُ وَوَحْيُهُ نَزَلَ بِهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ أَمِينٌ عَظِيمٌ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُونَ عَلَى مَنْ يُشَاكِلُهُمْ وَيُشَابِهُهُمْ مِنَ الْكُهَّانِ الْكَذَبَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أَيْ : أُخْبِرُكُمْ ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أَيْ : كَذُوبٌ فِي قَوْلِهِ ، وَهُوَ الْأَفَّاكُ ﴿ أَثِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْفَاجِرُ فِي أَفْعَالِهِ ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ مِنَ الْكُهَّانِ ، وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمْ مِنَ الْكَذَبَةِ الْفَسَقَةِ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَيْضًا كَذَبَةٌ فَسَقَةٌ . ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أَيْ : يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، ثُمَّ يُلْقُونَهَا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ فَيُحَدِّثُونَ بِهَا فَيُصَدِّقُهُمُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ فِي تِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا(١) -: سَأَلَ نَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ : ((**إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ**)) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**)) .

(١) البخاري (٧٥٦١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[١] قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانَ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ : الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُو السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُو السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ** » .

وَعَنْ عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَحَدَّثُ فِي الْعَنَانِ** – وَالْعَنَانُ : الْغَمَامُ – **بِالْأَمْرِ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ ، فَتَقُرُّهَا فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ كَمَا تَقُرُّ الْقَارُورَةُ ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ** »[٢].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : الْكُفَّارُ يَتَّبِعُهُمْ ضُلَّالُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : كَانَ الشَّاعِرَانِ يَتَهَاجَيَانِ فَيَنْتَصِرُ لِهَذَا فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ ، وَلِهَذَا فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ فِي كُلِّ لَغْوٍ يَخُوضُونَ ، **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : قَدْ وَاللهِ رَأَيْنَا أَوْدِيَتَهُمُ الَّتِي يَخُوضُونَ فِيهَا مَرَّةً فِي شَتِيمَةِ فُلَانٍ ، وَمَرَّةً فِي مَدِيحَةِ فُلَانٍ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : الشَّاعِرُ يَمْدَحُ قَوْمًا بِبَاطِلٍ وَيَذُمُّ قَوْمًا بِبَاطِلٍ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** : أَكْثَرُ قَوْلِهِمْ يَكْذِبُونَ فِيهِ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَبَجَّحُونَ بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ لَمْ تَصْدُرْ مِنْهُمْ وَلَا عَنْهُمْ فَيَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ . وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا ، يَرِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا** »[٣].

---

(١) البخاري (٤٨٠٠) .

(٢) البخاري (٣٢٨٨) ، ومسلم (٢٢٢٨) .

(٣) مسلم (٢٢٥٧) .

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ ؛ لأَنَّ حَالَهُ مُنَافٍ لِحَالِهِمْ مِنْ وُجُوهٍ ظَاهِرَةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾[يس : ٦٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الحاقة : ٤٠-٤٣] ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ۝ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : إِنَّ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مِمَّا تَقَدَّمَ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ ، وَلَكِنَّ هَذَا الاسْتِثْنَاءَ يَدْخُلُ فِيهِ شُعَرَاءُ الْأَنْصَارِ وَغَيْرُهُمْ ، حَتَّى يَدْخُلَ فِيهِ مَنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا مِنْ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ بِذَمِّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، ثُمَّ تَابَ وَأَنَابَ وَرَجَعَ وَأَقْلَعَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا فِي مُقَابَلَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ ، فَإِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، وَامْتَدَحَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ فِي مُقَابَلَةِ مَا كَذَّبَ بِذَمِّهِ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَي حِينَ أَسْلَمَ :

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ ... الْغَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وَكَذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ وَأَكْثَرُهُمْ لَهُ هَجْوًا ، فَلَمَّا أَسْلَمَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكَانَ يَمْدَحُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَمَا كَانَ يَهْجُوهُ ، وَيَتَوَلَّاهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ عَادَاهُ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ **قِيلَ مَعْنَاهُ** : ذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ ، **وَقِيلَ** : فِي شِعْرِهِمْ ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ

مُكَفِّرٌ لِمَا سَبَقَ . ﴿ وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَرُدُّونَ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ : ((**اُهْجُهُمْ** - أَوْ قَالَ - **هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**))[1] وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ[2] أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ فِي الشُّعَرَاءِ مَا أَنْزَلَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحَ النَّبْلِ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، **كَقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ [غافر : ٥٢] ، **وَفِي الصَّحِيحِ** أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) .

قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، **وَقِيلَ** : الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ عَلَى كُلِّ ظَالِمٍ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ

---

(١) البخاري (٦١٥٣) ، ومسلم (٢٤٨٦) .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٨٧) .

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّمْلِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى
ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ فِي سُورَةِ « البَقَرَةِ » عَلَى الحُرُوفِ المُتَقَطِّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ آيَاتُ ﴿ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : بَيِّنٌ وَاضِحٌ ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا تَحْصُلُ الهِدَايَةُ وَالبِشَارَةُ مِنَ القُرْآنِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ ، وَآمَنَ بِالدَّارِ الآخِرَةِ ، وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ ، وَالجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم : ٩٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَ بِهَا وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعَهَا ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيْ : حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غَيِّهِمْ فَهُمْ يَتِيهُونَ فِي ضَلَالِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا جَزَاءً عَلَى مَا كَذَّبُوا مِنَ الدَّارِ الآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ يَخْسَرُ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ المَحْشَرِ ، ﴿ وَإِنَّكَ ﴾

يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ أَيْ : لَتَأْخُذُ ﴿ ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ، أَيْ : حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، عَلِيمٌ بِالأُمُورِ جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، فَخَبَرُهُ هُوَ الصِّدْقُ المَحْضُ ، وَحُكْمُهُ هُوَ الْعَدْلُ التَّامُّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥]

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُذَكِّرًا لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُوسَى ﷺ ، كَيْفَ اصْطَفَاهُ اللهُ ، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الْبَاهِرَةِ وَالأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ ، وَابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَجَحَدُوا بِهَا وَكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا مِن اتِّبَاعِهِ وَالانْقِيَادِ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : اُذْكُرْ حِينَ سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ ، فَأَضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَذَلِكَ فِي لَيْلٍ وَظَلَامٍ ، فَآنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، أَيْ : رَأَى نَارًا تَتَأَجَّجُ وَتَضْطَرِمُ ، فَقَالَ : ﴿ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أَيْ : الطَّرِيقَ ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أَيْ : تَسْتَدْفِئُونَ بِهِ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ ، فَإِنَّهُ رَجَعَ مِنْهَا بِخَبَرٍ عَظِيمٍ وَاقْتَبَسَ مِنْهَا نُورًا عَظِيمًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : فَلَمَّا أَتَاهَا وَرَأَى مَنْظَرًا هَائِلًا عَظِيمًا ، حَيْثُ اِنْتَهَى إِلَيْهَا ، وَالنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ لَا تَزْدَادُ النَّارُ إِلَّا

تَوَقُّدًا ، وَلَا تَزْدَادُ الشَّجَرَةُ إِلَّا خُضْرَةً وَنَضْرَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا نُورُهَا مُتَّصِلٌ بِعَنَانِ السَّمَاءِ . فَوَقَفَ مُوسَى مُتَعَجِّبًا مِمَّا رَأَى ﴿ نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : قُدِّسَ ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أَيْ : مِنَ المَلَائِكَةِ . عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ** »[1] زَادَ المَسْعُودِيُّ « **وَحِجَابُهُ النُّورُ** - أَوِ النَّارُ - **لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ** » ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَلَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، المُبَايِنُ لِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ ، وَلَا يَكْتَنِفُهُ الأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ ، بَلْ هُوَ الأَحَدُ الصَّمَدُ ، المُنَزَّهُ عَنْ مُمَاثَلَةِ المُحْدَثَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَعْلَمَهُ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُنَاجِيهِ هُوَ رَبُّهُ اللهُ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ، الَّذِي عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، الحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ مِنْ يَدِهِ ؛ لِيُظْهِرَ لَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ المُخْتَارُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَمَّا أَلْقَى مُوسَى تِلْكَ الْعَصَا مِنْ يَدِهِ انْقَلَبَتْ فِي الحَالِ حَيَّةً عَظِيمَةً هَائِلَةً فِي غَايَةِ الْكِبَرِ وَسُرْعَةِ الحَرَكَةِ مَعَ ذَلِكَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ ، وَالجَانُّ : ضَرْبٌ مِنَ الحَيَّاتِ ، أَسْرَعُهُ حَرَكَةً وَأَكْثَرُهُ اضْطِرَابًا ، وَفِي الحَدِيثِ[2] : نَهَى عَنْ قَتْلِ جِنَانِ الْبُيُوتِ . فَلَمَّا عَايَنَ مُوسَى ذَلِكَ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أَيْ : لَمْ يَلْتَفِتْ مِنْ شِدَّةِ فَرَقِهِ ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَخَفْ مِمَّا تَرَى ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْطَفِيَكَ رَسُولًا وَأَجْعَلَكَ نَبِيًّا وَجِيهًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَفِيهِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْبَشَرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى شَيْءٍ ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَرَجَعَ وَتَابَ وَأَنَابَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ

---

(١) مسلم (حديث ١٧٩) .

(٢) البخاري حديث رقم (٣٣١٣) ، ومسلم حديث رقم (٢٢٣٣) .

وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ هَذِهِ آيَةٌ أُخْرَى وَدَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِدْقِ مَنْ جَعَلَ لَهُ مُعْجِزَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِهِ ، فَإِذَا أَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا خَرَجَتْ بَيْضَاءَ سَاطِعَةً كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ ، لَهَا لَمَعَانٌ تَتَلَأْلَأُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ . ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ ﴾ أَيْ : هَاتَانِ ثِنْتَانِ مِنْ تِسْعِ آيَاتٍ ، أُؤَيِّدُكَ بِهِنَّ وَأَجْعَلُهُنَّ بُرْهَانًا لَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْآيَاتُ التِّسْعُ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١] كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ هُنَالِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أَيْ : بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ ظَاهِرَةٌ ﴿ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِسِحْرِهِمْ فَغُلِبُوا وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أَيْ : فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أَيْ : عَلِمُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَلَكِنْ جَحَدُوهَا وَعَانَدُوهَا وَكَابَرُوهَا ﴿ ظُلْمًا ﴾ أَيْ : ظُلْمًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ سَجِيَّةً مَلْعُونَةً ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أَيْ : اِسْتِكْبَارًا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أَيْ : اُنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ كُفْرِهِمْ فِي إِهْلَاكِ اللهِ إِيَّاهُمْ وَإِغْرَاقِهِمْ عَنْ آخِرِهِمْ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَحْوَى الْخِطَابِ يَقُولُ : احْذَرُوا أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لِمُحَمَّدٍ الْجَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ مُوسَى ، وَبُرْهَانُهُ أَدَلُّ وَأَقْوَى مِنْ بُرْهَانِ مُوسَى ، بِمَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الدَّلَائِلِ الْمُقْتَرِنَةِ بِوُجُودِهِ فِي نَفْسِهِ وَشَمَائِلِهِ ، وَمَا سَبَقَهُ مِنَ الْبِشَارَاتِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ ، وَأَخْذِ الْمَوَاثِيقِ لَهُ ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ

إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدَيْهِ وَنَبِيَّيْهِ دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا مِنَ اللهِ السَّلَامُ - مِنَ النِّعَمِ الْجَزِيلَةِ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَلِيلَةِ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَمَا جَمَعَ لَهُمَا بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمُلْكِ وَالتَّمْكِينِ التَّامِّ فِي الدُّنْيَا، وَالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فِي الدِّينِ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ أَيْ: فِي الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ وِرَاثَةَ الْمَالِ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَخُصَّ سُلَيْمَانَ وَحْدَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَوْلَادِ دَاوُدَ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لِدَاوُدَ مِائَةُ امْرَأَةٍ، وَلَكِنِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ وِرَاثَةُ الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تُورَثُ أَمْوَالُهُمْ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ**»[1].

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ أَيْ: أَخْبَرَ سُلَيْمَانُ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، فِيمَا وَهَبَهُ لَهُ مِنَ الْمُلْكِ التَّامِّ وَالتَّمْكِينِ الْعَظِيمِ، حَتَّى إِنَّهُ سَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالطَّيْرَ، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَةَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ أَيْضًا، وَهَذَا شَيْءٌ لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ فِيمَا عَلِمْنَاهُ مِمَّا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَمَنْ زَعَمَ مِنَ الْجَهَلَةِ وَالرَّعَاعِ أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ كَانَتْ تَنْطِقُ كَنُطْقِ بَنِي آدَمَ قَبْلَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، كَمَا قَدْ يَتَفَوَّهُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَهُوَ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ سُلَيْمَانَ بِذَلِكَ فَائِدَةٌ، إِذْ كُلُّهُمْ يَسْمَعُ كَلَامَ الطُّيُورِ وَالْبَهَائِمِ وَيَعْرِفُ مَا تَقُولُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، وَلَا كَمَا قَالُوا، بَلْ لَمْ تَزَلِ الْبَهَائِمُ وَالطُّيُورُ وَسَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ وَقْتِ

(١) البخاري (٦٧٢٧) بلفظ «**لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**».

خُلِقَتْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا عَلَى هَذَا الشَّكْلِ وَالْمِنْوَالِ ، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كَانَ قَدْ أَفْهَمَ سُلَيْمَانَ مَا يَتَخَاطَبُ بِهِ الطُّيُورُ فِي الْهَوَاءِ ، وَمَا تَنْطِقُ بِهِ الْحَيَوَانَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلْكُ ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أَيْ : الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ للهِ عَلَيْنَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ أَيْ : وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، يَعْنِي : رَكِبَ فِيهِمْ فِي أُبَّهَةٍ وَعَظَمَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الإِنْسِ ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَلُونَهُ ، وَالْجِنُّ وَهُمْ بَعْدَهُمْ فِي الْمَنْزِلَةِ ، وَالطَّيْرِ وَمَنْزِلَتُهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، فَإِنْ كَانَ حَرٌّ أَظَلَّتْهُ مِنْهُ بِأَجْنِحَتِهَا . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ : يُكَفُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ لِئَلَّا يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ عَنْ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هِيَ مُرَتَّبَةٌ لَهُ ، **قَالَ مُجَاهِدٌ** : جَعَلَ عَلَى كُلِّ صِنْفٍ وَزَعَةً ، يَرُدُّونَ أُولَاهَا عَلَى أُخْرَاهَا ؛ لِئَلَّا يَتَقَدَّمُوا فِي الْمَسِيرِ ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ الْيَوْمَ . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ أَيْ : حَتَّى إِذَا مَرَّ سُلَيْمَانُ عليه السلام بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُيُوشِ وَالْجُنُودِ عَلَى وَادِي النَّمْلِ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : خَافَتْ عَلَى النَّمْلِ أَنْ تَحْطِمَهَا الْخُيُولُ بِحَوَافِرِهَا ، فَأَمَرَتْهُمْ بِالدُّخُولِ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ ، فَفَهِمَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ عليه السلام مِنْهَا ، ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ أَيْ : أَلْهِمْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ مِنْ تَعْلِيمِي مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ ، وَعَلَى وَالِدَيَّ بِالإِسْلَامِ لَكَ وَالإِيمَانِ بِكَ ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ أَيْ : عَمَلًا تُحِبُّهُ وَتَرْضَاهُ ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا تَوَفَّيْتَنِي فَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَالرَّفِيقِ الأَعْلَى مِنْ أَوْلِيَائِكَ . وَالْغَرَضُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام فَهِمَ قَوْلَهَا ، وَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ جِدًّا . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : **« قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ ؟ فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً »**(١).

(١) البخاري (٣٠١٩) ، ومسلم (٢٢٤١) .

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ
﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

تَفَقَّدَ سُلَيْمَانُ ﷺ الطَّيْرَ لِيَرَى الهُدْهُدَ فَلَمْ يَرَهُ ﴿ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ أَخْطَأَهُ بَصَرِي مِنَ الطَّيْرِ أَمْ غَابَ فَلَمْ يَحْضُرْ ؟ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ يَعْنِي : نَتْفُ رِيشِهِ . قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ ، ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ يَعْنِي : قَتْلَهُ ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بِعُذْرٍ بَيِّنٍ وَاضِحٍ .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ
بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا
يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهُدْهُد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : غَابَ زَمَانًا يَسِيرًا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ لِسُلَيْمَانَ ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أَيْ : اطَّلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أَيْ : بِخَبَرِ صِدْقٍ حَقٍّ يَقِينٍ ، وَسَبَأُ : هُمْ حِمْيَرُ ، وَهُمْ مُلُوكُ الْيَمَنِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ **قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : هِيَ بِلْقِيسُ . ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَلِكُ المُتَمَكِّنُ ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يَعْنِي : سَرِيرٌ تَجْلِسُ عَلَيْهِ عَظِيمٌ هَائِلٌ مُزَخْرَفٌ بِالذَّهَبِ وَأَنْوَاعِ الجَوَاهِرِ وَاللَّآلِئِ . ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : لَا يَعْرِفُونَ سَبِيلَ الحَقِّ الَّتِي هِيَ إِخْلَاصُ السُّجُودِ لله وَحْدَهُ دُون مَا خَلَقَ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ

ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧]، وَقَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ (أَلَا يَا اُسْجُدُوا لله) جَعَلَهَا ((أَلَا)) الِاسْتِفْتَاحِيَّةَ وَ ((يَا)) لِلنِّدَاءِ ، وَحُذِفَ الْمُنَادَى ، تَقْدِيرُهُ عِنْدَهُ : ((أَلَا يَا قَوْمِ اُسْجُدُوا لله)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يَعْلَمُ كُلَّ خَبِيئَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعِبَادُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَدْعُوُّ ، وَهُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ ، وَلَمَّا كَانَ الْهُدْهُدُ دَاعِيًا إِلَى الْخَيْرِ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَالسُّجُودِ لَهُ نُهِيَ عَنْ قَتْلِهِ ، وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ[1] ﷺ عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ : النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالْهُدْهُدِ وَالصُّرَدِ .

۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْلِ سُلَيْمَانَ لِلْهُدْهُدِ حِينَ أَخْبَرَهُ عَنْ أَهْلِ سَبَأٍ وَمَلِكَتِهِمْ ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : أَصَدَقْتَ فِي إِخْبَارِكَ هَذَا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ فِي مَقَالَتِكَ لِتَتَخَلَّصَ مِنَ الْوَعِيدِ الَّذِي أَوْعَدْتُكَ ؟

وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام كَتَبَ كِتَابًا إِلَى بِلْقِيسَ وَقَوْمِهَا ، وَأَعْطَاهُ ذَلِكَ الْهُدْهُدَ فَحَمَلَهُ **قِيلَ** : فِي جَنَاحِهِ ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الطَّيْرِ ، **وَقِيلَ** : بِمِنْقَارِهِ ، وَذَهَبَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَجَاءَ إِلَى قَصْرِ بِلْقِيسَ ، إِلَى الْخَلْوَةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْتَلِي فِيهَا بِنَفْسِهَا ، فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا مِنْ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥٢٦٧) ، وغيره .

كُوَّةٍ هُنَالِكَ بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدَبًا وَرِيَاسَةً ، فَتَحَيَّرَتْ مِمَّا رَأَتْ ، وَهَالَهَا ذَلِكَ ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى الْكِتَابِ فَأَخَذَتْهُ فَفَتَحَتْ خَتْمَهُ وَقَرَأَتْهُ فَإِذَا فِيهِ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ . فَجَمَعَتْ عِنْدَ ذَلِكَ أُمَرَاءَهَا وَوُزَرَاءَهَا وَكُبَرَاءَ دَوْلَتِهَا وَمَمْلَكَتِهَا ، **ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ تَعْنِي : بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ ، كَوْنُ طَائِرٍ ذَهَبَ بِهِ فَأَلْقَاهُ إِلَيْهَا ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدَبًا ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ نَبِيِّ اللهِ سُلَيْمَانَ عليه السلام ، وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ ، وَهَذَا الْكِتَابُ فِي غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالْوَجَازَةِ وَالْفَصَاحَةِ ، فَإِنَّهُ حَصَلَ الْمَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَةٍ وَأَحْسَنِهَا ، **قَالَ الْعُلَمَاءُ** : لَمْ يَكْتُبْ أَحَدٌ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قَبْلَ سُلَيْمَانَ عليه السلام . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ ﴾ **يَقُولُ قَتَادَةُ** : لَا تَجَبَّرُوا عَلَيَّ ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : لَا تَمْتَنِعُوا وَلَا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ . ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ **قِيلَ** : مُوَحِّدِينَ ، **وَقِيلَ** : مُخْلِصِينَ ، **وَقِيلَ** : طَائِعِينَ .

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لَمَّا قَرَأَتْ عَلَيْهِمْ كِتَابَ سُلَيْمَانَ اسْتَشَارَتْهُمْ فِي أَمْرِهَا ، وَمَا قَدْ نَزَلَ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَتْ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أَيْ : حَتَّى تَحْضُرُونِ وَتُشِيرُونِ ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أَيْ : مَنَّوْا إِلَيْهَا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، ثُمَّ فَوَّضُوا إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، **فَقَالُوا** : ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ لَيْسَ لَنَا عَاقَةٌ وَلَا بِنَا بَأْسٌ ، إِنْ شِئْتِ أَنْ تَقْصِدِيهِ

وَتُحَارِبِيهِ فَمَا لَنَا عَاقَةٌ عَنْهُ ، وَبَعْدَ هَذَا فَالْأَمْرُ إِلَيْكِ مُرِي فِينَا رَأْيَكِ نَمْتَثِلْهُ وَنُطِيعُهُ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: فَوَّضُوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِلْجَةٍ تَضْطَرِبُ ثَدْيَاهَا ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا مَا قَالُوا ، كَانَتْ هِيَ أَحْزَمُ رَأْيًا مِنْهُمْ وَأَعْلَمُ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ ، وَأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهَا بِجُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ وَمَا سُخِّرَ لَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ ، وَقَدْ شَاهَدَتْ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ مَعَ الْهُدْهُدِ أَمْرًا عَجِيبًا بَدِيعًا ، فَقَالَتْ لَهُمْ : إِنِّي أَخْشَى أَنْ نُحَارِبَهُ وَنَمْتَنِعَ عَلَيْهِ فَيَقْصِدَنَا بِجُنُودِهِ وَيُهْلِكَنَا بِمَنْ مَعَهُ ، وَيَخْلُصَ إِلَيَّ وَإِلَيْكُمُ الْهَلَاكُ وَالدَّمَارُ دُونَ غَيْرِنَا ؛ **وَلِهَذَا قَالَتْ** : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ أي : إِذَا دَخَلُوا بَلَدًا خَرَّبُوهُ ﴿ وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ أَيْ : وَقَصَدُوا مَنْ فِيهَا مِنَ الْوُلَاةِ وَالْجُنُودِ فَأَهَانُوهُمْ غَايَةَ الْهَوَانِ ، إِمَّا بِالْقَتْلِ أَوْ بِالْأَسْرِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَتْ بِلْقِيسُ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ قَالَ الرَّبُّ ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثُمَّ عَدَلَتْ إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُهَادَنَةِ وَالْمُسَالَمَةِ وَالْمُخَادَعَةِ وَالْمُصَانَعَةِ ، **فَقَالَتْ** : ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : سَأَبْعَثُ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ تَلِيقُ بِمِثْلِهِ ، وَأَنْظُرُ مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ فَلَعَلَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنَّا وَيَكُفُّ عَنَّا ، أَوْ يَضْرِبُ عَلَيْنَا خَرَاجًا نَحْمِلُهُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَنَلْتَزِمُ لَهُ بِذَلِكَ وَيَتْرُكُ قِتَالَنَا وَمُحَارَبَتَنَا . **قَالَ قَتَادَةُ - رَحِمَهُ اللهُ -**: مَا كَانَ أَعْقَلَهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشِرْكِهَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَقَعُ مَوْقِعًا مِنَ النَّاسِ .

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهَا بَعَثَتْ إِلَيْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرَ وَلَآلِئَ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام لَمْ يَنْظُرْ إِلَى مَا جَاءُوا بِهِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلَا اعْتَنَى بِهِ ، بَلْ أَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ ﴿ أَتُمِدُّونَنِ

بِمَالٍ ﴾ أَيْ : أَتُصَانِعُونَنِي بِمَالٍ لأَتْرُكَكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ وَمُلْكِكُمْ ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ أَيْ : الَّذِي أَعْطَانِي اللهُ - مِنَ المُلْكِ وَالمَالِ وَالجُنُودِ - خَيرٌ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ، ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمُ الَّذِينَ تَنْقَاضُونَ لِلْهَدَايَا وَالتُّحَفِ ، وَأَمَّا أَنَا فَلا أَقْبَلُ مِنْكُمْ إِلَّا الإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ . ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : بِهَدِيَّتِهِمْ ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أَيْ : لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً ﴾ أَيْ : وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ بَلْدَتِهِمْ أَذِلَّةً ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أَيْ : مُهَانُونَ مَدْحُورُونَ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا رُسُلُهَا بِهَدِيَّتِهَا وَبِمَا قَالَ سُلَيْمَانُ ، سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا ، وَأَقْبَلَتْ تَسِيرُ إِلَيْهِ فِي جُنُودِهَا خَاضِعَةً ذَلِيلَةً ، مُعَظِّمَةً لِسُلَيْمَانَ نَاوِيَةً مُتَابَعَتَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمَّا تَحَقَّقَ سُلَيْمَانُ ﷺ قُدُومَهُمْ عَلَيْهِ وَوُفُودَهُمْ إِلَيْهِ فَرِحَ بِذَلِكَ وَسَرَّهُ .

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

وَقَالَ قَتَادَةُ : لَمَّا بَلَغَ سُلَيْمَانَ أَنَّهَا جَائِيَةٌ ، وَكَانَ قَدْ ذُكِرَ لَهُ عَرْشُهَا فَأَعْجَبَهُ ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَقَائِمُهُ لُؤْلُؤٌ وَجَوْهَرٌ ، وَكَانَ مُسَتَّرًا بِالدِّيبَاجِ وَالحَرِيرِ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ تِسْعَةُ مَغَالِيقَ ، فَكَرِهَ أَنْ يَأْخُذَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ، وَقَدْ عَلِمَ نَبِيُّ اللهِ أَنَّهُمْ مَتَى أَسْلَمُوا تُحْرَمُ أَمْوَالُهُمْ مَعَ دِمَائِهِمْ فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يَعْنِي : قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ قِيلَ : أَيْ : قَوِيٌّ عَلَى حَمْلِهِ ، أَمِينٌ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الجَوْهَرِ . ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** : وَهُوَ « آصَفُ » كَاتِبُ سُلَيْمَانَ ، وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ الاِسْمَ

الْأَعْظَمَ . ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أَيْ : ارْفَعْ بَصَرَكَ وَانْظُرْ مَدَّ بَصَرِكَ مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكَ لَا يَكِلُّ بَصَرُكَ إِلَّا وَهُوَ حَاضِرٌ عِنْدَكَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : لَمَّا دَعَا اللهَ تَعَالَى وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِعَرْشِ بِلْقِيسَ ، وَكَانَ فِي الْيَمَنِ وَسُلَيْمَانُ عليه السلام بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، غَابَ السَّرِيرُ وَغَاصَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ نَبَعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ سُلَيْمَانَ عليه السلام ، فَلَمَّا عَايَنَ سُلَيْمَانُ وَمَلَؤُهُ ذَلِكَ ، وَرَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ أَيْ : هَذَا مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ﴾ أَيْ : لِيَخْتَبِرَنِي ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ أَيْ : هُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ وَعِبَادَتِهِمْ ، ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ : كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ أَحَدٌ ، فَإِنَّ عَظَمَتَهُ لَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إِلَى أَحَدٍ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ مُوسَى : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**))[1].

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) .

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

لَمَّا جِيءَ سُلَيْمَانَ عليه السلام بِعَرْشِ بِلْقِيسَ قَبْلَ قُدُومِهَا أَمَرَ بِهِ أَنْ يُغَيِّرَ بَعْضَ صِفَاتِهِ لِيَخْتَبِرَ مَعْرِفَتَهَا وَثَبَاتَهَا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ، هَلْ تُقْدِمُ عَلَى أَنَّهُ عَرْشُهَا ، أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَرْشِهَا ؟ فَقَالَ : ﴿ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أَيْ : عُرِضَ عَلَيْهَا عَرْشُهَا ، وَقَدْ غُيِّرَ وَنُكِّرَ وَزِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ مِنْهُ ، فَكَانَ فِيهَا ثَبَاتٌ وَعَقْلٌ ، وَلَهَا لُبٌّ وَدَهَاءٌ وَحَزْمٌ ، فَلَمْ تُقْدِمْ عَلَى أَنَّهُ هُوَ لِبُعْدِ مَسَافَتِهِ عَنْهَا ، وَلَا أَنَّهُ غَيْرُهُ لِمَا رَأَتْ مِنْ آثَارِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَإِنْ غُيِّرَ وَبُدِّلَ وَنُكِّرَ ، **فَقَالَتْ** : ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ أَيْ : يُشْبِهُهُ وَيُقَارِبُهُ ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الذَّكَاءِ وَالْحَزْمِ ، ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : سُلَيْمَانُ يَقُولُهُ .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ كَلَامِ سُلَيْمَانَ عليه السلام فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ - رَحِمَهُمَا اللهُ - أَيْ : قَالَ سُلَيْمَانُ : ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وَهِيَ كَانَتْ قَدْ صَدَّهَا ، أَيْ : مَنَعَهَا مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدٌ : حَسَنٌ ، وَقَالَهُ ابنُ جَرِيرٍ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام أَمَرَ الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا لَهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِنْ قَوَارِيرَ ، أَيْ : مِنْ زُجَاجٍ ، وَأَجْرَى تَحْتَهُ المَاءَ ، فَالَّذِي لَا يَعْرِفُ أَمْرَهُ يَحْسِبُ أَنَّهُ مَاء ، وَلَكِنَّ الزُّجَاجَ يَحُولُ بَيْنَ المَاشِي وَبَيْنَهُ . **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ﴾ لِيُرِيَهَا مُلْكًا هُوَ أَعَزُّ مِنْ مُلْكِهَا ، وَسُلْطَانًا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ سُلْطَانِهَا ، ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ، لَا تَشُكُّ أَنَّهُ مَاءٌ تَخُوضُهُ ، **فَقِيلَ لَهَا** : ﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَى سُلَيْمَانَ ، دَعَاهَا إِلَى عِبَادَةِ اللهِ عز وجل وَحْدَهُ وَعَاتَبَهَا فِي عِبَادَتِهَا الشَّمْسَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَقَالَتْ بِقَوْلِ الزَّنَادِقَةِ ، فَوَقَعَ سُلَيْمَانُ سَاجِدًا إِعْظَامًا لِمَا قَالَتْ ، وَسَجَدَ مَعَهُ النَّاسُ ، فَسُقِطَ فِي يَدَيْهَا حِينَ رَأَتْ سُلَيْمَانَ صَنَعَ مَا صَنَعَ ، فَلَمَّا رَفَعَ سُلَيْمَانُ رَأْسَهُ ، قَالَ : وَيْحَكِ مَاذَا قُلْتِ ؟ - قَالَ : وَأُنْسِيَتْ مَا قَالَتْ ؟ - فَقَالَتْ : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فَأَسْلَمَتْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهَا .

أَصْلُ الصَّرْحِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ : الْقَصْرُ وَكُلُّ بِنَاءٍ مُرْتَفِعٍ . قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - أَنَّهُ قَالَ لِوَزِيرِهِ هَامَانَ : ﴿ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴾ [غافر : ٣٦] وَالصَّرْحُ : قَصْرٌ فِي الْيَمَنِ عَالِي الْبِنَاءِ ، وَالْمُمَرَّدُ : الْمَبْنِيُّ بِنَاءً مُحْكَمًا أَمْلَسَ ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أَيْ : زُجَاجٍ ، وَتَمْرِيدُ الْبِنَاءِ : تَمْلِيسُهُ ، وَمَارِدٌ : حِصْنٌ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ ، وَالْغَرَضُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام اتَّخَذَ قَصْرًا عَظِيمًا مُنِيفًا مِنْ زُجَاجٍ لِهَذِهِ الْمَلِكَةِ ، لِيُرِيَهَا عَظَمَةَ سُلْطَانِهِ وَتَمَكُّنِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا آتَاهُ اللهُ - تَعَالَى - وَجَلَالَةَ مَا هُوَ فِيهِ ، وَتَبَصَّرَتْ فِي أَمْرِهِ ، انْقَادَتْ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، وَعَرَفَتْ أَنَّهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ ، وَمَلِكٌ عَظِيمٌ ، وَأَسْلَمَتْ للهِ عز وجل ، وَقَالَتْ : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ أَيْ : بِمَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهَا وَشِرْكِهَا ، وَعِبَادَتِهَا وَقَوْمِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : مُتَابِعَةً لِدِينِ سُلَيْمَانَ فِي عِبَادَتِهِ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ « ثَمُودَ » وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعَ نَبِيِّهَا صَالِحٍ عليه السلام حِينَ بَعَثَهُ اللهُ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥-٧٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أَيْ : لِمَ تَدْعُونَ

بِحُضُورِ الْعَذَابِ ، وَلَا تَطْلُبُونَ مِنَ الله رَحْمَتَهُ ؟! وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أَيْ : مَا رَأَيْنَا عَلَى وَجْهِكَ وَوُجُوهِ مَنِ اتَّبَعَكَ خَيْرًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لِشَقَائِهِمْ كَانَ لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنْهُمْ سُوءٌ إِلَّا قَالَ : هَذَا مِنْ قِبَلِ صَالِحٍ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : تَشَاءَمُوا بِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ - ١٩] ، وَقَالَ هَؤُلَاءِ : ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : اللهُ يُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : تُبْتَلَوْنَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ أَيْ : تُسْتَدْرَجُونَ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ .

وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ طُغَاةِ ثَمُودَ وَرُءُوسِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ قَوْمِهِمْ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ وَتَكْذِيبِ صَالِحٍ ، وَآلَ بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِ صَالِحٍ أَيْضًا ، بِأَنْ يُبَيِّتُوهُ فِي أَهْلِهِ لَيْلًا فَيَقْتُلُوهُ غِيلَةً ، ثُمَّ يَقُولُوا لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَقْرَبِيهِ : إِنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَإِنَّهُمْ لَصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أَيْ : مَدِينَةِ ثَمُودَ ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أَيْ : تِسْعَةُ نَفَرٍ ﴿ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وَإِنَّمَا غَلَبَ هَؤُلَاءِ عَلَى أَمْرِ ثَمُودَ ؛

لأَنَّهُمْ كَانُوا كُبَرَاءَ فِيهِمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ . **وَالْغَرَضُ** : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَرَةَ الْفَسَقَةَ كَانَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ طَرِيقٍ يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ أَيْ : تَحَالَفُوا وَتَبَايَعُوا عَلَى قَتْلِ نَبِيِّ اللهِ صَالِحٍ ﷺ مَنْ لَقِيَهُ لَيْلًا غِيلَةً ، فَكَادَهُمُ اللهُ وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ تَقَاسَمُواْ ﴾ تَحَالَفُوا عَلَى هَلَاكِهِ ، فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ حَتَّى هَلَكُوا وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . **وقَالَ قَتَادَةُ** : تَوَاثَقُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوهُ لَيْلًا فَيَقْتُلُوهُ ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ مَعَانِيقُ إِلَى صَالِحٍ لِيَفْتِكُوا بِهِ إِذْ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً فَأَهْمَدَتْهُمْ .

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ : لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ وَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] قَالُوا : زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يَفْرُغُ مِنَّا إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، فَنَحْنُ نَفْرُغُ مِنْهُ وَأَهْلَهُ قَبْلَ ثَلَاثٍ ، وَكَانَ لِصَالِحٍ مَسْجِدٌ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ شِعْبٍ هُنَاكَ يُصَلِّي فِيهِ ، فَخَرَجُوا إِلَى كَهْفٍ أَيْ : غَارٍ هُنَاكَ لَيْلًا ، فَقَالُوا : إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَاهُ ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِذَا فَرَغْنَا مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ فَفَرَغْنَا مِنْهُمْ ، فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ صَخْرَةً مِنَ الْهَضْبِ حِيَالَهُمْ ، فَخَشَوْا أَنْ تَشْدَخَهُمْ فَتَبَادَرُوا فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ الْغَارِ ، فَلَا يَدْرِي قَوْمُهُمْ أَيْنَ هُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا فُعِلَ بِقَوْمِهِمْ ، فَعَذَّبَ اللهُ هَؤُلَاءِ هَهُنَا وَهَؤُلَاءِ هَهُنَا ، وَأَنْجَى اللهُ صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أَيْ : فَارِغَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ﴿ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ ﵇ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ نِقْمَةَ اللهِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ ، الَّتِي لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَهِيَ : إِتْيَانُ الذُّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ ، وَذَلِكَ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ : اسْتَغْنَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ ، **فَقَالَ** : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : يَرَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا ، لَا طَبْعًا وَلَا شَرْعًا ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥-١٦٦] ، ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أَيْ : يَتَحَرَّجُونَ مِنْ فِعْلِ مَا تَفْعَلُونَهُ ، وَمِنْ إِقْرَارِكُمْ عَلَى صَنِيعِكُمْ ، فَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلُحُونَ لِمُجَاوَرَتِكُمْ فِي بِلَادِكُمْ ، فَعَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، فَدَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْهَالِكِينَ مَعَ قَوْمِهَا ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ رِدْءًا لَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ ، وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي رِضَاهَا بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ ، فَكَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى ضِيفَانِ لُوطٍ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ ، لَا أَنَّهَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ ، تَكْرِمَةً لِنَبِيِّ اللهِ ﷺ لَا كَرَامَةَ لَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أَيْ : حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَوَصَلَ إِلَيْهِمُ الْإِنْذَارُ ، فَخَالَفُوا الرَّسُولَ وَكَذَّبُوهُ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ .

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : عَلَى نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، وَعَلَى مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى وَالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَى عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ ، وَهُمْ رُسُلُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ الْكِرَامُ - عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - وَهُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] ، **وَقِيلَ** : **هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ** ، وَلَا مُنَافَاةَ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ اصْطَفَى فَالْأَنْبِيَاءُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، **وَالْقَصْدُ** أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ بَعْدَ مَا ذَكَرَ لَهُمْ مَا فَعَلَ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ النَّجَاةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ ، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ وَالْقَهْرِ - أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلَى جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ، وَأَنْ يُسَلِّمُوا عَلَى عِبَادِهِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أَيْ : تِلْكَ السَّمَاوَاتِ بِارْتِفَاعِهَا وَصَفَائِهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ ، وَالنُّجُومِ الزَّاهِرَةِ ، وَالْأَفْلَاكِ الدَّائِرَةِ ، الْأَرْضَ بِاسْتِفَالِهَا وَكَثَافَتِهَا ، وَمَا جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَطْوَادِ وَالسُّهُولِ وَالْأَوْعَارِ ، وَالْفَيَافِي وَالْقِفَارِ ، وَالزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالثِّمَارِ وَالْبِحَارِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَصْنَافِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أَيْ : جَعَلَهُ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ أَيْ : بَسَاتِين ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أَيْ : مَنْظَرٍ حَسَنٍ وَشَكْلٍ حَسَنٍ وَشَكْلٍ بَهِيٍّ ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ أَيْ : لَمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلَى إِنْبَاتِ شَجَرِهَا ، وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُسْتَقِلُّ بِذَلِكَ ، الْمُتَفَرِّدُ بِهِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، كَمَا اعْتَرَفَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] أَيْ : هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْفَاعِلُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،

ثُمَّ هُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ ، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ مَنْ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ يُعْبَدُ ؟، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ وَلِكُلِّ ذِي لُبٍّ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ بِهِ أَيْضًا أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ؟.

وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ يَقُولُ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ فَعَلَ هَذَا ؟! وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْجَوَابِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ ثَمَّ أَحَدٌ فَعَلَ هَذَا مَعَهُ ، بَلْ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِهِ ، فَيُقَالُ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ وَهُوَ الْمُسْتَقِلُّ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل : ١٧] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَٰهُنَا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ((أَمَّنْ)) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَقْدِيرُهُ : أَمَّنْ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ كَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ؟ هَذَا مَعْنَى السِّيَاقِ وَإِنْ لَمْ يُذْكَرِ الْآخَرُ ؛ لِأَنَّ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ مَا يُرْشِدُ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أَيْ : يَجْعَلُونَ للهِ عِدْلًا وَنَظِيرًا ، وَهَكَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٩] أَيْ : أَمَّنْ هُوَ هَكَذَا كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أَيْ : أَمَّنْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَفْعَالِ الْخَلْقِ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ ، يَعْلَمُ الْغَيْبَ جَلِيلَهُ وَحَقِيرَهُ ، كَمَنْ هُوَ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا ؟ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ كُلُّهَا .

أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أَيْ : قَارَّةً سَاكِنَةً ثَابِتَةً لَا تَمِيدُ ، وَلَا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا وَلَا تَرْجُفُ بِهِمْ ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا الْعَيْشُ وَالْحَيَاةُ ، بَلْ جَعَلَهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مِهَادًا بِسَاطًا ثَابِتَةً لَا تَتَزَلْزَلُ وَلَا تَتَحَرَّكُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾[غافر : ٦٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ فِيهَا الْأَنْهَارَ الْعَذْبَةَ الطَّيِّبَةَ ، شَقَّهَا فِي خِلَالِهَا ، وَصَرَّفَهَا فِيهَا مَا بَيْنَ أَنْهَارٍ كِبَارٍ وَصِغَارٍ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَسَيَّرَهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَجَنُوبًا وَشَمَالًا ، بِحَسَبِ مَصَالِحِ عِبَادِهِ فِي أَقَالِيمِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ حَيْثُ ذَرَأَهُمْ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَسَيَّرَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ أَيْ : جِبَالًا شَامِخَةً ، تُرْسِي الْأَرْضَ وَتُثَبِّتُهَا لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أَيْ : جَعَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْمَالِحَةِ حَاجِزًا ، أَيْ : مَانِعًا يَمْنَعُهَا مِنَ الِاخْتِلَاطِ لِئَلَّا يَفْسُدَ هَذَا بِهَذَا ، وَهَذَا بِهَذَا ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَقْتَضِي بَقَاءَ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى صِفَتِهِ الْمَقْصُودَةِ مِنْهُ ، فَإِنَّ الْبَحْرَ الْحُلْوَ هُوَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ الْجَارِيَةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا : أَنْ تَكُونَ عَذْبَةً زُلَالًا يُسْقَى الْحَيَوَانُ وَالنَّبَاتُ وَالثِّمَارُ مِنْهَا ، وَالْبِحَارُ الْمَالِحَةُ هِيَ الْمُحِيطَةُ بِالْأَرْجَاءِ وَالْأَقْطَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْهَا : أَنْ يَكُونَ مَاؤُهَا مِلْحًا أُجَاجًا لِئَلَّا يَفْسُدَ الْهَوَاءُ بِرِيحِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[الفرقان : ٥٣] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فَعَلَ هَذَا ، أَوْ بَعْدُ ، هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ ؟ وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ صَحِيحٌ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَهُ .

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الْمَدْعُوُّ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، الْمَرْجُوُّ عِنْدَ النَّوَازِلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[الإسراء : ٦٧] ، وَقَالَ

تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣]، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أَيْ : مَنْ هُوَ الَّذِي لَا يَلْجَأُ الْمُضْطَرُّ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَالَّذِي لَا يَكْشِفُ ضُرَّ الْمَضْرُورِينَ سِوَاهُ ؟

أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ : عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَلْهُجَيْم ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِلَامَ تَدْعُو ؟ قَالَ : ((**أَدْعُو إِلَى الله وَحْدَهُ الَّذِي إِنْ مَسَّك ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَ عَنْك ، وَالَّذِي إِنْ أَضْلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ فَدَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْك ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَ لَك**)) قَالَ : قُلْتُ : أَوْصِنِي ، قَالَ : ((**لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا ، وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكِ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَقِي ، وَاتَّزِرْ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ ، وَإِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ**))[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أَيْ : يَخْلُفُ قَرْنًا لِقَرْنٍ قَبْلَهُمْ وَخَلَفًا لِسَلَفٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أَيْ : قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا قَدَّمْنَا تَقْرِيرَهُ وَهَكَذَا هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أَيْ : أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَوْمًا بَعْد قَوْم وَلَوْ شَاءَ لَأَوْجَدَهُمْ كُلَّهُمْ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَعْضَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْضٍ ، بَلْ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُمْ كُلَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ بَعْضَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ بَعْض ، وَلَكِنْ لَا يُمِيتُ أَحَدًا حَتَّى تَكُونَ وَفَاةُ الْجَمِيعِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، لَكَانَتْ تَضِيقُ عَلَيهِمُ الْأَرْضُ ، وَتَضِيقُ عَلَيْهِمْ مَعَايِشُهُمْ وَأَكْسَابُهُمْ ، وَيَتَضَرَّرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَلَكِنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَقُدْرَتُهُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يُكَثِّرُهُمْ غَايَةَ الْكَثْرَةِ ، وَيَذْرَأُهُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَيَجْعَلُهُمْ قُرُونا بَعْدَ قُرُونٍ ، وَأُمَمًا بَعْدَ

---

(١) إسناده صحيح: وقد أخرجه أحمد (٥/ ٦٤).

أُمَمٍ ، حَتَّى يَنْقَضِي الأَجَلُ وَتَفْرُغُ الْبَرِيَّةُ ، كَمَا قَدَّرَ ذَلِكَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وَكَمَا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، ثُمَّ يُقِيمُ الْقِيَامَةَ وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ عَمَلَهُ إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ يُعْبَدُ ؟ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِفِعْلِ ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؟ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : مَا أَقَلَّ تَذَكُّرِهِمْ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى الْحَقِّ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ أَيْ : بِمَا خَلَقَ مِنَ الدَّلَائِلِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٩٧]. ﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ ، الَّذِي فِيهِ مَطَرٌ يُغِيثُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُجْدِبِينَ الْأَزِلِينَ الْقَنِطِينَ ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

أَيْ : هُوَ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٢-١٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِمَا يُنْزِلُ مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ وَيُنْبِتُ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطارق : ١١- ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ : ٢]، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

مُبَارَكًا فَيُسْكِنُهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ أَنْوَاعَ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالْأَزَاهِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانٍ شَتَّى ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه : ٥٤] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فَعَلَ هَذَا ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ بَعْدَ هَذَا ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ عَلَى صِحَّةِ مَا تَدَّعُونَهُ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ أُخْرَى ﴿ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ وَلَا بُرْهَانَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧]

قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ مُعَلِّمًا لِجَمِيعِ الْخَلْقِ : أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، أَيْ : لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ذَلِكَ إِلَّا اللهُ ﷻ فَإِنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ [لقمان : ٣٤] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَشْعُرُ الْخَلَائِقُ السَّاكِنُونَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِوَقْتِ السَّاعَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف : ١٨٧] أَيْ : ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

عَنْ عَائِشَةَ(١) - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - مَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الْفِرْيَةَ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : إِنَّمَا جَعَلَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثِ

---

(١) مسلم (حديث ١٧٧) بنحوه .

خِصَالٍ : جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ ، وَجَعَلَهَا يُهْتَدَى بِهَا ، وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، فَمَنْ تَعَاطَى فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِرَأْيِهِ ، وَأَخْطَأَ حَظَّهُ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، وَإِنَّ نَاسًا جَهَلَةٌ بِأَمْرِ اللهِ قَدْ أَحْدَثُوا مِنْ هَذِهِ النُّجُومِ كَهَانَةً : مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا ، كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَمَنْ سَافَرَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا ، كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَمَنْ وُلِدَ بِنَجْمِ كَذَا وَكَذَا كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَعَمْرِي مَا مِنْ نَجْمٍ إِلَّا يُولَدُ بِهِ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ ، وَالْقَصِيرُ وَالطَّوِيلُ ، وَالْحَسَنُ وَالدَّمِيمُ ، وَمَا عَلِمَ هَذَا النَّجْمُ وَهَذِهِ الدَّابَّةُ وَهَذَا الطَّيْرُ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ ، وَقَضَى اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿ لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أَيْ : اِنْتَهَى عِلْمُهُمْ وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَةِ وَقْتِهَا ، **وَقَرَأَ آخَرُونَ** : ((بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ)) أَيْ : تَسَاوَى عِلْمُهُمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ لِمُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجِبْرِيلَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ : ((**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**))(١) أَيْ : تَسَاوَى فِي الْعَجْزِ عَنْ دَرْكِ ذَلِكَ عِلْمُ الْمَسْئُولِ وَالسَّائِلِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ أَيْ : غَابَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ يَعْنِي : بِجَهْلِهِمْ بِرَبِّهِمْ ، يَقُولُ : لَمْ يَنْفُذْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عِلْمٌ ، **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ حِينَ لَمْ يَنْفَعِ الْعِلْمُ ، **وَبِهِ قَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ وَالسُّدِّيُّ** : أَنَّ عِلْمَهُمْ إِنَّمَا يُدْرِكُ وَيَكْمُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[مريم : ٣٨] ، **وَقِيلَ** : (بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ) أي : اِضْمَحَلَّ عِلْمُهُمْ فِي الدُّنْيَا حِينَ عَايَنُوا الْآخِرَةَ . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ ، وَالْمُرَادُ : الْكَافِرُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[الكهف : ٤٨] أَيْ : الْكَافِرُونَ مِنْكُمْ ، وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : شَاكُّونَ فِي وُجُودِهَا وَوُقُوعِهَا ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أَيْ : فِي

(١) مسلم (حديث ٨) .

عَمَايَةٍ وَجَهْلٍ كَبِيرٍ فِي أَمْرِهَا وَشَأْنِهَا .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ : اِسْتَبْعَدُوا إِعَادَةَ الْأَجْسَادِ بَعْدَ صَيْرُورَتِهَا عِظَامًا وَرُفَاتًا وَتُرَابًا ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مَا زِلْنَا نَسْمَعُ بِهَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا ، وَلَا نَرَى لَهُ حَقِيقَةً وَلَا وُقُوعًا ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ : مَا هَذَا الْوَعْدُ بِإِعَادَةِ الْأَبْدَانِ ﴿ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : أَخَذَهُ قَوْمٌ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَتَلَقَّاهُ بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ ، وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ : ﴿ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ ، وَمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ وَغَيْرِهِ ، كَيْفَ حَلَّتْ بِهِمْ نِقْمُ اللهِ وَعَذَابُهُ وَنَكَالُهُ ، وَنَجَّى اللهُ مِنْ بَيْنِهِمْ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَصِحَّتُهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، وَلَا تَأْسَفْ عَلَيْهِمْ وَتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٌ ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أَيْ : فِي كَيْدِكَ وَرَدّ مَا جِئْتَ به ، فَإِنَّ اللهَ مُؤَيِّدُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُظْهِرُ دِينَكَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ وَعَانَدَهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي سُؤَالِهِمْ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَاسْتِبْعَادِهِمْ وُقُوعَ ذَلِكَ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قَالَ اللهُ مُجِيبًا لَهُمْ : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قَرُبَ أَوْ أَنْ يَقْرُبَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وَإِنَّمَا دَخَلَتِ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ لِأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى عَجِلَ لَكُمْ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ عَجِلَ لَكُمْ .

ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : فِي إِسْبَاغِهِ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ الضَّمَائِرَ وَالسَّرَائِرَ كَمَا يَعْلَمُ الظَّوَاهِرَ ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾،﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : بِأَنَّهُ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَمَا شَاهَدُوهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي : وَمَا مِنْ شَيْءٍ ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠]

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ وَالْفُرْقَانِ ،

أَنَّهُ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهُمْ حَمَلَةُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي عِيسَى وَتَبَايُنِهِمْ فِيهِ ، فَالْيَهُودُ افْتَرَوْا وَالنَّصَارَى غَلَوْا ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْوَسَطِ الْحَقِّ الْعَدْلِ ، أَنَّهُ : عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الْكِرَامِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : ٣٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾أَيْ : هُدًى لِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَرَحْمَةٌ لَهُمْ فِي الْعَمَلِيَّاتِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فِي انْتِقَامِهِ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ وَأَقْوَالِهِمْ ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، وَبَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّكَ ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَإِنْ خَالَفَكَ مَنْ خَالَفَكَ ، مِمَّنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : لَا تُسْمِعُهُمْ شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ عَلَى قُلُوبِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرُ الْكُفْرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لَكَ مَنْ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، السَّمْعُ وَالْبَصَرُ النَّافِعُ فِي الْقَلْبِ وَالْبَصِيرَةِ ، الْخَاضِعُ لله ، وَلِمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ – عَلَيهِمُ السَّلَامُ –.

۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

هَذِهِ الدَّابَّةُ تَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ ، وَتَرْكِهِمْ أَوَامِرَ اللهِ ، وَتَبْدِيلِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ ، يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ، **قِيلَ** : مِنْ مَكَّةَ ، **وَقِيلَ** : مِنْ غَيْرِهَا ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، فَتُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : تُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا ، أَيْ : تُخَاطِبُهُمْ مُخَاطَبَةً ، **وَقِيلَ** : تُكَلِّمُهُمْ فَتَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ، وَفِي هَذَا الْقَوْلِ نَظَرٌ لَا يَخْفَى وَاللهُ أَعْلَمُ . **وَرُوِيَ عَنِ**

اِبْنِ عَبَّاسٍ - فِي رِوَايَةٍ -: تَجْرَحُهُمْ ، وَعَنْهُ رِوَايَةٌ قَالَ : كَلَّا تَفْعَلُ ، يَعْنِي هَذَا وَهَذَا ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ وَلَا مُنَافَاةَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ الدَّابَّةِ أَحَادِيثُ وَآثَارٌ كَثِيرَةٌ فَلْنَذْكُرْ مِنْهَا مَا تَيَسَّرَ وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ .

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ : أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ أَمْرَ السَّاعَةِ فَقَالَ : ((**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدُّخَانَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَخُرُوجَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجَ عِيسَى اِبْنِ مَرْيَمَ** عليه السلام **، وَالدَّجَّالَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٍ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٍ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٍ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارًا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ تَسُوقُ أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا**))[1] .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : ((**إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وَأَيَّتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا**))[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، أَوِ الدُّخَانَ ، أَوِ الدَّجَّالَ ، أَوِ الدَّابَّةَ ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ**)) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَحَشْرِ الظَّالِمِينَ - مِنَ الْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ اللهِ

---

(١) مسلم (حديث ٢٩٠١) .

(٢) مسلم (٢٩٤١) .

(٣) مسلم (حديث ٢٩٤٧) .

وَرُسُلِهِ - إِلَى بَيْنَ يَدَي الله ﷻ لِيَسْأَلَهُمْ عَمَّا فَعَلُوهُ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَقَرْنٍ فَوْجًا ، أَيْ : جَمَاعَةً ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ **قِيلَ** : يُدْفَعُونَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : وَزَعَة ، تَرُدُّ أَوَّلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو ﴾ ، وَوَقَفُوا بَيْنَ يَدَي الله ﷻ فِي مَقَامِ الْمُسَاءَلَةِ ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : فَيُسْئَلُونَ عَنِ اعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُمْ ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة : ٣١-٣٢]، **فَحِينَئِذٍ** قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ يَعْتَذِرُونَ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥-٣٦]

وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أَيْ : بُهِتُوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ظَلَمَةً لِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ رُدُّوا إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ وَشَأْنِهِ الرَّفِيعِ ، الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ وَالانْقِيَادُ لِأَوَامِرِهِ ، وَتَصْدِيقُ أَنْبِيَائِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ لِتَسْكُنَ حَرَكَاتُهُمْ بِسَبَبِهِ ، وَتَهْدَأَ أَنْفَاسُهُمْ وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَبِ التَّعَبِ فِي نَهَارِهِمْ ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أَيْ : مُنِيرًا مُشْرِقًا ، فَبِسَبَبِ ذَلِكَ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمَعَايِشِ وَالْمَكَاسِبِ وَالْأَسْفَارِ وَالتِّجَارَاتِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُئُونِهِمُ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ

بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَوْلِ يَوْمِ نَفْخَةِ الْفَزَعِ فِي الصُّورِ ، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ** »(١) وَفِي حَدِيثِ الصُّورِ : إِنَّ إِسْرَافِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِيهِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى ، فَيَنْفُخُ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَةَ الْفَزَعِ وَيُطَوِّلُهَا ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِ الدُّنْيَا حِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْيَاءِ ، فَيَفْزَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، وَهُمُ الشُّهَدَاءُ فَإِنَّهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ - قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (٢): « **يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ** » قَالَ : سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا - قَالَ - وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ، قَالَ : فَيُصْعَقُ وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ : يُنْزِلُ اللهُ مَطَرًا - كَأَنَّهُ الطَّلُّ - أَوْ قَالَ : الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعْثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، قَالَ : فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ** » ، فَقَوْلُهُ : « **ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا**

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) مسلم (٢٩٤٠) .

أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا » اللِّيتُ : هُوَ صَفْحَةُ الْعُنُقِ ، أَيْ : أَمَالَ عُنُقَهُ لِيَسْتَمِعَهُ مِنَ السَّمَاءِ جَيِّدًا .

فَهَذِهِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَهُو : المَوْتُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَهُوَ : النُّشُورُ مِنَ الْقُبُورِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قُرِئَ بِالمَدِّ وَبِغَيْرِهِ عَلَى الْفِعْلِ ، وَكُلٌّ بِمَعْنًى وَاحِدٍ وَ ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أَيْ : صَاغِرِينَ مُطِيعِينَ ، لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنْ أَمْرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الإسراء : ٥٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[الروم : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أَيْ : تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، أَيْ : تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾[الطور : ٩-١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾[طه : ١٠٥-١٠٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُ ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّذِي قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ مَا خَلَقَ ، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا أَوْدَعَ ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُ عِبَادُهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَيُجَازِهِمْ عَلَيْهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ والأَشْقِيَاءِ يَوْمَئِذٍ ،فَقَالَ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : بِالإِخْلَاصِ ، **وَقَالَ زَيْنُ الْعَابِدِينَ** : هِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى فِي المَوْضِعِ الْآخَرِ أَنَّ لَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾[الأنبياء : ١٠٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[فصلت : ٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ : ٣٧]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : مَنْ لَقِيَ اللهَ مُسِيئًا لَا حَسَنَةَ لَهُ ، أَوْ قَدْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ كُلٌّ بِحَسَبِهِ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ كَبِيرٌ جِدًّا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ :** ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يَعْنِي : بِالشِّرْكِ .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ وَآمِرًا لَهُ أَنْ يَقُولَ : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾[يونس : ١٠٤] ، وَإِضَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلْدَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَالاعْتِنَاءِ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[قريش : ٣- ٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أَيْ : الَّذِي إِنَّمَا صَارَتْ حَرَامًا شَرْعًا وَقَدَرًا بِتَحْرِيمِهِ لَهَا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[١] قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : ((**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، أَيْ : هُوَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيْ : الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ الْمُطِيعِينَ لَهُ . ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ ، أَيْ : عَلَى النَّاسِ أُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾

(١) البخاري (١٨٣٤) ، ومسلم (١٣٥٣) .

[القصص : ٣] ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ أَيْ : لِي أُسْوَةٌ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمَهُمْ ، وَقَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَخَلَصُوا مِنْ عُهْدَتِهِمْ ، وَحِسَابُ أُمَمِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢]

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أَيْ : للهِ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أَنَّهُ كَانَ يُنْشِدُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ إِمَّا لَهُ وَإِمَّا لِغَيْرِهِ :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ ، وَلَكِنْ قُلْ : عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا تُخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّمْلِ وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ القَصَصِ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ ﴾ أَيْ : هَذِهِ ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ : الْوَاضِحِ الجَلِيِّ الْكَاشِفُ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَعِلْمِ مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الْآيَة ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣] أَيْ : نَذْكُرُ لَكَ الْأَمْرَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَأَنَّكَ شَاهِدٌ وَكَأَنَّكَ حَاضِرُهُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أَيْ : أَصْنَافًا قَدْ صَرَّفَ كُلَّ صِنْفٍ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دَوْلَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ خِيَارُ أَهْلِ زَمَانِهِمْ هَذَا ، وَقَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ هَذَا المَلِكُ الجَبَّارُ الْعَنِيدُ ، يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَخَسِّ الْأَعْمَالِ ، وَيَكُدُّهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْغَالِهِ وَأَشْغَالِ رَعِيَّتِهِ ، وَيُقَتِّلُ مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِهَانَةً لَهُمْ وَاحْتِقَارًا ، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمُ الْغُلَامُ

---

(١) في أول سورة البقرة .

الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ مِنْهُ ، أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ غُلَامٌ ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهِ وَذَهَابِ دَوْلَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ .

وَكَانَتِ الْقِبْطُ قَدْ تَلَقَّوْا هَذَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فِيمَا كَانُوا يَدْرُسُونَهُ مِنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام ، حِينَ وَرَدَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَجَرَى لَهُ مَعَ جَبَّارِهَا مَا جَرَى حِينَ أَخَذَ سَارَةَ لِيَتَّخِذَهَا جَارِيَةً ، فَصَانَهَا اللهُ مِنْهُ وَمَنَعَهُ مِنْهَا بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، فَبَشَّرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام وَلَدَهُ أَنَّهُ سَيُولَدُ مِنْ صُلْبِهِ وَذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَكُونُ هَلَاكُ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ ، فَكَانَتِ الْقِبْطُ تُحَدِّثُ بِهَذَا عِنْدَ فِرْعَوْن ، فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْنُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ؛ لأَنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾ وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى ذَلِكَ بِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] أَرَادَ فِرْعَوْنُ - بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ - أَنْ يَنْجُوَ مِنْ مُوسَى ، فَمَا نَفَعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَعَ قَدَرِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ أَمْرُهُ الْقَدَرِيُّ ، بَلْ نَفَذَ حُكْمُهُ وَجَرَى قَلَمُهُ فِي الْقِدَمِ بِأَنْ يَكُونَ هَلَاكُ فِرْعَوْن عَلَى يَدَيْهِ ، بَلْ يَكُونُ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي احْتَرَزْتَ مِنْ وُجُودِهِ ، وَقَتَلْتَ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الْوِلْدَانِ إِنَّمَا مَنْشَؤُهُ وَمُرَبَّاهُ عَلَى فِرَاشِكَ ، وَفِي دَارِكَ ، وَغِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامِكَ ، وَأَنْتَ تُرَبِّيهِ وَتُدَلِّلُهُ وَتَتَفَدَّاهُ ، وَحَتْفُكَ وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ جُنُودِكَ عَلَى يَدَيْهِ ، لِتَعْلَمَ أَنَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا هُوَ الْقَاهِرُ الْغَالِبُ الْعَظِيمُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الشَّدِيدُ الْمِحَالِ ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، خَافَتِ الْقِبْطُ أَنْ يُفْنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَلُونَ هُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ ، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ : إِنَّهُ يُوشِكُ إِنِ اسْتَمَرَّ هَذَا الْحَالُ أَنْ يَمُوتَ شُيُوخُهُمْ ، وَغِلْمَانُهُمْ لَا يَعِيشُونَ ، وَنِسَاؤُهُمْ لَا يُمْكِنِ أَنْ يَقُمْنَ بِمَا يَقُومُ بِهِ رِجَالُهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ فَيَخْلُصَ إِلَيْنَا ذَلِكَ ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْوِلْدَانِ عَامًا وَتَرْكِهِمْ عَامًا ، فَوُلِدَ هَارُونُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي السَّنَةِ الَّتِي يَتْرُكُونَ فِيهَا الْوِلْدَانَ ، وَوُلِدَ مُوسَى فِي السَّنَةِ الَّتِي يُقَتِّلُونَ فِيهَا الْوِلْدَانَ ، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ أُنَاسٌ مُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ ، وَقَوَابِلُ يَدُرْنَ عَلَى النِّسَاءِ ، فَمَنْ رَأَيْنَهَا قَدْ حَمَلَتْ أَحْصَوْا اسْمَهَا فَإِذَا كَانَ وَقْتُ وِلَادَتِهَا لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا نِسَاءُ الْقِبْطِ ، فَإِنْ وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ جَارِيَةً تَرَكْنَهَا وَذَهَبْنَ ، وَإِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا دَخَلَ أُولَئِكَ الذَّبَّاحُونَ بِأَيْدِيهِمُ الشِّفَارُ الْمُرْهَفَةُ فَقَتَلُوهُ وَمَضَوْا - قَبَّحَهُمُ اللهُ تَعَالَى - .

فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهِ عليه السلام لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهَا مَخَايِلُ الْحَمْلِ كَغَيْرِهَا وَلَمْ تَفْطِنْ لَهَا الدَّايَاتُ ، وَلَكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا ، وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا ، وَكَانَ مُوسَى عليه السلام لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : ٣٩] ، فَلَمَّا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا أُلْهِمَتْ فِي سِرِّهَا ، وَأُلْقِيَ فِي خَلَدِهَا ، وَنُفِثَ فِي رُوعِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَافَّةِ النِّيلِ فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا وَمَهَّدَتْ فِيهِ مَهْدًا ، وَجَعَلَتْ تُرْضِعُ وَلَدَهَا فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُهُ ذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ وَسَيَّرَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ عِنْدَهَا ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُهُ ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَذَهِلَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ ، فَذَهَبَ مَعَ الْمَاءِ وَاحْتَمَلَهُ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ فَالْتَقَطَهُ الْجَوَارِي ، فَاحْتَمَلْنَهُ فَذَهَبْنَ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَلَا يَدْرِينَ مَا فِيهِ ، وَخَشِينَ أَنْ يَفْتَتْنَ عَلَيْهَا فِي فَتْحِهِ دُونَهَا ، فَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلَامٌ مِنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ وَأَجْمَلِهِ وَأَحْلَاهُ وَأَبْهَاهُ ، فَأَوْقَعَ اللهُ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِهَا حِينَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ لِسَعَادَتِهَا وَمَا أَرَادَ اللهُ مِنْ كَرَامَتِهَا وَشَقَاوَةِ بَعْلِهَا .

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ الْآيَة . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ : ((اللَّام)) هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ ، لَا لَامُ التَّعْلِيلِ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِالْتِقَاطِهِ ذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ يَقْتَضِي مَا قَالُوهُ ، وَلَكِنْ إِذَا نُظِرَ إِلَى مَعْنَى السِّيَاقِ فَإِنَّهُ تَبْقَى اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ ؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَيَّضَهُمْ لِالْتِقَاطِهِ لِيَجْعَلَهُ عَدُوًّا لَهُ وَحَزَنًا ، فَيَكُونَ أَبْلَغُ فِي إِبْطَالِ حَذَرِهِمْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ الْآيَة . يَعْنِي : أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا رَآهُ هَمَّ بِقَتْلِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَشَرَعَتِ امْرَأَتُهُ آسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ تُخَاصِمُ عَنْهُ وَتَذِبُّ دُونَهُ وَتُحَبِّبُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَقَالَتْ : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ : أَمَّا لَكِ فَنَعَمْ ، وَأَمَّا لِي فَلَا ، فَكَانَ كَذَلِكَ ، وَهَدَاهَا اللهُ بِسَبَبِهِ ، وَأَهْلَكَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ وَقَدْ حَصَلَ لَهَا ذَلِكَ ، وَهَدَاهَا اللهُ بِهِ وَأَسْكَنَهَا الْجَنَّةَ بِسَبَبِهِ . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أَيْ : أَرَادَتْ أَنْ تَتَّخِذهُ وَلَدًا وَتَتَبَنَّاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ مِنْهُ ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَدْرُونَ مَا أَرَادَ اللهُ مِنْهُ بِالْتِقَاطِهِمْ إِيَّاهُ ، مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فُؤَادِ أُمِّ مُوسَى حِينَ ذَهَبَ وَلَدُهَا فِي الْبَحْرِ ، أَنَّهُ أَصْبَحَ فَارِغًا ، أَيْ : مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ مُوسَى ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى

بِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنْ كَادَتْ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِهَا وَحُزْنِهَا وَأَسَفِهَا لَتُظْهِرَ أَنَّهُ ذَهَبَ لَهَا وَلَدٌ ، وَتُخْبِرُ بِحَالِهَا لَوْلَا أَنَّ اللهَ ثَبَّتَهَا وَصَبَّرَهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : أَمَرَتِ ابْنَتَهَا ، وَكَانَتْ كَبِيرَةً تعِي ما يُقَالُ لَهَا ، فَقَالَتْ لَهَا : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أَيْ : اِتَّبِعِي أَثَرَهُ ، وَخُذِي خَبَرَهُ ، وَتَطَلَّبِي شَأْنَهُ مِنْ نَوَاحِي الْبَلَد ، فَخَرَجَتْ لِذَلِكَ ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : عَنْ جَانِبٍ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ عَنْ بَعِيدٍ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : جَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ وَكَأَنَّهَا لَا تُرِيدُهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اِسْتَقَرَّ مُوسَى ﷺ بِدَارِ فِرْعَوْن وَأَحَبَّتْهُ امْرَأَةُ الْمَلِكِ وَاسْتَطْلَقَتْهُ مِنْهُ ، عَرَضُوا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ الَّتِي فِي دَارِهِمْ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا ثَدْيًا ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَخَرَجُوا بِهِ إِلَى السُّوقِ لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ اِمْرَأَةً تَصْلُحُ لِرِضَاعَتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ ، وَلَمْ تُظْهِرْ ذَلِكَ وَلَمْ يَشْعُرُوا بِهَا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : تَحْرِيمًا قَدَرِيًّا ، وَذَلِكَ لِكَرَامَتِهِ عِنْدَ الله وَصِيَانَتِهِ لَهُ ، أَنْ يَرْتَضِعَ غَيْرَ ثَدْيِ أُمِّهِ ، وَلأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا إِلَى رُجُوعِهِ إِلَى أُمِّهِ لِتُرْضِعَهُ وَهِيَ آمِنَةٌ بَعْدَ مَا كَانَتْ خَائِفَةً ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَائِرِينَ فِيمَنْ يُرْضِعَهُ ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : فَلَمَّا قَالَتْ ذَلِكَ أَخَذُوهَا وَشَكُّوا فِي أَمْرِهَا ، وَقَالُوا لَهَا : وَمَا يُدْرِيكِ بِنُصْحِهِمْ لَهُ وَشَفَقَتِهِمْ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَتْ لَهُمْ : نُصْحُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَتُهُمْ فِي ظُئُورَةِ الْمَلِكِ وَرَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ ، فَأَرْسَلُوهَا ، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُمْ ذَلِكَ وَخَلَصَتْ مِنْ أَذَاهُمْ ، ذَهَبُوا مَعَهَا إِلَى مَنْزِلِهِمْ ، فَدَخَلُوا بِهِ عَلَى أُمِّهِ ، فَأَعْطَتْهُ ثَدْيَهَا فَالْتَقَمَهُ ، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا .

وَذَهَبَ الْبَشِيرُ إِلَى اِمْرَأَةِ الْمَلِكِ ، فَاسْتَدْعَتْ أُمَّ مُوسَى ، وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا ، وَأَعْطَتْهَا عَطَاءً جَزِيلًا ، وَهِيَ لَا تَعْرِفُ أَنَّهَا أُمُّهُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَلَكِنْ لِكَوْنِهِ وَافَقَ ثَدْيَهَا ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَةُ أَنْ تُقِيمَ عِنْدَهَا فَتُرْضِعَهُ فَأَبَتْ عَلَيْهَا ، وَقَالَتْ : إِنَّ لِي بَعْلًا وَأَوْلَادًا وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْمُقَام عِنْدَكِ ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أُرْضِعَهُ فِي بَيْتِي فَعَلْتُ ، فَأَجَابَتْهَا اِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النَّفَقَةَ وَالصِّلَاتِ وَالْكَسَاوِي

وَالْإِحْسَانَ الْجَزِيلَ ، فَرَجَعَتْ أُمُّ مُوسَى بِوَلَدِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً قَدْ أَبْدَلَهَا اللهُ بَعْدَ خَوْفِهَا أَمْنًا فِي عِزٍ وَجَاهٍ وَرِزْقٍ دَارٍّ ، فَسُبْحَانَ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ ، مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، الَّذِي يَجْعَلُ لِمَنِ اتَّقَاهُ بَعْدَ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَبَعْدَ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أَيْ : بِهِ ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أَيْ : عَلَيْهِ ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّهِ إِلَيْهَا ، وَجَعْلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ - بِرَدِّهِ إِلَيْهَا - أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْهُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَتِهِ مَا يَنْبَغِي لَهُ طَبْعًا وَشَرْعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : حُكْمَ اللهِ فِي أَفْعَالِهِ وَعَوَاقِبِهَا الْمَحْمُودَةِ الَّتِي هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَرُبَّمَا يَقَعُ الْأَمْرُ كَرِيهًا إِلَى النُّفُوسِ وَعَاقِبَتُهُ مَحْمُودَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾[البقرة : ٢١٦]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَبْدَأَ أَمْرِ مُوسَى عليه السلام ذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَاهُ اللهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي : النُّبُوَّةَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى سَبَبَ وُصُولِهِ إِلَى مَا كَانَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالتَّكْلِيمِ : فِي قَضِيَّةِ قَتْلِهِ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى بِلَادِ مَدْيَنَ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أَيْ :

يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَازَعَانِ ﴿ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ أَيْ : إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أَيْ : قِبْطِيٌّ ، فَاسْتَغَاثَ الْإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى ، فَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَةً وَهِيَ غَفْلَةُ النَّاسِ فَعَمَدَ إِلَى الْقِبْطِيِّ ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ قِيلَ : فَوَكَزَهُ ، أَيْ : طَعَنَهُ بِجُمعِ كَفِّهِ ، وَقِيلَ : وَكَزَهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعَهُ ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : كَانَ فِيهَا حَتْفُهُ فَمَاتَ ﴿ قَالَ ﴾ مُوسَى ﴿ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أَيْ : بِمَا جَعَلْتَ لِي مِنَ الْجَاهِ وَالْعِزِّ وَالْمَنَعَةِ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أَيْ : مُعِينًا ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَيْ : الْكَافِرِينَ بِكَ الْمُخَالِفِينَ لِأَمْرِكَ .

فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى ﷺ لَمَّا قَتَلَ ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ أَنَّهُ أَصْبَحَ ﴿ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا ﴾ أَيْ : مِنْ مَعَرَّةِ مَا فَعَلَ ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أَيْ : يَتَلَفَّتُ ، وَيَتَوَقَّعُ مَا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَمَرَّ فِي بَعْضِ الطُّرُقِ ، فَإِذَا ذَلِكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى ذَلِكَ الْقِبْطِيِّ يُقَاتِلُ آخَرَ ، فَلَمَّا مَرَّ مُوسَى اسْتَصْرَخَهُ عَلَى الْآخَرِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : ظَاهِرُ الْغَوَايَةِ كَثِيرُ الشَّرِّ ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى الْبَطْشِ بِذَلِكَ الْقِبْطِيِّ فَاعْتَقَدَ الْإِسْرَائِيلِيُّ لِخَوَرِهِ وَضَعْفِهِ وَذِلَّتِهِ أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيدُ قَصْدَهُ ، لَمَّا سَمِعَهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، فَقَالَ - يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ - : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى - ﷺ - فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلِكَ الْقِبْطِيُّ لَقِفَهَا مِنْ فَمِهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى بَابِ فِرْعَوْنَ وَأَلْقَاهَا عِنْدَهُ ، فَعَلِمَ فِرْعَوْنُ بِذَلِكَ ، فَاشْتَدَّ حَنَقُهُ وَعَزَمَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى ، فَطَلَبُوهُ فَبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضِرُوهُ لِذَلِكَ .

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ

بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ وَصَفَهُ بِالرُّجُولِيَّةِ لأَنَّهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ ، فَسَلَكَ طَرِيقًا أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِ الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ ، فَسَبَقَ إِلَى مُوسَى فَقَالَ لَهُ : يَا مُوسَى ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أَيْ : يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبَلَدِ ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

لَمَّا أَخْبَرَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ بِمَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَدَوْلَتُهُ فِي أَمْرِهِ ، خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وَحْدَهُ ، وَلَمْ يَأْلَفْ ذَلِكَ قَبْلَهُ ، بَلْ كَانَ فِي رَفَاهِيَةٍ وَنِعْمَةٍ وَرِيَاسَةٍ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أَيْ : يَتَلَفَّتُ ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَذَكَرُوا أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا عَلَى فَرَسٍ فَأَرْشَدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ ، فَاللهُ أَعْلَمُ . ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيْ : أَخَذَ طَرِيقًا سَالِكًا مَهْيَعًا ، فَرِحَ بِذَلِكَ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أَيْ : الطَّرِيقَ الْأَقْوَمَ ، فَفَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ وَهَدَاهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَجَعَلَهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيْ : لَمَّا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ وَوَرَدَ مَاءَهَا ، وَكَانَ لَهَا بِئْرٌ تَرِدُهُ رِعَاءُ الشَّاءِ ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أَيْ : جَمَاعَةً يَسْقُونَ ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أَيْ : تُكَفْكِفَانِ غَنَمَهُمَا أَنْ تَرِدَ مَعَ غَنَمِ أُولَئِكَ الرِّعَاءِ لِئَلَّا يُؤْذَيَا ، فَلَمَّا رَآهُمَا مُوسَى عليه السلام رَقَّ لَهُمَا وَرَحِمَهُمَا ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أَيْ : مَا خَبَرُكُمَا لَا تَرِدَانِ مَعَ هَؤُلَاءِ ؟ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ

ٱلرِّعَآءُ﴾ أَيْ: لَا يَحْصُلُ لَنَا سَقْيٌ إِلَّا بَعْدَ فَرَاغِ هَؤُلَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أَيْ: فَهَذَا الْحَالُ الْمُلْجِئُ لَنَا إِلَى مَا تَرَى. **قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ، قَالَ: فَلَمَّا فَرَغُوا أَعَادُوا الصَّخْرَةَ عَلَى الْبِئْرِ وَلَا يُطِيقُ رَفْعَهَا إِلَّا عَشَرَةُ رِجَالٍ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَالَ: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتَاهُ، فَأَتَى الْحَجَرَ فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذَنُوبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوِيَتِ الْغَنَمُ. إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:** سَارَ مُوسَى مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلُ وَوَرَقُ الشَّجَرِ، وَكَانَ حَافِيًا فَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمَيْهِ وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ، وَهُوَ صَفْوَةُ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّ بَطْنَهُ لَلَاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ **قِيلَ:** جَلَسَ تَحْتَ شَجَرَةٍ.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

لَمَّا رَجَعَتِ الْمَرْأَتَانِ سَرِيعًا بِالْغَنَمِ إِلَى أَبِيهِمَا أَنْكَرَ حَالَهُمَا بِسَبَبِ مَجِيئِهِمَا سَرِيعًا، فَسَأَلَهُمَا عَنْ خَبَرِهِمَا، فَقَصَّتَا عَلَيْهِ مَا فَعَلَ مُوسَى ﷺ، فَبَعَثَ إِحْدَاهُمَا إِلَيْهِ لِتَدْعُوهُ إِلَى أَبِيهَا، **قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أَيْ: مَشْيَ

الحَرَائِرِ . **قَالَ عُمَرُ** ﷺ : جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا ، لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ وَلَّاجَةٍ خَرَّاجَةٍ . هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ .

قَالَ الجَوْهَرِيُّ : السَّلْفَعُ مِنَ الرَّجُلِ : الجَسُورُ ، وَمِنَ النِّسَاءِ : الجَرِيئَةُ السَّلِيطَةُ ، وَمِنَ النُّوقِ : الشَّدِيدَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ وَهَذَا تَأَدُّبٌ فِي العِبَارَةِ ، لَمْ تَطْلُبْهُ طَلَبًا مُطْلَقًا لِئَلَّا يُوهِمَ رِيبَةً ، **بَلْ قَالَتْ** : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ يَعْنِي : لِيُثِيبَكَ ، وَيُكَافِئَكَ عَلَى سَقْيِكَ لِغَنَمِنَا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أَيْ : ذَكَرَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَرَى لَهُ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ مِنْ بَلَدِهِ ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يَقُولُ : طِبْ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا ، فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ فَلَا حُكْمَ لَهُمْ فِي بِلَادِنَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ : مَنْ هُوَ ؟ عَلَى أَقْوَالٍ ؛ أَحَدُهَا : أَنَّهُ شُعَيْبٌ النَّبِيُّ ﷺ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَقَدْ قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلْ كَانَ ابْنُ أَخِي شُعَيْبٍ ، **وَقِيلَ** : رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : كَانَ شُعَيْبٌ قَبْلَ زَمَانِ مُوسَى ﷺ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩] ، وَقَدْ كَانَ هَلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ فِي زَمَنِ الْخَلِيلِ ﷺ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْخَلِيلِ وَمُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ ، كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . وَمَا قِيلَ إِنَّ شُعَيْبًا عَاشَ مُدَّةً طَوِيلَةً إِنَّمَا هُوَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - احْتِرَازٌ مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ ، ثُمَّ مِنَ الْمُقَوِّي لِكَوْنِهِ لَيْسَ بِشُعَيْبٍ : أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِيَّاهُ لَأَوْشَكَ أَنْ يَنُصَّ عَلَى اسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ هَهُنَا ، وَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِهِ فِي قِصَّةِ مُوسَى لَمْ يَصِحَّ إِسْنَادُهُ ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ مِنَ الْمَوْجُودِ فِي كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ اسْمُهُ ((ثِيرُونَ)) ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ

ٱلْأَمِينُ﴾ أَيْ : قَالَتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَا الرَّجُلِ . **قِيلَ** : هِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ وَرَاءَ مُوسَى عليه السلام . **قَالَتْ لِأَبِيهَا** : ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أَيْ : لِرِعْيَةِ هَذِهِ الْغَنَمِ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَمَّا قَالَتْ : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قَالَ لَهَا أَبُوهَا : وَمَا عِلْمُكِ بِذَلِكَ ؟ قَالَتْ لَهُ : إِنَّهُ رَفَعَ الصَّخْرَةَ الَّتِي لَا يُطِيقُ حَمْلَهَا إِلَّا عَشَرَةُ رِجَالٍ ، وَإِنِّي لَمَّا جِئْتُ مَعَهُ تَقَدَّمْتُ أَمَامَهُ ، فَقَالَ لِي : كُونِي مِنْ وَرَائِي ، فَإِذَا اخْتَلَفَ عَلَيَّ الطَّرِيق فَاحْذِفِي لِي بِحَصَاةٍ أَعْلَمُ بِهَا كَيْفَ الطَّرِيقُ لِأَهْتَدِيَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ أَيْ : طَلَبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُلُ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ وَيُزَوِّجُهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ هَاتَيْنِ . ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أَيْ : عَلَى أَنْ تَرْعَى غَنَمِي ثَمَانِي سِنِينَ ، فَإِنْ تَبَرَّعْتَ بِزِيَادَةِ سَنَتَيْنِ فَهُوَ إِلَيْكَ ، وَإِلَّا فَفِي الثَّمَانِ كِفَايَةٌ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أَيْ : لَا أُشَاقُّكَ ، وَلَا أُؤَاذِيكَ ، وَلَا أُمَارِيكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عليه السلام : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يَقُولُ : إِنَّ مُوسَى قَالَ لِصِهْرِهِ : الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ مِنْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى ثَمَانِ سِنِينَ ، فَإِنْ أَتْمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِي ، فَأَنَا مَتَى فَعَلْتُ أَقَلَّهُمَا فَقَدْ بَرِئْتُ مِنَ الْعَهْدِ وَخَرَجْتُ مِنَ الشَّرْطِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ أَيْ : فَلَا حَرَجَ عَلَيَّ مَعَ أَنَّ الْكَامِلَ - وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا - لَكِنَّهُ فَاضِلٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى ، بِدَلِيلٍ مِنْ خَارِجٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ٢٠٣] ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِحَمْزَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه وَكَانَ كَثِيرُ الصِّيَامِ وَسَأَلَهُ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ فَقَالَ : « **إِنْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ** »(١) مَعَ أَنَّ فِعْلَ الصِّيَامِ رَاجِحٌ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ ، هَذَا وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مُوسَى عليه السلام إِنَّمَا فَعَلَ أَكْمَلَ الْأَجَلَيْنِ وَأَتَمَّهُمَا . **قَالَ الْبُخَارِيُّ**(٢) : **عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ** : سَأَلَنِي يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ :

---

(١) البخاري (١٩٤٣) ، ومسلم (١١٢١) .
(٢) البخاري حديث رقم (٢٦٨٤) .

أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى ؟ فَقُلْتُ : لَا أَدْرِي حَتَّى أَقْدُمَ عَلَى حَبْرِ الْعَرَبِ فَأَسْأَلَهُ ، فَقَدِمْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ : قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا : إِنَّ رَسُولَ اللهِ إِذَا قَالَ فَعَلَ .

وَعَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** ﷺ **قَالَ** : لَمَّا دَعَا نَبِيُّ اللهِ مُوسَى ﷺ صَاحِبَهُ إِلَى الْأَجَلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : كُلُّ شَاةٍ وَلَدَتْ عَلَى غَيْرِ لَوْنِهَا ذَلِكَ وَلَدُهَا لَكَ فَعَمَدَ مُوسَى فَرَفَعَ حِبَالًا عَلَى الْمَاءِ ، فَلَمَّا رَأَتِ الْخَيَالَ فَزِعَتْ فَجَالَتْ جَوْلَةً ، فَوَلَدْنَ كُلُّهُنَّ بُلْقًا إِلَّا شَاةً وَاحِدَةً ، فَذَهَبَ بِأَوْلَادِهِنَّ ذَلِكَ الْعَامَ .

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَبْلَهَا : أَنَّ مُوسَى ﷺ قَضَى أَتَمَّ الْأَجَلَيْنِ وَأَوْفَاهُمَا وَأَبَرَّهُمَا وَأَكْمَلَهُمَا وَأَنْقَاهُمَا ، وَقَدْ يُسْتَفَادُ هَذَا أَيْضًا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ أَيْ : الْأَكْمَلَ مِنْهُمَا وَاللهُ أَعْلَمُ ، ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ قَالُوا : كَانَ مُوسَى قَدِ اشْتَاقَ إِلَى بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ ، فَعَزَمَ عَلَى زِيَارَتِهِمْ فِي خُفْيَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ صِهْرُهُ ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَجَعَلَ كُلَّمَا أَوْرَى زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا ، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ أَيْ :

رَأَى نَارًا تُضِيءُ لَهُ عَلَى بُعْدٍ فـ ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ أَيْ : حَتَّى أَذْهَبُ إِلَيْهَا ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّهُ قَدْ أَضَلَّ الطَّرِيقَ ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : قِطْعَةٍ مِنْهَا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أَيْ : تَتَدَفَّئُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أَيْ : مِنْ جَانِبِ الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ ، عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ ، فَهَذَا مِمَّا يُرْشِدُ إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ يَمِينِهِ ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ فِي لِحْفِ الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي ، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا فَنَادَاهُ رَبُّهُ ﴿ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أَيْ : الَّتِي فِي يَدِكَ ، كَمَا قَرَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ١٧-١٨] ، وَالْمَعْنَى : أَمَا هَذِهِ عَصَاكَ الَّتِي تَعْرِفُهَا ؟ ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٩-٢٠] ، فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُكَلِّمُهُ وَيُخَاطِبُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ : كُنْ فَيَكُونُ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي « سُورَةِ طه » ، وَقَالَ هَهُنَا ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ أَيْ : تَضْطَرِبُ ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ أَيْ : فِي حَرَكَتِهَا السَّرِيعَةِ ، مَعَ عِظَمِ خِلْقَةِ قَوَائِمِهَا وَاتِّسَاعِ فَمِهَا ، وَاصْطِكَاكِ أَنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا ، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا تَنْحَدِرُ فِي فِيهَا ، تَتَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أَيْ : وَلَمْ يَكُنْ يَلْتَفِتُ لأَنَّ طَبْعَ الْبَشَرِيَّةِ يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا قَالَ اللهُ لَهُ ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَٰمِنِينَ ﴾ رَجَعَ فَوَقَفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ .

ثُمَّ قَالَ اللهُ لَهُ : ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أَيْ : إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ ، ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا ، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ

فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ **قِيلَ** : مِنَ الْفَزَعِ ، **وَقِيلَ** : مِنَ الرُّعْبِ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّ الْمُرَادَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُ أُمِرَ ﷺ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ وَهُوَ يَدُهُ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الِاقْتِدَاءِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَوْ يَخِفُّ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَبِهِ الثِّقَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ يَعْنِي : إِلْقَاءُ الْعَصَا وَجَعْلُهَا حَيَّةً تَسْعَى ، وَإِدْخَالُهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِحَّةِ نُبُوَّةِ مَنْ جَرَى هَذَا الْخَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾ أَيْ : وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكُبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ أَيْ : خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، مُخَالِفِينَ لِدِينِ اللهِ .

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

لَمَّا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ ، الَّذِي إِنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ فِرَارًا مِنْهُ وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يَعْنِي : ذَلِكَ الْقِبْطِيَّ ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أَيْ : إِذَا رَأَوْنِي ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى ﷺ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُثْغَةٌ ، بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَلَ تِلْكَ الْجَمْرَةَ حِينَ خُيِّرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّمْرَةِ - أَوِ الدُّرَّةِ - فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّعْبِيرِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾ [طه : ٢٧-٣٢] أَيْ : يُؤْنِسُنِي فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ الْقِيَامُ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ إِلَى هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَأَخِى

هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ أَيْ : وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيًا لِأَمْرِي ، يُصَدِّقُنِي فِيمَا أَقُولُهُ وَأُخْبِرُ بِهِ عَنِ اللهِ ﷺ لِأَنَّ خَبَرَ الِاثْنَيْنِ أَنْجَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ خَبَرِ الْوَاحِدِ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

﴿ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ أَيْ : يُبَيِّنُ لَهُمْ عَنِّي مَا أُكَلِّمُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ مَا لَا يَفْهَمُونَ .

فَلَمَّا سَأَلَ ذَلِكَ مُوسَى ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أَيْ : سَنُقَوِّي أَمْرَكَ وَنُعِزُّ جَانِبَكَ بِأَخِيكَ ، الَّذِي سَأَلْتَ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَعَكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[طه : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾[مريم : ٥٣] ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنَّةً عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ اللهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[الأحزاب : ٦٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا ﴾ أَيْ : حُجَّةً قَاهِرَةً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ أَيْ: لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَذَاكُمَا بِسَبَبِ إِبْلَاغِكُمَا آيَاتِ اللهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة : ٦٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[الأحزاب : ٣٩] أَيْ : وَكَفَى بِاللهِ نَاصِرًا وَمُعِينًا ، وَمُؤَيِّدًا ، وَلِهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمَا وَلِمَنِ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[المجادلة : ٢١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[غافر : ٥١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَوَجَّهَ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ثُمَّ يَبْتَدِئُ فَيَقُولُ : ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ تَقْدِيرُهُ : أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ بِآيَاتِنَا ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ وَهُوَ حَاصِلٌ مِنَ التَّوْجِيهِ الْأَوَّلِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا

سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ مَجِيءِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، وَعَرْضِهِ مَا آتَاهُمَا اللهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالدَّلَالَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى صِدْقِهِمَا فِيمَا أَخْبَرَا عَنِ اللهِ ﷻ: مِنْ تَوْحِيدِهِ وَاتِّبَاعِ أَوَامِرِهِ ، فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ ذَلِكَ ، وَشَاهَدُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ مِنَ اللهِ عَدَلُوا بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ إِلَى الْعِنَادِ وَالْمُبَاهَتَةِ ، وَذَلِكَ لِطُغْيَانِهِمْ وَتَكَبُّرِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ **فَقَالُوا** : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أَيْ : مُفْتَعَلٌ مَصْنُوعٌ ، وَأَرَادُوا مُعَارَضَتَهُ بِالْحِيلَةِ وَالْجَاهِ ، فَمَا صَعِدَ مَعَهُمْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، يَقُولُونَ : مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آبَائِنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ ، وَلَمْ نَرَ النَّاسَ إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى . **فَقَالَ مُوسَى مُجِيبًا لَهُمْ** : ﴿ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ ﴾ يَعْنِي : مِنِّي وَمِنْكُمْ ، وَسَيَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ أَيْ : مِنَ النُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ وَالتَّأْيِيدِ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ ﷻ.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ ، وَافْتِرَائِهِ فِي دَعْوَاهُ الْإِلَهِيَّةَ لِنَفْسِهِ الْقَبِيحَةِ - لَعَنَهُ اللهُ - كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ،

وَذَلِكَ لأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلَى الاعْتِرَافِ لَهُ بِالإِلَهِيَّةِ ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ بِقِلَّةِ عُقُولِهِمْ وَسَخَافَةِ أَذْهَانِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾[النازعات : ٢٣-٢٦] **يَعْنِي** : أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمَهُ وَنَادَى فِيهِمْ بِصَوْتِهِ الْعَالِي مُصَرِّحًا لَهُمْ بِذَلِكَ فَأَجَابُوهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ ، وَلِهَذَا انْتَقَمَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ فَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَحَتَّى أَنَّهُ وَاجَهَ مُوسَى الْكَلِيمَ بِذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾[الشعراء : ٢٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ يَعْنِي : أَمَرَ وَزِيرَهُ ((هَامَان)) وَمُدَبِّرَ رَعِيَّتِهِ وَمُشِيرَ دَوْلَتِهِ أَنْ يُوقِدَ لَهُ عَلَى الطِّينِ يَعْنِي : يَتَّخِذَ لَهُ آجُرًّا لِبِنَاءِ الصَّرْحِ ، وَهُوَ : الْقَصْرُ الْمُنِيفُ الرَّفِيعُ الْعَالِي ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾[غافر : ٣٦-٣٧] ، وَذَلِكَ لأَنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى هَذَا الصَّرْحَ الَّذِي لَمْ يُرَ فِي الدُّنْيَا بِنَاءٌ أَعْلَى مِنْهُ ، إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِرَ لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيبَ مُوسَى ، فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِلَهٍ غَيْرَ فِرْعَوْنَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أَيْ : فِي قَوْلِهِ ، أَنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيْرِي ، لَا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِفُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ - جَلَّ وَعَلَا - فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الشعراء : ٢٣] ، وَقَالَ : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَأَكْثَرُوا فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا قِيَامَةَ وَلَا مَعَادَ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ . [الفجر : ١٣-١٤]

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أَيْ : أَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : لِمَنْ سَلَكَ وَرَاءَهُمْ وَأَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ ، فِي تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَتَعْطِيلِ الصَّانِعِ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ : فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْيُ الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أَيْ : وَشَرَعَ اللهُ لَعْنَتَهُمْ وَلَعْنَةَ مَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ ، عَلَى أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَّبِعِينَ رُسُلَهُ ، وَكَمَا أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلْعُونُونَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَكَذَلِكَ ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩]

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى الْكَلِيمِ - عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ - مِنْ إِنْزَالِ التَّوْرَاةِ عَلَيْهِ بَعْدَمَا أَهْلَكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ بَعْدَ إِنْزَالِ التَّوْرَاةِ لَمْ يُعَذِّبْ أُمَّةً بِعَامَّةٍ ، بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاءَ اللهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة : ٩-١٠] **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ** : مَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ مُسِخُوا قِرَدَةً بَعْدَ مُوسَى ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْعَمَى وَالْغَيِّ ، ﴿ وَهُدًى ﴾ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ، أَيْ : إِرْشَادًا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لَعَلَّ النَّاسَ

يَتَذَكَّرُونَ بِهِ وَيَهْتَدُونَ بِسَبَبِهِ .

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى بُرْهَانِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْغُيُوبِ المَاضِيَةِ ، خَبَرًا كَأَنَّ سَامِعَهُ شَاهِدٌ وَرَاءٍ لِمَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَرْيَمَ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]. أَيْ : وَمَا كُنْتَ حَاضِرًا لِذَلِكَ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَهَكَذَا لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِنْجَاءِ اللهِ لَهُ وَإِغْرَاقِ قَوْمِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] وَقَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [هود : ١٠٠] وَقَالَ فِي سُورَةِ ((طه)) ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه : ٩٩] وَقَالَ هَهُنَا بَعْدَمَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّةِ مُوسَى مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ إِيحَاءِ اللهِ إِلَيْهِ وَتَكْلِيمِهِ لَهُ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ يَعْنِي : مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ ، الَّذِي كَلَّمَ اللهُ مُوسَى مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي هِيَ شَرْقِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ الْوَادِي ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ لِذَلِكَ . وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْكَ ذَلِكَ لِيَكُونَ حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى قُرُونٍ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدُهَا ،

وَنَسَوْا حُجَجَ الله عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ أَيْ : وَمَا كُنْتَ مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا حِينَ أُخْبِرْتَ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْبٍ ، وَمَا قَالَ لِقَوْمِهِ وَمَا رَدُّوا عَلَيْهِ ﴿ وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى النَّاسِ رَسُولًا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قَالَ : نُودُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي ، وَأَجَبْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ مُوسَى ، وَهَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِيغَةٍ أُخْرَى أَخَصَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ النِّدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾[الشعراء : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[النازعات : ١٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾[مريم : ٥٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : مَا كُنْتَ مُشَاهِدًا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَخْبَرَكَ بِهِ ، رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِإِرْسَالِكَ إِلَيْهِمْ ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أَيْ : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اللهِ ﷺ . ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : وَأَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ لِتُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَلِتَقْطَعَ عُذْرَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنَ اللهِ بِكُفْرِهِمْ ، فَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ وَلَا نَذِيرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِهِ إِنْزَالَ كِتَابِهِ الْمُبَارَكِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾[الأنعام:١٥٦-١٥٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء : ١٦٥] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَوْ عَذَّبَهُمْ قَبْلَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ لَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ، أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالُوا عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْإِلْحَادِ ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ الْآيَةَ. يَعْنُونَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ مِثْلَ الْعَصَا، وَالْيَدِ، وَالطُّوفَانِ، وَالْجَرَادِ، وَالْقُمَّلِ، وَالضَّفَادِعِ، وَالدَّمِ وَتَنَقُّصِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، بِمَا يُضَيِّقُ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ، وَكَفَلْقِ الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْقَاهِرَةِ، الَّتِي أَجْرَاهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْ مُوسَى عليه السلام حُجَّةً وَبُرْهَانًا لَهُ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ يَنْجَعْ فِي فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، بَلْ كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ، كَمَا قَالُوا لَهُمَا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]، **وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا** ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: أَوَلَمْ يَكْفُرِ الْبَشَرُ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أَيْ: تَعَاوَنَا وَتَنَاصَرَا وَصَدَّقَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أَيْ: بِكُلٍّ مِنْهُمَا كَافِرُونَ، وَلِشِدَّةِ التَّلَازُمِ وَالتَّصَاحُبِ وَالْمُقَارَبَةِ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُونَ. **وَقِيلَ**: ﴿سَاحِرَانِ﴾ يَعْنُونَ: مُوسَى وَهَارُونَ، وَهَذَا قَوْلٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وَاللهُ أَعْلَمُ. **وَقِيلَ**: ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يَعْنُونَ: مُوسَى وَمُحَمَّدًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ - وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (سِحْرَانِ تَظَاهَرَا) **فَقِيلَ**: يَعْنُونَ التَّوْرَاةَ وَالْقُرْآنَ. **قَالَ السُّدِّيُّ**: يَعْنِي صَدَّقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْآخَرَ. **وَقِيلَ**: يَعْنُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. **وَقِيلَ**: الْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ، وَاللهُ

سُبْحَانه أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَالظَّاهِرُ عَلَى قِرَاءَةِ (سِحْرَانِ) أَنَّهُمْ يَعْنُونَ التَّوْرَاةَ وَالْقُرْآنَ ؛ لأَنَّهُ قَالَ بَعْدَهُ ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾ وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ بَيْنَ التَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام : ٩٢] ، وَقَالَتِ الْجِنُّ ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] ، **وَقَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ** : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى[1].

وَقَدْ عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ - لِذَوِي الْأَلْبَابِ - أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ - فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَعَدِّدَةِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ - أَكْمَلَ ، وَلَا أَشْمَلَ ، وَلَا أَفْصَحَ ، وَلَا أَعْظَمَ ، وَلَا أَشْرَفَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْعَظَمَةِ الْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام وَهُوَ التَّوْرَاةُ الَّتِي قَالَ اللهُ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وَالْإِنْجِيلُ إِنَّمَا نَزَلَ مُتَمِّمًا لِلتَّوْرَاةِ ، وَمُحِلًّا لِبَعْضِ مَا حُرِّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أَيْ : فِيمَا تُدَافِعُونَ بِهِ الْحَقَّ وَتُعَارِضُونَ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ أَيْ : فَإِنْ لَمْ يُجِيبُوكَ عَمَّا قُلْتَ لَهُمْ ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أَيْ : بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : بِغَيْرِ حُجَّةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : فَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : بَيَّنَّا لَهُمُ الْقَوْلَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَقُولُ تَعَالَى : أَخْبَرَهُمْ كَيْفَ صُنِعَ بِمَنْ مَضَى وَكَيْفَ هُوَ صَانِعٌ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ** : ﴿ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ يَعْنِي :

---

(١) البخاري (حديث ٣) .

قُرَيْشًا ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْعُلَمَاءِ الْأَلِبَّاءِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾[البقرة : ١٢١] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾[آل عمران : ١٩٩] ، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ كُنَّا مُسْلِمِينَ ، أَيْ : مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ لله مُسْتَجِيبِينَ لَهُ .

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : هَؤُلَاءِ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ ثُمَّ بِالثَّانِي ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أَيْ : عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ تَجَشُّمَ مِثْلَ هَذَا شَدِيدٌ عَلَى النُّفُوسِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أَيْ : لَا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَ بِمِثْلِهِ ، وَلَكِنْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الَّذِي رَزَقَهُمْ مِنَ الْحَلَالِ يُنْفِقُونَ عَلَى خَلْقِ الله فِي النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِأَهْلِيهِمْ وَأَقَارِبِهِمْ ، وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنَ التَّطَوُّعَاتِ وَصَدَقَاتِ النَّفْلِ وَالْقُرُبَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أَيْ : لَا يُخَالِطُونَ أَهْلَهُ وَلَا

(١) البخاري (٩٧) ، ومسلم (١٥٤) .

يُعَاشِرُونَهُمْ ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ سَفِيهٌ ، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمُ الْجَوَابُ عَنْهُ ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ ، **وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُمْ : إِنَّهُمْ قَالُوا** : ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أَيْ : لَا نُرِيدُ طَرِيقَ الْجَاهِلِينَ وَلَا نُحِبُّهَا .

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ إِلَيْكَ ذَلِكَ ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَخَصُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ **فَإِنَّهُ قَالَ** : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهِدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْغِوَايَةَ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ - عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ - وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ ، وَيُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَحَانَ أَجَلُهُ دَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ وَالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَسَبَقَ الْقَدَرُ فِيهِ وَاخْتُطِفَ مِنْ يَدِهِ ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَللهِ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ .

عَنِ الْمُسَيِّبِ بْنِ حَزْنٍ الْمَخْزُومِيِّ قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ

(١) البخاري (١٣٦٠) ، ومسلم (٢٤) .

ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ** » فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ ، وَيَعُودَانِ لَهُ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ ، حَتَّى كَانَ آخِرُ مَا قَالَ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ** » فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وَأَنْزَلَ فِي أَبِي طَالِبٍ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اعْتِذَارِ بَعْضِ الْكُفَّارِ فِي عَدَمِ اتِّبَاعِ الْهُدَى ، حَيْثُ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ أَيْ : نَخْشَى إِنِ اتَّبَعْنَا مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَخَالَفْنَا مَنْ حَوْلَنَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ ، أَنْ يَقْصِدُونَا بِالْأَذَى وَالْمُحَارَبَةِ وَيَتَخَطَّفُونَا أَيْنَمَا كُنَّا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ يَعْنِي : هَذَا الَّذِي اعْتَذَرُوا بِهِ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ فِي بَلَدٍ أَمِينٍ وَحَرَمٍ مُعَظَّمٍ آمِنٍ مُنْذُ وُضِعَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْحَرَمُ آمِنًا لَهُمْ فِي حَالِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ ، وَلَا يَكُونُ آمِنًا لَهُمْ وَقَدْ أَسْلَمُوا وَتَابَعُوا الْحَقَّ ؟.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أَيْ : مِنْ سَائِرِ الثِّمَارِ مِمَّا حَوْلَهُ مِنَ الطَّائِفِ وَغَيْرِهِ وَكَذَلِكَ الْمَتَاجِرُ وَالْأَمْتِعَةُ ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أَيْ : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَلِهَذَا قَالُوا مَا قَالُوا .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُعَرِّضًا بِأَهْلِ مَكَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أَيْ : طَغَتْ وَأَشِرَتْ وَكَفَرَتْ نِعْمَةَ الله فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢-١١٣] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : دَثَرَتْ دِيَارُهُمْ فَلَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ أَيْ : رَجَعَتْ خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْلِهِ وَأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا ظَالِمًا لَهُ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُ مَنْ أَهْلَكَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ؛ **ولهذا قَالَ** : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا ﴾ ، وَهِيَ مَكَّةَ ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ – وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الْمَبْعُوثُ مِنْ أُمِّ الْقُرَى – رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الْقُرَى مِنْ عَرَبٍ وَأَعْجَام ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وَقَالَ : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] ، وَتَمَامُ الدَّلِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٥٨] ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيُهْلِكُ كُلَّ قَرْيَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، فَجَعَلَ تَعَالَى بَعْثَةَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْقُرَى ؛ لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى أُمِّهَا وَأَصْلِهَا الَّتِي تَرْجِعُ إِلَيْهَا ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**)) وَلِهَذَا خُتِمَ بِهِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ ، بَلْ شَرْعُهُ بَاقٍ بَقَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . **وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ** : ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ أَيْ : أَصْلِهَا وَعَظِيمَتِهَا كَأُمَّهَاتِ الرَّسَاتِيقِ وَالْأَقَالِيمِ .

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الزِّينَةِ الدَّنِيئَةِ وَالزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنَ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْمُقِيمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٦-١٧] ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[1] : « **وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ : مَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ ؟** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا يَعْقِلُ مَنْ يُقَدِّمُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى أَفَمَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا وَعَدَهُ اللهُ عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِ مِنَ الثَّوَابِ ، الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ مُكَذِّبٌ بِلِقَاءِ اللهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، فَهُوَ مُمَتَّعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلَائِلَ ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ، **ثُمَّ قَدْ قِيلَ** : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي أَبِي جَهْلٍ . **وَقِيلَ** : فِي حَمْزَةَ وَعَلِيٍّ وَأَبِي جَهْلٍ وَكِلَاهُمَا عَنْ مُجَاهِدٍ[2]. **وَالظَّاهِرُ** : **أَنَّهَا عَامَّةٌ** ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ حِينَ أَشْرَفَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهُوَ فِي الدَّرَجَاتِ وَذَاكَ فِي الدَّرَكَاتِ : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات:٥٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات:١٥٨]

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ

(١) مسلم (٢٨٥٨) .
(٢) ولا يصح هذا .

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُوَبِّخُ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يَعْنِي: أَيْنَ الْآلِهَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّهْدِيدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ يَعْنِي: الشَّيَاطِينَ وَالْمَرَدَةَ وَالدُّعَاةَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ فَشَهِدُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَغْوَوْهُمْ فَاتَّبَعُوهُمْ ثُمَّ تَبَرَّءُوا مِنْ عِبَادَتِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أَيْ: لِيُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ كَمَا كُنْتُمْ تَرْجُونَ مِنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أَيْ: وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى النَّارِ لَا مَحَالَةَ. ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ: فَوَدُّوا حِينَ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ النِّدَاءُ الْأَوَّلُ عَنْ سُؤَالِ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا فِيهِ إِثْبَاتُ النُّبُوَّاتِ: مَاذَا كَانَ جَوَابُكُمْ لِلْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ؟ وَكَيْفَ

كَانَ حَالُكُمْ مَعَهُمْ ؟ وَهَذَا كَمَا يُسْأَلُ الْعَبْدُ فِي قَبْرِهِ : مَنْ رَبُّكَ ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَيَشْهَدُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي ، وَلِهَذَا لَا جَوَابَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ السُّكُوتِ ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَجُ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ بِالْأَنْسَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ((وَعَسَى)) مِنَ اللهِ مُوجِبَةٌ ، فَإِنَّ هَذَا وَاقِعٌ بِفَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ لَا مَحَالَةَ .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي ذَلِكَ مُنَازِعٌ وَلَا مُعَقِّبٌ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أَيْ : مَا يَشَاءُ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَالْأُمُورُ كُلُّهَا خَيْرُهَا وَشَرُّهَا بِيَدِهِ وَمَرْجِعُهَا إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ نَفْيٌ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ (مَا) هَهُنَا بِمَعْنَى : (الَّذِي) تَقْدِيرُهُ : وَيَخْتَارُ الَّذِي لَهُمْ فِيهِ خِيَرَةٌ ، وَقَدِ احْتَجَّ بِهَذَا الْمَسْلَكِ طَائِفَةُ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى وُجُوبِ مُرَاعَاةِ الْأَصْلَحِ . وَالصَّحِيحُ : أَنَّهَا نَافِيَةٌ ، كَمَا نَقَلَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ ، فَإِنَّ الْمَقَامَ فِي بَيَانِ انْفِرَادِهِ تَعَالَى بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَأَنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ

وَالْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ وَلَا تَخْتَارُ شَيْئًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ الضَّمَائِرُ ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ السَّرَائِرُ ، كَمَا يَعْلَمُ مَا تُبْدِيهِ الظَّوَاهِرُ مِنْ سَائِرِ الْخَلَائِقِ ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[الرعد : ١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ ، فَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ ، كَمَا لَا رَبَّ يَخْلُقُ وَيَخْتَارُ سِوَاهُ ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ أَيْ : فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَيْهِ لِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لَهُ لِقَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، اللَّذَيْنِ لَا قِوَامَ لَهُمْ بِدُونِهِمَا ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ اللَّيْلَ دَائِمًا عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِهِمْ ، وَلَسَئِمَتْهُ النُّفُوسُ وَانْحَصَرَتْ مِنْهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ أَيْ : تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ بِسَبَبِهِ ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا ، أَيْ : دَائِمًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِهِمْ وَلَتَعِبَتِ الْأَبْدَانُ ، وَكَلَّتْ مِنْ كَثْرَةِ الْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أَيْ : تَسْتَرِيحُونَ مِنْ حَرَكَاتِكُمْ وَأَشْغَالِكُمْ ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : بِكُمْ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : خَلَقَ هَذَا وَهَذَا ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أَيْ : فِي اللَّيْلِ ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي النَّهَارِ بِالْأَسْفَارِ وَالتَّرْحَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَشْغَالِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَشْكُرُونَ اللهَ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ بِاللَّيْلِ اِسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ ، أَوْ بِالنَّهَارِ اِسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

وَهَذَا أَيْضًا نِدَاءٌ ثَانٍ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ لِمَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَر ، يُنَادِيهِمُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ: ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أَيْ : فِي دَارِ الدُّنْيَا . ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي رَسُولًا ﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ أَيْ : عَلَى صِحَّةِ مَا اِدَّعَيْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ للهِ شُرَكَاءَ ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : لَا إِلَهَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَنْطِقُوا وَلَمْ يُحِيرُوا جَوَابًا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ .

۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ قَالَ : كَانَ ابْنَ عَمِّهِ .

قَالَ ابْنُ جُرَيْج : وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ ﴾ أَيْ : الْأَمْوَالِ ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ أَيْ : لَيُثْقِلُ حَمْلُهَا الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ لِكَثْرَتِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ أَيْ : وَعَظَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحُو قَوْمِهِ ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ : لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ، يَعْنُونَ : لَا تَبْطَرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْمَالِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : الْمَرِحِينَ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : الْأَشِرِينَ الْبَطِرِينَ الَّذِينَ لَا يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : اسْتَعْمِلْ مَا وَهَبَكَ اللهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ الْجَزِيلِ وَالنِّعْمَةِ الطَّائِلَةِ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْقُرُبَاتِ الَّتِي يَحْصُلُ لَكَ بِهَا الثَّوَابُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : مِمَّا أَبَاحَ اللهُ فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاكِحِ ، فَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : أَحْسِنْ إِلَى خَلْقِهِ كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْكَ ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا تَكُنْ هِمَّتُكَ بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِدَ بِهِ فِي الْأَرْضِ وَتُسِيءَ إِلَى خَلْقِ اللهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَابِ قَارُونَ لِقَوْمِهِ حِينَ نَصَحُوهُ وَأَرْشَدُوهُ إِلَى الْخَيْرِ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ أَيْ : أَنَا لَا أَفْتَقِرُ إِلَى مَا تَقُولُونَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَانِي هَذَا الْمَالَ لِعِلْمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقُّهُ وَلِمَحَبَّتِهِ لِي ، فَتَقْدِيرُهُ : إِنَّمَا أُعْطِيتُهُ لِعِلْمِ اللهِ فِيَّ أَنِّي أَهْلٌ لَهُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا

خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾ [الزمر : ٤٩] أَيْ : عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ بِي ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت : ٥٠] أَيْ : هَذَا أَسْتَحِقُّهُ . وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِ فِيمَا ادَّعَاهُ مِن اعْتِنَاءِ اللهِ بِهِ فِيمَا أَعْطَاهُ مِنَ المَالِ : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أَيْ : قَدْ كَانَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَمَا كَانَ ذَلِكَ عَنْ مَحَبَّةٍ مِنَّا لَهُ ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ مَعَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ شُكْرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أَيْ : لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ . وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْإِمَامُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فَإِنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قَالَ : لَوْلَا رِضَا اللهِ عَنِّي وَمَعْرِفَتُهُ بِفَضْلِي مَا أَعْطَانِي هَذَا المَالَ ، وَقَرَأَ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ الْآيَةُ . وَهَكَذَا يَقُولُ مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ إِذَا رَأَى مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ : لَوْلَا أَنْ يَسْتَحِقَّ ذَلِكَ لَمَا أُعْطِيَ .

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ وَتَجَمُّلٍ بَاهِرٍ ، مِنْ مَرَاكِبَ وَمَلَابِسَ عَلَيْهِ وَعَلَى خَدَمِهِ وَحَشَمِهِ ، فَلَمَّا رَآهُ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَمِيلُ إِلَى زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ كَانَ لَهُمْ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيَ قَالُوا : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أَيْ : ذُو حَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالَتَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ النَّافِعِ قَالُوا لَهُمْ : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : جَزَاءُ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا تَرَوْنَ . كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي**

الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧]))[١].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : وَلَا يُلَقَّى الْجَنَّةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ ، كَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ كَلَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَلَا يُلَقَّى هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِلَّا الصَّابِرُونَ عَنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا الرَّاغِبُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَكَأَنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ مَقْطُوعًا مِنْ كَلَامِ أُولَئِكَ ، وَجَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ اللهِ ﷻ وَإِخْبَارُهُ بِذَلِكَ .

فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى اخْتِيَالَ قَارُونَ فِي زِينَتِهِ ، وَفَخْرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَغْيَهُ عَلَيْهِمْ ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[٢] عَنْ سَالِمٍ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أَيْ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَلَا جَمْعُهُ ، وَلَا خَدَمُهُ وَحَشَمُهُ ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُ نِقْمَةَ اللهِ وَعَذَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِ ، وَلَا كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُنْتَصِرًا لِنَفْسِهِ ، فَلَا نَاصِرَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَتِهِ قَالُوا : ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فَلَمَّا خُسِفَ

---

(١) البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

(٢) البخاري (٥٧٩٠) .

بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْمَالُ بِدَالٍّ عَلَى رِضَا اللهِ عَنْ صَاحِبِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَيُضَيِّقُ وَيُوَسِّعُ ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أَيْ : لَوْلَا لُطْفُ اللهِ بِنَا وَإِحْسَانُهُ إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا كَمَا خَسَفَ بِهِ ؛ لأَنَّا وَدِدْنَا أَنْ نَكُونَ مِثْلَهُ ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا ، وَلَا يُفْلِحُ الْكَافِرُ عِنْدَ اللهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ .

وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ ﴾ **فَقَالَ بَعْضُهُمْ** : مَعْنَاهُ ، « وَيْلَكَ اعْلَمْ أَنَّ » وَلَكِنَّ خُفِّفَتْ ، **فَقِيلَ** : « **وَيْكَ** » ، وَدَلَّ فَتْحُ « أَنَّ » عَلَى حَذْفِ « **اعْلَمْ** » وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعَّفَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، **وَالظَّاهِرُ** : أَنَّهُ قَوِيٌّ وَلَا يُشْكِلُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا كِتَابَتُهَا فِي الْمَصَاحِفِ مُتَّصِلَةٌ « **وَيْكَأَنَّ** » ، وَالْكِتَابَةُ أَمْرٌ وَضْعِيٌّ اصْطِلَاحِيٌّ ، وَالْمَرْجِعُ إِلَى اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقِيلَ مَعْنَاهَا : وَيْكَأَنَّ ، أَيْ : « **أَلَمْ تَرَ أَنَّ** » ، قَالَهُ قَتَادَةُ ، **وَقِيلَ** : مَعْنَاهَا : « وَيْ كَأَنَّ » ، فَفَصَلَهَا وَجَعَلَ حَرْفَ « وَيْ » لِلتَّعَجُّبِ أَوْ لِلتَّنْبِيهِ ، « وَكَأَنَّ » بِمَعْنَى : أَظُنُّ وَأَحْسَبُ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : **وَأَقْوَى الْأَقْوَالِ** فِي هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ ، أَنَّهَا بِمَعْنَى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ » ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

سَأَلَتَانِي الطَّلَاقَ إِنْ رَأَتَانِي ... قَلَّ مَالِي ، قَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْرِ
وَيْكَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْبَبْ ... وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَنَعِيمَهَا الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ ، جَعَلَهَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ، أَيْ : تَرَفُّعًا عَلَى خَلْقِ

الله ، وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ وَتَجَبُّرًا بِهِمْ ، وَلَا فَسَادًا فِيهِمْ ، وَالْفَسَادُ : أَخْذُ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقِيلَ : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ تَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عَمَلًا بِالْمَعَاصِي .

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ : أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ** »(١).

وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّأَمُّلِ ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ الله ﷺ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً ، أَفَمِنَ الْكِبْرِ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « **لَا ، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ** »(٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أَيْ : ثَوَابُ الله خَيْرٌ مِنْ حَسَنَةِ الْعَبْدِ ، فَكَيْفَ وَاللهُ يُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، فَهَذَا مَقَامُ الْفَضْلِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٩٠] ، وَهَذَا مَقَامُ الْفَصْلِ الْعَدْلِ .

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِبَلَاغِ الرِّسَالَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ ، وَمُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَى مَعَادٍ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَة ، فَيَسْأَلُهُ عَمَّا اِسْتَرْعَاهُ مِنْ أَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ

---

(١) مسلم في طرق حديث (٢٨٦٥) .

(٢) مسلم حديث (٩١) .

لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أَيْ : افْتَرَضَ عَلَيْكَ أَدَاءَهُ إِلَى النَّاسِ ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أَيْ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الأعراف : ٦] ، وَقَالَ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾[المائدة : ١٠٩] ، وَقَالَ : ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾[الزمر : ٦٩]

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ[1] **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قَالَ : إِلَى مَكَّةَ . **وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا** : لَرَادُّكَ إِلَى الْجَنَّةِ ، **وَفِي آخَرِ** : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، **وَفِي آخَرِ** : إِلَى الْمَوْتِ ، **وَوَجْهُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ** : أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ فَسَّرَ ذَلِكَ تَارَةً بِرُجُوعِهِ إِلَى مَكَّةَ ، وَهُوَ الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَمَارَةٌ عَلَى اقْتِرَابِ أَجَلِ النَّبِيِّ ﷺ ، كَمَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ سُورَةَ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ : أَنَّهُ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُعِيَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَوَافَقَهُ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ : لَا أَعْلَمُ مِنْهَا غَيْرَ الَّذِي تَعْلَمُ[2]. وَلِهَذَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ تَارَةً أُخْرَى قَوْلَهُ : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ بِالْمَوْتِ ، وَتَارَةً بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَتَارَةً بِالْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ جَزَاؤُهُ وَمَصِيرُهُ عَلَى أَدَاءِ رِسَالَةِ اللهِ وَإِبْلَاغِهَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَلِأَنَّهُ أَكْمَلُ خَلْقِ اللهِ وَأَفْصَحُ خَلْقِ اللهِ ، وَأَشْرَفُ خَلْقِ اللهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : قُلْ لِمَنْ خَالَفَكَ وَكَذَّبَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَوْمِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي مِنْكُمْ وَمِنِّي ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لِنَبِيِّهِ نِعْمَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْعِبَادِ إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أَيْ : مَا كُنْتَ تَظُنُّ قَبْلَ إِنْزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْكَ ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أُنْزِلَ الْوَحْيُ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ ، مِنْ رَحْمَتِهِ بِكَ وَبِالْعِبَادِ بِسَبَبِكَ ، فَإِذَا مَنَحَكَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ ﴿ فَلَا

---

(١) البخاري رقم (٤٧٧٣) .

(٢) البخاري رقم (٣٦٢٧) .

تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ أَيْ : مُعِينًا ﴿ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ وَلَكِنْ فَارِقْهُمْ وَنَابِذْهُمْ وَخَالِفْهُمْ . ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أَيْ : لَا تَتَأَثَّرْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكَ وَصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنْ طَرِيقِكَ ، وَلَا تَلْوِي عَلَى ذَلِكَ وَلَا تُبَالِهِ ، فَإِنَّ اللهَ مُعْلٍ كَلِمَتَكَ ، وَمُؤَيِّدٌ دِينَكَ ، وَمُظْهِرٌ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أَيْ : إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَيْ : لَا تَلِيقُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا تَنْبَغِي الْإِلَهِيَّةُ إِلَّا لِعَظَمَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، الَّذِي تَمُوتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوتُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَهُنَا : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : إِلَّا إِيَّاهُ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ**))[1].

وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالثَّوْرِيُّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أَيْ : إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ ، وَحَكَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ كَالْمُقَرِّرِ لَهُ . وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يُنَافِي الْقَوْلَ الْأَوَّلَ ، فَإِنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ كُلِّ الْأَعْمَالِ بِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُطَابِقَةِ لِلشَّرِيعَةِ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ مُقْتَضَاهُ أَنَّ كُلَّ الذَّوَاتِ فَانِيَةٌ وَزَائِلَةٌ إِلَّا ذَاتَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ ، فَإِنَّهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ أَيْ : الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ مَعَادِكُمْ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَصَصِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦) .

تفسير سورة العنكبوت
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾

أَمَّا الكَلَامُ عَلَى الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوْلِ «سُورَةِ البَقَرَةِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِي عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الإِيمَانِ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ لَهُ فِي البَلَاءِ**»[1] وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦]، وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ «بَرَاءَة»، وَقَالَ فِي «البَقَرَةِ»: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]؛ وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ: الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمُ الإِيمَانَ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ، وَاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ. وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ ﴾ إِلَّا لِنَرَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالمَوْجُودِ، وَالعِلْمُ أَعَمُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالمَعْدُومِ وَالمَوْجُودِ.

---

(١) صحيح لشواهده: انظر ابن ماجة (٤٠٢٤)، والترمذي (٢٣٩٨).

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَالِامْتِحَانِ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ مَا هُوَ أَغْلَظُ مِنْ هَذَا وَأَطَمُّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أَيْ : يَفُوتُونَا ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : بِئْسَ مَا يَظُنُّونَ .

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ ، وَرَجَا مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، فَإِنَّ اللهَ سَيُحَقِّقُ لَهُ رَجَاءَهُ ، وَيُوَفِّيهِ عَمَلَهُ كَامِلًا مَوْفُورًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ؛ لِأَنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، بَصِيرٌ بِكُلِّ الْكَائِنَاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٰتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [فصلت : ٤٦] أَيْ : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ عَمَلِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ ، وَلَوْ كَانُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : إِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَاهِدُ وَمَا ضَرَبَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِسَيْفٍ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ - مَعَ غِنَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ جَمِيعِهِمْ ، وَمِنْ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ بِهِمْ - يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ ، وَهُوَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَيَقْبَلُ الْقَلِيلَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا ، الْوَاحِدَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَيَجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا

أَوْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَوْحِيدِهِ ، فَإِنَّ الْوَالِدَيْنِ هُمَا سَبَبُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ ، وَلَهُمَا عَلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ ، فَالْوَالِدُ بِالْإِنْفَاقِ وَالْوَالِدَةِ بِالْإِشْفَاقِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣-٢٤] ، وَمَعَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فِي مُقَابَلَةِ إِحْسَانِهِمَا الْمُتَقَدِّمِ قَالَ : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ أَيْ : وَإِنْ حَرِصَا عَلَيْكَ أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا - إِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ - فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا ، لَا تُطِعْهُمَا فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَجْزِيكَ بِإِحْسَانِكَ إِلَيْهِمَا وَصَبْرِكَ عَلَى دِينِكَ ، وَأَحْشُرُكَ مَعَ الصَّالِحِينَ لَا فِي زُمْرَةِ وَالِدَيْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْمَرْءَ إِنَّمَا يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ، أَيْ : حُبًّا دِينِيًّا ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[1] قَالَ : نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ ، فَذَكَرَ قِصَّتَهُ وَقَالَ : قَالَتْ ، أُمُّ سَعْدٍ : أَلَيْسَ اللهُ قَدْ أَمَرَكَ بِالْبِرِّ ؟ وَاللهِ لَا أَطْعَمُ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ ، قَالَ : فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ

(١) انظر مسلم (حديث ١٧٤٨) .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ الآيَة .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ مِحْنَةٌ وَفِتْنَةٌ فِي الدُّنْيَا اِعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِمْ ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : يَعْنِي : فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١١-١٢] ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أَيْ : وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكَ - يَا مُحَمَّدُ - وَفَتْحٌ وَمَغَانِمُ ، لَيَقُولَنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَيْ : إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] ، وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ هَهُنَا ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ **ثُمَّ قَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمُ الْمُوَافَقَةَ ؟

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ أَيْ : وَلَيَخْتَبِرَنَّ

اللهُ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ ، مَنْ يُطِيعُ اللهَ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ ، وَمَنْ إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ ، الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا كَانَ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩]

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ : أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الْهُدَى : ارْجِعُوا عَنْ دِينِكُمْ إِلَى دِينِنَا وَاتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ أَيْ : وَآثَامَكُمْ - إِنْ كَانَتْ لَكُمْ آثَامٌ فِي ذَلِكَ - عَلَيْنَا وَفِي رِقَابِنَا ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ : افْعَلْ هَذَا وَخَطِيئَتُكَ فِي رَقَبَتِي ، **قَالَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ** : ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أَيْ : فِيمَا قَالُوهُ ، إِنَّهُمْ يَحْتَمِلُونَ عَنْ أُولَئِكَ خَطَايَاهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ وِزْرَ أَحَدٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْزَارَ أَنْفُسِهِمْ وَأَوْزَارًا أُخْرَى بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مِنَ النَّاسِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِ أُولَئِكَ شَيْئًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، وَفِي الصَّحِيحِ[1] « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ**

(١) مسلم (٢٦٧٤) .

الْإِثْمِ مِثْلَ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » . وَفِي الصَّحِيحِ « **مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ** »(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أَيْ : يَكْذِبُونَ وَيَخْتَلِقُونَ مِنَ الْبُهْتَانِ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ يُخْبِرُهُ عَنْ نُوحٍ عليه السلام أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَجِهَارًا ، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضًا عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ مَا نَجَعَ فِيهِمُ الْبَلَاغُ وَالْإِنْذَارُ ، فَأَنْتَ - يَا مُحَمَّدُ - لَا تَأْسَفْ عَلَى مَنْ كَفَرَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَبِيَدِهِ الْأَمْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦- ٩٧] ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُكَ وَيَنْصُرُكَ ، وَيُؤَيِّدُكَ وَيُذِلُّ عَدُوَّكَ وَيَكْبِتُهُمْ وَيَجْعَلُهُمْ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحٍ عليه السلام وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فِي سُورَةِ « هُودٍ »(٢) ، وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : وَجَعَلْنَا تِلْكَ السَّفِينَةَ بَاقِيَةً ، إِمَّا عَيْنُهَا ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ : أَنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ ، أَوْ نَوْعُهَا

(١) صحيح : وقد تقدم في المائدة عند قوله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .
(٢) الآيات : (٢٥ - ٤٨) .

جَعَلَهُ لِلنَّاسِ تَذْكِرَةً لِنِعَمِهِ عَلَى الْخَلْقِ كَيْفَ نَجَّاهُمْ زَمَنَ الطُّوفَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس : ٤١-٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١-١٢] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّدْرِيجِ مِنَ الشَّخْصِ إِلَى الْجِنْسِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] أَيْ : وَجَعَلْنَا نَوْعَهَا رُجُومًا ، فَإِنَّ الَّتِي يُرْمَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢-١٣] ، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : لَوْ قِيلَ إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْعُقُوبَةِ لَكَانَ وَجْهًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ - إِمَامِ الْحُنَفَاءِ - أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَالْإِخْلَاصَ لَهُ فِي التَّقْوَى ، وَطَلَبَ الرِّزْقَ مِنْهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَوْحِيدَهُ فِي الشُّكْرِ ، فَإِنَّهُ الْمَشْكُورُ عَلَى النِّعَمِ لَا مُسْدِيَ لَهَا غَيْرُهُ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : أَخْلِصُوا لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَصَلَ لَكُمُ الْخَيْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَانْدَفَعَ عَنْكُمُ الشَّرُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْأَصْنَامَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَقْتُمْ أَنْتُمْ لَهَا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا آلِهَةً ، وَإِنَّمَا

هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِثْلَكُمْ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** : وَتَصْنَعُونَ إِفْكًا ، أَيْ : تَنْحِتُونَهَا أَصْنَامًا . وَهِيَ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الحَصْرِ ، كَقَوْلِهِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَٱبْتَغُواْ ﴾ أَيْ : فَاطْلُبُوا ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ أَيْ : لَا عِنْدَ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا ﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ﴾ أَيْ : كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، وَاشْكُرُوا لَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أَيْ : فَبَلَغَكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ فِي مُخَالَفَةِ الرُّسُلِ ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يَعْنِي إِنَّمَا عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُبَلِّغَكُمْ مَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ، وَاللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَاحْرِصُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السُّعَدَاءِ . **وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ **قَالَ** : يُعَزِّي نَبِيَّهُ ﷺ .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الخَلِيلِ عليه السلام أَنَّهُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى إِثْبَاتِ المَعَادِ الَّذِي يُنْكِرُونَهُ ، بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ خَلْقِ اللهِ إِيَّاهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ وُجِدُوا وَصَارُوا أُنَاسًا سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ ، فَالَّذِي بَدَأَ هَذَا قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ . ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الاعْتِبَارِ بِمَا فِي الْآفَاقِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُشَاهَدَةِ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْأَشْيَاءَ : السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ الثَّوَابِتِ ،

وَالسَّيَّارَاتِ ، وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَجِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ وَبَرَارِي وَقِفَارٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ وَثِمَارٍ وَبِحَارٍ ، كُلُّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى حُدُوثِهَا فِي أَنْفُسِهَا وَعَلَى وُجُودِ صَانِعِهَا الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[الروم : ٢٧]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[الطور : ٣٥-٣٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، مَهْمَا فَعَلَ فَعَدْلٌ ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ[1] « **إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ** » وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أَيْ : تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : لَا يُعْجِزُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ ، بَلْ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَائِفٌ مِنْهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ أَيْ : جَحَدُوهَا وَكَفَرُوا بِالْمَعَادِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾ أَيْ : لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : مُوجِعٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) ، وغيره .

دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَمُكَابَرَتِهِمْ وَدَفْعِهِمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، أَنَّهُمْ مَا كَانَ لَهُمْ جَوَابٌ بَعْدَ مَقَالَةِ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْهُدَى وَالْبَيَانِ ﴿ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ قَامَ عَلَيْهِمُ الْبُرْهَانُ ، وَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، فَعَدَلُوا إِلَى اسْتِعْمَالِ جَاهِهِمْ وَقُوَّةِ مُلْكِهِمْ ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧-٩٨] ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَشَدُوا فِي جَمْعِ أَحطَابٍ عَظِيمَةٍ مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَحَوَّطُوا حَوْلَهَا ، ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّارَ فَارْتَفَعَ لَهَا لَهَبٌ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ، وَلَمْ تُوقَدْ نَارٌ قَطُّ أَعْظَمُ مِنْهَا ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَكَتَّفُوهُ وَأَلْقَوْهُ فِي كِفَّةِ الْمَنْجَنِيقِ ، ثُمَّ قَذَفُوهُ فِيهَا ، فَجَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا بَعْدَ مَا مَكَثَ فِيهَا أَيَّامًا ، وَلِهَذَا وَأَمْثَالِهِ جَعَلَهُ اللهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، فَإِنَّهُ بَذَلَ نَفْسَهُ لِلرَّحْمَنِ ، وَجَسَدَهُ لِلنِّيرَانِ ، وَسَخَا بِوَلَدِهِ لِلْقُرْبَانِ ، وَجَعَلَ مَالَهُ لِلضِّيفَانِ ، وَلِهَذَا اجْتَمَعَ عَلَى مَحَبَّتِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أَيْ : سَلَّمَهُ مِنْهَا بِأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يَقُولُ لِقَوْمِهِ - مُقَرِّعًا لَهُمْ وَمُوَبِّخًا عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْأَوْثَانِ -: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ لِتَجْتَمِعُوا عَلَى عِبَادَتِهَا فِي الدُّنْيَا ، صَدَاقَةً وَأُلْفَةً مِنْكُمْ ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهَذَا عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ نَصَبَ ﴿ مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ ، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ ، فَمَعْنَاهُ : إِنَّمَا اتِّخَاذُكُمْ هَذَا لِتَحْصُلَ لَكُمُ الْمَوَدَّةُ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يَنْعَكِسُ هَذَا الْحَالُ ، فَتَبْقَى هَذِهِ الصَّدَاقَةُ وَالْمَوَدَّةُ بُغْضًا وَشَنَآنًا ، فَـ ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أَيْ : تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أَيْ : يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْمَتْبُوعِينَ ، وَالْمَتْبُوعُونَ الْأَتْبَاعَ ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وَقَالَ هَهُنَا ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ الْآيَة . أَيْ : وَمَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ إِلَى النَّارِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُكُمْ وَلَا مُنْقِذَ يُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ الله ، وَهَذَا حَالُ الْكَافِرِينَ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَبِخِلَافِ ذَلِكَ .

۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ آمَنَ لَهُ لُوطٌ يُقَالُ : إِنَّهُ ابْنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ . يَقُولُونَ : هُوَ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ ، يَعْنِي : وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ سِوَاهُ وَسَارَةُ امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ . لَكِنْ يُقَالُ كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي الصَّحِيحِ[١] « **أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَّارِ ، فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ سَارَةَ مَا هِيَ مِنْهُ ، فَقَالَ : أُخْتِي . ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا : إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَهُ إِنَّكِ أُخْتِي فَلَا تُكَذِّبِينِي ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ ، فَأَنْتِ أُخْتِي فِي الدِّينِ** » . وَكَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ زَوْجَانِ عَلَى الْإِسْلَامِ غَيْرِي وَغَيْرُكِ ، فَإِنَّ لُوطًا ﷺ آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، ثُمَّ أُرْسِلَ فِي حَيَاةِ الْخَلِيلِ إِلَى أَهْلِ « سَدُوم » وَإِقْلِيمِهَا ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سَيَأْتِي .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ يَحْتَمِلُ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَ ﴾ عَلَى لُوطٍ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ أَقْرَبُ الْمَذْكُورَيْنِ ، وَيَحْتَمِلُ عَوْدُهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجَرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمُ ابْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ ؛ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : لَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الْقَدَرِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣٥٨) لكن عنده هنالك موقوف ، ومسلم (٢٣٧١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[مريم : ٤٩] أَيْ : أَنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قَوْمَهُ أَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ نَبِيٍّ ، وَوُلِدَ لَهُ وَلَدٌ صَالِحٌ نَبِيٌّ فِي حَيَاةِ جَدِّهِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾[الأنبياء : ٧٢] أَيْ : زِيَادَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[هود : ٧١] أَيْ : يُولَدُ لِهَذَا الْوَلَدِ وَلَدٌ فِي حَيَاتِكُمَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُكُمَا ، وَكَوْنُ يَعْقُوبَ وَلَدٌ لِإِسْحَاقَ نَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾[البقرة : ١٣٣] . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ**))[١].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ هَذِهِ خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَعَ اتِّخَاذِ اللهِ إِيَّاهُ خَلِيلًا وَجَعْلَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، أَنْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَلَمْ يُوجَدْ نَبِيٌّ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلَالَتِهِ ، فَجَمِيعُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ سُلَالَةِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَقَامَ فِي مَلَئِهِمْ مُبَشِّرًا بِالنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ ، خَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ مِنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ الْعَرْبَاءِ ، مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَلَمْ يُوجَدْ نَبِيٌّ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ سِوَاهُ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ -.

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أَيْ : جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا الْمَوْصُولَةِ بِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، فَكَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا الرِّزْقُ الْوَاسِعُ الْهَنِيُّ ، وَالْمَنْزِلُ الرَّحْبُ ، وَالْمَوْرِدُ الْعَذْبُ ، وَالزَّوْجَةُ الْحَسَنَةُ الصَّالِحَةُ ، وَالثَّنَاءُ الْجَمِيلُ ، وَالذِّكْرُ الْحَسَنُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُحِبُّهُ وَيَتَوَلَّاهُ . كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمْ ، مَعَ الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ

(١) صحيح : وقد تقدم .

ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أَيْ : قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ وَكَمَّلَ طَاعَةَ رَبِّهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢]

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ لُوطٍ ﷺ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى قَوْمِهِ سُوءَ صَنِيعِهِمْ ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيحِ الْأَعْمَالِ فِي إِتْيَانِهِمُ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَى هَذِهِ الْفِعْلَةِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَهُمْ ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا يَكْفُرُونَ بِاللهِ ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ ، وَيُخَالِفُونَ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أَيْ : يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ النَّاسِ يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُونَ مَا لَا يَلِيقُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَجَالِسِهِمُ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا ، لَا يُنْكِرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، **فَمِنْ قَائِلٍ** : كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْمَلَأِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . **وَمِنْ قَائِلٍ** : كَانُوا يَتَضَارَطُونَ وَيَتَضَاحَكُونَ ، قَالَتْهُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَالْقَاسِمُ ، **وَمِنْ قَائِلٍ** : كَانُوا يُنَاطِحُونَ بَيْنَ الْكِبَاشِ وَيُنَاقِرُونَ بَيْنَ الدُّيُوكِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ يَصْدُرُ عَنْهُمْ ، وَكَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَعِنَادِهِمْ . وَلِهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ فَقَالَ : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

لَمَّا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ عليه السلام بِالله ﷻ عَلَيْهِمْ ، بَعَثَ اللهُ لِنُصْرَتِهِ مَلَائِكَةً فَمَرُّوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي هَيْئَةِ أَضْيَافٍ ، فَجَاءَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ ، فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُبَشِّرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَدٍ صَالِحٍ مِنِ امْرَأَتِهِ سَارَةَ - وَكَانَتْ حَاضِرَةً - فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ « هُودٍ » وَ « الْحِجْرِ » ، فَلَمَّا جَاءَتْ إِبْرَاهِيمَ الْبُشْرَى ، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، أَخَذَ يُدَافِعُ لَعَلَّهُمْ يَنْظُرُونَ ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، وَلَمَّا قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ . ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أَيْ : مِنَ الْهَالِكِينَ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُمَالِئُهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَدَبْرِهِمْ ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْدِهِ فَدَخَلُوا عَلَى لُوطٍ فِي صُورَةِ شُبَّانٍ حِسَانٍ ، فَلَمَّا رَآهُمْ كَذَلِكَ ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أَيْ : اِغْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ إِنْ هُوَ أَضَافَهُمْ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ . وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام اقْتَلَعَ قُرَاهُمْ مِنْ قَرَارِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ ، وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ، وَجَعَلَ اللهُ مَكَانَهَا بُحَيْرَةً خَبِيثَةً مُنْتِنَةً ، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَهُمْ مِنْ أَشَدِّ

النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ المَعَادِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً ﴾ أَيْ : وَاضِحَةً ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧-١٣٨]

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ شُعَيْبٍ ﷺ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمَهُ - أَهْلَ مَدْيَنَ - فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ يَخَافُوا بَأْسَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ وَسَطْوَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : **قَالَ بَعْضُهُمْ** : مَعْنَاهُ : وَاخْشَوْا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنِ الْعَيْثِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَهُوَ السَّعْيِ فِيهَا وَالْبَغْيِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْقِصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى النَّاسِ ، هَذَا مَعَ كُفْرِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرَجْفَةٍ عَظِيمَةٍ زَلْزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ ، وَصَيْحَةٍ أَخْرَجَتِ الْقُلُوبَ مِنْ حَنَاجِرِهَا . وَعَذَابِ يَوْمِ الظُّلَّةِ الَّذِي أَزْهَقَ الْأَرْوَاحَ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُمْ مَبْسُوطَةً فِي سُورَةِ « الْأَعْرَافِ » « وَهُودٍ » « وَالشُّعَرَاءِ » ، ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : مَيِّتِينَ . **وَقَالَ غَيْرُهُ** : قَدْ أُلْقِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ أَبَادَهُمْ وَتَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ وَأَخَذَهُمْ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ ، فَعَادٌ قَوْمُ هُودٍ ﷺ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَحْقَافَ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ بِبِلَادِ الْيَمَنِ ، وَثَمُودُ قَوْمُ صَالِحٍ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَى . وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا وَتَمُرُّ عَلَيْهَا كَثِيرًا ، وَقَارُونُ صَاحِبُ الْأَمْوَالِ الْجَزِيلَةِ وَمَفَاتِيحِ الْكُنُوزِ الثَّقِيلَةِ ، وَفِرْعَوْنُ مَلِكُ مِصْرَ فِي زَمَانِ مُوسَى ، وَوَزِيرُهُ هَامَانُ الْقِبْطِيَّانِ الْكَافِرَانِ بِاللهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ ﷺ .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أَيْ : كَانَتْ عُقُوبَتُهُ بِمَا يُنَاسِبُهُ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، **وَهُمْ عَادٌ** ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ صَرْصَرٌ بَارِدَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ ، عَاتِيَةٌ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ جِدًّا ، تَحْمِلُ عَلَيْهِمْ حَصْبَاءَ الْأَرْضِ فَتُلْقِيهَا عَلَيْهِمْ وَتَقْتَلِعُهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَرْفَعُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ثُمَّ تُنَكِّسُهُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَتَشْدَخُهُ ، فَيَبْقَى بَدَنًا بِلَا رَأْسٍ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ، **وَهُمْ ثَمُودُ** قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَظَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَالَةُ مِنْ تِلْكَ النَّاقَةِ الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَةُ ، مِثْلَ مَا سَأَلُوا سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى طُغْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَهَدَّدُوا نَبِيَّ اللهِ صَالِحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُمُوهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَخْمَدَتِ الْأَصْوَاتَ مِنْهُمْ وَالْحَرَكَاتِ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ ، **وَهُوَ قَارُونُ** الَّذِي طَغَى وَبَغَى وَعَتَا وَعَصَى الرَّبَّ الْأَعْلَى ، وَمَشَى فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، وَفَرِحَ وَمَرِحَ وَتَاهَ بِنَفْسِهِ ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَاخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ ، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، **وَهُوَ فِرْعَوْنُ وَوَزِيرُهُ هَامَانُ وَجُنُودُهُمَا عَنْ آخِرِهِمْ** ، أُغْرِقُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أَيْ : فِيمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاءً وِفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ .

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ظَاهِرُ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ ، وَهُوَ أَنَّهُ ذَكَرَ

الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قَالَ : **قَوْمُ لُوطٍ** ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ **قَوْمُ شُعَيْبٍ** ، وَهَذَا بَعِيدٌ أَيْضًا لِمَا تَقَدَّمَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ يَرْجُونَ نَصْرَهُمْ وَرِزْقَهُمْ وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ فِي ضَعْفِهِ وَوَهْنِهِ ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلَاءِ مِنَ آلِهَتِهِمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّكُ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، فَإِنَّهُ لَا يُجْدِي عَنْهُ شَيْئًا ، فَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الْحَالَ لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ قَلْبُهُ للهِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُحْسِنُ الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرْعِ ، فَإِنَّهُ مُتَمَسِّكٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا لِقُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ وَأَشْرَكَ بِهِ ، أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَيَعْلَمُ مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ ، وَسَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يَفْهَمُهَا وَيَتَدَبَّرُهَا إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الْمُتَضَلِّعُونَ مِنْهُ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ : مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي ؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يَعْنِي : لَا عَلَى وَجْهِ الْعَبَثِ وَاللَّعِبِ ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : لَدَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِلَهِيَّةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ قِرَاءَتُهُ وَإِبْلَاغُهُ لِلنَّاسِ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى شَيْئَيْنِ عَلَى تَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، أَيْ : إِنَّ مُوَاظَبَتَهَا تَحْمِلُ عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ . **قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ **قَالَ** : إِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا ثَلَاثُ خِصَالٍ ، فَكُلُّ صَلَاةٍ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْخِلَالِ فَلَيْسَتْ بِصَلَاةٍ : الْإِخْلَاصُ ، وَالْخَشْيَةُ ، وَذِكْرُ الله ، فَالْإِخْلَاصُ يَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالْخَشْيَةُ تَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَذِكْرُ الله الْقُرْآنُ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ . **وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ الْأَنْصَارِيُّ** : إِذَا كُنْتَ فِي صَلَاةٍ فَأَنْتَ فِي مَعْرُوفٍ ، وَقَدْ حَجَزَتْكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَالَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ الله أَكْبَرُ .

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ **قَالُوا** : وَلَذِكْرُ الله لِعِبَادِهِ - إِذَا ذَكَرُوهُ - أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ . **عَنْ عَبْدِ الله بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ** : قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ : هَلْ تَدْرِي مَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمَا هُوَ ؟ قُلْتُ : التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّكْبِيرُ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَنَحْوُ ذَلِكَ ، قَالَ : لَقَدْ قُلْتَ قَوْلًا عَجَبًا ، وَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا يَقُولُ : ذِكْرُ الله إِيَّاكُمْ عِنْدَمَا أَمَرَ بِهِ أَوْ نَهَى عَنْهُ - إِذَا ذَكَرْتُمُوهُ - أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ .

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ مُجَادَلَةٌ وَإِنَّمَا

هُوَ الْإِسْلَامُ أَوِ الْجِزْيَةُ أَوِ السَّيْفُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ مُحْكَمَةٌ لِمَنْ أَرَادَ الِاسْتِبْصَارَ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ ، فَيُجَادِلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِيَكُونَ أَنْجَعَ فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ أَيْ : حَادُوا عَنْ وَجْهِ الْحَقِّ وَعَمُوا عَنْ وَاضِحِ الْمَحَجَّةِ وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا ، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ مِنَ الْجِدَالِ إِلَى الْجِلَادِ ، وَيُقَاتَلُونَ بِمَا يَمْنَعُهُمْ وَيَرْدَعُهُمْ ، قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] **قَالَ جَابِرٌ** : أُمِرْنَا مَنْ خَالَفَ كِتَابَ اللهِ أَنْ نَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : أَهْلُ الْحَرْبِ وَمَنِ امْتَنَعَ مِنْهُمْ مِنْ أَدَاءِ الْجِزْيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي : إِذَا أَخْبَرُوا بِمَا لَا نَعْلَمُ صِدْقَهُ وَلَا كَذِبَهُ ، فَهَذَا لَا نُقْدِمُ عَلَى تَكْذِيبِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ حَقًّا ، وَلَا تَصْدِيقُهُ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا ، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا عَلَى شَرْطٍ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُنَزَّلًا لَا مُبَدَّلًا وَلَا مُؤَوَّلًا . **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ**(١) ﷺ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)) .

ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ غَالِبُهُ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ دَخَلَهُ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلٌ وَتَغْيِيرٌ وَتَأْوِيلٌ ، وَمَا أَقَلَّ الصِّدْقِ فِيهِ ، ثُمَّ مَا أَقَلَّ فَائِدَةِ كَثِيرٍ مِنْهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**(٢) قَالَ : كَيْفَ تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُكُمُ

---

(١) البخاري بنحوه (٤٤٨٥) ، (٧٣٦٢) .
(٢) البخاري (٧٣٦٣) .

الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْدَثُ ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ ، وَقَالُوا : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ؟ أَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ ؟ لَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ .

وَعَنْ **حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ** أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ يُحَدِّثُ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ بِالْمَدِينَةِ وَذَكَرَ كَعْبَ الْأَحْبَارِ فَقَالَ : إِنْ كَانَ مِنْ أَصْدَقِ هَؤُلَاءِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَنَبْلُو عَلَيْهِ الْكَذِبَ .

قُلْتُ : مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقَعُ مِنْهُ الْكَذِبُ لُغَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، لِأَنَّهُ يُحَدِّثُ عَنْ صُحُفٍ هُوَ يُحْسِنُ بِهَا الظَّنَّ وَفِيهَا أَشْيَاءُ مَوْضُوعَةٌ وَمَكْذُوبَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتِهِمْ حُفَّاظٌ مُتْقِنُونَ كَهَذِهِ الْأُمَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقُرْبِ الْعَهْدِ وُضِعَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ﷻ ، وَمَنْ مَنَحَهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمًا بِذَلِكَ ، كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

قَالَ **ابْنُ جَرِيرٍ** : يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : كَمَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الرُّسُلِ ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ وَمُنَاسَبَتُهُ وَارْتِبَاطُهُ جَيِّدٌ . ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوْهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ مِنْ أَحْبَارِهِمُ الْعُلَمَاءِ الْأَذْكِيَاءِ ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، وَأَشْبَاهِهِمَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ يَعْنِي : الْعَرَبُ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ ﴿ وَمَا

تَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَجْحَدُ حَقَّهَا إِلَّا مَنْ يَسْتُرُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُغَطِّي ضَوْءَ الشَّمْسِ بِالْوَصَائِلِ ، وَهَيْهَاتَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ أَيْ : قَدْ لَبِثْتَ فِي قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عُمْرًا لَا تَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا تُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ يَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ، وَهَكَذَا صِفَتُهُ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا يَخُطُّ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ ، بَلْ كَانَ لَهُ كُتَّابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقَالِيمِ . وَمَنْ زَعَمَ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ - كَالْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ وَمَنْ تَابَعَهُ - أَنَّهُ ﷺ كَتَبَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ : « **هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ** »(١) فَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ رِوَايَةٌ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : « **ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ** » . وَهَذِهِ مَحْمُولَةٌ عَلَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى « **ثُمَّ أَمَرَ فَكُتِبَ** » . وَلِهَذَا اشْتَدَّ النَّكِيرُ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عَلَى مَنْ قَالَ بِقَوْلِ الْبَاجِيِّ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُ ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا وَخَطَبُوا بِهِ فِي مَحَافِلِهِمْ . وَإِنَّمَا أَرَادَ الرَّجُلُ - أَعْنِي الْبَاجِيَّ - فِيمَا يَظْهَرُ عَنْهُ أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْمُعْجِزَةِ لَا أَنَّهُ كَانَ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِخْبَارًا عَنِ الدَّجَّالِ « **مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ** »(٢) وَفِي رِوَايَةٍ « **ك ف ر يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ** »(٣) تَأْكِيدٌ أَيْضًا ، وَخَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُهَا لَارْتَابَ بَعْضُ الْجَهَلَةِ مِنَ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : إِنَّمَا تَعَلَّمَ هَذَا مِنْ كُتُبٍ قَبْلَهُ مَأْثُورَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

---

(١) البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) البخاري (٧١٣١) ، ومسلم (٢٩٣٣) .

(٣) هي في رواية مسلم المذكورة .

ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان : ٦] .

وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أَيْ : هَذَا الْقُرْآنُ آيَاتٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا يَحْفَظُهُ الْعُلَمَاءُ ، يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ حِفْظًا وَتِلَاوَةً وَتَفْسِيرًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا** »(١) ، وَفِي حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بِكَ ، وَمُنَزِّلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ** »(٢) أَيْ : لَوْ غَسَلَ الْمَاءُ الْمَحَلَّ الْمَكْتُوبَ فِيهِ لَمَا احْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ الْمَحَلِّ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ بَلِ الْعِلْمُ بِأَنَّكَ مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ كِتَابًا وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أَيْ : مَا يُكَذِّبُ بِهَا وَيَبْخَسُ حَقَّهَا وَيَرُدُّهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ، أَيْ : الْمُعْتَدُونَ الْمُكَابِرُونَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَحِيدُونَ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧]

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) البخاري حديث رقم (٧٢٧٤) .
(٢) مسلم (٢٨٦٥) .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَنُّتِهِمْ وَطَلَبِهِمْ آيَاتٍ - يَعْنُونَ - تُرْشِدُهُمْ إِلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله كَمَا أَتَى صَالِحٌ بِنَاقَتِهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى الله ، فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّكُمْ تَهْتَدُونَ لَأَجَابَكُمْ إِلَى سُؤَالِكُمْ ؛ لأَنَّ هَذَا سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ يَعْلَمُ مِنْكُمْ أَنَّكُمْ إِنَّمَا قَصَدْتُمُ التَّعَنُّتَ وَالِامْتِحَانَ فَلَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا لَكُمْ بَيِّنُ النِّذَارَةِ فَعَلَيَّ أَنْ أُبَلِّغَكُمْ رِسَالَةَ الله وَ ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا كَثْرَةَ جَهْلِهِمْ وَسَخَافَةَ عَقْلِهِمْ ، حَيْثُ طَلَبُوا آيَاتٍ تَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِيمَا جَاءَهُمْ ، وَقَدْ جَاءَهُمْ بِالْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُعْجِزَةٍ إِذْ عَجَزَتِ الْفُصَحَاءُ وَالْبُلَغَاءُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ عَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ ، بَلْ عَنْ مُعَارَضَةِ سُورَةٍ مِنْهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ آيَةً أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَهُمْ ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَهُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَهُمْ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ، وَلَمْ تُخَالِطْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَجِئْتَهُمْ بِأَخْبَارِ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، بِبَيَانِ الصَّوَابِ مِمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَبِالْحَقِّ الْوَاضِحِ الْبَيِّنِ الْجَلِيِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ،**

فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1]. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أَيْ : بَيَانًا لِلْحَقِّ وَإِزَاحَةً لِلْبَاطِلِ وَ ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ بِمَا فِيهِ حُلُولُ النِّقْمَاتِ وَنُزُولُ الْعِقَابِ بِالْمُكَذِّبِينَ وَالْعَاصِينَ ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَيَعْلَمُ مَا أَقُولُ لَكُمْ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلَنِي ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لَانْتَقَمَ مِنِّي ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[الحاقة : ٤٤-٤٧] ، وَإِنَّمَا أَنَا صَادِقٌ عَلَيْهِ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ ، وَلِهَذَا أَيَّدَنِي بِالْمُعْجِزَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، سَيَجْزِيهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا وَيُقَابِلُهُمْ عَلَى مَا صَنَعُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ، كَذَّبُوا بِرُسُلِ اللهِ مَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ، وَآمَنُوا بِالطَّوَاغِيتِ وَالْأَوْثَانِ بِلَا دَلِيلٍ ، سَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : مُخْبِرًا عَنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ اللهِ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ ، وَبَأْسُ اللهِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال : ٣٢] ، وَقَالَ

(١) البخاري (٤٩٨١) ، ومسلم (١٥٢) .

هَهُنَا: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أَيْ : لَوْلَا مَا حَتَّمَ اللهُ مِنْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ : فَجْأَةً ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ ، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦]، وَقَالَ : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٩]، فَالنَّارُ تَغْشَاهُمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعَذَابِ الْحِسِّيِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَتَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ ، وَهَذَا عَذَابٌ مَعْنَوِيٌّ عَلَى النُّفُوسِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣-١٦]

يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِالْهِجْرَةِ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ إِلَى أَرْضِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، حَيْثُ يُمْكِنُ إِقَامَةُ الدِّينِ بِأَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ .

وَلِهَذَا لَمَّا ضَاقَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مُقَامُهُمْ بِهَا خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ إِلَى أَرْضِ

الحَبَشَةِ لِيَأْمَنُوا عَلَى دِينِهِمْ هُنَاكَ ، فَوَجَدُوا هُنَاكَ خَيْرَ الْمُنْزِلِيْنِ أَصْحَمَةَ النَّجَاشِيَّ مَلِكَ الحَبَشَةِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فَآوَاهُمْ وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ وَجَعَلَهُمْ سُيُومًا بِبِلَادِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالصَّحَابَةُ الْبَاقُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يَثْرِبَ الْمُطَهَّرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ ، فَكُونُوا فِي طَاعَةِ اللهِ وَحَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِلَى اللهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ ، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لَهُ جَازَاهُ أَفْضَلَ الْجَزَاءِ وَوَافَاهُ أَتَمَّ الثَّوَابِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أَيْ : لَنُسْكِنَنَّهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً فِي الْجَنَّةِ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنْ مَاءٍ وَخَمْرٍ وَعَسَلٍ وَلَبَنٍ ، يَصْرِفُونَهَا وَيُجْرُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ نِعْمَتْ هَذِهِ الْغُرَفُ أَجْرًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أَيْ : عَلَى دِينِهِمْ وَهَاجَرُوا إِلَى اللهِ وَنَابَذُوا الْأَعْدَاءَ ، وَفَارَقُوا الْأَهْلَ وَالْأَقْرِبَاءَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَرَجَاءَ مَا عِنْدَهُ وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهِ .

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الرِّزْقَ لَا يَخْتَصُّ بِبُقْعَةٍ ، بَلْ رِزْقُهُ تَعَالَى عَامٌّ لِخَلْقِهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا ، بَلْ كَانَتْ أَرْزَاقُ الْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَرَ وَأَوْسَعَ وَأَطْيَبَ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ صَارُوا حُكَّامَ الْبِلَادِ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أَيْ : لَا تُطِيقُ جَمْعَهُ وَتَحْصِيلَهُ ، وَلَا تَدَّخِرُ شَيْئًا لِغَدٍ ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أَيْ : يُقَيِّضُ لَهَا رِزْقَهَا عَلَى ضَعْفِهَا وَيُيَسِّرُهُ عَلَيْهَا ، فَيَبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُصْلِحُهُ ، حَتَّى الذَّرِّ فِي قَرَارِ الْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ ، وَالْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦]

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ الْغُرَابَ إِذَا فَقَسَ عَنْ فِرَاخِهِ الْبَيْضِ خَرَجُوا وَهُمْ بِيضٌ ، فَإِذَا رَآهُمْ أَبَوَاهُمْ كَذَلِكَ نَفَرَا عَنْهُمْ أَيَّامًا حَتَّى يَسْوَدَّ الرِّيشُ ، فَيَظَلُّ الْفَرْخُ فَاتِحًا فَاهُ

يَتَفَقَّدُ أَبَوَيْهِ فَيُقَيِّضُ اللهُ تَعَالَى طَيْرًا صِغَارًا كَالْبَرْغَشِ فَيَغْشَاهُ ، فَيَتَقَوَّتُ بِهِ تِلْكَ الْأَيَّامَ حَتَّى يَسْوَدَّ رِيشُهُ ، وَالْأَبَوَانِ يَتَفَقَّدَانِهِ كُلَّ وَقْتٍ ، فَكُلَّمَا رَأَوْهُ أَبْيَضَ الرِّيشِ نَفَرَا عَنْهُ ، فَإِذَا رَأَوْهُ اِسْوَدَّ رِيشُهُ عَطَفَا عَلَيْهِ بِالْحَضَانَةِ وَالرِّزْقِ ، وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ :

يَا رَازِقَ النَّعَّابِ فِي عُشِّهِ   وَجَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ الْمَهِيضِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ : السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَتَسْخِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِعِبَادِهِ ، وَمُقَدِّرُ آجَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهَا وَاخْتِلَافَ أَرْزَاقِهِمْ فَتَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ ، فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا يُصْلِحُ كُلًّا مِنْهُمْ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغِنَى مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْفَرِدُ بِتَدْبِيرِهَا ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يُعْبَدْ غَيْرُهُ ؟ وَلِمَ يُتَوَكَّلْ عَلَى غَيْرِهِ ؟ فَكَمَا أَنَّهُ الْوَاحِدُ فِي مُلْكِهِ فَلْيَكُنِ الْوَاحِدُ فِي عِبَادَتِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يُقَرِّرُ تَعَالَى مَقَامَ الْإِلَهِيَّةِ بِالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ . وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ : ((**لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ**))(١).

وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ

(١) انظر مسلم (حديث ١١٨٥) .

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا ، وَأَنَّهَا لَا دَوَامَ لَهَا ، وَغَايَةُ مَا فِيهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أَيْ : الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْحَقُّ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْقِضَاءَ بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدَ الْآبَادِ ، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : لَآثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ يَدْعُونَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَهَلَّا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ دَائِمًا ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ هَذِهِ « اللَّامُ » يُسَمِّيهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّفْسِيرِ وَعُلَمَاءِ الْأُصُولِ « **لَامَ الْعَاقِبَةِ** » لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ ذَلِكَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا كَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَقْدِيرِ اللهِ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَتَقْيِيضِهِ إِيَّاهُمْ لِذَلِكَ فَهِيَ « **لَامُ التَّعْلِيلِ** » ، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَقْرِيرَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنًّا عَلَى قُرَيْشٍ فِيمَا أَحَلَّهُمْ مِنْ حَرَمِهِ الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، فَهُمْ فِي أَمْنٍ عَظِيمٍ ، وَالْأَعْرَابُ حَوْلَهُ يَنْهَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : أَفَكَانَ شُكْرُهُمْ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ أَشْرَكُوا بِهِ وَعَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَ ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، فَكَفَرُوا بِنَبِيِّ اللهِ وَعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ ، فَكَانَ اللَّائِقُ بِهِمْ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للهِ وَأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ ، وَتَصْدِيقُ الرَّسُولِ وَتَعْظِيمُهُ وَتَوْقِيرُهُ ، فَكَذَّبُوهُ فَقَاتَلُوهُ فَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَلِهَذَا سَلَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ بِبَدْرٍ ، ثُمَّ صَارَتِ الدَّوْلَةُ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مَكَّةَ ، وَأَرْغَمَ آنَافَهُمْ وَأَذَلَّ رِقَابَهُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ﴾ أَيْ : لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ ، فَقَالَ إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَهَكَذَا لَا أَحَدَ أَشَدُّ عُقُوبَةً مِمَّنْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ، فَالْأَوَّلُ مُفْتَرٍ وَالثَّانِي مُكَذِّبٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ يَعْنِي : الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أَيْ : لَنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، أَيْ : طُرُقَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ الرُّوم
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ
سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ
يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ حِينَ غَلَبَ سَابُورُ مَلِكُ الْفُرْسِ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ وَأَقَاصِي بِلَادِ الرُّومِ ، وَاضْطَرَّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّومِ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَحَاصَرَهُ فِيهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ثُمَّ عَادَتِ الدَّوْلَةُ لِهِرَقْلَ كَمَا سَيَأْتِي .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[1] فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قَالَ : غُلِبَتْ وَغَلَبَتْ . قَالَ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسُ عَلَى الرُّومِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ أَوْثَانٍ . وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ . فَذُكِرَ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ((**أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ**)) فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ فَقَالُوا : اِجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا ، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا ، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا ، فَجَعَلَ أَجَلاً خَمْسَ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا ، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : ((**أَلَا جَعَلْتَهَا إِلَى دُونِ** – أَرَاهُ قَالَ – **الْعَشْرِ**)) .

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : الْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ ، ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ ، قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾

---

(١) صحيح : وله شواهد ، وقد أخرجه الترمذي (٣١٩٣) .

إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ[1] : خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ : الدُّخَانُ وَاللِّزَامُ وَالْبَطْشَةُ وَالْقَمَرُ وَالرُّومُ . وَلْنَتَكَلَّمْ عَلَى كَلِمَاتِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَأَمَّا الرُّومُ فَهُمْ مِنْ سُلَالَةِ الْعِيصِ بْنِ إِسْحَاقَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَمِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : بَنُو الْأَصْفَرِ ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ الْيُونَانِ ، وَالْيُونَانُ مِنْ سُلَالَةِ يَافِثَ بْنِ نُوحٍ أَبْنَاءُ عَمِّ التُّرْكِ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ السَّيَّارَةَ السَّبْعَةَ ، وَيُقَالُ لَهَا : الْمُتَحَيِّرَةُ ، وَيُصَلُّونَ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَسَّسُوا دِمَشْقَ ، وَبَنَوْا مَعْبَدَهَا ، وَفِيهِ مَحَارِيبُ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ ، فَكَانَ الرُّومُ عَلَى دِينِهِمْ إِلَى بَعْدِ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ بِنَحْوٍ مِنْ ثَلَاثِ مِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَانَ مَنْ مَلَكَ الشَّامَ مَعَ الْجَزِيرَةِ يُقَالُ لَهُ « قَيْصَرُ » ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْمُلُوكِ قُسْطَنْطِينُ بْنُ قُسْطُسْ ، وَأُمُّهُ مَرْيَمُ الْهِيلَانِيَةُ الشَّذْقَانِيَّةُ مِنْ أَرْضِ حَرَّانَ ، كَانَتْ قَدْ تَنَصَّرَتْ قَبْلَهُ فَدَعَتْهُ إِلَى دِينِهَا ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فَيْلَسُوفًا فَتَابَعَهَا ، يُقَالُ : تَقِيَّةً ، وَاجْتَمَعَتْ بِهِ النَّصَارَى وَتَنَاظَرُوا فِي زَمَانِهِ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَرْيُوس ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا مُنْتَشِرًا مُتَشَتِّتًا لَا يَنْضَبِطُ ، إِلَّا أَنَّهُ اتَّفَقَ مِنْ جَمَاعَتِهِمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ أُسْقُفًا ، فَوَضَعُوا لِقُسْطَنْطِينَ الْعَقِيدَةَ ، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ ، وَإِنَّمَا هِيَ الْخِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ ، وَوَضَعُوا لَهُ الْقَوَانِينَ ، يَعْنُونَ : كُتُبَ الْأَحْكَامِ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَغَيَّرُوا دِينَ الْمَسِيحِ ﷺ وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا مِنْهُ ، وَصَلَّوْا إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَاعْتَاضُوا عَنِ السَّبْتِ بِالْأَحَدِ ، وَعَبَدُوا الصَّلِيبَ ، وَأَحَلُّوا الْخِنْزِيرَ ، وَاتَّخَذُوا أَعْيَادًا أَحْدَثُوهَا ، كَعِيدِ الصَّلِيبِ وَالْقُدَّاسِ وَالْغِطَاسِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْبَوَاعِيثِ وَالشَّعَانِينَ ، وَجَعَلُوا لَهُ الْبَابَ وَهُوَ كَبِيرُهُمْ ، ثُمَّ الْبَتَارِكَةَ ، ثُمَّ الْمَطَارِنَةَ ، ثُمَّ الْأَسَاقِفَةَ وَالْقَسَاقِسَةَ ، ثُمَّ الشَّمَامِسَةَ ، وَابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ ، وَبَنَى لَهُمُ الْمَلِكُ الْكَنَائِسَ وَالْمَعَابِدَ ، وَأَسَّسَ الْمَدِينَةَ الْمَنْسُوبَةَ إِلَيْهِ ، وَهِيَ :

---

(١) البخاري (٤٧٦٧) ، ومسلم (٢٧٩٨) .

الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ ، يُقَالُ : إِنَّهُ بَنَى فِي أَيَّامِهِ اِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ ، وَبَنَى بَيْتَ لَحْمٍ بِثَلَاثَةِ مَحَارِيبَ ، وَبَنَتْ أُمُّهُ الْقُمَامَةَ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلَكِيَّةُ ، يَعْنُونَ : الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ ، ثُمَّ حَدَثَتْ بَعْدَهُمُ الْيَعْقُوبِيَّةُ أَتْبَاعُ يَعْقُوبَ الْإِسْكَافِ ، ثُمَّ النُّسْطُورِيَّةُ أَصْحَابُ نُسْطُورَا وَهُمْ فِرَقٌ وَطَوَائِفُ كَثِيرَةٌ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّهُمُ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً** »[1].

وَالْغَرَضُ أَنَّهُمُ اِسْتَمَرُّوا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، كُلَّمَا هَلَكَ قَيْصَرٌ خَلَفَهُ آخَرُ بَعْدَهُ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ هِرَقْلُ ، وَكَانَ مِنْ عُقَلَاءِ الرِّجَالِ وَمِنْ أَحْزَمِ الْمُلُوكِ وَأَدْهَاهُمْ ، وَأَبْعَدِهِمْ غَوْرًا ، وَأَقْصَاهُمْ رَأْيًا ، فَتَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ فِي رِيَاسَةٍ عَظِيمَةٍ وَأُبَّهَةٍ كَثِيرَةٍ ، فَنَاوَأَهُ كِسْرَى مَلِكُ الْفُرْسِ وَمَلِكُ الْبِلَادِ كَالْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالرَّيِّ وَجَمِيعِ بِلَادِ الْعَجَمِ وَهُوَ سَابُورُ ذُو الْأَكْتَافِ ، وَكَانَتْ مَمْلَكَتُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَمْلَكَةِ قَيْصَرَ ، وَلَهُ رِيَاسَةُ الْعَجَمِ وَحَمَاقَةُ الْفُرْسِ ، وَكَانُوا مَجُوسًا يَعْبُدُونَ النَّارَ .

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : بَعَثَ إِلَيْهِ نُوَّابَهُ وَجَيْشَهُ فَقَاتَلُوهُ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ كِسْرَى غَزَاهُ بِنَفْسِهِ فِي بِلَادِهِ فَقَهَرَهُ وَكَسَرَهُ وَقَصَرَهُ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ سِوَى مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فَحَاصَرَهُ بِهَا مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ ، وَكَانَتِ النَّصَارَى تُعَظِّمُهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ كِسْرَى عَلَى فَتْحِ الْبَلَدِ وَلَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ لِحَصَانَتِهَا ؛ لِأَنَّ نِصْفَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْبَرِّ وَنِصْفَهَا الْآخَرُ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ ، فَكَانَتْ تَأْتِيهِمُ الْمِيرَةُ وَالْمَدَدُ مِنْ هُنَالِكَ ، فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ دَبَّرَ قَيْصَرُ مَكِيدَةً وَرَأَى فِي نَفْسِهِ خَدِيعَةً ، فَطَلَبَ مِنْ كِسْرَى أَنْ يُقْلِعَ مِنْ بِلَادِهِ عَلَى مَالٍ يُصَالِحُهُ عَلَيْهِ وَيَشْتَرِطُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَمْوَالًا عَظِيمَةً لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ، مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرَ وَأَقْمِشَةٍ وَجَوَارٍ وَخُدَّامٍ وَأَصْنَافٍ كَثِيرَةٍ ، فَطَاوَعَهُ قَيْصَرُ وَأَوْهَمَهُ أَنَّ عِنْدَهُ جَمِيعَ مَا طَلَبَ ، وَاسْتَقَلَّ عَقْلَهُ لَمَّا طَلَبَ مِنْهُ مَا طَلَبَ ، وَلَوِ اجْتَمَعَ هُوَ وَإِيَّاهُ لَعَجَزَتْ قُدْرَتُهُمَا عَنْ جَمْعِ عُشْرِهِ ، وَسَأَلَ كِسْرَى أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَأَقَالِيمِ مَمْلَكَتِهِ لِيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ مِنْ ذَخَائِرِهِ وَحَوَاصِلِهِ وَدَفَائِنِهِ ، فَأَطْلَقَ سَرَاحَهُ ، فَلَمَّا عَزَمَ قَيْصَرُ

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) وغيرهما .

عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ جَمَعَ أَهْلَ مِلَّتِهِ وَقَالَ : إِنِّي خَارِجٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أَبْرَمْتُهُ فِي جُنْدٍ قَدْ عَيَّنْتُهُ مِنْ جَيْشِي ، فَإِنْ رَجَعْتُ إِلَيْكُمْ قَبْلَ الْحَوْلِ فَأَنَا مَلِكُكُمْ وَإِنْ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ قَبْلَهَا فَأَنْتُمْ بِالْخِيَارِ ، إِنْ شِئْتُمْ اِسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى بَيْعَتِي وَإِنْ شِئْتُمْ وَلَّيْتُمْ عَلَيْكُمْ غَيْرِي ، فَأَجَابُوهُ بِأَنَّكَ مَلِكُنَا مَا دُمْتَ حَيًّا وَلَوْ غِبْتَ عَشَرَةَ أَعْوَامٍ .

فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خَرَجَ جَرِيدَةً(١) فِي جَيْشٍ مُتَوَسِّطٍ ، هَذَا وَكِسْرَى مُخَيِّمٌ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ يَنْتَظِرُهُ لِيَرْجِعَ ، فَرَكِبَ قَيْصَرُ مِنْ فَوْرِهِ وَسَارَ مُسْرِعًا حَتَّى اِنْتَهَى إِلَى بِلَادِ فَارِس ، فَعَاثَ فِي بِلَادِهَا قَتْلًا لِرِجَالِهَا وَمَنْ بِهَا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، وَلَمْ يَزَلْ يَقْتُلُ حَتَّى اِنْتَهَى إِلَى الْمَدَائِنِ وَهِيَ كُرْسِيُّ مَمْلَكَةِ كِسْرَى ، فَقَتَلَ مَنْ بِهَا وَأَخَذَ جَمِيعَ حَوَاصِلَهُ وَأَمْوَالَهُ وَأَسَرَ نِسَاءَهُ وَحَرِيمَهُ وَحَلَقَ رَأْسَ وَلَدِهِ ، وَرَكَّبَهُ عَلَى حِمَارٍ وَبَعَثَ مَعَهُ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ مِنْ قَوْمِهِ فِي غَايَةِ الْهَوَانِ وَالذِّلَّةِ ، وَكَتَبَ إِلَى كِسْرَى يَقُولُ : هَذَا مَا طَلَبْتَ فَخُذْهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ كِسْرَى أَخَذَهُ مِنَ الْغَمِّ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى وَاشْتَدَّ حَنَقُهُ عَلَى الْبَلَدِ فَجَدَّ فِي حِصَارِهَا بِكُلِّ مُمْكِنٍ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا عَجَزَ رَكِبَ لِيَأْخُذَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ مِنْ مَخَاضَةِ جَيْحُونَ - الَّتِي لَا سَبِيلَ لِقَيْصَرَ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَّا مِنْهَا - فَلَمَّا عَلِمَ قَيْصَرُ بِذَلِكَ اِحْتَالَ بِحِيلَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ أَرْصَدَ جُنْدَهُ وَحَوَاصِلَهُ الَّتِي مَعَهُ عِنْدَ فَمِ الْمَخَاضَةِ ، وَرَكِبَ فِي بَعْضِ الْجَيْشِ وَأَمَرَ بِأَحْمَالٍ مِنَ التِّبْنِ وَالْبَعْرِ وَالرَّوْثِ فَحُمِلَتْ مَعَهُ ، وَسَارَ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ يَوْمٍ فِي الْمَاءِ مُصَعِّدًا ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِلْقَاءِ تِلْكَ الْأَحْمَالِ فِي النَّهَرِ ، فَلَمَّا مَرَّتْ بِكِسْرَى ظَنَّ هُوَ وَجُنْدُهُ أَنَّهُمْ قَدْ خَاضُوا مِنْ هُنَالِكَ ، فَرَكِبُوا فِي طَلَبِهِمْ فَشَغَرَتِ الْمَخَاضَةُ عَنِ الْفُرْسِ ، وَقَدِمَ قَيْصَرُ فَأَمَرَهُمْ بِالنُّهُوضِ فِي الْخَوْضِ ، فَخَاضُوا وَأَسْرَعُوا السَّيْرَ فَفَاتُوا كِسْرَى وَجُنُودَهُ وَدَخَلُوا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمًا مَشْهُودًا عِنْدَ النَّصَارَى ، وَبَقِيَ كِسْرَى وَجُيُوشُهُ حَائِرِينَ لَا يَدْرُونَ مَاذَا يَصْنَعُونَ لَمْ يَحْصُلُوا عَلَى بِلَادِ قَيْصَرَ ، وَبِلَادُهُمْ قَدْ خَرَّبَتْهَا الرُّومُ وَأَخَذُوا حَوَاصِلَهُمْ ، وَسَبَوْا ذَرَارِيَّهُمْ وَنِسَاءَهُمْ . فَهَذَا مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ الرُّومِ فَارِسَ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ تِسْعِ سِنِينَ مِنْ غَلَبِ فَارِس لِلرُّومِ .

---

(١) الجريدة : خيل لا رجالة فيها .

. وكَانَتِ الْوَقْعَةُ الْكَائِنَةُ بَيْنَ فَارِس وَالرُّوم حِينَ غَلَبَتِ الرُّومُ بَيْنَ أَذْرِعَاتٍ وَبُصْرَى ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ اِبْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُمَا ، وَهِيَ طَرَفُ بِلَادِ الشَّام مِمَّا يَلِي بِلَادِ الْحِجَازِ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ ذَلِكَ فِي الْجَزِيرَةِ وَهِيَ أَقْرَبُ بِلَادِ الرُّوم مِنْ فَارِس ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ كَانَ غَلَبُ الرُّوم لِفَارِسَ بَعْدَ بِضْعِ سِنِينَ ، وَهِيَ . تِسْعٌ ، فَإِنَّ الْبِضْعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ وَمِنْ بَعْدِهِ ، فَبُنِيَ عَلَى الضَّمِّ لَمَّا قُطِعَ الْمُضَافُ وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ قَبْلُ ﴾ عَنِ الْإِضَافَةِ وَنُوِيَتْ .

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِلرُّوم أَصْحَابِ قَيْصَرَ مَلِكِ الشَّام عَلَى فَارِس أَصْحَابِ كِسْرَى وَهُمُ الْمَجُوسُ ، وَكَانَتْ نُصْرَةُ الرُّومِ عَلَى فَارِسٍ يَوْمَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي قَوْلِ طَائِفَةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ كَانَ نَصْرُ الرُّومِ عَلَى فَارِس عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ .

وَوَجَّهَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْقَوْلَ بِأَنَّ قَيْصَرَ كَانَ قَدْ نَذَرَ لَئِنْ أَظْفَرَهُ اللهُ بِكِسْرَى لَيَمْشِيَنَّ مِنْ حِمْصَ إِلَى إِيلِيَا - وَهُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ - شُكْرًا لله تَعَالَى فَفَعَلَ ، فَلَمَّا بَلَغَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّى وَافَاهُ كِتَابُ رَسُولِ الله ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ مَعَ دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ ، فَأَعْطَاهُ دِحْيَةُ لِعَظِيم بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى قَيْصَرَ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ سَأَلَ مَنْ بِالشَّام مِنْ عَرَبِ الْحِجَازِ ، فَأُحْضِرَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ الْأُمَوِيُّ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ كِبَارِ قُرَيْشٍ ، وَكَانُوا بِغَزَّةَ ، فَجِيءَ بِهِمْ إِلَيْهِ ، فَجَلَسُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَنَا ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ - وَأَجْلَسَهُمْ خَلْفَهُ - : إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَوَالله لَوْلَا أَنْ يَأْثُرُوا عَلَيَّ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ ، فَسَأَلَهُ هِرَقْلُ عَنْ نَسَبِهِ وَصِفَتِهِ ، فَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : لَا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْهُدْنَةَ الَّتِي كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ بَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ وَكُفَّارِ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ عَشْرَ

سِنِينَ ، فَاسْتَدَلُّوا بِهَذَا عَلَى أَنَّ نَصْرَ الرُّومِ عَلَى فَارِس كَانَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ؛ لأَنَّ قَيْصَرَ إِنَّمَا وَفَّى بِنَذْرِهِ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَلِأَصْحَابِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنْ يُجِيبُوا عَنْ هَذَا بِأَنَّ بِلَادَهُ كَانَتْ قَدْ خَرِبَتْ وَتَشَعَّثَتْ فَمَا تَمَكَّنَ مِنْ وَفَاءِ نَذْرِهِ حَتَّى أَصْلَحَ مَا يَنْبَغِي لَهُ إِصْلَاحُهُ ، وَتَفَقَّدَ بِلَادَهُ ثُمَّ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنِينَ مِنْ نُصْرَتِهِ وَفَّى بِنَذْرِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَالْأَمْرُ فِي هَذَا سَهْلٌ قَرِيبٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا انْتَصَرَتْ فَارِس عَلَى الرُّومِ سَاءَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا انْتَصَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِس فَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّ الرُّومَ أَهْلُ كِتَابٍ فِي الْجُمْلَةِ ، فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَجُوسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢-٨٣] ، **وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أَيْ : فِي انْتِصَارِهِ وَانْتِقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَنَّا سَنَنْصُرُ الرُّومَ عَلَى فَارِسٍ وَعْدٌ مِنَ اللهِ حَقٌّ ، وَخَبَرُ صِدْقٍ لَا يُخْلَفُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ وَوُقُوعِهِ ؛ لأَنَّ اللهَ قَدْ جَرَتْ سُنَّتُهُ أَنْ يَنْصُرَ أَقْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ وَيَجْعَلَ لَهَا الْعَاقِبَةَ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : بِحُكْمِ اللهِ فِي كَوْنِهِ وَأَفْعَالِهِ الْمُحْكَمَةِ الْجَارِيَةِ عَلَى وَفْقِ الْعَدْلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأٓخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أَيْ : أَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَأَكْسَابِهَا وَشُؤُونِهَا وَمَا فِيهَا ، فَهُمْ حُذَّاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهِ مَكَاسِبِهَا وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مُغَفَّلٌ لَا ذِهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ .

وَرُوِىَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأٓخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يَعْنِي : الْكُفَّارُ يَعْرِفُونَ عُمْرَانَ الدُّنْيَا وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَانْفِرَادِهِ بِخَلْقِهَا وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، فَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ يَعْنِي بِهِ : النَّظَرَ وَالتَّدَبُّرَ وَالتَّأَمُّلَ لِخَلْقِ اللهِ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خُلِقَتْ سُدًى وَلَا بَاطِلًا بَلْ بِالْحَقِّ وَأَنَّهَا مُؤَجَّلَةٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾ .

ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ بِمَا أَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَنَجَاةِ مَنْ صَدَّقَهُمْ . فَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : بِأَفْهَامِهِمْ وَعُقُولِهِمْ وَنَظَرِهِمْ وَسَمَاعِهِمْ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أَيْ : كَانَتِ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ وَالْقُرُونُ السَّالِفَةُ أَشَدُّ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ - وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا أُوتِيتُمْ مِعْشَارَ مَا أُوتُوا ، وَمُكِّنُوا فِي الدُّنْيَا تَمْكِينًا لَمْ تَبْلُغُوا إِلَيْهِ ، وَعُمِّرُوا فِيهَا أَعْمَارًا طِوَالًا فَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِنْكُمْ ، وَاسْتَغَلُّوهَا أَكْثَرَ مِنِ اسْتِغْلَالِكُمْ ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ، وَلَا حَالَتْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَأْسِ اللهِ ، وَلَا دَفَعُوا عَنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ

مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا أُوتُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَاسْتَهْزَءُوا بِهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ وَتَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] ، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ السُّوأَى مَنْصُوبَةً مَفْعُولًا لِأَسَاءُوا ، **وَقِيلَ** : بَلِ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ أَيْ : كَانَتِ السُّوأَى عَاقِبَتُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ . فَعَلَى هَذَا تَكُونُ السُّوأَى مَنْصُوبَةً خَبَرَ كَانَ .

ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أَيْ : كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى بُدَاءَتِهِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ **قِيلَ** : يَيْأَسُ الْمُجْرِمُونَ ، **وَقِيلَ** : يَفْتَضِحُ الْمُجْرِمُونَ . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾ أَيْ : مَا شَفَعَتْ فِيهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله تَعَالَى وَكَفَرُوا بِهِمْ وَخَانُوهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : هِيَ وَالله الْفُرْقَةُ الَّتِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا ، يَعْنِي : إِذَا رُفِعَ هَذَا إِلَى عِلِّيِّينَ وَخُفِضَ هَذَا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فَذَاكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا ، **ولِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قِيلَ : يَنْعمُونَ .

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هَذَا تَسْبِيحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ إِلَى تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، عِنْدَ الْمَسَاءِ وَهُوَ إِقْبَالُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ ، وَعِنْدَ الصَّبَاحِ وَهُوَ إِسْفَارُ النَّهَارِ عَنْ ضِيَائِهِ .

ثُمَّ اعْتَرَضَ بِحَمْدِهِ مُنَاسَبَةً لِلتَّسْبِيحِ وَهُوَ التَّحْمِيدُ فَقَالَ : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فَالْعِشَاءُ : هُوَ شِدَّةُ الظَّلَامِ ، وَالْإِظْهَارُ : قُوَّةُ الضِّيَاءِ ، فَسُبْحَانَ خَالِقِ هَذَا ، وَهَذَا فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا كَمَا قَالَ : ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٣-٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل : ١-٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ هُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَابِلَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الْكَرِيمَةُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ فِيهَا خَلْقَهُ الْأَشْيَاءَ وَأَضْدَادَهَا ؛ لِيَدُلَّ خَلْقُهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ إِخْرَاجُ النَّبَاتِ مِنَ الْحَبِّ وَالْحَبِّ مِنَ النَّبَاتِ ، وَالْبَيْضِ مِنَ الدَّجَاجِ وَالدَّجَاجِ مِنَ الْبَيْضِ ، وَالْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ وَالنُّطْفَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣-٣٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي

﴿ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧]، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ، أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ فَأَصْلُكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا، مُشَكَّلَهُ عَلَى شَكْلِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ كَسَا اللهُ تِلْكَ الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِذَا هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ صَغِيرًا ضَعِيفَ الْقُوَى وَالْحَرَكَةِ، ثُمَّ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ تَكَامَلَتْ قُوَاهُ وَحَرَكَاتُهُ حَتَّى آلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ يَبْنِي الْمَدَائِنَ وَالْحُصُونَ، وَيُسَافِرُ فِي أَقْطَارِ الْأَقَالِيمِ وَيَرْكَبُ مَتْنَ الْبُحُورِ وَيَدُورُ أَقْطَارَ الْأَرْضِ، وَيَكْتَسِبُ وَيَجْمَعُ الْأَمْوَالَ، وَلَهُ فِكْرَةٌ وَغَوْرٌ، وَدَهَاءٌ وَمَكْرٌ، وَرَأْيٌ وَعِلْمٌ، وَاتِّسَاعٌ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كُلٌّ بِحَسَبِهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَقْدَرَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَسَخَّرَهُمْ وَصَرَّفَهُمْ فِي فُنُونِ الْمَعَايِشِ وَالْمَكَاسِبِ، وَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي الْعُلُومِ وَالْفِكْرَةِ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾. عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ**»(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أَيْ: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسِكُمْ إِنَاثًا يَكُنَّ لَكُمْ أَزْوَاجًا ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يَعْنِي:

(١) صحيح: وقد أخرجه الترمذي (٢٩٥٥) وقال هذا حديث حسن صحيح.

بِذَلِكَ حَوَّاءَ خَلَقَهَا اللهُ مِنْ آدَمَ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَقْصَرِ الْأَيْسَرِ .

وَلَوْ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ ذُكُورًا وَجَعَلَ إِنَاثَهُمْ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ إِمَّا مِنْ جَانٍّ أَوْ حَيَوَانٍ لَمَا حَصَلَ هَذَا الِائْتِلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ ، بَلْ كَانَتْ تَحْصُلُ نَفْرَةٌ لَوْ كَانَتِ الْأَزْوَاجُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ ، ثُمَّ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بِبَنِي آدَمَ أَنْ جَعَلَ أَزْوَاجَهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً وَهِيَ : الْمَحَبَّةُ ، وَرَحْمَةً وَهِيَ : الرَّأْفَةُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمْسِكُ الْمَرْأَةَ إِمَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا أَوْ لِرَحْمَةٍ بِهَا ، بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مِنْهُ وَلَدٌ أَوْ مُحْتَاجَةٌ إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَوْ لِلْأُلْفَةِ بَيْنَهُمَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَمَنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : خَلْقُ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَشُفُوفِ أَجْرَامِهَا ، وَزَهَارَةِ كَوَاكِبِهَا وَنُجُومِهَا الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ ، وَالْأَرْضِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ وَبِحَارٍ وَقِفَارٍ وَحَيَوَانٍ وَأَشْجَارٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يَعْنِي : اللُّغَاتُ ، فَهَؤُلَاءِ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَهَؤُلَاءِ تَتَرٌ لَهُمْ لُغَةٌ أُخْرَى ، وَهَؤُلَاءِ كَرَجٌ ، وَهَؤُلَاءِ رُومٌ ، وَهَؤُلَاءِ إِفْرِنْجٌ ، وَهَؤُلَاءِ بَرْبَرٌ ، وَهَؤُلَاءِ تُكْرُورٌ ، وَهَؤُلَاءِ حَبَشَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ هُنُودٌ ، وَهَؤُلَاءِ عَجَمٌ ، وَهَؤُلَاءِ صَقَالِبَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ خَزَرٌ ، وَهَؤُلَاءِ أَرْمَنٌ ، وَهَؤُلَاءِ أَكْرَادٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى مِنِ اخْتِلَافِ لُغَاتِ بَنِي آدَمَ ، وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهِمْ وَهِيَ حُلَاهُمْ ، فَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ - بَلْ أَهْلُ الدُّنْيَا - مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلٌّ لَهُ عَيْنَانِ وَحَاجِبَانِ ، وَأَنْفٌ وَجَبِينٌ ، وَفَمٌ وَخَدَّانِ ، وَلَيْسَ يُشْبِهُ وَاحِدٌ مِنْهُمُ الْآخَرَ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُفَارِقَهُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّمْتِ أَوِ الْهَيْئَةِ أَوِ الْكَلَامِ ، ظَاهِرًا كَانَ أَوْ

خَفِيًّا ، يَظْهَرُ عِنْدَ التَّأَمُّلِ كُلُّ وَجْهٍ مِنْهُمْ أُسْلُوبٌ بِذَاتِهِ وَهَيْئَةٍ لَا تُشْبِهُ أُخْرَى ، وَلَوْ تَوَافَقَ جَمَاعَةٌ فِي صِفَةٍ مِنْ جَمَالٍ أَوْ قُبْحٍ لَا بُدَّ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ الْآخَرِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : وَمِنَ الْآيَاتِ مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ صِفَةِ النَّوْمِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، فَيهِ تَحْصُلُ الرَّاحَةُ وَسُكُونُ الْحَرَكَةِ وَذَهَابُ الْكَلَالِ وَالتَّعَبِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ الِانْتِشَارَ وَالسَّعْيَ فِي الْأَسْبَابِ وَالْأَسْفَارِ فِي النَّهَارِ وَهَذَا ضِدُّ النَّوْمِ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : يَعُونَ .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ أَنَّهُ ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أَيْ : تَارَةً تَخَافُونَ مِمَّا يَحْدُثُ بَعْدَهُ مِنْ أَمْطَارٍ مُزْعِجَةٍ وَصَوَاعِقَ مُتْلِفَةٍ ، وَتَارَةً تَرْجُونَ وَمِيضَهُ وَمَا يَأْتِي بَعْدَهُ مِنَ الْمَطَرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ أَيْ : بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا شَيْءَ ، فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَاءُ ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[الحج : ٥] ، وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ وَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى الْمَعَادِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾[الحج : ٦٥] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾[فاطر : ٤١] أَيْ : هِيَ قَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ بِأَمْرِهِ لَهَا وَتَسْخِيرِهِ إِيَّاهَا ، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُدِّلَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَخَرَجَتِ الْأَمْوَاتُ مِنْ قُبُورِهَا أَحْيَاءً بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ

إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣]

وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَانِتُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيْ : مُلْكُهُ وَعَبِيدُهُ ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَانِتُونَ ﴾ أَيْ : خَاضِعُونَ خَاشِعُونَ طَوْعًا وَكَرْهًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي : أَيْسَرُ عَلَيْهِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**)) . وَقَالَ آخَرُونَ : كِلَاهُمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْقُدْرَةِ عَلَى السَّوَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** أَنَّهُ قَالَ هِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١]، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : مِثْلَهُ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ غَيْرُهُ . وَقَالَ مِثْلَ هَذَا ابْنُ جَرِيرٍ .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، بَلْ قَدْ غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا ، **وَعَنْ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤) .

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ ، الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، الْجَاعِلِينَ لَهُ شُرَكَاءَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عَبِيدٌ لَهُ مِلْكٌ لَهُ ، كَمَا كَانُوا فِي تَلْبِيَتِهِمْ يَقُولُونَ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ .

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيْ : تَشْهَدُونَهُ وَتَفْهَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ أَيْ : لَا يَرْتَضِي أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكًا لَهُ فِي مَالِهِ ، فَهُوَ وَهُوَ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أَيْ : تَخَافُونَ أَنْ يُقَاسِمُوكُمُ الْأَمْوَالَ . **قَالَ أَبُو مِجْلَزٍ** : إِنَّ مَمْلُوكَكَ لَا تَخَافُ أَنْ يُقَاسِمَكَ مَالَكَ وَلَيْسَ لَهُ ذَاكَ ، كَذَلِكَ اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْنَفُ مِنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ للهِ الْأَنْدَادَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] أَيْ : مِنَ الْبَنَاتِ ، حَيْثُ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا وَجَعَلُوهَا بَنَاتَ اللهِ ، وَقَدْ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا بُشِّرَ ﴿ بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل : ٥٨-٥٩] ، فَهُمْ يَأْنَفُونَ مِنَ الْبَنَاتِ ، وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتَ اللهِ ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ مَا لَا يَرْتَضُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَهَذَا أَغْلَظُ الْكُفْرِ ، وَهَكَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ وَخَلْقِهِ ، وَأَحَدُهُمْ يَأْبَى غَايَةَ الْإِبَاءِ وَيَأْنَفُ غَايَةَ الْأَنَفَةِ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ شَرِيكَهُ فِي مَالِهِ يُسَاوِيهِ فِيهِ ، وَلَوْ شَاءَ لَقَاسَمَهُ عَلَيْهِ ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا عَبَدُوا غَيْرَهُ سَفَهًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجَهْلًا ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ﴾ أَيْ : الْمُشْرِكُونَ ﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾ أَيْ : فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَنْدَادَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : فَلَا أَحَدَ يَهْدِيهِمْ إِذَا كَتَبَ اللهُ ضَلَالَهُمْ ﴿ وَمَا لَهُم

مِن نَّصِرِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ مُنْقِذٌ وَلَا مُجِيرٌ وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَى الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لَكَ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ - مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ - الَّذِي هَدَاكَ اللهُ لَهَا وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَازِمٌ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وَفِي الْحَدِيثِ « **إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ** »[1] وَسَنَذْكُرُ فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ طَرَأَ عَلَى بَعْضِهِمُ الْأَدْيَانَ الْفَاسِدَةَ كَالْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصْرَانِيَّةِ أَوِ الْمَجُوسِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : مَعْنَاهُ لَا تُبَدِّلُوا خَلْقَ اللهِ فَتُغَيِّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا ، فَيَكُونُ خَبَرًا بِمَعْنَى الطَّلَبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ صَحِيحٌ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : هُوَ خَبَرٌ عَلَى بَابِهِ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ تَعَالَى سَاوَى بَيْنَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ فِي الْفِطْرَةِ عَلَى الْجِبِلَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، لَا يُولَدُ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَفَاوُتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ . **وَلِهَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : لِدِينِ اللهِ ، **وَقَالَ الْبُخَارِيُّ** : قَوْلُهُ ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ : لِدِينِ اللهِ ، خَلْقُ الْأَوَّلِينَ : دِينُ الْأَوَّلِينَ ، وَالْفِطْرَةُ : الْإِسْلَامُ . وَأَوْرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **مَا**

---

(١) صحيح : وسيأتي إن شاء الله .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٥) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ » ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ .

وَفِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ : « اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ »(١) .

وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ(٢) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ « إِنَّ رَبِّي ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا : كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ . وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ . تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا ، فَقُلْتُ : يَارَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً ، قَالَ : اِسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اِسْتَخْرَجُوكَ . وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ . وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقْ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، قَالَ : وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ ، قَالَ : وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ - إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرَ(٣) الْفَاحِشَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أَيْ : التَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ

---

(١) البخاري (١٣٨٣) ، ومسلم (٢٦٦٠) .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) ، وانظر أحمد (٤/ ١٦٢) .

(٣) الشنظير : فسره في الحديث بأنه الفحّاش وهو سيء الخلق .

هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : فَلِهَذَا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهُمْ عَنْهُ نَاكِبُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف : ١٠٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام : ١١٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ : رَاجِعِينَ إِلَيْهِ ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أَيْ : خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، وَهِيَ الطَّاعَةُ الْعَظِيمَةُ ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : بَلْ كُونُوا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ لَا يُرِيدُونَ بِهَا سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أَيْ : لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ . أَيْ : بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ وَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : « فَارَقُوا دِينَهُمْ » أَيْ : تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ مِمَّا عَدَا أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الأنعام : ١٥٩] ، فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اِخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ وَمِلَلٍ بَاطِلَةٍ . وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَيْضًا اِخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى نِحَلٍ كُلُّهَا ضَلَالَةٌ إِلَّا وَاحِدَةٌ ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، الْمُتَمَسِّكُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَبِمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ .

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ النَّاسِ إِنَّهُمْ فِي حَالِ الِاضْطِرَارِ يَدْعُونَ اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ فِي حَالَةِ الِاخْتِيَارِ يُشْرِكُونَ بِاللهِ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ هِيَ « لَامُ الْعَاقِبَةِ » عِنْدَ بَعْضِهِمْ ، وَ« لَامُ التَّعْلِيلِ » عِنْدَ آخَرِينَ ، وَلَكِنَّهَا تَعْلِيلٌ لِتَقْيِيضِ اللهِ لَهُمْ ذَلِكَ . ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ **قَالَ بَعْضُهُمْ** : وَاللهِ لَوْ تَوَعَّدَنِي حَارِسُ دَرْبٍ لَخِفْتُ مِنْهُ ، فَكَيْفَ وَالْمُتَوَعِّدُ هَهُنَا الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ : حُجَّةً ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ أَيْ : يَنْطِقُ ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ ، أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَوَفَّقَهُ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَةٌ بَطِرَ وَقَالَ : ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] أَيْ : يَفْرَحُ فِي نَفْسِهِ وَيَفْخَرُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ قَنِطَ وَأَيِسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ بِالْكُلِّيَّةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود : ١١] أَيْ : صَبَرُوا فِي الضَّرَّاءِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الرَّخَاءِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : « **عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** »(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ فَيُوَسِّعُ عَلَى قَوْمٍ وَيُضَيِّقُ عَلَى آخَرِينَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ

---

(١) مسلم (٢٩٩٩) .

يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بِإِعْطَاءِ ﴿ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ أَيْ : مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ يُنْفَقُ عَلَيْهِ ، أَوْ لَهُ شَيْءٌ لَا يَقُومُ بِكِفَايَتِهِ ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُحْتَاجُ إِلَى نَفَقَةٍ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : النَّظَرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مَنْ أَعْطَى عَطِيَّةً يُرِيدُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّاسُ أَكْثَرَ مِمَّا أَهْدَى لَهُمْ فَهَذَا لَا ثَوَابَ لَهُ عِنْدَ اللهِ . بِهَذَا فَسَّرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَهَذَا الصَّنِيعُ مُبَاحٌ وَإِنْ كَانَ لَا ثَوَابَ فِيهِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَاصَّةً ، وَاسْتُدِلَّ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أَيْ : لَا تُعْطِ الْعَطَاءَ تُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الرِّبَا رِبَاءَانِ ، فَرِبًا لَا يَصِحُّ ، يَعْنِي : رِبَا الْبَيْعِ ، وَرِبًا لَا بَأْسَ بِهِ وَهُوَ هَدِيَّةُ الرَّجُلِ يُرِيدُ فَضْلَهَا وَأَضْعَافَهَا ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وَإِنَّمَا الثَّوَابُ عِنْدَ اللهِ فِي الزَّكَاةِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ يُضَاعِفُ اللهُ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالْجَزَاءَ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ ((**وَمَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَصِيرَ التَّمْرَةُ أَعْظَمَ مِنْ أُحُدٍ**))(١).

(١) أخرجه بنحوه البخاري (حديث ١٤١٠) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أَيْ : هُوَ الْخَالِقُ الرَّزَّاقُ ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ عُرْيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ وَلَا قُوَّةَ ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ جَمِيعَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَالرِّيَاشَ وَاللِّبَاسَ وَالْمَالَ وَالْأَمْلَاكَ وَالْمَكَاسِبَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم ﴾ أَيْ : الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلِ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أَيْ : تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَاظَمَ وَجَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ أَوْ مُسَاوٍ أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالْبَرِّ : هَهُنَا الْفَيَافِي ، وَبِالْبَحْرِ : الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : الْبَحْرُ : الْأَمْصَارُ وَالْقُرَى ، مَا كَانَ مِنْهَا عَلَى جَانِبِ نَهَرٍ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِالْبَرِّ هُوَ : الْبَرُّ الْمَعْرُوفُ ، وَبِالْبَحْرِ هُوَ : الْبَحْرُ الْمَعْرُوفُ .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ رُفَيْعٍ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ يَعْنِي : انْقِطَاعَ الْمَطَرِ عَنِ الْبَرِّ يَعْقُبُهُ الْقَحْطُ ، وَعَنِ الْبَحْرِ يَعْنِي : دَوَابُّهُ . **وَقَالَ عَطَاءٌ الْخُرَاسَانِيُّ** : الْمُرَادُ بِالْبَرِّ : مَا فِيهِ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْقُرَى ، وَبِالْبَحْرِ : جَزَائِرُهُ ، **وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ أَيْ : بَانَ النَّقْصُ فِي الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي . وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ الْحُدُودَ إِذَا أُقِيمَتْ انْكَفَّ النَّاسُ - أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ - عَنْ تَعَاطِي الْمُحَرَّمَاتِ ، وَإِذَا تُرِكَتِ الْمَعَاصِي كَانَ سَبَبًا فِي حُصُولِ الْبَرَكَاتِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلِهَذَا إِذَا نَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَحْكُمُ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ

الْمُطَهَّرَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ قَتْلِ الْخِنْزِيرِ ، وَكَسْرِ الصَّلِيبِ ، وَوَضْعِ الْجِزْيَةِ - وَهُوَ تَرْكُهَا - فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ ، فَإِذَا أَهْلَكَ اللهُ فِي زَمَانِهِ الدَّجَّالَ وَأَتْبَاعَهُ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ قِيلَ : لِلْأَرْضِ أَخْرِجِي بَرَكَتَكِ ، فَيَأْكُلُ مِنَ الرُّمَّانَةِ الْفِئَامُ مِنَ النَّاسِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا ، وَيَكْفِي لَبَنُ اللِّقْحَةِ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِبَرَكَةِ تَنْفِيذِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكُلَّمَا أُقِيمَ الْعَدْلُ كَثُرَتِ الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرُ . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[1] : ((**أَنَّ الْفَاجِرَ إِذَا مَاتَ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ الْآيَةَ . أَيْ : يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، اخْتِبَارًا مِنْهُ وَمُجَازَاةً عَلَى صَنِيعِهِمْ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ : عَنِ الْمَعَاصِي ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أَيْ : فَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَكُفْرِ النِّعَمِ .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الِاسْتِقَامَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فَلَا رَادَّ لَهُ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَتَفَرَّقُونَ ، فَفَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٥١٢) ، ومسلم (٩٥٠) .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : يُجَازِيهِمْ مُجَازَاةَ الْفَضْلِ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، وَمَعَ هَذَا هُوَ الْعَادِلُ فِيهِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى نِعَمَهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي إِرْسَالِهِ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ بِمَجِيءِ الْغَيْثِ عَقِيبَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ أَيْ : الْمَطَرَ الَّذِي يُنْزِلُهُ فَيُحْيِي بِهِ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي الْبَحْرِ ، وَإِنَّمَا سَيَّرَهَا بِالرِّيحِ ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : فِي التِّجَارَاتِ وَالْمَعَايِشِ ، وَالسَّيْرِ مِنْ إِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ، وَقُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ﴾ هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ وَإِنْ كَذَّبَهُ كَثِيرٌ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنَ النَّاسِ فَقَدْ كُذِّبَتِ الرُّسُلُ الْمُتَقَدِّمُونَ مَعَ مَا جَاءُوا أُمَمَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ . وَلَكِنِ انْتَقَمَ اللهُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ ، وَأَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ حَقٌّ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَكَرُّمًا وَتَفَضُّلًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤]

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يُبَيِّنُ تَعَالَى كَيْفَ يَخْلُقُ السَّحَابَ الَّتِي يَنْزِلُ مِنْهَا المَاءُ ، **فَقَالَ** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ إِمَّا مِنَ الْبَحْرِ - كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ - أَوْ مِمَّا يَشَاءُ اللهُ ﷻ ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَمُدُّهُ فَيُكَثِّرُهُ وَيُنَمِّيهِ ، وَيَجْعَلُ مِنَ الْقَلِيلِ كَثِيرًا ، يُنْشِئُ سَحَابَةً تُرَى فِي رَأْيِ الْعَيْنِ مِثْلَ التُّرْسِ ، ثُمَّ يَبْسُطُهَا حَتَّى تَمْلَأَ أَرْجَاءَ الْأُفُقِ ، وَتَارَةً يَأْتِي السَّحَابُ مِنْ نَحْوِ الْبَحْرِ ثِقَالًا مَمْلُوءَةً مَاءً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] **وَكَذَلِكَ قَالَ هَهُنَا** ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : قِطَعًا . **وَقَالَ غَيْرُهُمْ** : مُتَرَاكِمًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ أَيْ : فَتَرَى المَطَرَ - وَهُوَ الْقَطْرُ - يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ السَّحَابِ ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أَيْ : لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ يَفْرَحُونَ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ وَوُصُولِهِ إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ مَعْنَى الْكَلَامِ : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ هَذَا المَطَرُ كَانُوا قَنِطِينَ أَزِلِّينَ مِنْ نُزُولِ المَطَرِ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ جَاءَهُمْ عَلَى فَاقَةٍ فَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا .

وَقَدِ اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، **فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : هُوَ تَأْكِيدٌ ، وَحَكَاهُ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمُ المَطَرُ ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أَيْ : الْإِنْزَالِ ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ دَلَالَةِ التَّأْسِيسِ ، وَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ : أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ قَبْلَ نُزُولِهِ ، وَمِنْ قَبْلِهِ أَيْضًا قَدْ فَاتَ عِنْدَهُمْ نُزُولُهُ وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ ، فَتَرَقَّبُوهُ فِي إِبَّانِهِ فَتَأَخَّرَ ، فَمَضَتْ مُدَّةٌ فَتَرَقَّبُوهُ فَتَأَخَّرَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَغْتَةً بَعْدَ الْإِيَاسِ مِنْهُ وَالْقُنُوطِ ، فَبَعْدَ مَا كَانَتْ أَرْضُهُمْ مُقْشَعِرَّةً هَامِدَةً ، أَصْبَحَتْ وَقَدِ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ يَعْنِي : المَطَرَ ﴿ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ ثُمَّ نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى إِحْيَاءِ الأَجْسَادِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَفَرُّقِهَا وَتَمَزُّقِهَا فَقَالَ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ لَقَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الأَمْوَاتِ ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ يَقُولُ : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يَابِسَةً عَلَى الزَّرْعِ الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أَيْ : قَدِ اصْفَرَّ وَشَرَعَ فِي الفَسَادِ ﴿ لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذَا الحَالِ ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ أَيْ : يَجْحَدُونَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النِّعَمِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣-٦٧]

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا أَنَّكَ لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تُسْمِعَ الأَمْوَاتَ فِي أَجْدَاثِهَا ، وَلَا تُبَلِّغَ كَلَامَكَ الصُّمَّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُدْبِرُونَ عَنْكَ ، كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَةِ العُمْيَانِ عَنِ الحَقِّ وَرَدِّهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، بَلْ ذَلِكَ إِلَى اللهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بِقُدْرَتِهِ يُسْمِعُ الأَمْوَاتَ أَصْوَاتَ الأَحْيَاءِ إِذَا شَاءَ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ سِوَاهُ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : خَاضِعُونَ مُسْتَجِيبُونَ مُطِيعُونَ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الحَقَّ وَيَتَّبِعُونَهُ ، وَهَذَا حَالُ المُؤْمِنِينَ ، وَالأَوَّلُ مِثْلُ الكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٦]

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عَلَى تَنَقُّلِ الإِنْسَانِ فِي أَطْوَارِ الخَلْقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، فَأَصْلُهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ، ثُمَّ يَصِيرُ عِظَامًا ، ثُمَّ يُكْسَى لَحْمًا ، وَيُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِنَ الْقُوَى ، ثُمَّ يَشِبُّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُونَ صَغِيرًا ، ثُمَّ حَدَثًا ، ثُمَّ مُرَاهِقًا ، ثُمَّ شَابًّا وَهُوَ الْقُوَّةُ بَعْدَ الضَّعْفِ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ ، فَيَكْتَهِلُ ثُمَّ يَشِيخُ ، ثُمَّ يَهْرَمُ وَهُوَ الضَّعْفُ بَعْدَ الْقُوَّةِ ، فَتَضْعُفُ الْهِمَّةُ وَالْحَرَكَةُ وَالْبَطْشُ ، وَتَشِيبُ اللِّمَّةُ وَتَتَغَيَّرُ الصِّفَاتُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يُرِيدُ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَفِي الدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَفِي الْآخِرَةِ يَكُونُ مِنْهُمْ جَهْلٌ عَظِيمٌ أَيْضًا ، فَمِنْهُ إِقْسَامُهُمْ بِاللهِ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ عَدَمَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُنْظَرُوا حَتَّى يُعْذَرَ إِلَيْهِمْ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ أَيْ : فَيَرُدُّ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعُلَمَاءُ فِي الْآخِرَةِ كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةَ اللهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ لَهُمْ حِينَ يَحْلِفُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي كِتَابِ الْأَعْمَالِ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ أَيْ : مِنْ يَوْمِ خُلِقْتُمْ إِلَى أَنْ بُعِثْتُمْ ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ أَيْ : اِعْتِذَارُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أَيْ : وَلَا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤]

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أَيْ : قَدْ بَيَّنَّا لَهُمُ الْحَقَّ ، وَوَضَّحْنَاهُ لَهُمْ وَضَرَبْنَا لَهُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ ، لِيَتَبَيَّنُوا الْحَقَّ وَيَتَّبِعُوهُ ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أَيْ : لَوْ رَأَوْا أَيَّ آيَةٍ كَانَتْ ، سَوَاءً كَانَتْ بِاقْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْرِهِ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْرٌ وَبَاطِلٌ ، كَمَا قَالُوا فِي انْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَنَحْوِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧]

وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : اِصْبِرْ عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مُنْجِزٌ لَكَ مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْرِهِ إِيَّاكَ وَجَعْلِهِ الْعَاقِبَةَ لَكَ ، ولِمَنِ اتَّبَعَكَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : بَلِ اثْبُتْ عَلَى ما بَعَثَكَ اللهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ الحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ ، وَلَا تَعْدِلْ عَنْهُ وَلَيْسَ فِيمَا سِوَاهُ هُدًى يُتَّبَعُ بَلِ الْحَقُّ كُلُّهُ مُنْحَصِرٌ فِيهِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرُّومِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

تفسير سورة لقمان
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » عامَّةُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - جَعَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُدًى وَشِفَاءً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ ، فَأَقَامُوا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ بِحُدُودِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ نَوَافِلَ رَاتِبَةٍ وَغَيْرِ رَاتِبَةٍ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَوَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ وَقَرَابَاتِهِمْ ، وَأَيْقَنُوا بِالْجَزَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَرَغِبُوا إِلَى اللهِ فِي ثَوَابِ ذَلِكَ ، لَمْ يُرَاءُوا بِهِ ، وَلَا أَرَادُوا جَزَاءً مِنَ النَّاسِ وَلَا شُكُورًا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أَيْ : عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ وَمَنْهَجٍ وَاضِحٍ جَلِيٍّ ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ وَهُمُ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِكِتَابِ اللهِ وَيَنْتَفِعُونَ بِسَمَاعِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] عَطَفَ بِذِكْرِ

حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الِانْتِفَاعِ بِسَمَاعِ كَلَامِ الله ، وَأَقْبَلُوا عَلَى اسْتِمَاعِ الْمَزَامِيرِ وَالْغِنَاءِ بِالْأَلْحَانِ وَآلَاتِ الطَّرَبِ ، **كَمَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ هُوَ : الْغِنَاءُ .

وَقَالَ آخَرُونَ : الْغِنَاءُ وَالْمَزَامِيرُ ، **وَقِيلَ** : عَنَى بِقَوْلِهِ ﴿ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ اشْتِرَاءُ الْمُغَنِّيَاتِ مِنَ الْجَوَارِي .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَصْنَعُ هَذَا لِلتَّخَالُفِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ . وَعَلَى قِرَاءَةِ فَتْحِ الْيَاءِ ، تَكُونُ اللَّامُ لَامَ الْعَاقِبَةِ ، أَوْ تَعْلِيلًا لِلْأَمْرِ الْقَدَرِيِّ ، أَيْ : قُيِّضُوا لِذَلِكَ لِيَكُونُوا كَذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ **قِيلَ** : وَيَتَّخِذُ سَبِيلَ الله هُزُوًا يَسْتَهْزِئُ بِهَا ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي وَيَتَّخِذُ آيَاتِ الله هُزُوًا ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أَيْ : كَمَا اسْتَهَانُوا بِآيَاتِ الله وَسَبِيلِهِ ، أُهِينُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَذَابِ الدَّائِمِ الْمُسْتَمِرِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أَيْ : هَذَا الْمُقْبِلُ عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالطَّرَبِ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَلَّى عَنْهَا وَأَعْرَضَ وَأَدْبَرَ وَتَصَامَمَ وَمَا بِهِ مِنْ صَمَمٍ ، كَأَنَّهُ مَا سَمِعَهَا ؛ لِأَنَّهُ يَتَأَذَّى بِسَمَاعِهَا ، إِذْ لَا انْتِفَاعَ لَهُ بِهَا وَلَا أَرَبَ لَهُ فِيهَا ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤْلِمُهُ كَمَا تَأَلَّمَ بِسَمَاعِ كِتَابِ الله وَآيَاتِهِ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

هَذَا ذِكْرُ مَآلِ الْأَبْرَارِ مِنَ السُّعَدَاءِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الْمُتَابِعَةَ لِشَرِيعَةِ الله ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أَيْ : يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَاذِّ وَالْمَسَارِّ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ ، وَالْمَرَاكِبِ وَالنِّسَاءِ ، وَالنَّضْرَةِ وَالسَّمَاعِ الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ أَحَدٍ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُقِيمُونَ دَائِمًا فِيهَا لَا يَظْعَنُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ أَيْ : هَذَا كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ؛ لأَنَّهُ مِنْ وَعْدِ الله ، وَاللهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ؛ لأَنَّهُ الْكَرِيمُ الْمَنَّانُ ، الْفَعَّالُ لِمَا يَشَاءُ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَدَانَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ الَّذِي جَعَلَ الْقُرْآنَ هُدًى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[فصلت : ٤٤] . ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء : ٨٢]

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يُبَيِّنُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : لَيْسَ لَهَا عَمَدٌ مَرْئِيَّةٌ وَلَا غَيْرُ مَرْئِيَّةٍ . **وَقَالَ آخَرُون** : لَهَا عَمَدٌ لَا تَرَوْنَهَا .

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الرَّعْدِ » بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ يَعْنِي : الْجِبَالَ أَرْسَت الْأَرْضَ وَثَقَّلَتْهَا ؛ لِئَلَّا تَضْطَرِبَ بِأَهْلِهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ أَيْ : وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانَاتِ مِمَّا لَا يَعْلَمُ عَدَدَ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا إِلَّا الَّذِي خَلَقَهَا ، وَلَمَّا قَرَّرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ الرَّازِقُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ زَوْجٍ مِنَ النَّبَاتِ كَرِيمٌ ، أَيْ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا صَادِرٌ عَنْ فِعْلِ الله وَخَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : مِمَّا تَعْبُدُونَ

وَتَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿ بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ الْعَابِدِينَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ فِي ضَلَـٰلٍ ﴾ أَيْ : فِي جَهْلٍ وَعَمًى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : ظَاهِرٌ وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ بِهِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي لُقْمَانَ ﷺ هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا صَالِحًا مِنْ غَيْرِ نُبُوَّةٍ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : الْأَكْثَرُونَ عَلَى الثَّانِي ، **وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ** قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ : مَا انْتَهى إِلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِ لُقْمَانَ ؟ قَالَ : كَانَ قَصِيرًا أَفْطَسَ مِنَ النُّوبَةِ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ : كَانَ لُقْمَانُ مِنْ سُودَانِ مِصْرَ ذَا مَشَافِرَ ، أَعْطَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ ، وَمَنَعَهُ النُّبُوَّةَ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَرْمَلَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ يَسْأَلُهُ ، فَقَالَ لَهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ : لَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ أَسْوَدُ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَخْيَرِ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ مِنَ السُّودَانِ : بِلَالٌ ، وَمِهْجَعٌ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَلُقْمَانُ الْحَكِيمُ ، كَانَ أَسْوَدَ نُوبِيًّا ذَا مَشَافِرَ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ لُقْمَانُ عَبْدًا أَسْوَدَ عَظِيمَ الشَّفَتَيْنِ مُشَقَّقَ الْقَدَمَيْنِ .

فَهَذِهِ الْآثَارُ مِنْهَا مَا هُوَ مُصَرَّحٌ فِيهِ بِنَفْيِ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَمِنْهَا مَا هُوَ مُشْعِرٌ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّ كَوْنَهُ عَبْدًا قَدْ مَسَّهُ الرِّقُّ يُنَافِي كَوْنَهُ نَبِيًّا ؛ لأَنَّ الرُّسُلَ كَانَتْ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا ، وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُورُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، وَإِنَّمَا يُنْقَلُ كَوْنُهُ نَبِيًّا عَنْ عِكْرِمَةَ إِنْ صَحَّ السَّنَدُ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَفِيهِ جَابِرُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ أَيْ : الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالتَّعْبِيرَ ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ ﷻ عَلَى مَا أَتَاهُ اللهُ وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَأَهْلِ زَمَانِهِ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَثَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أَيْ : غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ لَا يَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ وَلَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّةِ لُقْمَانَ لِوَلَدِهِ ، وَهُوَ لُقْمَانُ بْنُ عَنْقَاءَ بْنِ سَدُونٍ ، وَاسْمُ ابْنِهِ : ثَارَانَ ، فِي قَوْلٍ حَكَاهُ السُّهَيْلِيُّ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ ، فَإِنَّهُ آتَاهُ الْحِكْمَةَ وَهُوَ يُوصِي وَلَدَهُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ ، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَمْنَحَهُ أَفْضَلَ مَا يَعْرِفُ ، وَلِهَذَا أَوْصَاهُ أَوَّلًا بِأَنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ قَالَ مُحَذِّرًا لَهُ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أَيْ : هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ[1] **قَالَ** : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا : أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : « **إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ** ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ الْبِرَّ بِالْوَالِدَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ تَعَالَى بَيْنَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ

(١) البخاري (حديث ٣٢) ، وهنالك الأطراف ، مسلم (حديث ١٢٤) .

وَهْنٍ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : مَشَقَّةُ وَهْنِ الْوَلَدِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : جَهْدًا عَلَى جَهْدٍ ، **وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَاسَانِيُّ** : ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ أَيْ : تَرْبِيَتُهُ وَإِرْضَاعُهُ بَعْدَ وَضْعِهِ فِي عَامَيْنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[البقرة : ٢٣٣] ، **وَمِنْ هَهُنَا اسْتَنْبَطَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ** ؛ لأَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ تَعَالَى تَرْبِيَةَ الْوَالِدَةِ وَتَعَبَهَا وَمَشَقَّتَهَا فِي سَهَرِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا ؛ لِيُذَكِّرَ الْوَلَدَ بِإِحْسَانِهَا الْمُتَقَدِّمِ إِلَيْهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[الإسراء : ٢٤] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : فَإِنِّي سَأَجْزِيكَ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ وَهْبٍ(١) **قَالَ** : قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَكَانَ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَامَ وَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تُطِيعُونِي لَا آلُوكُمْ خَيْرًا ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللهِ وَإِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ ، إِقَامَةٌ فَلَا ظَعْنَ ، وَخُلُودٌ فَلَا مَوْتَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أَيْ : إِنْ حَرَصَا عَلَيْكَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ تُتَابِعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا فَلَا تَقْبَلْ مِنْهُمَا ذَلِكَ ، وَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، أَيْ : مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ يَعْنِي : الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ

---

(١) إسناده صحيح .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

هَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ قَدْ حَكَاهَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ ؛ لِيَمْتَثِلَهَا النَّاسُ وَيَقْتَدُوا بِهَا **فَقَالَ** : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ الْمَظْلِمَةَ أَوِ الْخَطِيئَةَ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ ، وَجَوَّزَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهَآ ﴾ ضَمِيرُ الشَّأْنِ وَالْقِصَّةُ ، وَجَوَّزَ عَلَى هَذَا رَفْعَ ﴿ مِثْقَالَ ﴾ وَالْأَوَّلُ أَوْلَى .

وَقَوْلُهُ ﷺ : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : أَحْضَرَهَا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ، وَجَازَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] ، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحَصَّنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَّاءَ أَوْ غَائِبَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي أَرْجَاءِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .

وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيْ : لَطِيفُ الْعِلْمِ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقَّتْ وَلَطُفَتْ وَتَضَاءَلَتْ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بِدَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ .

وَالظَّاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ فِي حَقَارَتِهَا لَوْ كَانَتْ دَاخِلَ صَخْرَةٍ فَإِنَّ اللهَ سَيُبْدِيهَا وَيُظْهِرُهَا بِلَطِيفِ عِلْمِهِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ أَيْ : بِحَسَبِ طَاقَتِكَ وَجَهْدِكَ ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ عَلِمَ أَنَّ الْآمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ النَّاسِ أَذًى فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى أَذَى النَّاسِ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يَقُولُ : لَا تُعْرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلَّمْتَهُمْ أَوْ كَلَّمُوكَ احْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ أَلِنْ جَانِبَكَ ، وَابْسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ**

مُنْبَسِطٌ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ ، وَالْمَخِيلَةُ لَا يُحِبُّهَا اللهُ »[١].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أَيْ : خَذَلًا مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا ، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ يُبْغِضُكَ اللهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أَيْ : مُخْتَالٌ مُعْجَبٌ فِي نَفْسِهِ ، فَخُورٌ أَيْ : عَلَى غَيْرِهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[الإسراء : ٣٧] ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ[٢] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أَيْ : اِمْشِ مَشْيًا مُقْتَصِدًا لَيْسَ بِالْبَطِيءِ الْمُتَثَبِّطِ ، وَلَا بِالسَّرِيعِ الْمُفْرِطِ ، بَلْ عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أَيْ : لَا تُبَالِغْ فِي الْكَلَامِ ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ .

قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ، أَيْ : غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعِهِ ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللهِ ، وَهَذَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ ، الْعَائِدِ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ** »[٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا** »[٤].

فَهَذِهِ وَصَايَا نَافِعَةٌ جِدًّا ، وَهِيَ مِنْ قَصَصِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَنْ لُقْمَانَ الْحَكِيمِ .

فَصْلٌ فِي الْخُمُولِ وَالتَّوَاضُعِ

وَذَلِكَ مُتَعَلِّقٌ بِوَصِيَّةِ لُقْمَانَ عليه السلام لِابْنِهِ ، وَقَدْ جَمَعَ فِي ذَلِكَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي الدُّنْيَا كِتَابًا مُفْرَدًا وَنَحْنُ نَذْكُرُ مِنْهُ :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **رُبَّ أَشْعَثَ ذِي طِمْرَيْنِ**

---

(١) إسناده صحيح : وقد أخرجه أحمد (٥/ ٦٤) .
(٢) تفسير آية رقم (٣٧) من سورة الإسراء .
(٣) صحيح : وقد تقدم .
(٤) البخاري (٣٣٠٣) ، ومسلم (حديث ٢٧٢٩) .

يَصْفَحُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ ، إِذَا أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ))(١).

فَصْلٌ فِي حُسْنِ الخُلُقِ

عَنْ أَنَسٍ ﷺ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا(٢).

وَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَجَاءَتْهُ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله مَا خَيْرُ مَا أُعْطِي الْإِنْسَانُ ؟ قَالَ : ((حُسْنُ الخُلُقِ))(٣).

وَعَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءَ - يَبْلُغُ بِهِ - قَالَ : ((مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ))(٤).

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا ((إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا))(٥).

وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ مَرْفُوعًا « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَنْزِلًا فِي الجَنَّةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ المُتَشَدِّقُونَ المُتَفَيْهِقُونَ))(٦).

فَصْلٌ فِي الاخْتِيَالِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا ((لَا يَنْظُرُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ))(٧).

وَ ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْهِ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ

---

(١) صحيح : الترمذي (٣٨٥٤) وبنحوه أخرجه مسلم (٢٦٢٢ ، ٢٨٥٤) من حديث أبي هريرة .

(٢) البخاري (٦١٢٩) ، مسلم (٢١٥٠) .

(٣) صحيح الإسناد : البخاري في الأدب المفرد (٢٩١) ، وأحمد في المسند (٤/ ٢٩٨) ، وابن ماجة (٣٤٣٦) .

(٤) صحيح : أخرجه عبد بن حميد في المنتخب بتحقيقي حديث (٢٠٤) ، والترمذي (٢٠٠٤) ، وأبو داود (٢٧٩٩)

(٥) البخاري (٣٥٥٩) ، ومسلم (٢٣٢١) .

(٦) حسن : أخرجه الترمذي (٢٠١٨) ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وروى بعضهم هذا الحديث عن المبارك بن فضالة عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ ولم يذكر فيه عن عبد ربه ابن سعيد وهذا أصح .

قلت : الحديث مروي عند الترمذي من طريق مبارك بن فضالة عن عبد ربه بن سعيد عن ابن المنكدر عن جابر ، ثم أشار الترمذي إلى ما ذكرناه عنه ، وعلى كل حال فمبارك بن فضالة مدلس ومتكلم فيه أيضًا ، لكن للحديث شواهد يُحسن بها . المبارك يحسن حديثه في مثل هذا الموطن ، وانظر مسند الإمام أحمد (٤/ ١٩٣ - ١٩٤) ، (٢/ ١٨٥) .

(٧) البخاري (٥٧٨٨) .

فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))(١).

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا خَلْقَهُ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِأَنَّهُ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ نُجُومٍ يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، وَمَا يَخْلُقُ فِيهَا مِنْ سَحَابٍ وَأَمْطَارٍ وَثَلْجٍ وَبَرَدٍ ، وَجَعْلُهُ إِيَّاهَا لَهُمْ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَمَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَرَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ وَإِزَاحَةِ الشُّبَهِ وَالْعِلَلِ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ مَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ أَيْ : فِي تَوْحِيدِهِ ، وَإِرْسَالِهِ الرُّسُلَ ، وَمُجَادَلَتِهِ فِي ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ حُجَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَلَا كِتَابٍ مَأْثُورٍ صَحِيحٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أَيْ : مُبِينٍ مُضِيءٍ .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أَيْ : لِهَؤُلَاءِ الْمُجَادِلِينَ فِي تَوْحِيدِ اللهِ : ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُطَهَّرَةِ ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أَيْ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا اتِّبَاعَ الْآبَاءِ الْأَقْدَمِينَ ، قَالَ اللهُ : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أَيْ : فَمَا ظَنُّكُمْ أَيُّهَا الْمُحْتَجُّونَ بِصَنِيعِ آبَائِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ وَأَنْتُمْ خَلَفٌ لَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ

---

(١) مسلم (٢٠٨٨) .

وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ، أَيْ : أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلَ ، وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ ، وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيْ : فِي عَمَلِهِ : بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أُمِرَ ، وَتَرْكُ مَا عَنْهُ زُجِرَ ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أَيْ : فَقَدْ أَخَذَ مَوْثِقًا مِنَ الله مَتِينًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ أَيْ : لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ فِي كُفْرِهِمْ بِالله وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَإِنَّ قَدَرَ الله نَافِذٌ فِيهِمْ ، وَإِلَى الله ﴿ مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ﴾ أَيْ : فَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ ﴿ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أَيْ : نُلْجِئُهُمْ ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أَيْ : فَظِيعٍ صَعْبٍ شَاقٍّ عَلَى النُّفُوسِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] ﴿ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٧٠]

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ : أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ الله خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاءَ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلْقٌ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَيْ : إِذَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِاعْتِرَافِكُمْ ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : هُوَ خَلْقُهُ وَمُلْكُهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أَيْ : الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ ، لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى مَا خَلَقَ وَشَرَّعَ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا .

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَجَلَالِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ ، وَلَا اطِّلَاعَ لِبَشَرٍ عَلَى كُنْهِهَا وَإِحْصَائِهَا ، كَمَا قَالَ سَيِّدُ الْبَشَرِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ : « **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** »[1] ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ أَشْجَارِ الْأَرْضِ جُعِلَتْ أَقْلَامًا ، وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا وَأَمَدَّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَعَهُ ، فَكُتِبَتْ بِهَا كَلِمَاتُ اللهِ الدَّالَّةُ عَلَى عَظَمَتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَلَالِهِ لَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ ، وَنَفِدَ مَاءُ الْبَحْرِ ، وَلَوْ جَاءَ أَمْثَالُهَا مَدَدًا .

وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ « **السَّبْعَةُ** » عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ وَلَمْ يُرِدِ الْحَصْرَ ، وَلَا أَنَّ ثَمَّ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَوْجُودَةٌ تُحِيطُ بِالْعَالَمِ ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ تَلَقَّاهُ مِنْ كَلَامِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ الَّتِي لَا تُصَدَّقُ وَلَا تُكَذَّبُ ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ آخَرُ فَقَطْ بَلْ بِمِثْلِهِ ثُمَّ بِمِثْلِهِ ثُمَّ بِمِثْلِهِ ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا ؛ لِأَنَّهُ لَا حَصْرَ لِآيَاتِ اللهِ وَكَلِمَاتِهِ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : لَوْ جُعِلَ شَجَرُ الْأَرْضِ أَقْلَامًا وَجُعِلَ الْبَحْرُ مِدَادًا ، وَقَالَ اللهُ : إِنَّ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَمِنْ أَمْرِي كَذَا لَنَفِدَ مَا فِي الْبُحُورِ ، وَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّمَا هَذَا كَلَامٌ يُوشِكُ أَنْ يَنْفَدَ ، **فَقَالَ اللهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ أَيْ : لَوْ كَانَ شَجَرُ الْأَرْضِ أَقْلَامًا وَمَعَ الْبَحْرِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا كَانَ لِتَنْفَدَ عَجَائِبُ رَبِّي وَحِكْمَتُهُ وَخَلْقُهُ وَعِلْمُهُ .

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَالْأَشْجَارُ كُلُّهَا أَقْلَامًا ،

(١) مسلم (حديث ٤٨٦) .

لانْكَسَرَتِ الْأَقْلَامُ ، وَفَنِيَ مَاءُ الْبَحْرِ وَبَقِيَتْ كَلِمَاتُ الله قَائِمَةً لَا يُفْنِيهَا شَيْءٌ ؛ لأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْدُرَ قَدْرَهُ ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُثْنِي عَلَى نَفْسِهِ ، إِنَّ رَبَّنَا كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيْ : عَزِيزٌ قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، فَلَا مَانِعَ لِمَا أَرَادَ وَلَا مُخَالِفَ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرْعِهِ وَجَمِيعِ شُئُونِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أَيْ : مَا خَلْقُ جَمِيعِ النَّاسِ وَبَعْثُهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ - إِلَّا كَنِسْبَةِ خَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، الْجَمِيعُ هَيِّنٌ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس ٨٢] ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أَيْ : لَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكَرُّرِهِ وَتَوْكِيدِهِ ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : كَمَا هُوَ سَمِيعٌ لِأَقْوَالِهِمْ بَصِيرٌ بِأَفْعَالِهِمْ كَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، كَذَلِكَ قُدْرَتُهُ عَلَيْهِمْ كَقُدْرَتِهِ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الْآيَةَ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾ يَعْنِي : يَأْخُذُ مِنْهُ فِي النَّهَارِ فَيَطُولُ ذَاكَ وَيَقْصُرُ هَذَا ، وَهَذَا يَكُونُ زَمَنُ الصَّيْفِ يَطُولُ النَّهَارُ إِلَى الْغَايَةِ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ فَيَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي الشِّتَاءِ ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ **قِيلَ** : إِلَى غَايَةٍ مَحْدُودَةٍ ، **وَقِيلَ** : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،

وَكِلَا المَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ ، وَيُسْتَشْهَدُ لِلْقَوْلِ الأَوَّلِ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**يَا أَبَا ذَرٍّ ! أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟**)) قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ((**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ رَبَّهَا فَيُوشِكُ أَنْ يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ**))[1].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يُظْهِرُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِتَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَيْ : الْمَوْجُودُ الْحَقُّ الْإِلَهُ الْحَقُّ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ فَإِنَّهُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ؛ لأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْجَمِيعُ خَلْقُهُ وَعَبِيدُهُ ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى تَحْرِيكِ ذَرَّةٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَوِ اجْتَمَعَ كُلُّ أَهْلِ الْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا لَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] أَيْ : الْعَلِيُّ الَّذِي لَا أَعْلَى مِنْهُ ، الْكَبِيرُ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَكُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ حَقِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ فِيهِ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، أَيْ : بِلُطْفِهِ وَتَسْخِيرِهِ ، فَإِنَّهُ لَوْلَا مَا جَعَلَ فِي الْمَاءِ مِنْ قُوَّةٍ يَحْمِلُ بِهَا السُّفُنَ لَمَا جَرَتْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ أَيْ : مِنْ قُدْرَتِهِ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيْ :

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٩) ، ومسلم (١٥٩) .

صَبَّارٌ فِي الضَّرَّاءِ، شَكُورٌ فِي الرَّخَاءِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أَيْ: كَالْجِبَالِ وَالْغَمَامِ ﴿ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ**: أَيْ: كَافِرٌ، كَأَنَّهُ فَسَّرَ الْمُقْتَصِدَ هَهُنَا بِالْجَاحِدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ**: هُوَ الْمُتَوَسِّطُ فِي الْعَمَلِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فَالْمُقْتَصِدُ هَهُنَا هُوَ الْمُتَوَسِّطُ فِي الْعَمَلِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا هُنَا أَيْضًا، وَيَكُونُ مِنْ بَابِ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ شَاهَدَ تِلْكَ الْأَهْوَالَ وَالْأُمُورَ الْعِظَامَ وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ بَعْدَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْخَلَاصِ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَابِلَ ذَلِكَ بِالْعَمَلِ التَّامِّ وَالدُّءُوبِ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، فَمَنِ اقْتَصَدَ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ مُقَصِّرًا وَالْحَالَةُ هَذِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ فَالْخَتَّارُ هُوَ: الْغَدَّارُ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ الَّذِي كُلَّمَا عَاهَدَ نَقَضَ عَهْدَهُ، وَالْخَتْرُ: أَتَمُّ الْغَدْرِ وَأَبْلَغُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ كَفُورٍ ﴾ أَيْ: جَحُودٌ لِلنِّعَمِ لَا يَشْكُرُهَا، بَلْ يَتَنَاسَاهَا وَلَا يَذْكُرُهَا.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْذِرًا لِلنَّاسِ يَوْمَ الْمَعَادِ وَآمِرًا لَهُمْ بِتَقْوَاهُ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ أَيْ: لَوْ أَرَادَ أَنْ يَفْدِيَهُ بِنَفْسِهِ لَمَا قُبِلَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الْوَلَدُ لَوْ أَرَادَ فِدَاءَ وَالِدِهِ بِنَفْسِهِ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُ. ثُمَّ عَادَ بِالْمَوْعِظَةِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ: لَا تُلْهِيَنَّكُمْ بِالطُّمَأْنِينَةِ فِيهَا

عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ يَعْنِي : الشَّيْطَانُ . فَإِنَّهُ يَغُرُّ ابْنَ آدَمَ وَيَعِدُهُ وَيُمَنِّيهِ ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠]

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ تَعَالَى بِعِلْمِهَا ، فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ إِعْلَامِهِ تَعَالَى بِهَا ، فَعِلْمُ وَقْتِ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وَكَذَلِكَ إِنْزَالُ الْغَيْثِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِهِ عَلِمَتْهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَكَذَلِكَ لَا يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ تَعَالَى سِوَاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، أَوْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا ، عَلِمَ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ ، وَمَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ . وَكَذَلِكَ لَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا فِي دُنْيَاهَا وَأُخْرَاهَا ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أَفِي بَلَدِهَا أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللهِ كَانَ ، لَا عِلْمَ لِأَحَدٍ بِذَلِكَ ، وَهَذِهِ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِتَسْمِيَةِ هَذِهِ الْخَمْسِ مَفَاتِيحَ الْغَيْبِ .

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ »[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ : مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ « **الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ** » قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْإِسْلَامُ ؟ قَالَ :

---

(١) البخاري (٧٣٧٩) بنحوه ، وقد تقدم .

« **الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ** » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ « **الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : « **مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا : إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا ، وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ الآيَة . ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ ، فَقَالَ : « **رُدُّوهُ عَلَيَّ** » فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ : « **هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : أَشْيَاءُ اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِنَّ فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِنَّ مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ فَلَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ ؟ فِي أَيِّ سَنَةٍ ، أَوْ فِي أَيِّ شَهْرٍ ، أَوْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ؟ ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى يَنْزِلُ الْغَيْثُ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ؟ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا فِي الأَرْحَامِ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى أَحْمَرُ أَوْ أَسْوَدُ ؟ وَمَا هُوَ ؟ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أَخَيْرٌ أَمْ شَرٌّ ؟ وَلَا تَدْرِي يَا ابْنَ آدَمَ مَتَى تَمُوتُ ، لَعَلَّكَ المَيِّتُ غَدًا ، لَعَلَّكَ المُصَابُ غَدًا ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أَيْ : لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَدْرِي أَيْنَ مَضْجَعُهُ مِنَ الأَرْضِ أَفِي بَحْرٍ أَمْ بَرٍّ أَوْ سَهْلٍ أَوْ جَبَلٍ ؟ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ لُقْمَانَ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوفِيقُ وَالعِصْمَةُ

---

(١) البخاري (حديث ٤٧٧٧) ، مسلم (حديث ٩) .

تفسير سورة [الم] السجدة

وهي مكية

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ﴾ السَّجْدَة ، وَ ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣

قَدْ تَقَدَّمَ الكَلامُ على الحُرُوفِ المُتَقَطِّعَةِ في أَوَّلِ « سُورَةِ البَقَرةِ » بما أَغْنَى عَنْ إعادَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أَيْ : لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ أَنَّهُ نَزَلَ ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ** : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أَيْ : اِخْتَلَقَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أَيْ : يَتَّبِعُونَ الْحَقَّ .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ ، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلامُ عَلَى ذَلِكَ . ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أَيْ : بَلْ هُوَ المَالِكُ لِأَزِمَّةِ الْأُمُورِ ، الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، المُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ،

---

(١) البخاري (٨٩١) ، ومسلم (٨٨٠) .

الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا وَلِي لِخَلْقِهِ سِوَاهُ ، وَلَا شَفِيعَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يَعْنِي : أَيُّهَا الْعَابِدُونَ غَيْرَهُ ، الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى مَنْ عَدَاهُ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرٍ أَوْ شَرِيكٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ نَدِيدٌ أَوْ عَدِيلٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أَيْ يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَى السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَى تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢]، وَتُرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلَى دِيوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَسُمْكُ السَّمَاءِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ . **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : النُّزُولُ مِنَ الْمَلَكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَصُعُودُهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى**: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ أَيْ : الْمُدَبِّرُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ ، الَّذِي هُوَ شَهِيدٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ يَرْفَعُ إِلَيْهِ جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا ، وَصَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، هُوَ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلَّ شَيْءٍ فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ ، وَدَانَتْ لَهُ الْعِبَادُ وَالرِّقَابُ ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهُوَ عَزِيزٌ فِي رَحْمَتِهِ رَحِيمٌ فِي عِزَّتِهِ .

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا وَأَحْكَمَهَا . **عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ قَالَ : أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُ مِنَ الْمُقَدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ . ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَرَعَ فِي ذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ **فَقَالَ تَعَالَى**: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ يَعْنِي : خَلَقَ أَبَا الْبَشَرِ آدَمَ مِنْ طِينٍ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ أَيْ : يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُطْفَةٍ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ ﴾ يَعْنِي : آدَمَ لَمَّا خُلِقَ مِنْ

تُرَابٍ خَلَقَهُ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ يَعْنِي : الْعُقُولَ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : بِهَذِهِ الْقُوَى الَّتِي رَزَقَكُمُوهَا اللهُ ﷻ ، فَالسَّعِيدُ مَنِ اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِ ﷻ .

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي اسْتِبْعَادِهِمُ الْمَعَادَ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : تَمَزَّقَتْ أَجْسَامُنَا وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ ﴿ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيْ : أَئِنَّا لَنَعُودُ بَعْدَ تِلْكَ الْحَالِ ؟ يَسْتَبْعِدُونَ تِلْكَ الْحَالَ ، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعِيدٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدَرِهِمُ الْعَاجِزَةِ لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي بَدَأَهُمْ وَخَلَقَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ، الَّذِي إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ فِي « سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ » ، وَقَدْ سُمِّيَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ بِعِزْرَائِيلَ وَهُوَ الْمَشْهُورُ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَلَهُ أَعْوَانٌ ، وَهَكَذَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَعْوَانَهُ يَنْتَزِعُونَ الْأَرْوَاحَ مِنْ سَائِرِ الْجَسَدِ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ، تَنَاوَلَهَا مَلَكُ الْمَوْتِ . ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ مَعَادِكُمْ وَقِيَامِكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ لِجَزَائِكُمْ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالِهِمْ حِينَ عَايَنُوا الْبَعْثَ، وَقَامُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ ﴿ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ أَيْ: مِنَ الْحَيَاءِ وَالْخَجَلِ، يَقُولُونَ: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أَيْ: نَحْنُ الْآنَ نَسْمَعُ قَوْلَكَ وَنُطِيعُ أَمْرَكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾[مريم: ٣٨]، وَكَذَلِكَ يَعُودُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ بِقَوْلِهِمْ ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك: ١٠]، وَهَكَذَا هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا ﴾ أَيْ: إِلَى الدُّنْيَا ﴿ نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أَيْ: قَدْ أَيْقَنَّا وَتَحَقَّقْنَا فِيهَا أَنَّ وَعْدَكَ حَقٌّ وَلِقَاءَكَ حَق، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ تَعَالَى مِنْهُمْ أَنَّهُ لَوْ أَعَادَهُمْ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا لَكَانُوا كَمَا كَانُوا فِيهَا كُفَّارًا يُكَذِّبُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيُخَالِفُونَ رُسُلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾[الأنعام: ٢٧]

وَقَالَ هَهُنَا: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾[يونس: ٩٩] ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أَيْ: مِنَ الصِّنْفَيْنِ، فَدَارُهُمُ النَّارُ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيصَ لَهُمْ مِنْهَا، نَعُوذُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ﴾ أَيْ: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ: ذُوقُوا الْعَذَابَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِكُمْ بِهِ، وَاسْتِبْعَادِكُمْ وُقُوعَهُ، وَتَنَاسِيكُمْ لَهُ، إِذَا عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلَةَ مَنْ هُوَ نَاسٍ لَهُ ﴿ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ أَيْ: سَنُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ النَّاسِي؛ لأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْسَى شَيْئًا وَلَا يَضِلُّ عَنْهُ شَيْءٌ بَلْ مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[الجاثية: ٣٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[النبأ: ٢٤- ٣٠]

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ

يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يُصَدِّقُ بِهَا ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا ﴾ أَيْ: اِسْتَمَعُوا لَهَا وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ عَنِ اتِّبَاعِهَا وَالانْقِيَادِ لَهَا، كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهَلَةُ مِنَ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى**: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ يَعْنِي ذَلِكَ: قِيَامَ اللَّيْلِ وَتَرْكَ النَّوْمِ وَالِاضْطِجَاعِ عَلَى الْفُرُشِ الْوَطِيئَةِ، **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ**: هُوَ الصَّلَاةُ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ، **وَقِيلَ**: هُوَ انْتِظَارُ صَلَاةِ الْعَتَمَةِ.

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ أَيْ: خَوْفًا مِنْ وَبَالِ عِقَابِهِ، وَطَمَعًا فِي جَزِيلِ ثَوَابِهِ ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ فِعْلِ الْقُرُبَاتِ اللَّازِمَةِ وَالْمُتَعَدِّيَةِ، وَمُقَدَّمُ هَؤُلَاءِ وَسَيِّدُهُمْ وَفَخْرُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ رَوَاحَةَ ﷺ:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ(١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ ثَارَ مِنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحَيِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ وَمِنْ بَيْنِ حَيِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، وَرَجُلٌ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي**

(١) إسناده حسن: وإن كان في سماع حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب خلاف، لكن الراجح فى سماعه منه قبل الاختلاط، والله أعلم. والحديث أخرجه أحمد (١/ ٤١٦).

حَتَّى أُهْرِيقَ دَمَهُ)) .

وَعَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ[١] قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ الله أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدنِي مِنَ النَّارِ قَالَ : ((**لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمِ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُوم رَمَضَانَ ، وَتَحُجّ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ - ثُمَّ قَرَأَ** ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ - **حَتَّى بَلَغَ** - ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ((**أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ ، وَعَمُودِهِ ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟**)) فَقُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ : ((**رَأْسُ الْأَمْرِ : الْإِسْلَامُ ، وَعَمُودُهُ : الصَّلَاةُ ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله**)) ثُمَّ قَالَ : ((**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ ؟**)) فَقُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ الله ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ((**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**)) فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : ((**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** أَوْ قَالَ **عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الْآيَة . أَيْ : فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ ، عَظَمَةَ مَا أَخْفَى اللهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَاللَّذَّاتِ الَّتِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ ، لَمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالَهُمْ أَخْفَى اللهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ جَزَاءً وِفَاقًا ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . **قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : أَخْفَى قَوْمٌ عَمَلَهُمْ فَأَخْفَى اللهُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : ((**قَالَ اللهُ تَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**))[٢] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ - قَالَ حَمَّادٌ : أَحْسِبُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ : ((**مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**

---

(١) صحيح بجموع طرقه : وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) ، والترمذي (٢٦١٦) .

(٢) البخاري (٤٧٧٩) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

يُنَعَّمُ لَا يَبْأَسُ لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ))(١).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ : شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ ((فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))(٢) ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ .

وَعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((سَأَلَ مُوسَى عليه السلام رَبَّهُ ﷻ : مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ : أُدْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ كَيْفَ ؟ وَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ ، فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، قَالَ : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدَيَّ ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، قَالَ : وَمِصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ ﷻ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٣) الْآيَةَ .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) مسلم (٢٨٣٦) .
(٢) مسلم (٢٨٢٥) .
(٣) مسلم (حديث ١٩٨) .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَدْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يُسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِهِ بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا، أَيْ: خَارِجًا عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، مُكَذِّبًا لِرُسُلِهِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الحشر : ٢٠]، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا**: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ أَيْ: عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أَيْ: صَدَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ، وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا، وَهِيَ الصَّالِحَاتُ ﴿ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ أَيْ: الَّتِي فِيهَا الْمَسَاكِنُ وَالدُّورُ وَالْغُرَفُ الْعَالِيَةُ ﴿ نُزُلًۢا ﴾ أَيْ: ضِيَافَةً وَكَرَامَةً ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ ﴾ أَيْ: خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢]. **قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ**: وَاللهِ إِنَّ الْأَيْدِي لَمُوثَقَةٌ، وَإِنَّ الْأَرْجُلَ لَمُقَيَّدَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَبَ لَيَرْفَعُهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ تَقْمَعُهُمْ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ**: يَعْنِي بِالْعَذَابِ الْأَدْنَى مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَأَسْقَامِهَا وَآفَاتِهَا، وَمَا يَحِلُّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ، **عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ**[1] فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ قَالَ: الْقَمَرُ وَالدُّخَانُ قَدْ مَضَيَا، وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ. **قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ**: لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ بِمَكَّةَ إِلَّا دَخَلَهُ الْحُزْنُ عَلَى قَتِيلٍ لَهُمْ أَوْ أَسِيرٍ، فَأُصِيبُوا أَوْ غَرِمُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ جُمِعَ لَهُ الْأَمْرَانِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ أَيْ: لَا أَظْلَمَ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٢٨) واللفظ له، ومسلم (حديث ٢٧٩٩) بنحوه.

مِمَّنْ ذَكَّرَهُ اللهُ بِآيَاتِهِ وَبَيَّنَهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهَا . **قَالَ قَتَادَةُ** : إِيَّاكُمْ وَالْإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ فَقَدِ اغْتَرَّ أَكْبَرَ الْغِرَّةِ ، وَأَعْوَزَ أَشَدَّ الْعَوَزِ ، وَعِظَمَ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أَيْ : سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدَّ الانْتِقَامِ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام إِنَّهُ آتَاهُ الْكِتَابَ ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : يَعْنِي بِهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أُرِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ رَجُلًا آدَمَ طُوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، سَبِطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ** » فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللهُ إِيَّاهُ ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ »(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قَالَ : جُعِلَ مُوسَى هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴾ قَالَ : « **مِنْ لِقَاءِ مُوسَى رَبَّهُ** عز وجل » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ أَيْ : الْكِتَابَ الَّذِي آتَيْنَاهُ مُوسَى ﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾[الإسراء : ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ : لَمَّا كَانُوا صَابِرِينَ عَلَى أَوَامِرِ اللهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ، وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ ،

---

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٢٣٩) ، ومسلم (حديث١٦٥) بنحوه .

وَاتِّبَاعِهِمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ ، كَانَ مِنْهُمْ أَئِمَّةٌ يَهْدُونَ إِلَى الْحَقِّ بِأَمْرِ اللهِ وَيَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَحَرَّفُوا وَأَوَّلُوا سُلِبُوا ذَلِكَ الْمَقَامَ ، وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، فَلَا عَمَلَ صَالِحًا وَلَا اعْتِقَاد صَحِيحًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ **قِيلَ** : لَمَّا صَبَرُوا عَنِ الدُّنْيَا ، **قَالَ سُفْيَانُ** : هَكَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ ، وَلَا يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ حَتَّى يَتَحَامَى عَنِ الدُّنْيَا ، **قَالَ وَكِيعٌ** : **قَالَ سُفْيَانُ** : لَا بُدَّ لِلدِّينِ مِنَ الْعِلْمِ ، كَمَا لَا بُدَّ لِلْجَسَدِ مِنَ الْخُبْزِ . **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ [الجاثية : ١٦-١٧] . أَيْ : مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : أَوَلَمْ يَهْدِ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ مَا أَهْلَكَ اللهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيمِ السُّبُلِ فَلَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ وَلَا عَيْنٍ وَلَا أَثَرٍ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ أَيْ : وَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِ أُولَئِكَ الْمُكَذِّبِينَ فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا وَيَعْمُرُهَا ، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] كَمَا قَالَ : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ [النمل : ٥٢] ، وَقَالَ : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَٰكِن

تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج : ٤٥-٤٦] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي ذَهَابِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَدَمَارِهِمْ وَمَا حَلَّ بِهِمْ ، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ، وَنَجَاةِ مَنْ آمَنَ بِهِمْ لَآيَاتٍ وَعِبَرًا وَمَوَاعِظ وَدَلَائِل مُتَنَاظِرَةً ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أَيْ : أَخْبَارَ مَنْ تَقَدَّمَ كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُمْ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ يُبَيِّنُ تَعَالَى لُطْفَهُ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانه إِلَيْهِمْ فِي إِرْسَالِهِ الْمَاءَ ، إِمَّا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ مِنَ السَّيْحِ ، وَهُوَ مَا تَحْمِلُهُ الْأَنْهَارُ وَيَتَحَدَّرُ مِنَ الْجِبَالِ إِلَى الْأَرَاضِي الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهِ فِي أَوْقَاتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ ، وَهِيَ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[الكهف : ٨] أَيْ : يَبَسًا لَا تُنْبِتُ شَيْئًا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾ أَرْضِ مِصْرَ فَقَطْ ، بَلْ هي بَعْضُ الْمَقْصُودِ ، وَإِنْ مَثَّلَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَلَيْسَتْ هِيَ الْمَقْصُودَةُ وَحْدَهَا وَلَكِنَّهَا مُرَادَةٌ قَطْعًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهَا فِي نَفْسِهَا أَرْضٌ رِخْوَةٌ غَلِيظَةٌ تَحْتَاجُ مِنَ الْمَاءِ مَا لَوْ نَزَلَ عَلَيْهَا مَطَرًا لَتَهَدَّمَتْ أَبْنِيَتُهَا ، فَيَسُوقُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا النِّيل بِمَا يَتَحَمَّلُهُ مِنَ الزِّيَادَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ أَمْطَارِ بِلَادِ الْحَبَشَةِ ، وَفِيهِ طِينٌ أَحْمَرُ ، فَيَغْشَى أَرْضَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ مُرْمِلَةٌ مُحْتَاجَةٌ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ ، وَذَلِكَ الطِّين أَيْضًا ؛ لِيَنْبُتَ الزَّرْعُ فِيهِ ، فَيَسْتَغِلُّونَ كُلَّ سَنَةٍ عَلَى مَاءٍ جَدِيدٍ مَمْطُورٍ فِي غَيْرِ بِلَادِهِمْ ، وَطِينٍ جَيِّدٍ مِنْ غَيْرِ أَرْضِهِمْ ، فَسُبْحَانَ الْحَكِيمُ الْكَرِيمُ الْمَنَّانُ الْمَحْمُودُ ابتداءً .

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾[عبس : ٢٤-٢٥] ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْأَرْضُ الْجُرُزُ : الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ، وَهِيَ مُغْبَرَّةٌ .

قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا ﴾[يس : ٣٣] الْآيَتَيْنِ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ اسْتِعْجَالِ الْكُفَّارِ ، وَوُقُوعِ بَأْسِ اللهِ بِهِمْ ، وَحُلُولِ غَضَبِهِ وَنِقْمَتِهِ عَلَيْهِمُ اسْتِبْعَادًا وَتَكْذِيبًا وَعِنَادًا ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ ﴾ أَيْ : مَتَى تُنْصَرُ عَلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ ؟ كَمَا تَزْعُمُ أَنَّ لَكَ وَقْتًا تُدَالُ عَلَيْنَا وَيُنْتَقَمُ لَكَ مِنَّا ، فَمَتَى يَكُونُ هَذَا ؟ مَا نَرَاكَ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ إِلَّا مُخْتَفِينَ خَائِفِينَ ذَلِيلِينَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ﴾ أَيْ : إِذَا حَلَّ بِكُمْ بَأْسُ اللهِ وَسَخَطُهُ وَغَضَبُهُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر : ٨٣] الْآيَتَيْنِ . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا الْفَتْحِ فَتْحُ مَكَّةَ فَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ وَأَخْطَأَ فَأَفْحَشَ ، فَإِنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ قَدْ قَبِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِسْلَامَ الطُّلَقَاءِ ، وَقَدْ كَانُوا قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْنِ ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ فَتْحَ مَكَّةَ لَمَا قَبِلَ إِسْلَامَهُمْ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ : الْفَتْحُ الَّذِي هُوَ الْقَضَاءُ وَالْفَصْلُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أَيْ : أَعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَبَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦] ، وَانْتَظِرْ فَإِنَّ اللهَ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، وَسَيَنْصُرُكَ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتَ مُنْتَظِرٌ وَهُمْ مُنْتَظِرُونَ وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وَسَتَرَى أَنْتَ عَاقِبَةَ صَبْرِكَ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى أَدَاءِ رِسَالَةِ اللهِ فِي نُصْرَتِكَ وَتَأْيِيدِكَ ، وَسَيَجِدُونَ غِبَّ مَا يَنْتَظِرُونَهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ ، مِنْ وَبِيلِ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ وَحُلُولِ عَذَابِهِ بِهِمْ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ السَّجْدَةِ وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفْسِيرُ سُورَةِ الأحْزابِ
وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ

أَخْرَجَ الإِمَامُ أَحْمَدُ[1] عَنْ زِرٍّ قَالَ : قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ : ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً ، فَقَالَ : قَطُّ لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ « سُورَةَ الْبَقَرَةِ » ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا : « **الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

هَذَا تَنْبِيهٌ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى ، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُرُ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ بِهَذَا فَلَأَنْ يَأْتَمِرَ مَنْ دُونَهُ بِذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ، **وَقَدْ قَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ** : التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ مَخَافَةَ عَذَابِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ أَيْ : لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَيْ : فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَتُطِيعَهُ ، فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أَيْ : مِنْ قُرْآنٍ وَسُنَّةٍ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أَيْ : فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، أَيْ : فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ وَأَحْوَالِكَ ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَيْ : وَكَفَى بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ .

---

(١) **سنده حسن**: أخرجه أحمد في المسند (٥ / ١٣٢) .

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُوَطِّئًا قَبْلَ الْمَقْصُودِ الْمَعْنَوِيِّ أَمْرًا مَعْرُوفًا حِسِّيًّا ، وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لَا يَكُونُ لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ فِي جَوْفِهِ ، وَلَا تَصِيرُ زَوْجَتُهُ الَّتِي يُظَاهِرُ مِنْهَا بِقَوْلِهِ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، أُمًّا لَهُ ، كَذَلِكَ لَا يَصِيرُ الدَّعِيُّ وَلَدًا لِلرَّجُلِ إِذَا تَبَنَّاهُ فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ ، **فَقَالَ** : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالنَّفْيِ ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ تَبَنَّاهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ : زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، فَأَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَقْطَعَ هَذَا الْإِلْحَاقَ وَهَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، **وَقَالَ هَهُنَا** : ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ ، **يَعْنِي** : تَبَنِّيكُمْ لَهُمْ قَوْلٌ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ابْنًا حَقِيقِيًّا ، فَإِنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ صُلْبِ رَجُلٍ آخَرَ ، فَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَبَوَانِ ، كَمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلْبَشَرِ الْوَاحِدِ قَلْبَانِ ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ **قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : الْعَدْلَ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** ﴿ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ أَيْ : الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، **وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَ يُقَالُ لَهُ « **ذُو الْقَلْبَيْنِ** » ، **وَأَنَّهُ** كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ قَلْبَيْنِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا بِعَقْلٍ وَافِرٍ ، **فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ رَدًّا عَلَيْهِ** .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ هَذَا أَمْرٌ نَاسِخٌ لِمَا كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ جَوَازِ ادِّعَاءِ الْأَبْنَاءِ الْأَجَانِبِ ، وَهُمُ الْأَدْعِيَاءُ ، فَأَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَدِّ نَسَبِهِمْ إِلَى آبَائِهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَأَنَّ هَذَا هُوَ الْعَدْلُ وَالْقِسْطُ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ(١) **قَالَ** : إِنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، وَقَدْ كَانُوا يُعَامِلُونَهُمْ مُعَامَلَةَ الْأَبْنَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فِي الْخَلْوَةِ بِالْمَحَارِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَتْ سَهْلَةُ بِنْتُ سُهَيْلٍ امْرَأَةُ أَبِي حُذَيْفَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا كُنَّا نَدْعُو سَالِمًا ابْنًا ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَ مَا أَنْزَلَ ، وَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَإِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِ أَبِي حُذَيْفَةَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَقَالَ ﷺ : ((**أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ**)) الْحَدِيث(٢).

وَلِهَذَا لَمَّا نُسِخَ هَذَا الْحُكْمُ أَبَاحَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - زَوْجَةَ الدَّعِيِّ ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، مُطَلَّقَةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] احْتِرَازًا عَنْ زَوْجَةِ الدَّعِيِّ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصُّلْبِ .

فَأَمَّا الِابْنُ مِنَ الرَّضَاعَةِ فَمُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ ابْنِ الصُّلْبِ شَرْعًا ، بِقَوْلِهِ ﷺ فِي الصَّحِيحَيْنِ ((**حَرِّمُوا مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يُحَرَّمُ مِنَ النَّسَبِ**))(٣).

أَمَّا دَعْوَةُ الْغَيْرِ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ التَّكْرِيمِ وَالتَّحْبِيبِ فَلَيْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . بِدَلِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**يَا بُنَيَّ**))(٤).

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِرَدِّ أَنْسَابِ الْأَدْعِيَاءِ إِلَى آبَائِهِمْ - إِنْ عُرِفُوا - فَإِنْ لَمْ يُعْرَفُوا فَهُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيهِمْ ، أَيْ : عِوَضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنَ النَّسَبِ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ

---

(١) البخاري (٤٧٨٢) ، ومسلم (٢٤٢٥) .
(٢) مسلم (حديث ١٤٥٣) .
(٣) البخاري (٥٠٩٩) ، (٢٦٤٥) ، ومسلم (١٤٤٤) بنحوه ، وانظر المسند (٦ / ٧٢) .
(٤) مسلم (٢١٥١) .

خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ عَامَ عُمْرَةِ الْقَضَاءِ ، وَتَبِعَتْهُمُ ابْنَةُ حَمْزَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تُنَادِي : يَا عَمِّ يَا عَمِّ ، فَأَخَذَهَا عَلِيٌّ ﷺ وَقَالَ لِفَاطِمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - : دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ فَاحْتَمِلِيهَا ، فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ ﷺ فِي أَيِّهِمْ يَكْفُلُهَا ، فَكُلٌّ أَدْلَى بِحُجَّتِهِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ : أَنَا أَحَقُّ بِهَا ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي ، وَقَالَ زَيْدٌ : ابْنَةُ أَخِي ، وَقَالَ جَعْفَرُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ : ابْنَةُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي - يَعْنِي أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ - فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ : ((**الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ**)) ، وَقَالَ لِعَلِيٍّ ﷺ : ((**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ**)) وَقَالَ لِجَعْفَرٍ ﷺ : ((**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**)) وَقَالَ لِزَيْدٍ ﷺ : ((**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**))[1] ، فَفِي هَذَا الحَدِيثِ أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ : مِنْ أَحْسَنِهَا أَنَّهُ ﷺ حَكَمَ بِالْحَقِّ ، وَأَرْضَى كُلًّا مِنَ الْمُتَنَازِعِين ، وَقَالَ لِزَيْدٍ ﷺ : ((**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا**)) ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ ، **وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ** ﷺ : قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ فَأَنَا مِمَّنْ لَا يُعْرَفُ أَبُوهُ ، فَأَنَا مِنْ إِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : ((**مَنِ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ**))[2] ، وَهَذَا تَشْدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ فِي التَّبَرِّي مِنَ النَّسَبِ المَعْلُومِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ أَيْ : إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضَهُمْ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ خَطَأً بَعْدَ الِاجْتِهَادِ وَاسْتِفْرَاغِ الْوُسْعِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ الْحَرَجَ فِي الْخَطَأِ وَرَفَعَ إِثْمَهُ ، كَمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ أَنْ يَقُولُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**قَالَ اللهُ ﷻ : قَدْ فَعَلْتُ**))[3].

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[4] عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**إِذَا**

---

(١) البخاري (حديث ٢٦٩٩) .

(٢) البخاري (٣٥٠٨) بنحوه ، ومسلم (حديث ٦١) بنحوه أيضًا .

(٣) صحيح : وقد تقدم .

(٤) البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) .

اِجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِنِ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ)) .

وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ : ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وما يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ**))(١). وَقَالَ هَهُنَا ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : وَإِنَّمَا الإِثْمُ عَلَى مَنْ تَعَمَّدَ البَاطِلَ كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥]، وَفِي الحَدِيثِ المُتَقَدِّمِ : ((**مَنِ ادَّعَى لغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ**)) ، وَفِي القُرْآنِ المَنْسُوخِ : ((**فَإِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ**)) . فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٢) ﷺ عَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا بِالحَقِّ وَأَنْزَلَ مَعَهُ الكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ ، فَرَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ . ثُمَّ قَالَ : قَدْ كُنَّا نَقْرَأُ ((وَلَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ - أَوْ : إِنَّ كُفْرًا - أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ)) وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** عليه السلام ، **فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**)) ، وَرُبَّمَا قَالَ ((**كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**)) .

ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

قَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى شَفَقَةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَنُصْحِهِ لَهُمْ ، فَجَعَلَهُ أَوْلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحُكْمُهُ فِيهِمْ كَانَ مُقَدَّمًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]، وَفِي الصَّحِيحِ : ((**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**))(٣) ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ عُمَرَ ﷺ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ

---

(١) صحيح لشواهده: وقد تقدم .

(٢) صحيح: وقد تقدم في سورة النور ، وقد أخرجه البخاري (٦٨٣٠) .

(٣) البخاري (حديث ١٤) ، ومسلم (حديث ٤٤) .

شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ : ((**لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**)) فَقَالَ : يَا رَسُول الله ، وَالله لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ : ((**الْآنَ يَا عُمَرُ**))[١] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ** : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اِقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، فَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا ، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ**))[٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْحُرْمَةِ وَالِاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالْإِكْرَامِ وَالْإِعْظَامِ ، وَلَكِنْ لَا تَجُوزُ الْخَلْوَةُ بِهِنَّ ، وَلَا يَنْتَشِرُ التَّحْرِيمُ إِلَى بَنَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ ، وَإِنْ سَمَّى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بَنَاتِهِنَّ أَخَوَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا هُوَ مَنْصُوصُ الشَّافِعِيِّ فِي ((**الْمُخْتَصَرِ**)) وَهُوَ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ الْعِبَارَةِ لَا إِثْبَاتِ الْحُكْمِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ ، فَإِذَا أَتَى أَحَدُكُمُ الْغَائِطَ فَلَا يَسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرْهَا ، وَلَا يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ**)) وَكَانَ يَأْمُرُ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ ، وَيَنْهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالرِّمَّةِ[٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُولُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : فِي حُكْمِ الله ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ أَيْ : الْقَرَابَاتِ أَوْلَى بِالتَّوَارُثِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَهَذِهِ نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ التَّوَارُثِ بِالْحَلِفِ وَالْمُؤَاخَاةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ ، **كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ** : كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى بَيْنَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ[٤].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلا أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾ أَيْ : ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَبَقِيَ النَّصْرُ وَالْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْإِحْسَانُ وَالْوَصِيَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ أَيْ : هَذَا الْحُكْمُ ، وَهُوَ :

---

(١) البخاري (حديث ٦٦٣٢) .

(٢) البخاري (٤٧٨١) .

(٣) **حسن الإسناد** : أبو داود (حديث ٨) .

(٤) البخاري (٦٧٤٧) .

أَنَّ أُولِي الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ، حُكْمٌ مِنَ اللهِ مُقَدَّرٌ مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ . **قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ** ، وَإِنْ كَانَ تَعَالَى قَدْ شَرَعَ خِلَافَهُ فِي وَقْتٍ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَنْسَخُهُ إِلَى مَا هُوَ جَارٍ فِي قَدَرِهِ الْأَزَلِيِّ وَقَضَائِهِ الْقَدَرِيِّ الشَّرْعِيِّ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أُولِي الْعَزْمِ الْخَمْسَةِ وَبَقِيَّةَ الْأَنْبِيَاءِ ، أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللهِ تَعَالَى ، وَإِبْلَاغِ رِسَالَتِهِ ، وَالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ وَالِاتِّفَاقِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] ، فَهَذَا الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ أُخِذَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ إِرْسَالِهِمْ ، وَكَذَلِكَ هَذَا ، وَنَصَّ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةِ ، وَهُمْ أُولُو الْعَزْمِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ، فَذَكَرَ الطَّرَفَيْنِ وَالْوَسَطَ الْفَاتِحَ وَالْخَاتَمَ وَمَنْ بَيْنَهُمَا عَلَى التَّرْتِيبِ ، فَهَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ فَبَدَأَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْخَاتَمِ لِشَرَفِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - ثُمَّ رَتَّبَهُمْ بِحَسَبِ وُجُودِهِمْ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** : الْمِيثَاقُ الْغَلِيظُ : الْعَهْدُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : مِنْ أُمَمِهِمْ ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أَيْ : مُوجِعًا ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ، وَنَصَحُوا الْأُمَمَ وَأَفْصَحُوا لَهُمْ عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا امْتِرَاءَ ، وَإِنْ كَذَّبَهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنَ الْجَهَلَةِ وَالْمُعَانِدِينَ وَالْمَارِقِينَ وَالْقَاسِطِينَ ، فَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ ، وَمَنْ خَالَفَهُمْ فَهُوَ عَلَى الضَّلَالِ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ وَهَزْمِهِ إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَتَحَزَّبُوا وَذَلِكَ عَامَ الْخَنْدَقِ ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ . **وَقَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ وَغَيْرُهُ** : كَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ .

وَكَانَ سَبَبُ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ ، مِنْهُمْ : سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَسَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ ، وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، خَرَجُوا إِلَى مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَأَلَّبُوهُمْ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمُ النَّصْرَ وَالْإِعَانَةَ فَأَجَابُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي أَحَابِيشِهَا وَمَنْ تَابَعَهَا ، وَقَائِدُهُمْ : أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ ، وَعَلَى غَطَفَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرٍ ، وَالْجَمِيعُ قَرِيبٌ مِنْ عَشَرَةِ آلَافٍ ، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَسِيرِهِمْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّرْقَ ، وَذَلِكَ بِإِشَارَةِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ ، فَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ وَاجْتَهَدُوا ، وَنَقَلَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ التُّرَابَ ، وَحَفَرَ وَكَانَ فِي حَفْرِهِ ذَلِكَ آيَاتٌ وَدَلَائِلُ وَاضِحَاتٌ ،

وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَنَزَلُوا شَرْقِيَّ الْمَدِينَةِ قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فِي أَعَالِي أَرْضِ الْمَدِينَةِ . كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَن مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ نَحْوٌ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، وَقِيلَ : سَبْعِمِائَةٍ ، فَأَسْنَدُوا ظُهُورَهُمْ إِلَى سَلْعٍ وَوُجُوهَهُمْ إِلَى نَحْوِ الْعَدُوِّ ، وَالْخَنْدَقُ حَفِيرٌ لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ يَحْجُبُ الْخَيَّالَةَ وَالرَّجَّالَةَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَّ فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ - وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُود - لَهُمْ حِصْنٌ شَرْقَ الْمَدِينَةِ ، وَلَهُمْ عَهْدٌ مِنَ النَّبِيِّ وَذِمَّةٌ ، وَهُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَمَانِمِائَةِ مُقَاتِلٍ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيُّ فَلَمْ يَزَلْ بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا الْعَهْدَ ، وَمَالَئُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَعَظُمَ الْخَطْبُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْحَالُ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] وَمَكَثُوا مُحَاصِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ قَرِيبًا مِنْ شَهْرٍ إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ ، إِلَّا أَنَّ عَمْرو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ الْعَامِرِيَّ - وَكَانَ مِنَ الْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - رَكِبَ وَمَعَهُ فَوَارِسُ فَاقْتَحَمُوا الْخَنْدَقَ وَخَلَصُوا إِلَى نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَأَمَرَ عَلِيًّا ﷺ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ثُمَّ قَتَلَهُ عَلِيٌّ ﷺ ، فَكَانَ عَلَامَةً عَلَى النَّصْرِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ ﷻ عَلَى الْأَحْزَابِ رِيحًا شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ قَوِيَّةً ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُمْ خَيْمَةٌ وَلَا شَيْءٌ وَلَا تُوقَدُ لَهُمْ نَارٌ وَلَا يَقَرُّ لَهُمْ قَرَارٌ ، حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَهِيَ : الصَّبَا ، وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ ((**نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**))(١).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا(٢) - قَالَ : أَرْسَلَنِي خَالِي عَبْدُ اللهِ بْن مَظْعُونٍ ﷺ لَيْلَةَ الْخَنْدَقِ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ وَرِيحٍ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : ائْتِنَا بِطَعَامٍ وَلِحَافٍ ،

(١) مسلم (حديث ٩٠٠) ، والبخاري حديث (٣٣٤٣) والصَّبَا هي الريح الشرقية .
(٢) إسناده صحيح .

قَالَ : فَاسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَذِنَ لِي ، وَقَالَ : ((**مَنْ أَتَيْتَ مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا**)) قَالَ : فَذَهَبْتُ وَالرِّيحُ تَسْفِي كُلَّ شَيْءٍ ، فَجَعَلْتُ لَا أَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَمَرْتُهُ بِالرُّجُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : فَمَا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عُنُقَهُ ، قَالَ : وَكَانَ مَعِي تُرْسٌ لِي ، فَكَانَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُهُ عَلَيَّ وَكَانَ فِيهِ حَدِيدٌ ، قَالَ : فَضَرَبَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى وَقَعَ بَعْضُ ذَلِكَ الحَدِيدِ عَلَى كَفِّي فَأَنْفَذَهَا إِلَى الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ هُمُ المَلَائِكَةُ ، زَلْزَلَتْهُمْ وَأَلْقَتْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَالْخَوْفَ ، فَكَانَ رَئِيسُ كُلِّ قَبِيلَةٍ يَقُولُ : يَا بَنِي فُلَانٍ إِلَيَّ ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ : النَّجَاءَ ، النَّجَاءَ ، لِمَا أَلْقَى اللهُ ﷻ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ .

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ(١) **عَنْ أَبِيهِ قَالَ** : كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ ، فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ : أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ فِي لَيْلَةٍ ذَاتِ رِيحٍ شَدِيدَةٍ وَقُرٍّ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَكُونُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ، ثُمَّ الثَّانِيَةَ ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ مِثْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : ((**يَا حُذَيْفَةُ قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرِ مِنَ الْقَوْمِ**)) فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ ، فَقَالَ : ((**ائْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**)) قَالَ : فَمَضَيْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ ، حَتَّى أَتَيْتُهُمْ ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يُصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ قَوْسِي وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيه ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ : ((**لَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**)) وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ثُمَّ أَصَابَنِي الْبَرْدُ حِينَ فَرَغْتُ وَقَرَرْتُ ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَأَلْبَسَنِي مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا ، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى الصُّبْحَ ، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**قُمْ يَا نَوْمَانُ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أَيْ : الْأَحْزَابُ ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ تَقَدَّمَ عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّهُمْ : بَنُو قُرَيْظَةَ ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** :

(١) مسلم (حديث ١٧٨٨) .

ظَنَّ بَعْضِ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ الدَّائِرَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ اللهَ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ . **وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلَّ ظَنٍّ وَنَجَمَ النِّفَاقُ ، حَتَّى **قَالَ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ** أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ : كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَر ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ** ﷻ : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ ظُنُونٌ مُخْتَلِفَةٌ ، ظَنَّ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ يُسْتَأْصَلُونَ ، وَأَيْقَنَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقٌّ ، وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ الْحَالِ حِينَ نَزَلَ الْأَحْزَابُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَالْمُسْلِمُونَ مَحْصُورُونَ فِي غَايَةِ الْجَهْدِ وَالضِّيقِ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ إِنَّهُمُ ابْتُلُوا وَاخْتُبِرُوا وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ، فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ النِّفَاقُ ، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أَمَّا الْمُنَافِقُ فَنَجَمَ نِفَاقُهُ ، وَالَّذِي فِي قَلْبِهِ شُبْهَةٌ أَوْ حَسِيكَةٌ ضَعُفَ حَالُهُ فَتَنَفَّسَ بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ فِي نَفْسِهِ ؛ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ وَشِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ ، وَقَوْمٌ آخَرُونَ قَالُوا : كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يَعْنِي : الْمَدِينَةَ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : ((**أُرِيتُ فِي الْمَنَامِ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ، أَرْضٌ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ ، فَذَهَبَ وَهَلِي أَنَّهَا هَجَرُ فَإِذَا هِيَ يَثْرِبُ**))[1] وَفِي لَفْظٍ : ((**الْمَدِينَةُ**)) .

---

(١) أخرج البخاري نحوه (حديث ٢٢٩٧) .

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أَيْ: هَهُنَا، يَعْنُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَقَامِ الْمُرَابَطَةِ ﴿ فَٱرْجِعُواْ ﴾ أَيْ: إِلَى بُيُوتِكُمْ وَمَنَازِلِكُمْ ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾ قَالُوا: بُيُوتُنَا نَخَافُ عَلَيْهَا السَّرَق. يَعْنِي: اِعْتَذَرُوا فِي الرُّجُوعِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ بِأَنَّهَا عَوْرَةٌ، أَيْ: لَيْسَ دُونَهَا مَا يَحْجُبُهَا مِنَ الْعَدُوِّ، فَهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أَيْ: لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَيْ: هَرَبًا مِنَ الزَّحْفِ.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أَنَّهُمْ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَدِينَةِ وَقُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِهَا، ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ - وَهِيَ الدُّخُولُ فِي الْكُفْرِ - لَكَفَرُوا سَرِيعًا، وَهُمْ لَا يُحَافِظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَدْنَى خَوْفٍ وَفَزَعٍ، هَكَذَا فَسَّرَهُ غَيْرُ واحِدٍ، وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ فِي غَايَةِ الذَّمِّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى يُذَكِّرُهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ - مِنْ قَبْلِ هَذَا الْخَوْفِ - أَنْ لَا يُوَلُّوا الْأَدْبَارَ وَلَا يَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ أَيْ: وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ فِرَارَهُمْ ذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ آجَالَهُمْ، وَلَا يُطَوِّلُ أَعْمَارَهُمْ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَعْجِيلِ أَخْذِهِمْ غُرَّةً، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ: بَعْدَ هَرَبِكُمْ وَفِرَارِكُمْ ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ: يَمْنَعُكُمْ ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيْ:

لَيْسَ لَهُمْ وَلَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ اللهِ مُجِيرٌ وَلَا مُغِيثٌ .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْمُعَوِّقِينَ لِغَيْرِهِمْ عَنْ شُهُودِ الْحَرْبِ ، وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ، أَيْ : أَصْحَابِهِمْ وَعُشَرَائِهِمْ وَخُلَطَائِهِمْ ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أَيْ : إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْإِقَامَةِ فِي الظِّلَالِ وَالثِّمَارِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : بُخَلَاءُ بِالْمَوَدَّةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ . **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ : فِي الْغَنَائِمِ ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ أَيْ : مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَجَزَعِهِ ، وَهَكَذَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ الْجُبَنَاءِ مِنَ الْقِتَالِ ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أَيْ : فَإِذَا كَانَ الْأَمْنُ تَكَلَّمُوا كَلَامًا بَلِيغًا فَصِيحًا عَالِيًا ، وَادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمُ الْمَقَامَاتِ الْعَالِيَةَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ ، **وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ أَيْ : اِسْتَقْبَلُوكُمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : أَمَّا عِنْدَ الْغَنِيمَةِ فَأَشَحُّ قَوْمٍ وَأَسْوَؤُهُ مُقَاسَمَةً : أَعْطُونَا ، أَعْطُونَا ، قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْبَأْسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَخْذَلُهُ لِلْحَقِّ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أَيْ : لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ ، قَدْ جَمَعُوا الْجُبْنَ وَالْكَذِبَ وَقِلَّةَ الْخَيْرِ ، فَهُمْ كَمَا قَالَ فِي أَمْثَالِهِمُ الشَّاعِرُ :

أَفِي السِّلْمِ أَعْيَارًا جَفَاءً وَغِلْظَةً ... وَفِي الْحَرْبِ أَمْثَالَ النِّسَاءِ الْعَوَارِكِ

أَيْ : فِي حَالِ الْمُسَالَمَةِ كَأَنَّهُمُ الْحَمِيرُ ، وَالْأَعْيَارُ : جَمْعُ عِيرٍ ، وَهُوَ : الْحِمَارُ ، وَفِي الْحَرْبِ كَأَنَّهُمُ النِّسَاءُ الْحُيَّضُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا هَيِّنًا عِنْدَهُ .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِهِمُ الْقَبِيحَةِ فِي الْجُبْنِ وَالْخَوَرِ وَالْخَوْفِ ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ بَلْ هُمْ قَرِيبٌ مِنْهُمْ وَإِنَّ لَهُمْ عَوْدَةً إِلَيْهِمْ ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾ أَيْ : وَيَوَدُّونَ إِذَا جَاءَتِ الْأَحْزَابُ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ حَاضِرِينَ مَعَكُمْ فِي الْمَدِينَةِ ، بَلْ فِي الْبَادِيَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَخْبَارِكُمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ عَدُوِّكُمْ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ : وَلَوْ كَانُوا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ؛ لِكَثْرَةِ جُبْنِهِمْ وَذِلَّتِهِمْ وَضَعْفِ يَقِينِهِمْ .

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ؛ وَلِهَذَا أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينَ تَقَلَّقُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أَيْ : هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ ﷺ ؟ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِمَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ ، وَجَعْلَهُ الْعَاقِبَةَ حَاصِلَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . **فَقَالَ** : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] أَيْ: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ الَّذِي يَعْقُبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ، كَمَا قَالَهُ جُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ: إِنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ - وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ -، وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْحَالُ وَالضِّيقُ وَالشِّدَّةُ ﴿ إِلَّآ إِيمَـٰنًا ﴾ بِالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أَيْ: انْقِيَادًا لِأَوَامِرِهِ، وَطَاعَةً لِرَسُولِهِ ﷺ.

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

لَمَّا ذَكَرَ ﷻ عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَ ﴿ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: أَجَلَهُ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: عَهْدَهُ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ: وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَ اللهِ وَلَا نَقَضُوهُ وَلَا بَدَّلُوهُ. عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ[1] قَالَ: لَمَّا نَسَخْنَا الْمُصْحَفَ فُقِدَتْ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَؤُهَا، لَمْ أَجِدْهَا إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.

وَعَنْ أَنَسِ[2] بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: نَرَى هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَنَسِ بْنِ النَّضْرِ ﷺ ﴿ مِّنَ

(١) البخاري (٤٧٨٤).
(٢) البخاري (٤٧٨٣).

ﵟالْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِﵞ الْآيَةَ .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ(١) : عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ ﷺ الَّذِي سُمِّيتُ بِهِ ، لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ ، لَئِنْ أَرَانِي اللهُ تَعَالَى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيَرَيَنَّ اللهُ ﷻ مَا أَصْنَعُ قَالَ : فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا ، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ ﷺ : يَا أَبَا عَمْرٍو ؛ أَيْنَ ؟ وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ ، إِنِّي أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ ﷺ ، قَالَ : فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِي الرُّبَيِّعُ ابْنَةُ النَّضْرِ -: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ ، قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﵟمِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًاﵞ قَالَ : فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ ﷺ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**طَلْحَةُ مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ**))(٢).

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﵟفَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُﵞ عَهْدَهُ ، ﵟوَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُﵞ قَالَ : يَوْمًا فِيهِ قِتَالٌ فَيَصْدُقُ فِي اللِّقَاءِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ** : ﵟفَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُﵞ يَعْنِي : مَوْتَهُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ ﵟوَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرﵞ الْمَوْتَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُبَدِّلْ تَبْدِيلًا ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : ﵟنَحْبَهُﵞ : نَذْرَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﵟوَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًاﵞ أَيْ : وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمْ وَبَدَّلُوا الْوَفَاءَ بِالْغَدْرِ ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، وَمَا نَقَضُوهُ كَفِعْلِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا : ﵟإِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًاﵞ [الأحزاب : ١٢] ﵟوَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَﵞ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﵟلِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْﵞ أَيْ : إِنَّمَا يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالزِّلْزَالِ ؛ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، فَيُظْهِرُ أَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ ، وَأَمْرَ هَذَا بِالْفِعْلِ ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ الشَّيْءَ قَبْلَ كَوْنِهِ ،

---

(١) مسلم (١٩٠٣) .

(٢) صحيح : وأخرجه الترمذي (٣٧٤٢) ، وأبو يعلي (٢ / ٢٧٠٢٦) ، وغيرهما .

وَلَكِنْ لَا يُعَذِّبُ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ فِيهِمْ حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلَمهُ فِيهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١]، فَهَذَا عِلْمٌ بِالشَّيْءِ بَعْدَ كَوْنِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ السَّابِقُ حَاصِلًا بِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ ، وَكَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا:** ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أَيْ : بِصَبْرِهِمْ عَلَى مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ وَقِيَامِهِمْ بِهِ وَمُحَافَظَتِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ وَهُمُ النَّاقِضُونَ لِعَهْدِ اللهِ الْمُخَالِفُونَ لِأَوَامِرِهِ ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ ، وَلَكِنْ هُمْ تَحْتَ مَشِيئَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، إِنْ شَاءَ اسْتَمَرَّ بِهِمْ عَلَى مَا فَعَلُوا حَتَّى يَلْقَوْهُ فَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى النُّزُوعِ عَنِ النِّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ ، وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَتُهُ وَرَأْفَتُهُ بِخَلْقِهِ هِيَ الْغَالِبَةَ لِغَضَبِهِ **قَالَ:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْأَحْزَابِ لَمَّا أَجْلَاهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ بِمَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ وَالْجُنُودِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَوْ لَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لَكَانَتْ هَذِهِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ عَلَى عَادٍ ، وَلَكِنْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣]فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاءً فَرَّقَ شَمْلَهُمْ ، كَمَا كَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْهَوَى ، وَهُمْ أَخْلَاطٌ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى ، أَحْزَابٌ وَآرَاءٌ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْهَوَاءَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَهُمْ وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ وَحَنَقِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، لَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْآثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَدَاوَةِ ، وَهَمِّهِمْ بِقَتْلِهِ وَاسْتِئْصَالِ جَيْشِهِ ، وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَّقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ أَيْ : لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَى مُنَازَلَتِهِمْ وَمُبَارَزَتِهِمْ حَتَّى يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلَادِهِمْ ، بَلْ كَفَى اللهُ وَحْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَلِهَذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ** »(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه قَالَ : دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ : « **اللَّهُمَّ مُنزِلَ الْكِتَابِ ، سَرِيعَ الْحِسَابِ ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ** »(٢) ، وَفِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدَهَا لَمْ يَغْزُهُمُ الْمُشْرِكُونَ بَلْ غَزَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي بِلَادِهِمْ .

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَد رضي الله عنه **قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ « **الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَا** »(٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أَيْ : بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ رَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَأَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَصَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ وَعَبْدَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ لَمَّا قَدِمَتْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ وَنَزَلُوا عَلَى الْمَدِينَةِ نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَهْدِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بِسِفَارَةِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ النَّضْرِيِّ - لَعَنَهُ اللهُ - دَخَلَ حِصْنَهُمْ وَلَمْ يَزَلْ بِسَيِّدِهِمْ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ حَتَّى نَقَضَ الْعَهْدَ ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ : وَيْحَكَ قَدْ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ ، أَتَيْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَأَحَابِيشِهَا ، وَغَطَفَانَ وَأَتْبَاعِهَا ، وَلَا يَزَالُونَ هَهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ، فَقَالَ لَهُ

---

(١) البخاري (٤١١٣) ، ومسلم (٢٧٢٤) .
(٢) البخاري (حديث ٣٠٢٥) ، ومسلم (١٧٤٢) .
(٣) البخاري (حديث ٤١٠٩) .

كَعْبٌ : بَلْ وَاللهِ أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْرِ ، وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ إِنَّكَ مَشْئُومٌ فَدَعْنَا مِنْكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْتِلُ فِي الذِّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتَّى أَجَابَهُ ، وَاشْتَرَطَ لَهُ حُيَيُّ إِنْ ذَهَبَ الْأَحْزَابُ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي الْحِصْنِ فَيَكُونَ لَهُ أُسْوَتُهُمْ ، فَلَمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَاءَهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ جِدًّا ، فَلَمَّا أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى وَنَصَرَهُ وَكَبَتَ الْأَعْدَاءَ ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَرِ صَفْقَةٍ ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا ، وَوَضَعَ النَّاسُ السِّلَاحَ ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْتَسِلُ مِنْ وَعْثَاءِ تِلْكَ الْمُرَابَطَةِ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - إِذْ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ ، فَقَالَ : أَوَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ ﷺ : « **نَعَمْ** » قَالَ : لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا ، وَهَذَا الْآنَ رُجُوعِي مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللهَ - يَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَضَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَفِي رِوَايَةٍ - فَقَالَ لَهُ : عَذِيرَكَ مِنْ مُقَاتِلٍ ، أَوَضَعْتُمُ السِّلَاحَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » قَالَ : لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ أَسْلِحَتَنَا بَعْدُ ، انْهَضْ إِلَى هَؤُلَاءِ قَالَ ﷺ : « **أَيْنَ ؟** » قَالَ : بَنِي قُرَيْظَةَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أُزَلْزِلَ عَلَيْهِمْ ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ فَوْرِهِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَتْ عَلَى أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَذَلِكَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ ، وَقَالَ : « **لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ** »(١) فَسَارَ النَّاسُ فَأَدْرَكَتْهُمُ الصَّلَاةُ فِي الطَّرِيقِ ، فَصَلَّى بَعْضُهُمْ فِي الطَّرِيقِ ، وَقَالُوا : لَمْ يُرِدْ مِنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا تَعْجِيلَ الْمَسِيرِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَا نُصَلِّيهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَتَبِعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدِ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه ، وَأَعْطَى الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه . ثُمَّ نَازَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ سَيِّدِ الْأَوْسِ رضي الله عنه ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حُلَفَاءَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ فِي مَوَالِيهِ بَنِي قَيْنُقَاعٍ حِينَ اسْتَطْلَقَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَلُ فِيهِمْ

(١) « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » أخرجه البخاري (٤١٢٢) ، انظر جملة من فقرات هذا الحديث والسياق عند البخاري (٤١١٧ ، ٤١١٨ ، ٤١١٩ ، ٤١٢٠ ، ٤١٢١ ، ٤١٢٢ ، ٤١٢٣) .

كَمَا فَعَلَ ابْنُ أُبَيٍّ فِي أُولَئِكَ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ سَعْدًا ﷺ كَانَ قَـدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ أَيَّامَ الْخَنْدَقِ فَكَوَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَكْحَلِهِ وَأَنْزَلَهُ فِي قُبَّةٍ فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَالَ سَعْدٌ ﷺ فِيمَا دَعَا بِهِ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَافْجُرْهَا وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دُعَاءَهُ ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِمْ إِنْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ طَلَبًا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وَطِئُوا لَهُ عَلَيْهِ جَعَلَ الْأَوْسُ يَلُوذُونَ بِهِ ، وَيَقُولُونَ : يَا سَعْدُ إِنَّهُمْ مَوَالِيكَ فَأَحْسِنْ فِيهِمْ ، وَيُرَقِّقُونَهُ عَلَيْهِمْ وَيُعَطِّفُونَهُ وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ ﷺ : لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي الله لَوْمَةُ لَائِمٍ . فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَبْقِيهِمْ ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْخَيْمَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ** »[1] فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فَأَنْزَلُوهُ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا لَهُ فِي مَحَلِّ وِلَايَتِهِ ؛ لِيَكُونَ أَنْفَذَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ ، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ : « **إِنَّ هَؤُلَاءِ** - وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ - **قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ فَاحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْتَ** »[1] فَقَالَ ﷺ وَحُكْمِي نَافِذٌ عَلَيْهِمْ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » قَالَ : وَعَلَى مَنْ فِي هَذِهِ الْخَيْمَةِ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » قَالَ : وَعَلَى مَنْ هَهُنَا ؟ - وَأَشَارَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُعْرِضٌ بِوَجْهِهِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ إِجْلَالًا وَإِكْرَامًا وَإِعْظَامًا - فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **نَعَمْ** » فَقَالَ ﷺ : إِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الله تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ** » وَفِي رِوَايَةٍ « **لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الله** »[1] ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالْأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ فِي الْأَرْضِ ، وَجِيءَ بِهِمْ مُكَتَّفِينَ فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ ، وَكَانُوا مَا بَيْنَ السَّبْعِمِائَةِ إِلَى الثَّمَانِمِائَةِ ، وَسَبَى مَنْ لَمْ يُنْبِتْ مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاءِ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَهَذَا كُلُّهُ مُقَرَّرٌ مُفَصَّلٌ بِأَدِلَّتِهِ وَأَحَادِيثِهِ ، وَبَسْطُهُ فِي كِتَابِ السِّيرَةِ الَّذِي أَفْرَدْنَاهُ مُوجَزًا وَبَسِيطًا ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم ﴾ أَيْ : عَاوَنُوا الْأَحْزَابَ

---

(١) انظر المصدر المشار إليه قريبًا .

وَسَاعَدُوهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يَعْنِي : بَنِي قُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَعْضِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَانَ قَدْ نَزَلَ آبَاؤُهُمُ الْحِجَازَ قَدِيمًا ، طَمَعًا فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فَعَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يَعْنِي : حُصُونِهِمْ . وَمِنْهُمْ سُمِّيَتْ صَيَاصِي الْبَقَرِ ، وَهِيَ قُرُونُهَا ؛ لأَنَّهَا أَعْلَى شَيْءٍ فِيهَا ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ وَهُوَ الْخَوْفُ ؛ لأَنَّهُمْ كَانُو مَالَئُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَم ، وَأَخَافُوا الْمُسْلِمِينَ وَرَامُوا قَتْلَهُمْ ؛ لِيُعَزُّوا فِي الدُّنْيَا ، فَانْعَكَسَ عَلَيْهِمُ الْحَالُ وَانْقَلَبَ الفَالُ ، انْشَمَرَ الْمُشْرِكُونَ فَفَازُوا بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ ، فَكَمَا رَامُوا الْعِزَّ أُذِلُّوا ، وَأَرَادُوا اسْتِئْصَالَ الْمُسْلِمِينَ فَاسْتُؤْصِلُوا ، وَأُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ شَقَاوَةُ الْآخِرَةِ ، فَصَارَتِ الْجُمْلَةُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ فَالَّذِينَ قُتِلُوا هُمُ الْمُقَاتِلَةُ ، وَالْأُسَرَاءُ هُمُ الْأَصَاغِرُ وَالنِّسَاءُ .

عَنْ عَطِيَّةَ الْقُرَظِيِّ قَالَ : عُرِضْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْم قُرَيْظَةَ فَشَكُّوا فِيَّ ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا هَلْ أَنْبَتُّ بَعْدُ ؟ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُونِي أَنْبَتُّ بَعْدُ فَخَلَّى عَنِّي وَأَلْحَقَنِي بِالسَّبْيِ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾ أَيْ : جَعَلَهَا لَكُمْ مِنْ قَتْلِكُمْ لَهُمْ ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾ قِيلَ : خَيْبَرَ ، وَقِيلَ : مَكَّةَ . رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَقِيلَ : فَارِسَ وَالرُّومَ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادًا ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ .

عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ (٢) قَالَ : أَخْبَرَتْنِي عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ : خَرَجْتُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَقْفُو النَّاسَ ، فَسَمِعْتُ وَئِيدَ الْأَرْضِ وَرَائِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ وَمَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ الْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ يَحْمِلُ مِجَنَّهُ ، قَالَتْ : فَجَلَسْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَمَرَّ سَعْدٌ ﷺ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ مِنْ حَدِيدٍ قَدْ خَرَجَتْ مِنْهُ أَطْرَافُهُ ، فَأَنَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أَطْرَافِ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٣٨٣ ، ٥ / ٣١١) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦ / ١٤١ ، ١٤٢) ، وبعضه في البخاري (٤١٢٢) ، ومسلم (١٧٦٩) .

سَعْدٍ ، قَالَتْ : وَكَانَ سَعْدٌ ﷺ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ ، فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ :

لَيْتَ قَلِيلًا يُشْهَدُ الْهَيْجَا جَمَلْ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلْ

قَالَتْ : فَقُمْتُ فَاقْتَحَمْتُ حَدِيقَةً فَإِذَا فِيهَا نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِذَا فِيهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ تَسْبِغَةٌ لَهُ - تَعْنِي : الْمِغْفَرَ - فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : مَا جَاءَ بِكِ ؟ لَعَمْرِي وَاللهِ إِنَّكِ لَجَرِيئَةٌ ، وَمَا يُؤْمِنُكِ أَنْ يَكُونَ بَلَاءٌ أَوْ يَكُونَ تَحَوُّزٌ . قَالَتْ : فَمَا زَالَ يَلُومُنِي حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنَّ الْأَرْضَ انْشَقَّتْ بِي سَاعَتَئِذٍ ، فَدَخَلْتُ فِيهَا ، فَرَفَعَ الرَّجُلُ التَّسْبِغَةَ عَنْ وَجْهِهِ فَإِذَا هُوَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا عُمَرُ وَيْحَكَ إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ مُنْذُ الْيَوْمَ وَأَيْنَ التَّحَوُّزُ أَوِ الْفِرَارُ إِلَّا إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَتْ : وَرَمَى سَعْدًا ﷺ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْعَرِقَةِ - بِسَهْمٍ لَهُ ، وَقَالَ لَهُ : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْعَرِقَةِ ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ ، فَدَعَا اللهَ تَعَالَى سَعْدٌ ﷺ فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ ، قَالَتْ : وَكَانُوا حُلَفَاءَهُ وَمَوَالِيهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَتْ : فَرَقَأَ كَلْمُهُ ، وَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَةَ ، وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ ، وَرَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ ، فَتَحَصَّنُوا فِي صَيَاصِيهِمْ ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أُدْمٍ ، فَضُرِبَتْ عَلَى سَعْدٍ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ، قَالَتْ : فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَإِنَّ عَلَى ثَنَايَاهُ لَنَقْعَ الْغُبَارِ ، فَقَالَ : أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ ؟ لَا وَاللهِ مَا وَضَعَتِ الْمَلَائِكَةُ بَعْدُ السِّلَاحَ ! أُخْرُجْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَاتِلْهُمْ . قَالَتْ : فَلَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَأْمَتَهُ ، وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ أَنْ يَخْرُجُوا ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ فَمَرَّ عَلَى بَنِي غَنْمٍ وَهُمْ جِيرَانُ الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ فَقَالَ : « مَنْ مَرَّ بِكُمْ ؟ » قَالُوا : مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ - وَكَانَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ يُشْبِهُ لِحْيَتُهُ وَسِنُّهُ وَوَجْهُهُ جِبْرِيلَ ﷺ - فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ، فَلَمَّا اشْتَدَّ حِصَارُهُمْ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ ، قِيلَ لَهُمْ : انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ . قَالُوا : نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ** » فَنَزَلُوا ،

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ ، فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ ، وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا عَمْرٍو حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ . قَالَتْ : فَلَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمُ الْتَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ : قَدْ آنَ أَنْ لَا أُبَالِي فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ . فَلَمَّا طَلَعَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ**)) فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : سَيِّدُنَا اللهُ ، قَالَ : ((**أَنْزِلُوهُ**)) فَأَنْزَلُوهُ . قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**احْكُمْ فِيهِمْ**)) قَالَ سَعْدٌ ﷺ : فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ وَتُسْبَى ذَرَارِيهِمْ ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ تَعَالَى وَحُكْمِ رَسُولِهِ**)) . ثُمَّ دَعَا سَعْدٌ ﷺ ، قَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ عَلَى نَبِيِّكَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا ، فَأَبْقِنِي لَهَا ، وَإِنْ كُنْتَ قَطَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ . قَالَتْ فَانْفَجَرَ كَلْمُهُ ، وَكَانَ قَدْ بَرِئَ مِنْهُ إِلَّا مِثْلُ الْخُرْصِ ، وَرَجَعَ إِلَى قُبَّتِهِ الَّتِي ضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ . قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - : فَحَضَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَتْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ بُكَاءَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ مِنْ بُكَاءِ عُمَرَ ﷺ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي ، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] قَالَ عَلْقَمَةُ : فَقُلْتُ : أَيْ أُمَّهْ ، فَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصْنَعُ ؟ قَالَتْ كَانَتْ عَيْنُهُ لَا تَدْمَعُ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ إِذَا وَجَدَ فَإِنَّمَا هُوَ آخِذٌ بِلِحْيَتِهِ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرَ نِسَاءَهُ بَيْنَ أَنْ يُفَارِقَهُنَّ ، فَيَذْهَبْنَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَحْصُلُ لَهُنَّ عِنْدَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَبَيْنَ الصَّبْرِ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ ضِيقِ الْحَالِ ، وَلَهُنَّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ ، فَاخْتَرْنَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، فَجَمَعَ اللهُ تَعَالَى لَهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ

بَيْنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَة الْآخِرَةِ . عَنْ عَائِشَةَ(١) - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَهَا حِينَ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُخَيِّرَ أَزْوَاجَهُ ، قَالَتْ : فَبَدَأَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « **إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا ، فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ** » وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ ، قَالَتْ : ثُمَّ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ » إِلَى تَمَامِ الْآيَتَيْنِ ، فَقُلْتُ لَهُ : فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ .

وَعَنْ جَابِرٍ(٢) ﷺ **قَالَ** : أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَالنَّاسُ بِبَابِهِ جُلُوسٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، ثُمَّ أَذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَدَخَلَا ، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ نِسَاؤُهُ ، وَهُوَ ﷺ سَاكِتٌ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : لَأُكَلِّمَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَلَّهُ يَضْحَكُ ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ رَأَيْتَ ابْنَةَ زَيْدٍ - امْرَأَةَ عُمَرَ - سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ آنِفًا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَقَالَ : « **هُنَّ حَوْلِي يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ** » فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ لِيَضْرِبَهَا ، وَقَامَ عُمَرُ ﷺ إِلَى حَفْصَةَ ، كِلَاهُمَا يَقُولَانِ : تَسْأَلَانِ النَّبِيَّ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَنَهَاهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْنَ : وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا الْمَجْلِسِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ الْخِيَارَ ، فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - : فَقَالَ : « **إِنِّي أَذْكُرُ لَكِ أَمْرًا مَا أُحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ** » قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : فَتَلَا عَلَيْهَا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ الْآيَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - : أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تَذْكُرَ لِامْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِكَ مَا اخْتَرْتُ ، فَقَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا ، لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا** » .

قَالَ عِكْرِمَةُ : وَكَانَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ ، خَمْسٌ مِنْ قُرَيْشٍ : عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ

---

(١) البخاري حديث (٤٧٨٥) ، (٤٧٨٦) ، ومسلم (١٤٧٥) .

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٨) ، وانظر المسند (٣ / ٣٢٨) .

وَأُمُّ حَبِيبَةَ وَسَوْدَةُ وَأُمُّ سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ ﷺ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ النَّضِيرِيَّةُ ، وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْهِلَالِيَّةُ ، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّةُ ، وَجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ - .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَاعِظًا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ اللَّاتِي اخْتَرْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَاسْتَقَرَّ أَمْرُهُنَّ تَحْتَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُخْبِرَهُنَّ بِحُكْمِهِنَّ وَتَخْصِيصِهِنَّ دُونَ سَائِرِ النِّسَاءِ بِأَنَّ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ - **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: وَهِيَ النُّشُوزُ وَسُوءُ الْخُلُقِ - وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهُوَ شَرْطٌ ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وَكَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، فَلَمَّا كَانَتْ مَحَلَّتُهُنَّ رَفِيعَةً نَاسَبَ أَنْ يَجْعَلَ الذَّنْبَ لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُغَلَّظًا صِيَانَةً لِجَنَابِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ الرَّفِيعِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ **قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : ﴿ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ قَالَ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أَيْ : سَهْلًا هَيِّنًا . ثُمَّ ذَكَرَ عَدْلَهُ وَفَضْلَهُ **فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أَيْ : تُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَتَسْتَجِيبَ ﴿ نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أَيْ : فِي الْجَنَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

هَذِهِ آدَابٌ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَنِسَاءُ الْأُمَّةِ تَبَعٌ لَهُنَّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ : بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ اللهَ ﷻ كَمَا أَمَرَهُنَّ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِهُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَا يَلْحَقُهُنَّ فِي الْفَضِيلَةِ وَالْمَنْزِلَةِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ** : يَعْنِي بِذَلِكَ تَرْقِيقَ الْكَلَامِ إِذَا خَاطَبْنَ الرِّجَالَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ أَيْ : دَغَلٌ ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ **قَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الْخَيْرِ ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّهَا تُخَاطِبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ ، أَيْ : لَا تُخَاطِبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطِبُ زَوْجَهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ أَيْ : اِلْزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ ، وَمِنَ الْحَوَائِجِ الشَّرْعِيَّةِ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ بِشَرْطِهِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ ، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ** » وَفِي رِوَايَةٍ « **وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ** »[1]. وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ ، فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ** »[2] وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُ بِرَوْحَةِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا . وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا ، وَصَلَاتُهَا فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا** »[3].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتِكُنَّ - وَكَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَةٌ وَتَكَسُّرٌ وَتَغَنُّجٌ - فَنَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ .

وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ، وَالتَّبَرُّجُ : أَنَّهَا تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا ، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُوَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا ، وَيَبْدُو ذَلِكَ

---

(١) صحيح بمجموع طرقه : وأخرجه أبو داود (٥٦٧) ، وأحمد (٢ / ٧٦ - ٧٧) .
(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (١١٧٣) مختصرًا .
(٣) صحيح لشواهده : وانظره في سنن أبي داود (٥٧٠) .

كُلُّهُ مِنْهَا ، وَذَلِكَ التَّبَرُّجُ ، ثُمَّ عَمَّتْ نِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّجِ .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ : تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ قَالَ : كَانَتْ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ وَإِدْرِيسَ ، وَكَانَتْ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَإِنَّ بَطْنَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ كَانَ أَحَدُ يَسْكُنُ السَّهْلَ وَالْآخَرُ يَسْكُنُ الْجَبَلَ ، وَكَانَ رِجَالُ الْجَبَلِ صِبَاحًا وَفِي النِّسَاءِ دَمَامَةٌ ، وَكَانَ نِسَاءُ السَّهْلِ صِبَاحًا وَفِي الرِّجَالِ دَمَامَةٌ ، وَإِنَّ إِبْلِيسَ – لَعَنَهُ اللهُ – أَتَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السَّهْلِ فِي صُورَةِ غُلَامٍ فَآجَرَ نَفْسَهُ مِنْهُ فَكَانَ يَخْدِمُهُ ، فَاتَّخَذَ إِبْلِيسُ شَيْئًا مِنْ مِثْلِ الَّذِي يُزَمِّرُ فِيهِ الرِّعَاءُ ، فَجَاءَ فِيهِ بِصَوْتٍ لَمْ يَسْمَعِ النَّاسُ مِثْلَهُ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مَنْ حَوْلَهُ ، فَانْتَابُوهُمْ يَسْمَعُونَ إِلَيْهِ ، وَاتَّخَذُوا عِيدًا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ فَيَتَبَرَّجُ النِّسَاءُ لِلرِّجَالِ . قَالَ : وَيَتَزَيَّنُ الرِّجَالُ لَهُنَّ ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَبَلِ هَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي عِيدِهِمْ ذَلِكَ ، فَرَأَى النِّسَاءَ وَصَبَاحَتَهُنَّ فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ ، فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهِنَّ فَنَزَلُوا مَعَهُنَّ وَظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِيهِنَّ ، فَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ نَهَاهُنَّ أَوَّلًا عَنِ الشَّرِّ ، ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالْخَيْرِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَهِيَ : عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَهِيَ : الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وَهَذَا نَصٌّ فِي دُخُولِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ هَهُنَا ؛ لِأَنَّهُنَّ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ وَسَبَبُ النُّزُولِ دَاخِلٌ فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا ، إِمَّا وَحْدَهُ عَلَى قَوْلٍ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ عَلَى الصَّحِيحِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ(١) **– رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ** : خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ ، فَجَاءَ الْحَسَنُ ﷺ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – فَأَدْخَلَهَا مَعَهُ ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ ﷺ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ ،

---

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٤٢٤) .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ حِبَّانٍ[1] قَالَ : اِنْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ وَعُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ : لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا ، رَأَيْتَ رَسُولَ الله ﷺ وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ وَغَزَوْتَ مَعَهُ ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ ، لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا ، حَدِّثْنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ : يَا اِبْنَ أَخِي وَالله لَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَقَدُمَ عَهْدِي وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعِي مِنْ رَسُولِ الله ﷺ . فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا وَمَا لَا فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ، ثُمَّ قَالَ : « **أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ ! فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ : وَأَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله تَعَالَى فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ** » فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ الله ﷻ ، وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **وَأَهْلُ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي** » ثَلَاثًا ، فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ : وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ؟ قَالَ : نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَكِنَّ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ ، قَالَ : وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ هُمْ : آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَبَّاسٍ ﷺ ، قَالَ : كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

وَثُمَّ الَّذِي لَا يَشُكُّ فِيهِ مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ دَاخِلَاتٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . فَإِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ مَعَهُنَّ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ :** ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أَيْ : وَاعْمَلْنَ بِمَا يُنَزِّلِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَاذْكُرْنَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي خُصِّصْتُنَّ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ : أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ وَعَائِشَةُ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَوْلَاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ ، وَأَخَصُّهُنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) .

رَسُولِ الله ﷺ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - **قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : لأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ بِكْرًا سِوَاهَا ، وَلَمْ يَنَمْ مَعَهَا رَجُلٌ فِي فِرَاشِهَا سِوَاهُ فَنَاسَبَ أَنْ تُخَصَّصَ بِهَذِهِ الْمَزِيَّةِ ، وَأَنْ تُفَرَّدَ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الْعَلِيَّةِ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ أَزْوَاجُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَرَابَتُهُ أَحَقُّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ .

وَهَذَا يُشْبِهُ مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، فَقَالَ : « **هُوَ مَسْجِدِي هَذَا** »[1] فَهَذَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، فَإِنَّ الْآيَةَ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْأُخَرِ ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَاكَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ فَمَسْجِدُ رَسُولِ الله ﷺ أَوْلَى بِتَسْمِيَتِهِ بِذَلِكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أَيْ : بِلُطْفِهِ بِكُنَّ بَلَغْتُنَّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَبِخِبْرَتِهِ بِكُنَّ ، وَأَنَّكُنَّ أَهْلٌ لِذَلِكَ ، أَعْطَاكُنَّ ذَلِكَ وَخَصَّكُنَّ بِذَلِكَ . **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ** : وَاذْكُرْنَ نِعْمَةَ الله عَلَيْكُنَّ بِأَنْ جَعَلَكُنَّ فِي بُيُوتٍ تُتْلَى فِيهَا آيَاتُ الله وَالْحِكْمَةُ ، فَاشْكُرْنَ اللهَ عَلَى ذَلِكَ وَاحْمَدْنَهُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أَيْ : ذَا لُطْفٍ بِكُنَّ ، إِذْ جَعَلَكُنَّ فِي الْبُيُوتِ الَّتِي تُتْلَى فِيهَا آيَاتُهُ وَالْحِكْمَةُ وَهِيَ : السُّنَّةُ ، خَبِيرًا بِكُنَّ إِذِ اخْتَارَكُنَّ لِرَسُولِهِ أَزْوَاجًا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ قَالَ : يَمْتَنُّ عَلَيْهِنَّ بِذَلِكَ ، **وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يَعْنِي : لَطِيفًا بِاسْتِخْرَاجِهَا ، خَبِيرًا بِمَوْضِعِهَا .

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

---

(١) مسلم (١٣٩٨) ولفظه « مَسْجِدُكُمْ هَذَا » وانظر سورة براءة عند قوله تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ(١) **- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ** : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لَا نُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ ؟ قَالَتْ : فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ ، قَالَتْ : وَأَنَا أُسَرِّحُ شَعْرِي ، فَلَفَفْتُ شَعْرِي ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي ، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ : ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ** : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾)) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : ((**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**))(٢) فَسَلَبَهُ الْإِيمَانَ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَخَصُّ مِنْهُ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي أَوَّلِ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ الْقُنُوتُ : **هُوَ الطَّاعَةُ فِي سُكُونٍ** ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٩]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم : ٢٦] ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣]﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨]، فَالْإِسْلَامُ بَعْدَهُ مَرْتَبَةٌ يُرْتَقَى إِلَيْهَا ، وَهُوَ الْإِيمَانُ ، ثُمَّ الْقُنُوتُ نَاشِئٌ عَنْهُمَا ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ هَذَا فِي الْأَقْوَالِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ ، وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ لَمْ تُجَرَّبْ عَلَيْهِ كِذْبَةٌ لَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ عَلَامَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ ، كَمَا أَنَّ الْكَذِبَ أَمَارَةٌ عَلَى النِّفَاقِ وَمَنْ صَدَقَ نَجَا ((**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى**

---

(١) صحيح لشواهده : وأخرجه بنحوه أحمد في المسند (٦/ ٣٠١) ، والنسائي من وجه أخر (السنن الكبرى ١١٤٠٤ / ١) .

(٢) صحيح: وقد تقدم .

النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا))[١]. وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا . ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ هَذِهِ سَجِيَّةُ الْأَثْبَاتِ ، وَهِيَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ الْمُقَدَّرَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَتَلَقِّي ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ ، وَإِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ، أَيْ : أَصْعَبُهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، ثُمَّ مَا بَعْدَهُ أَسْهَلُ مِنْهُ ، وَهُوَ صِدْقُ السَّجِيَّةِ وَثَبَاتُهَا ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ الْخُشُوعُ : السُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ وَالتُّؤَدَةُ وَالْوَقَارُ وَالتَّوَاضُعُ ، وَالْحَامِلُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنَ الله تَعَالَى وَمُرَاقَبَتُهُ ((اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[٢].

﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ الصَّدَقَةُ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاوِيجِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبَ ، يُعْطَوْنَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ طَاعَةً لله وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٣] : ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ)) فَذَكَرَ مِنْهُمْ ((رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ)) .

﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ دَخَلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ ، وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ ، كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))[٤] نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ أَيْ : عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ إِلَّا عَنِ الْمُبَاحِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٧]

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) أخرجه مسلم (حديث ٨) .
(٣) البخاري (حديث ٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .
(٤) صحيح : وقد تقدم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1] ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، فَأَتَى عَلَى جُمْدَانَ فَقَالَ « **هَذَا جُمْدَانُ ، سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ** » قَالُوا : وَمَا الْمُفَرِّدُونَ ؟ قَالَ ﷺ : « **الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَيْ : هَيَّأَ لَهُمْ مِنْهُ لِذُنُوبِهِمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا وَهُوَ الْجَنَّةُ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا[2] - حِينَ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ ، اِمْتَنَعَتْ ثُمَّ أَجَابَتْ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُخَالَفَتُهُ وَلَا اِخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هَهُنَا ، وَلَا رَأْيَ وَلَا قَوْلَ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وَلِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣]

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِمَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ وَهُوَ الَّذِي ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : بِالْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ : بِالْعِتْقِ مِنَ الرِّقِّ ،

(١) مسلم (حديث ٢٦٧٦) .
(٢) انظر البخاري (٤٧٨٧) .

وَكَانَ سَيِّدًا كَبِيرَ الشَّأْنِ ، جَلِيلَ الْقَدْرِ ، حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، يُقَالُ لَهُ : الْحِبُّ ، وَيُقَالُ لِابْنِهِ : أُسَامَةُ الْحِبُّ ابْنُ الْحِبِّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَةِ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنتِ جَحْشٍ الأَسَدِيَّةِ ، فَمَكَثَتْ عِنْدَهُ قَرِيبًا مِنْ سَنَةٍ أَوْ فَوْقَهَا ، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَجَاءَ زَيْدٌ يَشْكُوهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ : « **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله** » . قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه **قَالَ**[1] : إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

وَعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ[2] : لَوْ كَتَمَ مُحَمَّدٌ شَيْئًا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى لَكَتَمَ ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا ﴾ الْوَطَرُ : هُوَ الْحَاجَةُ وَالأَرَبُ ، أَيْ : لَمَّا فَرَغَ مِنْهَا وَفَارَقَهَا زَوَّجْنَاكَهَا ، وَكَانَ الَّذِي وُلِّيَ تَزْوِيجَهَا مِنْهُ هُوَ اللهُ ﷻ بِمَعْنَى : أَنَّهُ أَوْحَى أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا بِلَا وَلِيٍّ وَلَا عَقْدٍ وَلَا مَهْرٍ وَلَا شُهُودٍ مِنَ الْبَشَرِ .

وَعَنْ أَنَسٍ[3] رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ « **اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ** » فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا ، قَالَ : فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي حَتَّى مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَهَا ، فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَنَكَصْتُ عَلَى عَقِبَيَّ ، وَقُلْتُ : يَا زَيْنَبُ أَبْشِرِي ، أَرْسَلَنِي رَسُولُ اللهِ يَذْكُرُكِ . قَالَتْ : مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِرَ رَبِّي ﷻ ، فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ . وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا حِينَ دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأُطْعِمْنَا عَلَيْهَا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ ، فَخَرَجَ النَّاسُ ، وَبَقِيَ رِجَالٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ الطَّعَامِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ وَاتَّبَعْتُهُ ، فَجَعَلَ

---

(١) **صحيح** : تقدم قريبًا .
(٢) أحمد في المسند (٦/ ٢٤١) ، ومسلم (١٧٧) .
(٣) مسلم (حديث ١٤٢٨) .

يَتَتَبَّعُ حُجَرَ نِسَائِهِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ وَيَقُلْنَ : يَا رَسُولَ الله كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ ؟ فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ خَرَجُوا أَوْ أُخْبِرَ ، فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ مَعَهُ فَأُلْقِيَ السِّتْرُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَنَزَلَ الْحِجَابُ ، وَوُعِظَ الْقَوْمُ بِمَا وُعِظُوا بِهِ ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾[الأحزاب : ٥٣] .

وَعَنْ أَنَسٍ[1] ﷺ قَالَ : إِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَقُولُ : زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَبَحْنَا لَكَ تَزْوِيجَهَا وَفَعَلْنَا ذَلِكَ ؛ لِئَلَّا يَبْقَى حَرَجٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيجِ مُطَلَّقَاتِ الْأَدْعِيَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ قَدْ تَبَنَّى زَيْدَ ابْنَ حَارِثَةَ ﷺ فَكَانَ يُقَالُ : زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، فَلَمَّا قَطَعَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ النِّسْبَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[الأحزاب : ٤-٥] ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوعِ تَزْوِيجِ رَسُولِ الله بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - لَمَّا طَلَّقَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ التَّحْرِيمِ ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾[النساء : ٢٣] لِيَحْتَرِزَ مِنَ الابْنِ الدَّعِيِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : وَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَى وَحَتَّمَهُ ، وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ، كَانَتْ زَيْنَبُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فِي عِلْمِ الله سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ .

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ أَيْ : فِيمَا أَحَلَّ لَهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَزْوِيجِ زَيْنَبَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيُّهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ .

---

(١) انظر البخاري (٧٤٢١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَذَا حُكْمُ الله تَعَالَى فِي الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرَهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَزْوِيجِهِ اِمْرَأَةَ زَيْد مَوْلَاهُ وَدَعِيِّهِ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أَيْ : وَكَانَ أَمْرُهُ الَّذِي يُقَدِّرُهُ كَائِنًا لَا مَحَالَةَ ، وَوَاقِعًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَعْدِلَ ، فَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يَمْدَحُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِلَى خَلْقِهِ وَيُؤَدُّونَهَا بِأَمَانَتِهَا ﴿ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾ أَيْ : يَخَافُونَهُ وَلَا يَخَافُونَ أَحَدًا سِوَاهُ ، فَلَا تَمْنَعُهُمْ سَطْوَةُ أَحَدٍ عَنْ إِبْلَاغِ رِسَالَاتِ الله تَعَالَى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَيْ : وَكَفَى بِالله نَاصِرًا وَمُعِينًا ، وَسَيِّدُ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَلْ وَفِي كُلِّ مَقَامٍ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله ﷺ ، فَإِنَّهُ قَامَ بِأَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاغِهَا إِلَى أَهْلِ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، إِلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ بَنِي آدَمَ ، وَأَظْهَرَ اللهُ تَعَالَى كَلِمَتَهُ وَدِينَهُ وَشَرْعَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ النَّبِيُّ قَبْلَهُ إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَأَمَّا هُوَ - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فَإِنَّهُ بُعِثَ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثُمَّ وَرِثَ مَقَامَ الْبَلَاغِ عَنْهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَكَانَ أَعْلَى مَنْ قَامَ بِهَا بَعْدَهُ أَصْحَابُهُ ﷺ بَلَّغُوا عَنْهُ كَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ ، فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ وَحَضَرِهِ وَسَفَرِهِ ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ - فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ - ثُمَّ وَرِثَهُ كُلُّ خَلَفٍ عَنْ سَلَفِهِمْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا ، فَبِنُورِهِمْ يَقْتَدِي الْمُهْتَدُونَ ، وَعَلَى مَنْهَجِهِمْ يَسْلُكُ الْمُوَفَّقُونَ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خَلَفِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ نَهَى أَنْ يُقَالَ بَعْدَ هَذَا : زَيْدُ ابْنُ مُحَمَّدٍ ، أَيْ : لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَعِشْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ حَتَّى

بَلَغَ الْحُلُمَ ، فَإِنَّهُ ﷺ وُلِدَ لَهُ الْقَاسِمُ وَالطَّيِّبُ وَالطَّاهِرُ مِنْ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَمَاتُوا صِغَارًا ، وَوُلِدَ لَهُ ﷺ إِبْرَاهِيمُ مِنْ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ ، فَمَاتَ أَيْضًا رَضِيعًا ، وَكَانَ لَهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَةَ أَرْبَعُ بَنَاتٍ : زَيْنَبُ وَرُقَيَّةُ وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَفَاطِمَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - ، فَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ثَلَاثٌ وَتَأَخَّرَتْ فَاطِمَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - حَتَّى أُصِيبَتْ بِهِ ﷺ ، ثُمَّ مَاتَتْ بَعْدَهُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بِالطَّرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى ؛ لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ أَخَصُّ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا يَنْعَكِسُ ، وَبِذَلِكَ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ : كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعُ لَبِنَةٍ ، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَالَ : مَا أَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبِنَةِ ، فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ ، خُتِمَ بِي الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اِبْتَنَى بُيُوتًا ، فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ وَيَقُولُونَ : أَلَا وُضِعَتْ هَهُنَا لَبِنَةٌ فَيَتِمُّ بُنْيَانُكَ ؟** » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « **فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةُ** »(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ** »(٣).

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ لِي أَسْمَاءً : أَنَا**

---

(١) البخاري (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٢٨٧) .

(٢) مسلم (٢٢٨٦) .

(٣) مسلم (حديث ٥٢٣) .

مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ تَعَالَى بِي الْكُفْرَ ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ »[1].

وَالأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، فَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ إِرْسَالُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ مِنْ تَشْرِيفِهِ لَهُمْ خَتْمُ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ بِهِ ، وَإِكْمَالُ الدِّينِ الحَنِيفِ لَهُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِي السُّنَّةِ المُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعَى هَذَا المَقَامَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَذَّابٌ أَفَّاكٌ دَجَّالٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ ، وَلَوْ تَخَرَّقَ وَشَعْبَذَ ، وَأَتَى بِأَنْوَاعِ السِّحْرِ وَالطَّلَاسِمِ و النيرجيات ، فَكُلُّهَا مُحَالٌ وَضَلَالٌ عِنْدَ أُولِي الأَلْبَابِ ، كَمَا أَجْرَى اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى يَدِ الأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ بِالْيَمَنِ ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ بِالْيَمَامَةِ ، مِنَ الأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالأَقْوَالِ الْبَارِدَةِ مَا عَلِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ وَفَهْمٍ أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ ضَالَّانِ - لَعَنَهُمَا اللهُ - وَكَذَلِكَ كُلُّ مُدَّعٍ لِذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخْتَمُوا بِالمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَذَّابِينَ يَخْلُقُ اللهُ تَعَالَى مَعَهُ مِنَ الأُمُورِ مَا يَشْهَدُ الْعُلَمَاءُ وَالمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ لُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، فَإِنَّهُمْ بِضَرُورَةِ الْوَاقِعِ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الاتِّفَاقِ ، أَوْ لِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ المَقَاصِدِ إِلَى غَيْرِهِ وَيَكُونُ فِي غَايَةِ الإِفْكِ وَالْفُجُورِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١-٢٢٢] ، وَهَذَا بِخِلَافِ حَالِ الأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَإِنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْبِرِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّشْدِ وَالاسْتِقَامَةِ فِيمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ، مَعَ مَا يُؤَيَّدُونَ بِهِ مِنَ الخَوَارِقِ لِلْعَادَاتِ ، وَالأَدِلَّةِ الْوَاضِحَاتِ ، وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَاتِ ، فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا مَا دَامَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ

(١) البخاري (حديث ٣٥٣٢) ، ومسلم (٢٣٥٤) .

بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِمْ لِرَبِّهِمْ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْمُنْعِمِ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ وَصُنُوفِ الْمِنَنِ، لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ وَجَمِيلِ الْمَآبِ.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ[1] ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟** » قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: « **ذِكْرُ اللهِ** ﷻ ».

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ؟ قَالَ ﷺ: « **لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى** »[2].

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَفْرِضْ عَلَى عِبَادِهِ فَرِيضَةً إِلَّا جَعَلَ لَهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلَهَا فِي حَالِ الْعُذْرِ، غَيْرَ الذِّكْرِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذُرْ أَحَدًا فِي تَرْكِهِ إِلَّا مَغْلُوبًا عَلَى تَرْكِهِ، فَقَالَ: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[النساء: ١٠٣] بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالسَّقَمِ وَالصِّحَّةِ، وَالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ صَلَّى عَلَيْكُمْ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ، وَالْأَحَادِيثُ وَالْآيَاتُ وَالْآثَارُ فِي الْحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْحَثُّ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ فِي الْأَذْكَارِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِآنَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، كَالنَّسَائِيِّ وَالْمَعْمَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا، وَمِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي ذَلِكَ كِتَابُ « الْأَذْكَارِ » لِلشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَيْ: عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) إسناده محسن: ولكن قد رواه بعضهم مرسلاً والحديث عند الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجة (٣٧٩٠).
(٢) صحيح لغيره: أخرجه (٢٧٩٣)، وأحمد (٤ / ١٨٨)، والترمذي (٩ / ٣١٤).

وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧-١٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ إِلَى الذِّكْرِ ، أَيْ : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُكُمْ فَاذْكُرُوهُ أَنْتُمْ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥١-١٥٢] ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**))[1].

وَالصَّلَاةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى : ثَنَاؤُهُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ ﷻ : الرَّحْمَةُ ، وَقَدْ يُقَالُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَأَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : فَبِمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [غافر : ٧-٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أَيْ : بِسَبَبِ رَحْمَتِهِ بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْكُمْ ، وَدُعَاءِ مَلَائِكَتِهِ لَكُمْ ، يُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْهُدَى وَالْيَقِينِ ﴿ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي جَهِلَهُ غَيْرُهُمْ ، وَبَصَّرَهُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَحَادَ عَنْهُ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى الْكُفْرِ أَوِ الْبِدْعَةِ وَأَشْيَاعُهُمْ مِنَ الطَّغَامِ[2] ، وَأَمَّا رَحْمَتُهُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ فَأَمَّنَهُمْ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ يَتَلَقَّوْنَهُمْ بِالْبِشَارَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ .

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قَدْ

---

(١) انظر البخاري (حديث ٧٤٠٥) ، ومسلم (حديث ٢٦٧٥) .

(٢) الطغام : أراذل الناس وأوساخهم .

أَخَذَتْ صَبِيًّا لَهَا ، لَصِقَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ ﷺ : « **أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلْقِي وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟** » قَالُوا : لَا . قَالَ ﷺ : « **فَوَاللهِ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** »[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ اللهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ أَيْ : يَوْمَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨]، وَزَعَمَ قَتَادَةُ أَنَّ الْمُرَادَ : أَنَّهُمْ يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللهَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

قُلْتُ : وَقَدْ يُسْتَدَلُّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاكِحِ وَالْمَلَاذِّ وَالْمَنَاظِرِ ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ[2] قَالَ : لَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ ، قَالَ : أَجَلْ ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، فَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ

(١) البخاري (٥٩٩٩) .
(٢) البخاري (٤٨٣٨) .

وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ شَاهِدًا ﴾ أَيْ : لله بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَعَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء : ٤١] كَقَوْلِهِ : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة : ١٤٣]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ وَبِيلِ الْعِقَابِ . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَيْ : دَاعِيًا لِلْخَلْقِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ عَنْ أَمْرِهِ لَكَ بِذَلِكَ ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ أَيْ : وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقِهَا وَإِضَاءَتِهَا لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تُطِعْهُمْ وَتَسْمَعْ مِنْهُمْ فِي الَّذِي يَقُولُونَهُ ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أَيْ : اِصْفَحْ وَتَجَاوَزْ عَنْهُمْ وَكِلْ أَمْرَهُمْ إِلَى الله تَعَالَى ، فَإِنَّ فِيهِ كِفَايَةٌ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا أَحْكَامٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا إِطْلَاقُ النِّكَاحِ عَلَى الْعَقْدِ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَصْرَحُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا ، وَقَدِ اِخْتَلَفُوا فِي النِّكَاحِ هَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ أَوْ فِي الْوَطْءِ أَوْ فِيهِمَا ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ، وَاسْتِعْمَالُ الْقُرْآنِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْعَقْدِ وَالْوَطْءِ بَعْدَهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ اُسْتُعْمِلَ فِي الْعَقْدِ وَحْدَهُ لِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ لِإِبَاحَةِ طَلَاقِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ ، إِذْ لَا فَرْقَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكِتَابِيَّةِ فِي ذَلِكَ بِالِاتِّفَاقِ .

وَقَدِ اِسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ : الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَهُ

نِكَاحٌ ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴾ فَعَقَّبَ النِّكَاحَ بِالطَّلَاقِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ وَلَا يَقَعُ قَبْلَهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ هَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا ، فَتَذْهَبُ فَتَتَزَوَّجُ فِي فَوْرِهَا مَنْ شَاءَتْ وَلَا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا إِلَّا الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا ، فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ مِنْهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا بِالْإِجْمَاعِ أَيْضًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ الْمُتْعَةُ هَهُنَا أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ نِصْفَ الصَّدَاقِ الْمُسَمَّى ، أَوِ الْمُتْعَةُ الْخَاصَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمَّى لَهَا ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦]

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ(١) **عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَا** : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَزَوَّجَ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَاحِيلَ ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا ، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقِيَّيْنِ .

ورُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ : إِنْ كَانَ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النِّصْفُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمَّى لَهَا صَدَاقًا أَمْتَعَهَا عَلَى قَدْرِ عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ ، وَهُوَ السَّرَاحُ الْجَمِيلُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ

(١) البخاري (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) .

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ أَحَلَّ لَهُ مِنَ النِّسَاءِ أَزْوَاجَهُ اللَّاتِي أَعْطَاهُنَّ مُهُورَهُنَّ وَهِيَ الْأُجُورُ هَهُنَا ، كَمَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَقَدْ كَانَ مَهْرُهُ لِنِسَائِهِ اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا وَهُوَ نِصْفُ أُوقِيَّةٍ ، فَالْجَمِيعُ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ ، إِلَّا أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَإِنَّهُ أَمْهَرَهَا عَنْهُ النَّجَاشِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ ، وَإِلَّا صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ فَإِنَّهُ اِصْطَفَاهَا مِنْ سَبْيِ خَيْبَرَ ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا ، وَكَذَلِكَ جُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ الْمُصْطَلِقِيَّةَ أَدَّى عَنْهَا كِتَابَتَهَا إِلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَتَزَوَّجَهَا - رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أَيْ : وَأَبَاحَ لَكَ التَّسَرِّيَ مِمَّا أَخَذْتَ مِنَ الْمَغَانِمِ ، وَقَدْ مَلَكَ صَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ فَأَعْتَقَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا ، وَمَلَكَ رَيْحَانَةَ بِنْتَ شَمْعُونَ النَّضْرِيَّةَ ، وَمَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةَ أُمَّ اِبْنِهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - وَكَانَتَا مِنَ السَّرَارِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ﴾ الْآيَة . هَذَا عَدْلٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَإِنَّ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِدًا ، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُ أَحَدُهُمْ بِنْتَ أَخِيهِ وَبِنْتَ أُخْتِهِ ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَدْمِ إِفْرَاطِ النَّصَارَى ، فَأَبَاحَ بِنْتَ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ وَبِنْتَ الْخَالِ وَالْخَالَةِ ، وَتَحْرِيمَ مَا فَرَّطَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ ، وَهَذَا بَشِعٌ فَظِيعٌ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظَ الذَّكَرِ لِشَرَفِهِ ، وَجَمَعَ الْإِنَاثَ لِنَقْصِهِنَّ كَقَوْلِهِ : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾[النحل : ٤٨] ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[البقرة : ٢٥٧] ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام : ١٤] ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ : خَطَبَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعْتَذَرْتُ إِلَيْهِ فَعَذَرَنِي ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ

وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ قَالَتْ : فَلَمْ أَكُنْ أَحِلُّ لَهُ وَلَمْ أَكُنْ مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَهُ ، كُنْتُ مِنَ الطُّلَقَاءِ . ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ﴾ الْآيَة . أَيْ : وَيُحِلُّ لَكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ الْمَرْأَةَ الْمُؤْمِنَةَ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ مَهْرٍ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَوَالَى فِيهَا شَرْطَانِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نُوحٍ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[هود : ٣٤] ، وَكَقَوْلِ مُوسَى ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس : ٨٤] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ الْآيَة .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ(١) **السَّاعِدِيِّ** أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ ، فَقَامَتْ قِيَامًا طَوِيلًا ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله زَوِّجْنِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصْدِقُهَا إِيَّاهُ** ؟ » فَقَالَ : مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي هَذَا ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِزَارَكَ جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا** » ، فَقَالَ : لَا أَجِدُ شَيْئًا ، فَقَالَ : « **الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ** » فَالْتَمَسَ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « **هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ** ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، سُورَةَ كَذَا وَسُورَةَ كَذَا ، لِسُوَرٍ يُسَمِّيهَا - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « **زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ** » .

وَعَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ (٢) **قَالَ** : كُنْتُ مَعَ أَنَسٍ جَالِسًا وَعِنْدَهُ ابْنَةٌ لَهُ ، فَقَالَ أَنَسٌ : جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ الله هَلْ لَكَ فِيَّ حَاجَةٌ ؟ فَقَالَتِ ابْنَتُهُ : مَا كَانَ أَقَلَّ حَيَاءَهَا ! فَقَالَ : « **هِيَ خَيْرٌ مِنْكِ رَغِبَتْ فِي النَّبِيِّ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا** » .

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَثِيرٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كُنْتُ أَغَارُ مِنَ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَقُولُ : أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا ؟ فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ

---

(١) البخاري (٢٣١٠) ، (٥٠٨٧) ، وغيرها ، ومسلم (١٤٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥١٢٠) .

ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قُلْتُ : مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ أَيْ : إِنِ اخْتَارَ ذَلِكَ ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ** ، أَيْ : لَا تَحِلُّ الْمَوْهُوبَةُ لِغَيْرِكَ ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ حَتَّى يُعْطِيَهَا شَيْئًا . وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا . أَيْ أَنَّهَا إِذَا فَوَّضَتِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا إِلَى رَجُلٍ فَإِنَّهُ مَتَى دَخَلَ بِهَا وَجَبَ عَلَيْهِ بِهَا مَهْرُ مِثْلِهَا ، كَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تَزْوِيجِ بِنْتِ وَاشِقٍ[٢] لَمَّا فَوَّضَتْ ، فَحَكَمَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَدَاقِ مِثْلِهَا ، لَمَّا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا ، وَالْمَوْتُ وَالدُّخُولُ سَوَاءٌ فِي تَقْرِيرِ الْمَهْرِ ، وَثُبُوتُ مَهْرِ الْمِثْلِ فِي الْمُفَوِّضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَمَّا هُوَ عليه السلام فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِلْمُفَوَّضَةِ شَيْءٌ وَلَوْ دَخَلَ بِهَا ؛ لِأَنَّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ وَلَا وَلِيٍّ وَلَا شُهُودٍ ، كَمَا فِي قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْش - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - ، **وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَقُولُ : لَيْسَ لِامْرَأَةٍ تَهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيٍّ وَلَا مَهْرٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ حَصْرِهِمْ فِي أَرْبَعِ نِسْوَةٍ حَرَائِرَ وَمَا شَاءُوا مِنَ الْإِمَاءِ ، وَاشْتِرَاطُ الْوَلِيِّ وَالْمَهْرِ وَالشُّهُودِ عَلَيْهِمْ ، وَهُمُ الْأُمَّةُ ، وَقَدْ رَخَّصْنَا لَكَ فَلَمْ نُوجِبْ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْهُ ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ عَائِشَةَ[٣] **- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -** أَنَّهَا كَانَتْ تُعَيِّرُ النِّسَاءَ اللَّاتِي وَهَبْنَ

(١) البخاري (٤٧٨٨) ، ومسلم (١٤٦٤) .
(٢) انظر القصة في مسند أحمد (٣ / ٣٨٠) ، وأبي داود (٥ / ٢١١٤) وغيرها . فقد رويت هنالك بسندٍ صحيح .
(٣) البخاري (٤٧٨٨) ، وقد تقدم قريبًا .

أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ الله ﷺ قَالَتْ : أَلَا تَسْتَحْيِي الْمَرْأَةُ أَنْ تَعْرِضَ نَفْسَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الْآيَة . قَالَتْ : إِنِّي أَرَى رَبَّكَ يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُرْجِي ﴾ أَيْ : تُؤَخِّرُ ﴿ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ أَيْ : مِنَ الْوَاهِبَاتِ ﴿ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ أَيْ : مَنْ شِئْتَ قَبِلْتَهَا وَمَنْ شِئْتَ رَدَدْتَهَا ، وَمَنْ رَدَدْتَهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالْخِيَارِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ عُدْتَ فِيهَا فَأَوَيْتَهَا ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الْآيَة . أَيْ : مِنْ أَزْوَاجِكَ لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَ الْقَسْمَ لَهُنَّ ، فَتُقَدِّمَ مَنْ شِئْتَ وَتُؤَخِّرَ مَنْ شِئْتَ ، وَتُجَامِعَ مَنْ شِئْتَ ، وَتَتْرُكَ مَنْ شِئْتَ ، وَمَعَ هَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ لَهُنَّ ، وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ - مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ - إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْقَسْمُ وَاجِبًا عَلَيْهِ ﷺ ، وَاحْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

عَنْ مُعَاذَةَ عَنْ عَائِشَةَ[1] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِنَّا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ ۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فَقُلْتُ لَهَا : مَا كُنْتِ تَقُولِينَ ؟ فَقَالَتْ : كُنْتُ أَقُولُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ الله أَنْ أُوثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا . فَهَذَا الْحَدِيثُ عَنْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ وُجُوبِ الْقَسْمِ وَحَدِيثُهَا الْأَوَّلُ يَقْتَضِي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَاهِبَاتِ ، وَمِنْ هَهُنَا اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي الْوَاهِبَاتِ وَفِي النِّسَاءِ اللَّاتِي عِنْدَهُ أَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِنَّ إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِمْ ، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ ، وَفِيهِ جَمْعٌ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أَيْ : إِذَا عَلِمْنَ أَنَّ اللهَ قَدْ وَضَعَ عَنْكَ الْحَرَجَ فِي الْقَسْمِ ، فَإِنْ شِئْتَ قَسَمْتَ ، وَإِنْ شِئْتَ لَمْ تَقْسِمْ ، لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي أَيِّ ذَلِكَ فَعَلْتَ ، ثُمَّ مَعَ هَذَا إِنْ تَقْسِمْ لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْكَ لَا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ فَرِحْنَ بِذَلِكَ وَاسْتَبْشَرْنَ بِهِ ، وَحَمَلْنَ جَمِيلَكَ فِي ذَلِكَ ، وَاعْتَرَفْنَ بِمِنَّتِكَ

(١) البخاري (٤٧٨٩) ، ومسلم (١٤٦٤) .

عَلَيْهِنَّ فِي قَسْمِكَ لَهُنَّ ، وَتَسْوِيَتِكَ بَيْنَهُنَّ ، وَإِنْصَافِكَ لَهُنَّ ، وَعَدْلِكَ فِيهِنَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ مِمَّا لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : بِضَمَائِرِ السَّرَائِرِ ﴿ حَلِيمًا ﴾ أَيْ : يَحْلُمُ وَيَغْفِرُ .

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مُجَازَاةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرِضًا عَنْهُنَّ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِنَّ فِي اخْتِيَارِهِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، لَمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ ، فَلَمَّا اخْتَرْنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِنَّ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِنَّ أَزْوَاجًا غَيْرَهُنَّ وَلَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا الْإِمَاءَ وَالسَّرَارِيَّ فَلَا حَجْرَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ عَنْهُ الْحَجْرَ فِي ذَلِكَ ، وَنَسَخَ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَبَاحَ لَهُ التَّزَوُّجَ وَلَكِنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ تَزَوُّجٌ لِتَكُونَ الْمِنَّةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِنَّ .

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى أَحَلَّ اللهُ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَ النِّسَاءِ مَا شَاءَ إِلَّا ذَاتَ مَحْرَمٍ ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى : ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ﴾ الْآيَةَ .

فَجُعِلَتْ هَذِهِ نَاسِخَةٌ لِلَّتِي بَعْدَهَا فِي التِّلَاوَةِ ، كَآيَتَيْ عِدَّةِ الْوَفَاةِ فِي الْبَقَرَةِ الْأُولَى نَاسِخَةٌ لِلَّتِي بَعْدَهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ مَعْنَى الْآيَةِ ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ مَا ذَكَرْنَا لَكَ مِنْ صِفَةِ النِّسَاءِ اللَّاتِي أَحْلَلْنَا لَكَ مِنْ نِسَائِكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَبَنَاتِ الْعَمِّ وَالْعَمَّاتِ وَالْخَالِ وَالْخَالَاتِ ، وَالْوَاهِبَةِ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ النِّسَاءِ فَلَا يَحِلُّ لَك . قَالَهُ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أَيْ : مِنْ بَعْدِ مَا سَمَّى لَكَ مِنْ مُسْلِمَةٍ وَلَا يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَا كَافِرَةٍ . **وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ** : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أُمِرَ أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ أَعْرَابِيَّةً وَلَا عَرَبِيَّةً ، وَيَتَزَوَّجَ بَعْدُ مِنْ نِسَاءِ تِهَامَةَ ،

وَمَا شَاءَ مِنْ بَنَاتِ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ وَالْخَالِ وَالْخَالَةِ ، إِنْ شَاءَ ثَلَاثَ مِائَةٍ .

وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ ﴾ أَيْ : الَّتِي سَمَّى الله . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِيمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافِ النِّسَاءِ ، وَفِي النِّسَاءِ اللَّوَاتِي فِي عِصْمَتِهِ وَكُنَّ تِسْعًا وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ جَيِّدٌ ، وَلَعَلَّهُ مُرَادُ كَثِيرٍ مِمَّنْ حَكَيْنَا عَنْهُ مِنَ السَّلَفِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا وَهَذَا ، وَلَا مُنَافَاةَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

هَذِهِ آيَةُ الْحِجَابِ وَفِيهَا أَحْكَامٌ وَآدَابٌ شَرْعِيَّةٌ ، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلُهَا قَوْلَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ ﷺ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : وَافَقْتُ رَبِّي ﷻ فِي ثَلَاثٍ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله لَوِ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ؟، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، **وَقُلْتُ** : يَا رَسُولَ الله إِنَّ نِسَاءَكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ حَجَبْتَهُنَّ ؟، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الْحِجَابِ ، وَقُلْتُ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا تَمَالَأْنَ عَلَيْهِ فِي الْغَيْرَةِ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم : ٥] ، فَنَزَلَتْ كَذَلِكَ ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ ذَكَرَ أُسَارَى بَدْرٍ ، وَهِيَ قَضِيَّةٌ رَابِعَةٌ .

وَكَانَ وَقْتُ نُزُولِهَا فِي صَبِيحَةِ عُرْسِ رَسُولِ الله ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ الَّتِي تَوَلَّى اللهُ تَعَالَى تَزْوِيجَهَا بِنَفْسِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ ، **وَقِيلَ** : أَنَّ

(١) البخاري (حديث ٤٠٢) .

ذَلِكَ كَانَ فِي سَنَةِ ثَلاثٍ ، فَاللهُ أَعْلَمُ .

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ(١) ﷺ قَالَ : لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ دَعَا الْقَوْمَ ، فَطَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَإِذَا هُوَ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ ، فَلَمْ يَقُومُوا ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ وَقَعَدَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقْتُ فَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدِ انْطَلَقُوا ، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأُلْقِي الْحِجَابُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ الآيَة .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ(٢) **قَالَ** : بَنَى النَّبِيُّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا ، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ ، قَالَ : ((**ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ**)) وَبَقِيَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فَقَالَ : ((**السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ**)) فَقَالَتْ : وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ الله ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ ، بَارَكَ اللهُ لَكَ ؟ فَتَقَرَّى حُجَرَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ ، وَيَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ . ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا ثَلاثَةُ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْتُهُ أَمْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَّةِ الْبَابِ دَاخِلَهُ وَالأُخْرَى خَارِجَهُ أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ .

وَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ الْيَشْكُرِي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ(٣) **قَالَ** : أَعْرَسَ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعْضِ نِسَائِهِ ، فَصَنَعَتْ أُمُّ سَلِيمٍ حَيْسًا ثُمَّ جَعَلَتْهُ فِي تَوْرٍ ، فَقَالَتْ : اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ وَأَخْبِرْهُ أَنَّ هَذَا مِنَّا لَهُ قَلِيلٌ ، قَالَ أَنَسٌ : وَالنَّاسُ

---

(١) البخاري (٤٧٩١) ، ومسلم (١٤٢٨) .

(٢) البخاري (٤٧٩٣) .

(٣) مسلم (١٤٢٨) .

يَوْمَئِذٍ فِي جَهْدٍ ، فَجِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله بَعَثَتْ بِهَذَا أُمُّ سَلِيمٍ إِلَيْكَ وَهِيَ تُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَتَقُولُ : أَخْبِرْهُ أَنَّ هَذَا مِنَّا لَهُ قَلِيلٌ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : « **ضَعْهُ** » فَوَضَعْتُهُ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، ثُمَّ قَالَ : « **اِذْهَبْ فَادْعُ لِي فُلَانًا وَفُلَانًا** » فَسَمَّى رِجَالًا كَثِيرًا ، وَقَالَ : « **وَمَنْ لَقِيتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** » فَدَعَوْتُ مَنْ قَالَ وَمَنْ لَقِيتُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَجِئْتُ وَالْبَيْتُ وَالصُّفَّةُ وَالْحُجْرَةُ مَلْأَى مِنَ النَّاسِ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا عُثْمَانَ كَمْ كَانُوا ؟ فَقَالَ : كَانُوا زُهَاءَ ثَلَاثِمِائَةٍ ، قَالَ أَنَسٌ : فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ « **جِئْ بِهِ** » فَجِئْتُ بِهِ إِلَيْهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَدَعَا ، وَقَالَ مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ قَالَ : « **لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ وَلْيُسَمُّوا وَلْيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ** » فَجَعَلُوا يُسَمُّونَ وَيَأْكُلُونَ حَتَّى أَكَلُوا كُلُّهُمْ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ : « **اِرْفَعْهُ** » قَالَ : فَجِئْتُ فَأَخَذْتُ التَّوْرَ فَنَظَرْتُ فِيهِ فَمَا أَدْرِي أَهُوَ حِينَ وَضَعْتُ أَكْثَرُ أَمْ حِينَ أَخَذْتُ ، قَالَ : وَتَخَلَّفَ رِجَالٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ وَزَوْجُ رَسُولِ الله ﷺ الَّتِي دَخَلَ بِهَا مَعَهُمْ مُوَلِّيَةٌ وَجْهَهَا إِلَى الْحَائِطِ فَأَطَالُوا الْحَدِيثَ ، فَشَقُّوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً ، وَلَوْ أُعْلِمُوا كَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ عَزِيزًا ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حُجَرِهِ وَعَلَى نِسَائِهِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ جَاءَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ثَقُلُوا عَلَيْهِ اِبْتَدَرُوا الْبَابَ فَخَرَجُوا ، وَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَرْخَى السِّتْرَ وَدَخَلَ الْبَيْتَ وَأَنَا فِي الْحُجْرَةِ ، فَمَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِهِ يَسِيرًا ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ قَالَ أَنَسٌ : فَقَرَأَهُنَّ عَلَيَّ قَبْلَ النَّاسِ ، فَأَنَا أَحْدَثُ النَّاسِ بِهِنَّ عَهْدًا .

وَعَنْ أَنَسٍ[1] قَالَ : لَمَّا اِنْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِزَيْدٍ : « **اِذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ** » قَالَ : فَانْطَلَقَ زَيْدٌ حَتَّى أَتَاهَا ، قَالَ : تُخَمِّرُ عَجِينَهَا ، فَلَمَّا رَأَيْتُهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي . وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ بَعْدَ قَوْلِهِ : وَوَعَظَ الْقَوْمَ بِمَا وُعِظُوا

(١) مسلم (١٤٢٨) .

بِهِ ، قَالَ هَاشِمٌ فِي حَدِيثِهِ ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الْآيَة .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ حَظْرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كَمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، حَتَّى غَارَ اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ** »(١) الْحَدِيث .

ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ ، **فَقَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا** : أَيْ غَيْرُ مُتَحَيِّنِينَ نُضْجَهُ وَاسْتِوَاءَهُ ، أَيْ : لَا تَرْقُبُوا الطَّعَامَ إِذَا طُبِخَ حَتَّى إِذَا قَارَبَ الِاسْتِوَاءَ تَعَرَّضْتُمْ لِلدُّخُولِ ، فَإِنَّ هَذَا مِمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَذُمُّهُ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ التَّطْفِيلِ ، وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ الضَّيْفَن ، وَقَدْ صَنَّفَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي ذَلِكَ كِتَابًا فِي ذَمِّ الطُّفَيْلِيِّينَ ، وَذَكَرَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ أَشْيَاءَ يَطُولُ إِيرَادُهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا ﴾ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ ، عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ** »(٢) وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا(٣) : عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « **لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ** » ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أَيْ : كَمَا وَقَعَ لِأُولَئِكَ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ اسْتَرْسَلَ بِهِمُ الْحَدِيثُ وَنَسُوا أَنْفُسَهُمْ ، حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، **كَمَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ أَنَّ دُخُولَكُمْ مَنْزِلَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ كَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيَتَأَذَّى بِهِ ، وَلَكِنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حَيَائِهِ عليه السلام ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أَيْ : وَكَمَا نَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ . **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ أَيْ : وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنِ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ ، كَذَلِكَ لَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٢٣٢) ، ومسلم (حديث ٢١٧٢) .
(٢) مسلم في طرق حديث (١٤٢٩) .
(٣) البخاري (٢٥٦٨) .

تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ تَنَاوُلَهَا مِنْهُنَّ فَلَا يَنْظُرْ إِلَيْهِنَّ ، وَلَا يَسْأَلُهُنَّ حَاجَةً إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أَيْ : هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَشَرَعْتُهُ لَكُمْ مِنَ الْحِجَابِ أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ قَاطِبَةً عَلَى : أَنَّ مَنْ تُوُفِّيَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزَوُّجُهَا مِنْ بَعْدِهِ ؛ لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَدْ عَظَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ وَشَدَّدَ فِيهِ وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَيْ : مَهْمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُكُمْ وَتَنْطَوِي عَلَيْهِ سَرَائِرُكُمْ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ، فَإِنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩]

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

لَمَّا أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النِّسَاءَ بِالْحِجَابِ مِنَ الْأَجَانِبِ ، بَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقَارِبَ لَا يَجِبُ الِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ ، كَمَا اسْتَثْنَاهُمْ فِي « سُورَةِ النُّورِ » عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور : ٣١] ، وَفِيهَا زِيَادَاتٌ عَلَى هَذِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا ، **وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُ السَّلَفِ فَقَالَ** : لِمَ لَمْ يَذْكُرِ الْعَمَّ وَالْخَالَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ؟ **فَأَجَابَ عِكْرِمَةُ وَالشَّعْبِيُّ** : بِأَنَّهُمَا لَمْ يُذْكَرَا ؛ لِأَنَّهُمَا قَدْ يَصِفَانِ ذَلِكَ لِبَنِيهِمَا . وَكَرِهَا أَنْ تَضَعَ خِمَارَهَا عِنْدَ خَالِهَا وَعَمِّهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا نِسَآئِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ عَدَمَ الاحْتِجَابِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ﴾ يَعْنِي : بِهِ أَرِقَّاءَهُنَّ مِنَ الذُّكُورِ وَالإِنَاثِ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ وَإِيرَادُ الْحَدِيثِ فِيهِ[1] ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ : إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الإِمَاءَ فَقَطْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ أَيْ : وَاخْشَيْنَهُ فِي الْخَلْوَةِ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَرَاقِبْنَ الرَّقِيبَ .

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : صَلَاةُ اللهِ تَعَالَى ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُصَلُّونَ : يُبَرِّكُونَ . هَكَذَا عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُمَا ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : صَلَاةُ الرَّبِّ : الرَّحْمَةُ ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ : الاسْتِغْفَارُ ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ : أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَإِ الأَعْلَى ، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ ؛ لِيَجْتَمِعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمَيْنِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا .

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ يُصَلِّي عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب : ٤١-٤٣] الآيَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٧] ، وَفِي الْحَدِيثِ : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي

(١) عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بِعَبْدٍ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا قَالَ : وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ إِذَا قَنَّعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلْقَى قَالَ : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ » ، وأبو داود (٤١٠٦) .

أَوْفَى »[1] وَقَدْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَكَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَنَحْنُ نَذْكُرُ مِنْهَا إِنْ شَاءَ اللهُ مَا تَيَسَّرَ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ .

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ قَالَ[2] : قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ ، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ ؟ فَقَالَ : « **قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** » . وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : أَمَّا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ ، هُوَ الَّذِي فِي التَّشَهُّدِ الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُهُمْ إِيَّاهُ ، كَمَا كَانَ يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَفِيهِ « **السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ** » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذَا السَّلَامُ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ ؟ قَالَ : « **قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ** »[3] .

وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ[4] أَنَّهُمْ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ ؟ قَالَ : « **قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** » .

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ : أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ ؟ قَالَ : فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : قُولُوا : « **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ** »[5] .

---

(١) البخاري (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨) .

(٢) البخاري (٣٣٧٠) ، ومسلم (حديث ٤٠٦) .

(٣) البخاري (حديث ٤٧٩٨) .

(٤) البخاري (حديث ٣٣٦٩) ، ومسلم (حديث ٤٠٧) .

(٥) أخرجه مسلم (حديث ٤٠٥) .

وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ الله - إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ ، فَإِنْ تَرَكَهُ لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ ، وَقَدْ شَرَعَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ يُشَنِّعُ عَلَى الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي اشْتِرَاطِهِ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ تَفَرَّدَ بِذَلِكَ وَحَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ وَالطَّحَاوِيُّ وَالْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُمْ فِيمَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عِيَاضُ عَنْهُمْ ، وَقَدْ تَعَسَّفَ الْقَائِلُ فِي رَدِّهِ عَلَى الشَّافِعِيِّ وَتَكَلَّفَ فِي دَعْوَاهُ الْإِجْمَاعَ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ رُوِّينَا وُجُوبَ ذَلِكَ وَالْأَمْرَ بِالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي الصَّلَاةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ ، وَمُفَسَّرٌ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ ، لَا خِلَافَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَخِيرًا ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ وَجْهٌ ، عَلَى أَنَّ الْجُمْهُورَ عَلَى خِلَافِهِ ، وَلِلْقَوْلِ بِوُجُوبِهِ ظَوَاهِرُ الْحَدِيثِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَالْغَرَضُ أَنَّ الشَّافِعِيَّ - رَحِمَهُ اللهُ - لِقَوْلِهِ بِوُجُوبِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ سَلَفٌ وَخَلَفٌ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلله الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ فَلَا إِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ :

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ[1] ﷺ قَالَ : سَمِعَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **عَجِلَ هَذَا** » ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ : « **إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ الله ﷻ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ** » .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ « **مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا** »[2].

وَعَنْ عَلِيٍّ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ : « **الْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ ثُمَّ لَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ** »[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[4] قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ**

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد في المسند (٦ / ١٨) وأبو داود (٢ / ١٦٢) وغيرهما .

(٢) مسلم (حديث ٤٠٨) .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي (٣٥٤٦) ، وأحمد (١ / ٢٠١) وغيرهما

(٤) صحيح لغيره : أخرجه الترمذي (مع التحفة ٩ / ٥٣٠) .

يُصَلِّ عَلَيَّ ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ » .

وَقَدْ وَرَدَ الْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ : فَمِنْهَا وَاجِبٌ ، وَمِنْهَا مُسْتَحَبٌّ عَلَى مَا نُبَيِّنُهُ : **فَمِنْهُ بَعْدَ النِّدَاءِ لِلصَّلَاةِ** :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ : إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ : « **إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ** »[1].

وَمِنْ ذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ .

وَأَمَّا الصَّلَاةُ عَلَيْهِ ﷺ فِي الصَّلَاةِ فَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ ، وَأَمَّا التَّشَهُّدُ الْأَوَّلُ فَلَا تَجِبُ فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا . وَهَلْ تُسْتَحَبُّ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ لِلشَّافِعِيِّ .

وَمِنْ ذَلِكَ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ ﷺ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ ، فَإِنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَقْرَأَ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَفِي الثَّالِثَةِ يَدْعُو لِلْمَيِّتِ ، وَفِي الرَّابِعَةِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ خَتْمُ الدُّعَاءِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ﷺ .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الْإِكْثَارُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ .

عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ[2] الثَّقَفِيِّ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ : يَوْمُ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ** » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تُعْرَضُ عَلَيْكَ صَلَاتُنَا وَقَدْ أَرَمْتَ ؟ يَعْنِي : وَقَدْ بَلِيتَ ، قَالَ : « **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ** » .

وَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ فِي الْخُطْبَتَيْنِ ،

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٣٨٤) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٤ / ٨) ، أبو داود (حديث ١٠٤٧) وغيرهما .

وَلَا تَصِحُّ الْخُطْبَتَانِ إِلَّا بِذَلِكَ ؛ لأَنَّهَا عِبَادَةٌ وَذِكْرُ الله شَرْطٌ فِيهَا ، فَوَجَبَ ذِكْرُ الرَّسُولِ ﷺ فِيهَا ، كَالْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ ، هَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ رَحِمَهُمَا الله .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ عِنْدَ زِيَارَةِ قَبْرِهِ ﷺ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ** عليه السلام))(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَيْضا قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ((**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغني حَيْثُمَا كُنْتُمْ**))(٢).

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**إِنَّ لله مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ**))(٣).

فَصْلٌ

وَأَمَّا الصَّلَاةُ عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنْ كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ : ((**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ**))(٤) فَهَذَا جَائِزٌ بِالْإِجْمَاعِ ، وَإِنَّمَا وَقَعَ النِّزَاعُ فِيمَا إِذَا أَفْرَدَ غَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ ، **فَقَالَ قَائِلُونَ** : يَجُوزُ ذَلِكَ ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب : ٣٣]، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧]، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣]، وَبِحَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ قَالَ : ((**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**)) فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ ، فَقَالَ : ((**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**))(٤).

قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : لَا يَجُوزُ إِفْرَادُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ بِالصَّلَاةِ ؛ لأَنَّ هَذَا قَدْ صَارَ شِعَارًا لِلْأَنْبِيَاءِ إِذَا ذُكِرُوا ، فَلَا يُلْحَقُ بِهِمْ غَيْرُهُمْ ، فَلَا يُقَالُ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ عَلِيٌّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى صَحِيحًا ، كَمَا لَا

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٢/ ٥٣٤) .

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧) ، أبو داود (٢/ ٥٣٤) ، وغيرهما .

(٣) **صحيح**: وأخرجه أحمد (١/ ٤٤١) .

(٤) **كلاهما صحيح**: وقد تقدما .

يُقَالُ : قَالَ مُحَمَّدٌ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا جَلِيلًا ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ شِعَارِ ذِكْرِ الله ﷻ وَحَمَلُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الدُّعَاءِ لَهُمْ ، وَلِهَذَا لَمْ يَثْبُتْ شِعَارٌ لِآلِ أَبِي أَوْفَى ، وَهَذَا مَسْلَكٌ حَسَنٌ .

وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يَجُوزُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ صَارَتْ مِنْ شِعَارِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ يُصَلُّونَ عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ ، فَلَا يُقْتَدَى بِهِمْ فِي ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ .

قَالَ النَّوَوِيُّ : إِذَا صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلْيَجْمَعْ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ، فَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى أَحَدِهِمَا ، فَلَا يَقُولُ : صَلَّى اللهُ عَلَيْه فَقَطْ ، وَلَا ﵇ فَقَطْ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُنْتَزَعٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ فَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ : صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ أَذَاهُ بِمُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَارْتِكَابِ زَوَاجِرِهِ ، وَإِصْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِيذَاءِ رَسُولِهِ بِعَيْبٍ أَوْ بِنَقْصٍ ، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلِكَ . **قَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ نَزَلَتْ فِي الْمُصَوِّرِينَ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ « **يَقُولُ اللهُ ﷻ : يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ** »[1] ، وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَقُولُونَ : يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَعَلَ بِنَا كَذَا وَكَذَا ، فَيُسْنِدُونَ أَفْعَالَ الله تَعَالَى إِلَى الدَّهْرِ وَيَسُبُّونَهُ ، وَإِنَّمَا الْفَاعِلُ لِذَلِكَ هُوَ اللهُ ﷻ فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ ، **وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ** ، وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى اللهَ ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ ﴾ أَيْ : يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بُرَآءُ مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا

(١) البخاري (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢٢٤٦) .

وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وَهَذَا هُوَ الْبَهْتُ الْبَيِّنُ أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَلَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنَقُّصِ لَهُمْ ، وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْكَفَرَةُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ الرَّافِضَةُ الَّذِينَ يَنْتَقِصُونَ الصَّحَابَةَ وَيَعِيبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّأَهُمُ اللهُ مِنْهُ ، وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدَحَهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ يَسُبُّونَهُمْ وَيَنْتَقِصُونَهُمْ وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا ، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْكُوسُو الْقُلُوبِ ، يَذُمُّونَ الْمَمْدُوحِينَ ، وَيَمْدَحُونَ الْمَذْمُومِينَ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالَ : « **ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ** » قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « **إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ** »[1].

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : « **أَيُّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْدَ اللهِ ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللهِ : اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ** »[2] ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا : أَنْ يَأْمُرَ النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ

---

(١) مسلم (٢٥٨٩) .

(٢) صحيح لشواهده: أخرجه الحاكم بنحوه (٢ / ٣٧) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وانظر بعض الشواهد في سنن أبي داود (عون المعبود ١٣ / ٢٢٢) .

المُسْلِمَاتِ – خَاصَّةً أَزْوَاجَهُ وَبَنَاتَهُ لِشَرَفِهِنَّ – بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ؛ لِيَتَمَيَّزْنَ عَنْ سِمَاتِ نِسَاءِ الجَاهِلِيَّةِ وَسِمَاتِ الإِمَاءِ . وَالجِلْبَابُ هُوَ : الرِّدَاءُ فَوْقَ الخِمَارِ . **قَالَ الجَوْهَرِيُّ** : الجِلْبَابُ المِلْحَفَةُ ، قَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْ هُذَيْلٍ تَرْثِي قَتِيلًا لَهَا :

تَمْشِي النُّسُورُ إِلَيْهِ وَهْيَ لَاهِيَةٌ مَشْيَ العَذَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلَابِيبُ

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَمَرَ اللهُ نِسَاءَ المُؤْمِنِينَ إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فِي حَاجَةٍ أَنْ يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِنَّ بِالجَلَابِيبِ ، وَيُبْدِينَ عَيْنًا وَاحِدَةً .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : سَأَلْتُ عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيَّ عَنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ فَغَطَّى وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ وَأَبْرَزَ عَيْنَهُ اليُسْرَى ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : تُغَطِّي ثُغْرَةَ نَحْرِهَا بِجِلْبَابِهَا تُدْنِيهِ عَلَيْهَا .

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ خَرَجَ نِسَاءُ الأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الغِرْبَانُ مِنَ السَّكِينَةِ ، وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَةٌ سُودٌ يَلْبَسْنَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أَيْ : إِذَا فَعَلْنَ ذَلِكَ عُرِفْنَ أَنَّهُنَّ حَرَائِرُ لَسْنَ بِإِمَاءٍ وَلَا عَوَاهِرَ ، **قَالَ السُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ قَالَ : كَانَ نَاسٌ مِنْ فُسَّاقِ أَهْلِ المَدِينَةِ يَخْرُجُونَ بِاللَّيْلِ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ إِلَى طُرُقِ المَدِينَةِ يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّسَاءِ ، وَكَانَتْ مَسَاكِنُ أَهْلِ المَدِينَةِ ضَيِّقَةً ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ خَرَجَ النِّسَاءُ إِلَى الطُّرُقِ يَقْضِينَ حَاجَتَهُنَّ ، فَكَانَ أُولَئِكَ الفُسَّاقُ يَبْتَغُونَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ ، فَإِذَا رَأَوُا المَرْأَةَ عَلَيْهَا جِلْبَابٌ قَالُوا : هَذِهِ حُرَّةٌ فَكَفُّوا عَنْهَا ، فَإِذَا رَأَوُا المَرْأَةَ لَيْسَ عَلَيْهَا جِلْبَابٌ قَالُوا : هَذِهِ أَمَةٌ فَوَثَبُوا عَلَيْهَا .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : يَتَجَلْبَبْنَ فَيُعْلَمُ أَنَّهُنَّ حَرَائِرُ ، فَلَا يَعْرِضُ لَهُنَّ فَاسِقٌ بِأَذًى وَلَا رِيبَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أَيْ : لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ عِلْمٌ بِذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ – وَهُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الكُفْرَ – ﴿ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ **قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ** : هُمُ الزُّنَاةُ هَهُنَا ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ يَقُولُونَ : جَاءَ الأَعْدَاءُ

وَجَاءَتِ الْحُرُوبُ ، وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ ؛ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ ذَلِكَ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ أَيْ : لَنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ ، **وَقَالَ** قَتَادَةُ : لَنُحَرِّشَنَّكَ بِهِمْ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : لَنُعْلِمَنَّكَ بِهِمْ ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ ﴾ أَيْ : فِي الْمَدِينَةِ ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ﴾ حَالَ مِنْهُمْ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مُدَّةً قَرِيبَةً مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ أَيْ : وُجِدُوا ﴿ أُخِذُواْ ﴾ لِذِلَّتِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ ﴿ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ أَيْ : وَسُنَّةُ اللهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ .

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِرَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - أَنَّهُ لَا عِلْمَ لَهُ بِالسَّاعَةِ ، وَإِنْ سَأَلَهُ النَّاسُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَرْشَدَهُ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَهَا إِلَى اللهِ ﷻ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْأَعْرَافِ » وَهِيَ مَكِّيَّةٌ وَهَذِهِ مَدَنِيَّةٌ ، فَاسْتَمَرَّ الْحَالُ فِي رَدِّ عِلْمِهَا إِلَى الَّذِي يُقِيمُهَا ، لَكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وَقَالَ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أَيْ : أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أَيْ : مَاكِثِينَ مُسْتَمِرِّينَ فَلَا

خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا وَلَا زَوَالَ لَهُمْ عَنْهَا ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ لَهُمْ مُغِيثٌ وَلَا مُعِينٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ أَيْ : يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَتُلْوَى وُجُوهُهُمْ عَلَى جَهَنَّمَ ، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلِكَ ، يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ اللهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالِ الْعَرَصَاتِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧-٢٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : ٢] ، وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالَتِهِمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَوْ كَانُوا أَطَاعُوا اللهَ وَأَطَاعُوا الرَّسُولَ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾ ، **وَقَالَ طَاوُسٌ** : ﴿ سَادَتَنَا ﴾ **يَعْنِي** : **الْأَشْرَافَ** ، ﴿ وَكُبَرَآءَنَا ﴾ يَعْنِي : الْعُلَمَاءَ . أَيْ : اتَّبَعْنَا السَّادَةَ وَهُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكُبَرَاءُ مِنَ الْمَشْيَخَةِ ، وَخَالَفْنَا الرُّسُلَ وَاعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا وَأَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، فَإِذَا هُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : بِكُفْرِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ إِيَّانَا ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالثَّاءِ الْمُثَلَّثَةِ ، وَهُمَا قَرِيبَا الْمَعْنَى ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي قَالَ : « **قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** »[1] يُرْوَى « **كَثِيرًا** » وَ « **كَبِيرًا** » وَكِلَاهُمَا بِمَعْنًى صَحِيحٍ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[2] ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ مُوسَى** عليه السلام **كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا**

(١) البخاري (حديث ٨٣٤) ، ومسلم (٢٧٠٥) .
(٢) البخاري (٣٤٠٤) .

سِتِّيرًا ، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اِسْتِحْيَاءً مِنْهُ ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالُوا : مَا يَتَسَتَّرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ فِي جِلْدِهِ ، إِمَّا بَرَصٌ ، وَإِمَّا أُدْرَةٌ ، وَإِمَّا آفَةٌ وَإِنَّ اللهَ ﷻ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى ﵇ ، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَخَلَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ، ثُمَّ اِغْتَسَلَ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَر ، ثَوْبِي حَجَر حَتَّى اِنْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللهُ ﷻ ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الحَجَرُ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ ، فَوَاللهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا » قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ .

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ[1] ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ قَالَ : صَعِدَ مُوسَى وَهَارُونُ الجَبَلَ ، فَمَاتَ هَارُونُ ﵇ ، فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﵇ : أَنْتَ قَتَلْتَهُ ، كَانَ أَلْيَنَ لَنَا مِنْكَ وَأَشَدَّ حَيَاءً ، فَآذَوْهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللهُ المَلَائِكَةَ فَحَمَلَتْهُ ، فَمَرُّوا عَلَى مَجَالِسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَكَلَّمَتْ بِمَوْتِهِ ، فَمَا عَرَفَ مَوْضِعَ قَبْرِهِ إِلَّا الرَّخَمُ ، وَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ أَصَمَّ أَبْكَمَ . قَالَ ابْنِ جَرِيرٍ : وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ المُرَادُ بِالأَذَى ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الأَوَّلُ هُوَ المُرَادُ .

قُلْتُ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْكُلُّ مُرَادًا ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ قَسْمًا ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا عَدُوَّ اللهِ أَمَا لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَا قُلْتَ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى ، فَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ »[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أَيْ : لَهُ وَجَاهَةٌ وَجَاهٌ عِنْدَ رَبِّهِ ﷻ ، قَالَ

---

(١) صحيح موقوفًا

(٢) البخاري (٣٤٠٥) ، ومسلم (١٠٦٢) .

الحَسَنُ البَصْرِيُّ : كَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ عِنْدَ الله ، **وَقَالَ غَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ** : لَمْ يَسْأَلِ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ ، وَلَكِنْ مُنِعَ الرُّؤْيَةَ لِمَا يَشَاءُ اللهُ ﷻ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : مِنْ وَجَاهَتِهِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ الله أَنَّهُ شَفَعَ فِي أَخِيهِ هَارُونَ أَنْ يُرْسِلَهُ اللهُ مَعَهُ فَأَجَابَ اللهُ سُؤْلَهُ فَقَالَ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَةَ مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَأَنْ يَقُولُوا : ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أَيْ : مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا انْحِرَافَ . وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَثَابَهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ، أَيْ : يُوَفِّقَهُمْ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَهُمُ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ ، وَمَا قَدْ يَقَعُ مِنْهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يُلْهِمَهُمُ التَّوْبَةَ مِنْهَا ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُجَارُ مِنَ نَارِ الْجَحِيمِ ، وَيَصِيرُ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ .

قَالَ عِكْرِمَةُ : الْقَوْلُ السَّدِيدُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : السَّدِيدُ : الصِّدْقُ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : هُوَ السَّدَادُ ، **وَقَالَ غَيْرُهُ** : هُوَ الصَّوَابُ . وَالْكُلُّ حَقٌّ .

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

قِيلَ : يَعْنِي بِالْأَمَانَةِ : الطَّاعَةَ ، **وَقِيلَ** : الْأَمَانَةُ : الْفَرَائِضُ ، عَرَضَهَا اللهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ إِنْ أَدَّوْهَا أَثَابَهُمْ ، وَإِنْ ضَيَّعُوهَا عَذَّبَهُمْ ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَلَكِنْ تَعْظِيمًا لِدِينِ الله أَنْ لَا يَقُومُوا بِهَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى آدَمَ فَقَبِلَهَا بِمَا فِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ

ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ يَعْنِي : غِرًّا بِأَمْرِ الله . **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ** ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ ﴾ قَالَ : عُرِضَتْ عَلَى آدَمَ ، فَقَالَ : خُذْهَا بِمَا فِيهَا ، فَإِنْ أَطَعْتَ غَفَرْتُ لَكَ ، وَإِنْ عَصَيْتَ عَذَّبْتُكَ ، قَالَ : قَبِلْتُ . فَمَا كَانَ إِلَّا قَدْرَ مَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَتَّى أَصَابَ الْخَطِيئَةَ . **وَهَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : إِنَّ الْأَمَانَةَ هِيَ الْفَرَائِضُ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : هِيَ الطَّاعَةُ ، **وَقِيلَ** : مِنَ الْأَمَانَةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ أُؤْتُمِنَتْ عَلَى فَرْجِهَا ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : الْأَمَانَةُ الدِّينُ وَالْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ . **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ، **وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ** : الْأَمَانَةُ ثَلَاثَةٌ : الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالِاغْتِسَالُ مِنَ الْجَنَابَةِ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا تَنَافِي بَيْنَهَا ، بَلْ هِيَ مُتَّفِقَةٌ وَرَاجِعَةٌ إِلَى أَنَّهَا التَّكْلِيفُ وَقَبُولُ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي بِشَرْطِهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ قَامَ بِذَلِكَ أُثِيبَ وَإِنْ تَرَكَهَا عُوقِبَ ، فَقَبِلَهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ضَعْفِهِ وَجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَ اللهُ ، وَبِاللهِ الْمُسْتَعَانُ .

عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ قَالَ : عَرَضَهَا عَلَى السَّبْعِ الطِّبَاقِ الطَّرَائِقِ الَّتِي زُيِّنَتْ بِالنُّجُومِ ، وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، فَقِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : قِيلَ لَهَا : إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيتِ ، وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ ، قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْأَرَضِينَ السَّبْعِ الشِّدَادِ الَّتِي شُدَّتْ بِالْأَوْتَادِ وَذُلِّلَتْ بِالْمِهَادِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ : قِيلَ لَهَا : إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيتِ ، وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ ، قَالَتْ : لَا ، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْجِبَالِ الشُّمِّ الشَّوَامِخِ الصِّعَابِ الصِّلَابِ ، قَالَ : قِيلَ لَهَا : هَلْ تَحْمِلِينَ الْأَمَانَةَ وَمَا فِيهَا ؟ قَالَتْ : وَمَا فِيهَا ؟ قَالَ لَهَا : إِنْ أَحْسَنْتِ جُزِيتِ ، وَإِنْ أَسَأْتِ عُوقِبْتِ ، قَالَتْ : لَا .

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَمَانَةِ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ (١) ﷺ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ ، حَدَّثَنَا : « **أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ**

---

(١) البخاري (حديث ٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) . والجذر : أصل كل شيء ، والمجل : تمجل مجلاً إذا ثمن جلدها وتعجر وظهر فيها ما يشبه البثر . ومنتبرًا : يقال انتبر الجرح إذا ورم وامتلأ ماءً .

الرِّجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ » ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ ، فَقَالَ : « يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ الوَكْتِ ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ المَجْلِ ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ تَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ » قَالَ : ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ ، قَالَ : « فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ : إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا ، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجْلَدَهُ وَأَظْرَفَهُ وَأَعْقَلَهُ ، وَمَا فِي قَلْبِهِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ ، إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ ، فَأَمَّا الْيَوْمُ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا .

وَقَدْ وَرَدَ النَّهْيُ عَنِ الحَلِفِ بِالأَمَانَةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا** »(١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا حَمَّلَ بَنِي آدَمَ الأَمَانَةَ - وَهِيَ التَّكَالِيفُ - لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِهِ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ مُتَابَعَةً لِأَهْلِهِ ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ عَلَى الشِّرْكِ بِاللهِ ﷻ وَمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ ﴿ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أَيْ : وَلِيَرْحَمَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الأَحْزَابِ ، وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٣٢٥٣) .

تفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأ
وَهِي مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ لَهُ الْحَمْدُ الْمُطْلَقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ؛ لأَنَّهُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَعَبِيدُهُ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] ، ثُمَّ قَالَ ﷻ ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فَهُوَ الْمَعْبُودُ أَبَدًا ، الْمَحْمُودُ عَلَى طُولِ الْمَدَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ . قَالَ مَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ : خَبِيرٌ بِخَلْقِهِ ، حَكِيمٌ بِأَمْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ عَدَدَ الْقَطْرِ النَّازِلِ فِي أَجْزَاءِ الْأَرْضِ وَالْحَبِّ الْمَبْذُورِ وَالْكَامِنِ فِيهَا ، وَيَعْلَمُ مَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ عَدَدُهُ وَكَيْفِيَّتُهُ وَصِفَاتُهُ ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : مِنْ قَطْرٍ وَرِزْقٍ ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ أَيْ : الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ فَلَا يُعَاجِلُ عُصَاتَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، الْغَفُورُ عَنْ ذُنُوبِ التَّائِبِينَ إِلَيْهِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ

﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

هَذِهِ إِحْدَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي لَا رَابِعَ لَهُنَّ مِمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُقْسِمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ ؛ لَمَّا أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ، فَإِحْدَاهُنَّ فِي « سُورَةِ يُونُسَ » : ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾[يونس : ٥٣] ، وَالثَّانِيَةُ هَذِهِ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، وَالثَّالِثَةُ فِي « التَّغَابُنِ » : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ وَيُقَرِّرُهُ : ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ** : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ لَا يَغِيبُ عَنْهُ ، أَيْ : الْجَمِيعُ مُنْدَرِجٌ تَحْتَ عِلْمِهِ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَالْعِظَامُ وَإِنْ تَلَاشَتْ وَتَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ فَهُوَ عَالِمٌ أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ ، وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ ؟ ، ثُمَّ يُعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ثُمَّ بَيَّنَ حِكْمَتَهُ فِي إِعَادَةِ الْأَبْدَانِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ بِقَوْلِهِ :

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ أَيْ : سَعَوْا فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِ رُسُلِهِ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : لِيُنَعِّمَ السُّعَدَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُعَذِّبَ الْأَشْقِيَاءَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[الحشر : ٢٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ هَذِهِ

حِكْمَةٌ أُخْرَى مَعْطُوفَةٌ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى الرُّسُلِ إِذَا شَاهَدُوا قِيَامَ السَّاعَةِ وَمُجَازَاةَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ بِالَّذِي كَانُوا قَدْ عَلِمُوهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، رَأَوْهُ حِينَئِذٍ عَيْنَ الْيَقِينِ ، وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ أَيْضًا ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] يُقَالُ أَيْضًا ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ الْعَزِيزُ : هُوَ الْمَنِيعُ الْجَنَابِ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ ، بَلْ قَدْ قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ ﷻ عَنِ اسْتِبْعَادِ الْكَفَرَةِ الْمُلْحِدِينَ قِيَامَ السَّاعَةِ ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالرَّسُولِ ﷺ فِي إِخْبَارِهِ بِذَلِكَ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أَيْ : تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَذَهَبَتْ فِيهَا كُلَّ مَذْهَبٍ ، وَتَمَزَّقَتْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أَيْ : بَعْدَ هَذَا الْحَالِ ﴿ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيْ : تَعُودُونَ أَحْيَاءً تُرْزَقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَهُوَ فِي هَذَا الْإِخْبَارِ لَا يَخْلُو أَمْرُهُ مِنْ قِسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ تَعَمَّدَ الِافْتِرَاءَ عَلَى اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ، لَكِنْ لُبِّسَ عَلَيْهِ كَمَا يُلَبَّسُ عَلَى الْمَعْتُوهِ وَالْمَجْنُونِ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ قَالَ اللهُ ﷻ رَادًّا عَلَيْهِمْ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ أَيْ :

لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ، بَلْ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الصَّالِحُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ ، وَهُمُ الْكَذَبَةُ الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ ﴿ فِي ٱلْعَذَابِ ﴾ أَيْ : الْكُفْرِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى عَذَابِ الله تَعَالَى : ﴿ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ مِنَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَقَالَ : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : حَيْثُمَا تَوَجَّهُوا وَذَهَبُوا ، فَالسَّمَاءُ مُظَلَّةٌ مُظَلِّلَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَرْضُ تَحْتَهُمْ ، كَمَا قَالَ ﷻ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧-٤٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : لَوْ شِئْنَا لَفَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِظُلْمِهِمْ وَقُدْرَتِنَا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنْ نُؤَخِّرُ ذَلِكَ لِحِلْمِنَا وَعَفْوِنَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ قِيلَ : ﴿ مُنِيبٍ ﴾ تَائِبٌ ، وَقِيلَ : الْمُنِيبُ : الْمُقْبِلُ إِلَى الله تَعَالَى ، أَيْ : إِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَدَلَالَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ فَطِنٍ لَبِيبٍ رَجَّاعٍ إِلَى الله ، عَلَى قُدْرَةِ الله تَعَالَى عَلَى بَعْثِ الْأَجْسَادِ وَوُقُوعِ الْمَعَاد ؛ لِأَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي اِرْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَهَذِهِ الْأَرَضِينَ فِي اِنْخِفَاضِهَا وَأَطْوَالِهَا وَأَعْرَاضِهَا إِنَّهُ لَقَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ وَنَشْرِ الرَّمِيمِ مِنَ الْعِظَامِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ ﴾ [يس : ٨١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧]

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِمَّا آتَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْمُبِينِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ الْمُتَمَكِّنِ وَالْجُنُودِ ذَوِي الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ، وَمَا أَعْطَاهُ وَمَنَحَهُ مِنَ الصَّوْتِ الْعَظِيمِ الَّذِي كَانَ إِذَا سَبَّحَ بِهِ تُسَبِّحُ مَعَهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ الصُّمُّ الشَّامِخَاتُ ، وَتَقِفُ لَهُ الطُّيُورُ السَّارِحَاتُ ، وَالْغَادِيَاتُ وَالرَّائِحَاتُ ،

وَتُجَاوِبهُ بِأَنْوَاعِ اللُّغَاتِ ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سَمِعَ صَوْتَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ فَوَقَفَ فَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ** »(١)، وَقَالَ **أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ** : مَا سَمِعْتُ صَوْتَ صَنْجٍ وَلَا بَرْبَطٍ وَلَا وَتَرٍ أَحْسَنَ مِنْ صَوْتِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾ أَيْ سَبِّحِي قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ . **وَالصَّوَابُ** : أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾ أَيْ رَجِّعِي مَعَهُ مُسَبِّحَةً ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : كَانَ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُدْخِلَهُ نَارًا ، وَلَا يَضْرِبُهُ بِمِطْرَقَةٍ ، بَلْ كَانَ يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ مِثْلَ الْخُيُوطِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ وَهِيَ الدُّرُوعُ ، **قَالَ قَتَادَةُ** : وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَمِلَهَا مِنَ الْخَلْقِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ صَفَائِحُ ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ ﷺ فِي تَعْلِيمِهِ صَنْعَةَ الدُّرُوعِ . **قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ لَا تُدِقُّ الْمِسْمَارَ فَيَقْلَقُ فِي الْحَلْقَةِ ، وَلَا تُغَلِّظْهُ فَيَفْصِمَهَا وَاجْعَلْهُ بِقَدَرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ : فِي الَّذِي أَعْطَاكُمُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النِّعَمِ ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : مُرَاقِبٌ لَكُمْ ، بَصِيرٌ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

(١) صحيح : وقد تقدم .

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى دَاوُدَ عَطَفَ بِذِكْرِ مَا أَعْطَى ابْنَهُ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ لَهُ تَحْمِلُ بِسَاطَهُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْقِطْرُ : النُّحَاسُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ أَيْ : وَسَخَّرْنَا لَهُ الْجِنَّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، أَيْ : بِقَدَرِهِ ، وَتَسْخِيرِهِ لَهُمْ بِمَشِيئَتِهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْبِنَايَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أَيْ : وَمَنْ يَعْدِلْ وَيَخْرُجْ مِنْهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وَهُوَ الْحَرِيقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ ﴾ أَمَّا الْمَحَارِيبُ : فَهِيَ الْبِنَاءُ الْحَسَنُ ، وَهُوَ أَشْرَفُ شَيْءٍ فِي الْمَسْكَنِ وَصَدْرِهِ ، وَأَمَّا التَّمَاثِيلُ فَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : التَّمَاثِيلُ : الصُّوَرُ ، وَقِيلَ : كَانَتْ مِنْ نُحَاسٍ ، وَقِيلَ : مِنْ طِينٍ وَزُجَاجٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ الْجَوَابُ : جَمْعُ جَابِيَةٍ : وَهِيَ الْحَوْضُ الَّذِي يُجْبَى فِيهِ الْمَاءُ ، وَقِيلَ : ﴿ كَٱلْجَوَابِ ﴾ أَيْ : كَالْجَوْبَةِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : كَالْحِيَاضِ ، وَالْقُدُورُ الرَّاسِيَاتُ : أَيِ الثَّابِتَاتُ فِي أَمَاكِنِهَا لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَتَحَوَّلُ عَنْ أَمَاكِنِهَا لِعِظَمِهَا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ أَيْ : وَقُلْنَا لَهُمُ اعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا . وَشُكْرًا : مَصْدَرٌ مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ ، أَوْ أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ ، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ : الصَّلَاةُ شُكْرٌ : وَالصِّيَامُ شُكْرٌ ، وَكُلُّ خَيْرٍ تَعْمَلُهُ لله ﷻ شُكْرٌ ، وَأَفْضَلُ الشُّكْرِ الْحَمْدُ ، وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ : الشُّكْرُ تَقْوَى الله تَعَالَى وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَهَذَا يُقَالُ لِمَنْ هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِالْفِعْلِ ، وَقَدْ كَانَ آلُ دَاوُدَ عليه السلام كَذَلِكَ قَائِمِينَ بِشُكْرِ الله تَعَالَى قَوْلًا وَعَمَلًا .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ أَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى الله تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَأَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى الله

تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ .

ثُمَّ يَذْكُرُ تَعَالَى كَيْفِيَّةَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عليه السلام ، وَكَيْفَ عَمَّى اللهُ مَوْتَهُ عَلَى الْجَانِّ الْمُسَخَّرِينَ لَهُ فِي الْأَعْمَالِ الشَّاهِقَةِ ، فَإِنَّهُ مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ وَهِيَ مِنْسَأَتُهُ - كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُ وَاحِدٍ - مُدَّةً طَوِيلَةً نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ الْأَرْضِ وَهِيَ الْأَرَضَةُ ، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ، تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَيْضًا أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

كَانَتْ سَبَأٌ مُلُوكُ الْيَمَنِ وَأَهْلُهَا ، وَكَانَتِ التَّبَابِعَةُ مِنْهُمْ ، وَبَلْقِيسُ صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ عليه السلام مِنْ جُمْلَتِهِمْ ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِبْطَةٍ فِي بِلَادِهِمْ وَعَيْشِهِمْ ، وَاتِّسَاعِ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ ، وَبَعَثَ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَأَ ، شَذَرَ مَذَرَ ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى تَفْصِيلُهُ وَبَيَانُهُ قَرِيبًا وَبِهِ الثِّقَةُ .

---

(١) البخاري (١١٣١) ، ومسلم (١١٥٩) .

قَالَ عُلَمَاءُ النَّسَبِ ، مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : اِسْمُ سَبَأ : عَبْدُ شَمْسِ بْنِ يَشْجُبَ ابْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَبَأً ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَبَأَ فِي الْعَرَبِ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ : الرَّائِشُ ؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مِنْ غَنِمَ فِي الْغَزْوِ فَأَعْطَى قَوْمَهُ فَسُمِّيَ الرَّائِشُ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْمَالَ : رِيشًا وَرِيَاشًا . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِنَفَرٍ مِنْ « أَسْلَمَ » يَنْتَضِلُونَ ، فَقَالَ : « **ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا** »[1] ، فَأَسْلَمَ قَبِيلَةٌ ، مِنَ الأَنْصَارِ ، وَالأَنْصَارُ أَوْسُهَا وَخَزْرَجُهَا مِنْ غَسَّانَ مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ مِنْ سَبَإٍ – نَزَلُوا بِيَثْرِبَ لَمَّا تَفَرَّقَتْ سَبَأٌ فِي الْبِلاَدِ حِينَ بَعَثَ اللهُ ﷻ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالشَّامِ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ غَسَّانَ : بِمَاءٍ نَزَلُوا عَلَيْهِ قِيلَ : بِالْيَمَنِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُشَلَّلِ ، كَمَا قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ :

إِمَّا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ ... الأَزْدُ نِسْبَتُنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ الْمَاءُ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا سُيُولُ أَمْطَارِهِمْ وَأَوْدِيَتِهِمْ ، فَعَمَدَ مُلُوكُهُمُ الأَقَادِمُ فَبَنَوْا بَيْنَهُمَا سَدًّا عَظِيمًا مُحْكَمًا حَتَّى اِرْتَفَعَ الْمَاءُ وَحَكَمَ عَلَى حَافَّاتِ ذَيْنِكَ الْجَبَلَيْنِ ، فَغَرَسُوا الأَشْجَارَ وَاسْتَغَلُّوا الثِّمَارَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْحُسْنِ ، كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَمْشِي تَحْتَ الأَشْجَارِ وَعَلَى رَأْسِهَا مِكْتَلٌ أَوْ زِنْبِيلٌ – وَهُوَ الَّذِي تُخْتَرَفُ فِيهِ الثِّمَارُ – فَيَتَسَاقَطُ مِنَ الأَشْجَارِ فِي ذَلِكَ مَا يَمْلَؤُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى كُلْفَةٍ وَلاَ قُطَّافٍ ؛ لِكَثْرَتِهِ وَنُضْجِهِ وَاسْتِوَائِهِ ، وَكَانَ هَذَا السَّدُّ بِمَأْرِبَ : بَلْدَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ ثَلاَثُ مَرَاحِلَ ، وَيُعْرَفُ بِسَدِّ مَأْرِبَ .

وَذَكَرَ آخَرُونَ : أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبَلَدِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الذُّبَابِ وَلاَ الْبَعُوضِ وَلاَ الْبَرَاغِيثِ وَلاَ شَيْءٍ مِنَ الْهَوَامِّ ، وَذَلِكَ لاعْتِدَالِ الْهَوَاءِ ، وَصِحَّةِ الْمِزَاجِ ، وَعِنَايَةِ اللهِ بِهِمْ ؛ لِيُوَحِّدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أَيْ : مِنْ نَاحِيَتَي الْجَبَلَيْنِ ، وَالْبَلْدَةُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أَيْ : غَفُورٌ لَكُمْ

(١) البخاري (٣٥٠٧) .

إنِ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ أَيْ : عَنْ تَوْحِيدِ الله وَعِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَعَدَلُوا إِلَى عِبَادَةِ الشَّمْسِ مِنْ دُونِ الله ، كَمَا قَالَ الْهُدْهُدُ لِسُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل:٢٢-٢٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾ **الْمُرَادُ بِالْعَرِمِ** : الْمِيَاهُ ، **وَقِيلَ** : الْوَادِي **وَقِيلَ** : الْجُرَذُ ، **وَقِيلَ** : الْمَاءُ الْغَزِيرُ ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الاِسْمِ إِلَى صِفَتِهِ ، مِثْلُ « مَسْجِدُ الْجَامِعِ » ، **وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : أَنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا أَرَادَ عُقُوبَتَهُمْ بِإِرْسَالِ الْعَرِمِ عَلَيْهِمْ ، بَعَثَ عَلَى السَّدِّ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ ، يُقَالُ لَهَا « الْجُرَذُ » نَقَبَتْهُ . **قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ** : وَقَدْ كَانُوا يَجِدُونَ فِي كُتُبِهِمْ أَنَّ سَبَبَ خَرَابِ هَذَا السَّدِّ هُوَ الْجُرَذُ فَكَانُوا يَرْصُدُونَ عِنْدَهُ السَّنَانِيرَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ ، فَلَمَّا جَاءَ الْقَدَرُ غَلَبَتِ الْفَأْرُ السَّنَانِيرَ ، وَوَلَجَتْ إِلَى السَّدِّ فَنَقَبَتْهُ ، فَانْهَارَ عَلَيْهِمْ . كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : وَهُوَ الأَرَاكُ ، أُكُلُهُ : الْبَرِيرُ ﴿ وَأَثۡلٖ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الطَّرْفَاءُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ شَجَرٌ يُشْبِهُ الطَّرْفَاءَ ، **وَقِيلَ** : هُوَ السَّمُرُ . وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ لَمَّا كَانَ أَجْوَدَ هَذِهِ الأَشْجَارِ الْمُبَدَّلِ بِهَا هُوَ السِّدْرُ قَالَ : ﴿ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ فَهَذَا الَّذِي صَارَ أَمْرُ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ إِلَيْهِ بَعْدَ الثِّمَارِ النَّضِيجَةِ وَالْمَنَاظِرِ الْحَسَنَةِ ، وَالظِّلَالِ الْعَمِيقَةِ وَالأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ ، تَبَدَّلَتْ إِلَى شَجَرِ الأَرَاكِ وَالطَّرْفَاءِ وَالسِّدْرِ ذِي الشَّوْكِ الْكَثِيرِ وَالثَّمَرِ الْقَلِيلِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِالله وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ ، وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ . **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾ أَيْ : عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ . **قَالَ مُجَاهِدٌ** : وَلَا يُعَاقِبُ إِلَّا الْكَفُورَ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ لَا يُعَاقِبُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ إِلَّا الْكَفُورَ ، **وَقَالَ طَاوُسٌ** : لَا يُنَاقِشُ إِلَّا الْكَفُورَ .

ثُمَّ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِبْطَةِ ، وَالْعَيْشِ الْهَنِيءِ الرَّغِيدِ ، وَالْبِلَادِ

الرَخِيَّةِ وَالْأَمَاكِنِ الْآمِنَةِ ، وَالْقُرَى الْمُتَوَاصِلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَثِمَارِهَا ، بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَلَا مَاءٍ ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا ، وَيُقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى بِمِقْدَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : قُرَى الشَّامِ ، فَالْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ أَيْ : بَيِّنَةً وَاضِحَةً يَعْرِفُهَا الْمُسَافِرُونَ ، يُقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُونَ إِلَيْهِ ﴿ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ أَيْ : الْأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا . ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ « **بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** » وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَطِرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ - كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ - وَأَحَبُّوا مَفَاوِزَ وَمَهَامِهَ يَحْتَاجُونَ فِي قَطْعِهَا إِلَى الزَّادِ وَالرَّوَاحِلِ وَالسَّيْرِ فِي الْحَرُورِ وَالْمَخَاوِفِ ، كَمَا طَلَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى أَنْ يُخْرِجَ اللهُ لَهُمْ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ فِي مَنٍّ وَسَلْوَى ، وَمَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ مُرْتَفِعَةٍ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ : ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ أَيْ : بِكُفْرِهِمْ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُمْ حَدِيثًا لِلنَّاسِ وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ ، مِنْ خَبَرِهِمْ وَكَيْفَ مَكَرَ اللهُ بِهِمْ ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ وَالْعَيْشِ الْهَنِيءِ ، تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْقَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا : « **تَفَرَّقُوا**

أَيْدِي سَبَأ » « وَأَيَادِي سَبَأ » و « تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهَؤُلَاءِ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ ، وَتَبْدِيلِ النِّعْمَةِ وَتَحْوِيلِ الْعَافِيَةِ ، عُقُوبَةً عَلَى مَا اِرْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْآثَامِ لَعِبْرَةً وَدَلَالَةً لِكُلِّ عَبْدٍ صَبَّارٍ عَلَى الْمَصَائِبِ ، شَكُورٍ عَلَى النِّعَمِ . « **عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ ، لَا يَقْضِي اللهُ تَعَالَى لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ** »[1]. عَنْ قَتَادَةَ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قَالَ : كَانَ مُطَرِّفٌ يَقُولُ : نِعْمَ الْعَبْدُ الصَّبَّارُ الشَّكُورُ الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ سَبَأ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اِتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانَ ، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالِهِمْ مِمَّنِ اِتَّبَعَ إِبْلِيسَ وَالْهَوَى وَخَالَفَ الرَّشَادَ وَالْهُدَى ، **فَقَالَ** : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ **قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ** : هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْلِيسَ حِينَ اِمْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عليه السلام ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وَقَالَ : ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

---

(١) مسلم (حديث ٢٩٩٩) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أَيْ : مِنْ حُجَّةٍ . قَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : وَاللهِ مَا ضَرَبَهُمْ بِعَصًا وَلَا أَكْرَهَهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، وَمَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَأَمَانِيَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهَا فَأَجَابُوهُ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا سَلَّطْنَاهُ عَلَيْهِمْ لِيَظْهَرَ أَمْرُ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِالْآخِرَةِ وَقِيَامِهَا وَالْحِسَابِ فِيهَا وَالْجَزَاءِ ، فَيُحْسِنِ عِبَادَةَ رَبِّهِ ﷻ فِي الدُّنْيَا مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أَيْ : وَمَعَ حِفْظِهِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ ، وَبِحِفْظِهِ وَكِلَاءَتِهِ سَلِمَ مَنْ سَلِمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ .

ثُمَّ يُبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ الْإِلَٰهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ ، بَلْ هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْأَمْرِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ وَلَا مُنَازِعٍ وَلَا مُعَارِضٍ ، فَقَالَ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْآلِهَةِ الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونِهِ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أَيْ : لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا اسْتِقْلَالًا وَلَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرِكَةِ ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أَيْ : وَلَيْسَ للهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ مِنْ ظَهِيرٍ يَسْتَظْهِرُ بِهِ فِي الْأُمُورِ ، بَلِ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَدَيْهِ ، قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ : مِنْ عَوْنٍ يُعِينُهُ بِشَيْءٍ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ أَيْ : لِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ لَا يَجْتَرِئُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ تَعَالَى فِي شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨]

وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَأَكْبَرُ شَفِيعٍ عِنْدَ

الله تَعَالَى أَنَّهُ حِينَ يَقُومُ المَقَامَ المَحْمُودَ لِيَشْفَعَ فِي الخَلْقِ كُلِّهِمْ أَنْ يَأْتِي رَبُّهُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ قَالَ : « ... **فَأَسْجُدُ لله تَعَالَى فَيَدَعَنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي ، وَيَفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدَ لَا أُحْصِيهَا الْآنَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ** »(١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ ، وَهَذَا أَيْضًا مَقَامٌ رَفِيعٌ فِي الْعَظَمَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ فَسَمِعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ كَلَامَهُ أُرْعِدُوا مِنَ الْهَيْبَةِ حَتَّى يَلْحَقهُمْ مِثْلُ الْغَشْيِ . قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وَغَيْرُهُ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أَيْ : زَالَ الْفَزَعُ عَنْهَا . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ قَالُوا : جُلِّيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَيُخْبِرُ بِذَلِكَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ لِلَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ لِمَنْ تَحْتَهُمْ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ أَيْ : أَخْبَرُوا بِمَا قَالَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يَعْنِي : الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا اسْتَيْقَظُوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ عُقُولُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَقِيلَ لَهُمُ الْحَقُّ . وَأُخْبِرُوا بِهِ مِمَّا كَانُوا عَنْهُ لَاهِينَ فِي الدُّنْيَا .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يَعْنِي : مَا فِيهَا مِنَ الشَّكِّ قَالَ : فَزَّعَ الشَّيْطَانُ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَفَارَقَهُمْ وَأَمَانِيِّهِمْ وَمَا كَانَ يُضِلُّهُمْ ﴿ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ قَالَ : وَهَذَا فِي بَنِي آدَمَ ، هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ ، أَقَرُّوا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِقْرَارُ . وَقَدِ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ لِصِحَّةِ الْأَحَادِيثِ فِيهِ وَالْآثَارِ وَلْنَذْكُرْ مِنْهَا طَرَفًا يَدُلُّ عَلَى غَيْرِهِ .

---

(١) صحيح : وتقدم مرارًا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(١) ﷺ يَقُولُ إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَضَى اللهُ تَعَالَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ ، فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(٢) ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسًا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَرُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ ، فَقَالَ ﷺ « مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ » قَالُوا : كُنَّا نَقُولُ يُولَدُ عَظِيمٌ أَوْ يَمُوتُ عَظِيمٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنْ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ ، فَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ وَيُخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ سَمَاءً ، حَتَّى يَنْتَهِي الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ ، وَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَرْمُونَ ، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ ، وَلَكِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ » .

۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ
إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ
أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا
بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ
كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

(١) البخاري (٤٨٠٠) .
(٢) مسلم (٢٢٢٩) ، وأحمد (١ / ٢١٨) .

يَقُولُ تَعَالَى مُقَرِّرًا تَفَرُّدَهُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَانْفِرَادَهُ بِالْإِلَهِيَّةِ أَيْضًا، فَكَمَا كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَيْ: بِمَا يَنْزِلُ مِنَ الْمَطَرِ وَيَنْبُتُ مِنَ الزَّرْعِ إِلَّا اللهُ فَكَذَلِكَ فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ، أَيْ: وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مُبْطِلٌ وَالْآخَرُ مُحِقٌّ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَنَحْنُ عَلَى الْهُدَى أَوْ عَلَى الضَّلَالِ، بَلْ وَاحِدٌ مِنَّا مُصِيبٌ وَنَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا الْبُرْهَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ فَدَلَّ عَلَى بُطْلَانِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مَعْنَاهُ التَّبَرِّي مِنْهُمْ، أَيْ: لَسْتُمْ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْكُمْ بَلْ نَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَإِلَى تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ، وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَنَحْنُ بُرَآءُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَآءُ مِنَّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]. وَقَالَ ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١-٦]

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْمَعُ الْخَلَائِقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، أَيْ: يَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَسَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ لِمَنِ الْعِزَّةُ وَالنُّصْرَةُ وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤-١٦]، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ: الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ أَيْ: أَرُونِي هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا للهِ أَنْدَادًا وَصَيَّرْتُمُوهَا لَهُ عَدْلًا ﴿ كَلَّا ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا نَدِيدٌ وَلَا

شَرِيكٌ وَلَا عَدِيلٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ﴾ . أَيْ : الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أَيْ : ذُو الْعِزَّةِ الَّذِي قَدْ قَهَرَ بِهَا كُلَّ شَيْءٍ ، وَغَلَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَسْلِيمًا ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : إِلَّا إِلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف : ١٥٨] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان : ١]

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : تُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَكَ بِالْجَنَّةِ وَتُنْذِرُ مَنْ عَصَاكَ بِالنَّارِ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[يوسف : ١٠٣] ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[الأنعام : ١١٦] .

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**))(١) ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : ((**بُعِثْتُ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ**))(١).

ثُمَّ قَالَ ﷻ مُخْبِرًا عَنِ الْكُفَّارِ فِي اسْتِبْعَادِهِمْ قِيَامَ السَّاعَةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) صحيح : وقد تقدما .

يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى : ١٨] ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أَيْ : لَكُمْ مِيعَادٌ مُؤَجَّلٌ مَعْدُودٌ لَا يُزَادُ وَلَا يُنْقَصُ ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا يُؤَخَّرُ سَاعَةً وَلَا يُقَدَّمُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤-١٠٥]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْكُفَّارِ فِي طُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قَالَ اللهُ ﷻ مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا وَمُخْبِرًا عَنْ مَوَاقِفِهِمُ الذَّلِيلَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي حَالِ تَخَاصُمِهِمْ وَتَحَاجِّهِمْ : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ مِنْهُمْ وَهُمُ الْأَتْبَاعُ ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ ، وَهُمْ قَادَتُهُمْ وَسَادَتُهُمْ ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أَيْ : لَوْلَا أَنْتُمْ تَصُدُّونَا لَكُنَّا اتَّبَعْنَا الرُّسُلَ وَآمَنَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ . فَقَالَ لَهُمُ الْقَادَةُ وَالسَّادَةُ وَهُمُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ أَيْ : نَحْنُ مَا فَعَلْنَا بِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّا دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، وَخَالَفْتُمُ الْأَدِلَّةَ

وَالْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ ؛ لِشَهْوَتِكُمْ وَاخْتِيَارِكُمْ لِذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالُوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أَيْ : بَلْ كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بِنَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَتَغُرُّونَا وَتُمَنُّونَا وَتُخْبِرُونَا أَنَّا عَلَى هُدًى وَأَنَّا عَلَى شَيْءٍ ، فَإِذَا جَمِيعُ ذَلِكَ بَاطِلٌ وَكَذِبٌ مُبِينٌ .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ أَيْ : نُظَرَاءَ وَآلِهَةً مَعَهُ ، وَتُقِيمُوا لَنَا شُبَهًا وَأَشْيَاءَ مِنَ الْمُحَالِ تُضِلُّونَا بِهَا ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ مِنَ السَّادَةِ وَالْأَتْبَاعِ كُلٌّ نَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وَهِيَ السَّلَاسِلُ الَّتِي تَجْمَعُ أَيْدِيَهُمْ مَعَ أَعْنَاقِهِمْ ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا نُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ كُلٌّ بِحَسَبِهِ ، لِلْقَادَةِ عَذَابٌ بِحَسَبِهِمْ وَلِلْأَتْبَاعِ بِحَسَبِهِمْ ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ وَآمِرًا لَهُ بِالتَّأَسِّي بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ وَمُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرْيَةٍ إِلَّا كَذَّبَهُ مُتْرَفُوهَا وَاتَّبَعَهُ ضُعَفَاؤُهُمْ ، كَمَا قَالَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١]، ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود : ٢٧]، وَقَالَ ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ

بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٣] ، **وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا** : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أَيْ : نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ﴾ ، وَهُمْ أُولُو النِّعْمَةِ وَالْحِشْمَةِ وَالثَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ ، **قَالَ قَتَادَةُ** : هُمْ جَبَابِرَتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وَرُءُوسُهُمْ فِي الشَّرِّ ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ أَيْ : لَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَتَّبِعُهُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُتْرَفِينَ الْمُكَذِّبِينَ : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أَيْ : اِفْتَخَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّةِ الله تَعَالَى لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥-٥٦] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥]

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ ﷻ عَنْ صَاحِبِ تَيْنِكَ الْجَنَّتَيْنِ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَالٍ وَثَمَرٍ وَوَلَدٍ ، ثُمَّ لَمْ يُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا ، بَلْ سُلِبَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، **وَلِهَذَا قَالَ ﷻ هَا هُنَا** : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أَيْ : يُعْطِي الْمَالَ لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، فَيُفْقِرُ مَنْ يَشَاءُ وَيُغْنِي مَنْ يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الْقَاطِعَةُ الدَّامِغَةُ ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ أَيْ : لَيْسَتْ هَذِهِ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّتِنَا لَكُمْ وَلَا اعْتِنَائِنَا بِكُمْ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ** »(١) ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أَيْ : تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ﴿ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ أَيْ : فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ

---

(١) مسلم في طرق حديث (٢٥٦٤) .

وَخَوْفٍ وَأَذًى ، وَمِنْ كُلِّ شَرٍّ يُحْذَرُ مِنْهُ . ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ ﴾ أَيْ : يَسْعَوْنَ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ وَالتَّصْدِيقِ بِآيَاتِهِ ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : جَمِيعُهُمْ مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ فِيهَا بِحَسَبِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ أَيْ : بِحَسَبِ مَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ يَبْسُطُ عَلَى هَذَا مِنَ الْمَالِ كَثِيرًا وَيُضَيِّقُ عَلَى هَذَا وَيُقَتِّرُ عَلَى هَذَا رِزْقَهُ جِدًّا ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ مَا لَا يُدْرِكُهَا غَيْرُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] أَيْ : كَمَا هُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الدُّنْيَا هَذَا فَقِيرٌ مُدْقِعٌ ، وَهَذَا غَنِيٌّ مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ : هَذَا فِي الْغُرُفَاتِ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ وَهَذَا فِي الْغَمَرَاتِ فِي أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ . وَأَطْيَبُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ ﷺ : « **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ** »(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ أَيْ : مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لَكُمْ فَهُوَ يُخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَدَلِ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ : « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ** »(٢) وَفِي الْحَدِيث : « **أَنَّ مَلَكَيْنِ يُصْبِحَانِ كُلَّ يَوْمٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا** »(٣).

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُقَرِّعُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةَ

---

(١) مسلم (١٠٥٤) .
(٢) البخاري (حديث ٤٦٨٤) ، ومسلم (٩٩٣) .
(٣) البخاري (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠) .

الَّذِينَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ الَّتِي هِيَ عَلَى صُوَرِهِمْ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى ، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ : أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بِعِبَادَتِكُمْ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي « سُورَةِ الْفُرْقَانِ » : ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وَكَمَا يَقُولُ لِعِيسَى عليه السلام ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وَهَكَذَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أَيْ : تَعَالَيْتَ وَتَقَدَّسْتَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أَيْ : نَحْنُ عَبِيدُكَ وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ ﴿ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ﴾ يَعْنُونَ : الشَّيَاطِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ لَهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَيُضِلُّونَهُمْ ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ١١٧-١١٨] قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أَيْ : لَا يَقَعُ لَكُمْ نَفْعٌ مِمَّنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ نَفْعَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي ادَّخَرْتُمْ عِبَادَتَهَا لِشَدَائِدِكُمْ وَكُرَبِكُمْ الْيَوْمَ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أَيْ : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ الْعُقُوبَةَ وَالْأَلِيمَ مِنَ الْعَذَابِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ بَيِّنَاتٌ يَسْمَعُونَهَا غَضَّةً طَرِيَّةً مِنْ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ ﴿ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ يَعْنُونَ : أَنَّ دِينَ

آبَائِهِمْ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ عِنْدَهُمْ بَاطِلٌ - عَلَيْهِمْ وَعَلَى آبَائِهِمْ لَعَائِنُ اللهِ تَعَالَى - : ﴿ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يَعْنُونَ : الْقُرْآنَ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أَيْ : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى الْعَرَبِ مِنْ كِتَابٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَقَدْ كَانُوا يَوَدُّونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ : لَوْ جَاءَنَا نَذِيرٌ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْ غَيْرِنَا ، فَلَمَّا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كَذَّبُوهُ وَجَحَدُوهُ وَعَانَدُوهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَمِ ﴿ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : أَيْ : مِنَ الْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾[غافر : ٨٢] أَيْ : وَمَا دَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ وَلَا رَدَّهُ بَلْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُ ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي وَنَكَالِي وَانْتِصَارِي لِرُسُلِي ؟.

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الزَّاعِمِينَ أَنَّكَ مَجْنُونٌ ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا آمُرُكُمْ بِوَاحِدَةٍ وَهِيَ : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أَيْ : تَقُومُوا قِيَامًا خَالِصًا لله ﷻ مِنْ غَيْرِ هَوَى وَلَا عَصَبِيَّةٍ ، فَيَسْأَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا : هَلْ بِمُحَمَّدٍ مِنْ جُنُونٍ ؟، فَيَنْصَحُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ أَيْ : يَنْظُرُ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَيَسْأَلُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ عَنْ شَأْنِهِ إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ وَيَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ(١) : صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : ((يَا صَبَاحَاهُ)) فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ ، فَقَالُوا : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي)) قَالُوا : بَلَى ! قَالَ ﷺ: ((فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)) فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟! فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤]

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ جُعْلًا وَلَا عَطَاءً عَلَى أَدَاءِ رِسَالَةِ الله ﷻ إِلَيْكُمْ وَنُصْحِي إِيَّاكُمْ وَأَمْرِكُمْ بِعِبَادَةِ الله ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا أَطْلُبُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أَيْ : عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِإِرْسَالِهِ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر : ١٥] أَيْ : يُرْسِلُ الْمَلَكَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أَيْ : جَاءَ الْحَقُّ مِنَ الله وَالشَّرْعُ الْعَظِيمُ ، وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ وَاضْمَحَلَّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ الله

---

(١) البخاري (٤٨٠١) .

ﷺ المَسْجِدَ الحَرَامَ يَوْمَ الفَتْحِ وَوَجَدَ تِلْكَ الأَصْنَامَ مَنْصُوبَةً حَوْلَ الكَعْبَةِ جَعَلَ يَطْعَنُ الصَّنَمَ مِنْهَا بِسِيَةِ قَوْسِهِ وَيَقْرَأُ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء : ٨١] ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[١] أَيْ : لَمْ يَبْقَ لِلْبَاطِلِ مَقَالَةٌ وَلَا رِيَاسَةٌ وَلَا كَلِمَةٌ ، **وَزَعَمَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ** : أَنَّ المُرَادَ بِالْبَاطِلِ هَا هُنَا : إِبْلِيسُ ، أَيْ : إِنَّهُ لَا يَخْلُقُ أَحَدًا وَلَا يُعِيدُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ المُرَادُ هَهُنَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ﴾ أَيْ : الخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَفِيمَا أَنْزَلَهُ اللهُ ﷺ مِنَ الوَحْيِ وَالحَقِّ المُبِينِ ، فِيهِ الهُدَى وَالبَيَانُ وَالرَّشَادُ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ[٢] ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ تِلْكَ المَسْأَلَةِ فِي المُفَوِّضَةِ : أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي ، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أَيْ : سَمِيعٌ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ ، فِي الصَّحِيحَيْنِ ((**إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا**))[٣].

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ يَا مُحَمَّدُ إِذْ فَزِعَ هَؤُلَاءِ المُكَذِّبُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أَيْ : فَلَا مَفَرَّ لَهُمْ وَلَا وِزْرَ لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أَيْ : لَمْ يُمَكَّنُوا أَنْ يُمْعِنُوا فِي الهَرَبِ ، بَلْ أُخِذُوا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ .

(١) صحيح : وقد تقدم .
(٢) أحمد في المسند (١ / ٤٤٧) .
(٣) البخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٢٧٠٤) .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ : يَعْنِي : قَتْلَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ الطَّامَّةُ الْعُظْمَى ، وَإِنْ كَانَ مَا ذُكِرَ مُتَّصِلًا بِذَلِكَ .

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ : آمَنَّا بِاللهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أَيْ : كَيْفَ لَهُمْ تَعَاطِي الْإِيمَانِ وَقَدْ بَعُدُوا عَنْ مَحَلِّ قَبُولِهِ مِنْهُمْ وَصَارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ لَا دَارُ الِابْتِلَاءِ ، فَلَوْ كَانُوا آمَنُوا فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ ، وَلَكِنْ بَعْدَ مَصِيرِهِمْ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى قَبُولِ الْإِيمَانِ ، كَمَا لَا سَبِيلَ إِلَى حُصُولِ الشَّيْءِ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ بَعِيدٍ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ قَالَ : التَّنَاوُلُ لِذَلِكَ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : التَّنَاوُشُ : تَنَاوُلُهُمْ الْإِيمَانَ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدِ انْقَطَعَتْ عَنْهُمُ الدُّنْيَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : أَمَا إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْأَمْرَ مِنْ حَيْثُ لَا يُنَالُ ، تَعَاطَوُا الْإِيمَانَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - : طَلَبُوا الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا وَالتَّوْبَةَ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، وَلَيْسَ بِحِينِ رَجْعَةٍ وَلَا تَوْبَةٍ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أَيْ : كَيْفَ يَحْصُلُ لَهُمُ الْإِيمَانُ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قَالَ : بِالظَّنِّ .

قُلْتُ: كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ ، فَتَارَةً يَقُولُونَ : شَاعِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : كَاهِنٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : سَاحِرٌ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : مَجْنُونٌ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْمَعَادِ وَيَقُولُونَ : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] قَالَ قَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ : يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ ، لَا بَعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي :

الْإِيمَانَ ، وَقِيلَ : هِيَ التَّوْبَةُ ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ -. **وَقَالَ عَدَدٌ آخَرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ، مِنْ مَالٍ وَزَهْرَةٍ وَأَهْلٍ ، **وَالصَّحِيحُ** : أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، فَإِنَّهُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلَبُوهُ فِي الْآخِرَةِ فَمُنِعُوا مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أَيْ : كَمَا جَرَى لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ بِالرُّسُلِ ، لَمَّا جَاءَهُمْ بَأْسُ اللهِ تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ آمَنُوا فَلَمْ يُقْبَلْ مِنْهُمْ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

[غافر : ٨٤-٨٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أَيْ : كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكٍّ وَرِيبَةٍ ، فَلِهَذَا لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ سَبَأ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ : كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَنَا فَطَرْتُهَا ، أَيْ : بَدَأْتُهَا ، **وَقَالَ أَيْضًا** : ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ : بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أَيْ : بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِ ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ أَيْ : يَطِيرُونَ بِهَا لِيُبَلِّغُوا مَا أُمِرُوا بِهِ سَرِيعًا ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أَيْ : مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلَاثَةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ بَيْنَ كُلِّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ[1] ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : يَزِيدُ فِي الْأَجْنِحَةِ وَخَلْقِهِمْ مَا يَشَاءُ **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يَعْنِي : حُسْنَ الصَّوْتِ .

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ .

---

(١) صحيح : وقد تقدم في سورة الإسراء .

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ(١) : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الصَّلَاةِ : ((**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**)) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ(٢) ﷺ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ يَقُولُ : ((**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ ، مِلْءَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ ، اللَّهُمَّ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**)) وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس : ١٠٧] ، وَلَهَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى تَوْحِيدِهِ فِي إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، كَمَا أَنَّهُ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ ، فَكَذَلِكَ فَلْيُفْرَدْ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يُشْرَكْ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ تُؤْفَكُونَ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَوُضُوحِ هَذَا الْبُرْهَانِ ، وَأَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا تَعْبُدُونَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ .

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾

---

(١) البخاري (حديث ٨٢٤) ، ومسلم (٥٩٣) .
(٢) مسلم (٤٧٧)

يَقُولُ : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ - يَا مُحَمَّدُ - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بِاللهِ وَيُخَالِفُوكَ فِيمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ، فَلَكَ فِيمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ أُسْوَةٌ ، فَإِنَّهُمْ كَذَلِكَ جَاءُوا قَوْمَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَمَرُوهُمْ بِالتَّوْحِيدِ فَكَذَّبُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أَيْ : وَسَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيْ : الْمَعَادُ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أَيْ : الْعِيشَةُ الدَّنِيئَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَتْبَاعِ رُسُلِهِ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ فَلَا تَتَلَهَّوْا عَنْ ذَلِكَ الْبَاقِي بِهَذِهِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - ، أَيْ : لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ وَيَصْرِفَنَّكُمْ عَنِ اتِّبَاعِ رُسُلِ اللهِ وَتَصْدِيقِ كَلِمَاتِهِ ، فَإِنَّهُ غَرَّارٌ كَذَّابٌ أَفَّاكٌ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالْآيَةِ الَّتِي فِي آخِرِ لُقْمَانَ ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان - ٣٣] ، **قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : هُوَ الشَّيْطَانُ ، كَمَا قَالَ الْمُؤْمِنُونَ لِلْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُضْرَبُ ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد : ١٣-١٤]

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِابْنِ آدَمَ ، **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أَيْ : هُوَ مُبَارِزٌ لَكُمْ بِالْعَدَاوَةِ ، فَعَادُوهُ أَنْتُمْ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ ، وَخَالِفُوهُ وَكَذِّبُوهُ فِيمَا يَغُرُّكُمْ بِهِ ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَقْصِدُ أَنْ يُضِلَّكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا مَعَهُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ فَهَذَا هُوَ الْعَدُوُّ الْمُبِينُ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْقَوِيَّ الْعَزِيزَ أَنْ يَجْعَلَنَا أَعْدَاءَ الشَّيْطَانِ ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَ كِتَابِهِ ، وَالِاقْتِفَاءَ بِطَرِيقِ رَسُولِهِ ، إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف - ٥٠]

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم

مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ أَتْبَاعَ إِبْلِيسَ مَصِيرُهُمْ إِلَى السَّعِيرِ ، ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ؛ لأَنَّهُمْ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ وَعَصَوا الرَّحْمَنَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ : لِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ذَنْبٍ ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ عَلَى مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ يَعْنِي : كَالْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا سَيِّئَةً وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أَيْ : أَفَمَنْ كَانَ هَكَذَا - قَدْ أَضَلَّهُ اللهُ - أَلَكَ فِيهِ حِيلَةٌ ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : بِقَدَرِهِ كَانَ ذَلِكَ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ أَيْ : لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللهَ حَكِيمٌ فِي قَدَرِهِ ، إِنَّمَا يُضِلُّ مَنْ يُضِلُّ وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالْعِلْمِ التَّامِّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ مِنْهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى مَا عَلِمَ اللهُ** ﷻ »(1).

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ

---

(1) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) ، وأحمد في المسند (٢ / ١٧٦ ، ١٩٧) ، وابن حبان (١٨١٢) ، والحاكم (١ / ٣٠) وغيرهم من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - مرفوعًا .

خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

كَثِيرًا مَا يَسْتَدِلُّ تَعَالَى عَلَى المَعَادِ بِإِحْيَائِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَمَا فِي سُورَةِ الْحَجِّ يُنَبِّهُ عِبَادَهُ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيْتَةً هَامِدَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ، فَإِذَا أَرْسَلَ إِلَيْهَا السَّحَابَ تَحْمِلُ المَاءَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْهَا ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج - ٥] كَذَلِكَ الْأَجْسَادُ إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بَعْثَهَا وَنُشُورَهَا أَنْزَلَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَطَرًا يَعُمُّ الْأَرْضَ جَمِيعًا ، فَتَنْبُتُ الْأَجْسَادُ فِي قُبُورِهَا ، كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي الْأَرْضِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ « **كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ** »[1] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَلْزَمْ طَاعَةَ اللهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مَقْصُودُهُ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون - ٨] **قَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أَيْ : فَلْيَتَعَزَّزْ بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ ، **وَقِيلَ** : مَنْ كَانَ يُرِيدُ عِلْمَ الْعِزَّةِ لِمَنْ هِيَ ؟ ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ يَعْنِي : الذِّكْرَ وَالتِّلَاوَةَ وَالدُّعَاءَ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : الْكَلِمُ الطَّيِّبُ : ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى يُصْعَدُ بِهِ إِلَى اللهِ ﷻ ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ : أَدَاءُ فَرَائِضِهِ ، وَمَنْ ذَكَرَ اللهَ

(١) البخاري (٤٩٣٥) ، ومسلم (٢٩٥٥) .

وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَى عَمَلِهِ ، فَكَانَ أَوْلَى بِهِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الْكَلَامَ الطَّيِّبَ ، **وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْقَاضِي** : لَوْلَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ لَمْ يُرْفَعِ الْكَلَامُ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ** : لَا يُقْبَلُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : هُمُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، يَعْنِي : يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَهُمْ بُغَضَاءُ إِلَى اللهِ ﷻ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٤٢] ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : هُمُ الْمُشْرِكُونَ . **وَالصَّحِيحُ** : أَنَّهَا عَامَّةٌ وَالْمُشْرِكُونَ دَاخِلُونَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ أَيْ : يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ وَيَظْهَرُ زَيْفُهُمْ عَنْ قَرِيبٍ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ، **فَإِنَّهُ مَا** أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ ، وَمَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللهُ تَعَالَى رِدَاءَهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَالْمُرَائِي لَا يَرُوجُ أَمْرُهُ وَيَسْتَمِرُّ إِلَّا عَلَى غَبِيٍّ ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَفَرِّسُونَ فَلَا يَرُوجُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بَلْ يَنْكَشِفُ لَهُمْ عَنْ قَرِيبٍ ، وَعَالِمُ الْغَيْبِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أَيْ : اِبْتَدَأَ خَلْقَ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أَيْ : ذَكَرًا وَأُنْثَى ، لُطْفًا مِنْهُ وَرَحْمَةً أَنْ جَعَلَ لَكُمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسِكُمْ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ **أَيْ** : هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ بَلْ ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام - ٥٩] ، **وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ** عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٨ - ٩]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ **أَيْ : مَا** يُعْطَى بَعْضُ النُّطَفِ مِنَ الْعُمُرِ الطَّوِيلِ يَعْلَمُهُ ، وَهُوَ عِنْدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ ﴿ **وَلَا** يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ **لَا عَلَى الْعَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ الطَّوِيلَ الْعُمُرَ**

فِي الْكِتَابِ وَفِي عِلْمِ الله تَعَالَى لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ، وَإِنَّمَا عَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْجِنْسِ ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ : **عِنْدِي ثَوْبٌ وَنِصْفُهُ** أَيْ : وَنِصْفُ ثَوْبٍ آخَرَ .

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ قَالَ : مَا لَفَظَتِ الْأَرْحَامُ مِنَ الْأَوْلَادِ مِنْ غَيْرِ تَمَامٍ ، **وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِهَا** : أَلَا تَرَى النَّاسَ يَعِيشُ الْإِنْسَانُ مِائَةَ سَنَةٍ ، وَآخَرُ يَمُوتُ حِينَ يُولَدُ ، فَهَذَا هَذَا . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : وَالَّذِي يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ : فَالَّذِي يَمُوتُ قَبْلَ سِتِّينَ سَنَةٍ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ أَيْ : فِي بَطْنِ أُمِّهِ يُكْتَبُ لَهُ ذَلِكَ ، لَمْ يُخْلَقِ الْخَلْقُ عَلَى عُمُرٍ وَاحِدٍ ، بَلْ لِهَذَا عُمُرٌ وَلِهَذَا عُمُرٌ هُوَ أَنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ، فَكُلُّ ذَلِكَ مَكْتُوبٌ لِصَاحِبِهِ بَالِغٌ مَا بَلَغَ ، **وَقَالَ بَعْضُهُمْ** : بَلْ مَعْنَاهُ ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أَيْ : مَا يُكْتَبُ مِنَ الْأَجَلِ ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ وَهُوَ ذَهَابُهُ قَلِيلًا قَلِيلًا ، الْجَمِيعُ مَعْلُومٌ عِنْدَ الله تَعَالَى سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ ، وَشَهْرًا بَعْدَ شَهْرٍ ، وَجُمُعَةً بَعْدَ جُمُعَةٍ ، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ، الْجَمِيعُ مَكْتُوبٌ عِنْدَ الله تَعَالَى فِي كِتَابٍ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : ((**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**))[1].

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أَيْ : سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ ، لَدَيْهِ عِلْمٌ بِذَلِكَ وَبِتَفْصِيلِهِ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَإِنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ لِلْجَمِيعِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ ، وَخَلَقَ الْبَحْرَيْنِ الْعَذْبَ الزُّلَالَ ، وَهُوَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ كِبَارٍ وَصِغَارٍ ، بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي الْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ وَالْعُمْرَانِ وَالْبَرَارِيِّ وَالْقِفَارِ ، وَهِيَ عَذْبَةٌ سَائِغٌ

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٥٥٧) .

شَرَابُهَا لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : وَهُوَ الْبَحْرُ السَّاكِنُ الَّذِي تَسِيرُ فِيهِ السُّفُنُ الْكِبَارُ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَالِحَةً زُعَاقًا مُرَّةً ،وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أَيْ : مُرٌّ ،ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يَعْنِي : السَّمَكَ ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن : ٢٢-٢٣]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أَيْ : تَمْخُرُهُ وَتَشُقُّهُ بِحَيْزُومِهَا ، وَهُوَ مُقَدَّمُهَا الْمُسَنَّمُ الَّذِي يُشْبِهُ جُؤْجُؤَ الطَّيْرِ ، وَهُوَ صَدْرُهُ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : تَمْخُرُ الرِّيحُ السُّفُنَ ، وَلَا يَمْخَرُ الرِّيحَ مِنَ السُّفُنِ إِلَّا الْعِظَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أَيْ : بِأَسْفَارِكُمْ بِالتِّجَارَةِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ . وَإِقْلِيمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَى تَسْخِيرِهِ لَكُمْ هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ ، وَهُوَ الْبَحْرُ تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْفَ شِئْتُمْ ، وَتَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنْهُ ، بَلْ بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، الْجَمِيعُ مِنْ فَضْلِهِ وِمِنْ رَحْمَتِهِ .

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي تَسْخِيرِهِ اللَّيْلَ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارَ بِضِيَائِهِ ، وَيَأْخُذُ مِنْ طُولِ هَذَا فَيَزِيدُهُ فِي قِصَرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَتَقَارَضَانِ صَيْفًا وَشِتَاءً ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أَيْ : وَالنُّجُومَ السَّيَّارَاتِ ، وَالثَّوَابِت الثَّاقِبَات بِأَضْوَائِهِنَّ أَجْرَامَ السَّمَاوَاتِ ، الْجَمِيعُ يَسِيرُونَ بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ . وَعَلَى مِنْهَاجٍ مُقَنَّنٍ مُحَرَّرٍ ، تَقْدِيرًا مِنْ عَزِيزٍ عَلِيمٍ ﴿ كُلٌّ

تجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أَيْ : إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي فَعَلَ هَذَا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي هِيَ عَلَى صُورَةِ مَنْ تَزْعُمُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : الْقِطْمِيرُ هُوَ : اللِّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ ، أَيْ : لَا يَمْلِكُونَ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا بِمِقْدَارِ هَذَا الْقِطْمِيرِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْآلِهَةَ الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ ؛ لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهَا ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أَيْ : يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أَيْ : وَلَا يُخْبِرُكَ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَآلِهَا ، وَمَا تَصِيرُ إِلَيْهِ مِثْلُ خَبِيرٍ بِهَا . **قَالَ قَتَادَةُ** : يَعْنِي : نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْبَرَ بِالْوَاقِعِ لَا مَحَالَةَ .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِغِنَائِهِ عَمَّا سِوَاهُ ، وَبِافْتِقَارِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا إِلَيْهِ وَتَذَلُّلِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : هُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَهُوَ تَعَالَى الْغَنِيُّ عَنْهُمْ بِالذَّاتِ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ ﴿ **وَٱللَّهُ هُوَ** ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أَيْ : **هُوَ الْمُنْفَرِدُ** بِالْغِنَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُوَ الْحَمِيدُ فِي جَمِيعِ

مَا يَفْعَلُهُ وَيَقُولُهُ وَيُقَدِّرُهُ وَيَشْرَعُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَيْ : لَوْ شَاءَ لَأَذْهَبَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَأَتَى بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ ، وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ أَيْ : وَإِنْ تَدْعُ نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِأَوْزَارِهَا إِلَى أَنْ تُسَاعَدَ عَلَى حَمْلِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْأَوْزَارِ أَوْ بَعْضِهِ ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أَيْ : وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ أَبَاهَا أَوِ ابْنَهَا ، كُلٌّ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ وَحَالِهِ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَتَّعِظُ بِمَا جِئْتَ بِهِ أُولُو الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى ، الْخَائِفُونَ مِنْ رَبِّهِمُ الْفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أَيْ : وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : كَمَا لَا تَسْتَوِي هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُتَبَايِنَةُ الْمُخْتَلِفَةُ ، كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ لَا يَسْتَوِيَانِ ، بَلْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَبَوْنٌ كَثِيرٌ ، وَكَمَا لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، كَذَلِكَ لَا تَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الْأَحْيَاءُ ، وَلِلْكَافِرِينَ وَهُمُ الْأَمْوَاتُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَمَن

كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وَقَالَ ﷺ: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤]، فَالْمُؤْمِنُ بَصِيرٌ سَمِيعٌ فِي نُورٍ ، يَمْشِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِهِ الْحَالُ فِي الْجَنَّاتِ ذَاتِ الظِّلَالِ وَالْعُيُونِ ، وَالْكَافِرُ أَعْمَى وَأَصَمُّ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشِي ، لَا خُرُوجَ مِنْهَا بَلْ هُوَ يَتِيهُ فِي غَيِّهِ وَضَلَالِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، حَتَّى يُفْضِي بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْحَرُورِ وَالسَّمُومِ وَالْحَمِيمِ ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٣-٤٤]

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أَيْ : يَهْدِيهِمْ إِلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ وَقَبُولِهَا وَالِانْقِيَادِ لَهَا ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ أَيْ : كَمَا لَا يَنْتَفِعُ الْأَمْوَاتُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَصَيْرُورَتِهِمْ إِلَى قُبُورِهِمْ ، وَهُمْ كُفَّارٌ بِالْهِدَايَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا ، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ - الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ - لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِمْ وَلَا تَسْتَطِيعُ هِدَايَتَهُمْ . ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْإِنْذَارُ ، وَاللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أَيْ : بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أَيْ : وَمَا مِنْ أُمَّةٍ خَلَتْ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمُ النُّذُرَ ، وَأَزَاحَ عَنْهُمُ الْعِلَلَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وَهِيَ : الْمُعْجِزَاتُ الْبَاهِرَاتُ وَالْأَدِلَّةُ الْقَاطِعَاتُ ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ ، وَهِيَ الْكُتُبُ ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ أَيْ : الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أَيْ : وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَذَّبَ أُولَئِكَ رُسُلَهُمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ فَأَخَذْتُهُمْ ، أَيْ : بِالْعِقَابِ وَالنَّكَالِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ رَأَيْتَ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ عَظِيمًا شَدِيدًا بَلِيغًا .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ

عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِهِ الْأَشْيَاءَ الْمُتَنَوِّعَةَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي يُنَزِّلُهُ مِنَ السَّمَاءِ ، يُخْرِجُ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا مِنْ أَصْفَرَ وَأَحْمَرَ وَأَخْضَرَ وَأَبْيَضَ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ أَلْوَانِ الثِّمَارِ ، كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ مِنْ تَنَوُّعِ أَلْوَانِهَا وَطُعُومِهَا وَرَوَائِحِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ أَيْ : وَخَلَقَ الْجِبَالَ كَذَلِكَ مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ ، كَمَا هُوَ الْمُشَاهَدُ أَيْضًا مِنْ بِيضٍ وَحُمْرٍ ، وَفِي بَعْضِهَا طَرَائِقُ ، وَهِيَ : الْجُدَدُ ، جَمْعُ جُدَّةٍ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ أَيْضًا . وَمِنْهَا ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قِيلَ : الْجِبَالُ الطِّوَالُ السُّودُ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْعَرَبُ إِذَا وَصَفُوا الْأَسْوَدَ بِكَثْرَةِ السَّوَادِ ، قَالُوا : أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ أَيْ : كَذَلِكَ الْحَيَوَانَاتُ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ - وَهُوَ كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى قَوَائِمَ - وَالْأَنْعَامُ : مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، كَذَلِكَ هِيَ مُخْتَلِفَةٌ أَيْضًا ، فَالنَّاسُ مِنْهُمْ بَرْبَرٌ وَحُبُوشٌ وَطَمَاطِمُ فِي غَايَةِ السَّوَادِ ، وَصَقَالِبَةٌ وَرُومٌ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ ، وَالْعَرَبُ بَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْهُنُودُ دُونَ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] ، وَكَذَلِكَ الدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ حَتَّى فِي الْجِنْسِ الْوَاحِدِ ، بَلِ النَّوْعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مُخْتَلِفُ الْأَلْوَانِ ، بَلِ الْحَيَوَانُ الْوَاحِدُ يَكُونُ أَبْلَقَ ، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ وَهَذَا اللَّوْنِ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ الْعَارِفُونَ بِهِ ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ لِلْعَظِيمِ الْقَدِيرِ الْعَلِيمِ ، الْمَوْصُوفِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، الْمَنْعُوتِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، كُلَّمَا كَانَتِ

المَعْرِفَةُ بِهِ أَتَمَّ ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَكْمَلَ كَانَتِ الْخَشْيَةُ لَهُ أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي الْأَوْقَاتِ الْمَشْرُوعَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أَيْ : يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْدَ اللهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ ، كَمَا قَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ ، عِنْدَ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ ، أَنَّهُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : « **إِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ** » ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لِيُوَفِّيَهُمْ ثَوَابَ مَا عَمِلُوهُ وَيُضَاعِفَهُ لَهُمْ بِزِيَادَاتٍ لَمْ تَخْطُرْ لَهُمْ ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِمْ ﴿ شَكُورٌ ﴾ لِلْقَلِيلِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ . **قَالَ قَتَادَةُ** : كَانَ مُطَرِّفٌ - رَحِمَهُ اللهُ - إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ، يَقُولُ : هَذِهِ آيَةُ الْقُرَّاءِ .

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكِتَابِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ بِصِدْقِهَا ، كَمَا شَهِدَتْ هِيَ لَهُ بِالنُّبوةِ ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أَيْ : هُوَ خَبِيرٌ بِهِمْ بَصِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مَا يُفَضِّلُهُ بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ ، وَلِهَذَا فَضَّلَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ ، وَفَضَّلَ النَّبِيِّينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَجَعَلَ مَنْزِلَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوْقَ جَمِيعِهِمْ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ثُمَّ جَعَلْنَا الْقَائِمِينَ بِالْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا - وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ - ثُمَّ قَسَّمَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ : فَقَالَ : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ، وَهُوَ الْمُفَرِّطُ فِي فِعْلِ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ ، الْمُرْتَكِبُ لِبَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ هُوَ الْمُؤَدِّي لِلْوَاجِبَاتِ التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ ، وَقَدْ يَتْرُكُ بَعْضَ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمَكْرُوهَاتِ ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وَهُوَ : الْفَاعِلُ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ ، التَّارِكُ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ . **رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قَالَ : هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَّثَهُمُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ فَظَالِمُهُمْ يُغْفَرُ لَهُ ، وَمُقْتَصِدُهُمْ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَسَابِقُهُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ . **وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** : أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عِوَجٍ وَتَقْصِيرٍ . **وَقَالَ آخَرُونَ** : بَلِ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْوَارِثِينَ لِلْكِتَابِ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : وَهَذِهِ الْأَقْسَامُ الثَّلَاثَةُ كَالْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَّلِ ((**سُورَةِ الْوَاقِعَةِ**)) وَآخِرِهَا ، **وَالصَّحِيحُ** : أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ ، وَكَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ طُرُقٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا ، فَإِنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَالْعُلَمَاءُ أَغْبَطُ النَّاسِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَأْوَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أَيْ : جَنَّاتُ الْإِقَامَةِ ، يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ

مَعَادِهِمْ وَقُدُومِهِمْ عَلَى الله ﷻ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((**تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ**))[1].

﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا فَأَبَاحَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ**))[2] ، وَقَالَ : ((**هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ**))[3].

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ ، وَهُوَ الْخَوْفُ مِنَ الْمَحْذُورِ ، أَزَاحَهُ عَنَّا ، وَأَرَاحَنَا مِمَّا كُنَّا نَتَخَوَّفُهُ وَنَحْذَرُهُ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يَقُولُونَ : الَّذِي أَعْطَانَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَهَذَا الْمَقَامَ - مِنْ فَضْلِهِ وَمَنِّهِ وَرَحْمَتِه - لَمْ تَكُنْ أَعْمَالُنَا تُسَاوِي ذَلِكَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[4] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : ((**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**)) قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : ((**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ تَعَالَى بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**))

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أَيْ : لَا يَمَسُّنَا فِيهَا عَنَاءٌ وَلَا إِعْيَاءٌ ، وَالنَّصَبُ وَاللُّغُوبُ : كُلٌّ مِنْهُمَا يُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَبِ ، وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِنَفْيِ هَذَا وَهَذَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا تَعَبَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَرْوَاحِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْئِبُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ فِي الدُّنْيَا ، فَسَقَطَ عَنْهُمُ التَّكْلِيفُ بِدُخُولِهَا ، وَصَارُوا فِي رَاحَةٍ دَائِمَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤]

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ

(١) مسلم (حديث ٢٥٠) .
(٢) البخاري (٥٨٣٢) ، ومسلم (٢٠٧٣) .
(٣) البخاري (٥٨٣١) ، ومسلم (٢٠٦٧) .
(٤) البخاري (٥٦٧٣) ، (٦٤٦٣) ، ومسلم (٢٨١٦) بنحوه .

فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالَ السُّعَدَاءِ شَرَعَ فِي بَيَانِ مَآلِ الْأَشْقِيَاءِ، فَقَالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: ٧٤]، وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « **أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ** »(١)، وَقَالَ ﷻ: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فَهُمْ فِي حَالِهِمْ ذَلِكَ يَرَوْنَ مَوْتَهُمْ رَاحَةً لَهُمْ، وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أَيْ: هَذَا جَزَاءُ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أَيْ: يُنَادُونَ فِيهَا، يَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ ﷻ بِأَصْوَاتِهِمْ ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أَيْ: يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَعْمَلُوا غَيْرَ عَمَلِهِمُ الْأَوَّلِ، وَقَدْ عَلِمَ الرَّبُّ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، فَلِهَذَا لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى سُؤَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ [غافر: ١١-١٢] أَيْ: لَا يُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ وَلَوْ رُدِدْتُمْ لَعُدْتُمْ إِلَى مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ أَيْ: أَوَمَا عِشْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَارًا لَوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِعُ بِالْحَقِّ لَانْتَفَعْتُمْ بِهِ فِي مُدَّةِ عُمُرِكُمْ؟.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: الْعُمُرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ تَعَالَى لِابْنِ آدَمَ ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ أَرْبَعُونَ سَنَةً.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **أَعْذَرَ اللهُ ﷻ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ عُمُرَهُ**

---

(١) مسلم (حديث ١٨٥).

حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً))[1]. وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ((**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**))[2].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ[3] أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ عَاشَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً ، وَقِيلَ سِتِّينَ ، وَقِيلَ : خَمْسًا وَسِتِّينَ ، وَالْمَشْهُورُ الْأَوَّلُ وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : الشَّيْبَ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : يَعْنِي بِهِ رَسُولَ الله ﷺ ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النجم : ٥٦] . وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالْعُمُرِ وَالرُّسُلِ . وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧-٧٨] أَيْ : لَقَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ فَأَبَيْتُمْ وَخَالَفْتُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨-٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أَيْ : فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ جَزَاءً عَلَى مُخَالَفَتِكُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ فِي مُدَّةِ أَعْمَارِكُمْ ، فَمَا لَكُمُ الْيَوْمَ نَاصِرٌ يُنْقِذُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَغْلَالِ .

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ السَّرَائِرُ ، وَ تَنْطَوِي عَلَيْهِ الضَّمَائِرُ ، وَسَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، **ثُمَّ قَالَ** ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ

(١) البخاري (٦٤١٩) .
(٢) إسناده حسن .
(٣) البخاري (٤٤٦٦) .

خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ : يَخْلُفُ قَوْمٌ لِآخَرِينَ قَبْلَهُمْ ، وَجِيلٌ لِجِيلٍ قَبْلَهُمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[النمل : ٦٢]

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ دُونَ غَيْرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أَيْ : كُلَّمَا اِسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ أَبْغَضَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، وَكُلَّمَا اِسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا طَالَ عُمُرُ أَحَدِهِمْ وَحَسُنَ عَمَلُهُ اِرْتَفَعَتْ دَرَجَتُهُ وَمَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَزَادَ أَجْرُهُ وَأَحَبَّهُ خَالِقُهُ وَبَارِئُهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ، أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أَيْ : أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ كِتَابًا بِمَا يَقُولُونَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أَيْ : بَلْ إِنَّمَا اِتَّبَعُوا فِي ذَلِكَ أَهْوَاءَهُمْ وَآرَاءَهُمْ وَأَمَانِيَّهُمُ الَّتِي تَمَنَّوْهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، وَهِيَ غُرُورٌ وَبَاطِلٌ وَزُورٌ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ عَنْ أَمْرِهِ ، وَمَا جَعَلَ فِيهِمَا مِنَ الْقُوَّةِ الْمَاسِكَةِ لَهُمَا ، فَقَالَ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أَيْ : أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَاكِنِهِمَا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج : ٦٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ

ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ أَيْ : لَا يَقْدِرُ عَلَى دَوَامِهِمَا وَإِبْقَائِهِمَا إِلَّا هُوَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ حَلِيمٌ غَفُورٌ أَنْ يَرَى عِبَادَهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ ، وَهُوَ يَحْلُمُ فَيُؤَخِّرُ ، وَيُنْظِرُ وَيُؤَجِّلُ وَلَا يَعْجَلُ ، وَيَسْتُرُ آخَرِينَ وَيَغْفِرُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ . وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِأَنَّهُ ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : ((**إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، وَيَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلَ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ - أَوِ النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**))[1].

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ[2] قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ جِئْتَ ؟ قَالَ : مِنَ الشَّامِ ، قَالَ : مَنْ لَقِيتَ ؟ قَالَ : لَقِيتُ كَعْبًا ، قَالَ : مَا حَدَّثَكَ ؟ قَالَ : حَدَّثَنِي أَنَّ السَّمَاوَاتِ تَدُورُ عَلَى مَنْكِبِ مَلَكٍ ، قَالَ : أَفَصَدَّقْتَهُ أَوْ كَذَّبْتَهُ ؟ قَالَ : مَا صَدَّقْتُهُ وَلَا كَذَّبْتُهُ ، قَالَ : لَوَدِدْتُ أَنَّكَ افْتَدَيْتَ مِنْ رِحْلَتِكَ إِلَيْهِ بِرَاحِلَتِكَ وَرَحْلِهَا ، كَذَبَ كَعْبٌ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ .

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ قَبْلَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ

(١) مسلم (١٧٩) .

(٢) إسناده صحيح .

إِلَيْهِمْ ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ . قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾[الأنعام : ١٥٦-١٥٧] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الصافات : ١٦٧-١٧٠]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ - بِمَا أُنْزِلَ مَعَهُ مِنَ الْكِتَابِ الْعَظِيمِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أَيْ : مَا ازْدَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ : اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ أَيْ : وَمَكَرُوا بِالنَّاسِ فِي صَدِّهِمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ أَيْ : وَمَا يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ . وَقَالَ **مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ** : ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ لَمْ يَنْجُ حَتَّى يَنْزِلَ بِهِ مِنْ مَكْرٍ أَوْ بَغْيٍ أَوْ نَكْثٍ ، وَتَصْدِيقُهَا فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾[يونس : ٢٣] ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾[الفتح : ١٠]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ يَعْنِي : عُقُوبَةَ اللهِ لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَهُ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أَيْ : لَا تُغَيَّرُ وَلَا تُبَدَّلُ بَلْ هِيَ جَارِيَةٌ كَذَلِكَ فِي كُلِّ مُكَذِّبٍ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أَيْ : ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾[الرعد : ١١] ، وَلَا يَكْشِفُ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُحَوِّلُهُ عَنْهُمْ أَحَدٌ .

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى

ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ؟ كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ؟ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ، فَخُلِّيَتْ مِنْهُمْ مَنَازِلُهُمْ ، وَسُلِبُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، بَعْدَ كَمَالِ الْقُوَّةِ وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالعُدَد وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، فَمَا أَغْنَى ذَلِكَ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَ كَوْنَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أَيْ : عَلِيمٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، قَدِيرٌ عَلَى مَجْمُوعِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أَيْ : لَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبِهِمْ لَأَهْلَكَ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَمَا يَمْلِكُونَهُ مِنْ دَوَابٍّ وَأَرْزَاقٍ . **عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ قَالَ** : كَادَ الْجُعَلُ أَنْ يُعَذَّبَ فِي جُحْرِهِ بِذَنْبِ ابْنِ آدَمَ ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أَيْ : لَمَا سَقَاهُمُ المَطَرَ فَمَاتَتْ جَمِيعُ الدَّوَابِّ ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ : وَلَكِنْ يُنْظِرُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُحَاسِبُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَيُوَفِّي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، فَيُجَازِي بِالثَّوَابِ أَهْلَ الطَّاعَةِ ، وَبِالْعِقَابِ أَهْلَ المَعْصِيَةِ . **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ فَاطِرٍ ، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّةُ

تفسير سورة يس
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، **وَرُوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ** أَنَّ ﴿ يس ﴾ بِمَعْنَى : يَا إِنْسَانُ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : هُوَ كَذَلِكَ فِي لُغَةِ الْحَبَشَةِ ، **وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : هُوَ اسْمٌ مِن أَسْمَاءِ الله تَعَالَى .

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أَيْ : الْمُحْكَمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴿ إِنَّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أَيْ : عَلَى مَنْهَجٍ وَدِينٍ قَوِيمٍ ، وَشَرْعٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أَيْ : هَذَا الصِّرَاطُ وَالْمَنْهَجُ وَالدِّينُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ، مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ، الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢-٥٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يَعْنِي : بِهِمُ الْعَرَبُ ، فَإِنَّهُ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِهِ ، وَذِكْرُهُمْ وَحْدَهُمْ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ ، كَمَا أَنَّ ذِكْرَ بَعْضِ الْأَفْرَادِ لَا يَنْفِي الْعُمُومَ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي عُمُومِ بَعْثَتِهِ ﷺ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : لَقَدْ وَجَبَ الْعَذَابُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَنَّ اللهُ حَتَّمَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

بِالله وَلَا يُصَدِّقُونَ رُسُلَهُ .

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ المَحْتُومَ عَلَيْهِمْ بِالشَّقَاءِ ، نِسْبَتُهُمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى كَنِسْبَةِ مَنْ جُعِلَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ ، فَجَمَعَ يَدَيْهِ مَعَ عُنُقِهِ تَحْتَ ذَقَنِهِ ، فَارْتَفَعَ رَأْسُهُ فَصَارَ مُقْمَحًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ وَالْمُقْمَحُ هُوَ : الرَّافِعُ رَأْسَهُ ، كَمَا قَالَتْ أُمُّ زَرْعٍ فِي كَلَامِهَا : « **وَأَشْرَبُ فَأَتَقَمَّحُ** »[1] أَيْ : أَشْرَبُ فَأَرْوَى وَأَرْفَعُ رَأْسِي تَهْنِيئًا وَتَرَوِّيًا ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ عَنْ ذِكْرِ الْيَدَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتَا مُرَادَتَيْنِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ... أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَأَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ ... أَمِ الشَّرُّ الَّذِي لَا يَأْتَلِينِي

فَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ الشَّرِّ لَمَّا دَلَّ الْكَلَامُ وَالسِّيَاقُ عَلَيْهِ ، وَكَذَا هَذَا ، لَمَّا كَانَ الْغُلُّ إِنَّمَا يُعْرَفُ فِيمَا جَمَعَ الْيَدَيْنِ مَعَ الْعُنُقِ اكْتَفَى بِذِكْرِ الْعُنُقِ عَنِ الْيَدَيْنِ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قَالَ : رَافِعو رُءُوسِهِمْ ، وَأَيْدِيهِمْ مَوْضُوعَةٌ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَهُمْ مَغْلُولُونَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : عَنِ الْحَقِّ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : عَنِ الْحَقِّ فَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : فِي الضَّلَالَاتِ

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ ﴾ أَيْ : أَغْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(١) انظر البخاري (٥١٨٩) .

أَيْ : لَا يَنْتَفِعُونَ بِخَيْرٍ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : جَعَلَ اللهُ تَعَالَى هَذَا السَّدَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ فَهُمْ لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ وَقَرَأَ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧]، ثُمَّ قَالَ : مَنْ مَنَعَهُ اللهُ تَعَالَى لَا يَسْتَطِيعُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ : قَدْ خَتَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالَةِ ، فَمَا يُفِيدُ فِيهِمُ الْإِنْذَارُ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُهَا فِي أَوَّلِ « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ، وَكَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنْذَارِكَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الذِّكْرَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أَيْ : حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَعَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُهُ ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أَيْ : لِذُنُوبِهِ ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أَيْ : كَبِيرٍ وَاسِعٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢]

ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحْيِي قَلْبَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ - الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ بِالضَّلَالَةِ - فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْحَقِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قَسْوَةِ الْقُلُوبِ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : نَكْتُبُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَآثَارَهُمُ الَّتِي أَثَّرُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَقَوْلِهِ ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ »[1] ،

---

(١) مسلم (حديث ١٠١٧) .

وَقَوْلُهُ ﷺ : « **إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : مِنْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ مِنْ بَعْدِهِ** »[1] ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ آثَارُ خُطَاهُمْ إِلَى الطَّاعَةِ أَوِ الْمَعْصِيَةِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ** : ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ يَعْنِي : خُطَاهُمْ . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : لَوْ كَانَ اللهُ ﷻ مُغْفِلًا شَيْئًا مِنْ شَأْنِكَ يَا ابْنَ آدَمَ أَغْفَلَ مَا تَعْفِي الرِّيَاحُ مِنْ هَذِهِ الْآثَارِ ، وَلَكِنْ أَحْصَى عَلَى ابْنِ آدَمَ أَثَرَهُ وَعَمَلَهُ كُلَّهُ ، حَتَّى أَحْصَى هَذَا الْأَثَرَ فِيمَا هُوَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكْتُبَ أَثَرَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى فَلْيَفْعَلْ . **وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثُ** .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ[2] - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ ، فَأَرَادَ بَنُو سَلَمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ : « **إِنِّي بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ** » قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ ﷺ : « **يَا بَنِي سَلَمَةَ دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ ، دِيَارُكُمْ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ** » .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ كَانَتْ بَنُو سَلَمَةَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَنَزَلَتْ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِنَّ آثَارَكُمْ تُكْتَبُ** » فَلَمْ يَنْتَقِلُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ مَكْتُوبٌ فِي كِتَابٍ مَسْطُورٍ مَضْبُوطٍ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ، وَالْإِمَامُ الْمُبِينُ هَهُنَا : هُوَ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَكَذَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أَيْ : بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمُ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

[الكهف : ٤٩]

---

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٦٦٥) .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَاضْرِبْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبُوكَ ﴿ مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : إِنَّهَا مَدِينَةُ أَنْطَاكِيَّةَ ، وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ كَوْنَهَا أَنْطَاكِيَّةَ ، بِمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدَ تَمَامِ الْقِصَّةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أَيْ : بَادَرُوهُمَا بِالتَّكْذِيبِ ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أَيْ : قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَدْنَا أَزْرَهُمَا بِرَسُولٍ ثَالِثٍ . ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ أَيْ : لِأَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ : ﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ . ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أَيْ : فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَرٌ وَنَحْنُ بَشَرٌ ، فَلِمَ لَا أُوحِيَ إِلَيْنَا مِثْلُكُمْ ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلَائِكَةً ، وَهَذِهِ شُبْهَةُ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : ٦] أَيْ : اِسْتَعْجَبُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكَرُوهُ ، وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] ، وَلِهَذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أَيْ : أَجَابَتْهُمْ رُسُلُهُمُ الثَّلَاثَةُ قَائِلِينَ : اللهُ يَعْلَمُ أَنَّا رُسُلُهُ إِلَيْكُمْ ، وَلَوْ كُنَّا كَذَبَةً عَلَيْهِ ؛ لَانْتَقَمَ مِنَّا أَشَدَّ الِانْتِقَامِ وَلَكِنَّهُ سَيُعِزُّنَا وَيَنْصُرُنَا عَلَيْكُمْ ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يَقُولُونَ : إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغَكُمْ مَا أُرْسِلْنَا بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ أَطَعْتُمْ كَانَتْ لَكُمُ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ لَمْ تُجِيبُوا

فَسَتَعْلَمُونَ غِبَّ ذَلِكَ .

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أَيْ : لَمْ نَرَ عَلَى وُجُوهِكُمْ خَيْرًا فِي عَيْشِنَا . **وَقَالَ قَتَادَةُ** : يَقُولُونَ إِنْ أَصَابَنَا شَرٌّ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِكُمْ . **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : يَقُولُونَ : لَمْ يَدْخُلْ مِثْلُكُمْ إِلَى قَرْيَةٍ إِلَّا عُذِّبَ أَهْلُهَا ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : بِالْحِجَارَةِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : بِالشَّتْمِ . ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ : عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَقَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ : مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وَقَالَ قَوْمُ صَالِحٍ : ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَوَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ** : أَيْ : أَعْمَالُكُمْ مَعَكُمْ . وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ أَجْلِ أَنَّا ذَكَّرْنَاكُمْ وَأَمَرْنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، قَابَلْتُمُونَا بِهَذَا الْكَلَامِ وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ . **قَالَ قَتَادَةُ** : أَيْ : إِنْ ذَكَّرْنَاكُمْ بِاللهِ تَطَيَّرْتُمْ بِنَا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ .

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ هَمُّوا بِقَتْلِ رُسُلِهِمْ فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى أَيْ لِيَنْصُرَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ . ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يَحُضُّ قَوْمَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَتَوْهُمْ ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أَيْ : عَلَى إِبْلَاغِ الرِّسَالَةِ ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أَيْ : وَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّذِي خَلَقَنِي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : يَوْمَ الْمَعَادِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ ﴿ إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[يونس - ١٠٧] ، وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا تَمْلِكُ دَفْعَ ذَلِكَ وَلَا مَنْعَهُ ، وَلَا يُنْقِذُونَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ أَيْ : إِنِ اتَّخَذْتُهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَيْ : فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابُهُ لِلرُّسُلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أَيْ : الَّذِي أَرْسَلَكُمْ ﴿ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَيْ : فَاشْهَدُوا لِي بِذَلِكَ عِنْدَهُ . **وَقَدْ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، فَقَالَ** : وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الرُّسُلَ ، وَقَالَ لَهُمْ : اِسْمَعُوا قَوْلِي لِتَشْهَدُوا لِي بِمَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّي ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ . وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَظْهَرُ فِي الْمَعْنَى ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : جَعَلُوا يَرْجُمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَقْعَصُوهُ ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَلِكَ ، فَقَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللهُ .

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

قَالَ اللهُ لَهُ : ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فَدَخَلَهَا ، فَهُوَ يُرْزَقُ مِنْهَا ، قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنْهُ سَقَمَ الدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَبَهَا ، **قَالَ قَتَادَةُ** : لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِحًا ، لَا تَلْقَاهُ غَاشًّا ، لَمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ تَمَنَّى وَاللهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُهُ بِمَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَةِ اللهِ ، وَمَا هَجَمَ عَلَيْهِ . وَمَقْصُودُهُ : أَنَّهُمْ لَوِ اطَّلَعُوا عَلَى مَا حَصَلَ لِي مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّسُلِ - فَرَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ - فَلَقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ غَضَبًا مِنْهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَيْهِمْ ؛ لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَقَتَلُوا وَلِيَّهُ ، وَيَذْكُرُ ﷻ أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ وَمَا احْتَاجَ فِي إِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى إِنْزَالِ جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ ، بَلِ الْأَمْرُ كَانَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ .

وَقِيلَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ أَيْ : وَمَا كُنَّا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ عَلَى الْأُمَمِ إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ ، بَلْ نَبْعَثُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا يُدَمِّرُهُمْ ، **وَقِيلَ** : الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أَيْ : مِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى إِلَيْهِمْ . **قَالَ قَتَادَةُ** : فَلَا وَاللهِ مَا عَاتَبَ اللهُ قَوْمَهُ بَعْدَ قَتْلِهِ ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴾ **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ** : وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لأَنَّ الرِّسَالَةَ لَا تُسَمَّى جُنْدًا .

يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : يَا وَيْلَ الْعِبَادِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أَيْ : يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى مَا ضَيَّعَتْ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، وَفَرَّطَتْ فِي جَنْبِ اللهِ ، وَفِي بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ ((**يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا**)) ، وَمَعْنَى هَذَا : يَا حَسْرَتَهُمْ وَنَدَامَتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَايَنُوا الْعَذَابَ ، كَيْفَ كَذَّبُوا رُسُلَ

الله وَخَالَفُوا أَمْرَ الله ؟ فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا الْمُكَذِّبُونَ مِنْهُمْ ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ : يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِلَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيْ : أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ اللهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ، كَيْفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّةٌ وَلَا رَجْعَةٌ وَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ كَثِيرٌ مِنْ جَهَلَتِهِمْ وَفَجَرَتِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وَهُمُ الْقَائِلُونَ بِالدَّوْرِ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ وَهُمُ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانُوا فِيهَا ، فَرَدَّ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَيْهِمْ بَاطِلَهُمْ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : وَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ سَتُحْضَرُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ الله - جَلَّ وَعَلَا - فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَمَعْنَى هَذِهِ كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [هود : ١١١] ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي أَدَاءِ هَذَا الْحَرْفِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ : « **وَإِنْ كُلٌّ لَمَا** » بِالتَّخْفِيفِ ، فَعِنْدَهُ أَنَّ ﴿ إِنْ ﴾ لِلْإِثْبَاتِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَدَّدَ ﴿ لَمَّا ﴾ وَجَعَلَ ﴿ إِنْ ﴾ نَافِيَةً ﴿ وَلَمَّا ﴾ بِمَعْنَى : إِلَّا ، **تَقْدِيرُهُ** : وَمَا كُلٌّ إِلَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ، وَمَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ أَيْ : دَلَالَةٌ لَهُمْ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ ، وَقُدْرَتِهِ التَّامَّةِ

وَإِحْيَائِهِ المَوْتَى ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أَيْ : إِذَا كَانَتْ مَيْتَةً هَامِدَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِنَ النَّبَاتِ ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَةً فِي أَمْكِنَةٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ لَمَّا امْتَنَّ عَلَى خَلْقِهِ بِإِيجَادِ الزُّرُوعِ لَهُمْ ، عَطَفَ بِذِكْرِ الثِّمَارِ وَتَنَوُّعِهَا وَأَصْنَافِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ : وَمَا ذَاكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِمْ ، لَا بِسَعْيِهِمْ وَلَا كَدِّهِمْ ، وَلَا بِحَوْلِهِمْ وَبِقُوَّتِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ : فَهَلَّا يَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ - بَلْ جَزَمَ بِهِ وَلَمْ يَحْكِ غَيْرَهُ إِلَّا احْتِمَالًا - أَنَّ « مَا » فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بِمَعْنَى : « الَّذِي » تَقْدِيرُهُ : لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَيْ : غَرَسُوهُ وَنَصَبُوهُ ، قَالَ : وَهِيَ كَذَلِكَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ : « لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ » .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أَيْ : مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَنَبَاتٍ ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، فَجَعَلَهُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ : مِنْ مَخْلُوقَاتٍ شَتَّى لَا يَعْرِفُونَهَا ، كَمَا قَالَ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩]

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى وَمِنَ الدَّلَالَةِ لَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْعَظِيمَةِ خَلْقُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، هَذَا بِظَلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ ، وَجَعْلُهُمَا يَتَعَاقَبَانِ ، يَجِيءُ هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا ،

وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَجِيءُ هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ **هَهُنَا** : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ أَيْ : نَصْرِمُهُ مِنْهُ فَيَذْهَبُ فَيُقْبِلُ اللَّيْلُ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « **إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ** »(١).

وَقَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ **قَوْلَانِ** : **أَحَدُهُمَا** : أَنَّ الْمُرَادَ مُسْتَقَرُّهَا الْمَكَانِيُّ ، وَهُوَ تَحْتَ الْعَرْشِ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ فِي ذَلِكَ الْجَانِبِ ، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْتَ الْعَرْشِ هي وَجَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ ، لأَنَّهُ سَقْفُهَا ، وَلَيْسَ بِكُرَةٍ كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْهَيْئَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ قُبَّةٌ ذَاتُ قَوَائِمَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ مِمَّا يَلِي رُءُوسَ النَّاسِ ، فَالشَّمْسُ إِذَا كَانَتْ فِي قُبَّةِ الْفَلَكِ وَقْتَ الظَّهِيرَةِ تَكُونُ أَقْرَبَ مَا تَكُونُ إِلَى الْعَرْشِ ، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلَكِهَا الرَّابِعِ إِلَى مُقَابَلَةِ هَذَا الْمَقَامِ ، وَهُوَ وَقْتُ نِصْفِ اللَّيْلِ ، صَارَتْ أَبْعَدَ مَا تَكُونُ إِلَى الْعَرْشِ ، فَحِينَئِذٍ تَسْجُدُ وَتَسْتَأْذِنُ فِي الطُّلُوعِ ، كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ، فَقَالَ ﷺ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ ؟** » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ ﷺ : « **فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(٢) » .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قَالَ ﷺ : « **مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ** »(٣).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضا قَالَ : كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ ﷺ : « **يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ ؟** » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ

---

(١) البخاري (١٩٥٤) ، ومسلم (١١٠٠) .
(٢) البخاري (حديث ٤٨٠٢) ، ومسلم (١٥٩) .
(٣) البخاري (٤٨٠٣) ، ومسلم (في طرق حديث ١٥٩) .

ﷺ : ((**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهَا** ﷻ **فَتَسْتَأْذِنُ فِي الرُّجُوعِ فَيُؤْذَنُ لَهَا ، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا : اِرْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتَرْجِعُ إِلَى مَطْلِعِهَا وَذَلِكَ مُسْتَقَرُّهَا**)) ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾[(١)])) .

وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ هُوَ انْتِهَاءُ سَيْرِهَا ، وَهُوَ غَايَةُ ارْتِفَاعِهَا فِي السَّمَاءِ فِي الصَّيْفِ وَهُوَ أَوجُهَا ، ثُمَّ غَايَةُ انْخِفَاضِهَا فِي الشِّتَاءِ وَهُوَ الْحَضِيضُ ، **وَالْقَوْلُ الثَّانِي** : أَنَّ الْمُرَادَ بِمُسْتَقَرِّهَا : هُوَ مُنْتَهَى سَيْرِهَا ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَبْطُلُ سَيْرُهَا ، وَتَسْكُنُ حَرَكَتُهَا ، وَتُكَوَّرُ وَيَنْتَهِي هَذَا الْعَالَمُ إِلَى غَايَتِهِ ، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ .

قَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أَيْ : لِوَقْتِهَا وَلِأَجَلٍ لَا تَعْدُوهُ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ أَنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا الصَّيْفِيَّةِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِ الشِّتَاءِ إِلَى مُدَّةٍ لَا تَزِيدُ عَلَيْهَا ، يُرْوَى هَذَا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أَيْ : الَّذِي لَا يُخَالَفُ وَلَا يُمَانَعُ ﴿ ٱلْعَلِيمِ ﴾ بِجَمِيعِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ ، وَقَدْ قَدَّرَ ذَلِكَ وَقَنَّنَهُ عَلَى مِنْوَالٍ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَعَاكُسَ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وَهَكَذَا خَتَمَ آيَةَ ﴿ **حم** ﴾ السَّجْدَة ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢]

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ أَيْ : جَعَلْنَاهُ يَسِيرُ سَيْرًا آخَرَ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مُضِيِّ الشُّهُورِ ، كَمَا أَنَّ الشَّمْسَ يُعْرَفُ بِهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَكَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] ، فَجَعَلَ الشَّمْسَ لَهَا ضَوْءٌ يَخُصُّهَا ، وَالْقَمَرَ لَهُ نُورٌ يَخُصُّهُ ، وَفَاوَتَ بَيْنَ سَيْرِ هَذِهِ وَهَذَا ، فَالشَّمْسُ

---

(١) انظر المصادر السابقة .

تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ وَتَغْرُبُ فِي آخِرِهِ عَلَى ضَوْءٍ وَاحِدٍ ، وَلَكِنْ تَنْتَقِلُ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا صَيْفًا وَشِتَاءً ، يَطُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ ، ثُمَّ يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ وَجعَلَ سُلْطَانهَا بِالنَّهَارِ ، فَهِيَ كَوْكَبٌ نَهَارِيٌّ ، **وَأَمَّا الْقَمَرُ فَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ** ، يَطْلُعُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ ضَئِيلًا قَلِيلَ النُّورِ ، ثُمَّ يَزْدَادُ نُورًا فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ وَيَرْتَفِعُ مَنْزِلَةً ، ثُمَّ كُلَّمَا اِرْتَفَعَ اِزْدَادَ ضِيَاءً ، وَإِنْ كَانَ مُقْتَبَسًا مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يَتَكَامَلَ نُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي النَّقْصِ إِلَى آخِرِ الشَّهْرِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** -: وَهُوَ أَصْلُ الْعِذْقِ ، **وَقَالَ مُجَاهِدٌ** : الْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ ، أَيْ : الْعِذْقُ الْيَابِسُ ، يَعْنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَصْلَ الْعُنْقُودِ مِنَ الرُّطَبِ إِذَا عَتُقَ وَيَبِسَ وَانْحَنَى ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُمَا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا يُبْدِيهِ اللهُ تَعَالَى جَدِيدًا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الْآخِرِ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنَ الشَّهْرِ بِاسْمٍ بِاعْتِبَارِ الْقَمَرِ ، فَيُسَمُّونَ الثَّلَاثَ الْأُوَلَ « **غُرَر** » ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا « **نُفَل** » ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا « **تُسَع** » لأَنَّ أُخْرَاهُنَّ التَّاسِعَةُ ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا « **عُشَر** » ؛ لَأَنَّ أُولَاهُنَّ الْعَاشِرَةُ ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهَا « **الْبِيض** » ؛ لأَنَّ ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهِنَّ إِلَى آخِرِهِنَّ ، وَاللَّوَاتِي بَعْدَهُنَّ « **دُرَع** » جَمْعُ دَرْعَاءَ ؛ لأَنَّ أَوَّلَهُنَّ سُودٌ لِتَأَخُّرِ الْقَمَرِ فِي أَوَّلِهِنَّ ، وَمِنْهُ الشَّاةُ الدَّرْعَاءُ ، وَهِيَ الَّتِي رَأْسُهَا أَسْوَدُ ، وَبَعْدَهُنَّ ثَلَاثٌ « **ظُلَم** » ، ثُمَّ ثَلَاثٌ « **حَنَادِس** » وَثَلَاثٌ « **آدِئ** » ، وَثَلَاثٌ « **مِحَاق** » ، لانْمِحَاقِ الْقَمَرِ أَوَاخِرِ الشَّهْرِ فِيهِنَّ . وَكَانَ أَبُو عُبَيْد يُنْكِرُ التُّسَعَ وَالْعُشَرَ . كَذَا قَالَ فِي كِتَابِ « **غَرِيب الْمُصَنَّف** » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : لِكُلٍّ مِنْهُمَا حَدٌّ لَا يَعْدُوهُ وَلَا يُقَصِّرُ دُونَهُ ، إِذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا ذَهَبَ هَذَا ، وَإِذَا ذَهَبَ سُلْطَانُ هَذَا جَاءَ سُلْطَانُ هَذَا . ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ يَقُولُ : لَا يَنْبَغِي إِذَا كَانَ اللَّيْلُ أَنْ يَكُونَ لَيْلٌ آخَرُ حَتَّى يَكُونَ النَّهَارُ ، فَسُلْطَانُ الشَّمْسِ بِالنَّهَارِ ، وَسُلْطَانُ الْقَمَرِ بِاللَّيْلِ .

وَالمَعْنَى فِي هَذَا : أَنَّهُ لَا فَتْرَةَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ، بَلْ كُلٌّ مِنْهُمَا يَعْقُبُ الْآخَرَ بِلَا مُهْلَةٍ وَلَا تَرَاخٍ ؛ لأَنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ دَائِبَيْنِ يَتَطَالَبَانِ طَلَبًا حَثِيثًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يَعْنِي : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلُّهُمْ يَسْبَحُونَ ، أَيْ : يَدُورُونَ فِي فَلَكِ السَّمَاءِ .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَدَلَالَةٌ لَهُمْ أَيْضًا عَلَى قُدْرَتِهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - تَسْخِيرُهُ الْبَحْرَ لِيَحْمِلَ السُّفُنَ ، فَمِنْ ذَلِكَ - بَلْ أَوَّلُهُ - سَفِينَةُ نُوحٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الَّتِي أَنْجَاهُ اللهُ تَعَالَى فِيهَا بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - غَيْرُهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أَيْ : آبَاءَهُمْ ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أَيْ : فِي السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنْ يَحْمِلَ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَعْنِي : بِذَلِكَ الْإِبِلَ ، فَإِنَّهَا سُفُنُ الْبَرِّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أَيْ : السُّفُنَ . وَيُقَوِّي هَذَا الْمَذْهَبَ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١-١٢]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ فِي السُّفُنِ ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أَيْ : فَلَا مُغِيثَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أَيْ : مِمَّا أَصَابَهُمْ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ تَقْدِيرُهُ : وَلَكِنْ بِرَحْمَتِنَا نُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَنُسَلِّمُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللهِ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ

ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي غَيِّهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَعَدَمِ اكْتِرَاثِهِمْ بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي أَسْلَفُوهَا، وَمَا يَسْتَقْبِلُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، **قَالَ مُجَاهِدٌ**: مِنَ الذُّنُوبِ، وَقَالَ غَيْرُهُ بِالْعَكْسِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أَيْ: لَعَلَّ اللهَ بِاتِّقَائِكُمْ ذَلِكَ يَرْحَمُكُمْ وَيُؤَمِّنُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ.

وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ إِلَى ذَلِكَ بَلْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَاكْتَفَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: عَلَى التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ الرُّسُلِ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أَيْ: لَا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا.

وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحَاوِيجِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أَيْ: عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ، أَيْ: قَالُوا لِمَنْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ مُحَاجِّينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ لَوْ شَاءَ اللهُ لَأَغْنَاهُمْ وَلَأَطْعَمَهُمْ مِنْ رِزْقِهِ، فَنَحْنُ نُوَافِقُ مَشِيئَةَ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِذَلِكَ، **قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ**: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ لِلْكُفَّارِ حِينَ نَاظَرُوا الْمُؤمِنِينَ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وَفِي هَذَا نَظَرٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ اسْتِبْعَادِ الْكَفَرَةِ لِقِيَامِ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿**مَا يَنظُرُونَ** إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً، وَهَذِهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ - نَفْخَةُ الْفَزَعِ، يُنْفَخُ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْفَزَعِ وَالنَّاسُ فِي

أَسْوَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ يَخْتَصِمُونَ وَيَتَشَاجَرُونَ عَلَى عَادَتِهِمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَمَرَ اللهُ ﷻ إِسْرَافِيلَ فَنَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً يُطَوِّلُهَا وَيَمُدُّهَا ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا ، وَهِيَ : صَفْحَةُ الْعُنُقِ ، يَتَسَمَّعُ الصَّوْتَ مِنْ قِبَلِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُسَاقُ الْمَوْجُودُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَى مَحْشَرِ الْقِيَامَةِ بِالنَّارِ ، تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أَيْ : عَلَى مَا يَمْلِكُونَهُ ، الْأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ، وَقَدْ وَرَدَتْ هَهُنَا آثَارٌ وَأَحَادِيثُ ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ هَذَا نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، الَّتِي تَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ كُلُّهُمْ مَا عَدَا الْحَيَّ الْقَيُّومَ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ .

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ وَهِيَ : نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ لِلْقِيَامِ مِنَ الْأَجْدَاثِ وَالْقُبُورِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ، وَالنَّسَلَانُ هُوَ : الْمَشْيُ السَّرِيعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣]

﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ يَعْنُونَ : قُبُورَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ مِنْهَا ، فَلَمَّا عَايَنُوا مَا كَذَّبُوا بِهِ فِي مَحْشَرِهِمْ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وَهَذَا لَا يَنْفِي عَذَابَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بَعْدَهُ فِي الشِّدَّةِ كَالرُّقَادِ . **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبَعْثِ . **قَالَ قَتَادَةُ** : وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ ، فَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ أَجَابَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ - **قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ** - : ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ** : إِنَّمَا يُجِيبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ ، وَلَا مُنَافَاةَ إِذِ الْجَمْعُ مُمْكِنٌ ،

وَاللهُ أَعْلَمُ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ زَيْدٍ : الجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الكُفَّارِ ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاخْتَارَ الْأَوَّلَ ، وَهُوَ أَصَحُّ ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الصَّافَّاتِ ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : ٢٠-٢١] ، وَقَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٥٥-٥٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣-١٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : ٧٧] ، وَقَالَ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] أَيْ : إِنَّمَا نَأْمُرُهُمْ أَمْرًا وَاحِدًا فَإِذَا الجَمِيعُ مُحْضَرُونَ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ أَيْ : مِنْ عَمَلِهَا ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا ارْتَحَلُوا مِنَ الْعَرَصَاتِ فَنَزَلُوا فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ ، أَنَّهُمْ فِي شُغُلٍ عَنْ غَيْرِهِمْ ، بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، ﴿ فَٰكِهُونَ ﴾ أَيْ : فَرِحُونَ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ قَالُوا : شُغْلُهُمُ افْتِضَاضُ الْأَبْكَارِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : وَحَلَائِلُهُمْ ﴿ فِى ظِلَٰلٍ ﴾ أَيْ : فِي ظِلَالِ الْأَشْجَارِ ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ ٱلْأَرَآئِكِ : هِيَ السُّرُرُ تَحْتَ الْحِجَالِ[1].

(١) الحجال : جمع حجلة وهي ستر يُضربُ للعروس في جوف البيت كالقبة يُزين بالثياب .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ أَيْ : مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهَا ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أَيْ : مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ .

وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يَئُولُ إِلَيْهِ حَالُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَمْرِهِ لَهُمْ أَنْ يَمْتَازُوا ، بِمَعْنَى : يُمَيَّزُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوْقِفِهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : ١٤] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أَيْ : يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ فِرْقَتَيْنِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ هَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ ، وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُمْ مُبِينٌ وَعَصَوا الرَّحْمَنَ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ : قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا بِعِصْيَانِ الشَّيْطَانِ ، وَأَمَرْتُكُمْ بِعِبَادَتِي ، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ فَسَلَكْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ .

وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ يُقَالُ ﴿ جِبِلًّا ﴾ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ ، وَيُقَالُ : ((**جُبُلًا**)) بِضَمِّ الْجِيمِ وَالْبَاءِ ، وَتَخْفِيفِ اللَّامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَكِّنُ الْبَاءَ ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ : الْخَلْقُ الْكَثِيرُ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْلٌ فِي مُخَالَفَةِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَعُدُولِكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ ؟! .

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم

بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

يُقَالُ لِلْكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَيْ: هَذِهِ الَّتِي حَذَّرَتْكُمُ الرُّسُلُ فَكَذَّبْتُمُوهُمْ. ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٥]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ هَذَا حَالُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُنْكِرُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْلِفُونَ مَا فَعَلُوهُ، فَيَخْتِمُ اللهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَيَسْتَنْطِقُ جَوَارِحَهُمْ بِمَا عَمِلَتْ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[1] ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: «**مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**».

وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مُفَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ، فَأَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ وَكَتِفُهُ**»[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[3] ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الْقِيَامَةِ الطَّوِيلِ قَالَ فِيهِ: «**ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ: مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَبْدُكَ آمَنْتُ بِكَ وَبِنَبِيِّكَ وَبِكِتَابِكَ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٦٩).
(٢) إسناده حسن.
(٣) مسلم بنحوه (٢٩٦٨).

وَصُمْتُ وَصَلَّيْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ - قَالَ - فَيُقَالُ لَهُ : أَلَا نَبْعَثُ عَلَيْكَ شَاهِدَنَا ؟ - قَالَ - فَيُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ مَنِ الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ : انْطِقِي - قَالَ - فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ ، وَذَلِكَ لِيُعْذَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الَّذِي سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ)) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ قِيلَ : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَضْلَلْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ ، وَقِيلَ : وَلَوْ شَاءُ اللهُ لَطَمَسَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَجَعَلَهُمْ عُمْيًا يَتَرَدَّدُونَ ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَٰطَ ﴾ يَعْنِي : الطَّرِيقَ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَعْنِي بِالصِّرَاطِ هَهُنَا الْحَقَّ ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ وَقَدْ طَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي : لَغَيَّرْنَا خَلْقَهُمْ ، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : لَجَعَلْنَاهُمْ حِجَارَةً ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةُ : لَأَقْعَدَهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَمَا اسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا ﴾ أَيْ : إِلَى أَمَامٍ ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إِلَى وَرَاءٍ ، بَلْ يَلْزَمُونَ حَالًا وَاحِدًا لَا يَتَقَدَّمُونَ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ ابْنِ آدَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا طَالَ عُمْرُهُ رُدَّ إِلَى الضَّعْفِ بَعْدَ الْقُوَّةِ ، وَالْعَجْزِ بَعْدَ النَّشَاطِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [النحل : ٧٠] ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا - وَاللهُ أَعْلَمُ - الْإِخْبَارُ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ بِأَنَّهَا دَارُ زَوَالٍ وَانْتِقَالٍ لَا دَارَ دَوَامٍ وَاسْتِقْرَارٍ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : يَتَفَكَّرُونَ بِعُقُولِهِمْ فِي ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ ثُمَّ صَيْرُورَتِهِمْ إِلَى سِنِّ الشَّبِيبَةِ ، ثُمَّ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِدَارٍ أُخْرَى لَا زَوَالَ لَهَا وَلَا انْتِقَالَ مِنْهَا ، وَلَا مَحِيدَ

عَنْهَا، وَهِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ يَقُولُ ﷻ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشِّعْرَ ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أَيْ: مَا هُوَ فِي طَبْعِهِ، فَلَا يُحْسِنُهُ وَلَا يُحِبُّهُ وَلَا تَقْتَضِيهِ جِبِلَّتُهُ، وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَحْفَظُ بَيْتًا عَلَى وَزْنٍ مُنْتَظِمٍ، بَلْ إِنْ أَنْشَدَهُ زَحَّفَهُ أَوْ لَمْ يُتِمَّهُ. يَعْنِي: فِي الْمَعْنَى صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ: مَا هَذَا الَّذِي عَلَّمْنَاهُ ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ: بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَتَدَبَّرَهُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أَيْ: لِيُنْذِرَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُبِينُ كُلَّ حَيٍّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَقَالَ ﷻ: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧]، وَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِنِذَارَتِهِ مَنْ هُوَ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَنِيرُ الْبَصِيرَةِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: حَيُّ الْقَلْبِ حَيُّ الْبَصَرِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي: عَاقِلًا.

﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ: هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِ.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ الَّتِي سَخَّرَهَا لَهُمْ ﴿ فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مُطِيقُونَ، أَيْ: جَعَلَهُمْ يَقْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَةٌ لَهُمْ لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُمْ، بَلْ لَوْ جَاءَ صَغِيرٌ إِلَى بَعِيرٍ لَأَنَاخَهُ، وَلَوْ شَاءَ لَأَقَامَهُ وَسَاقَهُ، وَذَاكَ ذَلِيلٌ مُنْقَادٌ مَعَهُ، وَكَذَا لَوْ كَانَ الْقِطَارُ مِائَةَ بَعِيرٍ أَوْ أَكْثَرَ لَسَارَ الْجَمِيعُ بِسَيْرِ الصَّغِيرِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أَيْ: مِنْهَا مَا يَرْكَبُونَ فِي الْأَسْفَارِ وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ إِلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَقْطَارِ، وَمِنْهَا مَا يَأْكُلُونَ إِذَا شَاءُوا نَحَرُوا وَاجْتَزَرُوا ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أَيْ: مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ أَيْ: مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا لِمَنْ يَتَدَاوَى وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَيْ: أَفَلَا يُوَحِّدُونَ خَالِقَ ذَلِكَ وَمُسَخِّرَهُ وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ؟.

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذِهِمُ الْأَنْدَادَ آلِهَةً مَعَ اللهِ يَبْتَغُونَ بِذَلِكَ أَنْ تَنْصُرَهُمْ تِلْكَ الْآلِهَةُ وَتَرْزُقَهُمْ وَتُقَرِّبَهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أَيْ : لَا تَقْدِرُ الْآلِهَةُ عَلَى نَصْرِ عَابِدِيهَا ، بَلْ هِيَ أَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ وَأَذَلُّ وَأَحْقَرُ وَأَدْحَرُ ، بَلْ لَا تَقْدِرُ عَلَى الِاسْتِنْصَارِ لِأَنْفُسِهَا ، وَلَا الِانْتِقَامِ مِمَّنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ ، لِأَنَّهَا جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ .

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : يَعْنِي عِنْدَ الْحِسَابِ . يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مَحْشُورَةٌ مَجْمُوعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْضَرَةٌ عِنْدَ حِسَابِ عَابِدِيهَا ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي حُزْنِهِمْ وَأَدَلَّ عَلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يَعْنِي : الْآلِهَةَ ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ، وَالْمُشْرِكُونَ يَغْضَبُونَ لِلْآلِهَةِ فِي الدُّنْيَا وَهِيَ لَا تَسُوقُ إِلَيْهِمْ خَيْرًا ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا ، إِنَّمَا هِيَ أَصْنَامٌ ، وَهَكَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ، **وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ** ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أَيْ : تَكْذِيبُهُمْ لَكَ وَكُفْرُهُمْ بِاللهِ ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أَيْ : نَحْنُ نَعْلَمُ جَمِيعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَسَنَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ وَنُعَامِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، يَوْمَ لَا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ جَلِيلًا وَلَا حَقِيرًا ، وَلَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، بَلْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ جَمِيعُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا .

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : جَاءَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ - لَعَنَهُ اللهُ - إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ ، وَهُوَ يُفَتِّتُهُ وَيُذَرِّيهِ فِي الْهَوَاءِ ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ أَتَزْعُمُ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ هَذَا ؟ قَالَ ﷺ : ((**نَعَمْ ؛ يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَى ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ**)) وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ ((يس)) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إِلَى آخِرِهِنَّ . **وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ** : إِنَّ الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ عَظْمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَيُحْيِي اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**نَعَمْ يُمِيتُكَ اللهُ ، ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ**)) قَالَ : فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ ((يس)) . وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ قَدْ نَزَلَتْ فِي أُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ أَوِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ أَوْ فِيهِمَا فَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ . وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ لِلْجِنْسِ ، يَعُمُّ كُلَّ مُنْكِرٍ لِلْبَعْثِ ﴿ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : أَوَلَمْ يَسْتَدِلَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ بِالْبَدْءِ عَلَى الْإِعَادَةِ ، فَإِنَّ اللهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ ضَعِيفٍ مَهِينٍ ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠-٢٢] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : ٢] أَيْ : مِنْ نُطْفَةٍ مِنْ أَخْلَاطٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، فَالَّذِي خَلَقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَةِ الضَّعِيفَةِ أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ .

عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ((**قَالَ اللهُ تَعَالَى : ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟**))[1].

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ أَيْ : اسْتَبْعَدَ إِعَادَةَ اللهِ تَعَالَى ذِي الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِلْأَجْسَادِ وَالْعِظَامِ الرَّمِيمَةِ وَنَسِيَ نَفْسَه ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَهُ مِنَ الْعَدَمِ

(١) حسن : أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجة (٢٧٠٧) .

إِلَى الْوُجُودِ ، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا اِسْتَبْعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ ﷻ : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : يَعْلَمُ الْعِظَامَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا ، أَيْنَ ذَهَبَتْ ؟ وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ ؟ .

عَنْ حُذَيْفَةَ[1] سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ ، أَوْصَى أَهْلَهُ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلًا ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحَشَتْ فَخُذُوهَا ، فَدُقُّوهَا فَذُرُّوهَا فِي الْيَمِّ ، فَفَعَلُوا فَجَمَعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللهُ ﷻ لَهُ** » ، وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ وَرُوِيَ عَنْ صَحَابَةٍ آخَرِينَ[2].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أَيْ : الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ هَذَا الشَّجَرِ مِنْ مَاءٍ حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِرًا ذَا ثَمَرٍ وَيَنْعٍ ، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى أَنْ صَارَ حَطَبًا يَابِسًا تُوقَدُ بِهِ النَّارُ ، كَذَلِكَ هُوَ فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ ، قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ ، لَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ ، **قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ** : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يَقُولُ : الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّارَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُ ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِذَلِكَ سَرْحُ الْمَرْخِ وَالْعَفَارِ ، يَنْبُتُ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ ، فَيَأْتِي مَنْ أَرَادَ قَدْحَ نَارٍ وَلَيْسَ مَعَهُ زِنَادٌ ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ عُودَيْنِ أَخْضَرَيْنِ ، وَيَقْدَحُ أَحَدَهُمَا بِالْآخَرِ ، فَتَتَوَلَّدُ النَّارُ مِنْ بَيْنِهِمَا كَالزِّنَادِ سَوَاءً . وَرُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - **وَفِي الْمَثَلِ** : « لِكُلِّ شَجَرٍ نَارٌ وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ » ، **وَقَالَ الْحُكَمَاءُ** : فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ إِلَّا الْعَنَابَ .

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

---

(١) البخاري (٣٤٥٠) ، وأطرافه هنالك .

(٢) انظر البخاري (٦٤٨١) ، ومسلم (٢٧٥٧) .

يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَالثَّوَابِتِ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَرِمَالٍ وَبِحَارٍ وَقِفَارٍ ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَمُرْشِدًا إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَادِ بِخَلْقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْعَظِيمَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، **وَقَالَ** ﷻ **هَهُنَا** ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أَيْ : مِثْلَ الْبَشَرِ فَيُعِيدُهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ . قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْرَارٍ .

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ « كُنْ » قَوْلَةً فَيَكُونُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ : تَنْزِيهٌ وَتَقْدِيسٌ وَتَبْرِئَةٌ مِنَ السُّوءِ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فَالْمُلْكُ وَالْمَلَكُوتُ وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى ، كَرَحْمَةٍ وَرَحَمُوتٍ ، وَرَهْبَةٍ وَرَهَبُوتٍ ، وَجَبْرٍ وَجَبَرُوتٍ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُلْكَ : هُوَ عَالَمُ الْأَجْسَامِ ، وَالْمَلَكُوتُ : هُوَ عَالَمُ الْأَرْوَاحِ . **وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ** وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « يس » ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

تفسير سورة الصافات
وهي مكية

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ **قَالَ** : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْمُرنَا بِالتَّخْفِيفِ وَيَؤُمُّنَا بِالصَّافَّاتِ[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ ﴿٥﴾

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ[2] ﷺ قَالَ : ﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴾ وَهِيَ المَلَائِكَةُ ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ وَهِيَ المَلَائِكَةُ ﴿ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴾ وَهِيَ المَلَائِكَةُ ، وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ .

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ المَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجُعِلَ لَنَا تُرَابُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ المَاءَ** »[3].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ؟ » قُلْنَا : وَكَيْفَ تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ قَالَ ﷺ : « **يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ المُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ** »[4] .

وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ : مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ أَنَّهَا تَزْجُرُ السَّحَابَ .

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴾ مَا زَجَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي القُرْآنِ ، وَكَذَا رَوَى مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ . ﴿ فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴾ **قَالَ السُّدِّيُّ** : المَلَائِكَةُ

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه النسائي (٢/ ٩٥) .

(٢) صحيح : عن ابن مسعود ﷺ .

(٣) مسلم (٥٢٢) .

(٤) مسلم (حديث ٤٣٠) .

يَجِيئُونَ بِالْكِتَابِ وَالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِلَى النَّاسِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾[المرسلات : ٥-٦]

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَيْ : مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿ وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْخَلْقِ بِتَسْخِيرِهِ بِمَا فِيهِ مِنْ كَوَاكِبَ ثَوَابِتٍ ، وَسَيَّارَاتٍ تَبْدُو مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَغْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ ، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْمَشَارِقِ عَنِ الْمَغَارِبِ ؛ لِدَلَالَتِهَا عَلَيْهَا ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷻ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾[المعارج : ٤٠] ، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾[الرحمن : ١٧] يَعْنِي : فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا لِلنَّاظِرِينَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ قُرِئَ بِالْإِضَافَةِ وَبِالْبَدَلِ ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، فَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ وَالثَّوَابِتُ يَثْقُبُ ضَوْءُهَا جِرْمَ السَّمَاءِ الشَّفَّافِ فَتُضِيءُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك : ٥] وَقَالَ ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾[الحجر : ١٦-١٨]

قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا : ﴿ وَحِفْظًا ﴾ تَقْدِيرُهُ : وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا ﴿ مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ : يَعْنِي الْمُتَمَرِّدَ الْعَاتِي ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ أَتَاهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ فَأَحْرَقَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أَيْ : لِئَلَّا يَصِلُوا إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، وَهِيَ السَّمَاوَاتُ وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، إِذَا تَكَلَّمُوا بِمَا يُوحِيهِ اللهُ تَعَالَى مِمَّا يَقُولُهُ مِنْ

شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٣] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ وَيُقْذَفُونَ ﴾ أَيْ : يُرْمَوْنَ ﴿ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ أَيْ : مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ مِنْهَا . ﴿ دُحُورًا ﴾ أَيْ : رَجْمًا ، يُدْحَرُونَ بِهِ وَيُزْجَرُونَ وَيُمْنَعُونَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ وَيُرْجَمُونَ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابٌ دَائِمٌ مُوجِعٌ مُسْتَمِرٌّ ، كَمَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥]

وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ ﴾ أَيْ : إِلَّا مَنِ اخْتَطَفَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الْخَطْفَةَ ، وَهِيَ الْكَلِمَةُ يَسْمَعُهَا مِنَ السَّمَاءِ فَيُلْقِيهَا إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ ، وَيُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى الَّذِي تَحْتَهُ ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا - بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَى - قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الشِّهَابُ فَيُحْرِقَهُ فَيَذْهَبُ بِهَا الْآخَرُ إِلَى الْكَاهِنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ أَيْ : مُسْتَنِيرٌ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ لِلشَّيَاطِينِ مَقَاعِدُ فِي السَّمَاءِ ، **قَالَ** : فَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ الْوَحْيَ ، **قَالَ** : وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا تَجْرِي ، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا تُرْمَى ، **قَالَ** : فَإِذَا سَمِعُوا الْوَحْيَ نَزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَزَادُوا فِي الْكَلِمَةِ تِسْعًا ، **قَالَ** : فَلَمَّا بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَعَدَ مَقْعَدَهُ جَاءَهُ شِهَابٌ فَلَمْ يُخْطِئْهُ حَتَّى يُحْرِقَهُ ، **قَالَ** : فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ ، فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ حَدَثَ ، **قَالَ** : فَبَثَّ جُنُودَهُ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْ نَخْلَةَ[1].

وَسَتَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ مَعَ الْآثَارِ فِي هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْجِنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨-١٠]

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١

(١) **صحيح** : أخرجه الترمذي (٣٣٢٤) ، وانظر الطبري (٢٣/ ٣٦) ، وأحمد (١/ ٢٧٤) .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : فَسَلْ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ أَيُّهَا أَشَدُّ خَلْقًا هُمْ أَمِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ ؟ **وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ** ﷺ « أَمْ مَنْ عَدَدنَا » فَإِنَّهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْهُمْ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلِمَ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْكَرُوا ، كَمَا قَالَ ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ شَيْءٍ ضَعِيفٍ ، **فَقَالَ** : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ **قِيلَ** : هُوَ الْجَيِّدُ الَّذِي يَلْتَزِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، **وَقِيلَ** : هُوَ اللَّزِجُ الْجَيِّدُ ، **وَقِيلَ** : هُوَ الَّذِي يَلْزَقُ بِالْيَدِ .

وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أَيْ : بَلْ عَجِبْتَ - يَا مُحَمَّدُ - مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ، وَأَنْتَ مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا ، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ يَسْخَرُونَ مِمَّا تَقُولُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . **قَالَ قَتَادَةُ** : عَجِبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَسَخِرَ ضُلَّالُ بَنِي آدَمَ ﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً ﴾ أَيْ : دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى ذَلِكَ ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يَسْتَهْزِئُونَ . ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : إِنْ هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ يَسْتَبْعِدُونَ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُونَ بِهِ ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أَيْ : قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : نَعَمْ تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَمَا تَصِيرُونَ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴿ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أَيْ : حَقِيرُونَ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] ، **ثُمَّ قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ** : ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أَيْ : فَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ وَاحِدٌ مِنَ

الله ﷻ يَدْعُوهُمْ دَعْوَةً وَاحِدَةً : أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَنْظُرُونَ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قِيلِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْمَلَامَةِ ، وَيَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَإِذَا عَايَنُوا أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ نَدِمُوا كُلَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ، وَهَذَا يُقَالُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَيَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمَلَائِكَةَ أَنْ تُمَيِّزَ الْكُفَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَوْقِفِ فِي مَحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ يَعْنِي بِأَزْوَاجِهِمْ : أَشْبَاهِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ ، **وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** .
وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ قَالَ : إِخْوَانُهُمْ . يَعْنِي : يَجِيءُ أَصْحَابُ الزِّنَا مَعَ أَصْحَابِ الزِّنَا ، وَأَصْحَابُ الرِّبَا مَعَ أَصْحَابِ الرِّبَا ، وَأَصْحَابُ الْخَمْرِ مَعَ أَصْحَابِ الْخَمْرِ ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أَيْ : مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ، وَتُحْشَرُ مَعَهُمْ فِي أَمَاكِنِهِمْ .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : أَرْشِدُوهُمْ إِلَى طَرِيقِ جَهَنَّمَ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧]
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ أَيْ : قِفُوهُمْ حَتَّى يُسْأَلُوا عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمُ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، يَعْنِي : احْبِسُوهُمْ إِنَّهُمْ مُحَاسَبُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ أَيْ : كَمَا زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ

جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أَيْ : مُنْقَادُونَ لِأَمْرِ الله ، لَا يُخَالِفُونَهُ وَلَا يَحِيدُونَ عَنْهُ .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ يَتَلَاوَمُونَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ كَمَا يَتَخَاصَمُونَ فِي دَرَكَاتِ النَّارِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٣١-٣٣] ، **وَهَكَذَا قَالُوا لَهُمْ هَهُنَا** : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ **قِيلَ فِي مَعْنَاهَا** : كُنْتُمْ تَقْهَرُونَنَا بِالْقُدْرَةِ مِنْكُمْ عَلَيْنَا ؛ لأَنَّا كُنَّا أَذِلَّاءُ وَكُنْتُمْ أَعِزَّاءُ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ** : قَالَتِ الْإِنْسُ لِلْجِنِّ : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : مِنْ قِبَلِ الْخَيْرِ فَتَنْهَوْنَا عَنْهُ وَتُبَطِّئُونَا عَنْهُ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : تَأْتُونَنَا مِنْ قِبَلِ الْحَقِّ وَتُزَيِّنُونَ لَنَا الْبَاطِلَ وَتَصُدُّونَا عَنِ الْحَقِّ ، **وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ** : مَعْنَاهُ تَحُولُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَيْرِ ، وَرَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ ، **وَقَالَ يَزِيدُ الرِّشْكُ** : مِنْ قِبَلِ « **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ** » ، **وَقَالَ عِكْرِمَةُ** : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ قَالَ : مِنْ حَيْثُ نَأْمَنُكُمْ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ تَقُولُ الْقَادَةُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لِلأَتْبَاعِ : مَا الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، بَلْ كَانَتْ قُلُوبُكُمْ مُنْكِرَةٌ لِلإِيمَانِ قَابِلَةٌ لِلْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أَيْ : مِنْ حُجَّةٍ عَلَى صِحَّةِ مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾ أَيْ : بَلْ كَانَ فِيكُمْ طُغْيَانٌ وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَقِّ ، فَلِهَذَا اسْتَجَبْتُمْ لَنَا وَتَرَكْتُمُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَتْكُمْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ ، وَأَقَامُوا لَكُمُ الْحُجَجَ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءُوكُمْ بِهِ فَخَالَفْتُمُوهُمْ . ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ يَقُولُ الْكُبَرَاءُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ : حَقَّتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللهِ إِنَّا مِنَ الأَشْقِيَاءِ الذَّائِقِينَ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ أَيْ : دَعَوْنَاكُمْ إِلَى الضَّلالَةِ ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ أَيْ : فَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَاسْتَجَبْتُمْ لَنَا .

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أَيْ : الْجَمِيعُ فِي النَّارِ كُلٌّ بِحَسَبِهِ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ ﴾ أَيْ : فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَيْ : يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ يَقُولُوهَا كَمَا يَقُولُهَا الْمُؤْمِنُونَ . ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ أَيْ : أَنَحْنُ نَتْرُكُ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا وَآلِهَةِ آبَائِنَا عَنْ قَوْلِ هَذَا الشَّاعِرِ الْمَجْنُونِ ، يَعْنُونَ : رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : رَسُولُ اللهِ ﷺ جَاءَ بِالْحَقِّ فِي جَمِيعِ شِرْعَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ مِنَ الأَخْبَارِ وَالطَّلَبِ ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : صَدَّقَهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوا عَنْهُ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْمَنَاهِجِ السَّدِيدَةِ ، وَأَخْبَرَ عَنِ اللهِ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ كَمَا أَخْبَرُوا ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣]

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝ ٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ٣٩
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ ٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝ ٤١ فَوَٰكِهُ وَهُم
مُّكْرَمُونَ ۝ ٤٢ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ۝ ٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ ٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم
بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ ٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝ ٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
يُنزَفُونَ ۝ ٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝ ٤٩

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلنَّاسِ : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ [المدثر : ٣٨-٣٩] ، **وَلِهَذَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا هَهُنَا** : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : لَيْسُوا يَذُوقُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ، وَلَا يُنَاقَشُونَ فِي الْحِسَابِ ، بَلْ يُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ إِنْ كَانَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ ، وَيُجْزَوْنَ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ إِلَى مَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى مِنَ التَّضْعِيفِ .

قَوْلُهُ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، **ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ فَوَٰكِهُ ﴾ أَيْ : مُتَنَوِّعَةٌ ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾ أَيْ : يُخْدَمُونَ وَيُرَفَّهُونَ وَيُنَعَّمُونَ . ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ كَمَا قَالَ ﷻ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : ١٧-١٩] نَزَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَمْرَ الْجَنَّةِ عَنِ الْآفَاتِ الَّتِي فِي خَمْرِ الدُّنْيَا مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ وَوَجَعِ الْبَطْنِ - وَهُوَ الْغَوْلُ - وَذَهَابِهَا بِالْعَقْلِ جُمْلَةً ، فَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أَيْ : بِخَمْرٍ مِنْ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ لَا يَخَافُونَ انْقِطَاعَهَا وَلَا فَرَاغَهَا . **عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ** : خَمْرٌ جَارِيَةٌ بَيْضَاءُ ، أَيْ : لَوْنُهَا مُشْرِقٌ حَسَنٌ بَهِيٌّ ، لَا كَخَمْرِ الدُّنْيَا فِي مَنْظَرِهَا الْبَشِعِ الرَّدِيءِ مِنْ حُمْرَةٍ أَوْ سَوَادٍ أَوِ اصْفِرَارٍ أَوْ كُدُورَةٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُنَفِّرُ الطَّبْعَ السَّلِيمَ .

وَقَوْله ﷻ : ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ أَيْ : طَعْمُهَا طَيِّبٌ كَلَوْنِهَا ، وَطِيبُ الطَّعْمِ دَلِيلٌ عَلَى طِيبِ الرِّيحِ ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فِي جَمِيعِ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يَعْنِي : لَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ غَوْلًا - وَهُوَ وَجَعُ الْبَطْنِ - كَمَا تَفْعَلُهُ خَمْرُ الدُّنْيَا مِنَ الْقُولَنْجِ وَنَحْوِهِ لِكَثْرَةِ مَائِيَّتِهَا ، **وَقِيلَ** : الْمُرَادُ بِالْغَوْلِ هَهُنَا :

صُدَاعُ الرَّأْسِ ، **وَقِيلَ** : هُوَ صُدَاعُ الرَّأْسِ وَوَجَعُ الْبَطْنِ ، **وَقِيلَ** : لَا تُغْتَالُ عُقُولُهُمْ . **وَالصَّحِيحُ** : إِنَّهُ وَجَعُ الْبَطْنِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ **قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : **لَا تُذْهِبُ عُقُولَهُمْ** . ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أَيْ : عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ . ﴿ عِينٌ ﴾ أَيْ : حِسَانُ الْأَعْيُنِ ، **وَقِيلَ** : ضِخَامُ الْأَعْيُنِ ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ ، وَهِيَ النَّجْلَاءُ الْعَيْنَاءُ ، فَوَصَفَ عُيُونَهُنَّ بِالْحُسْنِ وَالْعِفَّةِ ، ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف : ٣٢] أَيْ : هُوَ مَعَ هَذَا الْجَمَالِ عَفِيفٌ تَقِيٌّ نَقِيٌّ ، وَهَكَذَا الْحُورُ الْعِينُ ﴿ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وَصَفَهُنَّ بِتَرَافَةِ الْأَبْدَانِ بِأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ ، **وَقِيلَ فِي مَعْنَى** : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : مَحْصُونٌ لَمْ تَمَسَّهُ الْأَيْدِي ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : الْبَيْضُ فِي عُشِّهِ مَكْنُونٌ ، **وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ** : يَعْنِي : بَطْنُ الْبَيْضِ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : بَيَاضُ الْبَيْضِ حِينَ يُنْزَعُ قِشْرُهُ ، **وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ** لِقَوْلِهِ ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ قَالَ : وَالْقِشْرَةُ الْعُلْيَا يَمَسُّهَا جَنَاحُ الطَّيْرِ وَالْعُشِّ ، وَتَنَالُهَا الْأَيْدِي بِخِلَافِ دَاخِلِهَا ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ، أَيْ : عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَكَيْفَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، وَمَاذَا كَانُوا يُعَانُونَ فِيهَا ، وَذَلِكَ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَلَى

شَرَابِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ فِي تَنَادُمِهِمْ ، وَمُعَاشَرَتِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ ، وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى السُّرُرِ ، وَالْخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَسْعَوْنَ وَيَجِيئُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَظِيمٍ ، مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : شَيْطَانًا ، **وَقِيلَ** : هُوَ الرَّجُلُ الْمُشْرِكُ يَكُونُ لَهُ صَاحِبٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا تَنَافِي ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ ، فَيُوَسْوِسُ فِي النَّفْسِ ، وَيَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ فَيَقُولُ كَلَامًا تَسْمَعُهُ الْأُذُنَانِ ، وَكِلَاهُمَا مُتَعَادِيَانِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يُوَسْوِسُ ، كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ . **وَلِهَذَا** ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ أَيْ : أَأَنْتَ تُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ؟! يَعْنِي : يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ وَالتَّكْذِيبِ وَالِاسْتِبْعَادِ وَالْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ، **قِيلَ** : لَمُحَاسَبُونَ ، **وَقِيلَ** : لَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِنَا ، **وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ**

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴾ أَيْ : مُشْرِفُونَ ، يَقُولُ الْمُؤْمِنُ لِأَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ يَعْنِي : فِي وَسَطِ الْجَحِيمِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ** : فِي وَسَطِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَّقِدُ .

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ مُخَاطِبًا لِلْكَافِرِ : وَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُهْلِكَنِي لَوْ أَطَعْتُكَ ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ أَيْ : وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيَّ لَكُنْتُ مِثْلَكَ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ حَيْثُ أَنْتَ ، مُحْضَرٌ مَعَكَ فِي الْعَذَابِ ؛ وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيَّ وَرَحِمَنِي فَهَدَانِي لِلْإِيمَانِ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَى تَوْحِيدِهِ ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ هَذَا مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ مُغْتَبِطًا نَفْسَهُ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْخُلْدِ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ بِلَا مَوْتٍ فِيهَا وَلَا عَذَابٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : هُوَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى ، وَمَعْنَاهُ : لِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ وَهَذَا الْفَوْزِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ فِي الدُّنْيَا ؛ لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَنَاكِحَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَلَاذِّ خَيْرٌ ضِيَافَةً وَعَطَاءً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾ أَيْ : الَّتِي فِي جَهَنَّمَ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ شَجَرَةً وَاحِدَةً مُعَيَّنَةً ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَمْتَدُّ فُرُوعُهَا إِلَى جَمِيعِ مَحَالِّ جَهَنَّمَ ، كَمَا أَنَّ شَجَرَةَ طُوبَى مَا مِنْ دَارٍ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا وَفِيهَا مِنْهَا غُصْنٌ ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ جِنْسَ شَجَرٍ يُقَالُ لَهُ : الزَّقُّومُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] يَعْنِي : الزَّيْتُونَةَ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة : ٥١-٥٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ، فَافْتُتِنَ بِهَا أَهْلُ الضَّلَالَةِ ، وَقَالُوا : صَاحِبُكُمْ يُنَبِّئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ . قُلْتُ : وَمَعْنَى الْآيَةِ : إِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ اخْتِبَارًا نَخْتَبِرُ بِهِ النَّاسَ مَنْ يُصَدِّقُ مِنْهُمْ مِمَّنْ يُكَذِّبُ ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : أَصْلُ مَنْبَتِهَا فِي قَرَارِ

النَّارِ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾ تَبْشِيع لَهَا وَتَكْرِيهٌ لِذِكْرِهَا . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَبْشَعَ مِنْهَا وَلَا أَقْبَحَ مِنْ مَنْظَرِهَا ، مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ وَالطَّبْعِ ، فَإِنَّهُمْ لَيَضْطَرُّونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا ؛ لأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا إِيَّاهَا ، وَمَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية:٦-٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : شُرْبُ الْحَمِيمِ عَلَى الزَّقُّومِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ مَزْجًا مِنْ حَمِيمٍ ، **وَقِيلَ** : يَعْنِي : يُمْزَجُ لَهُمُ الْحَمِيمُ بِصَدِيدٍ وَغَسَّاقٍ مِمَّا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِهِمْ وَعُيُونِهِمْ . ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : ثُمَّ إِنَّ مَرَدَّهُمْ بَعْدَ هَذَا الْفَصْلِ لَإِلَى نَارٍ تَتَأَجَّجُ ، وَجَحِيمٍ تَتَوَقَّدُ ، وَسَعِيرٍ تَتَوَهَّجُ ، فَتَارَةً فِي هَذَا ، وَتَارَةً فِي هَذَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٤] هَكَذَا تَلَا قَتَادَةُ هَذِهِ الْآيَةَ ، **وَهُوَ تَفْسِيرٌ حَسَنٌ قَوِيٌّ** ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللهِ ﷺ عَنْهُ ((ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ ؛ لأَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ ، فَاتَّبَعُوهُمْ فِيهَا بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، **وَلِهَذَا قَالَ** : ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ **قَالَ مُجَاهِدٌ** : شَبِيهَةٌ بِالْهَرْوَلَةِ ، **وَقَالَ سَعِيدُ ابْنُ جُبَيْرٍ** : يُسفهُونَ .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ : أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ فِيهِمْ مُنْذِرِينَ يُنْذِرُونَ بَأْسَ اللهِ وَيُحَذِّرُونَهُمْ سَطْوَتَهُ وَنِقْمَتَهُ ، مِمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ ، وَأَنَّهُمْ تَمَادَوْا عَلَى مُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَأَهْلَكَ الْمُكَذِّبِينَ وَدَمَّرَهُمْ ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ وَنَصَرَهُمْ وَظَفَّرَهُمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ الْأَوَّلِينَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ ، شَرَعَ يُبَيِّنُ ذَلِكَ مُفَصَّلًا فَذَكَرَ نُوحًا عليه السلام وَمَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ ، لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ تَكْذِيبُهُمْ ، وَكُلَّمَا دَعَاهُمْ ازْدَادُوا نُفْرَةً ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَغَضِبَ اللهُ تَعَالَى لِغَضَبِهِ عَلَيْهِمْ ، **وَلِهَذَا قَالَ** عز وجل : ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أَيْ : فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ لَهُ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وَهُوَ التَّكْذِيبُ وَالْأَذَى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ . **روى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** -: لَمْ تَبْقَ إِلَّا ذُرِّيَّةُ نُوحٍ عليه السلام ، **وَعَنْ قَتَادَةَ** فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قَالَ : النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عليه السلام .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ﴾ **قِيلَ** : يُذْكَرُ بِخَيْرٍ ، **وَقِيلَ** : لِسَانُ صِدْقٍ لِلْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ** : أَبْقَى اللهُ عَلَيْهِ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي الْآخِرِينَ . **وَقَالَ الضَّحَّاكُ** : السَّلَامُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ .

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُفَسِّرٌ لِمَا أَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ ، أَنَّهُ يُسَلَّمُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالْأُمَمِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَيْ : هَكَذَا نَجْزِي مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَادِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، نَجْعَلُ لَهُ لِسَانَ صِدْقٍ يُذْكَرُ بِهِ بَعْدَهُ بِحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ فِي ذَلِكَ ، **ثُمَّ قَالَ** : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ : الْمُصَدِّقِينَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُوقِنِينَ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ﴾ أَيْ : أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ ، وَلَا ذِكْرٌ لَهُمْ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ ، وَلَا يُعْرَفُونَ إِلَّا بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْقَبِيحَةِ .

۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ مِنْ أَهْلِ دِينِهِ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَسُنَّتِهِ . ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ **قِيلَ** : يَعْنِي : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . **وَعَنْ عَوْفٍ** : **قُلْتُ لِمُحَمَّدِ ابْنِ سِيرِينَ** : مَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ ؟ قَالَ : يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، **وَقَالَ الْحَسَنُ** : سَلِيمٌ مِنَ الشِّرْكِ . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ ،**وَلِهَذَا قَالَ** ﷻ : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : يَعْنِي : مَا ظَنُّكُمْ أَنَّهُ فَاعِلٌ بِكُمْ إِذَا لَاقَيْتُمُوهُ ، وَقَدْ عَبَدْتُمْ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟!

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إِنَّمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِقَوْمِهِ ذَلِكَ ، لِيُقِيمَ فِي الْبَلَدِ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى عِيدِهِمْ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَزِفَ خُرُوجُهُمْ إِلَى عِيدٍ لَهُمْ فَأَحَبَّ أَنْ يَخْتَلِيَ بِآلِهَتِهِمْ لِيُكَسِّرَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَهِمُوا مِنْهُ أَنَّهُ سَقِيمٌ عَلَى مُقْتَضَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ **قَالَ قَتَادَةُ** : وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِمَنْ تَفَكَّرَ : نَظَرَ فِي النُّجُومِ . يَعْنِي : أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ مُتَفَكِّرًا فِيمَا يُلْهِيهِمْ بِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أَيْ : ضَعِيفٌ ، أَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثِ كَذِبَاتٍ** : **ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ تَعَالَى قَوْلُهُ** : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، **وَقَوْلُهُ** : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، **وَقَوْلُهُ فِي سَارَةَ هِيَ أُخْتِي** »[1] فَلَيْسَ هَذَا مِنْ

(١) إسناده صحيح : أخرجه الطبري وقد تقدم ، وانظر البخاري (٣٣٥٧ ، ٣٣٥٨) ، وقد روى موقوفا أيضا .

بَابِ الْكَذِبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يُذَمُّ فَاعِلُهُ ، حَاشَا وَكَلَّا وَلَمَّا ، إِنَّمَا أُطْلِقَ الْكَذِبُ عَلَى هَذَا تَجَوُّزًا ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَعَارِيضِ فِي الْكَلَامِ لِمَقْصِدٍ شَرْعِيٍّ دِينِيٍّ .

قَالَ سُفْيَانُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ يَعْنِي : طَعِينٌ ، وَكَانُوا يَفِرُّونَ مِنَ الْمَطْعُونِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَخْلُو بِآلِهَتِهِمْ ، **وَكَذَا قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ فَقَالُوا لَهُ وَهُوَ فِي بَيْتِ آلِهَتِهِمْ : اُخْرُجْ ، فَقَالَ : إِنِّي مَطْعُونٌ فَتَرَكُوهُ مَخَافَةَ الطَّاعُونِ ، **وَقَالَ آخَرُونَ** : ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يُسْتَقْبَلُ ، يَعْنِي : مَرَضُ الْمَوْتِ ، **وَقِيلَ** : أَرَادَ ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أَيْ : مَرِيضُ الْقَلْبِ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِ اللهِ ﷻ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى** : ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أَيْ : إِلَى عِيدِهِمْ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ﴾ أَيْ : ذَهَبَ إِلَيْهَا بَعْدَمَا خَرَجُوا فِي سُرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَضَعُوا بَيْنَ أَيْدِيهَا طَعَامًا قُرْبَانًا لِتُبَرِّكَ لَهُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴾ **قَالَ الْفَرَّاءُ** : مَعْنَاهُ مَالَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ، **وَقَالَ قَتَادَةُ وَالْجَوْهَرِيُّ** : فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ، وَإِنَّمَا ضَرَبَهُمْ بِالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ وَأَنْكَى ، وَلِهَذَا تَرَكَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - تَفْسِيرُ ذَلِكَ ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى هَهُنَا** ﴿ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ أَيْ : يُسْرِعُونَ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ هَهُنَا مُخْتَصَرَةٌ وَفِي « **سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ** » مَبْسُوطَةٌ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا مَا عَرَفُوا - مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ - مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى كَشَفُوا وَاسْتَعْلَمُوا ، فَعَرَفُوا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا جَاءُوا لِيُعَاتِبُوهُ أَخَذَ فِي تَأْنِيبِهِمْ وَعَيْبِهِمْ **فَقَالَ** : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أَيْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ مَا أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا وَتَجْعَلُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ ؟!. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ « مَا » مَصْدَرِيَّةٌ ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى « الَّذِي » تَقْدِيرُهُ : وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَالَّذِي تَعْمَلُونَهُ . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَلَازِمٌ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ؛ **لِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ**[1] عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (١١٧) ، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٥٨) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٧) ، وغيرهم .

مَرْفُوعًا قَالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ » . وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ عَدَلُوا إِلَى أَخْذِهِ بِالْيَدِ وَالْقَهْرِ ، فَقَالُوا : ﴿ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ – عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَنَجَّاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَعْلَى حُجَّتَهُ وَنَصَرَهَا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ .

وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ
أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ
وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام إِنَّهُ بَعْدَمَا نَصَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَوْمِهِ وَأَيِسَ مِنْ إِيمَانِهِمْ بَعْدَمَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ ، هَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، وَقَالَ : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يَعْنِي : أَوْلَادًا مُطِيعِينَ يَكُونُونَ عِوَضًا مِنْ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ الَّذِينَ فَارَقَهُمْ ، ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ وَلَدٍ بُشِّرَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، بَلْ فِي نَصِّ كِتَابِهِمْ : أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام وُلِدَ وَلِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام سِتٌّ وَثَمَانُونَ سَنَةً ، وَوُلِدَ إِسْحَاقُ وَعُمْرُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللهَ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ وَحِيدَهُ ، وَفِي نُسْخَةٍ أُخْرَى : بِكْرَهُ ، فَأَقْحَمُوا هَهُنَا كَذِبًا وَبُهْتَانًا « إِسْحَاق » وَلَا يَجُوزُ هَذَا ؛

لأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِنَصِّ كِتَابِهِمْ ، وَإِنَّمَا أَقْحَمُوا « إِسْحَاق » ؛ لأَنَّهُ أَبُوهُمْ ، وَإِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ فَحَسَدُوهُمْ ، فَزَادُوا ذَلِكَ وَحَرَّفُوا « وَحِيدك » بِمَعْنَى : الَّذِي لَيْسَ عِنْدَكَ غَيْرُهُ ، فَإِنَّ إِسْمَاعِيلَ كَانَ ذَهَبَ بِهِ وَبِأُمِّهِ إِلَى مَكَّةَ ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ وَتَحْرِيفٌ بَاطِلٌ ، فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ : وَحِيدُكَ إِلَّا لِمَنْ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهُ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ أَوَّلَ وَلَدٍ لَهُ مَعَزَّةٌ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، فَالْأَمْرُ بِذَبْحِهِ أَبْلَغُ فِي الابْتِلَاءِ وَالاخْتِبَارِ ، وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَ هُوَ إِسْحَاقُ ، وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ ، حَتَّى نُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ ﷺ أَيْضًا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَمَا أَظُنُّ ذَلِكَ تُلُقِّيَ إِلَّا عَنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَأُخِذَ ذَلِكَ مُسَلَّمًا مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ ، وَهَذَا كِتَابُ اللهِ شَاهِدٌ وَمُرْشِدٌ إِلَى أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْبِشَارَةَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ الذَّبِيحُ **ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:** ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ولَمَّا بَشَّرَتِ الْمَلَائِكَةُ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ قَالُوا : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١]أَيْ : يُولَدُ لَهُ فِي حَيَاتِهِمَا وَلَدٌ يُسَمَّى يَعْقُوبُ ، فَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَقِبٌ وَنَسْلٌ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا هُنَاكَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَهُمَا بِأَنَّهُ سَيُعْقِبُ ، وَيَكُونُ لَهُ نَسْلٌ ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِهِ صَغِيرًا ؟! وَإِسْمَاعِيلُ وُصِفَ هَهُنَا بِالْحَلِيمِ ؛ لأَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِهَذَا الْمَقَامِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ أَيْ : كَبِرَ وَتَرَعْرَعَ وَصَارَ يَذْهَبُ مَعَ أَبِيهِ وَيَمْشِي مَعَهُ ، وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ يَذْهَبُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَتَفَقَّدُ وَلَدَهُ وَأُمَّ وَلَدِهِ بِبِلَادِ « فَارَان » وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا ، وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ عَلَى الْبُرَاقِ سَرِيعًا إِلَى هُنَاكَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ :** ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ بِمَعْنَى : شَبَّ وَارْتَحَلَ وَأَطَاقَ مَا يَفْعَلُهُ أَبُوهُ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ، **قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ** : رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ . وَإِنَّمَا أَعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلِكَ ؛ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَلِيَخْتَبِرَ صَبْرَهُ وَجَلَدَهُ وَعَزْمَهُ فِي صِغَرِهِ عَلَى

طَاعَةِ الله تَعَالَى وَطَاعَةِ أَبِيهِ ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ أَيْ : اِمْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللهُ مِنْ ذَبْحِي ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أَيْ : سَأَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ ذَلِكَ عِنْدَ الله ﷻ ، وَصَدَقَ – صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – فِيمَا وَعَدَ ، وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾[مريم : ٥٤-٥٥]

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ أَيْ : فَلَمَّا تَشَهَّدَا وَذَكَرَا اللهَ تَعَالَى ، إِبْرَاهِيمُ عَلَى الذَّبْحِ ، وَالْوَلَدُ عَلَى شَهَادَةِ المَوْتِ ، **وَقِيلَ** : ﴿ أَسۡلَمَا ﴾ اِسْتَسْلَمَا وَانْقَادَا ، إِبْرَاهِيمُ امْتَثَلَ أَمْرَ الله تَعَالَى ، وَإِسْمَاعِيلُ طَاعَةَ الله وَلِأَبِيهِ . **قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ** . وَمَعْنَى : ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ أَيْ : صَرَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ لِيَذْبَحَهُ مِنْ قَفَاهُ ، وَلَا يُشَاهِدُ وَجْهَهُ عِنْدَ ذَبْحِهِ لِيَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ . ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ أَيْ : قَدْ حَصَلَ المَقْصُودُ مِنْ رُؤْيَاكَ بِإِضْجَاعِكَ وَلَدَكَ لِلذَّبْحِ . ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أَيْ : هَكَذَا نَصْرِفُ عَمَّنْ أَطَاعَنَا المَكَارِهَ وَالشَّدَائِدَ ، وَنَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾[الطلاق : ٢-٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ ، **الصَّحِيحُ** الَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ فُدِيَ بِكَبْشٍ . ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَتِ الْبِشَارَةُ بِالذَّبِيحِ – وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ – عُطِفَ بِذِكْرِ الْبِشَارَةِ بِأَخِيهِ إِسْحَاقَ ، وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي سُورَتَيْ ((**هُود**)) ((**وَالْحِجْر**)) قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَبِيّٗا ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ، أَيْ : سَيَصِيرُ مِنْهُ نَبِيٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[هود : ٤٨]

وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ

ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَالنَّجَاةِ بِمَنْ آمَنَ مَعَهُمَا مِنْ قَهْرِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ يَعْتَمِدُ فِي حَقِّهِمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ قَتْلِ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ وَاسْتِعْمَالِهِمْ فِي أَخَسِّ الْأَشْيَاءِ ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَقَرَّ أَعْيُنَهُمْ مِنْهُمْ فَغَلَبُوهُمْ ، وَأَخَذُوا أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَا كَانُوا جَمَعُوهُ طُولَ حَيَاتِهِمْ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى مُوسَى الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ الْمُسْتَبِينَ - وَهُوَ التَّوْرَاةُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴾ [الأنبياء : ٤٨] ، **وَقَالَ هَاهُنَا** : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أَيْ : فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ أَيْ : أَبْقَيْنَا لَهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ذِكْرًا جَمِيلًا وَثَنَاءً حَسَنًا ، **ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى** : ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قِيلَ : إِلْيَاسُ هُوَ إِدْرِيسُ . **وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ** : هُوَ إِلْيَاسُ بْنُ يَاسِينَ بْنِ فِنْحَاصَ ابْنِ الْعَيْزَارِ بْنِ هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ « حِزْقِيلَ » عليه السلام ، وَكَانُوا قَدْ عَبَدُوا صَنَمًا يُقَالُ لَهُ : بَعْلٌ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَنَهَاهُمْ عَنْ

عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ ، وَكَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ مَلِكُهُمْ ثُمَّ ارْتَدَّ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَدَعَا اللهَ عَلَيْهِمْ ، فَحَبَسَ عَنْهُمُ الْقَطْرَ ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ أَنْ يَكْشِفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَوَعَدُوهُ الْإِيمَانَ بِهِ إِنْ هُمْ أَصَابَهُمُ الْمَطَرُ ، فَدَعَا اللهَ تَعَالَى لَهُمْ فَجَاءَهُمُ الْغَيْثُ ، فَاسْتَمَرُّوا عَلَى أَخْبَثِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يَقْبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى يَدَيْهِ الْيَسَعُ بْنُ أَخْطُوبَ عليه السلام فَأُمِرَ إِلْيَاسُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَكَانِ كَذَا وَكَذَا ، فَمَهْمَا جَاءَهُ فَلْيَرْكَبْهُ وَلَا يَهَبْهُ ، فَجَاءَتْهُ فَرَسٌ مِنْ نَارٍ فَرَكِبَ ، وَأَلْبَسَهُ اللهُ تَعَالَى النُّورَ وَكَسَاهُ الرِّيشَ ، وَكَانَ يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ مَلَكًا إِنْسِيًّا سَمَاوِيًّا أَرْضِيًّا . هَكَذَا حَكَاهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهِ .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أَيْ : أَلَا تَخَافُونَ اللهَ عز وجل فِي عِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ ؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ بَعْلًا : يَعْنِي : رَبًّا . **وَقِيلَ** : أَتَعْبُدُونَ صَنَمًا ؟ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أَيْ : هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : لِلْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : الْمُوَحِّدِينَ مِنْهُمْ وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ مُثْبَتٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْأٓخِرِينَ ﴾ أَيْ : ثَنَاءً جَمِيلًا ، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ ، كَمَا يُقَالُ فِي إِسْمَاعِيلَ : إِسْمَاعِينَ ، **وَقِيلَ** : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ يَعْنِي : آل مُحَمَّدٍ ﷺ ، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ[1] .

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ لُوطٍ عليه السلام أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ فَكَذَّبُوهُ ، فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ ، هُوَ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا هَلَكَتْ مَعَ مَنْ هَلَكَ مِنْ قَوْمِهَا ،

---

(١) انظر تفسير الآيتين (٨٠ ، ٨١) ، والآيتين (١١٠ ، ١١١) من هذه السورة الكريمة .

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُقُوبَاتِ ، وَجَعَلَ مَحَلَّتَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُحَيْرَةً مُنْتِنَةً قَبِيحَةَ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ ، وَجَعَلَهَا بِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ، يَمُرُّ بِهَا الْمُسَافِرُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَيْ : أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ كَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ أَمْثَالَهَا ؟.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّةُ يُونُسَ عليه السلام فِي سُورَةِ « **الْأَنْبِيَاء** » ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى** »[1] وَنَسَبَهُ إِلَى أُمِّهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ قِيلَ : « **إِلَى أَبِيهِ** » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ هُوَ الْمُوقَرُ . أَيْ : الْمَمْلُوءُ بِالْأَمْتِعَةِ ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أَيْ : قَارَعَ ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ أَيْ : الْمَغْلُوبِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّفِينَةَ تَلَعَّبَتْ بِهَا الْأَمْوَاجُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَشْرَفُوا عَلَى الْغَرَقِ ، فَسَاهَمُوا عَلَى مَنْ تَقَعُ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ يُلْقَى فِي الْبَحْرِ ؛ لِتَخِفَّ بِهِمُ السَّفِينَةُ ، فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ يُونُسَ عليه السلام ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَهُمْ يَضِنُّونَ بِهِ أَنْ يُلْقَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ لِيُلْقِيَ نَفْسَهُ وَهُمْ يَأْبُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ .

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى حُوتًا مِنَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ أَنْ يَشُقَّ الْبِحَارَ ، وَأَنْ يَلْتَقِمَ يُونُسَ عليه السلام ، فَلَا يُهَشِّمُ لَهُ لَحْمًا وَلَا يَكْسِرُ لَهُ عَظْمًا ، فَجَاءَ ذَلِكَ الْحُوتُ وَأَلْقَى يُونُسُ عليه السلام نَفْسَهُ ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ، وَذَهَبَ بِهِ فَطَافَ بِهِ الْبِحَارَ كُلَّهَا . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ يُونُسُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ حَسِبَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ حَرَّكَ رَأْسَهُ وَرِجْلَيْهِ وَأَطْرَافَهُ فَإِذَا هُوَ حَيٌّ ، فَقَامَ

(١) البخاري (٣٤١٦) ، ومسلم (٢٣٧٧) .

فَصَلَّى فِي بَطْنِ الْحُوتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ **قِيلَ** : لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ فِي الرَّخَاءِ . **وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ** : **يَعْنِي** : الْمُصَلِّينَ ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، **وَقِيلَ الْمُرَادُ** : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ هُوَ قَوْلُهُ ﷻ : ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧-٨٨] ، ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ ﴾ أَيْ : **أَلْقَيْنَاهُ** ﴿ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ **هِيَ الْأَرْضُ** الَّتِي لَيْسَ بِهَا نَبْتٌ وَلَا بِنَاءٌ . ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أَيْ : ضَعِيفُ الْبَدَنِ . ﴿ **وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ** شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ الْيَقْطِينُ : هُوَ الْقَرْعُ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ فِي الْقَرْعِ فَوَائِدَ مِنْهَا : سُرْعَةُ نَبَاتِهِ وَتَظْلِيلُ وَرَقِهِ لِكِبَرِهِ وَنُعُومَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْرَبُهَا الذُّبَابُ ، وَجَوْدَةُ تَغْذِيَةِ ثَمَرِهِ ، وَأَنَّهُ يُؤْكَلُ نِيئًا وَمَطْبُوخًا بِلُبِّهِ وَقِشْرِهِ أَيْضًا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُحِبُّ الدُّبَّاءَ ، وَيَتَتَبَّعُهُ مِنْ حَوَاشِي الصَّحْفَةِ(١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ **قِيلَ** : إِنَّمَا كَانَتْ رِسَالَةُ يُونُسَ ﷺ بَعْدَمَا نَبَذَهُ الْحُوتُ . **وَقِيلَ** : أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِمَهُ الْحُوتُ . **قُلْتُ** : وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا أُمِرَ بِالْعَوْدِ إِلَيْهِمْ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْحُوتِ ، فَصَدَّقُوهُ كُلُّهُمْ وَآمَنُوا بِهِ ، **وَحَكَى الْبَغَوِيُّ** : أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْحُوتِ ، كَانُوا مِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ بَلْ يَزِيدُونَ ﴿ فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ أَيْ : فَآمَنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يُونُسُ ﷺ جَمِيعُهُمْ ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أَيْ : إِلَى وَقْتِ آجَالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ **فَلَوْلَا** كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[يونس : ٩٨]

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ

---

(١) البخاري (حديث ٢٠٩٢) ، ومسلم (حديث ٢٠٤١) .

لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَعْلِهِمْ لله تَعَالَى الْبَنَاتِ - سُبْحَانَهُ - وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ، أَيْ : مِنَ الذُّكُورِ ، أَيْ : يَوَدُّونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْجَيِّدَ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل : ٥٨] أَيْ : يَسُوءُهُ ذَلِكَ وَلَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْبَنِينَ ، يَقُولُ ﷻ فَكَيْفَ نَسَبُوا إِلَى الله تَعَالَى الْقِسْمَ الَّذِي لَا يَخْتَارُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أَيْ : سَلْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ﴿ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢١-٢٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ أَيْ : كَيْفَ حَكَمُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ وَمَا شَاهَدُوا خَلْقَهُمْ ، كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] أَيْ : يُسْأَلُونَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ أَيْ : مِنْ كَذِبِهِمْ ﴿ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أَيْ : صَدَرَ مِنْهُ الْوَلَدُ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْمَلَائِكَةِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْكَذِبِ : فَأَوَّلًا جَعَلُوهُمْ بَنَاتِ الله ، فَجَعَلُوا لله وَلَدًا - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْوَلَدَ أُنْثَى ، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ الله - تَعَالَى وَتَقَدَّسَ - وَكُلٌّ مِنْهَا كَافٍ فِي التَّخْلِيدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ أَيْ : أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ عَنْ أَنْ يَخْتَارَ الْبَنَاتِ دُونَ الْبَنِينَ ؟ كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء : ٤٠] ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أَيْ : مَا لَكُمْ عُقُولٌ تَتَدَبَّرُونَ بِهَا مَا تَقُولُونَ . ﴿ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أَيْ : حُجَّةٌ عَلَى مَا تَقُولُونَهُ ؟ ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيْ : هَاتُوا بُرْهَانًا عَلَى ذَلِكَ ، يَكُونُ مُسْتَنِدًا إِلَى كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنَ السَّمَاءِ عَنِ الله تَعَالَى أَنَّهُ اتَّخَذَ مَا تَقُولُونَهُ ، فَإِنَّ مَا تَقُولُونَهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِنَادُهُ إِلَى عَقْلٍ ، بَلْ لَا يُجَوِّزُهُ الْعَقْلُ بِالْكُلِّيَّةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ **قِيلَ** : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ الله فَسُئِلُوا فَمَنْ أُمَّهَاتُهُنَّ ؟ قَالُوا : بَنَاتُ سَرَوَاتِ الْجِنِّ ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أَيْ : الَّذِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِمْ ذَلِكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أَيْ : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ لَمُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْحِسَابِ ؛ لِكَذِبِهِمْ فِي ذَلِكَ وَافْتِرَائِهِمْ وَقَوْلِهِمُ الْبَاطِلَ بِلَا عِلْمٍ ، ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : **تَعَالَى وَتَقَدَّسَ** وَتَنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، وَعَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الظَّالِمُونَ الْمُلْحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، وَهُوَ مِنْ مُثْبَتٍ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عَائِدًا إِلَى النَّاسِ جَمِيعِهِمْ ، ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، وَهُمُ الْمُتَّبِعُونَ لِلْحَقِّ الْمُنَزَّلِ عَلَى كُلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ أَيْ : إِنَّمَا يَنْقَادُ لِمَقَالَتِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَالْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ مَنْ هُوَ أَضَلُّ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذُرِئَ لِلنَّارِ ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف : ١٧٩] **فَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يَنْقَادُ** لِدِينِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ **إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾**

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات : ٨-٩] أَيْ : إِنَّمَا يُضَلُّ بِهِ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ وَمُبْطِلٌ ، ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُنَزِّهًا لِلْمَلَائِكَةِ مِمَّا نَسَبُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِمْ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُ الله ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أَيْ : لَهُ مَوْضِعٌ مَخْصُوصٌ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَمَقَامَاتُ الْعِبَادَةِ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ أَيْ : نَقِفُ صُفُوفًا فِي الطَّاعَةِ . عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا** ، ... » الْحَدِيثَ[1].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ أَيْ : نَصْطَفُّ فَنُسَبِّحُ الرَّبَّ وَنُمَجِّدُهُ وَنُقَدِّسُهُ وَنُنَزِّهُهُ عَنِ النَّقَائِصِ ، فَنَحْنُ عَبِيدٌ لَهُ فُقَرَاءُ إِلَيْهِ خَاضِعُونَ لَدَيْهِ . **وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ** : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الْمَلَائِكَةُ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ الْمَلَائِكَةُ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ اللهَ ﷻ ، **وَقِيلَ** : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ يَعْنِي : الْمُصَلُّونَ ، يَثْبُتُونَ بِمَكَانِهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ . ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أَيْ : قَدْ كَانُوا يَتَمَنَّوْنَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيهِمْ - يَا مُحَمَّدُ - لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ بِأَمْرِ الله وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْقُرُونِ الْأُولَى ، وَيَأْتِيهِمْ بِكِتَابِ الله ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر : ٤٢] ، **وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا** : ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وَعِيدٌ أَكِيدٌ وَتَهْدِيدٌ شَدِيدٌ عَلَى كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

(١) مسلم (حديث ٥٢٢) .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : تَقَدَّمَ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[المجادلة : ٢١] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[غافر : ٥١] ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ نُصْرَتِهِمْ عَلَى قَوْمِهِمْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ ، كَيْفَ أَهْلَكَ اللهُ الْكَافِرِينَ وَنَجَّى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ . ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ أَيْ : تَكُونَ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ .

وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي : اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ لَكَ ، وَانْتَظِرْ إِلَى وَقْتٍ مُؤَجَّلٍ ، فَإِنَّا سَنَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالنُّصْرَةَ وَالظَّفَرَ ، وَلِهَذَا **قَالَ بَعْضُهُمْ** : غَيَّا ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ بَدْرٍ وَمَا بَعْدَهَا أَيْضًا فِي مَعْنَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ : أَنْظِرْهُمْ وَارْتَقِبْ مَاذَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ عَلَى مُخَالَفَتِكَ وَتَكْذِيبِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ : ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ثُمَّ قَالَ ﷻ : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أَيْ : هُمْ إِنَّمَا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكَ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ ، وَمَعَ هَذَا أَيْضًا كَانُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ وَالْعُقُوبَةَ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : فَإِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِمَحَلَّتِهِمْ فَبِئْسَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُهُمْ ، بِإِهْلَاكِهِمْ وَدَمَارِهِمْ ، **وَقَالَ السُّدِّيُّ** : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ يَعْنِي : بِدَارِهِمْ ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أَيْ : فَبِئْسَ مَا يُصْبِحُونَ ، أَيْ : بِئْسَ الصَّبَاحُ صَبَاحُهُمْ ، **وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ**(١) **عَنْ أَنَسٍ** ﷺ **قَالَ** : صَبَّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِفُؤُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ وَرَأَوا الْجَيْشَ رَجَعُوا ، وَهُمْ يَقُولُونَ : مُحَمَّدٌ وَاللهِ ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((**اللهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**)) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا

(١) البخاري (حديث ٣٧١) ، ومسلم (حديث ١٣٦٥) .

تَقَدَّمَ مِنَ الأَمْرِ بِذَلِكَ .

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

يُنَزِّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفْسَهُ وَيُقَدِّسُهَا وَيُبَرِّئُهَا عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُكَذِّبُونَ الْمُعْتَدُونَ ، تَعَالَى وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا ، **وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ أَيْ : ذِي الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تُرَامُ ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ : عَنْ قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُعْتَدِينَ الْمُفْتَرِينَ ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيْ : سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ فِي رَبِّهِمْ وَصِحَّتِهِ وَحَقِّيَّتِهِ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أَيْ : لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَلَمَّا كَانَ التَّسْبِيحُ يَتَضَمَّنُ التَّنْزِيهَ وَالتَّبْرِئَةَ مِنَ النَّقْصِ بِدَلَالَةِ الْمُطَابَقَةِ ، وَيَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ الْكَمَالِ - كَمَا أَنَّ الْحَمْدَ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ مُطَابَقَةً ، وَيَسْتَلْزِمُ التَّنْزِيهَ مِنَ النَّقْصِ - قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَفِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ : « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ** »[1].

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الصَّافَّاتِ ، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود (٥/ ١٨٢) .

فهرس الموضوعات

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴾	٨١
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .... ﴾	٨٣
تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ ... ﴾	٨٦
تفسير سورة طه	٩٣
إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى لله ﷻ	٩٣
ابتداء الوحي إلى موسى عليه السلام	٩٤
تكليم الله ﷻ لموسى عليه السلام	٩٥
من معجزات موسى عليه السلام العصا واليد	٩٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ... ﴾	١٠٠
إرسال موسى وهارون إلى فرعون وأمرهما باللين معه	١١٢
معية الله ﷻ لموسى وهارون عليهما السلام	١١٣
تواعد موسى عليه السلام وفرعون يوم الزينة	١١٦
تواجه موسى عليه السلام مع سحرة فرعون	١١٧
ظهور موسى عليه السلام على السحرة وسجودهم لله	١١٨
نجاة موسى عليه السلام وبني إسرائيل وهلاك فرعون وقومه	١٢٢
اتخاذ بني إسرائيل العجل وغضب موسى عليهم	١٢٥
أمر السامري وعبادة العجل	١٢٨
النفخ في الصور وحشر المجرمين زرقًا	١٣٠
الشفاعة ولمن تكون	١٣٢
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ... ﴾	١٣٣
خلق آدم عليه السلام وعصيانه بالأكل من الشجرة	١٣٤
الأمر بالصبر والمحافظة على الصلوات	١٣٧
تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ ... ﴾	١٣٨
تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بأية من ربه ... ﴾	١٤٠
تفسير سورة الأنبياء	١٤٢
اقتراب الساعة وغفلة الناس عنها	١٤٢
نزول العذاب على الأمم المكذبة	١٤٥
تفسير قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴾	١٤٧
أساس دعوة الرسل التوحيد	١٤٨

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ١٩٠٠٠٣٨ ٠١٠